مجموعة ج. ر. س. ميد

شظايا إيمان منسي

بقلم جي آر إس ميد

1900

بعض آثار الغنوص في الأعمال غير الكنسية

الغنوص حسب أصدقائه

ترجمة مجموعة الروح، ما في الجنة إلا الله

شظايا إيمان منسي

جورج روبرت ستو ميد

بعض الرسومات القصيرة بين الغنوصيين، خاصة من القرنين الأولين: مساهمة في دراسة الأصول المسيحية بناءً على أحدث المواد المستردة.

جمعية النشر الثيوصوفية: لندن [1900]



ولذلك، افهم النور، أجاب، وكن صديقا معه.
-- هرمس ثلاثي العظمة.

p. v



ملخص المحتويات

p. vi

.p. vii

الصفحة

p. viii

p. ix

الصفحة

.P X'

الصفحة

p. xi

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

480
481
أعلى سر هو أبسطها جميعًا

p. xx

p. xxi

الصفحة

الصفحة

p. xxv

الصفحة

الرسوم التوضيحية

p. xxvii

يرمز إلى ثراء مواهبه. من كتاب ف. كارتاري، صور آلهة القدماء، ليون *1581*.

مائدة القربان عليها سبع سمكات. مصباح خزف مسيحي من 3 قرطاج.

p. xxviii

تنينان يشكلان دائرة، وفي الزوايا الأربع، رموز العناصر الأربعة. من إبراهيم العازار (إبراهيم اليهودي)، *Uraltes chymisches Werk*، لايبزيغ *1760*.

هرمس يستحضر النفس المجنحة من جرة. ليكيثوس جنازة العلية، 121 جينا.

هرمس على رسمة مزهرية يونانية. في مجموعة هاميلتون.155

ميلوسينا. من إبراهيم العازار (إبراهيم اليهودي)، 157 *Uraltes chymisches Werk, Leipzig 1760*.

الأوربوروس كرمز للأيون. من هورابولو، سيليكتا هيروغليفية , *1597*.

التخمير، تمثيل رمزي لاتحاد الأرواح. 451 ردود فعل الأبيات: "لكن هنا الملك سول محبوس بإحكام / ويتدفق عليه عطارد الفلاسفة." من روزاريوم، فرانكفورت *1550*.

التنين المتوج كآكل الذيل. في الزوايا الأربع، علامات العناصر الأربعة .453 من إبراهيم العازار (إبراهيم اليهودي)، *Uraltes chymisches Werk*، لايبزيغ *1760*.

المسيح في هيئة إنسان، واقفاً على الكرة الأرضية، محاطاً بالعناصر الأربعة. 603 من بارثولوميو دي جلانفيل، كتاب خصائص الأشياء لبارثولوميو الإنجليزي، ستراسبورغ 1485.

روح العالم. من *Quinto essentia*، *Thurneisser zum Thurn*، لايبزيغ، *1574*.

الروح الزئبقية للمادية الأولى، على شكل سمندل، 608 يمرح في النار. من مايكل ماير، *Scrutinium chymicum*، فرانكفورت، *1687*.

ملاحظة: هذه الرسوم التوضيحية مأخوذة من طبعة كتب الجامعة لعام 1960. يُعتقد أن جميعها متاحة للعموم. --JBH.

p. xxix

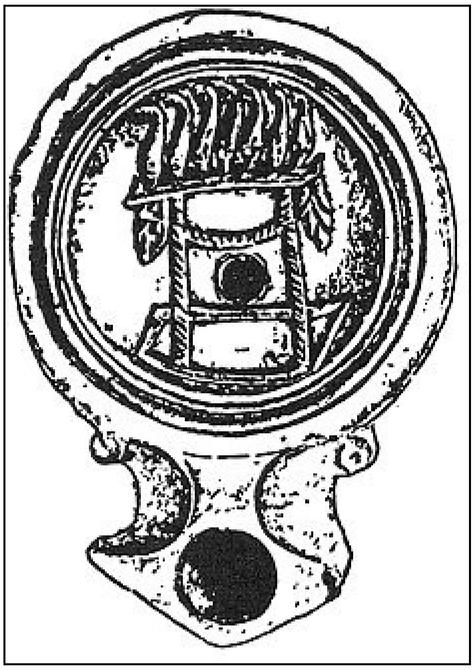


المقدمة

ص. 2

الخليقة كلها تئن وتتمخض معاً في انتظار ظهور أبناء الله.
بولس (وفقًا للتقاليد الغنوصية).

ص.3



تمهيد

الزمن السري ممتلئ مرة أخرى بالطفل ويكافح لإخراج طفله العشرين، كما هو الحال مع عقيدة المسيحية. العالم الغربي يحصي نسله؛ لأنه، وفقًا للكتب، لم يعش ويموت سوى تسعة عشر طفلاً من نسله المعمر منذ ظهوره الذي ينظر إليه جميع المسيحيين على أنه معلم الطريق إلى الله. إن الضمير المشترك للكنيسة العامة لا ينبع فقط من حقيقة أن الجميع يؤمنون بأنه معلم الطريق، بل من الإيمان بأنه هو ذلك الطريق نفسه. هذا هو الرابط المشترك بين المسيحيين في جميع أنحاء العالم، وكان هذا رمزًا لاتحادهم عبر القرون. قبل حوالي ألف وتسعمائة عام ظهر النور وتدفق النور إلى العالم - هذه هي العقيدة الشائعة لأتباع الدين العظيم في العالم الغربي.

وكما ورد في النقوش التكريمية عن عيد ميلاد الإمبراطور الروماني أغسطس، كذلك قال جميع المسيحيين من بعدهم عن يوم ميلاد يسوع:

ص. 4

"لقد منح هذا اليوم الأرض مظهراً جديداً تماماً. كان العالم سيتجه نحو الدمار قبل ألفي عام، لولا أن انبثقت من المولود الآن نعمة عامة.

"يحكم بحق من يدرك في هذا اليوم بداية الحياة وكل قوى الحياة؛ لقد انتهى الآن ذلك الزمن الذي كان فيه الناس يشفقون على أنفسهم لأنهم ولدوا.

"لا يحصل الفرد أو المجتمع على مثل هذه الفائدة من أي يوم آخر كما يحصل عليها من هذا اليوم المبارك، المليء بالبركات للجميع.

"إن العناية الإلهية التي تحكم كل شيء قد ملأت هذا الرجل بمواهب من أجل خلاص العالم تجعله مخلصًا لنا وللأجيال القادمة؛ سيضع حدًا للحروب، ويقيم كل شيء على نحو لائق.

"بظهوره تتحقق آمال أسلافنا؛ فهو لم يتجاوز الأعمال الصالحة السابقة فحسب، بل من المستحيل أن يظهر أحد أعظم منه على الإطلاق.

"لقد جلب ميلاد الله للعالم بشارة سعيدة مرتبطة به. "من يوم ميلاده يبدأ عهد جديد."

هكذا جاء في أكثر النقوش كمالاً التي تم العثور عليها مؤخراً في آسيا الصغرى والتي تم وضعها لإحياء ذكرى إدخال التقويم اليولياني من قبل الإمبراطور أغسطس. يحمل تاريخًا يتوافق مع عام 9 قبل الميلاد (انظر مقال هارناك في العالم المسيحي ، ديسمبر 1899).

سرعان ما تبدد أمل أتباع عبادة الإمبراطور؛ ولا تزال توقعات

ص. 5

العالم المسيحي غير محققة إلى حد كبير، لأن القرون التسعة عشر الماضية قد شاخت في سنوات الأمل الجديد لليوم. من الصراع المرير، والحروب الداخلية والدموية، والاضطهاد والتعصب الديني الذي لا مثيل له في أي فترة أخرى من تاريخ العالم المعروف. هل سيشهد القرن العشرون تحقيق هذا التوقع العظيم؟ وهل يمكن القول عن الوقت الحاضر أن "الطبيعة كلها تلد وتتمخض معًا في انتظار ظهور أبناء الله"؟

هل يستطيع أي شخص يراقب علامات العصر بدقة أن يشك في أنه الآن، في فجر القرن العشرين، بين الأمم المسيحية، تتسارع وتتوسع الطبيعة العامة للفكر والشعور في الأمور الدينية، وكأنها تعاني آلام ولادة جديدة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يشهد القرن العشرون تحقيقاً عاماً للأمل المؤجل منذ زمن طويل من قبل النفوس التي ستولد فيه؟ لم يسبق في العالم الغربي أن كان العقل العام أكثر نضجاً لولادة فهم الأمور الدينية مما هو عليه اليوم؛ ولم تكن الظروف مواتية أكثر من ذلك لانتشار رؤية حكيمة للطبيعة الحقيقية للمسيح والمهمة التي يعمل على تحقيقها في تطور إيمانه العالمي.

ستكون مهمتنا الحالية هي محاولة، وإن كانت غير كاملة، الإشارة إلى بعض الاعتبارات مهمتنا الحالية التي قد تساهم في إعادة الشخصية العظيمة للمعلم الأعظم إلى بيئتها الطبيعية في التاريخ والتقاليد، والكشف عن نقاط الاتصال الوثيقة

ص 6

التي تربط المثل الأعلى الحقيقي للدين المسيحي بالإيمان العالمي الواحد لأكثر النفوس تقدماً في البشرية المشتركة - باختصار، إعادة تعاليم المسيح إلى روحها الحقيقية من العالمية. لن نحاول ولو للحظة واحدة أن نقلل من تبجيل ومحبة أي نفس لتلك النفس العظيمة التي ترعى المسيحية؛ بل ستكون مهمتنا هي الإشارة إلى أرض يمكن أن تزدهر فيها تلك المحبة بوفرة أكبر، وأن تفتح قلبها بثقة أكبر لأشعة الشمس الروحية العقلانية. تلك التربة غنية بما يكفي لنمو الإنسان-النبات بشكل كامل؛ إنها جزء من التربة الأصلية، وتغذي كل فرع من فروع طبيعة الإنسان، العاطفية والأخلاقية، والعقلانية والروحية.

ونحن نؤمن، كما يؤمن كثيرون غيرنا، بأنه لا يوجد إلا دين واحد. الدين للبشرية؛ فالمعتقدات والأديان المتعددة كلها جداول أو جداول صغيرة من هذا النهر العظيم. قد يبدو هذا القول صعباً على البعض، لكن دعونا نتأمل معناه بإيجاز. شمس الحقيقة واحدة. تتدفق أشعته إلى عقول وقلوب البشر؛ بالتأكيد إذا كنا نؤمن بأي شيء على الإطلاق، فإننا نتمسك بهذا الإيمان بأبوة الله! ألا يجب علينا إذن أن نؤمن بأن أبانا المشترك لا يحابي أحداً، وأنه في كل الأوقات وفي كل الأراضي، أحب ويحب وسيحب أبناءه؟ كنا سنكون علماء بليدين حقاً لو لم تعلمنا تعاليم المسيح هذا الأمر على مدى تسعة عشر قرناً. ومع ذلك، كم عدد الذين يصدقون ذلك حقاً؟ إن تاريخ كنائس العالم المسيحي برمته هو سجل لعدم الإيمان بهذه

ص 7

العقيدة الأساسية للدين العالمي، ولم يطارد المسيحية عدو أكبر من العبقرية الشريرة للخصوصية اليهودية، التي لطالما حرضتها على كل موجة من التعصب والاضطهاد. وقد تسربت هذه الروح نفسها إلى الإسلام، ويمكننا تتبع النتائج في الصفحات الدموية لتاريخه.

قد يكون من الممكن أن يكون هذا التخصيص الفج والانفراد في الدين عاملاً ضرورياً نور عقيدتها. في تنمية فئات معينة من النفوس، وأن الحكمة التي ترشد العالم تستخدمه لغرض خير نهائي؛ ولكن ألا يمكن لنا الآن أن ننال نصيباً أكبر من بركة أبينا؟ ألا نرى أنه لا يهم ما إذا كان الإنسان قد تعلم الطريق من تعاليم كريشنا أو بوذا، أو محمد أو زرادشت، أو المسيح، طالما أنه وضع قدمه على ذلك الطريق، فكلهم واحد بالنسبة لأبينا المشترك؟ هو الذي أرسلهم جميعاً وأنارهم، حتى يتمكن الجميع من خلالهم من الحصول على الغذاء الروحي المناسب لاحتياجاتهم. إن الكلمات تعجز حتى عن الإشارة إلى عظمة هذا المفهوم، وإلى تلك النظرة المجيدة إلى حقيقة العناية الإلهية الهائلة التي يكشف عنها هذا المذهب المنير. وإدراك هذا الأمر – لا تصديقه بطريقة مترددة وإنكاره عملياً بمعتقداتنا الأخرى – ما أعظم نمو القلب! في ضوء هذه العقيدة المباركة لجميع منقذي العالم، نطلب من قرائنا أن يتناولوا النظر في أشكال الإيمان العديدة في المسيحية المبكرة والتي سنتناولها في هذه الصفحات. في هذا الضوء

ص 8

غالباً ما تتخذ "الهرطقة" و"الدين الزائف" مظهراً متغيراً لدرجة أنها تبدو جميلة جداً بجانب "الأرثوذكسية" و"الدين الحق" لخصومهم غير المتعاطفين.

لكن فلنحذر من المبالغة ولنسعى جاهدين للوصول إلى الأمور بنسبها الحقيقية، كما ورد في كتاب "علم مقارنة الأديان"، لأنه بهذه الطريقة فقط نستطيع أن ندرك العناية الإلهية الأزلية، الذي يُعيد التوازن دائمًا بواسطة رسله في الوقت المناسب. وقد قال البروفيسور ماكس مولر إنه لا ينبغي لنا أن نتحدث عن علم مقارنة الأديان، بل ينبغي لنا أن نستخدم عبارة علم مقارنة اللاهوت. وهذا ينطبق تماماً على العمل الذي تم إنجازه حتى الآن، وبشكل جيد، من قبل الدراسات الرسمية؛ فقد كان الجهد الرئيسي هو اكتشاف الاختلافات، والمبالغة في تحليل التفاصيل. حتى الآن، لم تكن هناك سوى محاولات قليلة للتركيب، باستثناء دائرة صغيرة من الكتاب.

لكننا لسنا مستعدين للتخلي عن مصطلح علم مقارنة الأديان؛ فنحن نعتقد أن هناك مثل هذا العلم - وهو أنبل فرصة يمكن لأي إنسان أن يضع يده عليها. لكنها واحدة من أصعبها. لا يتطلب الأمر فقط تجربة حميمة للطبيعة البشرية ومعرفة واسعة بالتاريخ، بل يتطلب أيضاً تعاطفاً عميقاً مع آمال ومخاوف الضمير الديني، وقبل كل شيء إيماناً راسخاً بعناية الله الدائمة في جميع شؤون البشر.

لنفترض أنه من الممكن أن يحب الإنسان ويجل جميع المعلمين العظماء المعروفين في التاريخ بعمق وإخلاص كما يجل كل متدين متفرد معلمه الخاص ويحبه؛

ص 9

ولنفترض أنه يستطيع أن يؤمن حقًا بصحة كل دين من الأديان العظيمة بنفس القدر، العالم الحقيقي للدين. وإن لم يكن حصريًا، كما يؤمن أتباع كل دين عظيم بصحة وحيهم الخاص؛ ولنفترض أخيرًا أنه يستطيع أن يشعر بحكمة الإله وهي تعمل بنشاط في كل هذه المظاهر، فما أعظم دينه حينها! ما أعظم إيمانه وقوته حين استند إلى أدلة جميع الكتب المقدسة العالمية ونصائح جميع المعلمين العالميين! إذا اقتنع بحقيقة الولادة الجديدة، فسيشعر بأنه مواطن حقيقي للعالم ووريث مفترض لجميع كنوز الكتب المقدسة. لن يكترث كثيراً بسخرية "الانتقائي" أو "التوفيقي" التي يوجهها إليه محللو المظاهر الخارجية والباحثون عن الاختلاف، لأنه سيكون منغمساً في تيار الحياة الدينية، وسيسعد بتركهم يتفحصون قاعه وقنواته، ويدققون في طين قاعه وتربة ضفافه؛ وأقل ما يلفت انتباهه هو صرخة "الهرطقي" التي يطلقها عليه بعض المتجدفين في بركة على الشاطئ. لكن ليس الأمر أنه سيقلل من شأن التحليل أو يقلل من شأن العقيدة، بل سيكون تحليله من الداخل كما هو من الخارج، وسيجد عقيدته في حياة التيار وليس في شكل الضفاف.

إن الدين الواحد يتدفق في قلوب الرجال، ويصب تيار النور أشعته في تربة الطريقة العادلة للمقارنة. الطبيعة البشرية. وبالتالي فإن تحليل الدين هو تحليل للبشرية جمعاء. لكل دين عظيم تعابير متعددة بقدر تنوع

ص. 10

عقول وقلوب أتباعه. إن تجلي حقيقتها في حياة وأقوال حكيم عظيم يجب أن يختلف اختلافاً كبيراً عن الانعكاس الضعيف لنورها، والذي هو كل ما يمكن أن يعبر عنه العقل البليد والحياة النجسة للجاهل وغير الأخلاقي. صحيح أن نورها وحياتها مجانية للجميع؛ ولكن بما أن هناك درجات من النفوس، وكلها في مراحل مختلفة من التطور، فكيف يمكن للجميع أن يعكسوا ذلك النور بالتساوي؟ كم هو غير حكيم إذن

مقارنة أكثر الآراء استنارة لدى مجموعة من المتدينين بأكثر المعتقدات جهلاً وأكثر الممارسات خرافية لدى مجموعة أخرى! ومع ذلك، فإن هذه هواية مفضلة للغاية لدى أولئك الذين يسعون إلى إرضاء أنفسهم بالاقتناع بأن إيمانهم متفوق على إيمان كل مخلوق آخر. لن تقودنا هذه الطريقة أبداً إلى فهم الدين الحق أو إلى فهم إخواننا في الإنسانية.

حلل أيًا من الأديان العظيمة، وستجد تحليل الدين نفس العوامل المؤثرة، ونفس مشاكل النقص البشري التي يجب دراستها، والكثير ممن "يُدعون" والقليل ممن "يُختارون" - يوجد في كل دين، كما كان الحال دائمًا، "كثير من حاملي الصولجان ولكن قليل من الباكوس". إن مقارنة الباكوس في دين ما بحاملات الثيروس في دين آخر هو محض حماقة. ليس كل الهندوس، على سبيل المثال، عابدين أغبياء للأصنام، وليس كل المسيحيين مقلدين متحمسين للمسيح. إذا قارنا بين الاثنين على الإطلاق، فلنضع عبادة الصور في الكنيسة الرومانية أو عبادة الأيقونات في الكنيسة اليونانية جنبًا إلى جنب مع عبادة براهما ذي الوجوه الأربعة

ص 11

وبقية شخصيات البانثيون؛ ولكن إذا أردنا أن نجد النظير المناسب للحياة المقدسة وأفضل لاهوت في العالم المسيحي، فعلينا أن نذهب إلى أفضل لاهوت وأقدس الناس بين البراهمة.

إذن، إذا قمنا بتحليل دين ما، فسنجد أن أدنى الناس لا يعرفون عنه إلا القليل ويتشبثون بيأس بالعديد من المفاهيم الخاطئة والخرافات، وأنه من هذا التشويه لماهيته الحقيقية، ترتفع درجة تلو الأخرى من الذكاء الأعلى والتعبير الأقل خطأ عنه، حتى نصل إلى تلك الفئة من النفوس التي تسعى بوعي إلى الترحيب بالنور بكل اكتماله وتجعل هذا هو الهدف الوحيد لحياتهم. ضمن هذه الفئة من العقول يجب أن نبحث عن الطبيعة الحقيقية للدين. وهنا نتوقع أن نجد نقاط الاتصال الحقيقية بين الدين والأديان الشقيقة له، وهنا نشعر بوجود الشمس الروحية المجيدة، أصل كل أشعة النور التي تتدفق إلى العالم.

من بين جميع الأديان العظيمة، لا يوجد دين أكثر أهمية لأي دارس بدايات المسيحية. لعلم مقارنة الأديان في الغرب من الإيمان المسيحي. إنها تضغط عليه في كل منعطف؛ إنها مشكلة لا يستطيع الهروب منها. إنه مندهش من الجهل العام بكل ما يتعلق بتاريخها وأصولها. كم هم قليلون هم الذين درسوا هذا الموضوع حقاً، خارج نطاق المجموعة الصغيرة نسبياً من العلماء الذين تتمثل مهنتهم في التعامل مع مثل هذه الأبحاث - وحتى من بينهم، كم هم قليلون هم الذين ألقوا أي ضوء حقيقي على الموضوع، على الرغم من اجتهادهم المثير للإعجاب.

ص 12

في الواقع، من الصعب على أي شخص يمتلك القرنان الأولان الأفكار التي سعينا إلى التعبير عنها أعلاه، والممتلئ بالحماس لوحدة الدين، والمؤمن إيماناً حياً بالطبيعة العالمية الحقيقية لتعاليم المسيح، أن يحصل على مساعدة حقيقية كبيرة من دراسات العقلانيين أو المدافعين عن الدين. لفترة طويلة، يواجه مكتبات مليئة بالكتب التي تحوي آراء متناقضة فيما بينها، ولا تكون ذات قيمة إلا كوسيلة لغربلة المواد لاستخدامها في المستقبل. يكتشف أثناء مواصلة دراساته أن كل تصوراته المسبقة عن العصور القديمة يجب تعديلها بشكل كبير، بل إن معظمها يجب رفضه تمامًا. يشق طريقه تدريجياً إلى نقطة يستطيع من خلالها الحصول على رؤية واضحة لبقايا القرنين الأولين،

وينظر حوله إلى عالم لم يسمع به قط في المدرسة، ولم يُذكر عنه كلمة واحدة من على المنبر.

هل هذا هو عالم الكنيسة البدائية الذي قرأ عنه في الكتيبات المعتمدة والذي أخبره عنه القساوسة والمعلمون؟ هل هذه هي صورة الجماعة الواحدة والبسيطة لأتباع يسوع؟ هل هذه هي العقيدة الواحدة التي تم إيهامه بها والتي تم تناقلها بشكل متواصل وبصيغة واحدة منذ البدايات؟ ينظر حوله إلى عالم ديني يتميز بنشاط هائل، واضطراب فكري واسع النطاق، ومسعى ديني شاق لا مثيل له في تاريخ العالم الغربي. آلاف المدارس والمجتمعات في كل مكان، تسعى وتتنافس، حرية فكر واسعة،

ص 13

، إنه جهد عظيم لعيش الحياة الدينية. يجد هنا نقاط اتصال لا حصر لها مع الأديان الأخرى؛ فهو يتحرك في جو من الحرية لم يسبق له أن اختبره في التقاليد المسيحية. من هم كل هؤلاء الناس - ليسوا صيادين وعبيدًا وفقراء ومعدمين، على الرغم من أن هؤلاء يكافحون أيضًا - بل هؤلاء الرجال ذوو العلم والحياة الزاهدة، القديسون والحكماء بقدر ما هم كثيرون غيرهم ممن أُطلق عليهم هذا الاسم لأسباب أقل بكثير؟ يقول كتاب الكنيسة اللاحقون إنهم جميعاً زنادقة، وقوم ضارون للغاية وأعداء للإيمان الحق الذي أرسيناه الآن من خلال مراسيمنا ومجالسنا.

لكن الطالب يفضل أن ينظر إلى القرنين الأولين بنفسه بدلاً من الاستماع إلى آراء وقرارات أولئك الذين أتوا بعد ذلك، والذين، لكونهم أبعد عن الأصول، لا يمكن توقع أن يعرفوا عنها أكثر من أولئك الذين لعنوهم بعد وفاتهم.

ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من بذل هذا القدر الكبير من البحث الدقيق والمضني في مشكلة أصول المسيحية من خلال تحليل الوثائق القانونية، إلا أنه لم يُولَ اهتمام نقدي يُذكر لكتابات هؤلاء "الزنادقة"، على الرغم من أنه يمكن من خلالها إلقاء ضوء كبير على العديد من المشكلات الغامضة المرتبطة بتاريخ البدايات؛ ولم يتم الاعتراف بفائدة أدلتهم إلا في السنوات الأخيرة نسبياً، ولم تُبذل محاولات لتقديمها إلى المحكمة. لقد وصم "الصوت العام" للكنيسة الكاثوليكية منذ صعودها هؤلاء "الزنادقة" بأنهم "أبناء الشيطان البكر"،

صفحة 14

وقد اعتقد المؤمنون دون أدنى شك أن هذا الصوت كان "بإلهام من الروح القدس". لكن بالنسبة للبروتستانتية على الأقل، لم تعد هذه الآراء الفجة قادرة على إرضاء العقل الليبرالي في الأمور الدينية في بداية القرن العشرين.

على مدى أكثر من مائة عام، شهدت المسيحية الليبرالية جهوداً مضنية "النقد الأعلى". وشجاعة لإنقاذ الكتاب المقدس من أيدي الجهل والظلامية التي حطت من شأنه في نواحٍ عديدة إلى مستوى صنم أدبي وحرمته من نور العقل. إن سياسة التعتيم هذه هي في الحقيقة سياسة يأس، وانعدام ثقة في الوجود الحي والمستمر للإلهام في الكنيسة، وهو اعتراف ضمني بأن الإلهام قد توقف في طفولة الإيمان.

كما هو معروف جيداً، فإن عقيدة الإلهام اللفظي والحرفي من الروح القدس، بالمعنى الكامل للمصطلحات، لكل وثيقة قانونية لم تكن مقبولة عالمياً إلا مؤخراً، ولا تزال مقبولة لدى غالبية المسيحيين حتى اليوم. تُصاغ الرسالة البابوية الشهيرة لليو
الثالث عشر ("الله الأعظم " 1893) عقيدة المسيحية الكاثوليكية الرومانية في النصيحة اليائسة التالية:

"من الخطأ والمحرم تمامًا "النقد الأعلى". حصر الإلهام في أجزاء معينة فقط من الكتاب المقدس، أو الاعتراف بأن الكاتب المقدس قد أخطأ." أما نظام أولئك الذين، للتخلص من هذه الصعوبات، لا يترددون في التسليم بأن الوحي الإلهي يتعلق بأمور الإيمان والأخلاق فقط، ولا شيء غير ذلك، لأنهم (كما يظنون خطأ) في

مسألة صحة أو زيف نص ما، ينبغي ألا ننظر إلى ما قاله الله بقدر ما ننظر إلى السبب والغاية التي قصدها من قوله ـ فهذا النظام لا يمكن التسامح معه، لأن جميع الكتب التي تقبلها الكنيسة على أنها مقدسة وقانونية كُتبت بالكامل، بكل أجزائها، بإملاء من الروح القدس؛ ومن المستحيل بأي حال من الأحوال أن يتعايش أي خطأ مع الوحي، فالوحي ليس فقط غير متوافق جوهرياً مع الخطأ، بل يستبعده ويرفضه رفضاً قاطعاً وحتمياً، كما يستحيل أن ينطق الله نفسه، الحق المطلق، بما ليس صحيحاً. هذا هو الإيمان القديم والثابت للكنيسة، الذي تم تحديده رسمياً في مجمعي فلورنسا وترينت، وتم تأكيده أخيراً وصياغته بشكل أكثر وضوحاً من قبل مجمع الفاتيكان. وبالتالي،
ولأن الروح القدس استخدم البشر كأدوات له، فلا يمكننا بالتالي أن نقول إن هذه الأدوات المُلهمة هي التي وقعت في الخطأ، وليس المؤلف الأساسي. لأنه، بقوة خارقة للطبيعة، حركهم ودفعهم للكتابة ـ كان حاضراً معهم ـ لدرجة أنهم فهموا أولاً الأشياء التي أمر بها، وتلك الأشياء فقط، فهماً صحيحاً، ثم أرادوا أن يكتبوها بأمانة، وأخيراً عبروا عنها بكلمات مناسبة وبحقيقة لا تشوبها شائبة. وإلا لما أمكن القول بأنه مؤلف الكتاب المقدس بأكمله. لطالما كان هذا هو اعتقاد الآباء. ويترتب على ذلك
أن أولئك الذين يصرون على إمكانية وجود خطأ في أي نص أصيل من الكتابات المقدسة، إما أنهم يحرفون المفهوم الكاثوليكي

للإلهام، أو يجعلون الله هو مصدر هذا الخطأ."

إن هذه الرسالة البابوية ليست مجرد أثر أدبي غريب من العصور الوسطى؛ بل هي الصوت الأكثر رسمية وسلطة لرئيس أكبر وأقوى كنيسة في العالم المسيحي، وهي ملزمة لجميع المؤمنين، وتم بثها في نهاية القرن التاسع عشر، والتي تفاخرنا فيها بأننا أفضل بكثير من آبائنا.

من الواضح تماماً أن مثل هذا التصريح لا مفر منه من قبل نتيجتها المباشرة.رئيس كنيسة تنازلت في التزامها بعقيدة العصمة، والتي تعتمد حياتها على الحفاظ على سلطتها التي لا جدال فيها. لكن النتيجة هي أنه من أجل التوفيق بين هذه العقيدة والعقل، يتعين على علماءها اللجوء إلى أسلوب جدلي مثير للاشمئزاز للغاية بالنسبة لأولئك الذين نشأوا في بيئة البحث العلمي الحرة، والذي يجعل كتابات النقاد الكاثوليك الرومان عرضة لتهمة عدم الإخلاص. ومع ذلك، لسنا بحاجة بالضرورة إلى الشك في صدقهم، ففي مجال الدين، الظاهرة الأكثر شيوعاً

هي أن الإيمان يتعارض مع العقل؛ لذلك، كطلاب للحياة، نراقب باهتمام بالغ هذه المأساة المتمثلة في صراع العقل البشري في قيود سلطة مفروضة ذاتياً، وكأشخاص مؤمنين بالعناية الإلهية، لدينا ثقة بأن القوة المتولدة بهذه الطريقة ستستخدم في النهاية للخير، على الرغم من أنها تبدو في الوقت الحالي لكثير منا شراً محضاً.

هذا جانب واحد من الصورة، وهو في الواقع

الصفحة 17

جانب مثير للاهتمام بالنسبة لدارس الطبيعة البشرية. لا شك أن ملايين عديدة لا تزال تؤمن قوة رد الفعل. إيماناً راسخاً بما أمرهم به البابا، ومع اختلاف طفيف في المحتوى والطبعة، فإن ملايين البروتستانت، الذين يرفضون سلطة البابا بعيداً عنهم، يؤمنون إيماناً أعمى بهذا الرأي في الوحي، بل إنهم أكثر تمسكاً بالكتب المقدسة من إخوانهم الكاثوليك. يبدو أن هذه القوة المحافظة والرجعية لا تزال ضرورية؛ إنها الضغط الذي يصر على مزيد من الدقة والشمولية من أولئك الذين يمهدون الطريق لقبول عقيدة حية للإلهام، لتحل محل ما يبدو لعدد متزايد باستمرار أنه بقايا عقيدة جامدة. نعتقد أن هذه النزعة المحافظة لن تشكل شراً للمسيحية على المدى البعيد، لأنها في جوهرها نابعة من إيمان - وإن كان إيماناً أعمى - بحقيقة الوحي، وبجلال "الأشياء غير المرئية"، وهو إيمان يرفض أن يشغل مكانه الإيجابي في قلب الإنسان ما يبدو له في الوقت الحاضر نفياً لأعز قناعاته. لكن لو فتح هؤلاء المؤمنون أعين فهمهم، لرأوا أن النفوس المشغولة التي تزيل غشاوة قرون من سوء الفهم، ممتلئة بإيمان حي مثل إيمانهم، ومن خلال تفانيهم في الحقيقة يقومون بعمل الله في تمهيد الطريق لتحقيق أكمل لحكمته الأبدية وفهم أعمق للطبيعة البشرية. صحيح أن هذه النفوس النشطة، من أجل تحقيق هذه المهمة، تمتلئ بحماس للنقد ربما يكون مبالغًا فيه، ولكنه مع ذلك هو النير الضروري

ص 18

رفيق النير للمحافظة العمياء. إن ابن هذين الاثنين هو الذي سيجلب النور.

فإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من الصورة، سنجد العقل العلمي قوة التقدم. المتمرس والمتفحص لكل كلمة وحرف من الكتاب المقدس لاختبار مزاعم الإيمان الأعمى. لقد حطمت النظرية النصية أو النظرية الأدنى إلى الأبد ادعاء مجمع ترينت بتسوية مسألة "النص المقبول". لقد ثبت أن النص المتداول قد عانى في تقاليده من مصائب كثيرة على أيدي الكتبة الجاهلين والمحررين المتعصبين لدرجة أن العقل البشري يقف مذهولاً أمام هذا المشهد. يتساءل النص: هل من الممكن أن تؤمن أي نفس تمتلك هبة الله العظيمة للعقل بالإلهام الحرفي لمثل هذه المجموعة من التغييرات المتغيرة للكلمات؟

ربما كان من الخطأ تسمية هذا النوع من الأبحاث بالنقد، لأن الشخص طبيعة النقد. العادي ينظر إلى المصطلح على أنه ينطوي على شيء عدائي ومعادي؛ ومع ذلك، فإن المعنى الأصلي للكلمة لم يكن يحمل مثل هذه الفكرة، بل كان ببساطة يعني الفحص والحكم بشكل جيد. لكن الحكيم لن ينزعج من مصطلح؛ بل سينظر إلى الشيء نفسه، وبعيدًا عن إيجاد أي شيء

غير لائق في فن رائع مثل النقد النصي، سيعتبره وسيلة فعالة للغاية لإزالة الخطأ البشري.

لكن النقد لا ينتهي عند دراسة النص؛ بل ينتقل إلى فرع أعلى ويهتم بالبحث في تاريخ وكتابات الكتب المقدسة، وتحليل ومقارنة محتوياتها المختلفة، وعلاقاتها بالكتابات الأخرى؛

ص 19

باختصار، إنه يستعرض مجال الأدب الكتابي بأكمله من حيث المحتويات في جميع أجزائه. إن نتائج هذا التحقيق مذهلة للغاية، لدرجة أننا نشعر وكأننا ندخل أرضاً دينية جديدة. لكن قبل أن ندخل المياه المضاءة بنور الشمس لميناء هذا البلد الجديد، يجب أن نكون قد خضنا معارك عديدة لن تنجو منها سفينة إيمان أعمى؛ السفينة الوحيدة التي يمكنها النجاة منها هي سفينة الإيمان العقلاني.

باختصار، إن أسلوب النقد عقلاني، وهو أسلوب الحكم الشخصي؛ مع أنني أشك في وجود أي فئة من الرجال سعت بجدية أكبر للحصول على المساعدة والتوجيه في مهمتهم من النقاد العظماء للمسيحية. إن هذه الحقيقة، أي القيمة الأخلاقية العالية لنقادنا وشعورهم الديني العميق، هي التي تجعل عملهم قيماً للغاية. إنها أفضل جماعة في العالم المسيحي تنتقد نفسها - وليست مجموعة من الأعداء في الخارج يحاولون استغلال إحراجها. إن الدين الذي يستطيع أتباعه فعل ذلك، هو دين حي، وطالما أن هذه الروح موجودة، فلا يمكن أن يموت. إن هذه الروح هي إلهام من الروح القدس بقدر ما هي قناعة الإيمان الأعمى "أعتقد أن هذا أمر سخيف." بالتقاليد الرومانية للإلهام اللفظي.

لكن لا يجب أن نفترض أن النقد غاية في حد ذاته؛ إنه مجرد وسيلة نحو تعريف جديد للمشاكل الأزلية للدين - النتيجة. وسيلة فعالة للغاية بالفعل، لأن هذه المشاكل يمكن الآن تعريفها بذكاء ومعرفة بالطبيعة البشرية مما يزيد من أهميتها بشكل لا نهائي، ويتطلب حلها أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى؛ لكن النقد لا يستطيع حلها،

ص 20

فحلها يعتمد على ملكة أعلى، ملكة تتجاوز علم الأشياء المرئية إلى غنوص الأشياء غير المرئية. هذا هو الطفل الذي سيولد من اجتماع القوتين العظيمتين للتقدم والرجعية اللتين كنا نتحدث عنهما.

فمع التسليم بأن الكتاب المقدس عبارة عن مكتبة كتب تتألف في معظمها من قصاصات وثائق أخرى، تعود إلى تواريخ مختلفة للغاية، خضعت للتحرير وإعادة التحرير؛ وأن المخطوطات القديمة من الجزء اليهودي تستمد إلى حد كبير من أساطير الأمم الأخرى وتزييف التاريخ إلى حد لا يصدق؛ وأنها في أقدم مخطوطاتها زاخرة بالعقائد غير الأخلاقية والمغالطات الواضحة، وترسم صورة إله تثير اشمئزاز كل عقل مفكر؛ وأن المخطوطات الأحدث من الأسفار العبرية، على الرغم من أنها تنبض بروح أسمى بكثير، لا تزال عرضة للعديد من الاعتراضات؛ وأن كتب الجزء المسيحي موضع تساؤل مماثل في نقاط عديدة؛ - ومع ذلك، لا يزال هناك الكثير من الجمال والمفهوم السامي في تعاليم الكتاب المقدس، وقد اعتُبر لقرون عديدة وسيلة وحي الله للإنسان، مما يجعل مشكلة الوحي، بدلاً من أن تتضاءل بسبب هذه الحقائق، أكثر إلحاحاً لإيجاد حل لها.

ما طبيعة هذه الملكة العليا التي تتجاوز العقل؟ ولماذا تشوب سجلات نشاطها عيوب وتناقضات يمكن للعقل أن يكتشفها بوضوح؟

هذا ما لا يستطيع العالم بوصفه عالماً، أو الباحث بوصفه باحثاً، شرحه بالكامل. وبالمثل، لا يستطيع المتصوف، بصفته متصوفًا، إلقاء الضوء الكامل على المشكلة.

ص 21

المطلوب هو الطبيعة المولودة من اتحاد الاثنين - وهي طبيعة يصعب العثور عليها لدرجة أنه يمكن القول إنها غير موجودة تقريبًا. لن يخضع المتصوف لانضباط وتدريب العلم؛ ويرفض العالم إضفاء أي مصداقية على أساليب المتصوف. ومع ذلك، فبدون اتحاد الاثنين لا يمكن أن يولد طفل الفهم.

على مدى ثلاثمائة عام تقريباً، كان العالم الغربي يطور أداة رائعة قبل تسعة عشر قرناً والآن. للبحث الطبيعي، ومستوى دقيق من العقل المدرب على ما نسميه المنهج العلمي؛ وقد طور في هذه الأداة العديد من الحواس الجديدة، وأهمها الإحساس بالتاريخ. إن فتوحاتها رائعة لدرجة أن الناس يميلون إلى الاعتقاد بأنه لم يحدث مثل هذا من قبل؛ فنحن نستهزئ بالماضي، وننفد صبرنا من أساليبه، ولا نتعاطف مع أفكاره، ونادراً ما نستفيد من الدروس التي يمكن أن يعلمها. وكما كان الحال دائماً مع الأمم في أوج قوتها، نعتقد أننا "نحن الشعب، والحكمة ستموت معنا". كل هذا طبيعي تماماً بل وضروري للتطور السليم لهذه الأداة الفكرية الحادة، وهذا المستوى من العقل الذي نفخر به جميعاً. لكن دارس الطبيعة البشرية وعالم علم الحياة يظل ينظر إلى الماضي لكي يتمكن من التنبؤ بالمستقبل بشكل أفضل؛ فإحساسه بالتاريخ يتجاوز نطاق "النقد الأعلى" ويسعى جاهداً ليصبح مستبصراً.

لقد مرّ علينا نحو ثلاثمائة عام من

ص 22

الفهرسة والنقد والتحليل والتشكيك، ومن البحوث الفيزيائية الأكثر تألقاً في جميع المجالات؛ وقد خشي المتدينون من سقوط الدين، وتتوق الوضعيون إلى زوال الخرافات. ماذا يعني كل هذا؟ ما الغاية من هذا الفرز؟ كيف يجسد هذا الصراع حكمة الله وعنايته؟

ربما لا يكون الأمر صعباً كما يبدو للوهلة الأولى، أن نشير إلى الاتجاه الذي يمكن من خلاله توقع الإجابات على هذه الأسئلة إلى حد ما. إن تكرار الظواهر المماثلة في العالم الطبيعي هو التجربة الثابتة للبشرية؛ وأن الزمن هو الصورة المتحركة للأبدية، وأن عجلة التكوين تدور باستمرار، يشهد على ذلك عقول البشر الأكثر حكمة. إذن، أين ينبغي لنا أن نبحث في تاريخ الشؤون الإنسانية عن ظواهر مماثلة لأحداث هذه القرون الثلاثة الماضية؟ أين يوجد مصدر أكثر يقيناً من تاريخ العصر الذي شهد ميلاد ديانة المسيح؟ لقد تم بالفعل رسم العديد من أوجه التشابه اللافتة للنظر بين الجوانب الاجتماعية والدينية لحضارة تلك الحقبة الحرجة وعصرنا الحالي من قبل عدد قليل من الكتاب، ولكن لم يتم إيلاء أي اهتمام عام لمساعيهم، والأهم من ذلك لم يتم استخلاص أي درس عملي من مراجعة تجربة الماضي هذه. إن تجربة الإنسانية هي تجربتنا الخاصة، إذا كان لدينا فقط الذكاء الكافي لفهمها.

إن نفس الإنسان تعود مراراً وتكراراً لتتعلم دروس الحياة في هذه المدرسة العالمية العظيمة،

الصفحة 23

وفقاً لإحدى العقائد العظيمة للدين العام. إذا كان الأمر كذلك، فإنه يترتب على ذلك أنه عندما تتكرر عودة النفوس. ظروف مماثلة، تعود فئة مماثلة من النفوس لمواصلة دروسها من التجربة. بل قد يكون من المحتمل أن العديد من النفوس المتطابقة التي تجسدت في القرون الأولى للمسيحية لا تزال تواصل تجربتها بيننا اليوم. وإلا فلماذا تتكرر نفس الأفكار، ولماذا تنشأ نفس المشاكل، ونفس طرق النظر إلى الأشياء؟ لا يمكن أن يتسللوا إلى وسطنا من "الأبدية" الخارج؛ ألا يجب أن يكونوا قد عادوا إلينا من عقولٍ كانت مألوفة لديهم بالفعل؟

من غير الحكمة بالطبع أن نجعل أيًا من أوجه التشابه بيننا شروط المقارنة. متطابقًا تمامًا؛ يجب أن نضع في اعتبارنا أنه على الرغم من أن العديد من الظروف متشابهة بشكل لافت للنظر، إلا أن بعض العوامل البارزة في حضارة العالم اليوناني الروماني لا تظهر إلا بشكل خافت جدًا في حضارتنا الحالية، في حين أن بعض السمات البارزة في عصرنا لا يمكن تتبعها بشكل كامل في ذلك العصر.

يجب علينا أيضًا أن نتذكر أن سجلات ذلك الوقت غالبًا ما تكون غير كاملة للغاية، في حين أن تاريخنا مكتوب بتفاصيل مؤلمة؛ وأنه على الرغم من أنه يمكننا استعراض الخطوط العريضة الرئيسية لتلك المرحلة من الحضارة بأكملها، إلا أننا لا نستطيع إلا استعراض جزء من تاريخنا، لأن دورتها لم تنته بعد وسجلات المستقبل ليست متاحة لفهمنا بعد.

وأخيراً، يجب أن نتذكر أن الجودة العامة للحياة والنسيج العقلي لعصرنا الحالي

ص 24

هي عموماً أكثر دقة مما كانت عليه قبل ألف وتسعمائة عام - لأن البشرية تتطور.

يجب أخذ كل هذه الاعتبارات في الحسبان إذا أردنا استشراف المستقبل من خلال دراسة تاريخ الماضي. لكن في الواقع، لا يتطلب الأمر جهداً كبيراً من الخيال حتى بالنسبة لأكثر دارسي التاريخ سطحية ليرى تشابهاً ملحوظاً بين الاضطرابات العامة والبحث عن مثال جديد الذي ميز فترة التطور الفكري الرائع التي سبقت ميلاد المسيحية، وعدم اليقين والفضول الشديد للعقل العام في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

إن هذا التوجه هو نفسه من حيث النوع وإن لم يكن من حيث الحاضر المكثف. الدرجة؛ إن إنجازات علماء وباحثي الإسكندرية (على سبيل المثال لا الحصر) خلال الثلاثمائة عام التي سبقت العصر المسيحي، قد تجاوزتها إلى حد كبير فتوحات خلفائهم في عصرنا. أصبحت الحياة اليوم أكثر كثافة، والفكر أكثر نشاطاً، والتجربة أوسع، والحاجة إلى حل المشكلة أكثر إلحاحاً. لقد وُلد العقل الحديث في اليونان قبل حوالي ألفين وخمسمائة عام، وتطور من خلال اتصال وثيق بالشرق القديم، وهو اتصال أصبح ممكناً مادياً بفضل "غزو العالم" للإسكندر، ولاحقاً بفضل العبقرية التنظيمية لروما.

لكن اليوم، لم تكن فتوحات الإسكندر أو قوة روما هي التي بنت طرق التواصل بين الأمم؛ بل كانت فتوحات العلوم الفيزيائية هي التي وحدت في الحقيقة

أطراف الأرض، وبنت نظامًا شريانيًا وعصبيًا لأمنا المشتركة الغرب والشرق. لم تكن تمتلكه من قبل. لم يعد الأمر يتعلق بالعقل التأملي لليونان والعبقرية العملية لروما التي تلتقي معًا، ولا حتى بعقل الغرب المنعزل آنذاك الذي يلتقي بحماس وتصوف الشرق آنذاك؛ بل هو التقاء المياه العظيمة، والفكر المتطور والملاحظة الدؤوبة للعالم الغربي بأكمله اليوم الذي يلتقي بالتيار البطيء القديم للشرق القديم والحديث.

لقد أدى الزخم الكبير الذي حظيت به دراسة اللغات والألسنة الشرقية التي اندثرت منذ زمن طويل التوفيق بين العلم واللاهوت. خلال المائة عام الماضية، إلى بدء علم مقارن للأدب القديم - الكتب المقدسة العالمية - وللدين، وهو علم يعمل ببطء ولكن بثبات على تعديل جميع تصوراتنا المسبقة. اليوم ليس فَرفوريوس هو من يدحض صحة سفر دانيال أو مرقيون هو من يُحدث فوضى فيما أصبح فيما بعد قانون العهد الجديد، بل إن "النقد الأعلى" هو الذي وجه الضربة القاضية لعبادة الكتاب المقدس غير المنطقية. لقد أدى الصراع بين الدين (أو اللاهوت إن شئت) والعلم إلى ظهور جيل يتوق إلى المصالحة ويبحث عنها. ستأتي تلك المصالحة؛ وستتعانق السماء والأرض مرة أخرى. لقد أتت في الماضي لأولئك الذين كانوا يبحثون عنها، وستأتي لأولئك الذين يسعون إليها اليوم. إذا سعى قلب الإنسان إلى النور، فسوف يفيض النور عليه. كان ذلك قبل ألف وتسعمائة

عام؛ سعى البشر إلى النور، وجاء النور استجابة لصلواتهم. وإذا كان هذا الرأي قد يبدو غريباً في البداية لأولئك الذين تعلموا اعتبار الوضع قبل مجيء المسيح فساداً محضاً، فإن قراءة هذه الصفحات قد تقودهم ربما إلى رؤية أكثر منطقية للظروف التي استدعت مجيء نفس عظيمة كهذه لمساعدة البشرية.

استقبل البشر النور بما يتناسب مع قدرتهم على فهمه، وانسكبت الحياة فيهم بقدر ما كانت طبيعتهم قادرة على التوسع. وإذا كان التاريخ اللاحق لتلك الحقبة، عندما خيمت سحابة الجهل والتعصب المظلمة على العالم المسيحي لقرون عديدة، يجعل الأمر يبدو كما لو أن الحياة قد أُهدرت عبثاً، وأن النور قد أشرق بلا هدف، فعلينا أن نتذكر أنها أُفيضت على النفوس وليس على الأجساد؛ وأن مسار النفوس الفردية لا يمكن تتبعه في تطور الأجساد العرقية. كانت النفوس التي تجسدت في حضارة اليونان وروما، والتي كانت قادرة على استقبال النور، مختلفة تماماً عن النفوس التي تجسدت في جحافل البرابرة التي دمرت تلك الحضارة، والتي كان من المفترض أن تتطور منها الأجناس الجديدة. كان من المقرر أن تختفي الأجناس القديمة التي وفرت الظروف لتجربة النفوس الأكثر تقدماً تدريجياً، وأن تتطور أجناس جديدة، والتي لم تستطع في طفولتها توفير الظروف اللازمة لتجسد مثل هذه العقول الدقيقة، ولكنها في مرحلة

الرجولة ستجذب إليها ربما نفوساً أعلى. بالطبع لم يحدث هذا فجأة، بل كان الأمر تدريجيًا للغاية، وكان هناك تداخل كبير بين الأجناس، حيث تم استبدال الوحدات والذرات القديمة ببطء بوحدات وذرات جديدة.

لكن كيف يُتوقع أن يفهم الوندال والقوط المشاكل العظيمة التي ميلاد الأجناس وموتها. أسعدت عقول فلاسفة ومتصوفي اليونان وروما؟ وعلاوة على ذلك، ألا يجب أن يكون كل ذلك قد تم التنبؤ به وتوفيره من قبل الحكمة التي ترعى شؤون البشر؟

تولد الأعراق والأمم وتموت، كما يولد الرجال ويموتون؛ وقد تدوم طويلاً أو قصيرة، وقد تكون جيدة أو سيئة أو محايدة. لكن مهما كانت سماتهم وخصائصهم مقارنة بالأعراق الأخرى، فإن فترة طفولتهم المبكرة هي فترة الطفولة، وفترة منتصف العمر هي فترة الرجولة، وفترة الشيخوخة المتأخرة هي فترة الشيخوخة.

ويترتب على ذلك أنه كقاعدة عامة، فإن فئة النفوس التي تسعى إلى اكتساب الخبرة فيها في طفولتها، ليست هي نفسها فئة النفوس التي تتجسد فيها في منتصف عمرها، أو في شيخوختها. بالطبع هناك العديد من الاستثناءات الفردية، لأن ما سبق ليس سوى الخطوط العريضة لعناصر المشكلة؛ فالتفاصيل معقدة للغاية، والتباديل والتركيبات لا حصر لها، بحيث لا يمكن لأي عقل أن يستوعبها بالكامل.

علاوة على ذلك، تتداخل الأعراق والأمم وتختلط، وتتلاشى أصولها واختفاؤها في أمم وأعراق أخرى، بحيث لا يجب المبالغة في تشبيه

ص 28

حياتهم بحياة البشر. من الصعب جداً تحديد لحظة الميلاد ولحظة الموت في حالة العرق، ولا يمكن تحديد الفترة الجنينية ومراحل التفكك بشكل واضح. ومع ذلك، يمكننا تتبع اللحظات الرئيسية لتطورهم وإدراك الاختلافات في فتراتهم العمرية الرئيسية.

لقد مر عالمنا الغربي، وهو مركبة العقل رجولة العالم الغربي. الحديث، بفترة طفولته؛ فقد ولد من رحم الحضارة اليونانية والرومانية، وكانت طفولته الصاخبة فترة طبيعية من الجهل والعاطفة. ستمكننا هذه الاعتبارات من فهم أفضل للمشهد المحزن للعصور المظلمة والوسطى في أوروبا؛ فقد كانت هذه المراحل مصاحبة طبيعية للطفولة، وتلتها التطورات الفكرية للشباب وبداية الرجولة. يبدو أن العالم الغربي قد بلغ مرحلة النضج للتو، ونأمل في المستقبل أن يفكر ويتصرف كرجل ويتخلى عن الأمور الطفولية.

إن المشاكل التي ستشغل في المستقبل انتباه ذكائها المتطور قد تم التنبؤ بها في رحم أمها، وستكون مهمتنا الأكثر إلحاحًا هي التعامل مع بعض ملامح هذا التنبؤ.

ص 29



بعض الخطوط العريضة التقريبية لخلفية الغنوص

اعتبارات أولية

يمكن القول إن القصة المألوفة لأصول المسيحية، التي ارتشفناها جميعاً كما لو كانت مع أعظم قصة في العالم. حليب أمهاتنا، تكاد تكون جزءاً من وعي العالم الغربي. إنها متداخلة مع ذكرياتنا الأولى؛ لقد طُبعت على وعينا الطفولي بجلالة قمعت كل تساؤل؛ لقد أصبحت "الشيء الذي اعتدنا عليه". إنها تمتلك إلى جانبها تلك القوة الهائلة للجمود، وقوة قصور ذاتي،قصور ذاتي التي لا يملك سوى القليل القدرة على مقاومتها. But once let the ordinary man desire to know more about the greatest story in the world, as all its tellers assert, and he must begin the struggle. لقد تم إيهامه سابقاً ليس فقط بأن القصة فريدة من نوعها تماماً، بل بأنها خارقة للطبيعة تماماً. باختصار، إذا قام بتحليل فهمه الخاص للقصة، فإنه يجدها منفصلة تماماً عن كل بيئة تاريخية، شيء

ص 30

قائم بذاته، يقف وحيداً، في عزلة غير طبيعية. صورته بدون خلفية.

علاوة على ذلك، سيجد صعوبة بالغة في ملء الحاجة إلى خلفية. تلك الخلفية، مهما بذل من جهد في العمل. قد يقرأ العديد من الكتب عن "حياة وأزمنة ربنا"، ليجد في النهاية أن البيئة في معظمها قد تم تعديلها لتناسب القصة وأن سماتها الرئيسية قد تم أخذها منها؛ باختصار، لا يشعر بأنه قد تم وضعه على اتصال بالبيئة الطبيعية التي يبحث عنها.

بالطبع هناك بعض الأعمال التي ليست من هذا النوع، لكن القارئ العادي نادراً ما يسمع عنها، لأنها تعتبر عموماً "خطيرة" و"مقلقة".

لكن حتى لو تعمقنا في الأمر وقمنا بدراسة خاصة لتاريخ الأصول، مع وجود أكبر المكتبات تحت تصرفنا، فسنجد أنه لم يقدم لنا أي كاتب حتى الآن صورة كافية للبيئة، وبدون ذلك يستحيل أن يكون لدينا فهم حقيقي لطبيعة المسيحية الوليدة والنطاق الكامل

لإضاءتها؛ بدونها لن نفهم أبدًا طبيعتها الحقيقية وقدرتها الهائلة على التكيف مع تلك البيئة.

لأنه إذا نظرنا إلى الوراء إلى أدلة القرنين الأولين الوسائل الرئيسية لاستعادة الخطوط العريضة. من عصرنا (وفي رأينا لا يوجد دليل ذو مصداقية فيما يتعلق بالأصول اللاحقة لهذه الفترة) لفهم الوضع الفعلي للأمور، فبدلاً من كنيسة واحدة وشكل واحد من أشكال الإيمان، نجد مجتمعات لا حصر لها وأساليب تعبير لا حصر لها - مجتمعات متحدة من أجل

ص 31

عيش حياة وأنظمة تسعى جاهدة للتعبير عن إشعاع النور. في العديد من هذه المجتمعات وهذه التعبيرات نجد نقاط اتصال حميمة مع حياة وإيمان أفضل ما في الدين العالمي، ووسيلة من شأنها أن تساعدنا على ملء الخطوط العريضة لخلفية الأصول بشعور أكبر بالثقة مما كنا نعتقد سابقًا أنه ممكن.

بدلاً من إيجاد الفصل الحاد بين العلم (أو الفلسفة) والدين (أو اللاهوت) الذي ميز جميع الفترات اللاحقة من العصر المسيحي حتى يومنا هذا، كان مجرد تباهي من العديد من هذه المجتمعات بأن الدين كان علماً؛ لقد زعموا بجرأة أنه من الممكن معرفة أمور النفس بنفس القدر من اليقين الذي نعرف به أمور الجسد؛ وبدلاً من حصر الإشراق الذي تلقوه في فهم أفقر العقول، أو حصره في منطقة الإيمان الأعمى، زعموا أنه زودهم بوسائل صياغة فلسفة عالمية قادرة على إرضاء أكثر العقول تطلباً. ربما لم يشهد العالم قط جهوداً أكثر جرأة للتوصل إلى حل لمشكلة العالم مما حاول بعض هؤلاء الفلاسفة المتصوفين وعلماء الدين. إن كون محاولاتهم غير مفهومة في معظمها للعقل الحديث يرجع جزئياً إلى حقيقة أن سجلنا لها غير كامل، وجزئياً إلى الاستحالة الطبيعية للتعبير باللغة البشرية عن الحقائق الهائلة التي كانوا يطمحون إليها؛ ومع ذلك فإن "اقتحامهم للسماء"، عندما

ص 32

نستطيع فهم طبيعتها، هو مشهد يثير إعجابنا، وإذا تخلينا عن كل تحيز، فإنه يجعلنا ننحني أمام القوة التي ألهمت جهودهم.

لقد سعوا إلى معرفة الله، وعلم المدارس الغنوصية. الحقائق، ومعرفة الأشياء الموجودة؛ وكانت الحكمة هدفهم؛ والأمور المقدسة في الحياة دراستهم. أطلق عليهم العديد من الأسماء من قبل أولئك الذين أخرجوهم لاحقاً من مخابئهم السرية ليسخروا من جهودهم ويلعنوا عقائدهم، وأحد الأسماء التي استخدموها لأنفسهم، اختارها العرف لتكون لقبهم العام الحالي. يُشار إليهم الآن بشكل عام في تاريخ الكنيسة باسم الغنوصيين، أولئك الذين كان هدفهم هو الغنوص، - إذا كان هذا هو المعنى الصحيح بالفعل؛ لأن إحدى أقدم وثائقهم الموجودة تعلن صراحة أن الغنوص ليست النهاية - إنها بداية الطريق، والنهاية هي الله - وبالتالي فإن الغنوصيين هم أولئك الذين استخدموا الغنوص كوسيلة لوضع أقدامهم على طريق الله.

والسؤال الذي يتبادر إلى أين تبحث عن أصولها. ذهن دارس التاريخ فوراً هو: من أين أتى هؤلاء الرجال؟ هل ظهروا فجأة في خضم عالم لا يكترث لهذه الأمور؟ هل كانوا منفصلين تماماً عن

الماضي؟ هل لم يكن لهم أسلاف؟ لا بأي حال من الأحوال؛ أولئك الذين عارضوهم بشدة، والذين - يتباهون بأنهم الورثة الشرعيون الوحيدون لنور المسيح - وفي أشد حالات غضبهم، وصفوا الغنوصيين بأنهم "أبكار الشيطان"، قد يساعدوننا في تحديد

ص 33

الاتجاه الذي سنجد فيه بعض المواد التي يمكننا الاستناد إليها في الإجابة. في نبرة أقل مرارة، يخبرنا آباء الكنيسة أن تعاليم الغنوص هي تعاليم أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو وهيراقليطس، وأسرار الأمم وطقوسها التأهيلية، وليست تعاليم المسيح. فلنحاول إذن لفترة وجيزة أن نتتبع هذا النهج ونرسم بعض الخطوط العريضة لخلفية الغنوص؛ عندها سنكون قادرين بشكل أفضل على تحديد ما إذا كنا سننضم بأصواتنا إلى صرخة صائدي الزنادقة أم لا.

فيما يلي سنحاول فقط تقديم أبسط المؤشرات على مجال البحث الواسع طبيعة المجال المراد مسحه. الذي يتعين على دارس الأصول المسيحية أن يعمل فيه، قبل أن يتمكن من تقدير طبيعة التربة التي زرعت فيها البذرة حقًا. يجب دراسة التاريخ السياسي والظروف الاجتماعية في ذلك الوقت بعناية ووضعها في الاعتبار باستمرار، ولكن أهم مجال يجب دراسته هو طبيعة العالم الديني، وخاصة خلال القرون الثلاثة التي سبقت عصرنا. كيف يمكننا، نتساءل، ونحن ننظر إلى مزيج الطقوس، والتوفيق بين الثيوغونية والكونية، ومزيج المعتقدات الذي كثر في هذه القرون، أن نفصلها إلى عناصرها الأصلية؟ تبدو المشكلة ميؤوساً منها مثل محاولة تتبع مزيج الأعراق والأعراق الفرعية، والأمم والعائلات، التي كانت الوسائل المادية لهذه الخلطات بين الطقوس والدين. من أين نبدأ؟ لأنه إذا بدأنا من حيث يفشل التاريخ المعروف (كما هو الحال عادةً)، وتخيلنا أننا

ص. 34

وصلنا إلى حالة بدائية، فإننا سنضطر إلى مراجعة فرضياتنا باستمرار مع كل اكتشاف أثري وإثنولوجي جديد. إن القبائل التي كنا نعتبرها متوحشة بدائية هي بقايا متحللة لأمم عظيمة في يوم من الأيام، وقد وجدنا أن خرافاتهم وممارساتهم البربرية ممزوجة ببقايا أفكار سامية لم يكن بإمكان أي وحشية أن تطورها؛ فأين سنبدأ في هذه المادة من التغيير المتقلب؟ بالتأكيد لا يمكننا تتبع ذلك على خطوط التطور المادي وحدها؟ ألا يمكن أن يكون هناك أيضاً "روح شعب" يجب أخذها في الاعتبار؟

فكما أن أجساد الرجال تولد من أجساد تربة الحقل. أخرى، كذلك تولد الأمم من الأمم. لكن إذا كان من الصعب تتبع الوراثة الجسدية لرجل (لأنها كلما ابتعدت أكثر كلما تفرعت)، فإن وراثة الأمة أصعب بكثير، فبينما يكون لرجل أبوان فقط، قد يكون للأمة العديد من الآباء، وبينما تُخفى جثث والدي الرجل عند وفاتهما لتتحلل في الأرض، فإن جثث الأمم تتحلل أمام أعين الجميع، وتستمر مختلطة بأبنائها وأحفادها، وكل شجرة العائلة التي تشترك فيها مع الأمم الأخرى. قد يكون للأمم خصائص مميزة معينة، لكنها ليست فردية بنفس الطريقة التي يتم بها تمييز الإنسان؛ ومشكلة وراثتها الداخلية أصعب حلاً حتى من مشكلة طبيعة النفس الحيوانية، لأنها على نطاق أوسع.

ونظرًا لطبيعة المركبة المادية للوعي الديني العام، فليس من

ص 35

المستغرب أن نجد أن تاريخ تطور الأفكار الدينية هو أحد أصعب الدراسات.

إذا وضعنا كل هذه الافتراضات المسبقة في الاعتبار، فإن الأمر يتطلب شجاعة كبيرة للمغامرة بأي محاولة للتعميم؛ نشعر أن كل عبارة يجب أن تكون مقيدة بالعديد من الاعتبارات الأخرى لدرجة أننا نشعر بالاشمئزاز من فظاظتها، ونعلم أننا لا نتتبع سوى عظام الهياكل العظمية في حين أنه ينبغي علينا أن نلبسها لحماً ونجعلها نابضة بالحياة.

لكن لنعد إلى جذور الفترة والحركة الخاصة التي نتناولها.

تختلط مياه ثلاثة تيارات رئيسية معًا في سيل جارف يتدفق عبر الأرض في هذه القرون الحاسمة.

ثلاثة عناصر رئيسية تتحد جوهرها وتحول طبيعتها في بوتقة القرون الأولى من العصر المسيحي.

تستقبل اليونان ومصر واليهود الطفل بين أيديهم، ويرضعون جسد المولود الجديد، ثلاثة تيارات أم. ويراقبون من حول مهده. إن نفسها غير العقلانية تشبه النفوس الحيوانية لمرضعاتها؛ ونفسها العقلانية من نفس الميراث مع عقولهن، لكن الروح التي بداخلها مستنيرة بالمسيح. إلا أن ما سنوليه أكبر قدر من الاهتمام هو وراثة نفسها العقلانية والروحية؛ لأنه في هذا يكمن الجانب الباطني لديانات اليهودية ومصر واليونان.

علينا إذن أن نبحث بعناية فائقة في الاتجاه الذي يمكن العثور فيه على ذلك؛ لن نجده في طقوس وممارسات الناس، بل في دين ومنهج الفيلسوف

ص. 36

والحكيم، والنبي والكاهن. في العصور القديمة، كانت هناك درجات في الدين بقدر ما كانت هناك درجات في الطبيعة البشرية؛ وكان التعليم في الدرجات الباطنية مخصصًا لأولئك الذين كانوا مؤهلين للفهم؛ وكانت المؤسسات السرية ومدارس التأهيل من كل درجة موجودة في جميع الأمم العظيمة، وإليها يجب أن نبحث عن الأفضل في أديانهم - ولكن للأسف، في كثير من الأحيان عن الأسوأ أيضًا، لأن الأسوأ هو فساد الأفضل؛ ولكن سنتحدث عن هذا في مكان آخر.

فلننتقل أولاً إلى دراسة ديانة الذكاء في اليونان.

اليونان.

إذا انتقلنا إلى اليونان في القرن السادس قبل اليونان في عام 600 قبل الميلاد. عصرنا، يمكننا أن ندرك علامات ميلاد روح جديدة في العالم الغربي، وبداية نشاط فكري عظيم؛ إنها، إذا جاز التعبير، عصر بلوغ العبقرية اليونانية، حيث تدخل قوى فكرية جديدة حيز النشاط، وتتلقى الأساطير القديمة والحكمة النبوية القديمة تعبيرًا جديدًا في علم الفيزياء التجريبية الوليد وولادة الفلسفة.

هذا النشاط جزء لا يتجزأ من نهضة عظيمة، وتدفق للقوة، يمكن تتبعه في بلدان أخرى أيضًا؛ إنه تكثيف للوعي الديني للأمم، وقد كثف الغريزة الدينية لليونان بطريقة ملحوظة. إن أبرز سماتها

ص 37

هي تطبيق العقل على الأمور الدينية، وذلك بفضل التطور المتسارع لهذه الملكة لدى الإنسان.

كان أعظم رواد هذا النشاط رجالاً لا تزال أسماؤهم خالدة في سجل التاريخ. في الشرق الأقصى لدينا كونفوشيوس ولاوتزه، وفي الهند غوتاما بوذا، وفي بلاد فارس آخر الزرادشتيين، وفي اليونان فيثاغورس؛ لا شك أن هناك آخرين في أماكن أخرى عملوا كرسل للنور، لكن سجلاتنا الحالية غير كاملة للغاية بحيث لا تسمح لنا بتتبع مساراتهم.

هل يستطيع أي شخص يؤمن بعناية الحكمة في شؤون البشر أن يشك في أن هذا كان جزءًا من خطة عظيمة لتقدم الإنسان؟ إذا كان هناك قدرٌ "يُشكّل مصائرنا"، فأين يمكننا أن نرى يده بوضوح أكثر من هذه الأحداث العظيمة؟

لكن إذا اقتصرنا على اليونان، فلا يجب أن نفترض أن فيثاغورس كان بلا أسلاف؛ أسلاف فيثاغورس. لأنه على الرغم من أن أتباعه اللاحقين يريدوننا أن نعتقد أن كل الفلسفة انبثقت منه، إلا أننا لا نستطيع أن نؤمن بهذا الظهور المفاجئ لها، ولا نشك في أن فيثاغورس اعتبر نفسه مُعلنًا للحقائق القديمة، وواحدًا من معلمي خط من المذاهب. كان فيريسايدس وأناكسيماندر وطاليس قبله في آسيا الصغرى، ومعلمون آخرون في مصر والكلدان وأماكن أخرى. في الواقع، في هذه الأيام الأولى، يكاد يكون من المستحيل فصل الفلسفة عن الأساطير وجميع الأفكار القديمة المرتبطة بها. إذا نظرنا إلى زمن طاليس، الذي يعتبر مبشراً بالعناصر الأولى للفلسفة في العالم اليوناني،

ص. 38

والذي عاش قبل فيثاغورس بقرن من الزمان، فسنجد حالة من الأمور على النحو التالي إلى حد ما.

كان اليونانيون المتعلمون والمسافرون في ذلك الوقت ينظرون إلى مصر على أنها مركز كل المعرفة والثقافة، ولم يعتبروا أسلافهم ذوي شأن في مثل هذه الأمور. لقد أطرب شعراء قصائد هوميروس غرورهم بالغناء عن براعة أبطالهم القدماء، لكنهم لم يستطيعوا إخبار العقلاء بشيء عن الدين؛ أما بالنسبة لهيسيود وثيوجونياه وبقية أعماله، فلم يستطيعوا فهم الكثير منها. لا شك أنه كان أكثر وضوحاً من الشظايا القديمة للقصائد الأورفية التي رسخت أقدم عناصر التقاليد الدينية في اليونان. لكنه كان أقل بكثير من حكمة مصر. أما بالنسبة للشظايا الأورفية، فقد كانت من مخلفات أسلافهم البرابرة، ولم يؤمن بها أحد سوى الخرافيين والجهلة.

لكن الأمة التي تريد أن تكون ذات طابع خاص بها وليست مجرد مقلدة للآخرين يجب أن تثق في تقاليدها الماضية، ونجد في هذا الوقت تقريبًا أن اهتمامًا متزايدًا قد نشأ بهذه الشظايا القديمة، مما أدى تدريجيًا إلى جمعها وترجمتها إلى اللغة اليونانية في تلك الفترة. حدث هذا في نهاية القرن السادس،

وكان الاسم الأكثر ارتباطًا بهذا النشاط لاستعادة أجزاء من التقاليد القديمة هو اسم أونوماكريتوس.

ومن المثير للاهتمام ملاحظة كيف تم ذلك قبل الفترة التي صدّت فيها اليونان جيوش خشايار الغازية من شواطئ أوروبا. ويبدو أن الجهد كان يهدف إلى إحياء ذكرى الماضي في اليونان من خلال استعادة قناة إلهامها القديم، وفي الوقت نفسه

ص 39

جعلها تشعر بقوة عبقريتها الفريدة في التفكير في الحكمة النبوية القديمة من منظور عقلها الجديد، حتى تشعر بالشجاعة لصد القوات الغازية للشرق، وتمهيد الطريق لغزواتها المستقبلية لذلك الشرق نفسه في أيام الإسكندر.

في هذه الفترة، إذن، نلاحظ صعود الفلسفة وإحياء التقاليد الأورفية. التقاليد الأورفية . لكن هذا ليس كل شيء؛ فالخميرة تعمل في الداخل كما في الخارج، ونجد نشاطًا متزايدًا بشكل هائل في تلك المؤسسات الأكثر قدسية في الحياة الدينية لليونان - الأسرار. لكن قبل أن نشرع في النظر بإيجاز في هذه النقطة التي ربما تكون الأهم على الإطلاق، دعونا نحاول أن نلقي نظرة سريعة على الماضي على خط التقاليد الأورفية؛ لأن أولئك الذين درسوا مثل هذه الأمور في اليونان المتأخرة بشكل أعمق من غيرهم، يؤكدون بصوت واحد أن خط نسبهم كان من أورفيوس عبر فيثاغورس وأفلاطون.

يبدو أن اليونانيين المعروفين في التاريخ قد شكلوا جزءًا من إحدى موجات الهجرة اليونان البدائية. إلى أوروبا من السلالة الآرية العظيمة. لا شك أن الموجة الرئيسية كانت تحتوي على العديد من الموجات الصغيرة.

إذا جاز لنا أن نعتقد أن بعض بذور التاريخ تكمن وراء سجلات كهنة سايس (صا الحجر) التي نقلوها إلى سولون وحفظها لنا أفلاطون في كتابيه كرايتياس وتيمايوس؛ فبحسبهم، منذ زمن بعيد يصل إلى عشرة آلاف عام قبل عصرنا، كانت أتيكا محتلة من قبل أسلاف الإغريق المنسيين منذ زمن طويل. ثم جاء الطوفان العظيم عندما دُمرت الجزيرة الأطلسية، وأصبحت شواطئ البحر الأبيض المتوسط

ص 40

غير صالحة للسكن بسبب الاضطرابات الزلزالية التي لم تكن الكارثة العظيمة سوى واحدة من عدد منها، ويُقال إنها الثالثة قبل "طوفان ديوكاليون". كان ذلك زمن مصر "قبل الطوفان" الذي ذكرناه في كتابات مانيثون.

إذا كان هذا صحيحًا، فيمكننا أن نتخيل كيف تم دحر موجة العرق الآري الغازي الذي احتل اليونان آنذاك - سادة "السكان الأصليين" في تلك الفترة - وكيف تُركت البلاد لفترة طويلة تحت احتلال هؤلاء "السكان الأصليين" أنفسهم الذين يسميهم هيرودوت "بلاسجي". كانوا بالنسبة لليونانيين، كما كان الدرافيديون وما زالوا بالنسبة للهنود الآريين، "سكان أصليين" إن صح التعبير، ولكن مع تاريخ طويل خاص بهم إذا استطعنا استعادة سجلاتهم.

إن النظام السياسي لسكان أتيكا اليونانيين القدماء، وفقًا لملاحظات سولون، يشبه إلى حد كبير النظام السياسي للآريين القدماء في الهند، ولا شك أن تقاليدهم الدينية البدائية جاءت من أصل مشترك.

أما بالنسبة لـ"البلاسجيين"، فمن يعرف تقاليدهم، أو اختلاط الأعراق الذي حدث قبل أن تُصنف بقاياهم على أنها كتلة عشوائية؟ قيل لنا إنهم كانوا محكومين من قبل زعماء من جزيرة الأطلسي الذين سعوا جاهدين لتوسيع غزواتهم إلى أبعد شواطئ البحر الكبير (البحر الأبيض المتوسط)، وأن الإغريق القدماء نازعوا السيادة مع هذا العرق المهيمن. يا لها من إمكانيات هائلة لمزج الطوائف ودمج الأساطير وإقامة نظام حكم ديني لدينا هنا! كان هؤلاء الأطلنطيون هم من أدخلوا عبادة بوسيدون وهيفايستوس (فولكان)، القوى الجبارة

ص 41

للبحر والنار الجوفية، التي دمرت آباءهم.

بالنسبة للعرق الآري الهيليني، كان هناك الإله زيوس، إله الآلهة، وإلهة الحكمة بالاس أثينا، التي كانت أيضًا إلهة محاربة، كما يليق بعرق محارب. ما هي الديانة اليونانية في تلك الفترة، من يستطيع أن يقول؟ لكن ليس من المبالغة افتراض أنها ربما كانت ذات طبيعة شعرية - ترانيم شعرية مناسبة للمحاربين، والتي لدينا آثار منها في أساطير الدرويد والشاعر وفي جميع تلك التقاليد القديمة للكلت، وفي أساطير الجرمان والنورسمان، وحتى في الأساطير التي حفظها السلاف القدماء.

يمكننا أن نتخيل كيف أنه في تلك السنوات الأولى، بينما كان التيار القوي للطوفان الآري يجرفهم إلى الأمام، موجات الهجرة الآرية. تداخلت الموجات الصغيرة مع بعضها البعض، وتقاتلت الحشود مع بعضها البعض، وأن أرض هيلاس (اليونان) المبتسمة كانت جائزة ثمينة للأقوى. يمكننا أن نتخيل كيف أنه عندما انحسرت آثار "الفيضانات" وتراجعت الاضطرابات الزلزالية على مر السنين، عاد السكان اليونانيون إلى الأرض مرة أخرى، ليس فقط في اليونان نفسها ولكن أيضًا على سواحل آسيا الصغرى. لكن كم عدد موجات الهجرة التي تدفقت حتى العصر الهوميري؟ من يستطيع الجزم؟ ربما في يوم من الأيام سيكون من الممكن استخلاص بعض من كنوز التاريخ من الأساطير، وإدراك كيف أن سيكروبس وإيريختيوس وإيون لم يتبعوا بعضهم البعض في تتابع سريع، بل كانوا قادة عظام أسسوا ممالك تفصل بينها فترات زمنية طويلة.

ألا يمكن أيضاً أن يكون قد جاء مع هؤلاء الملوك الفاتحين شعراء لينصحوهم ويشجعوهم، ويقدموا

ص. 42

لهم ما اعتبروه خيراً من الدين؟ ألا يمكننا البحث هنا عن النموذج الأولي لأورفيوس، وتتبع الشظايا القديمة لأقدم القصائد الدينية إلى إحدى الموجات اللاحقة؟ قد نرى تقريبًا بعض مظاهر البذخ الديني في ذلك الوقت وهي تسير في الطريق المقدس إلى إليوسيس، التي كانت دائمًا أقدس بقعة في اليونان، مع أورفيوس ذلك الوقت وهو يحفز المحاربين على الحماس بأغانيه، وهو يحمل قيثارته، وخصلات شعره الرمادية ترفرف في النسيم، بينما يحافظ المسير المنتظم للمحاربين على إيقاع اللحن، ويؤكده من خلال الصدام الإيقاعي لدروعهم.

سيكون من العبث البحث عن أي الخط الأورفي. عرض فكري للدين على هذا النحو؛ مهما كان الأمر، فلا بد أنه كان ملهمًا ونبويًا وعرافيًا؛ وهذه في الواقع هي السمة المميزة للتقاليد الأورفية.

لكن حتى في تلك الأيام الأولى، هل كان التقليد نقياً؟ بالكاد؛ لا بد أن الأعراق المختلفة قد شقت طريقها عبر أعراق أخرى، واستقرت لفترة من الوقت بينها قبل أن تصل إلى هيلاس، ويبدو أن الخط الرئيسي لمسيرتهم كان حول الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود وعبر تراقيا.

في تراقيا كانوا سيلتقون بعبادة ديونيسوس ويستوعبون بعض تقاليدها؛ ليس أن تراقيا كانت موطن هذه العبادة، بل يبدو أن أصولها تمتد شرقًا وتعود إلى الماضي - عبادة واسعة الانتشار لها جذور في تربة سامية قديمة، يصعب اكتشاف آثارها في السجلات الغامضة والمجزأة التي نمتلكها الآن. علاوة على ذلك، هناك بعض

ص 43

الاختلاط من التقاليد الكلدانية في السلالة الأورفية، ولكن من الصعب تحديد ما إذا كانت موجودة في هذه الفترة أو تمت إضافتها لاحقًا.

ما هي طبيعة الدين الدقيق للموجة الأولى من هذه الموجات المتعاقبة، عندما استقروا في الأراضي الغنية لليونان، وأصبحوا أكثر تحضرًا، لم يعد بإمكاننا الجزم بذلك، لأنه ليس لدينا سجلات، ولكن من المؤكد أنهم كانوا تحت المراقبة ومُنحوا إلهامًا كافيًا لتلبية احتياجاتهم.

إذا انتقلنا الآن إلى اليونان في عهد هوميروس، وحاولنا العثور على آثار أورفيوس، فإننا محكوم علينا بخيبة الأمل؛ اليونان في زمن هوميروس. لكن هذا ليس غير قابل للتفسير تمامًا. يغني هوميروس عن اليونان التي يبدو أنها نسيت تماماً شعراءها القدماء، وعن الأبطال الذين تركوا دينهم في ديارهم، كما لو كان الأمر كذلك. كان اليونانيون ذوو الشعر الأصفر الذين فازوا بالسيادة بعد عهد أيون، سلالة لم تول اهتمامًا كبيرًا للدين؛ إنهم يعطون المرء انطباعًا بأنهم نوع من محاربي الفايكنج الذين لم يهتموا كثيرًا بالمساعي الزراعية التي انخرط فيها أسلافهم، إذا استطعنا الحكم من التقاليد التي حفظها هسيود. نرى عدداً من الزعماء المستقلين يحتلون العديد من وديان اليونان، والذين تتمثل فكرتهم في توفير احتياجات السكان المتزايدة في الغارات والغزوات.

ربما كانت هناك هيلين متقلبة وباريس شجاع للغاية انتهك كرم ضيافة مضيفيه، لكن حرب طروادة كانت على الأرجح غارة من هؤلاء المحاربين للاستيلاء على أراضٍ جديدة، غارة ليست ضد عرق غريب، بل ضد أبناء عمومتهم؛ لأن الطرواديين كانوا يونانيين، ربما متأثرين قَليلاً بالثقافة الشرقية في عاداتهم، من خلال الاستيطان على

ص .44

اتصال مع شعوب آسيا، ولكن مع ذلك فهم يونانيون، يونانيون ذوو شعر داكن، مع طقوس تشبه طقوس ذوي الشعر الأشقر، وربما مع فهم ضئيل لها في الغالب.

إلا أن هذا الغياب للكاهن، أو بالأحرى الوضع التابع الذي يشغله، هو ما يشير إلى بذرة استقلال الفكر الذي يمثل السمة المميزة للعقل اليوناني الذي تطور لاحقاً، والذي كانت اليونان التاريخية بمثابة المستودع الخاص الذي تمت مراقبته بعناية، حتى يتمكن من التطور من أجل الغرض العالمي الذي كان مقدراً له. كان من الجيد للبشر أن ينظروا إلى الآلهة بشجاعة ويقاتلوا معهم إذا لزم الأمر.

كان "هوميروس" شاعر هؤلاء الأبطال الفايكنج؛ لكن شاعر أسلافهم (الذين كانوا يونانيين أيضاً) من السلالة الهيلينية التي سيطروا عليها، كان "أورفيوس". لقد نظر أحفاد أبطال طروادة بطبيعة الحال إلى "هوميروس" باعتباره مغنيًا لأعمال أسلافهم، ومسجلًا لعاداتهم وتقاليدهم؛ لقد كانوا شديدي الكبرياء لدرجة أنهم لم يستمعوا إلى "أورفيوس" و"اللاهوتيين" القدامى الذين كانوا شعراء المهزومين؛ لذلك تُركت الأغاني والملحمات القديمة لهذا الخط الشعري، والأناشيد والأساطير لهذه اليونان القديمة، للشعب، وما ترتب على ذلك من إهمال وعدم فهم.

هكذا كانت الحال عندما ظهرت الفلسفة يعود "أورفيوس" إلى اليونان. في القرن السابع؛ فقد وجد القليلون حينها أن هوميروس لا يكفي لتلبية الاحتياجات الدينية للرجال المفكرين؛ لم يكن هناك شيء في هوميروس يمكن مقارنته بالتقاليد الدينية لمصر والكلدان؛ ويبدو أن اليونانيين لم يكن لديهم أي

دين، فقد كان أسلافهم برابرة. ثم خطرت ببال البعض جمع ومقارنة النبوءات القديمة والأساطير الدينية للشعب - أجزاء من الأغاني الأورفية - ووجدوا فيها أدلة على وجود تقليد يوناني قديم للأشياء غير المرئية يمكن مقارنته بشكل إيجابي بالكثير مما يمكن أن تخبرهم به مصر والكلدان. كان لليونان تقاليد دينية؛ لم يكن أسلافهم همجيين.

أولئك الذين انشغلوا بمثل هذه الأمور في هذه الفترة الحرجة، يمكننا أن نعتقد أنهم لم يُتركوا بلا توجيه؛ وقد تم مساعدة الشعراء والمفكرين بقدر ما استطاعوا تلقيه. إن شظايا هذا النشاط في الشعر الأورفي التي وصلت إلينا، تظهر علامات هذا الإلهام؛ فنحن لا نشير إلى "الترانيم الأورفية" المتأخرة، والتي يبلغ عددها حوالي ثمانين ترنيمة، والتي يمكن قراءتها باللغة الإنجليزية في ترجمة تايلور، ولكن إلى الشظايا القديمة المتناثرة في أعمال الكتاب الكلاسيكيين والآباء.

استند العديد من هذه الأعمال إلى شظايا قديمة من عصور ما قبل هوميروس، ونظرت إلى هذا التقليد القديم كأساس لها. لكن الإطار الصوفي والأسطوري لهذه القصائد، وطابعها الحماسي والنبوي، على الرغم من كونه كافياً للكثيرين، لم يكن مناسباً للفكر الناشئ في اليونان الذي كان يفرض نفسه بهذه القوة. لذلك سعى أعظم قادة ذلك الفكر إلى إيجاد وسائل لتغليف الأفكار التي كانت راسخة في الأساطير والشعر، بأساليب أكثر ملاءمة للمثقفين في ذلك الوقت؛ ولدينا فلسفة فيثاغورس ولاحقًا فلسفة أفلاطون.

لكن إلى جانب الطوائف العامة والتقاليد الشعبية، كان هناك كيان باطني للدين الأسرار. وقنوات للتقاليد السرية مخفية داخل مؤسسات الأسرار. إذا كان من الصعب تكوين أي فكرة دقيقة عن تطور الأفكار الدينية الشعبية في اليونان، فمن الأصعب بكثير تتبع الخطوط المختلفة للتقاليد السرية، التي كانت تُعتبر بأقصى درجات التبجيل وتُحفظ بأقصى درجات السرية، حيث كان أدنى انتهاك للقسم يُعاقب عليه بالإعدام.

إن الفكرة التي تقوم عليها تقاليد الأسرار في اليونان كانت مشابهة لتلك التي تقوم عليها جميع المؤسسات المماثلة في العصور القديمة، ومن الصعب العثور على أي طائفة ذات أهمية بدون هذا الجانب الباطني. في هذه المؤسسات، في الأضرحة الداخلية

للمعبد، كانت توجد وسائل للمشاركة بشكل أكثر حميمية في الطقوس والتعليم في العقائد.

إن تأسيس الأسرار هو الظاهرة الأكثر إثارة للاهتمام في دراسة الدين. كانت فكرة العصور القديمة هي أنه كان هناك شيء يمكن معرفته في الدين، أسرار أو ألغاز يمكن التأهيل فيها؛ وأن هناك عملية تدريجية من الكشف في الأمور الدينية؛ باختصار، أن هناك علمًا للنفس، ومعرفة بالأشياء غير المرئية.

كان من التقاليد الراسخة المرتبطة بجميع المؤسسات السرية الكبرى أن مؤسسيها المتعددين كانوا هم من أدخلوا جميع فنون الحضارة؛ إما أنهم كانوا آلهة بأنفسهم أو أنهم تلقوا تعليمهم من الآلهة.

ص 47

باختصار، كانوا رجالاً ذوي معرفة أكبر بكثير من أي شخص جاء بعدهم؛ لقد كانوا معلمين للأجيال الناشئة. ولم يقتصر الأمر على تعليمهم الفنون فحسب، بل قاموا أيضاً بتعليمهم طبيعة الآلهة، والنفس البشرية، والعالم غير المرئي، وشرحوا لهم كيف نشأ العالم وأشياء أخرى كثيرة.

نجد العالم القديم مليئاً بهذه المؤسسات. كانوا من جميع الأنواع فسادهم. والأصناف، من الأنقى والأكثر نبلاً إلى الأكثر انحطاطاً؛ نجد فيهم أفضل وأسوأ ما في الدين والخرافات البشرية. ولا ينبغي أن نتفاجأ بهذا، لأنه عندما تشتد الطبيعة البشرية، لا يتم تحفيز الجانب الأفضل فيها فحسب، بل يجد الجانب الأسوأ فيها أيضاً مجالاً أوسع.

عندما تُمنح المعرفة، تُكتسب القوة، ويعتمد الأمر على المتلقين فيما إذا كانوا سيستخدمونها للخير أم للشر. لطالما واجه معلمو الإنسانية معارضة من قوى الأنانية الفطرية، لأن التطور بطيء، والبشرية متقلبة؛ علاوة على ذلك، لا يمكن إجبار الناس، بل يجب أن يأتوا بإرادتهم الحرة، "لأن الحب هو إتمام القانون"؛ وهكذا مرة أخرى، على الرغم من أن "الكثيرين هم المدعوون، والقليل هم المختارون".

يقال إن هؤلاء المعلمين الأوائل للبشرية الذين أسسوا مؤسسات الأسرار باعتبارها الوسيلة الأكثر السبب في ذلك. فعالية لتعليم البشرية الوليدة أمورًا أسمى، كانوا نفوسًا تنتمي إلى بشرية أكثر تطورًا من بشريتنا. كان رجال البشرية الوليدة أطفالاً بعقول لم تتطور إلا قليلاً، ولم يكونوا قادرين

ص 48

إلا على فهم ما رأوه وشعروا به بوضوح. في أقدم العصور، ووفقًا لهذا الرأي، كانت الأسرار تُمارس من قبل أولئك الذين لديهم معرفة بقوى الطبيعة، والتي كانت مكتسبة من قبل إنسانية كاملة سابقة ليست بالضرورة مولودة على الأرض، والعجائب التي تظهر فيها بحيث لا يمكن لأي من إنسانيتنا أن تنتجها بنفسها. مع مرور الوقت، ومع تطور ملكة العقل لدى البشرية أكثر فأكثر، واعتُبرت قوية بما يكفي للوقوف على أقدامها، انسحب المعلمون تدريجياً، وأُسندت الأسرار إلى رعاية أكثر تلاميذ هذه البشرية تقدماً، والذين اضطروا في النهاية إلى استبدال الرموز والوسائل والدراما والتمثيلات المسرحية بما تم الكشف عنه سابقاً بوسائل أعلى.

ثم تسلل الفساد، وتُرك الإنسان ليكسب ألوهيته الخاصة من خلال قهر الذات والنضال المستمر ضد العناصر الدنيا في طبيعته. ظل المعلمون غير مرئيين، مستعدين دائماً للمساعدة، لكنهم لم يعودوا يتحركون بشكل واضح بين الناس، لإجبارهم على التبجيل والعبادة. هكذا تسير التقاليد.

إذا كان من الصعب تتبع أصل وتطور التقاليد المختلفة. الطقوس الشعبية في اليونان، كما رأينا، فإن بدايات وتطور الطقوس السرية اليونانية أكثر صعوبة. كانت السمة الرئيسية للأسرار هي السرية العميقة التي حُفظت بها تقاليدها؛ لذلك ليس لدينا مواد كافية للعمل عليها، وعلينا الاعتماد بشكل أساسي على التلميحات والإشارات المبطنة. لكن من المؤكد

ص 49

أن الجانب السري من الدين كان بمثابة التأهيل في طقوسه ومذاهبه العليا؛ وقد أشاد أعظم المفكرين اليونانيين بالأسرار، إذ أخبرونا أنها طهرت الطبيعة، ولم تجعل الناس يعيشون حياة أفضل هنا على الأرض فحسب، بل مكنتهم أيضًا من الرحيل عن الحياة بآمال أكثر إشراقًا في المستقبل.

ما هي تقاليد عبادة الأسرار البدائية على غرار الأورفية والديونيسية والإليوسينية، ليس من الضروري التكهن في هذه الخطوط العريضة التقريبية؛ ولكن إذا عدنا إلى أيام أفلاطون، فسنجد مؤسسات سرية قائمة يمكن وصفها بشكل عام بأنها سياسية وخاصة وفلسفية.

كانت الأسرار السياسية - أي أسرار الدولة - هي إليوسينيا الشهيرة، بمواكبها الأسرار السياسية. الخارجية الرائعة وطقوسها الباطنية الباهرة. في هذه الفترة، تم قبول كل مواطن محترم تقريبًا في أثينا، ويمكننا أن نرى بسهولة أن الاختبارات لم تكن صارمة للغاية، حيث تم قبول هذا العدد الكبير كل عام. في الواقع، أصبحت هذه الأسرار الرسمية، على الرغم من أنها توفر درجة أو عدة درجات من التقدم على طريق الحياة الصحيحة والفهم الصحيح للحياة، شكلية إلى حد ما، كما هو الحال مع جميع أقسام الدين الرسمي للدولة بمرور الوقت.

إلى جانب إليوسيس، كانت هناك بعض الأسرار الخاصة، غير المعترف بها من قبل الدولة، الأسرار الخاصة. والتي ازداد عددها بشكل هائل فيما بعد، حتى أن كل نوع تقريبًا من أنواع الطقوس السرية الشرقية وجد أتباعه في اليونان، كما هو واضح.

ص 50

من دراسة الجمعيات الدينية بين اليونانيين المعروفين باسم ثياسي، وإيراني، وأورجيونيس؛ من الطبيعي أن توجد بين المجتمعات الخاصة والجمعيات من هذا النوع العديد من العناصر غير المرغوب فيها، ولكن في الوقت نفسه كانت تلبي احتياجات الكثيرين ممن لم يتمكنوا من الحصول على أي غذاء روحي من دين الدولة.

ومن بين هذه المؤسسات الخاصة كانت هناك مجتمعات المجتمعات الأورفية. من الزهاد المتشددين، رجالاً ونساءً، الذين كرسوا أنفسهم بالكامل للحياة المقدسة؛ وقيل إن هؤلاء الناس يعيشون "الحياة الأورفية" وكانوا يُعرفون عمومًا باسم الأورفيين. بالطبع كان هناك دجالون سخروا منهم وتظاهروا بنقائهم ومعرفتهم،

لكننا في الوقت الحاضر نتبع إرشادات أولئك الذين يتوافق سلوكهم مع مهنتهم.

ويبدو أن هذه المجتمعات الأورفية كانت بمثابة ملاذ لأولئك الذين كانوا يتوقون إلى الحياة الدينية، ومن بينهم كانت المدارس الفيثاغورية. لم يؤسس فيثاغورس شيئًا جديدًا تمامًا في اليونان عندما أسس مدرسته الشهيرة في كروتونا؛ بل طور شيئًا موجودًا بالفعل، وعندما تم تفكيك مدرسته الأصلية واضطر أعضاؤها إلى الفرار، لجأوا إلى الأورفيين. تختفي المدارس الفيثاغورية في المجتمعات الأورفية.

إننا نرى في التقاليد الفيثاغورية علامات ما أسميته بالأسرار الفلسفية؛ لذلك، علينا أن نجد في أفضل التقاليد الأورفية والفيثاغورية مؤشرات طبيعة الأسرار الحقيقية، وليس في إليوسيس السياسية

ص 51

أو في العناصر الفوضوية للطقوس الشرقية.

في الواقع، بذل الأورفيون جهوداً كبيرة لتحسين الإليوسينية ودعموها باعتبارها وسيلة ضرورية الأسرار الفلسفية. للغاية لتثقيف الإنسان العادي نحو فهم الحياة العليا. ومع ذلك، فمن المنطقي أن تكون الأسرار التي أرضت تطلعات الأورفيين والفيثاغوريين أعلى إلى حد ما من أسرار الدولة للمواطن العادي. اشتهر هؤلاء الفيثاغوريون في جميع أنحاء العصور القديمة بنقاء حياتهم وسمو أهدافهم، ولا بد أن الأسرار التي نظروا إليها بمثل هذا التبجيل العميق كانت شيئًا يتجاوز الإليوسينية، شيئًا لم تكن الإليوسينية بالنسبة له سوى أحد المداخل الخارجية.

علينا إذن أن نبحث عن الحياة الدينية الأعمق لليونان في هذا الاتجاه، وأن نتذكر فيثاغورس وأفلاطون. أن التجارب الباطنية لهذه الحياة كانت تُحفظ سراً عميقاً ولا تُعرض على أسطح المنازل. يقال إن فيثاغورس قد تأهل في أسرار مصر والكلدان والأورفية والإليوسينية؛ وفي الوقت نفسه كان أحد المؤسسين الرئيسيين للفلسفة اليونانية. إلا أن فلسفته لم تكن شيئاً في حد ذاتها، بل كانت تطبيقاً لعقله - وخاصة عبقريته الرياضية - على أفضل ما في هذه التقاليد السرية؛ لقد رأى أنه من الضروري محاولة قيادة الفكر اليوناني سريع التطور على خطاه الخاصة نحو التأمل في الطبيعة الباطنية للأشياء؛ وإلا فإنه في غمرة فرحته بحريته سيفلت من السيطرة تماماً ويرفض حقائق الحكمة القديمة.

ص. 52

واصل أفلاطون هذه المهمة، وإن كان ذلك على أسس مختلفة إلى حد ما؛ فقد عمل في العالم أكثر من فيثاغورس، وكان جهده الرئيسي هو إزالة المفاهيم الخاطئة، حتى يتم تنقية العقل ووضعه في حالة مناسبة للتأمل في الأشياء الموجودة. لقد أمضى حياته في هذه المهمة، ولم يبنِ نظامًا للمعرفة بقدر ما يمهد الطريق حتى تصبح الحقائق العظيمة لغنوص الأشياء الموجودة، كما سماها فيثاغورس، واضحة من تلقاء نفسها.

من الخطأ افتراض أن أفلاطون قد صاغ نظامًا فلسفيًا جديدًا تمامًا؛ فمفاهيمه الرئيسية هي جزء لا يتجزأ من الحكمة القديمة التي تناقلها أصحاب الرؤى

في الأسرار؛ لكنه لا يصوغها بقدر ما يمهد الطريق من خلال منهجه الجدلي، حتى يتمكن العقل من أن يكون في حالة مناسبة لتلقيها.

لذلك فإن استنتاجات حواراته سلبية دائمًا تقريبًا، وفي نهاية حياته الطويلة فقط، ربما ضد رأيه الأفضل واستجابة لإلحاح تلاميذه، يقدم وثيقة إيجابية في كتاب تيمايوس، المؤلف من قصاصات من كتابات غير منشورة للفيثاغوريين وغيرهم.

لسوء الحظ، تخيل معظم الذين تبعوه مباشرة أن أسلوبه الجدلي كان غاية في حد ذاته، ولذلك بدلاً من عيش حياة الفلسفة والسعي وراء الرؤية الواضحة للبداية الحقيقية، انحدروا إلى جدال فارغ وانتهى بهم الأمر إلى النفي.

وتبع أرسطو ذلك بمنهجه الرائع

ص 53

في التحليل والملاحظة الدقيقة للظواهر، ولأنه تناول الخارج بدلاً من الداخل، أرسطو والشك. فقد كان من وجهة نظر معينة أكثر فهماً من أفلاطون، ولكن من وجهة نظر أخرى كان أكثر سوء فهم، حيث تم اعتبار منهجه غاية في حد ذاته بدلاً من كونه وسيلة فحسب. وهكذا نصل إلى القرون الثلاثة التي سبقت العصر الحالي، عندما كانت الحياة الفكرية لليونان تتمركز في الإسكندرية.

لقد كانت اليونان أوسع بكثير من هيلاس أفلاطون؛ لقد كانت يونانًا غزت براعتها الجسدية الشرق، وتفاخرت بأن قوتها الفكرية ستغزو العالم. في كل مكان، قارنت ذكاءها القوي بالشرق القديم، وتوهمت لفترة من الزمن أن النصر حليفها.

لقد أدى استقلالها الفكري إلى ظهور عدد لا يحصى من المدارس التي تحارب بعضها البعض، والمشهد الذي تقدمه لنا يشبه إلى حد كبير مشهد أوروبا الحديثة خلال القرون الثلاثة الماضية.

نرى هناك، وإن كان على نطاق أصغر - في بداياته - نفس النشاط الفكري الذي ميز صعود المنهج العلمي الحديث، ومعه نفس انهيار الآراء القديمة، ونفس القلق، ونفس روح الشك.

إذا نظرنا إلى ظاهر الأمور فقط، فقد نقول تقريبًا أن اليونان قد نسيت تمامًا تقليد الأسرار وافتخرت فقط بقوة عقلها دون مساعدة. لكن إذا تعمقنا أكثر، فسنجد أن الأمر ليس كذلك. في

ص 54

أيام أفلاطون، تم جلب الشرق ومصر إلى اليونان إذا جاز التعبير، بينما ذهبت اليونان فيما بعد إلى مصر والشرق.

كانت الحكمة القديمة موطنها في مصر شرقاً وغرباً. وكلدان والشرق عموماً، ولذلك على الرغم من أن المجتمعات الأورفية والفيثاغورية في زمن أفلاطون استوردت إلى اليونان استشراقاً معدلاً قاموا بتكييفه مع العبقرية اليونانية على غرار تقاليد الحكمة القديمة الخاصة بهم، فعندما خرج اليونانيون بالآلاف إلى الشرق، فإن أولئك الذين تم إعدادهم من خلال الاتصال

بهذه المدارس، أصبحوا على صلة أوثق بحكمة الشرق القديمة، واستوعبوها بسهولة.

أما بالنسبة للعمومية، فكما أن إدخال الاستشراق إلى اليونان بين الناس جلب معه تجاوزات وطقوسًا حماسية ذات طابع غير مرغوب فيه، وفي الوقت نفسه كثف الحياة الدينية وأعطى مزيدًا من الرضا للمشاعر الدينية، كذلك فإن الغزو اليوناني للشرق نشر روح الشك وعدم الإيمان، بينما صقل الملكات الفكرية.

لكن كل هذا كان عملية تدريجية للغاية، وكلما زاد الشك، ازدادت رغبة الناس في الانسحاب من الصدام المتناحر للآراء، والبحث عن ملجأ في الحياة التأملية التي قدمت لهم المعرفة. لقد تأثر المفكرون والمتصوفون الشرقيون بالفلسفة الهيلينية على غرار الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية، وتأثر الفلاسفة اليونانيون بالثقافة الشرقية من خلال الاتصال بأفراد العديد من المجتمعات التي لم تقتصر على مصر وبقية

ص. 55

الدول "البربرية" الخاضعة لليونان فحسب، بل شملت أيضًا آسيا الصغرى وحتى اليونان نفسها. يمكن معرفة عدد هذه المجتمعات في القرن الأول من خلال دراسة كتابات فيلو اليهودي وسيرة أبولونيوس التياني، ومن صورة اليونان الصوفية التي يمكن استخلاصها من المقالات الأخلاقية والثيوصوفية لبلوتارخ، وكذلك من النقوش العديدة التي تم اكتشافها مؤخرًا والتي تتعلق بالجمعيات الدينية التي لا تعد ولا تحصى في اليونان.

عندما خضعت الممالك اليونانية لخلفاء الإسكندر بدورها روما. لقوة روما الغازية، قام العبقري الإيطالي المنظم بفرض النظام في العالم، بطريقة مشابهة إلى حد ما لأسلوب الاحتلال البريطاني الحالي للهند. لم يكن العقل القانوني والعبقرية العملية لروما منسجمين حقاً مع الدقائق الميتافيزيقية للفلسفة اليونانية، أو مع التصوف الشرقي. في الأدب والفن لم يكن بوسعها إلا نسخ اليونان؛ وفي الفلسفة سعت إلى قاعدة سلوك بدلاً من نظام معرفي، وهكذا نجدها، في أشخاص أفضل رجالها، تابعة للطبيعية الرواقية، التي لخصت مدونة أخلاقها في مثال "الأمانة".

ومع ذلك، لم يكن بوسع روما، مثل اليونان، تجنب الاتصال الديني بالشرق، أسرار ميثراس. ونجدها تمر بنفس التجارب التي مرت بها اليونان، وإن كان ذلك بشكل أكثر تعديلاً. كانت نقطة الاتصال الرئيسية بين العديد من الديانات في الإمبراطورية الرومانية هي العبادة المشتركة للشمس، وكان جوهر هذه العبادة الأكثر شعبية، منذ حوالي عام 70 قبل الميلاد

ص 56

فصاعدًا، موجودًا في أسرار ميثراس.

"كانت عبادة ميثراس، أو إله الشمس، الأكثر شعبية بين الطوائف الوثنية، والخصم الرئيسي للحقيقة خلال القرون الأربعة الأولى من عصرنا." هذا هو قول من ينظر إلى الأمر من وجهة نظر رجل دين مسيحي، وبالفعل أعلن آباء الكنيسة منذ زمن جاستن الشهيد فصاعدًا أن الشيطان، في أسرار ميثراس، قد سرق طقوسهم الأكثر قدسية عن طريق التوقع.

مثلت الأسرار المِثرائية الجانب الباطني لحركة دينية دولية عظيمة، والتي أتاحها توحيد العديد من الشعوب في العالم اليوناني الروماني، والتي نتجت عن اتصال اليونان وروما بفكر الشرق.

تأثرت الطوائف الوطنية والمحلية تدريجياً بشكل الرمزية المستخدمة في التقاليد الكلدانية الفارسية المعدلة؛ عبادة الشمس الروحية، اللوغوس، مع الرمز الطبيعي للكرة المجيدة للنهار، والتي كانت شائعة بشكل أو بآخر في جميع الطوائف الكبرى، وبقية الرموز الشمسية، تسربت تدريجياً إلى الأشكال الشعبية الأصلية للدين. بمرور الوقت، جعل ميثرا، الشمس المرئية للجاهلين، والشمس الروحية، والوسيط بين النور والظلام، كما يخبرنا بلوتارخ، للمتعلمين، أشعته تشرق إلى أقصى حدود الإمبراطورية الرومانية. وكما هيمنت طقوسه الخارجية على الأشكال المقيدة للعبادة الوطنية، كذلك

ص 57

عدّل تقليد أسراره طقوس الأسرار في العالم الغربي القديم.

مصر.

دعونا الآن ننتقل إلى مصر ونلقي نظرة على المشهد الذي يجب مسحه، قبل أن نتمكن من ملء الخطوط العريضة لهذا الجزء من خلفية الغنوص.

على الرغم من تحفظها وازدرائها الشديد للعبقرية اليونانية الصاعدة، إلا أن مصر، حتى في حكمة مصر. عهد البطالمة الأوائل، قدمت بعضاً من حكمتها لليونان. كان هناك نشاط هائل في ترجمة السجلات والوثائق، ويرتبط أصل ذلك باسم مانيثون. من المحتمل جداً أن بلوتارخ في رسالته عن أسرار إيزيس قد استقى معظم معلوماته من مانيثون، ومن الواضح جداً أن المذاهب الواردة فيها باعتبارها الحكمة التقليدية لمصر لها نقاط اتصال لا حصر لها مع الأدب اليوناني الثلاثي، تلك الرسائل الصوفية والثيوصوفية التي شكلت أدلة التعليم في المدارس الهرمسية الباطنية، وهي المجتمعات الصوفية التي نقلت تقاليد الحكمة الخاصة بتحوت، أو تحوتي، إله الحكمة، الذي كان اسمه، كما يخبرنا يامبليخوس، "مشتركاً بين جميع الكهنة"، أي أنه كان مصدر إلهام تقاليد الحكمة في جميع فروعها.

وجد اليونانيون في هرمس الخاص بهم بعض أوجه التشابه مع خصائص تحوتي، فأطلقوا عليه هذا الاسم، مع إضافة اللقب

ص 58

تريسميجيستوس، أو ثلاثي العظمة، بسبب حكمته العظيمة. إن حقيقة أن محتويات أقدم الرسائل في هذا الأدب الثلاثي كانت مصرية إلى حد كبير، وإن لم يكن شكلها، يتضح ذلك بشكل أكبر من خلال رسالة يامبليخوس حول أسرار المصريين والكلدانيين.

وعلى طول خطوط الاتصال هذه بين مصر واليونان، يمكننا المضي قدماً في فحص الحكمة المصرية على أرضها، ونجد فيها العديد من المذاهب المتطورة تماماً والتي لولا هذا البحث لكنا اعتبرناها أصلية تماماً لأرض مسيحية خالصة. في الواقع، نجد في الأدبيات التريسميجية عدداً من العقائد المميزة

للمسيحية الغنوصية ولكن بدون المسيح التاريخي؛ ويُنظر إلى كل هذه العقائد على أنها كانت موجودة لآلاف السنين في التقاليد المصرية المباشرة ـ وخاصة عقائد اللوغوس، والمخلص والأم العذراء، والولادة الثانية والاتحاد النهائي مع الله.

ولكن كما هو الحال في اليونان، كذلك في حالة مزيج التقاليد. مصر، ضمن التقاليد المصرية نفسها، توجد جميع أنواع الخلط بين المذاهب، والتوفيق بين الأديان والمزج، ليس فقط في الطقوس الشعبية الظاهرية ولكن أيضًا في التقاليد الباطنية.

على سبيل المثال، كان هناك مزيج سامي قوي يعود تاريخه إلى سلالة الهكسوس (2000-1500 قبل الميلاد). في ذلك الوقت، كان اسم سيث، الذي ربما يكون مطابقًا للقب الأعلى في لغة الغزاة الساميين، اسمًا ذا شرف عظيم. تم ربطها بسوثيس، سيريوس، النجم الحارس لمصر، أرض سيرياك؛ ومما لا شك فيه أن أسرار سيث

امتزجت بطريقة ما مع أسرار أوزيريس. بعد طرد الهكسوس المكروهين، صحيح أن سيث أو سيت تم ربطه تدريجياً بتيفون، خصم أوزيريس، اللوغوس؛ لكن هذا لا يؤثر على العقائد الحقيقية لأسرار سيث، تماماً كما أن استخدام الآريين الإيرانيين لاسم ديفوس للدلالة على الكيانات الشريرة قد دمر الطبيعة الخيرة لديفاس الهندوآريين؛ إنه ببساطة يسجل تنافساً بين الطقوس والعرق ويشير إلى حقبة سابقة كان فيها اتصال وثيق بين الأعراق ودياناتها. وبالمثل، فإن استخدام المسيحيين لمصطلح الشيطان لا يتجاهل حقيقة أن الشياطين عند الإغريق كانت كائنات نافعة؛ شاهد على ذلك شيطان سقراط "الذي منعه إذا كان على وشك فعل أي شيء غير صحيح".

إن العلاقات السياسية الوثيقة القديمة بين الكلدانيين ومصر التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية، والغزو الفارسي اللاحق لمصر، لا بد أنها كشفت أيضًا عن نقاط اتصال في مجال الدين، وخاصة في التقاليد السرية، ومن المؤكد أن الأبحاث المستقبلية في العديد من مجالات علم المصريات التي لم يتم العمل عليها حتى الآن ستلقي ضوءًا جديدًا على الوراثة المختلطة للدين في مصر، والتي ربما تكون أكثر تعقيدًا من تلك الخاصة بطقوس اليونان.

على أي حال، لا يسعنا إلا أن نشعر بعظمة العديد من مفاهيم الدين الباطني لمصر، على الرغم من عجزنا الحالي عن تصنيفها بطريقة مرضية. إن الخلفية الواسعة والغامضة لطقوس مصر، والعبارات الرنانة والألقاب الفخمة التي ننتقيها

من عدم وضوح الأسطورة والرمز في الوقت الحاضر، تقنعنا بأن هناك شيئًا عظيمًا كان يعمل في الداخل، ونجد أعمق مساعي المتصوفين المكرسين لـ "ميلاد حورس"، وهو تجسيد لأعظم الأسرار على الإطلاق، وهو الميلاد الروحي للإنسان، الذي يصبح فيه الإنسان إلهًا وابنًا للآب.

بحسب الكتاب اليونانيين، نظر المصريون أنفسهم إلى الوراء إلى زمن كانت فيه طبقة الكهنة المتأهلين المجتمعات الصوفية. لديهم تمتلك حكمة أكبر مما كانت عليه في العصور اللاحقة؛ وهم يعترفون بأنهم قد انحرفوا عن هذا المستوى الرفيع وفقدوا مفتاح الكثير من معارفهم. ومع ذلك، ظلت الرغبة في الحكمة قوية لدى الكثيرين في البلاد، وكانت مصر دائماً واحدة من أكثر

الدول تديناً في العالم. وهكذا نجد اليهودي فيلو، في كتاباته عن محبي الحكمة حول 25م،معلناً أن "هذه الفئة الطبيعية من الرجال موجودة في أجزاء كثيرة من العالم المأهول، سواء العالم اليوناني أو غير اليوناني، يشاركون في الخير الكامل. يوجد في مصر حشود منهم في كل مقاطعة، أو مناطق كما يسمونها، وخاصة حول الإسكندرية.

هؤلاء المحبون للحكمة الذين أطلق عليهم فيلو الاسم الشائع المعالجون، المعالجون. إما لأنهم ادّعوا امتلاك فن علاجي يفوق ما هو شائع الاستخدام، لأنهم كانوا يعالجون النفوس كما يعالجون الأجساد، أو لأنهم كانوا خدام الله. يصف إحدى جماعاتهم، والتي من الواضح أنها كانت تنتمي إلى دائرة اليهودية الصوفية؛ لكن العديد من الجماعات الأخرى التي ذكرها

ص 61

كانت مكرسة لنفس الغايات، وكان أعضاؤها باحثين دؤوبين عن الحكمة وممارسين متفانين للحياة المقدسة. لم تترك هذه الجماعات السرية أي سجلات؛ فقد حافظوا على أنفسهم بمعزل عن العالم، ولم يكن العالم يعرفهم. لكن هذه المجتمعات تحديداً هي التي كانت الروابط المباشرة في سلسلة وراثة الغنوص.

لذلك، يجب علينا أن نستفيد قدر الإمكان مما يخبرنا به فيلو عن هؤلاء المعالجين؛ وللقيام بذلك بشكل كامل، سيكون من الضروري بالطبع البحث في جميع أعماله الضخمة وإخضاع المواد التي تم جمعها لفحص نقدي - وهي مهمة خارج نطاق هذه الرسومات الموجزة. ولكن بما أن الأمر ذو أهمية حيوية، فلا يسعنا إلا أن نقدم للقارئ

ترجمة للمصدر الرئيسي في كتابات فيلو الذي نستمد منه معلوماتنا. لكن قبل تقديم هذه الترجمة، من الضروري أن نبدأ ببعض الكلمات كمقدمة.

ظهور طبعة كونيبير الرائعة لنص رسالة فيلو الشهيرة في عام 1895. المسيحيون الأوائل عند يوسابيوس. في الحياة التأملية، وضع أحد الأهرامات المقلوبة ببراعة، والتي تعود أصولها إلى نقطة البداية، على قاعدتها مرة أخرى.

العنوان الكامل لهذا العمل المهم هو: فيلو عن الحياة التأملية، أو الكتاب الرابع من الرسالة المتعلقة بالفضائل، - تم تحريره بشكل نقدي مع دفاع عن أصالته بواسطة فريد سي. كونيبير، ماجستير (أكسفورد، 1895). يحتوي هذا الكتاب على قائمة مراجع ممتازة للغاية للأعمال المتعلقة بالموضوع.

إن بقاء أعمال فيلو الضخمة رغم الإهمال والتخريب في العصور المظلمة

ص 62

والوسطى يعود إلى حقيقة أن يوسابيوس، في جهوده لبناء التاريخ بدون مواد، استغل بشغف وصف فيلو للمظاهر الظاهرية لرهبنة المعالجين، وأعلن بجرأة أنها أقدم كنيسة مسيحية في الإسكندرية.

ظل هذا الرأي دون منازع حتى ظهور البروتستانتية، ولم يتم التشكيك فيه إلا حينها لأن الحزب البابوي استند في دفاعه عن قدم الرهبنة المسيحية على هذه الرسالة الشهيرة.

على مدى ثلاثة قرون، تم توجيه كل جهود الدراسات البروتستانتية نحو هذا الموقف الرئيسي للكنائس الرومانية واليونانية. لأنه إذا كانت الرسالة أصلية، فإن الكنيسة الأولى كانت مجتمعًا من الزهاد المتشددين، رجالًا ونساءً؛ الرهبنة، العدو اللدود للبروتستانتية، كانت متزامنة مع الأصول.

لقد أدت هذه القرون الثلاثة من الهجمات في النهاية إلى تطوير نظرية، والتي، بعد أن أتقنها غراتز، نظرية فيلو الزائفة.وقد تم قبول نيكولاس ولوسيوس من قبل جميع علماء البروتستانت البارزين تقريبًا، ويزعم أنهما قد دمروا الوثيقة المرفوضة إلى الأبد. وفقًا لهذه النظرية، "لا يزال المعالجون مسيحيين، كما كانوا بالنسبة ليوسابيوس؛ لكنهم لم يعودوا من الطبقة البدائية". "لأن نسبة العمل إلى فيلو أعلن أنها خاطئة، وأن الزهاد الموصوفين فيه هم في الواقع رهبان من حوالي عام 300 ميلادي؛ وفي غضون بضع سنوات من ذلك التاريخ، يفترض أن الرسالة قد تم تزويرها" (المرجع السابق، ص. 6).

والنتيجة هي أن كل تاريخ حديث للكنيسة البروتستانتية، ومعجم، وموسوعة، عند

ص 63

تناولها للمعالجين، مليئة بالإشارات إلى الاختراع البارع، المسمى "الفيلو الزائف".

ظل هذا الهرم الخاص بالأصول قائماً على قمته حتى عام 1895، عندما نُشر عمل كونيبير، إنها الضربة القاضية. وتم إسقاط جميع الدعامات من تحته. ومن الغريب أن نقول إنه في ذلك الوقت فقط تم وضع نص نقدي لهذه الرسالة التي تعرضت لهجوم عنيف بين أيدينا. وأخيراً تم تجميع جميع المخطوطات والإصدارات. بمثابرة لا هوادة فيها، قام كونيبير بتجميع شهادته، وبصبر مثير للإعجاب قام بمقارنة كل عبارة مميزة وتعبير تقني مع اقتباسات غزيرة من بقية أعمال فيلو، والتي يوجد عنها "جهل سائد ومؤسف". وقد أضاف إلى ذلك ملحقاً موسعاً حول تأليف فيلونيان لهذه الرسالة. إذا لم يكن فيلو هو من كتب كتاب "عن الحياة التأملية" ، فإن كل قواعد النقد الأدبي هي مجرد وهم؛ فالأدلة التي قدمها زميل الكلية الجامعية السابق لإثبات صحة الرسالة لا يمكن مقاومتها. وهكذا نشهد انطلاقة جديدة في أبحاث فيلونيان.

إن الخطر الذي يهدد بعض الافتراضات التقليدية والذي قد تشكله دراسة شاملة لبقية أعمال فيلو، يتضح من الفقرة الختامية لمقدمة كونيبير، حيث كتب:

"من الصعب تصديق ذلك، وهو أمر يُعتبر عاراً على أكسفورد كمكان للتعلم، أنه لا يُوصى بقراءة سطر واحد من كتابات فيلو، ولا أي عمل يتعلق به بشكل خاص، من قبل الطلاب في كلية اللاهوت الشرقية لدينا؛ وأنه على الرغم من أن هذا

ص 64

المؤلف الأكثر روحانية هو، باعتراف ضمني أو صريح، من قبل سلسلة طويلة من المعلمين الكاثوليك، من يوسابيوس وأمبروز في القرن الرابع وصولاً إلى بول ودولينجر في العصر الحديث، ليس فقط أب التفسير المسيحي، ولكن أيضاً، إلى حد كبير، أب اللاهوت العقائدي المسيحي" (المرجع السابق، ص. 10).

وبذلك يثبت أن كتاب "عن الحياة التأملية" هو رسالة فيلونية حقيقية. أما بالنسبة لتاريخها، فنحن سؤال مثير للاهتمام يتعلق بالتاريخ. نواجه بعض الصعوبات؛ لكن رأي الخبير كونيبير يؤكد لنا أن "كل إعادة قراءة لأعمال فيلو تؤكد شعوري بأن عن الحياة التأملية هي واحدة من أقدم أعماله" (المرجع السابق، ص 276). وبما أن فيلو ولد حوالي عام 30 قبل الميلاد، فمن الممكن أن يُنسب تاريخ الرسالة تقريبًا إلى الربع الأول من القرن الأول. (حوالي عام 22 أو 23) - المرجع السابق، ص 290). يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: هل يمكن في مثل هذا التاريخ تحديد معالجي فيلو مع أقدم كنيسة مسيحية في الإسكندرية؟ إذا كانت التواريخ المقبولة للأصول صحيحة، فيجب أن تكون الإجابة بشكل قاطع، لا. أما إذا كانت التواريخ المقبولة غير صحيحة، فإن ذلك يفتح مشكلة كبيرة، ذات أهمية قصوى لأصول العقيدة المسيحية. ومع ذلك، فإن محتويات عن الحياة التأملية ذات أهمية واهتمام كبيرين لأنها تتيح لنا لمحة عن تلك المجتمعات الغامضة التي تعرف فيها المسيحيون على أسلافهم لقرون عديدة. لم يكن المعالجون مسيحيين؛ فيلو لا يعرف شيئًا على الإطلاق عن المسيحية بأي معنى ممكن تستخدم فيه الكلمة اليوم. من كانوا إذن؟ إن الإجابة على هذا السؤال

ص 65

تتطلب إعادة صياغة كاملة للتاريخ المقبول للأصول.

تحمل الرسالة في بعض المخطوطات العنوان العنوان والسياق. "المتضرعون، أو في الفضائل، الكتاب الرابع، أو في فضيلة المتضرعين، الكتاب الرابع." ويخبرنا فيلو أن المقصود بكلمة "المتضرع" هو "الشخص الذي لجأ إلى الله واحتم به". (دي ساك. آب. وآخرون، ط*186*، *33*). من المحتمل جداً أن تكون رسالتنا قد شكلت جزءاً من الكتاب الرابع من عمل فيلو الضخم "عن البعثة"، والذي لم يبقَ منه سوى أجزاء.

"قامت مجلة تايم والمحررون المسيحيون بتقليص كتاب عن البعثة بثلاث طرق مختلفة." أولاً، تم حذف جزء كبير من الكتاب الثاني، ربما لأنه يتعارض مع التقاليد المسيحية فيما يتعلق ببيلاطس البنطي. ثانيًا، تم حذف الكتاب الرابع بأكمله، باعتباره وحدة متكاملة؛ وقد فُقد الجزء الأول منه، باستثناء الجزء المتعلق بالإسينيين الذي حفظه لنا يوسابيوس في كتاب "التحضير للإنجيل"؛ بينما تم وضع رواية المعالجين بشكل منفصل وحفظها ككتاب مستقل. ثالثًا، لقد فُقدت القصيدة التي شكلت الكتاب الخامس" (المرجع السابق، ص 284).

لكن بالنسبة للرسالة نفسها.

ص 66

فيلو عن الحياة التأملية.

"بما أنني قد تناولت بالفعل الإسينين الذين يمارسون الحياة [الدينية] بجد، الإسينيون. وينفذونها في كل درجاتها، أو، لكي لا أكون متغطرسًا، في معظمها، فسأنتقل على الفور، باتباع تسلسل موضوعي، لأقول ما هو مناسب بشأن أولئك الذين يعتنقون [حياة] التأمل؛ وذلك أيضًا دون إضافة أي شيء من عندي لتحسين الأمر - كما اعتاد جميع الشعراء والمؤرخين على فعله في ندرة المواد الجيدة - ولكن متمسكًا بالحقيقة نفسها ببساطة، لأنه حتى أكثر [الكتاب] مهارة، كما أعلم، سيفشل في التحدث وفقًا لها.

"ومع ذلك، يجب بذل الجهد ويجب أن نكافح من أجله؛ لأن عظمة فضيلة هؤلاء الرجال لا ينبغي أن تكون سبباً للصمت بالنسبة لأولئك الذين يرون أنه من الصواب ألا يتم التكتم على أي شيء جيد.

"إن الغرض من محبي الحكمة لدينا واضحٌ تماماً من اسمهم. يُطلق عليهم الاسم العلاجي. المعالجون و المعالجين [رجال ونساء] بالمعنى الأصلي للكلمة؛ إما لأنهم يدّعون امتلاك فن علاج يفوق ما هو مستخدم في المدن (لأن ذلك لا يشفي (θεραπεύτει) إلا الأجساد، بينما هذا [يشفي] نفوسنا أيضًا عندما تُصاب بأمراض صعبة ونادرة الشفاء، والتي تُلحقها بها اللذة والرغبة، والحزن والخوف، والأنانية والحماقة، والظلم،

ص 67

والعدد الهائل من الأهواء والرذائل)، أو لأنهم قد تم تدريبهم من خلال الطبيعة والقوانين المقدسة لخدمة (θεραπεύτειν) ما هو أفضل من الخير وأنقى من الواحد وأقدم من الموناد."

ينغمس فيلو هنا في استطراد، حيث يقارن بين عبادة الأشياء الظاهرية غير الذكية من قبل المضللين في جميع الأديان وعبادة الإله الحقيقي من قبل أولئك الذين يتبعون الحياة التأملية. إن الذين يكتفون بعبادة المظاهر الظاهرية عميان، فليظلوا إذن محرومين من البصر. ويضيف بشكل ملحوظ أنه لا يتحدث عن رؤية الجسد، بل عن رؤية النفس، التي بها فقط يتم التمييز بين الحق والباطل.

أما بالنسبة لجنس المتعبدين [المعالجين]، الذين يتعلمون باستمرار المزيد والمزيد من الرؤية، فليسعوا إلى حدس ما هو كائن؛ وليتجاوزوا الشمس التي يدركها البشر [وينظروا إلى النور الذي وراءها]، ولا يغادروا أبدًا هذه المرتبة [النظام أو المكان أو المستوى]، التي تؤدي إلى السعادة الكاملة. أما الذين ينخرطون في خدمة [الإله]، فلا يفعلون ذلك بسبب أي عادة، أو بناءً على نصيحة أو طلب من أحد، بل مدفوعين بحب سماوي، مثل أولئك الذين تم إدخالهم في أسرار باكوس وكوريبانتيك؛ فهم مشتغلون بالله حتى يروا معشوقهم.

"ثم إنهم، من خلال شوقهم لتلك الحياة الخالدة المباركة، ظانين هجرهم للعالم. أن حياتهم الفانية قد انتهت بالفعل، يتركون ممتلكاتهم لأبنائهم وبناتهم، أو ربما

ص 68

لأقارب آخرين، بعزم راغب يجعلهم ورثتهم قبل الأوان؛ بينما أولئك الذين ليس لديهم أقارب [يعطون ممتلكاتهم] لرفاقهم وأصدقائهم."

في استطراد، يشير فيلو إلى الفرق بين التخلي المنظم والرزين عن الممتلكات لاتباع الحياة الفلسفية، وهو ما يمدحه، والمبالغات الجامحة للأساطير الشعبية، التي روت كيف أن أناكسوغوراس وديموقريطوس، عندما استولت عليهما محبة الحكمة، سمحا للماشية بالتهام جميع ممتلكاتهما.

"حينما يتخذ [محبو الحكمة لدينا] خطوة التخلي عن ممتلكاتهم، فإنهم لا يعودون عرضة للإغراء من قبل أي شخص، بل يسرعون دون أن يلتفتوا إلى الوراء ولو لمرة واحدة، تاركين وراءهم إخوتهم وأطفالهم وزوجاتهم وآبائهم وروابط القرابة المتعددة

وروابط الصداقة وأراضيهم الأصلية التي ولدوا ونشأوا فيها؛ لأن العادة هي عبء وإغراء قوي للغاية.

"ولا يهاجرون إلى مدينة أخرى (مثل العبيد المخدوعين أو عديمي القيمة الذين، عندما يطالبون بالشراء ملاذاتهم. من أسيادهم، لا يحصلون إلا على تغيير في الأسياد وليس على الحرية)، لأن كل مدينة، حتى أفضلها حكماً، مليئة بالاضطرابات التي لا تعد ولا تحصى، وأشكال الدمار، والفوضى التي لا يمكن تحملها لرجل اتخذ الحكمة دليلاً له.

"لكنهم يتخذون مساكنهم خارج الأسوار في الغابات [المغلقة] أو الأراضي المسورة سعياً وراء العزلة، [وهذا] ليس لإشباع أي شعور بالكراهية الفظة تجاه بني جنسهم، ولكن من معرفة أن الاتصال المستمر مع أولئك

ص 69

الذين يختلفون عنهم في الميول غير مفيد وضار.

"الآن توجد هذه الفئة الطبيعية من الرجال [حرفيًا: العرق] في أجزاء كثيرة من العالم المأهول، سواء العالم اليوناني أو غير اليوناني، الذين يشتركون في الخير الكامل.

"في مصر توجد حشود منهم في كل مقاطعة، أو نام (مناطق) كما يسمونها، المستعمرة المريوطية. وخاصة حول الإسكندرية." أما أولئك الذين هم في كل شيء [أو في كل نام] الأكثر تقدماً، فيأتون كمستوطنين، كما لو كانوا، إلى وطن المعلاجين، إلى بقعة ملائمة للغاية لهذا الغرض، تقع على مصطبة عالية نسبياً [هضبة صغيرة أو مجموعة من التلال الصغيرة] تطل على بحيرة ماريا أو بحيرة ماريوتيس (بحيرة مريوط) جنوب الإسكندرية مباشرة، في موقع ملائم للغاية من حيث الأمن واعتدال درجة الحرارة. يتم ضمان الأمن [هكذا ورد. من اللصوص] بواسطة حزام المنازل والقرى [الذي يحيط بالشرفة]، ويعود اعتدال درجة الحرارة إلى النسائم المستمرة التي تهب من البحيرة، والتي تفتح على البحر، ومن قرب البحر المفتوح نفسه. إن النسائم القادمة من البحر خفيفة، بينما النسائم القادمة من البحيرة ثقيلة، ومزيجهما ينتج حالة صحية للغاية [للجو].

"مساكن المجتمع بسيطة للغاية، فهي توفر المأوى فقط مقابل مساكنهم. أهم حاجتين، وهما حرارة الشمس الشديدة وبرودة الهواء الشديدة." المساكن ليست متقاربة مثل تلك الموجودة في المدن، لأن الجوار مزعج وغير سار لمن

ص 70

يبحثون عن العزلة؛ كما أنها ليست متباعدة، بسبب التواصل الذي هو عزيز عليهم، وأيضًا للمساعدة المتبادلة في حالة هجوم اللصوص.

"في كل مسكن مكان مقدس، يسمى ضريحًا أو ديرًا [غرفة صغيرة أو خزانة أو المعنى الأصلي لمصطلح الدير. زنزانة]، حيث يؤدون في عزلة أسرار الحياة المقدسة، ولا يدخلون إليه لا شرابًا ولا طعامًا ولا أي شيء آخر ضروري لاحتياجات الجسد، بل فقط قوانين وأقوال الأنبياء الموحى بها، والترانيم، وما إلى ذلك، والتي من خلالها تنمو المعرفة والتقوى معًا وتكتمل.

"وهكذا يحافظون على ذكرى الله دون انقطاع، بحيث لا يُعرض على أذهانهم حتى في وعيهم الحلمي سوى أمجاد الفضائل والقدرات الإلهية. ولذلك يقوم الكثير منهم بنشر المذاهب الإيقاعية للحكمة المقدسة، التي حصلوا عليها من رؤى الحياة الحلمية.

"مرتين في اليوم، عند الفجر وفي المساء، صلواتهم وتدريباتهم. اعتادوا أن يقدموا الصلوات؛ فعند شروق الشمس يصلون من أجل أشعة الشمس، أشعة الشمس الحقيقية، لكي تمتلئ عقولهم بالنور السماوي، وعند غروبها يصلون لكي تنسحب نفوسهم، وقد تخلصت تماماً من شهوات الحواس والأحاسيس، إلى جماعتها وقاعة مجلسها، وهناك لتبحث عن الحقيقة.

"إنهم يخصصون الفترة الزمنية الكاملة من الفجر إلى غروب الشمس لممارسة تمارينهم. يأخذون الكتابات المقدسة ويقضون وقتهم في دراستها [حرفيًا: التفلسف]، ويفسرون شفرتهم الموروثة تفسيرًا رمزيًا،

ص 71

لأنهم يعتقدون أن الكلمات ذات المعنى الحرفي هي رموز ذات طبيعة خفية لا تتضح إلا من خلال المعنى الضمني.

"لديهم أيضًا أعمال مؤلفين قدماء كانوا في يوم من الأيام رؤساء لمدرستهم، وتركوا وراءهم طبيعة كتبهم. العديد من الآثار للطريقة المستخدمة في أعمالهم الرمزية؛ وباعتبارها نماذج، فإنهم يقلدون ممارسة أسلافهم. إنهم لا يقضون وقتهم في التأمل فقط، بل يؤلفون الأغاني والترانيم لله بجميع أنواع الأوزان والألحان، والتي يتم تحديدها بالضرورة على خلفية الأرقام الأكثر وقارًا [حرفيًا: الإيقاعات].

"لمدة ستة أيام متتالية، يبقى كل فرد منعزلاً في عزلة مع نفسه في "ديره"، كما طريقة اجتماعهم. يسمى، منشغلاً بالدراسة، ولا يخرج من الباب أبداً، ولا حتى ينظر من النافذة. لكنهم يجتمعون كل يوم سابع كما لو كانوا في جمعية عامة، ويجلسون بالترتيب حسب "سنهم" [أي مدة عضويتهم في النظام]، في الوضعية المحددة، وأيديهم متجهة للأسفل، واليد اليمنى بين الصدر والذقن، واليد اليسرى بجانب الجسم. ثم يتقدم من هو الأقدم والأكثر مهارة في المذاهب ويتحدث، بعيون ثابتة وصوت ثابت، بعقلانية وتفكير عميق، لا يستعرض براعة الكلمات، كما يفعل البلاغيون والسفسطائيون اليوم، بل يفحص بدقة ويشرح المعنى الدقيق في الأفكار، وهو معنى لا يضيء على أطراف الآذان فحسب، بل يخترق الأذن ويصل إلى النفس ويستقر

ص 72

فيها بثبات. أما البقية فيستمعون في صمت، معبرين عن موافقتهم بمجرد نظرة في العين أو إيماءة بالرأس.

"أما هذا المعبد العام الذي يجتمعون فيه كل يوم سابع، فيتكون من قسمين الملاذ. أحدهما منفصل للرجال، والآخر للنساء. فالنساء أيضاً يشكلن عادةً جزءاً من الجمهور، ويمتلكن نفس الرغبة الشديدة وقد اتخذن نفس الخيار المتعمد [مثل الرجال].

"إن الفاصل بين القاعتين مبني جزئياً فقط، على بعد ثلاثة أو أربعة أذرع من الأرضية، مثل المتراس، أما الباقي، حتى السقف، فيترك مفتوحاً،

وذلك لسببين: أولهما الحفاظ على تلك الحشمة التي تليق بطبيعة المرأة، وثانيهما أن يتمكن الجالسون على مسمع من السماع بسهولة، حيث لا يوجد ما يعيق صوت المتحدث.

"الآن [معالجونا] يضعون أولاً وقبل كل شيء العفة كأساس، كما لو كان ذلك للنفس، ثم يشرعون في بناء بقية الفضائل عليها. وبناءً على ذلك، لا يفكر أي منهم في تناول الطعام أو الشراب قبل غروب الشمس، لأنهم يعتبرون أن ممارسة الفلسفة تستحق النور، بينما قد تكتفي ضرورات الجسد بالظلام؛ ومن ثم يخصصون النهار للأول، وجزءًا قصيرًا من الليل للثاني.

A number of them, in whom the thirst for wisdom is implanted to a greater degree," ,remind themselves of their food but once in three days

ص 73

بينما يشعر القليل منهم بالبهجة ويتناولون طعامًا فاخرًا في الصيام. مأدبة الحكمة من التعاليم التي تقدمها لهم بسخاء وبلا بخل، لدرجة أنهم يستطيعون البقاء لمدة ضعف الوقت، وحتى بعد ستة أيام بالكاد يتناولون لقمة من الطعام الأكثر ضرورة، إذ يتم تدريبهم على العيش على الهواء، كما يقولون أن الجراد يفعل [أفلاطون، فيدروس]، وتخف احتياجاتهم بفضل غنائهم على ما أعتقد.

"منذ ذلك الحين يعتبرون اليوم السابع عيداً وجبة اليوم السابع المشتركة. مقدساً وعظيماً، ويعتبرونه جديراً بتكريم خاص، وفيه، بعد إيلاء الاهتمام الواجب للنفس، يدهنون الجسد، ويمنحونه، كما يفعلون مع مواشيهم، راحة من العمل المتواصل. ومع ذلك، فهم لا يتناولون طعاماً فاخراً، بل خبزاً عادياً مع ملح للتتبيل، والذي يضيف إليه الذواقة نكهة إضافية من الزوفا؛ أما بالنسبة للشرب، فهم يشربون الماء من النبع. وهكذا، في تهدئة الحاجات الأساسية التي وضعتها الطبيعة على الجنس البشري - الجوع والعطش - فإنها لا تقدم لهم شيئاً لإرضاء غرورهم، بل تقدم لهم فقط الضروريات الأساسية التي تجعل الحياة ممكنة. وعليه فإنهم يأكلون فقط للهروب من الجوع، ويشربون فقط للهروب من العطش، ويتجنبون الشبع باعتباره عدوًا ومتآمرًا ضد كل من النفس والجسد.

"الآن هناك نوعان من الغطاء - الملابس والمنزل." أما بالنسبة لمسكنهم فقد ذكرت أعلاه السكن والملابس. أنه ليس جميلاً على الإطلاق، ومبني على أي حال، لأنه مصمم فقط لتلبية غرضه الضروري للغاية؛ أما بالنسبة لملابسهم، فهي أيضاً من أبسط الأنواع، فقط لحمايتهم من البرد

ص 74

والحر؛ في الشتاء عباءة سميكة بدلاً من جلد صوفي، وفي الصيف رداء بلا أكمام من الكتان الناعم.

"لأنهم في كل شيء يمارسون البساطة، مدركين أن الباطل له أصل باطل، والبساطة هي الحقيقة، وكل منهما يحتوي على القوة الكامنة لمصدره؛ لأن من الباطل تتدفق أنواع الشرور المتعددة، بينما من الحقيقة تأتي البركات الوفيرة من الخير البشري والإلهي على حد سواء.

"أود أيضًا أن أتطرق إلى الاجتماعات العامة التي يقضون فيها الوقت في أجواء احتفالية أعيادهم المقدسة. أكبر من المعتاد، ويتناولون فيها الولائم معًا، مقارنةً بمآدب الآخرين."

ينغمس فيلو هنا في استطراد طويل يرسم فيه بأبهى صوره الفجور والإسراف في ولائم المترفين، وذلك لمقارنتها قدر الإمكان بالأعياد المقدسة للمعالجين.

"في المقام الأول، يجتمعون جميعًا في نهاية كل أسبوع سابع، لأنهم لا يجلّون فقط الفترة البسيطة المكونة من سبعة أيام، ولكن أيضًا فترة قوة [أو مربع] الرقم سبعة، لأنهم يعلمون أن الرقم "سبعة" نقي وعذري تمامًا. إن عيدهم في اليوم السابع ليس إلا مقدمة لأعظم أعيادهم، والذي يُخصص للعدد الخمسين، وهو العدد الأكثر قدسية وطبيعية، [مجموع] قوى المثلث القائم الزاوية [الكامل]، والذي تم تعيينه كمصدر لتكوين العناصر الكونية.

"ثم يجتمعون معًا، مرتدين أثوابًا بيضاء، بنظرات بهيجة وبأقصى درجات الجلال،

ص 75

بناءً على إشارة من أحد رؤساء المعابد لهذا اليوم (لأن هذا هو الاسم المعتاد مأدبة اليوم الخمسين. لمن يقومون بمثل هذه الواجبات)، وقبل أن يجلسوا، واقفين بجانب بعضهم البعض في صفوف بترتيب معين، ويرفعون أعينهم وأيديهم إلى السماء - أعينهم، لأنها مدربة على النظر إلى الأشياء الجديرة بالتأمل؛ وأيديهم، لأنها طاهرة من الربح، غير ملوثة بأي ادعاء بأمور كسب المال - يقدمون الصلاة إلى الله لكي تكون مأدبتهم مرضية ومقبولة.

"بعد الصلاة، يجلس كبار السن إلى المائدة، وفقًا لترتيب انتخابهم. لأنهم الأقدمية. لا يعتبرون كبار السن مجرد أولئك الذين تقدموا في السن ووصلوا إلى الشيخوخة (بل يعتبرونهم أطفالاً صغاراً إذا كانوا قد وقعوا في حب الحياة العليا مؤخراً)، بل يعتبرون أولئك الذين نشأوا ووصلوا إلى النضج في الجزء التأملي من الفلسفة، وهو بلا شك الجزء الأكثر جمالاً وإلهية.

"وتشارك النساء أيضاً في الوليمة، ومعظمهن قد تقدمن في السن وهن عذارى، يحافظن التلميذات النساء. على طهارتهن ليس بدافع الضرورة (كما هو الحال مع بعض الكاهنات بين اليونانيين)، بل بإرادتهن الحرة، من خلال حبهن الشديد للحكمة، التي يرغبن بشدة في قضاء حياتهن معها لدرجة أنهن لا يكترثن بملذات الجسد. إن شوقهم ليس لأطفال فانين، بل لذرية خالدة لا يمكن أن تنجبها إلا النفس التي تعشق الله، عندما يغرس فيها الآب تلك الأشعة الروحية، التي من خلالها

ص 76

تتأمل قوانين الحكمة. ومع ذلك، يوجد فصل بينهما في أماكن جلوسهما على المائدة، حيث يجلس الرجال على اليمين، والنساء على اليسار."

(يجب التذكير بأنه كان من المعتاد في العالم اليوناني الروماني الاستلقاء على الطاولة، والاتكاء على المرفق الأيسر مع وضع وسادة تحت الذراع). قيل إن الشخص المتكئ

على يمين شخص آخر يرقد على صدر الأخير (ἀυακεῖσθαι ἐυ τῷ κόλπῳ). انظر إلى العبارة القانونية، "التلميذ الذي اضطجع على صدره أثناء الطعام".

"ربما تشك في أن الوسائد، إن لم تكن فاخرة فعلى الأقل ذات نعومة مقبولة، يتم توفيرها الأرائك البسيطة. للأشخاص ذوي الأصل الرفيع والتربية الجيدة وطلاب الفلسفة، في حين أن ليس لديهم سوى مراتب من مادة يسهل الحصول عليها (ورق البردي في البلاد)، والتي يضعون فوقها أبسط أنواع السجاد الممكنة، مرتفعة قليلاً عند المرفق لكي يتكئوا عليها. فمن جهة، يخففون إلى حد ما من صرامة حياتهم [المعتادة] [في مثل هذه المناسبات]، بينما من جهة أخرى [حتى في الولائم] يدرسون دائماً أقصى درجات التقشف في كل شيء، رافضين مغريات المتعة بكل قوتهم.

"ولا يخدمهم العبيد، لأنهم يعتبرون امتلاك الخدم بشكل عام الخدم. مخالفاً للطبيعة." لأن الطبيعة خلقت جميع البشر أحراراً؛ لكن الظلم والأنانية لدى أولئك الذين يسعون وراء عدم المساواة (أصل كل شر)، وضعوا نير السلطة على أعناق الأضعف وربطوهم بـ[مركبات] الأقوياء.

ص 77

"لذلك في هذه الوليمة المقدسة لا يوجد عبد، كما قلت، بل يتم تقديمها من قبل رجال أحرار يؤدون الخدمة اللازمة، ليس بالإكراه أو انتظار الأوامر، بل بإرادتهم الحرة مستبقين طلبات [الضيوف] بسرعة وحماس. لأنهم ليسوا رجالاً أحراراً بالصدفة يتم تعيينهم لمثل هذه الخدمة، بل هم صغار في الرتبة تم اختيارهم حسب الجدارة بكل عناية ممكنة، والذين (كما ينبغي للنبلاء ذوي النسب الرفيع والراغبين في بلوغ قمة الفضيلة) يتنافسون بمودة، كما لو كانوا أبناءهم الشرعيين، ويخدمون آباءهم وأمهاتهم، ويعتبرونهم آباءهم المشتركين، ويرتبطون بهم بروابط أوثق من روابط الدم: لأنه، بالنسبة لأولئك الذين يفكرون، لا توجد رابطة أوثق من الفضيلة والخير. ويدخلون للخدمة وهم دون أحزمتهم، وقد تم إنزال أرديتهم، حتى لا يظهر أي تشابه مع لباس العبيد.

"أعلم أن بعض قرائي سيضحكون على مثل هذه الوليمة؛ لكن مثل هذا الضحك سيجلب لهم البكاء والحزن.

"ولا يتم إحضار النبيذ في هذه المناسبات، بل يتم إحضار أنقى المياه، باردة للأغلبية، الضيافة البسيطة. ودافئة لكبار السن الذين يتمتعون بأذواق حساسة. علاوة على ذلك، لا تحتوي المائدة على أي شيء يحتوي على دم، لأن الطعام عبارة عن خبز مع ملح للتتبيل، ويضاف إليه الزوفا كإضافة لذيذة للذواقة. فكما أن العقل السليم يأمر الكهنة بتقديم القرابين الخالية من الخمر والدم، فإنه يأمر هؤلاء الحكماء أيضاً بالعيش. فالخمر مخدر يؤدي إلى الجنون، والتوابل باهظة الثمن

ص 78

تثير الرغبة، وهي أكثر الوحوش نهماً. هذا كل ما يتعلق بمقدمات المأدبة.

"الآن، بعد أن يأخذ الضيوف أماكنهم الرئيس. في الصفوف التي وصفتها، ويقف النُدُل في صفوفهم، مستعدين للخدمة، عندما يسود الصمت التام - (ومتى لا يكون هناك صمت تام؟) قد تقول؛ ولكن حينها يسود صمت أعمق من ذي قبل، بحيث لا يجرؤ أحد على إصدار صوت أو حتى التنفس بصعوبة) -

يبحث الرئيس عن مقطع ما في الكتب المقدسة أو يحل مشكلة طرحها أحد الأعضاء، دون أي نية للتفاخر، لأنه لا يسعى إلى سمعة طيبة في البراعة اللغوية، ولكنه يرغب ببساطة في الحصول على رؤية أوضح لبعض النقاط [العقيدة]؛ وعندما يفعل ذلك، يشاركها بإخلاص مع أولئك الذين، على الرغم من أنهم لا يملكون نفس الرؤية الثاقبة مثله، إلا أن لديهم نفس الرغبة الشديدة في التعلم.

"أما الرئيس من جانبه فيستخدم أسلوباً مريحاً إلى حد ما في إيصال التعليمات، حيث يتوقف التعليمات. على فترات ويتوقف لمراجعة المعلومات بشكل متكرر، مما يرسخ الأفكار في نفوسهم. (فعندما يستمر المرء في الحديث بسرعة دون توقف لالتقاط أنفاسه أثناء تقديم التفسير، فإن عقول المستمعين تتخلف عن الركب، ولا تستطيع مواكبة الوتيرة، وتفشل في فهم ما يقال.) بينما هم، من جانبهم، يركزون كل انتباههم عليه، ويظلون في نفس الموقف يستمعون بانتباه، ويظهرون فهمهم واستيعابهم [لكلماته] بالإيماء والنظرة؛ مدح المتحدث بتعبير مسرور

ص 79

والالتفات المتأمل إليه بوجوههم، والتردد بهزة خفيفة للرأس وحركة إصبع السبابة من اليد اليمنى. والصغار الذين يقفون لتقديم الخدمة لا يقلون انتباهاً عن الكبار الجالسين على الطاولة.

"إن تفسير الكتب المقدسة يعتمد على المعاني الخفية في الروايات تفسير الكتاب المقدس. الرمزية؛ لأن هؤلاء الرجال ينظرون إلى شريعتهم بأكملها على أنها أشبه بكائن حي، جسده الأوامر المنطوقة، وروحه الفكر غير المرئي المخزن في الكلمات (في هذا الفكر تبدأ النفس العاقلة [للطالب] في التأمل في الأشياء المتأصلة في طبيعتها أكثر من أي شيء آخر) - التفسير، كما لو كان في مرآة الأسماء، يلتقط جمال الأفكار غير العادية التي تحتويها، ويكشف الرموز منها، ويبرز المعاني الداخلية المجردة، لأولئك القادرين على الوصول إلى حدس المعنى الخفي من المعنى الظاهر مع قليل من الإيحاء.

"عندما يبدو أن الرئيس قد ألقى خطاباً طويلاً بما فيه الكفاية، وأن الخطاب، وفقاً لنطاقه، قد حقق ممارسة جيدة في حالته في النقاط المستهدفة، وفي حالتهم [حظي بالاهتمام الواجب]، هناك موجة من التصفيق من الرفاق، كما لو كانوا سيقدمون تهانيهم، لكن هذا يقتصر على ثلاث تصفيقات بالأيدي.

ثم يقوم الرئيس، وهو ينهض، بترديد ترنيمة تم تأليفها تكريماً لله، إما ترنيمة جديدة ترانيم الترانيم. قام بتأليفها بنفسه، أو ترنيمة قديمة من

ص 80

تأليف الشعراء القدماء. لأنهم تركوا وراءهم العديد من الأوزان والألحان في الملاحم الثلاثية، والترانيم الاحتفالية، وأناشيد السكب، وترانيم المذبح، والجوقات الثابتة، وأغاني الرقص، [وجميعها] موزونة بشكل رائع في ألحان متنوعة.

"وبعده ينضم إليه الآخرون في مجموعات، بالترتيب الصحيح، [يبدأون بالترتيل]، بينما يستمع الباقون في صمت عميق، إلا عندما يتعين عليهم المشاركة في الترديد المتكرر؛ لأنهم جميعًا، رجالًا ونساءً، يشاركون.

ثم عندما تنتهي الترانيم، يحضر الصغار خبز وملح. المائدة التي ذكرناها قبل قليل، وعليها الطعام الطاهر، وهو خبز مخمر بنكهة الملح الممزوج بالزوفا، احتراماً للمائدة المقدسة المقامة في المكان المقدس من المعبد. لأن على هذه المائدة أرغفة وملح بدون توابل؛ الأرغفة فطير والملح غير مخلوط بأي شيء آخر؛ لأنه كان من المناسب أن تُخصص أبسط وأنقى الأشياء لأفضل قسم من الكهنة، مكافأة لخدمتهم، بينما يسعى الباقون إلى أشياء ذات نقاء مماثل، لكنهم يمتنعون عن نفس الطعام [الذي للكهنة]، حتى يتمتع الأكثر تميزًا بهذا الامتياز.

"بعد الوليمة يقيمون الاحتفال الرقص المقدس. المقدس الذي يستمر طوال الليل." وهكذا يتم حفظه. يقفون جميعاً في صف واحد، وفي منتصف الحفل تقريباً ينفصلون أولاً إلى فرقتين، رجال في واحدة ونساء في الأخرى، ويتم اختيار قائد لكل فرقة، وهو القائد الذي يتمتع بأكبر قدر من السمعة والأكثر ملاءمة لهذا المنصب،

ص 81

ثم ينشدون ترانيم تمجد الله بألحان وأوزان مختلفة، أحياناً يغنون في جوقة، وأحياناً تدق إحدى الفرق إيقاعاً على ترنيمة الأخرى، [تارةً] يرقصون على أنغامها، [تارةً] يلهمونها، تارةً في ترانيم الموكب، وتارةً أخرى في أغاني الوقوف، يدورون ويعودون في الرقص.

"ثم عندما تحتفل كل فرقة على حدة [أي تغني وترقص]، وتشرب من الرحيق الذي يرضي الله، كما يشرب الرجال في طقوس باكوس النبيذ غير المختلط، فإنهم ينضمون معًا، وتتشكل جوقة واحدة من الفرقتين، على غرار الجوقة المشتركة على ضفاف البحر الأحمر بسبب الأعمال الرائعة التي تم إنجازها هناك. فأصبح البحر بأمر الله سبباً للنجاة لطرف، وسبباً للهلاك للطرف الآخر".

(يشير فيلو هنا إلى رقصة النصر الأسطورية لبني إسرائيل عند تدمير فرعون وجيشه، عندما قاد موسى الرجال ومريم النساء في رقصة مشتركة؛ لكن المعالجين في جميع أنحاء العالم لم يتمكنوا من تتبع هذه العادة إلى هذه الأسطورة.)

"لذا فإن جوقة المعالجين من الرجال والنساء، التي تشكلت بأقرب ما يمكن على هذا النموذج، عن طريق الألحان في أجزاء والتناغم - النغمات العالية للنساء التي تجيب على النغمات العميقة للرجال - تنتج سيمفونية متناغمة وموسيقية للغاية. الأفكار هي الأجمل، والتعبيرات هي الأجمل، والراقصون هم الأكثر تبجيلاً؛ بينما الهدف من الأفكار والتعبيرات والراقصين هو التقوى.

ص 82

"وهكذا، وهم ثملون حتى ضوء الصباح بهذا صلاة الصباح. السكر الجميل، دون ثقل في الرأس أو نعاس، بل بعيون وأجساد أكثر انتعاشاً مما كانت عليه عندما جاؤوا إلى الوليمة، يقفون عند الفجر، وعندما يرون الشمس المشرقة، يرفعون أيديهم إلى السماء، متضرعين من أجل ضوء الشمس والحقيقة ووضوح الرؤية الروحية. بعد هذه الصلاة، يعود كل منهم إلى ملاذه الخاص، وإلى تجارته المعتادة في الفلسفة وعمله في مجاله.

"أما الآن، فماذا عن المعالجين، الذين يكرسون أنفسهم للتأمل في الطبيعة ويعيشون فيها وفي النفس وحدها، مواطنين في السماء والعالم، موصى بهم بشكل مشروع إلى الأب وخالق الكون بفضل فضيلتهم، التي تجلب لهم محبته، وهي فضيلة تجعل من النبل والخير أسمى مكافأة لها، متجاوزة كل هبة من هبات الثروة، وأول من يشق طريقه نحو هدف السعادة المطلقة."

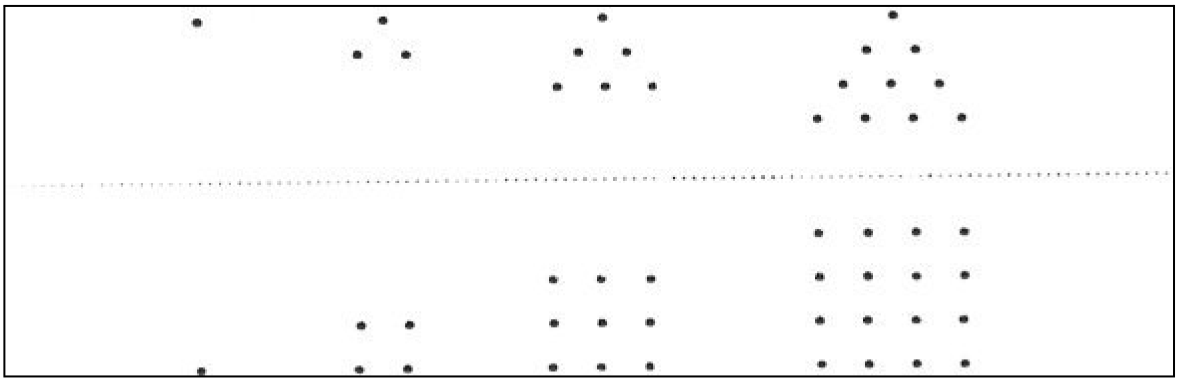
ملاحظة حول الأرقام المقدسة.

فيما يتعلق بالأرقام الغامضة 7 و 50 المذكورة في النص أعلاه، قد يكون من المفيد الإشارة إلى أن فيلو في موضع آخر (Leg.Alleg.، 1. 46) يخبرنا أن الفيثاغوريين أطلقوا على الرقم 7 اسم العذراء الدائمة، لأنه "لا ينتج أيًا من الأرقام داخل العقد [أي من 1 إلى 10] ولا ينتج عن أي منها". قوة أو مربع العدد 7 هو 49، ولذلك كان الاحتفال الكبير يقام كل خمسين يومًا. يستند الرقم 50 إلى نسب أضلاع المثلث القائم الزاوية "المثالي"، وهو المثلث الفيثاغورسي الشهير،

ص 83

الذي أشار إليه أفلاطون كثيراً. (انظر . العدد الزوجي لأفلاطون، بقلم جيمس آدم، الحاصل على درجة الماجستير، كامبريدج، 1891؛ أفضل عمل في هذا الموضوع. أضلاع هذا المثلث تحمل النسب 3 و 4 و 5، و 32 + 42 = 52، أو 9 + 16 = 25؛ و 9 + 16 + 25 = 50.

في رسالة أخرى (Qu. in Gen., *iii.* 39) نحصل على بعض المعلومات الإضافية المثيرة للاهتمام فيما يتعلق بالرقم 50. يتحدث فيلو عن سلسلتين، يسميهما المثلثات والمربعات، وهما 1، 3، 6، 10، و 1، 4، 9، 16. للوهلة الأولى، يصعب اكتشاف سبب تسمية فيلو للسلسلة الأولى من الأرقام بالمثلثات، ولكن خطر لي أنه كان يفكر في ترتيب من هذا القبيل كما يلي.



يمكن استخلاص العديد من أوجه التشابه المثيرة للاهتمام من دراسة الترتيب البسيط ظاهريًا لهذه النقاط أو المونادات أو الذرات، لكننا في الوقت الحالي منشغلون فقط بالنظر في العدد 50.

فيما يتعلق بالمتسلسلة المثلثية 1، 3، 6، 10، تجدر الإشارة إلى أن 1 = 1؛ 3 = 1 + 2؛ 6 = 1 + 2 + 3؛ و 10 = 1 + 2 + 3 + 4.

فيما يتعلق بالمتسلسلة المربعة، 1، 4، 9، 16، نرى على الفور أن $1^2 = 1$; $2^2 = 4$; $3^2 = 9$; و $16 = 4^2$. بالإضافة إلى ذلك، فإن 1 + 3 + 6 + 10 = 20؛ و 1 + 4 + 9 + 16 = 30؛ وأخيرًا 20 + 30 = 50.

ص 84

يمكن قول الكثير غير ذلك؛ لكن مساحتنا محدودة، ويمكن لأولئك المهتمين بالموضوع أن يتوصلوا بسهولة إلى التفاصيل بأنفسهم.

عند قراءة هذه الرسالة وبقية علاقة فيلو بالمعالجين. الإشارات إلى المعالجين المنتشرة في كتابات فيلو، فإن الأسئلة الرئيسية التي تتبادر إلى الذهن بشكل طبيعي هي: ما هي صلة فيلو بهم؟ وإلى أي مدى يمكننا الاعتماد على روايته؟ هناك مقطع مهم في كتاباته يمنحنا نقطة الانطلاق الحاسمة في البحث عن إجابة. فيلو (*Leg. Alleg.*, i. 81) يكتب :

"لقد تركتُ أنا أيضاً في كثير من الأحيان أهلي وأصدقائي ووطني، وذهبتُ إلى البرية [أو إلى العزلة] من أجل فهم الأشياء الجديرة بالرؤية، ومع ذلك لم أستفد شيئاً؛ بل تشتتت روحي أو لسعتها العاطفة، وانجرفت في التيار المعاكس تماماً."

نتعلم من هذه المعلومة الشيقة في السيرة الذاتية أن فيلو نفسه لم يحقق أي نجاح في الحياة التأملية. وهذا يفسر تبجيله الكبير واحترامه العالي لأولئك الذين نجحوا في فهم الأشياء "الجديرة بالرؤية". وبما أن فيلو لم يتخل عن ممتلكاته قط، فإنه بالتالي لم يكن عضواً مقبولاً بالكامل في إحدى هذه الأخويات. على الأرجح أنه كان ينتمي إلى إحدى دوائرهم الخارجية. وكما كان الحال مع الفيثاغوريين والإسينيين، كان لدى المعالجين تلاميذ من عامة الناس يعيشون في العالم وربما كانوا يلجؤون إلى الجماعة من حين لآخر لفترة من "الخلوة"، ثم يعودون مرة أخرى إلى العالم.

إن كون هؤلاء التلاميذ من العامة رجالاً ذوي قدرة وبصيرة كبيرتين

ص 85

يتضح جلياً من خلال أعمال فيلو التلاميذ من العامة. نفسه، ولكن وجود أدب كبير ذي طابع أسمى وأكثر إلهاماً يتضح أيضاً مما قاله فيلو عن معلميه. ماذا حلّ بكل هذه الأعمال، من تعليقات وتفسيرات وترانيم وخطب وشروح ورؤى نهاية العالم - وهي أعمال أثارت إعجاب كاتب متميز مثل فيلو؟ يبدو لي أنه على الرغم من أننا قد نمتلك بعض الشظايا منها المضمنة في الكتب اليهودية المنحولة التي وصلت إلينا، إلا أن العديد منها ينتمي إلى الأسلاف المفقودة الآن لشظايا الأدب الغنوصي التي نجت.

لكن هل كان المعالجون يهودًا، كما سيحاول فيلو إقناعنا به في دفاعه عن تلك الأمة؟ ويتضح من تصريحاته الخاصة أن الجماعة التي يصفها، والتي ربما كان على صلة بها كتلميذ من العامة، لم تكن سوى واحدة من عدد هائل من الجماعات المنتشرة في جميع أنحاء العالم. يريد فيلو أن نصدق أن مجتمعه الخاص كان رئيسًا للجميع، بلا شك لأنه كان يهوديًا في الغالب، وإن لم يكن أرثوذكسيًا، لأنهم كانوا "عابدين للشمس".

لذلك من المعقول الاستنتاج أنه كان هناك في ذلك الوقت العديد من جماعات المتصوفين تنوع المجتمعات. والزهاد المكرسة للحياة المقدسة والعلوم المقدسة

المنتشرة في جميع أنحاء العالم، وأن جماعة فيلو المريطوية كانت واحدة من هذه الجماعات. وربما كانت بعضها متأثرة بشدة بالعناصر المصرية أو الكلدانية أو الزرادشتية أو الأورفية، كما كانت تلك الواقعة جنوب الإسكندرية متأثرة باليهودية. ليس من المستغرب

ص 86

أيضاً أن تكون هناك مجتمعات انتقائية حقيقية بينهم قامت بدمج وتوليف التقاليد والطقوس المختلفة التي تناقلتها المجتمعات الأكثر حصرية من الناحية العقائدية، وفي هذا الاتجاه يجب أن نبحث عن الضوء على أصول الغنوصية والخلفية الخفيانية للمسيحية. لم تقم هذه المجتمعات بالدعاية في ذلك الوقت، على الرغم من أنها ربما كانت بشكل غير مباشر وراء بعض أعظم الجهود الدعائية، كما هو الحال مع فيلو. أعتقد أيضاً أن الخيار الأخير هو الصحيح. لم تقم المجتمعات الغنوصية بالدعاية بشكل مباشر، وأن أي أعمال قد تكون قدمتها للتلاميذ العاديين أو من قبل التلاميذ العاديين لم تكن سوى جزء صغير من أدبياتهم. كان للناس الشريعة والأنبياء والإنجيل؛ وللتلاميذ العاديين الأدب المتوسط؛ وللداخليين تلك الرسائل الصوفية والغامضة للغاية التي لا يمكن لأحد فهمها أو يُتوقع منه فهمها إلا المتصوفون المدربون.

الشعب اليهودي.

أما التيار الثالث الذي تدفق إلى نسيج الأصول المسيحية، فكان تيار اليهودية. حتى تأثير بابل. قبل السبي، كانت القبائل غير المنضبطة التي تشكل هذه الأمة الغريبة تمتلك "مدارس الأنبياء"، وهي عبارة عن مجتمعات صغيرة تعزل نفسها عن بعضها البعض ويتم تجنيدها من قبل الرؤاة وأصحاب الرؤى. حتى ذلك الوقت، كانت تقاليد اليهود

ص 87

ومفاهيمهم الدينية في الغالب ذات طبيعة بدائية للغاية مقارنة بتقاليد الأمم الأكثر تحضرًا التي كانت تحيط بهم، على الرغم من أنها تميزت بالطبع بخصوصية التوحيد الحصري الناشئ وكراهية متزايدة للوثنية.

لكن في بابل، دخلوا في اتصال وثيق مع حضارة عظيمة وقديمة للغاية، ويمكن تتبع الانطباع الذي تركته عليهم بوضوح في تاريخ تطورهم الديني اللاحق.

بقي معظم الشعب راضين في بابل، بينما شرع قادة العائدين في إعادة كتابة تقاليدهم القديمة وإعادة صياغة مفاهيمهم الدينية، في ضوء الآراء الأوسع التي استوعبوها - وكل ذلك يمكن تتبعه بوضوح في المراحل المختلفة لتطور كتابهم المقدس الوطني، والتي تكشف لنا رواسبها المختلفة من خلال الأبحاث الصبورة لعلماء الكتاب المقدس والاكتشافات الجديدة باستمرار لعلم الآثار.

لقد استولى الكتاب اليهود على تقاليد العرق السامي العظيم وأمم الكلدانيين وبابل، واستخدموها لتمجيد أصولهم وتاريخهم، في قناعة غريبة مفادها أن كل هذه التقاليد تنطبق عليهم باعتبارهم "الشعب المختار" لله. لقد تبنت طبقة الكهنة الفارسية بحماس عقيدة النقاء المفصلة التي شددت عليها التقاليد الزرادشتية الفارسية،

ونلاحظ في مكتبتهم من الكتب الدينية التخلص التدريجي من الأفكار البدائية عن الألوهية والتطور التدريجي

ص 88

لمفاهيم أسمى بكثير في (أحيانًا) انفجارات شعرية رائعة.

لكن لا ينبغي افتراض أن من أعادوا كتابة وتحرير التقاليد القديمة كتابة تاريخ الكتاب المقدس. كانوا مزورين ومحرفين بالمعنى العادي للكلمة. لم يكن لدى العصور القديمة بشكل عام مفهوم للأخلاق الأدبية بمعناها الحديث، وكانت كل الكتابة ذات الطابع الديني نتاجاً لدافع داخلي. إن وفرة المصطلحات التقنية التي يمنحها نقاد الكتاب المقدس المعاصرون لهؤلاء الكتاب القدماء وأساليبهم تجبر الطالب بشكل شبه لا واعٍ على قراءة أفكار ومعايير لم تكن موجودة آنذاك في تلك الأوقات. ومرة أخرى، يتمثل الخطأ الشائع في إضفاء دوافع العمل وصقل المعتقدات على هؤلاء الشخصيات اليهودية القديمة التي لا تنتمي إلا إلى الأفضل في العالم المسيحي؛ وهكذا فإننا لا نظلم ذكراهم فحسب، بل نقرأ في تاريخهم جواً من الرقي المفرط الذي لا يمكن أن يكون قد عاش فيه اليهودي الحقيقي في تلك الفترة. ينبغي التذكير أيضاً بأن إضفاء الطابع الأسطوري على التاريخ وتأريخ الأساطير لم يكن خاصاً باليهود، بل كان شائعاً في تلك الحقبة؛ ما كان خاصاً بهم هو إيمانهم المتعصب بالمحاباة الإلهية وادعائهم الفاحش باحتكار العناية الإلهية.

الآن، كان اليهود، مثل جميع أبناء الصحراء، قد ترسخت فيهم رغبة لا تقهر في أساطير التاريخ. الحرية، وفي الوقت نفسه كان لديهم الخيال الشعري الفطري لجميع أولئك الذين يعيشون على اتصال وثيق بالطبيعة.

تم ترحيل "المملكتين" اللتين كانتا تتقاتلان باستمرار

ص 89

فيما بينهما ومع جيرانهما، "إسرائيل" و"يهوذا"، على التوالي من قبل السلطات الآشورية، لإزالة مركز الاضطراب الدائم.

استقرت "القبائل العشر" التي كانت أول من تم ترحيلها، والتي كانت تتألف من عناصر أكثر تكيفًا مع بيئتها من اليهود، في بابل وتكيفت تدريجيًا مع بيئتها الجديدة؛ سيكون من المثير للاهتمام معرفة ما حدث من تطور في مدارس أنبيائهم التي كانت على اتصال بالحكمة الكلدانية القديمة، والتاريخ اللاحق لـ "إسرائيل" تلك التي لم تستقر في بابل فحسب، بل بقيت هناك.

عندما تم ترحيل القبائل اليهودية الأكثر اضطراباً بدورها، اتبع بعضها مثال أقاربهم؛ لكن معظم اليهود رفضوا التكيف مع الظروف الجديدة، وتوقوا إلى حريتهم، وعلى الرغم من كونهم محاطين بآثار حضارة عظيمة، فقد نظروا إلى مستوطنتهم الفقيرة في أورشليم كما لو كانت في أرض الجنة، ومنازلها المتواضعة كما لو كانت قصور الملوك. كان الآباء ينسجون للأطفال قصصاً عن جمال وثراء وطنهم، وعن أمجاد قصوره، وعن الأعمال العظيمة لشيوخهم القدماء؛ وفوق كل شيء كانوا يصرون على مصيرهم الخاص كرجال عقدوا عهداً مع إله وعدهم بالنصر على جميع الأعداء. مات الآباء، الذين نشأوا تدريجياً على تصديق قصصهم الخاصة، قبل أن يمنحهم الفاتح

كورش، عرفاناً بمساعدتهم ضد القوة الآشورية، عودة

شعب يهوذا. أما الذين عادوا فكانوا من الجيل التالي، وقد أعادوا احتلال أنقاض أورشليم بأفكار عن عظمة سابقة كانت موجودة في الخيال الشعري وحب الحرية لدى آبائهم بدلاً من التاريخ الفعلي.

وقد امتلأوا بحماس للماضي، فكتبوا ما أخبرهم به آباؤهم، ووسعوا السجلات القديمة إلى "تاريخ" رائع، وأدخلوا فيه كل ما طوروه من الدين من خلال الجدل مع البابليين والفرس - وهو جدل تمثل في الإصرار على أن دينهم أفضل من دين خصومهم، وادعاء الأفضل في موقف خصومهم أو تقاليدهم على أنها ملكهم، والتأكيد الدائم على أن لديهم شيئًا أسمى أيضًا.

كان لدى اليهودي قناعة راسخة خداع الذات الصادق. بأنه مختار من الله لدرجة أنه ربما كان يؤمن حقًا بكل مزاعمه؛ على أي حال، لم يكن هناك إحساس بالتاريخ في تلك الأيام، ولم يكن هناك من يكبح حماس هؤلاء الكتبة الأوائل.

ربما جادلوا قائلين: نحن شعب الله المختار؛ ديننا أفضل من أي دين آخر، في الواقع جميع الأديان الأخرى باطلة، وجميع الآلهة الأخرى باطلة؛ كانت أيام مجد ديننا قبل السبي؛ لا بد أن تلك الأوقات كانت أعظم من أفضل الأوقات في الأمم الأخرى، ولا بد أن معبدنا كان أعظم، وتضحياتنا أعظم من أي تضحيات أخرى في العالم؛ لقد قال آباؤنا ذلك ونحن نشعر أنه صحيح. في مثل هذه الحالة الذهنية ومع الحماس الشعري الفطري

لطبيعتهم شعروا بأنهم مدفوعون للكتابة، ومن خلال كتاباتهم حولوا السجلات القديمة إلى خارج نطاق الاعتراف التاريخي، ومن هذه البدايات تطورت تدريجياً أدباً استقبلته الأجيال القادمة دون شك، ليس فقط كسجل دقيق للوقائع ولكن ككتاب مقدس مكتوب إلهياً ومُلهم لفظياً.

كان تطور هذا الأدب نموًا طبيعيًا، على الرغم من أن العوامل المتميزة التي لعبت دورًا فيه يصعب إلى حد ما فك تشابكها؛ ولكن هناك علامات واضحة على التعديلات المتكررة للمفاهيم البدائية، وعلى تخمير الأمة بقوة روحية تتطور بثبات. من أين أتت هذه الروحانية المستمرة للمفاهيم القديمة؟

في البحث عن إجابة لهذا السؤال، يمكن إيجاد نقطة الانطلاق في حقيقة إضفاء الطابع الروحاني على اليهودية. أن غالبية الأمة لم تعد؛ وليس هذا فحسب، بل إن غالبية اليهود فضلوا بمرور الوقت العيش بين الأمم. في الواقع، أصبح أفراد الأمة تدريجياً كبار تجار العالم القديم، حتى أننا نجد مستعمرات منهم منتشرة في جميع المراكز الكبرى؛ على سبيل المثال، بعد فترة وجيزة من تأسيس الإسكندرية، سمعنا عن مستعمرة تضم ما لا يقل عن 40 ألف يهودي استقروا هناك. كان هؤلاء اليهود من الشتات أو المهجر على اتصال دائم مع إخوانهم الفلسطينيين في الدين من جهة، وعلى اتصال وثيق مع الحضارات العظيمة التي وجدوا فيها موطناً من جهة أخرى.

إن التوقع بخلاص العرق وظهور مخلص للعرق، والذي استوعبه اليهود
الغيوريون. من الزرادشتية، قاموا بتكييفه مع

ص 92

احتياجاتهم الخاصة ومع قناعتهم بأن إسرائيل هم شعب الله المختار. كان هذا التوقع لفترة طويلة ذا طبيعة مادية بحتة؛ فقد كانوا ينتظرون ملكاً يعيدهم إلى الحرية ويدوس على أمم العالم، عندما يحكم لمدة ألف عام في أورشليم. كان من المفترض أن يتم كل هذا من خلال التدخل المباشر ليهوه، إلههم. على مدى أربعمائة عام تقريباً، وحتى التدمير النهائي لأورشليم على يد تيتوس، نُعرض أمامنا مشهد نضال حازم من أجل الحرية؛ لأن اليهود كانوا دائماً يخيبون آمالهم، وكان عليهم أن يخضعوا للهيمنة المتعاقبة لليونان وروما. لكن الأمل كان ينبثق مرارًا وتكرارًا بعد كل خيبة أمل جديدة، ونجد في أدبهم سجلًا لمعارضة حازمة للغزاة، أشعلتها المواعظ النارية والتنديدات ذات الطابع النبوي الزائف الذي لا مثيل له في تاريخ العالم. إذا كان العبقري اليوناني يتمحور حول النضال من أجل حرية العقل، فإن الأمة اليهودية تمحور حول النضال من أجل الحرية الشخصية؛ وفي الإمبراطورية الرومانية، بعد تدمير أورشليم، أصبحت اليهودية في النهاية مركز كل السخط والأفكار الثورية.

في خضم كل هذا كان الإيمان الفريسي الحصري الذي طوره اليهود، والذي جعله من وجهة نظر رومانية "كارهًا للبشرية". لكن هذا التعصب الغيوري، على الرغم من أنه تغذى بشكل مباشر من خلال التصريحات غير المتوازنة للكتاب والأنبياء الدينيين، أصبح أكثر فأكثر مكروهًا

ص 93

لدى العناصر الأفضل في الأمة. نجد هذه العناصر الأفضل ممثلة في الآراء الروحية التي تسللت تدريجياً إلى الأدب المقدس، وقد تم مزج الأمة تدريجياً بالفريسية، التي على الرغم من أنها وصلت إلى أقصى درجات الطقوس الدقيقة وقواعد الطهارة الظاهرية الأكثر تفصيلاً، إلا أنها كانت مع ذلك عاملاً قوياً للغاية في توسيع الأفق الديني. الجانب الظاهري للفريسية معروف لنا إلى حد ما؛ لكن الجانب الباطني لهذه الحركة العظيمة، التي انتمى إليها جميع أكثر اليهود علماً، لا يزال غير مفهوم إلا قليلاً.

انقسمت الفريسية بمرور الوقت إلى مدارس عديدة، وكان أكثرها صرامة يتبع حياة من النقاء الباطني الصارم. وباتباعهم لمثل هذه الحياة، لا بد أن تصبح أفكارهم ذات طبيعة روحية أكثر؛ في الواقع، نشأت الفريسية في بابل، وكانت تمثل التيار الرئيسي للتأثير الكلداني والفارسي على اليهود.

وعلى هذا المنوال من التقاليد، نجد أن نظرة روحية أكثر تطوراً لعقيدة المسيح قد تطورت تدريجياً؛ الحسيديم والإسينيين.فإسرائيل لم تكن الأمة الجسدية لليهود، بل كانت شعب الله المختار من بين جميع الأمم؛ وكان عباد الله هم الذين خدموه بقلوبهم لا بألسنتهم؛ وكان إله إسرائيل هذا يكره ذبائحهم الدموية.

لكن مثل هذه الآراء، على الرغم من أنها أثرت بشكل غير مباشر على الكتاب المقدس العام للأمة، لا يمكن إعلانها بجرأة بين شعب قام برجم أنبيائه.

وكانوا يستمتعون بالتضحية بالدم. لا يمكن مناقشة مثل هذه الآراء بأمان إلا في السر، ونجد العديد من السجلات

ص 94

التي تشير إلى وجود مدارس الحسيديم وأولئك الذين يسميهم يوسيفوس الإسينيين، والذين كان من بينهم أنقى اليهود وأكثرهم علماً، "حاخامات الجنوب"، الذين كانوا يعيشون بمعزل عن الآخرين وفي عزلة.

يبدو أن هذه المدارس والمجتمعات قد نظرت إلى الوراء إلى الانضباط البدني الصارم لمدارس الأنبياء من جهة، وإلى أنها كانت على اتصال بالأفكار الروحية للحكمة البابلية من جهة أخرى.

في بابل نرى كيف تواصل أحد عرافين المدارس الباطنية. الأمة مع جزء من التقاليد الحكيمة الكلدانية، وتم الاستشهاد بـ "رؤية حزقيال" الشهيرة لاحقًا كسلطة قانونية لكل تلك المجموعة من الأفكار التي نجدها قد تم إحياؤها بعد مئات السنين في الكابالا في العصور الوسطى. لكن من أجل فهم طبيعة الدراسات والتجارب الباطنية لأعضاء هذه المدارس الصوفية للحسيديم ومقلديهم، من الضروري أن يكون لديهم معرفة نقدية بالكتابات اليهودية غير القانونية، وخاصة أدب الحكمة وتلك الكتب المنحولة العديدة، والرؤى، والاعتذارات عن النبوءات التي لم تتحقق - وهي مجموعة كبيرة من الكتب المنحولة التي تم إنتاجها بكثافة في القرون الأخيرة التي سبقت عصرنا وفي قرونه الأولى. صحيح أننا لا نملك سوى بقايا مجزأة من هذا الأدب الضخم الذي كان يومًا ما، وعلى الأرجح الأعمال التي كُتبت للتداول العام، وبالأخص من قِبل أعضاء هذه المجتمعات الذين كانوا لا يزالون مهووسين بمفهوم الغيورين عن إسرائيل؛ ولكن ما تبقى يكفي لرسم بعض الخطوط العريضة الضرورية لخلفية الغنوص، ولتمكيننا من إدراك مدى

ص 95

جدية سعي الرجال من أجل حياة أنقى ومعرفة أكبر بالله في تلك الأيام الأولى.

كان لهذه المدارس الصوفية للثيوصوفيا اليهودية تأثير هائل على المسيحية الناشئة؛ فقد أثرت المدارس الباطنية على المدارس الظاهرية للمسيحية، وتركت الأدبيات العامة للدوائر الوسيطة بصمة عميقة على المسيحية العامة.

معظم هذه المدارس والجماعات الصوفية، سواء كانت من أصل يوناني أو مصري أو يهودي، عندما تواصلت مع بعضها البعض، أعطت وأخذت. صحيح أن بعضهم رفضوا الاختلاط شخصياً أو عقائدياً، وكانت هناك مدارس صوفية محافظة متشددة من جميع خطوط النسب الثلاثة؛ ومع ذلك، فإن آخرين، إن لم يكن بصفتهم الجماعية، فعلى الأقل في أشخاص أعضائهم الأفراد، أعطوا واستقبلوا، وبالتالي عدلوا تصوراتهم المسبقة ووسعوا آفاقهم. في الواقع، في القرنين الأخيرين السابقين والقرنين الأولين من عصرنا كان هناك حماس هائل للتوفيقية والتركيبية بين أعضاء هذه المدارس، ويمكن تتبع آثارها بوضوح في شظايا الغنوص التي حفظتها لنا الاستشهادات الجدلية لعلماء الهرطقة في الأرثوذكسية اللاحقة.

الإسكندرية.

إن الخطوط العريضة لخلفية الغنوص التي سعينا إلى رسمها، هي بالضرورة غامضة للغاية، لأن كل موضوع من المواضيع العديدة

ص 96

التي تم التطرق إليها يستحق مجلداً أو عدة مجلدات. لم يكن هدفنا سوى إعطاء فكرة عامة عن الخطوط المتعددة التي يجب تتبع وراثتها المعقدة من خلالها. لكن رسمنا التخطيطي غامض للغاية لدرجة أنه ربما يكون من الأفضل، قبل المضي قدماً، أن نعطي القارئ فكرة عن الظروف الخارجية الأكثر مباشرة التي عاش فيه الغنوص المسيحي ـ لن نقول مات، ولكن اختفى. إن الإصرار على بعض النقاط التي تم التطرق إليها بالفعل وبعض التفاصيل الإضافية قد يساعد في توضيح الأمر؛ وأفضل مكان لإجراء ملاحظتنا هو الإسكندرية، وأفضل وقت للتأمل هو الحقبة التي حققت فيها المسيحية العامة انتصارها بشكل قاطع وأخرجت الغنوصية من الساحة.

ينبغي التذكير بأنه في الرسم التخطيطي التالي سنحاول تصوير المظاهر الخارجية للأشياء فقط؛ أما في الداخل، كما أشرنا سابقًا وكما سنوضح لاحقًا، كانت هناك حياة خفية مليئة بالنشاط. وإذا كانت هناك مكتبة عامة ضخمة في الإسكندرية، فقد كانت هناك أيضاً العديد من المكتبات الخاصة التابعة للمدارس الباطنية التي تتعامل مع العلوم المقدسة للأشياء غير المرئية. من هذه الدوائر الخاصة تحديداً انطلقت جميع الكتابات الصوفية، ويمكننا أن نرى من طبيعة الأعمال الغنوصية وغيرها من الأعمال من هذا النوع التي وصلت إلينا، أن مؤلفيها وجامعيها كان لديهم إمكانية الوصول إلى مكتبات كبيرة من المعارف الصوفية.

فلننتقل إذن بأفكارنا نظرة شاملة على المدينة. إلى الربع الأخير من القرن الرابع من العصر الحالي، عندما كانت هيباتيا فتاة، بعد أن تلقت آمال

ص 97

المدرسة التي تتبعت نسبها عبر أفلاطون وفيثاغورس من أورفيوس، صدمة قاسية من وفاة يوليان، الإمبراطور الفيلسوف، في وقت مبكر؛ في الوقت المناسب تمامًا لرؤية معبد سيرابيوم لا يزال قائمًا، لم تنتهكه أيدي محطمي الأيقونات من قبل تعصب كان السلالة المباشر للغيورية اليهودية وغريبًا تمامًا عن تعاليم المسيح. دعونا نصعد إلى المنارة العظيمة، التي يبلغ ارتفاعها 400 قدم، والواقعة على الجزيرة قبالة البر الرئيسي، منارة فاروس الشهيرة عالميًا، ونلقي نظرة من الأعلى على المركز الفكري للعالم الغربي القديم.

تقع المدينة أمامنا على شريط طويل من الأرض أو برزخ، بين الواجهة البحرية والبحيرة الكبيرة باتجاه الجنوب، بحيرة مريوط. يقع أقصى مصب غربي لنهر النيل، ويسمى كانوبي، في أقصى اليسار، وتتفرع منه قناة كبيرة إلى كانوبوس، حيث يوجد ضريح سيرابيس المقدس. وعلى طول الطريق، إذا كان وقت المهرجان، سترى حشودًا من الحجاج، يسرعون على متن مراكب مزينة بشكل بهيج، لتقديم فروض الولاء لبعض الكهنة الحكماء، وكان أحدهم في ذلك الوقت عضوًا بارزًا في المدرسة الأفلاطونية المتأخرة.

تمتد المدينة العظيمة بسكانها المكتظين أمامنا بواجهة بحرية تمتد لحوالي أربعة أو خمسة أميال؛ وهي مستطيلة الشكل، لأنه عندما قام الإسكندر الأكبر، منذ مئات السنين، في عام 331 قبل الميلاد، بتحديد أسوارها الأصلية بالدقيق الذي حمله قدامى المحاربين المقدونيين (ربما وفقًا لبعض الطقوس الوطنية)، رسمها على شكل كلاميس، وهو وشاح طوله ضعف عرضه. يقسمها شارعان رئيسيان أو شريانان رئيسيان، على شكل

ص 98

صليب، إلى أربعة أرباع. هذه الطرق الرئيسية أوسع بكثير من أي من شوارعنا الحديثة، والطريق الأطول، الموازي للشاطئ، والممتد عبر الضواحي الخارجية، يبلغ طوله ثلاثة فراسخ، ولذلك يعتبر سكان الإسكندرية عبور مدينتهم رحلة طويلة.

عند تقاطع هذه الشوارع توجد ساحة كبيرة محاطة بمبانٍ جميلة، ومزينة بالنافورات والتماثيل والأشجار. هناك العديد من الساحات والمنتديات الأخرى أيضاً، ولكن لا يوجد أي منها بحجم الساحة الكبرى. تزين المدينة العديد من الأعمدة والمسلات؛ وأبرزها عمود مسطح القمة من الحجر الأحمر، على تل بالقرب من الشاطئ، ومسلتان على الشاطئ نفسه، إحداهما هي مسلة كليوباترا الحالية.

الجزيرة التي نقف عليها متصلة بالبر الرئيسي بواسطة رصيف ضخم يبلغ طوله ميلاً تقريباً، ويقطعه ممران مائيان، ويعلوه جسور، ويحميه أبراج. يساعد هذا الرصيف في تشكيل الميناء الكبير على يميننا، والميناء الأصغر والأقل أمانًا على يسارنا. يوجد أيضًا حوض أو رصيف ضخم ثالث في الربع الشمالي الغربي من المدينة، وهو مغلق أيضًا بجسر.

يقسم الطريقان الرئيسيان مدينة الإسكندرية إلى أربعة أحياء، والتي كانت تُسمى في الأصل، إلى جانب الضاحية الأولى للمدينة، بالأحرف الخمسة الأولى من الأبجدية. ومع ذلك، فإن الربع الكبير على يسارنا يُعرف بشكل عام باسم بروشيون، ربما نسبة إلى القصر الذي خصصه بطليموس سوتر ليشكل نواة المكتبة العظيمة. إنه الحي اليوناني، الأكثر أناقة، وذو روعة معمارية فائقة. هناك ترى الضريح الضخم

ص 99

للإسكندر الأكبر، والذي يحتوي على التابوت الذهبي الذي حُفظ فيه جسد البطل فاتح العالم لمئات السنين. وهناك أيضاً توجد المقابر الرائعة للبطالمة، الذين حكموا مصر منذ وقت انقسام إمبراطورية الإسكندر وحتى الجزء الأخير من القرن الأول قبل الميلاد عندما انتزع الرومان المملكة من كليوباترا. ثم انظر إلى معبد بوسيدون العظيم، إله البحر، وهو إله مفضل لدى البحارة. وهناك أيضاً يوجد المتحف، مركز الجامعة، بكل قاعات المحاضرات والصالات، وليس متحف البطالمة الأصلي، بل مبنى لاحق. كما ترى الحمامات في كل مكان، بالآلاف منها، وهي مبانٍ رائعة يقضي فيها سكان الإسكندرية المترفون الكثير من وقتهم.

على اليمين يوجد الحي المصري، الشمالي الغربي، المسمى راكوتيس، وهو اسم قديم جداً يعود إلى زمن لم تكن فيه الإسكندرية موجودة، وكانت مدينة مصرية قديمة تسمى راغدواه تشغل موقعها. يلفت انتباهك على الفور اختلاف أسلوب العمارة، لأنه في معظمه على الطراز المصري الأكثر قتامة؛ وذلك المبنى العظيم الذي تراه في الجزء الشرقي من الحي هو معبد سيرابيوم الشهير؛ إنه ليس مبنى واحدًا بقدر ما هو مجموعة من المباني، والمعبد بالطبع هو أهمها. إنه مكان يشبه الحصن، بجدران سميكة بسيطة، أقدم من المباني اليونانية، كئيب وقاسٍ ومناسب للطابع المصري؛ إنه مركز المدارس "الوثنية"، أي قاعات المحاضرات البربرية أو غير اليونانية. ستتذكر دائماً معبد سيرابيوم بسلالمه الشاسعة المحاطة بعدد

ص 100

لا يحصى من تماثيل أبو الهول، سواء داخل البوابة الكبيرة أو خارجها.

لو استطعت أن ترى أسفل المباني، لذهلت بشبكة الأقبية والسراديب التي يبدو أن المدينة بأكملها قد بنيت عليها؛ وتستخدم هذه الأقبية في الغالب كخزانات تحت الأرض لتخزين المياه - وهو أمر ضروري للغاية في بلد يعاني من نقص الأمطار مثل مصر.

يُعد الربع الجنوبي الشرقي، خلف بروشيون، مركز المستعمرة اليهودية، التي يعود تاريخها إلى أيام الإسكندر نفسه، ولم يقل عدد سكانها عن 40 ألف عبراني.

المساحة المفتوحة الكبيرة إلى يسار بروشيون هي ميدان سباق الخيل، وإلى الشرق منها على طول الشاطئ تقع ضاحية نيكوبوليس العصرية، حيث ربما تعيش هيباتيا. على الجانب الآخر من المدينة، خلف راكوتيس، توجد مقبرة ضخمة مزينة بتماثيل وأعمدة لا حصر لها، وتُعرف باسم المقبرة.

السكان. لكن الأساليب المعمارية المختلفة والخصائص المميزة للأحياء المختلفة لا تعطي سوى فكرة ضئيلة عن السكان المختلطين والمتنوعين الذين تجمعوا في المكان الذي تلتقي فيه أوروبا وآسيا وأفريقيا. أولاً، لديك المصريون واليونانيون من الطبقة العليا، ومعظمهم متطورون للغاية، ومتغطرسون، ومتأنقون؛ أما الرومان فكان عددهم قليلاً - القضاة والعسكريون، وجنود الحرس الذين كانوا يقومون بدوريات في المدينة ويقمعون أعمال الشغب المتكررة للمتنازعين الدينيين؛ وكانوا يكنون لهم جميعاً، سواء كانوا يهوداً أو مسيحيين، غنوصيين أو وثنيين، ازدراءً صريحاً وغير متحيز.

في المكاتب الأكثر تواضعاً ترى المصريين من الطبقة الدنيا

ص 101

المختلطة، ربما أحفاد السكان الأصليين، حشود منهم. آلاف من الإثيوبيين والسود أيضاً، بألوان زاهية قدر الإمكان.

وهناك أيضاً، ترى جماعات من الرهبان من طيبة، وكثير منهم من وادي النيتريان، على بعد يومين أو ثلاثة أيام جنوباً إلى الصحراء، وراء البحيرة الكبيرة؛ يسهل تمييزهم، بشعرهم المتشابك غير المهذب، وجلودهم التي يرتدونها كملابس للنعال - في الغالب في هذا الوقت مجموعة عنيفة وجاهلة وغير قابلة للحكم من المتعصبين. ويختلط بهم أشخاص يرتدون ملابس سوداء، ورجال دين، وشمامسة، ومسؤولون في الكنائس المسيحية.

أما في الموانئ، فسنصادف أنواعًا أخرى كثيرة، يصعب تمييزها في الغالب بسبب التداخل والاختلاط. يأتي الآلاف منهم ويذهبون على متن السفن الصغيرة التي تكتظ بها الموانئ في أساطيل. كثير منهم يشبهون الأمة العظيمة التي كانت تسمى "الحثيين"؛ بحارة فينيقيون وقرطاجيون بأعداد كبيرة، وتجار من موانئ أبعد بكثير.

اليهود في كل مكان، ومن يشبهون اليهود، في جميع المناطق التجارية؛ بعضهم يشبه الأفغان؛ والزهاد أيضاً، من سوريا، ربما من نسل الإسينيين، أو المعالجين، الذين يولون اهتماماً كبيراً بالنظافة. كما كان هناك عدد قليل من الأشخاص طوال القامة ذوي الشعر الذهبي، ربما من القوط والتوتونيين، الذين يحتقرون بشدة البقية، الذين يعتبرونهم حشدًا متأنثًا - رجال ضخام، طوال القامة، أقوياء، وفظين. بعض الفرس أيضاً، وبعض الشرقيين من مناطق أبعد.

لكن ربما تكون أكثر اهتماماً

ص 102

بالسكان المسيحيين، وهم حشد مختلط للغاية في الداخل والخارج. ينشغل رجال الدين في المدينة بالسياسة أكثر من انشغالهم بالدين؛ أما بقية المؤمنين فيمكن تقسيمهم إلى فئتين، تقدمان تصورات مختلفة تماماً عن المسيحية.

من جهة أخرى، الطبقات الدنيا والعديد من الرهبان، متعصبون وجاهلون، يحتقرون كل أنواع التعليم، مكرسون لعبادة الشهداء، متعطشون لدماء اليهود، ومتعطشون لهدم كل تمثال وتسوية كل معبد بالأرض. من ناحية أخرى، هناك مجموعة من المتناظرين المهذبين، علماء اللاهوت الفلاسفة، الذين يتجادلون دائماً، ويتوقون إلى الدخول في قوائم النقاش مع الفلاسفة الوثنيين، ويقضون حياتهم في المناقشات العامة، بينما الجماهير التي تأتي لسماعهم غير مبالية في الغالب بصحة أو خطأ الأمر، وتصفق لكل نقطة نقاش بتحيز ازدرائي، مستمتعين بالجدال من وجهة نظر شك مهذب.

المكتبة. لكن يجب علينا الإسراع في مهمتنا، وإكمال رسمنا للمدينة بإشارة موجزة إلى اثنين من أشهر مؤسساتها، وهما المكتبة والمتحف. حتى لو لم يكن لدى معظمنا أي معرفة مسبقة بتضاريس الإسكندرية، وكنا نجهل تمامًا تاريخ مدارسها، فقد سمعنا جميعًا على أي حال عن مكتبتها الشهيرة عالميًا.

عندما تم تقسيم مملكة الإسكندر بين قادته، سقطت مملكة مصر الغنية في نصيب بطليموس الأول، الملقب بسوتر، المخلص. انطلاقاً من اعتقاده بأن الثقافة اليونانية كانت العامل الأكثر تحضراً في العالم المعروف، وأن الأساليب اليونانية

ص 103

هي الأكثر استنارة، قرر سوتر ليس فقط إنشاء يونان صغيرة في مصر، ولكن أيضاً جعل بلاطه في الإسكندرية ملجأً لجميع معارف العالم اليوناني. وانطلاقاً من هذا الطموح النبيل، أسس متحفاً أو جامعة مخصصة للفنون والعلوم، ومكتبة. ألم يعلّم أرسطو الفيلسوف قائده العظيم الإسكندر فن الحكم؟ ألا ينبغي بالتالي أن يجمع كبير جنرالاته كل الأعمال التي تناولت هذا العلم المفيد؟ لحسن الحظ، تم التخلي سريعاً عن الخطة الأصلية لإنشاء مكتبة سياسية بحتة، وسادت وجهات نظر أكثر شمولية. ومع ذلك، فليس من المستبعد أن يكون بطليموس، بصفته حاكمًا مصريًا، قد أنشأ مكتبة جديدة لعاصمته على غرار العديد من المكتبات الموجودة بالفعل في تلك الأرض القديمة. يكفي أن نتذكر المجموعة الضخمة من تماثيل أوسيمانداس في طيبة، "علاج النفس"، لنقتنع بهذه الحقيقة. لذلك، على الرغم من أن مكتبة الإسكندرية كانت أول مكتبة عامة يونانية عظيمة، إلا أنها لم تكن بأي حال من الأحوال الأولى في مصر. ولم تكن حتى أول مكتبة في اليونان؛ لأن بوليكراتس الساموسي، وبيسيستراتوس وإقليدس الأثيني، ونيكوقراط القبرصي، ويوريبيدس الشاعر، وأرسطو نفسه، جميعهم كان لديهم مجموعات كبيرة من الكتب.

باختصار؛ تم وضع المجموعة الأولى في جزء من القصور الملكية بالقرب من البوابة الكانوبية، وكان أكبر هذه القصور يسمى بروشيون، بالقرب من المتحف. تم تعيين أمين مكتبة وطاقم عمل - جيش من الناسخين والخطاطين. كان هناك أيضًا علماء لمراجعة النصوص وتصحيحها،

ص 104

وخبراء (χωρίζοντες) لاختيار الطبعات الأصلية والأفضل؛ وكذلك صانعو الفهارس والفئات والتحليلات.

في عهد البطالمة الأوائل، أصبح جمع الكتب هوساً كبيراً. أرسل بطليموس سوتر رسائل إلى جميع الملوك الحاكمين يطلب فيها نسخًا من كل عمل تمتلكه بلادهم، سواء كان ذلك للشعراء أو علماء اللغة أو كتاب الأمثال المقدسة أو الخطباء أو السفسطائيين أو الأطباء أو الفلاسفة الطبيين أو المؤرخين، إلخ. بطليموس الثاني. (فيلادلفوس) كلف كل قبطان سفينة بإحضار المخطوطات إليه، والتي دفع مقابلها مبالغ طائلة لدرجة أن العديد من النسخ المزيفة تم طرحها في السوق بسرعة. أنشأ أتالوس وإيومينس، ملكا بيرغاموس في شمال غرب آسيا الصغرى، مكتبة منافسة في عاصمتهما، وواصلا البحث عن الكتب بحماس شديد لدرجة أن مكتبة أرسطو، التي أوصى بها ثاوفرسطس وسلمها إلى نيليوس السكيبسي، كان لا بد من دفنها هرباً من أيدي جامعي الكتب الجشعين، لتجد طريقها في النهاية إلى الإسكندرية. وبناءً على ذلك، أصدر فيلادلفوس أمرًا بمنع تصدير ورق البردي من مصر، وبالتالي اضطر جامعو برغامس المنافسون إلى الاكتفاء بالرق؛ ومن هنا، يقول البعض، برغامين، بارشمين، رق. كانت تجارة المخطوطات تُمارس في جميع أنحاء اليونان، وكانت رودس وأثينا هما المركزين التجاريين الرئيسيين.

وهكذا أصبحت الإسكندرية تمتلك أقدم المخطوطات لهوميروس وهسيودوس والشعراء الدوريين؛ وأفلاطون وأرسطو، وإسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس، والعديد من الكنوز الأخرى.

علاوة على ذلك، تم توظيف أعداد كبيرة من المترجمين

ص 105

لتحويل كتب الدول الأخرى إلى اللغة اليونانية. تمت ترجمة الكتب المقدسة للأمم، وأضيفت نسخة السبعينية من الكتاب المقدس العبري إلى العدد، ليس بدون معجزة، إذا صدقنا الأسطورة التي رواها يوسيفوس.

حتى في زمن بطليموس الثالث. (يورجيتس) لم يستطع البروشيون استيعاب جميع الكتب، وتم إنشاء نواة جديدة في مباني السرابيوم، على الجانب الآخر من المدينة، ولكن ليس في المعبد نفسه بأعمدته الأربعمائة، والتي لم يتبق منها سوى عمود بومبي.

يا له من كم هائل من الكتب في وقت قصير! حتى في عهد البطالمة الثلاثة الأوائل، نقرأ عن 400 ألف لفة أو مجلد. ما هو العدد الذي كان عليه الحال في السنوات اللاحقة؟ ويقول البعض إن عددها تجاوز المليون لفة وبردية. لكن دعونا نتذكر أن "الكتاب" أو "اللفافة" لم يكن بشكل عام مجلدًا كما هو الحال لدينا، بل كان فصلًا من عمل. نقرأ عن رجال كتبوا "ستة آلاف كتاب"! كان لا بد أن تكون اللفائف صغيرة نسبياً، من أجل الراحة، وغالباً ما كان العمل يحتوي على عدد من اللفائف يساوي عدد الكتب التي يحتويها. لذلك، يجب علينا، مع وضع هذا في الاعتبار، أن نكون حذرين من المبالغة في حجم المكتبة العظيمة.

لكن سرعان ما احتوى السرابيوم على عدد من الكتب يضاهي عدد كتب البروشيون، وسارت الأمور على ما يرام حتى عام 47 قبل الميلاد، عندما أحرق الحريق الكبير الذي دمر أسطول قيصر البروشيون حتى سقط أرضاً. يؤكد الشاعر المبدع لوسيان أن وهج الحريق كان يُرى من مسافة بعيدة تصل إلى روما!

لذلك كان عليهم إعادة بناء بروشيون، ووضع مكتبة بيرغاموس الشهيرة في المبنى الجديد،

ص 106

والتي أوصت بها المدينة لمجلس الشيوخ، والتي سلمها مارك أنطوني المفتون إلى كليوباترا، آخر البطالمة.

عندما بدأ مجد الإسكندرية بالزوال، بدأت مكتبتها تشاركها المصير نفسه. أخذ الإمبراطور يوليان (360-363) العديد من المجلدات لإثراء مكتبته الخاصة؛ وعندما اقتحم المتعصبون "المسيحيون" معبد سيرابيوم عام 387، قاموا بتسوية المعبد بالأرض حتى أساساته، ولم يتبق من المكتبة سوى الرفوف الفارغة. وأخيراً في عام 641، قام عمرو، قائد جيش عمر، الثاني في خلافة النبي، بتزويد أفران حمامات الإسكندرية البالغ عددها 4000 حمام لمدة ستة أشهر كاملة بكنوز بروشيون التي لا تقدر بثمن. إذا كان ما تحتويه اللفائف موجودًا في القرآن، فهي عديمة الفائدة، وإذا لم يكن ما تعلمه موجودًا في القرآن، فهي ضارة؛ في كلتا الحالتين، أحرقوها! حاول بعض المدافعين عن الإسلام مؤخراً تبييض صورة عمر وإنكار القصة بأكملها؛ ولكن ربما لا يمكن تبرير أفعاله مثل البرابرة "المسيحيين" الذين دمروا رفوف السرابيوم.

المتحف. هكذا كانت المواد المكتوبة التي كان على علماء وفلاسفة الإسكندرية العمل عليها. ولم تكن هناك مكتبة فحسب، بل كان هناك أيضاً نوع من الجامعة، يسمى المتحف، مخصص للفنون والعلوم، ويضم من بين أمور أخرى مرصداً، ومدرجاً للتشريح، وحديقة نباتية واسعة، وحديقة حيوانات ضخمة، والعديد من المجموعات الأخرى من الأشياء المفيدة للبحث الفيزيائي.

لقد كانت مؤسسة تم تصميمها وفق خطة ليبرالية للغاية، وهي عبارة عن تجمع للعلماء المقيمين في قصر،

ص 107

يتمتع بسخاء الأمراء، ومعفى من النفقات العامة. دون تمييز على أساس العرق أو العقيدة، ودون فرض أي لوائح أو خطط دراسية أو قوائم محاضرات محددة، تُرك أعضاء هذا التجمع المتميز أحرارًا في متابعة أبحاثهم ودراساتهم دون قيود أو عوائق. كان في صفوفهم عدد لا يحصى من الشعراء والمؤرخين والمهندسين والرياضيين وعلماء الفلك والمترجمين والنقاد والمعلقين والأطباء وأساتذة العلوم الطبيعية وعلماء اللغة والنحويين وعلماء الآثار؛ باختصار، علماء من جميع الأنواع يضعون الأسس الأولى لتلك الأبحاث التي عادت مرة أخرى في عصرنا هذا، بعد مرور قرون، لتستحوذ على اهتمام العالم. صحيح أن متحف الإسكندرية لم يخط سوى خطوات مترددة بينما نخطو اليوم بثقة كبيرة؛ لكن الروح والمنهج كانا هما نفس الشيء، ضعيفين مقارنة بقوتنا، لكن نفس الروح أصبحت الآن قوية من خلال التجديد.

كان المزاج السائد آنذاك، في القرون الثلاثة الأخيرة قبل العصر المسيحي، مشابهاً جداً للمزاج الذي ميز القرون الثلاثة الأخيرة من عصرنا. لقد فقد الدين سيطرته على المتعلمين؛ فالشك و"العلم" والفلسفة الأرسطية التي أُسيء فهمها هي وحدها الجديرة برجل عبقري. كان هناك أيضاً "نساء متحررات"، و"بنات جدليات"، وهو أمر شائع بما فيه الكفاية في تلك الأيام الأخيرة من اليونان.

ألم يكن مؤسسهم العظيم، الإسكندر، كما اعتقد هؤلاء العلماء، قد غزا العالم السياسي باتباع نصيحة معلمه أرسطو؟ كما أنهم

ص 108

سيتبعون تعاليم ستاجريت الشهير، الذي رسم خريطة السماء والأرض وكل ما فيها، وسرعان ما سيغزون هم أيضاً ما تبقى من العالم الذي يمكن غزوه، سواء كان طبيعياً أو فكرياً. بدا الأمر محتملاً للغاية حينها، بسيطاً ومنطقياً للغاية. يبدو الأمر محتملاً حتى الآن - في نظر البعض!

لذلك شرعوا في العمل على التعليق والنقد، وعلى دراسة فقه اللغة، وعلى قواعد اللغة، وعلى علامات التشكيل، وعلى تصنيف اللغة وفهرستها. لقد شرعوا في العمل على قياس الأشياء؛ وباعتبارهم تلاميذ إقليدس، فقد حاولوا قياس المسافة بين الشمس والأرض؛ وقام إراتوستينس، باستخدام حلقات نحاسية لتحديد الاعتدال، بحساب ميل دائرة البروج، ومن خلال المزيد من الأبحاث قام بحساب محيط الأرض؛ كما قام برسم خريطة للعالم من جميع كتب الرحلات ومعرفة الأرض الموجودة في المكتبة العظيمة. في مجال الميكانيكا، حل أرخميدس ألغاز الرافعة والضغط الهيدروستاتيكي التي تشكل أساس علم السكونيات والهيدروستاتيكا الحديث. لقد فكر أبرخش أيضًا في نظرية عن السماء، مقلوبة في الواقع، ولكنها صحيحة بما يكفي لحساب الكسوف وما إلى ذلك؛ وهذا، بعد ثلاثمائة عام، في عهد الأنطونين، تم تجديده بواسطة بطليموس، وهو مجرد معلق وليس مخترعًا، وبراءة الاختراع مسجلة باسمه الآن. كان أبرخش أيضًا أبو علم المثلثات المستوية والكروية.

لكن ما قيل يكفي بالفعل لإعطائنا فكرة عن مزاج العصر، وسيكون من الصعب الخوض في القائمة الطويلة من الأسماء الشهيرة في

ص 109

مجالات أخرى - الموسوعيين والنحويين مثل كاليماخوس وأرِسْطُفان؛ والشعراء مثل ثيوكريتوس.

وهكذا، مع تدمير المبنى في حريق أسطول قيصر ومع الغزو الروماني، انتهى المتحف الأول. صحيح أنه تم إنشاء متحف جديد في عهد كلوديوس (41-50 م)، لكنه كان مجرد ظل لما كان عليه في السابق، ولم يكن موطنًا حقيقيًا للملهمات، بل كان قاعة رسمية لكتابات إمبراطور-كاتب مملة. وكان كلوديوس قد كتب باللغة اليونانية، بشكل أكثر إحراجاً من كونه غير أنيق ، كما يقول سوتونيوس، ثمانية كتب عن تاريخ قرطاجة، وعشرين كتاباً عن تاريخ إتروريا. لذلك، كان سيقوم بإنشاء متحف، وسيقرأ كتاباته الثمينة على أساتذة متملقين مرة واحدة على الأقل في السنة. وهكذا انقضى مجد ذلك التجسيد للعلم والمعرفة؛ لقد كان شيئًا بلا روح في أحسن الأحوال، مما يشير إلى فترة من عدم الإيمان والشك، ومقدر له أن يزول عندما يستيقظ الإنسان مرة أخرى على حقيقة أنه روح.

وماذا عن المدارس الظاهرية لما يسمى بالفلسفة خلال تلك الفترة؟ كانوا هم أيضاً مدارس السفسطائيين. قاحلين بما فيه الكفاية. لم يعد حكماء اليونان القدماء موجودين. لقد رحل فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو عن أنظار البشر. أما الرجال الذين تبعوهم فكانوا في معظمهم بارعين في تقسيم الكلمات ونسج العبارات. الجدليون من مدرسة ميغاران، أو المجادلون أو المتجادلون، أو البيرونيون أو المشككون، أو القورينيون الذين آمنوا بالحواس وحدها باعتبارها السبل الوحيدة للمعرفة، أو المتشائمون والفنائيون، أو مجموعة من المتشككين المتأخرين،

ص 110

أو الكلبيين، أو الأبيقوريين، أو الأكاديميين، أو المشائيين، أو الرواقيين - الأبيقوريون الذين سعوا إلى العيش براحة؛ والرواقيون الذين، في معارضة لمذهب أفلاطون في الفضائل الاجتماعية، أكدوا على الكرامة الفردية للإنسان.

بعد العهود الثلاثة العظيمة للبطالمة الأوائل، سقطت الإسكندرية أخلاقياً، جنباً إلى جنب مع حكامها؛ لمدة مائة وثمانين عاماً "تجادل السفسطائيون، وتقاتل المتشددون حول علامات التشكيل والقراءات مع الكراهية الحقيقية للقواعد"، حتى خانت كليوباترا، مثل هيلين، بلدها للرومان، وأصبحت مصر مقاطعة تابعة. حتى الآن لم تكن هناك فلسفة بالمعنى الصحيح للكلمة؛ لم تدخل هذه الفلسفة في مناهج المتحف.

أرض الفجر. لم يكن للإسكندرية حتى الآن فلسفة خاصة بها، ولكنها الآن مقدر لها أن تكون بوتقة تنصهر فيها الأفكار الفلسفية من كل نوع؛ - وليس الفلسفة فحسب، بل الأهم من ذلك، ستُسكب الفلسفة الدينية والثيوصوفيا من كل نوع في بوتقة الانصهار، وستُصاغ العديد من الأنظمة الغريبة وبعض الأشياء الجيدة والحقيقية بشكل مثير للإعجاب من المادة التي تُلقى في هذه البوتقة الغاضبة. حتى الآن، لم يفكر العبقري اليوناني إلا في عرض أساليبه وآرائه الخاصة أمام الشرق. لقد حلّقت في مصر وسوريا وفارس، بل وحتى في الهند، واستمتعت بأشعة الشمس. لقد استغرق الأمر سنوات عديدة لإقناع الرضا اليوناني بأن فترة عبقرية العالم لا تقتصر من جهة على هوميروس ومن جهة أخرى على أرسطو. ببطء ولكن بلا هوادة، يتضح على براعة اليونانيين أن هناك عراقة في العالم، وبجانبها

ص 111

إنها مجرد دخيلة. قد يحتقر اليونانيون الشرقيين ويطلقون عليهم مجرد "بربر" أو برابرة، لأنهم غرباء عن اللغة الأتيكية؛ لكن البربري هو من سيضحك أخيراً وسيضحك أفضل في النهاية، لأنه يمتلك إرثاً من الحكمة محفوظاً بعناية، لم ينسه تماماً بعد. كان لدى الإغريق هذا التقليد أيضاً، بل وأعادوا إحياءه، لكنهم نسوه الآن مرة أخرى؛ فقد استبدل المتشككون أورفيوس بهوميروس، وفيثاغورس وأفلاطون الحقيقي بأرسطو. أصبحت أسرارهم الآن ماسونية ولم تعد حقيقية - باستثناء عدد قليل جداً جداً.

وإذا كان اليوناني يحتقر البربري، فإن البربري بدوره لم يكن يكترث كثيراً باليوناني. قال الكاهن الحكيم من سايس لمشرّع أتيكا: "أنتم اليونانيون مجرد أطفال يا سولون". أنتم اليونانيون تسيئون فهم الأساطير المقدسة التي تبنيتموها وتغيرونها، متقلبون وغير مبالين، وسطحيون في الأمور الدينية. هكذا كان النقد الذي وجهه البربري القديم إلى اليوناني الشاب والمبتكر.

ببطء ولكن بثبات، بدأت حكمة المصريين والبابليين والكلدانيين، وانعكاسها في بعض علماء اليهود، وفي بلاد فارس أيضًا، وربما حتى في الهند، في التأثير على مركز الفكر اليوناني، وبدأ الدين وجميع المشاكل الكبرى للأرض البشرية في إزاحة مجرد الفلسفة المدرسية والفنون الجميلة والآداب من المدارس؛ لم تعد الإسكندرية مجرد مدينة أدبية، بل مدينة فلسفية بالمعنى القديم للكلمة: إنها مدينة محبة للحكمة؛ ليس أنها ستنجح في النهاية حتى في هذا، لكنها ستحاول أن تنجح.

ص 112

سيكون هناك أسلوب جديد أيضاً. سيتم مناقشة وتحليل ما كان مخفياً ومستتراً لقرون عديدة؛ سيكون هناك انتقائية، أو اختيار وتوليف؛ سيكون هناك توفيق ومزج لأكثر العناصر تبايناً في نوع من النسيج المرقع؛ سيكون هناك قياس أو مقارنة ومطابقة؛ جهود لاكتشاف دين عالمي؛ للتوفيق بين ما لا يمكن التوفيق بينه؛ لتوليف العلم والفلسفة والدين أيضاً؛ لإنشاء ثيوصوفيا. يبدو أنها ستفشل، لأن السباق يقترب من نهايته؛ إنه البحث عن الحقيقة في نهاية حياة طويلة بعقل قديم، مع الكثير من الميول والتحيزات القديمة التي يصعب القضاء عليها. سينقرض الجنس البشري، وستخرج النفوس التي سكنته من التجسد، لتظهر من جديد في الوقت المناسب عندما تدور العجلة. سيتم استبدال العرق القديم بدماء جديدة وقوة بدنية جديدة؛ لكن عقل العرق الجديد غير قادر على استيعاب مشاكل أسلافه: القوط، والتوتونيون، والوندال، والهون، والكلت، والبريطانيون، والعرب هم مجرد أجساد لمجموعة من النفوس أقل تطوراً بكثير. صحيح أن الجيل الجديد سينمو ويتطور، وسيصل بدوره إلى مرحلة الرجولة والشيخوخة، وسيتجاوز سلفه في كل شيء؛ ولكن عندما يكون طفلاً سيفكر كطفل، وعندما يكون رجلاً سيفكر كرجل، وعندما يشيخ سيفكر كشيخ. ماذا كان بإمكان الهون والقوط والعرب البرابرة أن يستنتجوا من المشاكل الكبيرة التي واجهت الإسكندريين المتحضرين للغاية؟

لذلك، بالنسبة للعرق الجديد، دين جديد، يناسب احتياجاته، وربما يناسب عبقريته، ويتناسب مع عصره. أما أصوله التاريخية الحقيقية فلا تزال غامضة للغاية؛

ص 113

ومن المستحيل اكتشاف التاريخ الحقيقي لمؤسسها.

لكن هذا أمر مؤكد، وهو أنه تم التوصل إلى نغمة رئيسية جديدة لضبط الدين الجديد. الآلة الجديدة. من الخطورة بمكان التعميم بحرية مفرطة، وتصوير الماضي بألوان صارخة للغاية، لأنه في الشؤون الإنسانية لا نجد شيئاً غير مختلط؛ فقد كان الخير مختلطاً بالشر في الطريقة القديمة، والشر بالخير في الطريقة الجديدة. كانت الطريقة الجديدة هي إخراج جزء من الأسرار المقدسة والتعاليم السرية للقلة إلى العلن أمام جميع البشر. أعلن أتباع الدين الجديد أنفسهم أنهم سيكشفون "كل شيء"؛ واعتقد الكثيرون أنه قد كشف كل ما يمكن كشفه. ذلك لأنهم كانوا لا يزالون أطفالاً. كان النور ساطعاً جداً بالنسبة لهم لدرجة أنهم اعتقدوا بالضرورة أنه جاء مباشرة من إله الآلهة جميعاً - أو بالأحرى من الله وحده، لأنهم لم يعودوا يريدون آلهة أخرى؛ فقد تحولت الآلهة على الفور إلى شياطين. بدأ "الكثيرون" باللعب بالقوى النفسية والروحية، وأطلقوا العنان للأسرار، وأصيب "الكثيرون" بالجنون لفترة من الزمن، ولم يستعيدوا عقولهم بعد. دعونا نتأمل هذه الظاهرة المثيرة للاهتمام للغاية لبضع لحظات.

صحيح أنه في الإمبراطورية الرومانية، التي كانت قد سيطرت على "العالم" بالكامل، وبالتالي وحدت سياسياً العديد من تيارات الحضارة القديمة والبربرية في محيط واحد، كانت الأمور في حالة يرثى لها، أخلاقياً واجتماعياً. بدأ النظام القديم في الانحدار نحو نهايته. كانت الحرية السياسية والاستقلال من الماضي، لكن

ص 114

التسامح الفكري والديني كان لا يزال مضموناً، لأن العالم القديم لم يكن يعرف معنى التعصب حتى ذلك الحين.

كانت الدول خاضعة سياسياً لسيطرة الأباطرة، لكن المؤسسات الدينية لهذه الدول، التي كانت حياتها الاجتماعية ووجودها الوطني يعتمدان عليها، تُركت في حرية مطلقة. ومع ذلك، فقد غادرت روح الواقع المؤسسات القديمة منذ فترة طويلة؛ فقد ظلت تُعتبر جزءًا لا يتجزأ من فن الحكم، وضرورية للشعب، الذي يجب أن يكون لديه طقوس واحتفالات وعروض دينية، كما هو الحال الآن؛ لكن قلة من الناس أخذوا الأمر على محمل الجد. كان للمتعلمين فلسفة، وظلال الأسرار القديمة.

لكن هذه الأمور لم تكن للناس، ولا لغير المتعلمين؛ فقد نسيت الرتب الكهنوتية واجباتها، واستخدمت معرفتها لتضخيم ذاتها، والآن نسيت تمامًا ما كانت تعرفه في السابق. إنها قصة قديمة جداً. كانت الكنيسة القديمة فاسدة، والدولة القديمة مستعبدة. لا بد من وجود احتجاج، جزء منه صحيح وجزء منه خاطئ، كالعادة الخير والشر يحتجان على الشر والخير.

صحيح أن الأسرار متاحة للجميع بحرية - لمن يستحقها.

صحيح أن الأخلاق والفضائل هي متطلبات أساسية للغاية - ولكن ليس هذا وحده.

صحيح أن هناك إلهاً واحداً، لكن يهوه ليس ذلك الإله.

صحيح أن هناك درجات من الوجود والذكاء بين الخالق والإنسان - لكن

ص 115

الآلهة ليست من صنع أيدي البشر أو الشياطين، بينما الملائكة مخلوقات من نور.

صحيح أن الفلسفة وحدها لا تستطيع حل المشكلة، ولكن لا يجب إهمالها.

صحيح أن جميع الرجال سيخلصون - ولكن ليس الفقراء على حساب الأغنياء، ولا الجاهلين على حساب المتعلمين.

في البروتستانتية، لا يوجد حل وسط بين غير المتعلمين في الأمور الدينية. يطيرون إلى القطب المقابل. لذلك، عندما تستحوذ النزعة الجديدة على الناس، فإننا سنشهد انهيار الحواجز القديمة والسعي نحو نظام جديد للأشياء، ولكن في الوقت نفسه سيظهر تعصب جامح، وتمجيد للجهل، وإدانة شاملة؛ واضطراب اجتماعي، يتبعه انتصار سياسي. لكن هناك شيء واحد يتم اكتسابه بالتأكيد، وهو فرصة جديدة للحياة للإيمان.

كان من الجيد للناس أن يؤمنوا بكل قلوبهم بعد كل هذا الكفر؛ وكان من الجيد لهم أن يجعلوا الفضيلة هي الأهم باعتبارها الخطوة الأولى والضرورية لمعرفة الله. كان من الجيد التخلي عن أمور الجسد ومحبة أمور الروح؛ كان من الجيد إعادة واقع الحياة إلى قلوب البشر.

ماذا كان سيحدث لو سادت نصائح أكثر اعتدالاً، من يستطيع الجزم؟

الحقيقة الأساسية هي أن عرقاً كان يحتضر وعرقاً آخر يولد. ازدحمت ذكريات الماضي في الدماغ القديم، لكن الدماغ الجديد لم يكن قادراً على تسجيلها إلا في

أشكالها البدائية. إن الذاكرة التي نجحت في نهاية المطاف في ترسيخ نفسها بأكبر قدر من الوضوح في الدماغ الجديد، ربما كانت

ص 116

الأنسب للأعراق القوية والمحاربة التي كان من المقرر أن تحل محل الأعراق القديمة للإمبراطورية الرومانية؛ هذه الذاكرة كانت تقاليد اليهود.

المدارس اليهودية والمسيحية. نحن بالطبع لا ننظر هنا إلا إلى الجانب الشعبي والخارجي للحركة العظيمة التي غيرت الوعي الديني العام للعالم القديم. كان في الداخل الكثير من التميز العظيم، ولم يستطع العقل الشاب للجيل الجديد فهم سوى جزء منه. لكن الآن وقد بلغ الجنس البشري سن الرشد، فسيتذكر المزيد من ذلك؛ لقد استعاد بالفعل ذاكرته عن العلوم والفلسفة، ولا شك أن ذاكرته عن الدين ستعود قريباً.

ومع ذلك، ما زلنا ننظر إلى الظروف الخارجية التي كانت يعمل فيها الغنوص. في الإسكندرية، ومنذ تأسيسها، كان اليهود عنصراً مهماً في حياة المدينة. على الرغم من أن ترجمة الكتب المقدسة العبرية من قبل ما يسمى "السبعين" قد بدأت في عهد بطليموس فيلادلفوس، إلا أنه لا يبدو أنها جذبت انتباه العلماء الرسميين اليونانيين. كانت الأفكار اليهودية في الإسكندرية في ذلك الوقت محصورة في اليهود، وهذا أمر طبيعي، لأن هؤلاء المتدينين الأكثر انغلاقاً وتعصباً في البداية احتفظوا بأفكارهم لأنفسهم وحموها بشدة من غير اليهود. وفي وقت لاحق، حظيت المدارس اليهودية في الإسكندرية بتقدير كبير من قبل شعبها في جميع أنحاء الشرق، حتى أن حاخامات الإسكندرية كانوا يُعرفون باسم "نور إسرائيل"، واستمروا في كونهم مركز

ص 117

الفكر والتعلم اليهودي لعدة قرون. وفي هذا السياق، قام اليهود بتطوير نظرياتهم الدينية وصقلوا ما استقوه من المعارف "الكابالية" من الكلدانيين والبابليين، وكذلك من التقاليد الحكيمة لمصر.

علاوة على ذلك، كان العديد من الأطباء العبريين طلابًا للفكر والأدب اليوناني، ولذلك يُعرفون باسم الهيلينيين. كتب بعض هؤلاء باللغة اليونانية، ومن خلال أعمالهم بشكل رئيسي استقى العالم اليوناني معلوماته عن الأمور اليهودية.

سعى أرسطوبولس، الذي لا يُعرف تاريخه، ولكن يُعتقد أنه حوالي عام 150 قبل الميلاد، إلى التأكيد على أن فلسفة المشائية مستمدة من موسى - وهي نظرية جامحة تم تطويرها وتوسيعها لاحقًا إلى حد مثير للسخرية، (حيث تم استبدال أفلاطون بأرسطو) وكانت تحظى بأكبر قدر من التأييد حتى بين آباء الكنيسة المستنيرين مثل كليمنت الإسكندري وأوريجانوس. كانت نظرية أرسطوبولس هذه بمثابة مقدمة للنظرية الأكثر غرابة، التي ابتكرها جاستن الشهيد، والتي مفادها أن حكمة العصور القديمة، أينما وجدت، كانت "سرقة استباقية" من الشيطان، من أجل إغاظة الدين الجديد؛ وقد تم إعادة إنتاج هذه الفرضية البائسة بأمانة من قبل المدافعين المسيحيين حتى وقتنا الحاضر تقريبًا.

ومع ذلك، فإن فيلو (حوالي 25 قبل الميلاد - 45 ميلادي) هو أشهر علماء الهيلينيين. كان معجبًا كبيرًا بأفلاطون، ويُظهر عمله العديد من أوجه التشابه بين الفكر الديني الحاخامي والفلسفة اليونانية. صحيح أن أسلوب فيلو في التفسير

ص 118

المجازي، الذي يقرأ من خلاله مفاهيم فلسفية رفيعة في الروايات البدائية لأساطير إسرائيل، لم يعد يعتبر مشروعاً؛ لكن كتاباته مع ذلك ذات قيمة كبيرة. لم يكن فيلو يعتقد فقط أن وثائق العهد القديم موحى بها في كل جزء، بل كان يعتقد أيضاً أن كل اسم فيها يحمل معنى خفياً ذا أهمية قصوى. وبهذه الطريقة سعى إلى تفسير أوجه القصور في السرد الحرفي.

لكن على الرغم من أن أسلوب فيلو - الذي كان من خلاله يستطيع الاستشهاد بسلطة "موسى" لأفكار مدرسته - غير مقبول علميًا، عندما تخضع وثائق الكتاب المقدس للبحث في النقد التاريخي واللغوي، إلا أن رسائله العديدة ذات أهمية كبيرة لأنها تزودنا بسجل للأفكار التي كانت رائجة في الأوساط أو المدارس التي كان فيلو على اتصال بها. إنها دليل ثمين على وجود مجتمعات فكرت كما فكر فيلو، ووسيلة قيّمة للتعرف على نطاق الغنوص اليهودي في شكل دعائي.

كتب المؤرخ الشهير يوسيفوس (37-100 م) أيضاً باللغة اليونانية، وبذلك جعل أمته معروفة على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم اليوناني الروماني.

وهنا، بالتالي، لدينا مؤشرات على نقاط الاتصال المباشرة بين الفكر اليوناني والفكر اليهودي الدعائي. لقد ارتبطت المسيحية في أصولها الشعبية ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد الدينية اليهودية الشعبية، وهي تقاليد بريئة من كل فلسفة أو تصوف كابالي. لكن سرعان ما شعر الأمميون الذين تم قبولهم في الدين الجديد

ص 119

بالضيق من فرض طقوس الختان التي أصر عليها أوائل الدعاة؛ وهكذا نشأت أول "هرطقة"، وسرعان ما تحولت "كنيسة أورشليم"، التي ظلت يهودية في جوهرها في كل شيء، إلى طائفة ضيقة، حتى بالنسبة لأولئك الذين اعتبروا اليهودية السلف الوحيد للدين الجديد. ومع مرور الوقت، إما بانضمام رجال ذوي تعليم أعلى إلى صفوفهم، أو باضطرارهم في دعايتهم إلى دراسة أنفسهم لمواجهة اعتراضات المعارضين المتعلمين، ظهرت آراء أوسع وأكثر ليبرالية بين عدد من المسيحيين، وتواصلت التقاليد والفلسفات الدينية العظيمة الأخرى مع التيار الشعبي. ومع ذلك، فقد نظر "الأرثوذكس" إلى كل هذه الآراء بشك كبير، أو بالأحرى إلى ذلك الرأي الذي أصبح في النهاية أرثوذكسياً. وهكذا مع مرور الوقت، حتى الليبرالية المعتدلة للغاية لكليمنت وأوريجانوس اعتبرت خطراً جسيماً؛ ومع انتصار الأرثوذكسية الضيقة، وإدانة العلم، تم في النهاية لعن أوريجانوس نفسه.

كانت مدرسة الإسكندرية للفلسفة المسيحية، التي كان أشهر علمائها كليمنت وأوريجانوس، هي التي وضعت الأسس الأولى للاهوت المسيحي العام؛ وقد تدين هذا المدرسة تطورها إلى اتصالها بالفكر اليوناني. هناك قصة جميلة عن بداياتها الأولى يمكننا الإشارة إليها بإيجاز. في أواخر القرن الأول الميلادي، أنشأ المسيحيون مدرسة في الإسكندرية، مدينة المدارس. كانت مدرسة يوم الأحد للأطفال، وتسمى ديداسكاليون. بإيمان شجاع، تم تأسيسها بقوة بجوار

ص. 120

باب المتحف الشهير عالميًا، والذي كان يُستبعد منها المسيحيون العاديون بسبب جهلهم بالفن والعلوم والفلسفة. ومن نفس مدرسة الأحد تلك، نشأ النسيج الواسع للاهوت الكاثوليكي؛ لأن معلمي الديداسكاليون اضطروا إلى النظر إلى أمجادهم، وسرعان ما ضمت صفوفهم رجالًا تلقوا بالفعل تعليمًا في المدارس الفكرية والتدريبية اليونانية.

هذه نبذة مختصرة عن الإسكندرية ومدارسها، وقد عاش فيها بعض أعظم علماء الغنوصية، وذلك على اتصال خارجي بعالم زاخر بالفكر والمسعى. لقد تم العثور عليهم بالطبع في أماكن أخرى من العالم - في سوريا وآسيا الصغرى وإيطاليا، وفي بلاد الغال وإسبانيا؛ ولكن أفضل صورة للعالم القديم الذي كانوا على اتصال خارجي به، يمكن رسمها في المدينة التي التقت فيها مصر وأفريقيا وروما واليونان وسوريا والجزيرة العربية.

ص 121



المسيحية العامة والغنوصية

تطور المسيحية الكاثوليكية.

إن الأصول التاريخية للمسيحية مخفية في غموض لا يمكن اختراقه. ليس لدينا أي معلومات عن التاريخ النصوص القانونية. الفعلي للنصف الأول من القرن الأول. أما بالنسبة لتاريخ المئة عام القادمة، فسيتعين علينا في الغالب الاعتماد على التخمين. إن الرواية القانونية المقبولة عالميًا الآن هي مجموعة مختارة من مجموعة كبيرة من التقاليد والأساطير؛ ولم تظهر فكرة قانون العهد الجديد إلا في النصف الثاني من القرن الثاني، وتم تطويرها تدريجيًا من قبل كنيسة روما والآباء الغربيين. لا يزال اللاهوتيون الإسكندريون الأوائل، مثل كليمنت، يجهلون وجود كتب قانونية محددة. وباتباع خطى أوائل المدافعين عن وجهة نظر خاصة للمسيحية، مثل يوستينوس، وباستخدام هذا القانون المتطور كمعيار وحيد للأرثوذكسية، وضع إيريناوس وترتليان وهيبوليتوس، بدعم من الكنيسة الرومانية، أسس "الكاثوليكية"،

ص. 122

وبدأوا في وضع الأسس الأولى لذلك الصرح الهائل من العقيدة الذي يعتبر اليوم الرأي الأصيل الوحيد لكنيسة المسيح.

لكن القرنين الأولين، بدلاً من تأكيد ادعاء الأرثوذكس اللاحقين، "كنيسة واحدة، إيمان واحد، دائماً وفي كل مكان"، يقدمان لنا على العكس من ذلك صورة لخطوط تطور عديدة في المعتقد والممارسة والتنظيم. كان الصراع من أجل البقاء يُشن بشراسة، وعلى الرغم من أن "بقاء الأصلح" كان النتيجة كالمعتاد، إلا أن هناك أزمات متكررة يصعب فيها تمييز "الأصلح" النهائي، وفي بعض الأحيان يختفي عن الأنظار.

الأناجيل. إن وجهة النظر حول الأصول المسيحية التي أصبحت في النهاية التقليد الأرثوذكسي استندت بشكل رئيسي على وثائق الأناجيل التي تم تأليفها، على الأرجح، في وقت ما في عهد هادريان (117-138 م). من المفترض أن الهيكل الأساسي لثلاثة من هذه الأناجيل كان عبارة عن مجموعة من الأقوال وسرد للأفعال في شكل حياة مثالية، وهو رسم تخطيطي وضعه أحد "رسل" المجتمعات الداخلية وصمم للتداول العام. حول هذه النواة، نسج جامعو الوثائق الثلاث مواد أخرى مختارة من كتلة هائلة من الأساطير والخرافات والتقاليد؛ من الواضح أنهم كانوا رجالًا ذوي تقوى عظيمة، وقد أنتج اختيارهم للمواد روايات ذات كرامة عظيمة، وتخلصوا من الكثير المتداول الذي كان سخيفًا وخياليًا، والذي لا تزال بقاياه محفوظة لدينا في بعض الأناجيل المنحولة. كان كاتب الوثيقة الرابعة متصوفاً بالفطرة، وقد زيّن روايته بجمال في التصور

ص 123

وسحر في الشعور يعكسان أعلى درجات الإلهام.

وفي الوقت نفسه، لحسن الحظ، حفظت المجموعة المختارة وثائق ذات قيمة تاريخية أكبر بكثير.

في رسائل بولس، التي أعتقد أن غالبيتها العظمى أصلية، لدينا أقدم رسائل بولس. السجلات التاريخية للمسيحية التي نمتلكها. تعود رسائل بولس إلى منتصف القرن الأول، وهي نقطة الانطلاق الحقيقية لأي بحث تاريخي حقيقي في الأصول. عند قراءة هذه الرسائل، يكاد يكون من المستحيل إقناع أنفسنا بأن بولس كان على دراية ببيانات الرواية التاريخية اللاحقة للأناجيل القانونية الأربعة؛ فجميع تصوراته تنبض بجو مختلف تمامًا.

بدلاً من التبشير بيسوع الأناجيل التاريخية، فإنه يبشر بعقيدة المسيح الصوفي. لا يبدو أنه جاهل بالأفعال فحسب، بل حتى بالأقوال بأي شكل معروف لدينا؛ ومع ذلك فمن شبه المؤكد أن مجموعة من الأقوال كانت موجودة ويستخدمها أتباع التعليم العام في عصره. على الرغم من وجود فرص لا حصر لها في كتاباته للإشارة إلى الأقوال والأفعال المتعارف عليها، والتي من شأنها أن تزيد من قوة نصائحه بشكل كبير، إلا أنه يمتنع عن القيام بأي منها. من ناحية أخرى، نجد رسائله مليئة بالمفاهيم والمصطلحات التقنية التي لا تتلقى أي تفسير في تقاليد المسيحية العامة، ولكنها أساسية مع ممارسي الغنوصية.

ص 124

إن الصورة التي تقدمها لنا رسائل بولس عن الوضع الفعلي للأمور في منتصف القرن الأول هي صورة داعية مستقل، مستنير بأفكاره الخاصة، على اتصال بأفكار مدرسة باطنية من جهة، وبمجتمعات ظاهرية من أنواع مختلفة من جهة أخرى. ومهما كانت طبيعة المدارس الباطنية، فإن المجتمعات الظاهرية التي عمل فيها بولس كانت يهودية، ومعابد اليهود الأرثوذكس، ومعابد المجتمعات الظاهرية للإسينيين، وهي مجتمعات تلقت بعض التقاليد من تعاليم يسوع العامة أيضًا، وفهمتها أو أساءت فهمها حسب الحالة.

تدويل المسيحية. كانت مهمة بولس هي كسر الانعزالية اليهودية وتمهيد الطريق لتدويل المسيحية. إن القرن الذي تلا دعاية بولس هذه (50-150)، وفقًا لهارناك، يتميز بالخصائص التالية:

(i) الاختفاء السريع للمسيحية اليهودية (أي البدائية والأصلية) [الشعبية].

(ii) كان من المفترض أن يكون كل فرد من أفراد المجتمع قد تلقى "روح الله"؛ وكان التعليم "كاريزميًا"، أي أنه من طبيعة "المواهب الروحية".

(iii) كان التوقع باقتراب نهاية الزمان، وحكم المسيح على الأرض لمدة ألف عام - "الألفية" - يحظى بتأييد عالمي.

(iv) كانت المسيحية أسلوب حياة، وليست عقيدة.

(v) لم تكن هناك أشكال عقائدية ثابتة، وبالتالي كانت هناك حرية كبيرة في الوعظ المسيحي.

ص 125

(vi) لم تكن أقوال الرب والعهد القديم سلطات مطلقة بعد؛ إذ يمكن لـ "الروح" أن تنفيها.

(vii) لم يكن هناك اتحاد سياسي ثابت للكنائس؛ كل جماعة كانت مستقلة.

(viii) وقد أدت هذه الفترة إلى ظهور "أدب فريد من نوعه، تم فيه اختلاق حقائق للماضي وللمستقبل، ولم يخضع للقواعد والأشكال الأدبية المعتادة، بل تقدم بأسمى الادعاءات".

(ix) تم تقديم أقوال وحجج معينة لـ "معلمين رسوليين" مفترضين باعتبارها ذات سلطة كبيرة.

في الوقت نفسه، إلى جانب هذا الميل إلى التدويل، الذي كان دائمًا خاضعًا للدافع اليهودي الأصلي، على الرغم من أنه كان يظن أنه قد تخلص تمامًا من قيود "الختان"، كان هناك ميل حقيقي نحو التعميم يعمل في الخلفية؛ وهذا المسعى لتعميم المسيحية هو الإلهام العظيم الكامن وراء أفضل الجهود الغنوصية التي يتعين علينا مراجعتها. لكن

هذا التعميم لا ينتمي إلى خط الأصول الذي تتبعت المسيحية العامة نسبها إليه لاحقاً.

ص 126

الإبيونيون.

الناصريون. ويرى إبيفانيوس أن المسيحيين أطلق عليهم في البداية اسم Iessæi (الإيسي)، ويقول إنهم مذكورون بهذا الاسم في كتابات فيلو. ويُقال أيضاً إن أتباع أوائل المتحولين إلى يسوع كانوا يُطلق عليهم اسم الناصريين. حتى مع اقتراب نهاية القرن الرابع، كان الناصريون لا يزالون منتشرين في جميع أنحاء سوريا القديمة، وديكابوليس (حلف المدن العشرة)، وبيلا (التي فروا إليها عند تدمير أورشليم)، والمنطقة الواقعة وراء الأردن، وبعيدًا في بلاد ما بين النهرين. كانت مجموعتهم من اللوغوس تسمى *"إنجيل العبرانيين"*، وقد اختلفت اختلافًا كبيرًا عن الروايات المتوافقة في النصوص القانونية. حتى يومنا هذا، يُقال إن بقايا من الناصريين لا تزال موجودة في المندائيين، وهي طائفة غريبة تسكن مستنقعات جنوب بابل، لكن كتابهم الغريب، كتاب آدم، كما هو محفوظ في مخطوطة الناصريين، لا يشبه على الإطلاق الأجزاء المعروفة من إنجيل العبرانيين، على الرغم من أن بعض طقوسهم تشبه إلى حد كبير طقوس بعض جماعات "الأبرار" المشار إليها في تلك الكتابة اليهودية المنحولة الغريبة، نبوات سيبيل.

من هم الإيسيون أو الناصريون الأصليون، يكتنفهم الغموض الشديد؛ ومع ذلك، يمكننا الحصول على بعض المعلومات الإضافية تحت تسمية أخرى لهم، وهي الأبيونيون أو "الفقراء". تم نبذ هؤلاء الأتباع الأوائل ليسوع من حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية، وتم طمس

ص 127

أصلهم وتاريخهم تمامًا بسبب النشاط اللاحق لصائدي الهرطقة، حتى أننا نجد في النهاية أنهم من نسل شخص يدعى إبيون، وهو غير موجود مثل العديد من الهراطقة الآخرين، مثل إبيفانيس وكولارباسوس وإلكيساي، الذين تم اختراعهم بسبب حماس وجهل علماء الهرطقة و"المؤرخين" في القرن الرابع. إن إبيفانيس هو التجسيد اللاحق لمعلم "متميز" *(إبيفانيس)* لم يُذكر اسمه؛ وكولارباسوس هو تجسيد "الأربعة المقدسين" *(كول-أربا)*، وإلكساي هو تجسيد "القوة الخفية" *(إلكساي)*. كان الدحضون اللاحقون حريصين للغاية على إضافة المزيد إلى قائمة الهراطقة، لدرجة أنهم ابتكروا أسماء الأشخاص من الألقاب والمذاهب. وكذلك الأمر مع إبيون.

أُطلق على الأبيونيين في الأصل هذا الاسم لأنهم كانوا "فقراء"؛ ثم أضاف الأرثوذكس اللاحقون الرجال الفقراء. "في الذكاء" أو "في أفكارهم عن المسيح". وقد يكون هذا هو الحال بالفعل، ولا شك أن الكثيرين أساءوا فهم تعاليم يسوع العلنية بشكل كبير، لأنه لا ينبغي نسيان أن أحد العوامل الرئيسية التي يجب أخذها في الاعتبار عند مراجعة التقدم السريع اللاحق للدين الجديد كان الثورة الاجتماعية. في أذهان أكثر أتباع التعليم العام جهلاً، ربما كان أعظم أمل قد أُثير هو اقتراب اليوم الذي يُفترض فيه أن يرتفع شأن "الفقراء" فوق شأن "الأغنياء". لكن هذا كان رأي الأكثر جهلاً فقط؛ مع أنهم بلا شك كانوا كثيرين بما فيه الكفاية.

ومع ذلك، كانت الأبيونية هي التي حافظت على تقاليد أوائل المتحولين إلى التعليم العام، ولا شك أن المجتمعات الأبيونية

ص 128

كانت تمتلك مجموعة من الأقوال العامة وأسست حياتها عليها.

لقد حارب بولس هؤلاء الأتباع الأوائل للتعليم العلني ليسوع في جهوده لنشر المسيحية بين الأمم. لقد دار هذا الجدل بين بطرس وبولس لسنوات طويلة بمرارة شديدة، ويعتقد البعض أن قانون العهد الجديد كان الوسيلة المعتمدة لتشكيل أساس للمصالحة المستقبلية؛ فقد تم تحرير الوثائق البطرسية والبولسية بعناية، وتم إدراج الرابط الجديد لأعمال الرسل بين جزء الإنجيل ورسائل بولس، وهو عبارة عن مجموعة مختارة بعناية من مجموعة ضخمة من الأعمال الأسطورية، تم دمجها معًا في سرد متماسك ومزينة بخطابات على غرار ثوقيديدس.

تقليد الأبيونيين عن يسوع. كيف نظر الأبيونيون الأصليون إلى شخص يسوع وتعاليمه؟ كانوا يعتبرون قائدهم رجلاً حكيماً، ونبياً، يونس، بل وحتى سليمان. علاوة على ذلك، كان تجلياً للمسيح، الممسوح، الذي سيأتي، لكنه لم يظهر بعد كمسيح؛ ولن يكون ذلك إلا عند مجيئه الثاني. في ولادته باسم يسوع، كان نبياً بكل بساطة. لم يكن العهد الجديد سوى استمرار للشريعة القديمة؛ فكل شيء كان يهودياً في جوهره. لذلك توقعوا مجيء المسيح كما تنبأ به رجالهم القدماء حرفياً. كان من المقرر أن يأتي ملكاً، وعندها ستخضع جميع الأمم لسلطة الشعب المختار، وسيسود السلام والازدهار والوفرة على الأرض لمدة ألف عام.

ص 129

كان يسوع رجلاً، ولد كباقي الرجال، الابن البشري ليوسف ومريم. لم ينزل عليه الروح القدس ويصبح نبياً إلا عند معموديته، في سن الثلاثين. لذلك، قاموا بحفظ أقواله كأمانة ثمينة، ونقلوها شفهياً. لم يكن الأبيونيون يعرفون شيئاً عن وجود نبيهم المبجل أو ألوهيته. صحيح أن يسوع كان "المسيح"، ولكن كذلك سيكون كل من أتمّ الشريعة. وهكذا رفضوا بولس ومذهبه الجديد بشكل كامل؛ فبالنسبة لهم كان بولس مخادعاً ومرتداً عن الشريعة، بل أنكروا حتى أنه كان يهودياً.

لم يستخدموا إنجيل العبرانيين إلا في وقت لاحق، والذي يقول جيروم إنه كان هو نفسه إنجيل الرسل الاثني عشر وإنجيل الناصريين، أي إنجيل الناصريين. ينبغي التذكير بأن هؤلاء الناصريين لم يكونوا على دراية بأسطورة الناصرة، التي طورتها لاحقاً مدرسة المؤرخين "حتى تتحقق".

لم يعد الأبيونيون إلى أورشليم عندما سمح الإمبراطور بإنشاء مستعمرة إيليا كابيتولينا الجديدة في عام 138، لأنه لم يُسمح لأي يهودي بالعودة. المدينة الجديدة كانت مدينة لغير اليهود. لذلك، عندما نقرأ عن "إعادة تأسيس الكنيسة الأم" في إيليا كولونيا، في كتابات مؤرخي الكنيسة، لا يمكن الاعتماد بشكل كبير على مثل هذه الادعاءات. كانت "الكنيسة الأم"، بناءً على التعليم العام، إبيونيةً وظلت إبيونيةً، أما الجماعة في إيليا كولونيا فكانت من الأمم وبالتالي بولسية.

ص 130

إن المسيحية، كما فهمها الأبيونيون، كونها عقيدة وطنية في جوهرها، كانت البولسية ضرورة إذا ما أُريد لأي محاولة عامة لتحقيق العالمية أن تُبذل؛ ولذلك أصبح الجانب التاريخي الحقيقي للمسيحية الشعبية (التقليد الأبيوني الأصلي) أكثر غموضًا، حتى اختفى تمامًا من مجال هذا التقليد، بحيث يمكن تطوير "تاريخ" جديد بأمان ليناسب التطور العقائدي الذي بدأه بولس.

أما الأشكال اللاحقة للإبيونية، التي استمرت لعدة قرون، فكانت ذات طبيعة غنوصية، وتكشف عن اتصال هذه المجتمعات الخارجية للمسيحية البدائية القائمة على التعليم العام بتقاليد يهودية باطنية، والتي من الواضح أنها كانت موجودة في نفس وقت بولس، وربما كانت موجودة قبل ذلك بكثير.

ص 131

الإسينيون.

استناداً إلى الأقوال المحفوظة في الأناجيل القانونية وإلى وصف الجماعات الواردة في سفر أعمال الرسل، افترض الكثيرون أن يسوع كان عضواً في جماعات الإسينيين أو على دراية وثيقة بعقائدها ونظامها. من هم هؤلاء الإسينيون أو المعالجون؟

لعدة قرون قبل العصر المسيحي، سكنت مجتمعات الإسينيين على شواطئ البحر الميت. كان هؤلاء الإسينيون أو الإسيانيون، في أيام فيلو ويوسيفوس، متشبعين بأقصى درجات التبجيل لموسى والشريعة. كانوا يؤمنون بالله الخالق، وبخلود النفس، الحساب في الآخرة. ولأنهم وجدوا أنه من المستحيل تطبيق القواعد الدقيقة لقوانين الطهارة في الحياة العادية، فقد تبنوا حياة الشيوعية الزاهدة. كانت السمة الرئيسية التي تميزوا بها هي عقيدة الحب - حب الله، وحب الفضيلة، وحب البشرية - والطريقة العملية التي طبقوا بها تعاليمهم أثارت إعجاب الجميع.

إن التزامهم الصارم بنظام التطهير الذي سنته المؤسسات اللاوية أجبرهم على أن يصبحوا مجتمعًا مكتفيًا ذاتيًا؛ فقد عمل كل فرد في حرفة، وزرعوا حقولهم الخاصة، وصنعوا جميع المواد الغذائية والملابس التي استخدموها، وبالتالي تجنبوا بكل الطرق الاتصال بأولئك الذين لم يلتزموا بنفس القواعد. ويبدو أيضاً في دوائرهم المقربة أنهم كانوا ملتزمين بالعزوبية بشكل صارم.

ص 132

أسلوب حياتهم. كان أسلوب حياتهم على النحو التالي: كانوا يستيقظون قبل شروق الشمس، ولا ينطقون بكلمة حتى يجتمعوا معًا، ويتوجهون بوجوههم نحو الفجر، ويرفعون الصلوات من أجل تجديد النور. ثم ذهب كل منهم إلى مهمته المعينة تحت إشراف الوكلاء أو المشرفين ("الأساقفة") المنتخبين بالاقتراع العام. وفي الساعة الحادية عشرة اجتمعوا مرة أخرى، وخلعوا ملابس العمل، وأدوا طقوس المعمودية اليومية في الماء البارد؛ ثم ارتدوا أردية من الكتان الأبيض، وتوجهوا إلى الوجبة المشتركة، التي اعتبروها سرًا مقدسًا؛ وكانت قاعة الطعام بمثابة "معبد مقدس". تناولوا الطعام في صمت، وكان الطعام بسيطاً للغاية - خبز وخضراوات. قبل تناول الطعام، تم الدعاء بالبركة، وفي النهاية تم تقديم الشكر. جلس الأعضاء في أماكنهم حسب الأقدمية. ثم عادوا إلى العمل مرة أخرى حتى المساء، عندما اجتمعوا مرة أخرى لتناول وجبة مشتركة. ومع ذلك، كانت تُخصص ساعات معينة من اليوم لدراسة أسرار الطبيعة والوحي، وكذلك قوى التسلسلات الهرمية السماوية، وأسماء

الملائكة، وما إلى ذلك؛ لأن لديهم تعليمات داخلية، كانت تُحفظ بأقصى درجات السرية.

كان هذا هو النظام المتبع خلال أيام الأسبوع، بينما كان يتم الالتزام بالسبت بصرامة شديدة. إلا أنهم لم يكن لديهم كهنة، وأي شخص "يشعر" بالرغبة في القيام بذلك، كان يتولى قراءة الشريعة، وشرح الأسرار المتعلقة بالتتراجراماتون، أو الاسم الغامض المكون من أربعة أحرف للقوة الخالقة، والعوالم الملائكية. لذلك،

ص 133

كان الإسينيون على اتصال واضح بـ "الكابالا" الكلدانية والتقاليد الزرادشتية في الانضباط من أجل الطهارة؛ ومع ذلك، تم تجنب المنطق والميتافيزيقا باعتبارهما ضارين بالحياة التعبدية.

كانت هناك أربع درجات في المجتمع: (1) المبتدئون؛ (2) المتقدمون؛ (3) الأعضاء الجدد الكاملون، أو المنتسبون؛ (4) الأعضاء القدامى، أو الشيوخ.

(.1) بعد السنة الأولى، كان المبتدئ يقدم كل ممتلكاته إلى الخزانة العامة، ويتلقى نسخة من اللوائح، ومجرفة (للغرض الموصوف في لوائح معسكر موسى)، ورداء أبيض، رمز الطهارة؛ لكن المبتدئ كان لا يزال مستبعدًا من طقوس التطهير والوجبة العامة.

(.2) وبعد عامين آخرين، شارك المبتدئ في طقوس التطهير، لكنه ظل مستبعداً من الوجبة الجماعية.

(.3) كان المنتسبون ملزمين بأشد الضمانات رسمية، وفي حالة أي تقصير، لا يمكن الحكم عليه إلا من قبل "المجلس" المكون من مائة عضو.

يُقال إن الإسينية كانت شكلاً مبالغاً فيه من الفريسية؛ وقد يكون درجات القداسة. من المفاجئ لأولئك الذين لا يعرفون عن الفريسيين إلا من خلال الوثائق القانونية، أن يعلموا أن الهدف الأسمى لهذه المدرسة المستنيرة من اليهودية كان الوصول إلى حالة من القداسة تمكنهم من القيام بمعجزات الشفاء والتنبؤ. يُقال إن "درجات القداسة" التي مارسها الفريسيون كانت: (1) دراسة الشريعة والتدقيق؛ (2) فترة الابتداء، حيث كان المئزر رمزًا للطهارة؛ (3) الطهارة

ص 134

الخارجية، عن طريق التطهير أو المعمودية؛ (4) العزوبية؛ (5) الطهارة الداخلية، نقاء الفكر؛ (6) مرحلة أعلى، لم يتم تحديدها بشكل أكبر؛ (7) الوداعة والقداسة؛ (8) الخوف من كل خطيئة؛ (9) أعلى مراحل القداسة؛ (10) المرحلة التي مكنت البارع من شفاء المرضى وإحياء الموتى.

ومع ذلك، ينبغي أن نتذكر أن المعالجين رفضوا رفضاً قاطعاً أن يكون لهم أي علاقة بتضحيات الدم في عبادة الهيكل، ورفضوا الإيمان بقيامة الجسد المادي، التي اعتبرها بقية الفريسيين عقيدة أساسية.

من المستحيل بالطبع في هذه اللمحة الموجزة الإشارة إلى أوجه التشابه اللافتة للنظر بين نظام الإسينيين ونظام المعالجين في مصر والمدارس الأورفية والفيثاغورية. كل موضوع تمت الإشارة إليه في هذه المقالات يتطلب مجلداً أو عدة مجلدات لمعالجته بشكل صحيح؛ لا يمكننا إلا وضع بعض الإشارات، وترك القارئ ليقوم بتحقيقاته الخاصة.

لكن قبل أن نغادر هذا الموضوع المثير للاهتمام، سيكون من الضروري الإشارة إلى التطابق بين العديد من لوائح الإسينيين وتعاليم وتقاليد الإنجيل.

نقاط الاتصال بالمسيحية. كان يُطلب من المتحولين بيع ممتلكاتهم والتبرع بها للفقراء، لأن تكديس الكنوز كان يعتبر ضارًا بالحياة الروحية. لم يقتصر الأمر على احتقار الإسينيين للثروات فحسب، بل إنهم عاشوا حياة فقر فرضوه على أنفسهم. كان حب الأخوة وحب الجار هو روح حياة الإسينيين، وأساس كل عمل؛ وهذه السمة

ص 135

من انضباطهم أثارت إعجاباً عالمياً. كان الأعضاء يعيشون معًا كما لو كانوا عائلة واحدة، وكان لديهم كل شيء مشترك، وعينوا وكيلاً لإدارة الحقيبة المشتركة. عند سفرهم كانوا يقيمون مع إخوة لم يروهم من قبل، كما لو كانوا مع أقدم الأصدقاء وأكثرهم حميمية؛ وهكذا لم يأخذوا معهم شيئاً عندما ذهبوا في رحلة. تم وضع جميع الأعضاء على نفس المستوى، وكان من المحظور أن يكون لأحدهم سلطة على الآخر؛ ومع ذلك، فقد تم إلزامهم بشدة بالخدمة المتبادلة. وكانوا أيضاً من محبي السلام، ولذلك رفضوا حمل السلاح أو تصنيع الأسلحة الحربية؛ علاوة على ذلك فقد حظروا العبودية. وأخيراً، كانت غاية الإسينيين هي أن يكونوا متواضعين ووديعين في الروح، وأن يكبتوا كل الشهوات الخاطئة، وأن يكونوا أنقياء في القلب، وأن يكرهوا الشر ولكن يعيدوا فاعله إلى رشده، وأن يكونوا رحماء بجميع الناس. وعلاوة على ذلك، كان من المفترض أن تكون موافقتهم نعم، ورفضهم لا. لقد كانوا متفانين في علاج المرضى، وشفاء الجسد والنفس، واعتبروا القدرة على القيام بعمليات شفاء خارقة وطرد الأرواح الشريرة أعلى مراحل الانضباط. باختصار، سعوا جاهدين ليكونوا أنقياء لدرجة أن يصبحوا معابد للروح القدس، وبالتالي رؤاة وأنبياء.

كانت هذه المجتمعات الداخلية مرتبطة بدوائر خارجية من التلاميذ الذين يعيشون في العالم، والذين وُجدوا في جميع المراكز الرئيسية للشتات.

يميز فيلو بين الإسينيين والمعالجين بقوله إن الأولين كانوا مكرسين للحياة "العملية"، بينما انتقل الأخيرون إلى المرحلة الأعلى من الحياة "التأملية"، وكرسوا أنفسهم لمشاكل أسمى

ص 136

في الدين والفلسفة، وفي هذا الاتجاه يجب أن نبحث عن الأفضل في الغنوصية.

ميول الغنوصية.

"علمنة" المسيحية. ولكن هنا مرة أخرى، البيانات التاريخية الدقيقة غير واردة، وعلينا في الغالب التعامل مع ما يسميه الألمان "اتجاه". يتحدث هارناك عن هذا الاتجاه، الذي يُطلق عليه عمومًا اسم الغنوصية بحكم العرف الطويل، باعتباره "علمنة حادة للمسيحية". ما هو معنى هذه العبارة إذن؟

يقال إن العقيدة الكاثوليكية هي نتيجة لعملية الهلننة التدريجية للمسيحية العامة، أي تعديل التقاليد الشعبية بالمنهج الفلسفي واللاهوتي. إن تطور المعتقدات الشعبية يستغرق وقتاً، والنتائج التي يتوصل إليها العقل العام بعد قرون فقط، يتم توقعها دائماً من قبل عقول أكثر تعليماً من أجيال سابقة. أمثال غاليليو في العالم يُدانون دائماً من قبل معاصريهم. لقد توصل العقل الغنوصي بسرعة من جهة إلى العديد من الاستنتاجات التي تبناها الكاثوليك تدريجياً بعد أجيال من التردد، ومن جهة أخرى إلى عدد من الاستنتاجات التي تبدو حتى لجيلنا الحالي سابقة لأوانها. إن جميع طلاب الفلسفة الثيوصوفية، في مسائل الدين، يسبقون عصرهم بقرون، وذلك لسبب بسيط هو أنهم يسعون بكل الوسائل المتاحة لهم لتقصير مدة التطور الطبيعي والوصول إلى الهدف الصوفي، الذي يكون في كل لحظة من الزمن قريباً في الداخل، ولكن

ص 137

بالنسبة للأغلبية بعيدة كل البعد عن المسار الطبيعي للتطور الخارجي.

إن عبارة "علمنة المسيحية الحادة" تمثل، إذن، عملية اللاهوت والتنظيم السريع للمسيحية؛ لكنني أشك في أن هذا يفسر الحقائق بشكل كامل. كان الغنوص قبل المسيحية؛ لقد أنار المسيح تقاليدها، ومن خلال تعليمه العلني كشف عمليًا للجميع ما كان مخفيًا "منذ خلق العالم" - لنكون أكثر دقة، الدرجات المتوسطة من الأسرار. نجحت العملية، وبمرور الوقت، تم إجبار الكثير مما كان يُحتفظ به سابقًا للمستحقين فقط على الظهور العلني وأصبح ملكية عامة. لقد أُجبر على الخروج بسبب ضغوط الظروف، التي بدأت بدعاية بولس، واشتدت بسبب الجدل اللاحق حول الهراطقة. زعم الغنوصيون أن هناك خطين من التقاليد - الأقوال العامة، والتعاليم الباطنية التي تناولت الأمور التي لا يستطيع الناس في العالم فهمها. لقد احتفظوا بهذا الجانب من تعاليمهم في البداية لأنفسهم تماماً، ولم يطرحوا منه إلا جزءاً صغيراً تدريجياً؛ أما الباقي فقد احتفظوا به في سرية تامة، لأنهم كانوا يعلمون أنه لا يمكن فهمه بأي حال من الأحوال.

كان الغنوصيون إذن أول اللاهوتيين المسيحيين، وإذا كان من دواعي الاستنكار أن الجانب التاريخي الحقيقي للحركة الجديدة قد تم إخفاؤه من أجل تلبية ضرورات دين كان يطمح إلى العالمية، فإن الغنوصيين هم المذنبون الرئيسيون.

وأخيراً، من خلال قبول العهد القديم،

ص 138

يهوه ليس "أب" يسوع. لقد تبنى القانون في تفسيره الحرفي معتقدات اليهودية الشعبية وعبادة يهوه، ولكنه في السنوات السابقة كان يميل إلى البحث عن تفسير رمزي. وعلى النقيض من ذلك، فإن الغنوصية، كلما لم ترفض وثائق العهد القديم تماماً، لم تتبنَّ فقط المنهج المجازي، بل تبنت أيضاً قانوناً نقدياً يصنف "الإلهام" بدقة، وبالتالي يستبعد معظم المقاطع المرفوضة من القانون اليهودي.

وهكذا، في سعيها وراء مثال عالمي، تم وضع الإله القبلي - أو بالأحرى، الآراء الفجة للعامة اليهود غير المتعلمين بشأن يهوه - في مكانة

ثانوية للغاية، إن لم يتم رفضها تمامًا. باختصار، لم يكن يهوه الإلوهيم هو والد يسوع؛ ولم يكن الديميورجوس، أو القوة الخلاقة للعالم، هو الإله الغامض فوق كل شيء.

التعليم الباطني. وكما تجاوزت فكرة الإله الحقيقي المفاهيم الشائعة عن الألوهية، كذلك أنارت تعاليم الغنوص الحقيقية الأقوال أو الأمثال الغامضة. كانت التعاليم الأخلاقية، أو "كلمات الرب"، والأمثال تتطلب تفسيراً؛ كان المعنى الحرفي كافياً للناس، ولكن بالنسبة لأصحاب العقول الروحية الحقيقية، كان هناك أفق لا نهائي من المعنى الداخلي الذي يمكن أن يُكشف لعين الغنوصي الحقيقي. وهكذا كانت التعاليم الأخلاقية الواضحة والأقوال الغامضة غير المفهومة موجهة لغير المتعلمين؛ ولكن كان هناك تعليم آخر، عقيدة باطنية أو داخلية، تم نقلها إلى المستحقين فقط. وهكذا تم تجميع العديد من الأناجيل والرؤى

ص 139

تم تجميعها تحت إلهام "الروح"، كما زُعم - وكلها تدعي أنها التعليمات التي منحها يسوع لتلاميذه بعد "القيامة من بين الأموات"، وهي العبارة الصوفية التي مثلوها في الغالب بمعنى الولادة الجديدة أو التنوير الغنوصي، أي عودة النفس إلى الحياة من حالتها الميتة السابقة. لكن حتى هذه الرسائل الغنوصية لم تكشف عن الأمر برمته؛ صحيح أنها شرحت أشياء كثيرة من حيث الحالات الداخلية والعمليات الروحية؛ لكنها مع ذلك تركت الكثير دون تفسير، ولم يتم نقل الوحي النهائي إلا عن طريق الكلام الشفهي في الجسد، وعن طريق الرؤية خارج الجسد.

وهكذا كان من عادتهم تقسيم البشر إلى ثلاث طبقات: (أ) الطبقة الدنيا، أو طبقات النفوس المختلفة. وهم "الهايليون"، الذين كانوا ميتين تمامًا عن الأمور الروحية لدرجة أنهم كانوا مثل الهيلي، أو المادة غير المدركة للعالم؛ (ب) الطبقة المتوسطة، ويطلق عليهم "النفسيون"، لأنهم على الرغم من إيمانهم بالأمور الروحية، إلا أنهم كانوا مؤمنين فحسب، ويحتاجون إلى المعجزات والآيات لتقوية إيمانهم؛ (ج) بينما الطبقة العليا، وهم "البينيوماتك"، أو الروحانيون، وهم القادرون على معرفة الأمور الروحية، والذين يمكنهم تلقي الغنوص.

من الشائع في أيامنا هذه، في الأوساط المتطرفة، الادعاء بأن جميع الرجال "متساوين". يُقيّد اللاهوتي الحديث هذا الادعاء بحكمة باستخدام الظرف "أخلاقياً". وبهذا المعنى، فإن الفكرة ليست بأي حال من الأحوال وجهة نظر مسيحية خاصة - لأن هذا المذهب مشترك بين جميع الأديان الكبرى، حيث أنه يؤكد ببساطة على المبدأ العظيم للعدالة باعتباره أحد

ص 140

من تجليات الألوهية. لكن الرؤية الغنوصية أكثر وضوحاً، وأكثر توافقاً مع حقائق التطور؛ فهي تقبل "المساواة الأخلاقية"، لكنها تؤكد أيضاً على اختلاف الدرجة، ليس فقط في الجسد والنفس، ولكن أيضاً في الروح، من أجل جعل الأخلاق متناسبة، وبالتالي تحقيق المعنى الباطني لمثل القدرات.

لم يقتصر هذا التصنيف على الرجال فحسب، بل شمل أيضًا السلطات؛ وقد تم تصنيف أنبياء العهد القديم، باعتبارهم أدوات لتلك السلطات، كما ذكر أعلاه، وفقًا لترتيب كرامتهم.

شخصية يسوع. لقد مثّلت شخصية يسوع، نبيّ البشارة الجديدة، مشكلةً بالغة الصعوبة بالنسبة لعلماء الغنوصية، ويمكننا أن نجد أمثلةً على ذلك.

كل لون من ألوان الرأي بينهم - من وجهة نظر الأبيونيين الأصلية بأنه كان مجرد رجل صالح وقديس، إلى النقيض تمامًا من الاعتقاد؛ بأنه لم يكن مجرد نسل من كلمة (لوغوس) الله - وهي فكرة مألوفة في العصور الشرقية القديمة - بل كان في الواقع وفي شخصه إلهًا حقيقيًا من إله حقيقي، وهي ضرورة فرضت على الإيمان بروح التباهي والحماس الذي سعى إلى تجاوز مطالب كل دين موجود.

وهكذا جُعل شخص يسوع يتحمل عبء كل احتمال من احتمالات العالم الخفي وكل قوة خفية في الطبيعة البشرية. وفي مساعيهم للتوفيق بين أفكار الإنسان المعذب والمبادر المنتصر وملك الكون (العقلاني والعقلي على حد سواء)، لجأوا إلى حيلة الدوسيتية، وهي نظرية يمكنها أن تغطي كل مرحلة من مراحل التناقض في التناقض الحاد بين الطبيعة الإلهية والبشرية لمثالهم الأعلى. النظرية

ص 141

الدوسيتية هي نظرية "المظهر". تم التمييز بشكل حاد بين المسيح، الأيون الإلهي أو "الإنسان" الكامل، ويسوع الشخصية. لم يتألم الله، أو بالأحرى الإله، في المسيح، ولكنه بدا وكأنه يتألم؛ الإنسان الأدنى، يسوع، هو وحده الذي تألم. أو بعبارة أخرى، لم يتجسد المسيح حقاً في رجل اسمه يسوع، بل اتخذ لنفسه جسداً وهمياً يسمى يسوع. لكن هذه كانت تطورات عقائدية لاحقة على أساس حقائق داخلية معينة: (أ) أن الجسم الوهمي يمكن استخدامه من قبل "الكامل"، وأن يظهر ويختفي حسب الرغبة، وأن يصبح كثيفًا أو ماديًا، بحيث يمكن الشعور به جسديًا؛ و(ب) أن الجسم المادي لشخص آخر، عادة ما يكون تلميذًا، يمكن استخدامه من قبل معلم الحكمة كوسيلة للتعليم. تظهر هذه الأفكار الأساسية في الرسائل الغنوصية وتشكل جزءًا مهمًا من علم المسيح لديهم، وخاصة فيما يتعلق بفترة التعليم بعد "القيامة".

في الواقع، لم تكن هناك مشكلة تبدو سامية للغاية بالنسبة لبديهة الفيلسوف الغنوصي؛ فقد المبادئ الرئيسية. تم البحث في أصل الأشياء، ووجهتها، وسببها، وكيفية حدوثها بجرأة مذهلة. لم تكن نشأة الكون لديهم ذات طابع سامٍ ومعقد فحسب، بل كانت حدود العالم المحسوس ضيقة للغاية بحيث لا يمكنها احتواءها، لذلك بحثوا عن أصولها في المناطق الفكرية والروحية للعقل الكامن للألوهية، حيث افترضوا علمًا متعاليًا للوجود يصور تنشيطات التفكير الإلهي. كانت نشأة الإنسان لديهم معقدة بنفس القدر، وكانت الإمكانيات التي افترضوها للنفس والروح البشرية سامية بنفس القدر.

ص 142

أما فيما يتعلق بعلم الخلاص، أو نظرية خلاص أو تجديد البشرية، فإنهم لم يحصروا الفكرة في المفهوم البدائي والمحدود للعاطفة الجسدية من قبل فرد واحد، بل وسعوها إلى عملية كونية هائلة، تم إنجازها بإرادة اللوغوس في طبيعته.

لقد رسمت عقيدة الأخرويات الخاصة بهم، أو مذهب "الأشياء الأخيرة"، مرة أخرى للبشرية في نهاية دورة العالم مستقبلاً يمنح "النيرفانا" للروحانيين والنعيم الأبدي للنفسيين، بينما يبقى الماديون في غموض المادة حتى نهاية "السلام العظيم" - وهي صورة تختلف إلى حد ما عن التوقع البدائي لوقت الولائم الجيدة على الأرض لـ "الفقراء"، والذي يشير إليه هارناك تقنيًا على أنه "علم الأخرويات الحسي السعيد".

وأخيراً، تمحور مذهبهم بالكامل حول مفهوم القانون الدوري لكل من النفس الكونية والنفس الفردية. وهكذا نجد أن الغنوصيين يعلمون باستمرار عقيدة ليس فقط الوجود السابق ولكن أيضًا عقيدة إعادة ولادة النفوس البشرية؛ وعلى الرغم من أن السمة الرئيسية لعقائدهم كانت العقيدة الأساسية المتمثلة في غفران الذنوب، إلا أنهم تمسكوا بشدة بالتطبيق المعصوم لقانون السبب والتأثير العظيم. من الغريب إلى حد ما أن هاتين العقيدتين الرئيسيتين، اللتين تفسران الكثير في الغنوصية وتلقيان الضوء على العديد من الأماكن المظلمة، قد تم تجاهلهما تمامًا أو، عندما لا يتم التغاضي عنهما بشكل غير ذكي، يتم التخلص منهما ببضع ملاحظات متسرعة حيث يبذل الناقد جهدًا أكبر للاعتذار عن التطرق إلى خرافات سخيفة مثل "التناسخ" و"القدر"، بدلاً من توضيح المبادئ التي تعد مفتاحًا للموقف بأكمله.

ص 143

الأدبيات ومصادر الغنوصية.

لقد اقتصرت دراسة الغنوصية حتى الآن بشكل شبه كامل على المتخصصين، الذين لا يمكن فهم أعمالهم من قبل عامة الناس؛ فالقارئ العادي ينفر من كثرة التفاصيل، وصعوبة المصطلحات التقنية، وغموض المصطلحات اللاهوتية، والشعور بأنه من المتوقع أن يعرف أشياء كثيرة لم يسمع بها من قبل. من المأمول أن يتم قريباً حث أحد العلماء الإنجليز الأكفاء، الموهوبين بعبقرية التعميم الواضح، على كتابة عرض مبسط للموضوع، حتى يتمكن المفكرون من الرجال والنساء الذين لم يتمتعوا بمزايا التدريب التقني في تاريخ الكنيسة وعلم اللاهوت، من فهم أهميته وجاذبيته.

في هذه الأثناء، قد تكون مقالتنا الحالية بمثابة "دليل للحائرين" إلى حد ما، ولكنها لم تُصمم وفق خطة أو تُنفذ بقدرة موسى بن ميمون، بل مجرد تدوين لبعض الملاحظات والإشارات التي قد توفر على القارئ العادي سنوات من العمل الذي بذله الكاتب في البحث في العديد من الكتب.

أولاً، فيما يتعلق بالكتب؛ ما هي أفضل الأعمال في مجال الغنوصية؟ أفضل الكتب بلا استثناء الأدب. هي من تأليف علماء ألمان. وهنا إذن، نواجه أول صعوبة لدينا، لأن القارئ العادي كقاعدة عامة هو رجل يتحدث لغة واحدة فقط. لذلك، بالنسبة للقارئ الإنجليزي العادي، فإن هذه الأعمال كتب مغلقة، وعليه أن يلجأ إلى

ص 144

الترجمات، إن وجدت. لسوء الحظ، لا يمكن الحصول إلا على عملين فقط من هذه الأعمال بالزي الإنجليزي.

يتناول المجلد الثاني من ترجمة (بون، طبعة جديدة، 1890) لتاريخ الكنيسة لنياندر (1825، إلخ) الغنوصيين، لكن عمل اللاهوتي الألماني العظيم أصبح الآن قديمًا.

أفضل مراجعة عامة للغنوصية في ضوء أحدث الأبحاث، يمكن العثور عليها في كتاب هارناك الرائع ″تاريخ العقيدة″، في المجلد الأول، الذي تُرجم عام 1894.

للحصول على سرد أكثر تفصيلاً، فإن قاموس للسير المسيحية (1877-1887) لـ سميث وويس لا غنى عنه على الإطلاق. يتضمن مخطط هذا العمل المفيد مقالاً عاماً، مع مقالات مطولة عن كل معلم غنوصي، ومقالات أقصر عن عدد من المصطلحات التقنية للغنوصية. ليبسيوس، وسالمون، وهورت مسؤولون عن العمل، وأسماؤهم ضمانة كافية للدقة والشمولية.

إن العملين الأخيرين هما كل ما هو ضروري لفهم أولي للموضوع، وهما نتاج بحث علمي عميق وفطنة نقدية جديرة بالإعجاب. إنه لمن دواعي سروري أن أضيف إشادة الثناء إلى هذا العمل، على الرغم من أن وجهة النظر التي يتبناها هؤلاء العلماء المتميزون ليست ليبرالية بما يكفي بالنسبة لشخص مقتنع تمامًا بأن إلهام كل جهد صادق لصياغة الحقيقة الداخلية للأشياء هو في الواقع من فوق.

ومن بين الأعمال الإنجليزية الأخرى، يمكننا أن نذكر كتاب كينغ "الغنوصيون وبقاياهم" (الطبعة الثانية، 1887)، وهو عمل موجه للقارئ العام. يصر كينغ بشدة

ص 145

يصر على وجود تأثير هندي واضح في الغنوصية، ويتناول عدداً من النقاط المثيرة للاهتمام؛ لكن عمله يفتقر إلى دقة المتخصص. إلا أنه بعيد كل البعد عن "الأرثوذكسية"، ولديه تعاطف كبير للغاية مع الغنوصيين. إن أضعف نقطة في عمل كينغ هي الجانب الذي أبرزه بشكل رئيسي؛ ما يسمى "بقايا" الغنوصيين، والتمائم، والطلاسم، وما إلى ذلك، والتي اهتم بها كينغ كعالم عملات بشكل خاص، يذكر الآن من قبل أفضل السلطات أنه من المرجح جدًا ألا يكون لها أي صلة بفلاسفتنا. ومع ذلك، فإن كتاب كينغ يستحق القراءة.

إن عمل مانسيل الذي نُشر بعد وفاته البدع الغنوصية في القرنين الأول والثاني (1875) ليس فقط غير متعاطف، بل إنه في معظمه يظلم الغنوصيين ظلماً فادحاً، من خلال الإصرار على التعامل مع أفكارهم الرائدة على أنها ميتافيزيقا يجب الحكم عليها بمعيار الأساليب الفلسفية الألمانية الحديثة، علماً بأن العميد نفسه كان يشغل كرسي الفلسفة في وقت من الأوقات.

يخصص نورتون، في كتابه "أدلة على صحة الأناجيل" (1847)، المجلد الثاني للغنوصيين، لكن قيمة عمله ضئيلة.

ربما يكون كتاب بيرتون "بحث في بدعات العصر الرسولي" (1829) قد كتبه أحد آباء الكنيسة الأوائل. لقد أصبح كل من جهد محاضر بامبتون وجهد نورتون قديمين الآن؛ علاوة على ذلك، لا يمكن الحصول على كتبهما وكتب مانسيل إلا من سوق الكتب المستعملة.

هذا كل ما يتعلق بالأعمال باللغة الإنجليزية التي تتناول الغنوصية بشكل مباشر.

ص 146

سيجد الطالب في كتاب هارناك قوائم مراجع موجزة ولكنها مميزة بعد كل فصل، حيث يتم تقديم جميع أفضل الأعمال، وخاصة أعمال العلماء الألمان؛ وفي قاموس سميث وويس، تتبع كل مقالة أيضًا قائمة مراجع عادلة. يمكن العثور على قائمة مراجع عامة مختصرة، وكذلك قائمة بجميع الأعمال الحديثة التي تم إنجازها تقريبًا على الوثائق المباشرة الوحيدة للغنوصية التي نمتلكها، في مقدمة ترجمتي للأطروحة الغنوصية بيستيس صوفيا (1896)؛ كما تم إرفاق قائمة مراجع مصنفة

لجميع الأعمال الأكثر أهمية بهذه المقالة. سيتفاجأ الطالب عندما يرى مدى سوء مقارنة ندرة المعلومات باللغة الإنجليزية بكمية الأعمال الموسوعية باللغة الألمانية، وكيف أن فرنسا أيضاً في هذا المجال من تاريخ الكنيسة والبحث اللاهوتي تتفوق على إنجلترا بشكل كبير. لكن دراسة هذه الأعمال لا تندرج ضمن خطة هذه المقالة القصيرة.

المصادر غير المباشرة. هذا كل ما يتعلق بالأدبيات العامة للموضوع باللغة الإنجليزية؛ علينا الآن أن ننظر بإيجاز في الوثائق غير المباشرة والمباشرة للغنوصية. أقصد بالوثائق "غير المباشرة" الكتابات الجدلية لآباء ما أسس فيما بعد الكنيسة الكاثوليكية الأرثوذكسية. كانت هذه الوثائق غير المباشرة عملياً المصادر الوحيدة للمعلومات حتى عام 1853، عندما نُشرت ترجمة شوارتز لكتاب بيستيس صوفيا. أقصد بالوثائق "المباشرة" تلك الرسائل الغنوصية القليلة التي وصلت إلينا من خلال الترجمة القبطية.

لذلك، تأتي مصادر معلوماتنا غير المباشرة

ص 147

تأتي هذه المعلومات من خلال أيدي أشد معارضي الغنوص عنفاً؛ وما علينا إلا أن نتذكر المرارة الشديدة للجدل الديني في جميع الأوقات، وخاصة في القرون الأولى للكنيسة، لكي نشكك بشدة في موثوقية مصادر المعلومات هذه. علاوة على ذلك، فإن المصادر الأقدم والأكثر معاصرة، وبالتالي الأكثر موثوقية نسبياً، توجد في الغالب في كتابات آباء الكنيسة الغربية، الذين كانوا أقل قدرة على فهم المشكلات الفلسفية والصوفية التي أثارت المجتمعات الشرقية. لم يستطع العقل الروماني والغربي استيعاب الفكر اليوناني والشرقي حقًا، وكان الآباء الغربيون دائمًا هم المدافعون الرئيسيون عن "الأرثوذكسية".

ينبغي أن نتذكر كذلك أنه ليس لدينا أي "دحض" معاصر موجود للقرن الأول (إن وجد أصلاً)، أو للأرباع الثلاثة الأولى من القرن الثاني. إن "المخزن العظيم للغنوصية" هو كتاب دحض إيرينيئوس، الذي كتب في ليون في بلاد الغال، بعيدًا عن مسرح الأحداث الحقيقي، في العقد قبل الأخير من القرن الثاني. جميع الدحضين اللاحقين يعتمدون بشكل أو بآخر على رسالة إيرينيئوس، وكثيراً ما ينسخون عمل الأسقف الغالي. إذا كان من الممكن إثبات أن إيرينيئوس غير موثوق به، فإن صرح الدحض بأكمله يصبح مهدداً بسبب عدم أمان أساسه. سيتم تناول هذه النقطة المهمة لاحقاً.

قبل إيرينيئوس، كان هناك شخص يُدعى أغريبا كاستور، الذي ازدهر في أواخر عهد هادريان، حوالي عام 135 ميلادي.

ص 148

ويُقال إن يوسابيوس كان أول من كتب ضد البدع. للأسف، ضاعت أعماله.

قام جاستن الشهيد، المدافع عن العقيدة، بتأليف عمل ضد البدع؛ هذا العمل، المعروف باسم "سينتاغما" أو "كومبنديوم"، مفقود أيضاً للأسف. بالنظر إلى رواية يوستينوس لقصة الإنجيل في أعماله الموجودة، يبدو أن "مذكرات الرسل" التي يشير إليها مرارًا وتكرارًا، لم تكن مطابقة للأناجيل القانونية الأربعة لدينا، على الرغم من أنه قد يكون من الممكن أن تتخذ هذه الأناجيل شكلها الحالي في هذه الفترة. لذلك، يمكن افتراض أن عمله حول الهرطقات قد ألقى ضوءًا قويًا جدًا على ما قبلها.

جدل قانوني يجعل استمرار استخدامه مرغوبًا فيه. قد يكون هذا أيضًا سبب اختفاء أعمال أغريبا كاستور. ازدهر جاستن حوالي عام 140-160 ميلادي.

عاش كليمنت الإسكندري، الذي كان أعظم نشاط أدبي له في الفترة ما بين 190 و203 ميلادي، في أكبر مركز للنشاط الغنوصي، وكان على معرفة شخصية ببعض كبار علماء الغنوصية. إن أعماله خالية في معظمها من تلك الاتهامات الشاملة بالانحلال الأخلاقي التي أحبّذها غالبية آباء الكنيسة في السنوات اللاحقة لتشويه سمعة الغنوصيين في القرنين الأولين. يتفق جميع النقاد الآن على أن هذه الاتهامات كانت افتراءات لا أساس لها من الصحة فيما يتعلق بالمدارس الكبرى ومعلميها، بالنظر إلى أن غالبيتهم كانوا زاهدين متشددين. لكن هذه النقطة ستتضح أكثر لاحقاً.

من المفترض أن كليمنت قد تناول المشاكل العليا للغنوصية في عمله المفقود، "الخطوط العريضة"،

ص 149

وفيه سعى إلى بناء نظام كامل للتعليم المسيحي، وكانت الكتب الثلاثة الأولى منه تشبه إلى حد كبير المراحل الثلاث للأفلاطونيين: (1). التنقية (2) التأهيل، (3) الرؤية المباشرة. هذا العمل أيضاً ضائع للأسف. كان ذلك استمراراً لكتابه الشهير "المختارات"، الذي سعى فيه الفيلسوف المسيحي جاهداً لإثبات أنه كان غنوصياً حقيقياً.

كتب ترتليان القرطاجي (الذي ازدهر في الفترة ما بين 200 و 220 ميلادي)، والذي اشتهر بتعصبه و"حماسته النارية" ولغته البذيئة العنيفة، ضد الهرطقات، وكان في الغالب ينسخ إيرينيئوس. أما بالنسبة للمرقيونيين، فهو يمثل سلطة مستقلة. جزء من الرسالة المنسوبة إلى ترتليان ضد الهرطقة كتبها شخص مجهول يدحضها، وبالتالي لدينا شخص مزيف لترتليان يجب أخذه في الاعتبار.

كان هيبوليتوس، أسقف بورتوس عند مصب نهر التيبر، تلميذاً لإيرينيئوس. لقد كتب كتاباً موجزاً ضد جميع الهرطقات، يستند بالكامل تقريباً إلى إيرينيئوس، وهو كتاب مفقود؛ ولكن تم اكتشاف عمل أكبر بكثير لنفس الأب في عام 1842 في جبل آثوس. وقد زعم هذا أنه دحض لجميع الهرطقات ، ويضيف بشكل كبير إلى معلوماتنا من مصادر غير مباشرة؛ لأن العمل ليس مجرد نسخة من إيرينيئوس، ولكنه يضيف كتلة كبيرة من المواد الجديدة، مع اقتباسات من بعض المخطوطات الغنوصية التي وقعت في أيدي هيبوليتوس. يمكن تأريخ تأليف هذا العمل في مكان ما حوالي عام 222 ميلادي.

في هذا الوقت تقريبًا (225-250) كتب أوريجانوس، أحد آباء الإسكندرية العظماء، ردًا على

ص 150

سيلسوس معين، الذي يُفترض أنه كان أول معارض للمسيحية بين الفلاسفة، والذي عاش قبل أوريجانوس بنحو خمسة وسبعين عامًا. يحتوي هذا النص على مقاطع تشير إلى بعض الغنوصيين. إذا قمنا بتضمين عمل أوريجانوس ضد كلمة سيلسوس الحقيقية، نكون قد ذكرنا جميع الآباء الذين لهم قيمة حقيقية للمصادر غير المباشرة للغنوصية في القرنين الأولين.

فيلاستر، أسقف بريشيا في إيطاليا، وإبيفانيوس، أسقف سلاميس في قبرص، وجيروم، يقعون في الربع الأخير من القرن الرابع، وبالتالي (إلا إذا كانوا يقتبسون من كتاب سابقين) متأخرين جدًا عن الدقة فيما يتعلق بأمور القرنين الأولين. علاوة على ذلك، يتم طرد فيلاستر عمومًا من المحكمة بسبب سذاجته المفرطة؛ وغالبًا ما تكون مصداقية إبيفانيوس موضع شك كبير، نظرًا لقدرته الكبيرة على اختلاق أو ترويج الفضائح وجميع أنواع القذارة.

يوسابيوس أقدم بخمسين عاماً، ولكن لا يمكن استخلاص الكثير منه حول هذا الموضوع، وقد تم التشكيك في سمعته فيما يتعلق بالدقة من قبل العديد من النقاد التاريخيين المستقلين.

إن كتاب ثيودوريت المختصر، الذي يستند إلى أسلافه ويعود تاريخه إلى منتصف القرن الخامس تقريباً، متأخر جداً بحيث لا يمكن إضافته إلى معرفتنا بالقرنين الأولين.

لقد أظهرت دراسة هذه الوثائق غير المباشرة براعة النقاد وأسفرت عن إنجاز علمي بارع بشكل رائع. لقد أثبت ليبسيوس أن إبيفانيوس وفيلاستر وبترتليان

ص 151

الزائف يستمدون جميعًا من مصدر مشترك، وهو كتاب سينتاغما أو كومبنديوم هيبوليتوس المفقود، والذي يتكون أساسًا من ملاحظات محاضرات إيرينيئوس؛ أي، على الأرجح، من الرسائل الجدلية التي قرأها الأسقف على جماعته، والتي استند إليها في عمله الأكبر. وهكذا، بعد إعادة بناء الوثيقة المفقودة، يقارنها بإيرينيئوس، ويستنتج لكليهما وجود مرجع مشترك، ربما يكون هو كتاب "سينتاغما" المفقود لجاستن.

وهكذا نرى أن مصدرنا الرئيسي هو إيرينيئوس. يعتبر كتاب "دحض إيرينيئوس" بمثابة "مخزن الغنوصية" - وفقًا للآباء - خلال القرنين الأولين. عاش إيرينيئوس بعيداً في براري بلاد الغال؛ فهل أدلته موثوقة؟ وبغض النظر عن الافتراض العام بأنه لا يمكن لأي كاتب كنسي في مثل هذا الوقت، بحكم طبيعة الأمور، أن يكون منصفًا لآراء خصومه، التي اعتبرها بالضرورة نتاجًا مباشرًا لأمير كل إثم، فسوف نرى قريبًا أن القدر قد وضع أخيرًا - قبل بضع سنوات فقط - الدليل النهائي على هذا الافتراض بين أيدينا.

لكن دعونا في هذه الأثناء نوجه انتباهنا إلى مصادر مباشرة. مصادر معلوماتنا المباشرة. لدينا الآن ما لا يقل عن ثلاثة مخطوطات تحتوي على ترجمات قبطية لأعمال غنوصية يونانية أصلية.

(.1) مخطوطة أسكيو، رق، المتحف البريطاني، لندن: تحتوي على رسالة بيستيس صوفيا ومقتطفات من كتب المخلص.

(.2) مخطوطة بروس (تتكون من مخطوطتين متميزتين)، ورق البردي، مكتبة بودليان،
أكسفورد: تحتوي على سلسلة من الأجزاء الطويلة تحت العنوان العام

ص 152

كتاب الكلمة *(اللوغوس)* العظيمة وفقًا للسر؛ رسالة أخرى ذات عظمة كبيرة ولكن بدون عنوان؛ وجزء أو أجزاء من رسالة أخرى.

(3.) مخطوطة أخميم، ورق البردي، المتحف المصري، برلين: تحتوي على إنجيل مريم (أو أبوكريفون يوحنا)، وحكمة يسوع المسيح، وأعمال بطرس.

لم يتم اكتشاف مخطوطة أخميم إلا في عام 1896. قبل عام 1853، عندما تُرجمت مخطوطة أسكيو إلى اللاتينية، لم يكن معروفًا أي شيء ذو طبيعة عملية عن محتوياتها، بينما لم تكن محتويات مخطوطة بروس معروفة حتى عامي 1891-1892، عندما ظهرت ترجمات باللغتين الفرنسية والألمانية. علينا أن نتأمل في اللامبالاة التي سمحت ببقاء هذه الوثائق المهمة، في حالة واحدة (مخطوطة أسكيو.) لمدة ثمانين عامًا بدون ترجمة، وفي الأخرى (مخطوطة بروس.) مائة وعشرون عامًا! لم تظهر أول محاولة للترجمة إلى الإنجليزية إلا في عام 1896 في نسختي من كتاب بيستيس صوفيا.

وهكذا يتضح أن دراسة الغنوصية من مصادر مباشرة حديثة العهد، وأن جميع الأبحاث باستثناء أحدثها قديمة. إن هذا المنظور الجديد يفرض علينا بشكل أكبر من خلال الاكتشاف الأخير الذي يضع في أيدينا في مخطوطة أخميم وسائل اختبار دقة إيرينيئوس، وهو المرجع الأساسي لعلماء الهرطقات. يُعد إنجيل مريم أحد المصادر الأصلية التي استخدمها إيرينيئوس. أصبحنا الآن قادرين في حالة واحدة على التحكم في آباء الكنيسة نقطة بنقطة - ونجد أنه قد قام بتكثيف وإعادة صياغة النص الأصلي لدرجة أن النظام المتسق لمدرسة الغنوصية التي

ص 153

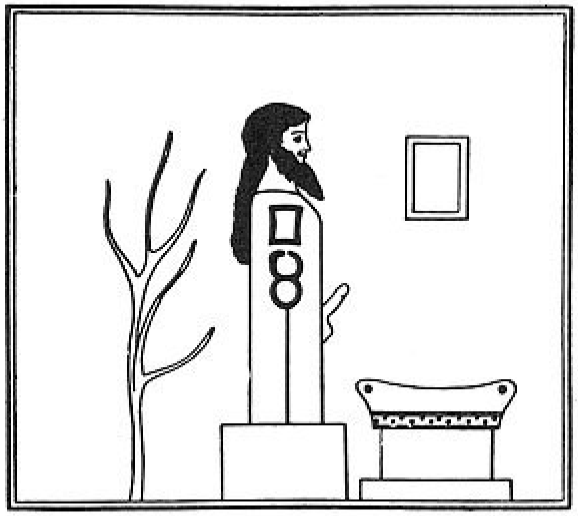
يسعى إلى دحضها، يبدو وكأنه خليط غير مفهوم.

إن هذا النشاط الأخير بين المتخصصين في البحث الغنوصي، في وقت أدى فيه الاهتمام الواسع النطاق بإحياء الدراسات الثيوصوفية إلى تمهيد الطريق لإعادة النظر في الغنوصية من منظور مختلف تمامًا عن منظور النقد أو الدحض المحض، هو مصادفة غريبة.

من الاعتبارات المذكورة أعلاه يتضح أن الغنوصيين وأفكارهم بعيدون كل البعد عن أن يُدفنوا في ذلك النسيان الذي رغب فيه خصومهم بشدة وسعوا جاهدين لضمانه، حتى أنه الآن في بداية القرن العشرين، في الوقت الذي يعمل فيه النقد الكتابي بطاقة واستقلالية متجددة مثل مرقيون، تعود ذكرى هؤلاء المبشرين بتعميم المسيحية إلى الواجهة مرة أخرى وتستحوذ على اهتمام دارسي الدين الجادين.

بالإضافة إلى هذه المصادر المباشرة وغير المباشرة، هناك أيضاً مصدر آخر قد يزودنا ببعض المعلومات القيمة، عند إخضاعه للبحث من خلال نقد مستنير. إن الأساطير والتقاليد المحفوظة في الأعمال الغنوصية تستحق اهتمامًا أكبر مما حظيت به حتى الآن، كما نأمل أن نبين في الجزء التالي من خلال اقتباسات من العديد منها.

ص 154 ص 155



الغنوص حسب أعدائه

ص 156

يا ليت خصمي قد كتب كتاباً!
أيوب (وفقًا للنسخة المعتمدة).

ص 157



بعض الشذرات الغنوصية المستعادة من كتابات آباء الكنيسة الجدلية

سننتقل الآن إلى تعريف القارئ بأهم معلمي ومدارس الغنوصية، بقدر لا يمكن تصنيفها. ما نعرفه من كتابات آباء الكنيسة الجدلية. لسوء الحظ، لسنا في وضع يسمح لنا بتقديم تصنيف مُرضٍ للمدارس الغنوصية للطالب؛ فقد فشلت جميع التصنيفات التي تمت محاولتها سابقًا تمامًا، وفي ظل الوضع الحالي لمعرفتنا، يجب أن نكتفي بفرز المراحل المختلفة للتطور من بين كل هذه التصنيفات

قدر استطاعتنا. حاول كليمنت الإسكندري، في نهاية القرن الثاني، اتباع الأسلوب التقريبي المتمثل في تقسيم مدارس المسيحية هذه إلى طوائف زهدية وفاسقة؛ وسعى نياندر في بداية القرن الحالي إلى تصنيفها حسب علاقاتها الودية أو العدائية مع اليهودية؛ وتبعه باور بمحاولة أخذت في الاعتبار ليس

ص 158

فقط كيف كانوا ينظرون إلى اليهودية، ولكن أيضًا موقفهم من الوثنية؛ واعتمد ماتير التوزيع الجغرافي إلى مدارس سوريا وآسيا الصغرى ومصر؛ وتبعه ليبسيوس بتقسيم أكثر عمومية إلى الغنوصية السورية والإسكندرية.

تنهار كل هذه التصنيفات في العديد من النقاط المهمة؛ وبالتالي نحن مضطرون إلى اتباع المؤشرات غير الكاملة لأقدم علماء الهرطقات الآبائيين، الذين نسبوا بشكل غامض وغير نقدي أصل الغنوصية إلى "سمعان الساحر". ومع ذلك، فمن المؤكد أن أصل الأفكار الغنوصية، بعيدًا عن كونه بسيطًا ويمكن تتبعه إلى فرد واحد، كان ذا طبيعة معقدة للغاية؛ وقد اعتقد البعض أنه يجب البحث عنه على خط ما يسمى "الأوفيتية"، وهو مصطلح عام بين علماء الهرطقات لكل شيء تقريبًا لا يمكنهم نسبه إلى معلم معين. لكن مزيج المدارس والاتجاهات التي يخلطها الآباء بشكل عشوائي تحت مسمى "أوفيت"، يحتوي على عناصر غير متجانسة للغاية، جيدة وسيئة. إن اسم "أوفيت" أو "عبدة الأفعى" هو مجرد مصطلح شتيمة يستخدمه فقط من يدحضون هذا المصطلح، بينما أطلق أتباع هذه المدارس على أنفسهم عمومًا اسم "الغنوصيين"، وكانوا على ما يبدو أول من استخدم هذا المصطلح.

لذلك، سنتبع أولاً وقبل كل شيء ما يسمى بسلسلة التسلسل "السمعاني" حتى الربع الأول من القرن الثاني؛ ثم نغوص في الفوضى غير المحددة لـ "الغنوصيين"؛ ثم نعيد تتبع خطواتنا على طول مرحلة غنوصية من التقاليد الأبيونية؛ وأخيراً نتناول أكثر حقبة تألقاً في الغنوصية المعروفة

ص 159

بالنسبة لنا - عندما عاش وعمل وفكر باسيليدس وفالنتينوس وبارديسانيس، وأذهل مرقيون العقيدة البدائية بـ "نقد أعلى" ربما لم يضاهيه في جرأته حتى يومنا هذا. لقد كان عصراً أنجب أعمالاً على درجة عالية من التميز، لدرجة أننا، على حد تعبير الدكتور كارل شميدت (في مقدمة طبعته من مخطوطة بروسيانوس)، "نقف مذهولين، مندهشين من جرأة التأملات، مبهورين بثراء الفكر، متأثرين بعمق روح المؤلف" - "فترة تركت فيها العبقرية الغنوصية العالم وراءها مثل نسر عظيم، وحلقت في دوائر واسعة وأوسع نحو النور الخالص، نحو المعرفة الخالصة، حيث فقدت نفسها في نشوة".

ومع ذلك، ينبغي لنا عند دراسة حياة وتعاليم هؤلاء الغنوصيين أن نضع في اعتبارنا دائمًا أن مصادر معلوماتنا الوحيدة حتى الآن كانت عبارة عن رسوم كاريكاتورية من قبل علماء الهرطقات، وأن نتذكر أنه تم اختيار النقاط التي بدت خيالية للمفندين فقط، ثم تم تضخيمها بكل أساليب النقد العدائي؛ أما التعاليم الأخلاقية والعامة التي لم تقدم مثل هذه النقاط، فقد تم تجاهلها دائمًا تقريبًا. لذلك، من المستحيل الحصول على أي شيء سوى صورة مشوهة للغاية لرجال كانت خطيئتهم الكبرى هي أنهم كانوا سابقين لعصرهم بقرون. ينبغي التذكير أيضاً بأن مصطلح "الهرطقة" في القرنين الأولين لم يكن يحمل بشكل عام المعنى الضيق الذي تم تخصيصه له لاحقاً. كان ببساطة المصطلح المعتاد

لمدرسة فلسفية؛ وهكذا نقرأ عن بدعة أفلاطون، وزينو، وأرسطو. وهكذا انقسم الغنوصيون، وبقية العالم المسيحي أيضاً،

ص 160

عدد من المدارس أو "الهرطقات"، التي كانت في تلك الأوقات المبكرة متساوية إلى حد ما في الكرامة والأصالة.

"السمعانيون".

أصل الاسم. ليس هناك سبب للافتراض بأن الغنوصيين الذين يسميهم آباء الكنيسة "السيمعانيين" كانوا سيستجيبون لهذا الاسم، أو أنهم كانوا سيعترفون بسلسلة التسلسل التي تخيلها خصومهم لهم على أنها قائمة على أي أساس واقعي. منذ عهد جاستن الشهيد (حوالي 150 ميلادي)، اكتسب "سمعان" مكانة بارزة لا تتناسب مع مكانته في التاريخ. من الواضح أن جاستن كان ينظر إليه بكراهية شديدة، واتهم الرومان بعبادته كإله، استناداً إلى نقش على تمثال في روما. يذكر جاستن أن النقش هو *"Simoni Deo Sancto"* - "إلى سمعان، الإله القدوس". لكن (للأسف! بسبب سمعة جاستن في الدقة عند انخراطه في الجدل) اكتشف علم الآثار التمثال - ووجد أنه مخصص لإله سابيني، "سيمو سانكوس"! إلا أن تأكيد جاستن قوبل دون أي شك من قبل علماء الهرطقات اللاحقين، كما هو الحال مع جميع هذه التأكيدات في ذلك العصر غير النقدي.

من المحتمل جداً الآن أن جاستن، في جدالاته التي لا تعد ولا تحصى دفاعاً عن وجهة نظره الخاصة بالمسيحية، قد واجه بعض الحجج التي تم فيها الاستشهاد بسمعان كمثال. ربما كان يزعم جاستن أن

ص 161

معجزات يسوع تثبت كل ما ادعاه جاستن نيابة عنه، وقد قوبل ذلك بحجة مضادة مفادها أن سمعان كان أيضًا صانع عجائب عظيم، وقدم ادعاءات عظيمة، وبالتالي فإن المعجزات لا تثبت مزاعم جاستن. وهكذا ربما يكون جاستن قد نما لديه كره لذكرى سمعان، ورأى هو وأنصاره في كل مكان، حتى في روما في تمثال لإلهة سابينية صغيرة.

ربما كان هناك شخص يُدعى سمعان، وهو صانع معجزات، قد أذهل الناس في السامرة بحيله النفسية، وأن القصص كانت لا تزال تُروى عنه بين الناس في زمن جاستن. لكن أكثر ما ساهم في ترسيخ أسطورة أن سمعان كان أول هرطقي هو إدراج اسمه في إحدى القصص الواردة في سفر أعمال الرسل الذي أصبح فيما بعد سفراً قانونياً. حدث هذا في وقت لاحق عن جاستن، وهكذا لدينا اللحظات الأولى في تطور أسطورة أصل الهرطقة (وبالتالي، وفقًا للآباء، الغنوصية). إن ما قيل لنا إذن عن "سمعان" و"السمعانيين" لا يعدو كونه ذا أهمية لاستعادة بعض الأفكار التي سعى الحزب الكاثوليكي اللاحق إلى دحضها؛ وليس له قيمة تاريخية.

ص 162

دوسيثيوس.

أحد أتباع يوحنا المعمدان. تخبرنا الخلفية الأسطورية للجدل الزائف لكليمنتين أن سلف "سمعان الساحر" كان شخصًا يُدعى دوسيثيوس. وقد ورد

ذكره في قوائم أوائل علماء الهرطقات، وفي سجل سامري، وفي سجل أبو الفتح (القرن الرابع عشر)؛ ومع ذلك، فإن جميع هذه الإشارات أسطورية، ولا يمكن تأكيد أي شيء ذي طابع موثوق به حقًا عن هذا الرجل. لكن ما يدل على أنه لم يكن شخصية غير مهمة هو استمرار طائفة الدوسيثيين حتى القرن السادس؛ ويقول أبو الفتاح حتى القرن الرابع عشر. كان كل من دوسيثيوس و"سمعان الساحر"، وفقًا للتقاليد، من أتباع يوحنا المعمدان؛ ومع ذلك، قيل إنهما كانا معاديين ليسوع. يقال إن دوسيثيوس ادعى أنه النبي الموعود، "مثل موسى"، وأن "سمعان" ادعى ادعاءً أعلى من ذلك. في الواقع، مثل كثيرين غيرهم في تلك الأيام، كان كلاهما يدّعي أنهما المسيا المنتظر. اتبع الدوسيثيون نمط حياة يشبه إلى حد كبير نمط حياة الإسينيين؛ وكان لديهم أيضًا مجلداتهم السرية الخاصة، ويبدو أن لديهم أدبًا ليس بالقليل.

كان دوسيثيوس (دوسيس، دوسيس، أو دوستاي) على ما يبدو عربيًا، وفي الجزيرة العربية، لدينا كل الأسباب للاعتقاد بوجود العديد من المجتمعات الصوفية المتحالفة مع مجتمعات الإسينيين والمعالجين. يذكر أحد الأناجيل التي استخدمها يوستينوس، تحت العنوان العام "مذكرات الرسل"، أن "رجال

ص 163

حكماء" جاؤوا من الجزيرة العربية. بل إن إحدى الأساطير تزعم أن دوسيثيوس هو مؤسس طائفة الصدوقيين! وقد نسب إليه التقليد اللاحق مجموعة من ثلاثين تلميذاً، أو على وجه الدقة تسعة وعشرين ونصف (عدد أيام الشهر)، وكانت إحداهن امرأة. أي أن نظام دوسيثيوس كان قائماً على أساس قمري، تماماً كما كانت الأنظمة اللاحقة المنسوبة إلى يسوع قائمة على أساس شمسي، حيث يرمز التلاميذ الاثنا عشر إلى الأشهر الشمسية أو علامات الأبراج، أو بالأحرى إلى حقائق معينة من التقاليد الحكيمة التي تقوم عليها تلك الرمزية. يقال إن دوسيثيوس ادعى أنه تجسيد لـ "الثابت" أو المبدأ غير المتغير، وهو الاسم الذي يُطلق أيضًا على المبدأ الأعلى لـ "السمعانيين". كانت التلميذة الوحيدة هي هيلينا (اسم القمر أو الشهر، سيليني، باليونانية)، والتي تظهر أيضًا في أسطورة سمعان.

على الشاشة الخافتة لتقاليد دوسيثيان، يمكننا بالتالي أن نرى ظلالاً تمر من مصادر الغنوص ما قبل المسيحية. غنوص ما قبل المسيحية - ظلال عربية وفينيقية وسورية وبابلية. والأكثر إثارة للاهتمام، أنه يمكننا بالتالي، ربما، الإشارة إلى مصدر يمكن تتبعه، على طول خط نسب آخر، إلى الثلاثين أيون اللاحقة من عالم الفالنتينية البليروما أو العالم المثالي، مع الثلاثين المنقسمة، صوفيا (الداخل والخارج، الأعلى والأسفل)، والتي شكل جانبها الأدنى لنفس العالم أو المادة البدائية لنظام عالمي.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن أبو الفتح يضع دوسيثيوس في عام 100 قبل الميلاد. بالطبع لا يمكن إعطاء هذا المؤرخ المتأخر إلا مصداقية محدودة للغاية، ولكن لا يزال من الممكن أنه استقى معلوماته من مصادر

ص 164

لم تعد متاحة لنا. إن هذا البيان مثير للاهتمام لأنه يُظهر أن المؤرخ قد أدرك حقيقة وجود معرفة سابقة للمسيحية؛ على الرغم من أن كيفية التوفيق بين تاريخ يوحنا المعمدان هذا والتسلسل الزمني الأرثوذكسي أمر محير. هل يمكن أن يكون قد تأثر بالتقاليد التلمودية المتعلقة بتاريخ ميلاد يسوع، والتي تضعه قبل قرن من عصرنا؟ إلى جانب دوسيثيوس و"سمعان"، يذكر هيجيسيبوس (وفقًا ليوسابيوس) أيضًا

كليوبيوس وجورثايوس وماسبوثيوس كقادة بارزين للمدارس المسيحية البدائية.

"سمعان الساحر."

"سمعان الساحر"، كما ذكرنا سابقًا، مذكور في أعمال الرسل، وهي وثيقة من مجموعة العهد الجديد، ويقال إنه لم يتم الاستشهاد بها قبل عام 177 ميلادي. يكرر إيرينيئوس وخلفاؤه أسطورة أعمال الرسل. يتحدث جاستن الشهيد (حوالي 150) عن سمعان الجيتي الذي كان جميع السامريين تقريبًا ينظرون إليه بأكبر قدر من التبجيل؛ وقال إن سمعان هذا ادعى أنه تجسيد "للقوة العظمى"، وكان لديه العديد من الأتباع. لكن جاستن لم يشر إلى قصة أعمال الرسل، ولذلك افترض البعض وجود شخصين يحملان اسم سمعان، لكن هذا لا يبدو ضرورياً. إن رواية جستن هي نواة الأسطورة السمعانية الضخمة التي تم تطويرها بشكل رئيسي من خلال دورة الأدب الكليمنتي الزائف في القرن الثالث، استنادًا إلى دوائر بطرس في القرن الثاني.

لقد احتفظ هيبوليتوس وحده، في بداية القرن الثالث،

ص 165

ببعض الشذرات من الأدب الواسع لـ "السمعانيين"؛ يقتبس أسقف بورتوس من عمل بعنوان "الإعلان العظيم"، وهكذا نستطيع أن نكوّن فكرة عن أحد أنظمة هؤلاء الغنوصيين. إن مخطط الغنوصية الوارد في هذه الوثيقة، بعيدًا عن كونه شكلاً بدائيًا أو مجرد بذرة للعقيدة الغنوصية، ينقل إلينا مرحلة متطورة للغاية من التقاليد الغنوصية، والتي، على الرغم من أنها ليست مفصلة مثل نظام الفالنتينية، إلا أنها ناضجة تقريبًا مثل مخطط باربيلو، الذي أشار إليه إيرينيئوس بإيجاز شديد، والذي تم استعادته جزئيًا الآن في إنجيل مريم المكتشف حديثًا.

في أقدم العصور التي تتبع إليها المسيحيون الكاثوليك أصول تقاليدهم، الأبيوني "سمعان". كما نعلم من مصادر مختلفة، كانت هناك حركات عديدة في فلسطين وحولها ذات طبيعة نبوية وإصلاحية، والعديد من الأنبياء والمعلمين في المذاهب الأخلاقية والصوفية والدينية والفلسفية والغنوصية. وجدت المجتمعات الأبيونية نفسها في صراع مع أتباع هؤلاء المعلمين في العديد من النقاط، وقد نقلت التقاليد الأبيونية رواية مشوهة لهذه الصراعات العقائدية. قبل كل شيء، كان الأبيونيون في صراع مرير مع الكنائس البولسية. وفي وقت لاحق، شرعت المسيحية العامة في العمل على التوفيق بين الاختلافات البطرسية والبولسية، بشكل رئيسي من خلال وثيقة أعمال الرسل؛ وبمرور الوقت، تم تحرير التقاليد الأبيونية أيضًا في ضوء الرؤية الجديدة، وتم استبدال اسم سمعان بالـ "هرطقي" العظيم الذي حاربه الأبيونيون.

وهكذا تطورت التقاليد الأبيونية المعدلة، التي

ص 166

يُفترض أنها دُوّنت لأول مرة في دوائر بطرس، تدريجياً إلى قصة رومانسية، حيث تم تصوير الصراعات بين سمعان بطرس الأبيوني وسمعان الساحر بشكل بياني، وتم إحباط الفنون السحرية للسامري، وفضح لاهوته الزائف، على يد البطل الشجاع لـ "الفقراء". أحدث نسخة من هذه السلسلة الرومانسية أعطت القصة بأكملها إطارًا رومانيًا، وهكذا نجد سمعان مهزومًا أخيرًا على يد بطرس في روما (ليتناسب مع أسطورة الكنيسة الرومانية

التي تقول إن بطرس قد جاء إلى روما)، ولكن في النسخ السابقة لم يسافر بطرس إلى ما وراء الشرق، وهُزم سمعان أخيرًا في أنطاكية.

يكشف الفحص الدقيق للأدب الزائف لكليمنت عن عدد من الرواسب الأدبية أو طبقات الأسطورة، إحداها ذات طبيعة رائعة للغاية. كان باور أول من أشار إلى ذلك، وقام أتباعه في مدرسة توبنغن بتطوير آرائه إلى نظرية مفادها أن سمعان الساحر هو ببساطة الرمز الأسطوري لبولس. لا يمكن إنكار التشابه الملحوظ بين النقاط العقائدية محل النزاع في كل من الجدل بين بترو سمعاني وبترو بولسي، والسمعة العلمية لمدرسة توبنغن تجعل من المستحيل نظرياً مجرد هذا التناقض. على الرغم من أنه من غير الحكمة بالطبع اتخاذ الرأي المتطرف القائل بأنه أينما ذُكر سمعان الساحر، فإن المقصود هو بولس، إلا أنه لا يمكننا التمييز بشكل غير واضح بين هذه الهوية في طبقة واحدة على الأقل من طبقات الأسطورة.

تكشف الأنظمة "السمعانية"، كما وصفها الآباء، عن السمات الرئيسية للغنوص: الأب فوق كل شيء، فكرة اللوغوس، عالم الأيون، أو الكون

ص 167

أو الكون المثالي، وانبعاثه، وجوانبه الإيجابية والسلبية الممثلة كأزواج أو الأدب السمعاني. اقترانات؛ نفس العالم الممثلة كفكر أو الجانب الأنثوي للوغوس؛ نزول النفس؛ خلق العالم المحسوس من قبل البناة؛ عقائد التناسخ والفداء، إلخ.

يقال إن السمة الرئيسية لـ "السمعانيين" كانت ممارسة "السحر"، الذي يُقال إن "سمعان" قد تعلمه في مصر، والذي أدى إلى ظهور معظم القصص الخيالية التي اخترعها خصومهم. لكن من المحتمل جداً أن يشمل لقب الساحر (المجوسي) أكثر بكثير من قصة صانع المعجزات السامري، ويضعنا على اتصال برابط غنوصي مع بلاد فارس والمجوس؛ وبالفعل فإن رمزية النار المستخدمة في المخطوطة التي اقتبس منها هيبوليتوس تؤكد هذه الفرضية بشكل وافٍ.

من نواحٍ أخرى، كانت المعرفة "السمعانية" على نفس خطى التطورات الباربيلية-الغنوصية والباسيليدو-الفالنتينية؛ ويتضح هذا جلياً في أجزاء الإعلان العظيم التي حفظها هيبوليتوس.

أما بقية الأدبيات "السمعانية" فقد فُقدت؛ ومع ذلك، كان أحد أهم وثائقهم كتابًا بعنوان "أرباع العالم الأربعة"، ورسالة أخرى شهيرة احتوت على عدد من النقاط المثيرة للجدل (الخطب الدحضة) المنسوبة إلى "سمعان"، والتي أخضعت فكرة إله العهد القديم لنقد دقيق، لا سيما فيما يتعلق بأسطورة الثعبان في سفر التكوين.

يبدو أن الرمزية الرئيسية، التي سخر منها

ص 168

مبتكرو أسطورة سمعان في أسطورة سمعان وهيلين، كانت رمزية فلكية؛ وهكذا تم ترميز اللوغوس وفكره، نفس العالم، على أنهما الشمس (سمعان) والقمر (سيلين، هيلين)؛ وهكذا مع العالم المصغر، كانت هيلين هي النفس البشرية التي سقطت في المادة، وسمعان هو العقل الذي يحقق خلاصها. علاوة على ذلك، يبدو أن أحد الأنظمة قد حاول تفسير أسطورة طروادة وأسطورة هيلين بطريقة روحية ونفسية.

وهذا أمر مثير للاهتمام لأنه يُظهر محاولة للاستعانة بسلطة "الكتاب المقدس" اليوناني الشعبي، وهو سلسلة الأساطير الهوميرية، لدعم الأفكار الغنوصية. كان ذلك بمثابة امتداد لمنهج المفسرين اليهود إلى مجال الأساطير اليونانية.

لكن منتقدي "السمعانيين" من بين آباء الكنيسة طوروا الأسطورة القائلة بأن هيلين كانت عاهرة التقطها سمعان في صور. من المفترض أن اسم هذه المدينة دفع باور إلى اقتراح أن مصطلحي سمعان (שמש، الشمس) وهيلين (Σελήνη، القمر) مرتبطان بالطقوس الفينيقية لآلهة الشمس والقمر التي كانت لا تزال تمارس في تلك المدينة القديمة. لا شك أن الأفكار الفينيقية والسورية القديمة حول نشأة الكون كانت مألوفة لدى العديد من دارسي الدين في تلك الفترة، ولكن ليس من الضروري أن نكون دقيقين للغاية في أمور غامضة كهذه.

نظام "سمعان" لإيرينيئوس. يقدم إيرينيئوس المخطط التالي للنظام الذي ينسبه إلى "السمعانيين". إنها الأسطورة الدرامية للوغوس ونفس العالم، أو صوفيا، أو الحكمة. ومع ذلك، يرى إيرينيئوس أن هذا كان ادعاءً شخصيًا من سمعان بشأن

ص 169

هيلين؛ ومن الواضح أنه يستند في ذلك إلى مخطوطة يظهر فيها المسيح، باعتباره الكلمة (اللوغوس)، وهو يتحدث بصيغة المتكلم، ولذلك سنسعى جاهدين لإعادتها جزئيًا إلى شكلها الأصلي.

"كانت الحكمة أول تصور (أو فكرة) لعقلي، أم الكل، التي بها في البداية تصورت في عقلي خلق الملائكة ورؤساء الملائكة. هذه الفكرة التي انبثقت مني، وعرفت ما هي إرادة أبيها، نزلت إلى العوالم السفلى وأوجدت الملائكة والقوى، التي بها أيضاً خُلق العالم. وبعد أن أنجبتهم، احتجزوها بدافع الحسد، لأنهم لم يرغبوا في أن يُظن أنهم من نسل أي شخص آخر. أما أنا، فأنا مجهول تماماً بالنسبة لهم."

ويتابع إيرينيئوس، ملخصاً من المخطوطة: "وتم أسر الفكر" من قبل القوى والملائكة التي انبثقت منها. وقد عانت من كل أنواع الإهانة على أيديهم، لمنعها من الصعود إلى أبيها، حتى أنها سُجنت في جسد بشري وانتقلت إلى أجساد أنثوية أخرى [؟] ، كما لو كانت تنتقل من وعاء إلى آخر. وهكذا، انتقلت من جسد إلى آخر، وبالتالي تعرضت باستمرار للإهانة، حتى أنها وقفت في النهاية مقابل أجر في بيت دعارة؛ وكانت هي "الخروف الضال".

"لذلك، جئت أيضًا لأخذها بعيدًا لأول مرة، وأحررها من قيودها؛ لأضمن خلاص البشر بغنوصي."

"لأن الملائكة،" كما كتب أحد آباء الكنيسة،

ص 170

كانوا يسيئون إدارة العالم، حيث كان كل واحد منهم يرغب في السيادة، فقد جاء ليصلح الأمور؛ ونزل، متحولاً ومتشبهاً بالقوات والرئاسات والملائكة؛ حتى أنه ظهر للناس كإنسان، مع أنه لم يكن إنساناً؛ وتألم في

اليهودية، مع أنه لم يتألم حقاً. علاوة على ذلك، فقد نطق الأنبياء بنبوءاتهم بإلهام من الملائكة الذين خلقوا العالم.

انبثقت كل هذه المذاهب من دوائر آمنت بالمسيح الصوفي، وهي مشتركة بين العديد من الأنظمة الأخرى؛ لو أن إيرينيئوس أخبرنا فقط بتاريخ الوثيقة التي كان يلخصها ويشرحها، لو أنه نسخها شفهياً فقط، كم من الجهد كان سيوفر على الأجيال القادمة! صحيح أنه ربما كان ينسخ من كتابات جاستن المثيرة للجدل، وكان جاستن قد قام بالفعل ببعض التلخيص والتعليق؛ ولكن على أي حال، كانت فقرة واحدة من الأصل ستمنحنا أساسًا أفضل لتكوين حكم بدلاً من كل إعادة الصياغة والخطابة لهذين الرجلين القديمين اللذين كانا يكرهان الغنوصيين بشدة.

الإعلان العظيم. لحسن الحظ، فإن هيبوليتوس، الذي جاء لاحقًا، أكثر دقة في اقتباساته، وينسخ أحيانًا شفهيًا أجزاء من المخطوطات التي وصلت إليه. ينسب أحد هذه المخطوطات خطأً إلى "سمعان" نفسه، على الأرجح لأنه اعتبرها أقدم مخطوطة غنوصية في حوزته؛ ومع ذلك، يعتبرها معظم النقاد شكلاً لاحقاً من أشكال الغنوصية مقارنة بالنظام الذي لخصه إيرينيئوس، ولكن لا يوجد ما يبرر هذا الافتراض. بحلول هذا الوقت،

أصبحت الأسطورة القائلة بأن "سمعان" كان أول هرطقي "تاريخًا" بالنسبة لعلماء الهرطقة، ولا شك أن هيبوليتوس شعر بأنه محق تمامًا في نسبة محتويات المخطوطة إلى شخص افترض أنه أقدم زعيم للغنوص.

كان عنوان المخطوطة هو الإعلان العظيم، وربما يكون مرادفًا للإنجيل، بالمعنى الباسيليدي للمصطلح؛ وقد افتتحت بالكلمات التالية: "هذا هو كتابة وحي الصوت والاسم من الفكر، القوة العظيمة، التي لا حدود لها. لذلك سيتم ختمه وإخفاؤه وحجبه ووضعه في المسكن الذي يشكل الجذر الكوني أساسه.

يقال إن المسكن هو الإنسان، هيكل الروح القدس. رمز اللامحدود: النار الخفية. كانت القوة والجذر الكوني هو النار. كان يُنظر إلى النار على أنها ذات طبيعة مزدوجة - الخفية والظاهرة؛ فالأجزاء الخفية من النار مخفية في الظاهرة، والظاهرة ناتجة عن الخفية. يحتوي الجانب الظاهر من النار على كل الأشياء التي يمكن للإنسان أن يدركها من الأشياء المرئية، أو التي يفشل في إدراكها دون وعي؛ بينما الجانب الخفي هو كل ما يمكن تصوره على أنه مفهوم، حتى وإن كان يفلت من الإحساس، أو الذي يفشل الإنسان في تصوره.

قبل أن نصل إلى الاقتباس المباشر، يقدم لنا هيبوليتوس ملخصًا مطولًا للشرح الغنوصي الذي أمامه، والذي يمكننا من خلاله أن نأخذ ما يلي باعتباره يمثل فكر كاتب المخطوطة بشكل أقل خطأ من البقية.

"من بين كل الأشياء الخفية والظاهرة،

شجرة النار. فإن النار التي فوق السماوات هي بيت الكنز، كما لو كانت شجرة عظيمة يتغذى منها كل جسد." الجانب الظاهر من النار هو الجذع والفروع والأوراق واللحاء الخارجي. كل هذه الأجزاء من الشجرة العظيمة اشتعلت فيها النيران

من لهيب النار المدمر ودمرت. لكن ثمرة الشجرة، إذا اكتملت صورتها واتخذت شكلها الخاص، توضع في المخزن (أو الكنز)، ولا تُلقى في النار. فالثمرة تُنتج لتوضع في المخزن، أما القشرة فتُلقى في النار؛ أي الجذع، الذي لا يُنتج لذاته بل لأجل الثمرة.

هذا الرمز ذو أهمية كبيرة لأنه يكشف عن نقاط اتصال مع "الأشجار" و"الكنوز" للأنظمة المعقدة التي يمكن استخلاصها من الأعمال الغنوصية القبطية، وكذلك مع خط تقليد اللوغيا الكلدانية والزرادشتية، والتي كانت الدراسة المفضلة لدى الكثيرين من المدرسة الأفلاطونية المتأخرة. ثمرة شجرة النار و"زهرة النار" هما رمزان (من بين أمور أخرى) للإنسان الخالد، والوعي الروحي المكتسب للإنسان-النبات؛ لكن التفسير الكامل لهذا الرمز التصويري سيشمل كلاً من نشأة الكون وتأليه الإنسان.

الإنسان (يعلم الغنوص التي نسعى لاستعادته من هيبوليتوس) يخضع للولادة والمعاناة طالما بقي في حالة إمكانية؛ ولكن بمجرد أن يتم "إخراج صورته"، يصبح مثل الله، ويتحرر من قيود المعاناة والولادة، ويحقق الكمال. لكن بالنسبة لاقتباسنا

من ″الإعلان العظيم″، المأخوذ على ما يبدو من بداية الرسالة، مباشرة بعد العنوان العلوي:

"لذلك أقول لكم ما أقول، وأكتب ما أكتب. وهذه هي الكتابة:

"من بين الأيونات الكونية هناك نموان، بلا بداية ولا نهاية، ينبثقان الأيونات.من جذر واحد، وهو قوة الصمت غير المرئية وغير المفهومة. من بين هؤلاء يظهر واحد من الأعلى، وهو القوة العظمى، العقل الكوني، الذي يرتب كل الأشياء، وهو ذكر؛ والآخر من الأسفل، الفكر العظيم (أو التصور)، وهو أنثى، الذي ينتج كل الأشياء.

"وبذلك يتطابقان مع بعضهما البعض، ويتحدان ويظهران الفضاء الأوسط، الهواء [الروح] غير المفهوم، بلا بداية أو نهاية. في هذا [الهواء] يوجد الأب [الثاني] الذي يدعم ويغذي كل الأشياء التي لها بداية ونهاية.

"هذا [الأب] هو الذي وقف، ويقف، وسيقف، قوة ذكورية أنثوية، مثل القوة اللامحدودة الموجودة مسبقًا، والتي ليس لها بداية ولا نهاية، موجودة في وحدة. ومن هذه القوة اللامحدودة انطلق الفكر، الذي كان مخفياً في السابق في الوحدة، وأصبح اثنين.

"كان هو [الذي لا حدود له] واحداً؛ بوجودها فيه، كان وحيداً." ومع ذلك، لم يكن هو "الأول"، على الرغم من كونه "موجودًا مسبقًا"، لأنه لم يكن هناك "ثاني" إلا عندما ظهر لنفسه من ذاته. ولم يُدعَ أباً قبل أن يُدعَى [الفكر] أباً.

"لذلك، فإنه يخلق نفسه بنفسه، وقد أظهر لنفسه فكره الخاص، وكذلك

فكره الظاهر لم يصنع الأب [الظاهر - الثاني]، بل إن تأمله أخفاه - أي قوته - في ذاته وهو ذكر وأنثى، قوة وفكر.

"لذلك فهما متطابقان، كونهما واحداً؛ لأنه لا يوجد فرق بين القوة والفكر. من الأشياء العليا تُكتشف القوة، ومن الأشياء السفلى يُكتشف الفكر.

وهكذا يحدث أن ما يظهر منهم، وإن كان واحداً، يتبين أنه اثنان، ذكر وأنثى، مع وجود الأنثى في نفسه. وينطبق الأمر نفسه على العقل في الفكر؛ فهما في الحقيقة واحد، ولكن عندما ينفصلان عن بعضهما البعض يظهران كأنهما اثنان."

هذا كل ما في الأمر بالنسبة للإعلان العظيم عن "سمعان". إن اكتشاف وثيقة ما قد يلقي ضوءاً جديداً على الموضوع ليس أمراً مستحيلاً؛ وفي الوقت الراهن يمكننا أن نحتفظ برأينا، وأن نعتبر جميع التصريحات الإيجابية التي تفيد بأن "سمعان" كان "الابن البكر للشيطان" غريبة عن الموضوع.

ص 175

ميناندر.

أحد معلمي الغنوص "السمعاني" الذي خصّصه جاستن بالذكر الخاص، بسبب تاريخه. ابتعاد "الكثيرين" عنه، حتى في الوقت الذي كان فيه مرقيون يكتسب أتباعًا هائلين في زمن جاستن نفسه، هو ميناندر، وهو من سكان بلدة كاباراتيا السامرية، كما قيل لنا. يُظهر لنا الإعلان في جاستن أن ميناندر كان رجلاً من جيل سابق، وأنه كان مشهوراً بشكل خاص بسبب أتباعه الكثيرين. نعلم أن تواريخ هذه الفترة غامضة للغاية حتى بالنسبة لجاستن، أقدم مرجع لدينا. فعلى سبيل المثال، عندما كتب عن عام 150 ميلادي، قال إن يسوع عاش قبل 150 عامًا من عصره. إن تواريخ "سمعان" وميناندر غامضة بنفس القدر؛ ربما عاش ميناندر جيلاً أو أربعة أجيال قبل زمن جاستن، أو حتى قبل ذلك.

يقال إن مركز نشاط ميناندر كان في أنطاكية، إحدى أهم المدن التجارية مذاهبه. والأدبية في العالم اليوناني الروماني، على طريق التواصل بين الشرق والغرب. ويبدو أنه قد نقل الخطوط العريضة العامة للغنوص؛ وخاصة الإصرار على التمييز بين الإله فوق كل شيء والقوة أو القوى الخلاقة، "قوى الطبيعة". لقد علّم أن الحكمة يمكن اكتسابها من خلال الانضباط العملي لـ "السحر" المتعالي؛ أي أن الغنوص لا يمكن اكتسابه بالإيمان وحده، ولكن من خلال مسعى محدد وسعي واعٍ على طول طريق العلوم الكونية والنفسية. ادعى ميناندر أنه يعلم معرفة قوى

ص 176

الطبيعة، والطريقة التي يمكن بها إخضاعها للإرادة البشرية المطهرة؛ ويقال أيضًا إنه ادعى أنه المخلص الذي أرسلته القوى العليا للعالم الروحي، ليعلم البشر المعرفة المقدسة التي يمكنهم من خلالها تحرير أنفسهم من سيطرة الملائكة الأدنى.

ومع ذلك، فمن شبه المؤكد أن ميناندر لم يدعي أنه المخلص (بالمعنى الكاثوليكي للمصطلح) أكثر مما ادعى "سمعان". كان المخلص هو اللوغوس، كما رأينا أعلاه. كان ادعاء الغنوصيين هو أن الإنسان قد يتقن نفسه لدرجة أنه

يصبح عاملاً واعياً مع اللوغوس؛ كل أولئك الذين فعلوا ذلك أصبحوا "مسيحيين"، وعلى هذا النحو كانوا مخلصين، ولكن ليس بمعنى أن يكونوا اللوغوس نفسه.

قيل إن المبتدئ عند تلقيه "المعمودية"، أي عند بلوغه حالة معينة من التطهير الداخلي أو التنوير، "يقوم من الموت"؛ بعد ذلك، "لا يشيخ ويصبح خالداً"، أي أنه يحصل على الوعي غير المنقطع لذاته الروحية. كان ميناندر معارضًا بشكل خاص للعقيدة المادية لقيامة الجسد، وقد جعل هذا الأمر أساسًا خاصًا للشكوى ضده من قبل كتاب الآباء في القرون اللاحقة.

كان أتباع ميناندر يُطلق عليهم اسم الميناندريين، ولا يسعنا إلا أن نأسف لعدم وجود أي سجل متبقٍ عنهم وعن كتاباتهم. وبما أنهم يبدو أنهم كانوا متمركزين في أنطاكية - بالنظر إلى أن التقاليد تنسب تأسيس كنيسة أنطاكية إلى بولس، وتنسب إليها بطرس كأول أسقف لها؛ وبالنظر مرة أخرى إلى أن حادثة "الوقوف

ص 177

في وجه" تضعها تقاليد أعمال الرسل في نفس المدينة - فربما تكون كتاباتهم قد ألقت بعض الضوء على هذه التقاليد الغامضة.

ومع ذلك، أود أن أقترح وضع ماياندروس في وقت أبكر بكثير من "سمعان"، وأن نرى صلة بالزرادشتية. فيه أحد أقدم الروابط بين الغنوصية والتقاليد المجوسية. بل قد يكون الغنوصيون قد نسبوا تقليد علمهم عن الأيون إلى هذا التلميذ للمجوس، لأن أصل علم الأيون لديهم موجود في الأمشاسبند الزرادشتية، وهي الانبثاقات الشخصية لأهورامزدا، كما أظهر ميلز وآخرون؛ على الرغم من أنني شخصياً أود أن أبحث عن أصل عقيدة الأيون في مصر.

ساتورنينوس.

يُعتبر ساتورنينوس، أو بالأحرى ساتورنيلوس، مؤسس الغنوصية السورية بشكل عام، ولكن سلسلة المعلمين. هناك كل الأسباب للافتراض بأن الغنوصية كانت منتشرة على نطاق واسع في سوريا قبل عصره. يتحدث جاستن الشهيد (تريفون، 35)، الذي كتب بين عامي 150 و160، عن الساتورنيليين باعتبارهم جماعة مهمة للغاية، لأنه يصنفهم مع المرقيونين (؟ المرقيونيون، والباسيليدون، والفالنتينيون، وهي أهم مدارس الغنوصية في عصره. كان ساتورنينوس وباسيليدس وفالنتينوس منفصلين عن بعضهم البعض بجيل واحد على الأقل، وبالتالي يمكن وضع ساتورنينوس في مكان ما بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني؛ لكن هذا التحديد للتاريخ يعتمد كليًا على تصريحات الآباء بأن ميناندر كان

ص 178

معلم ساتورنينوس، وساتورنينوس لـ باسيليدس، وباسيليدس لـ فالنتينوس. ومع ذلك، ليس من غير المحتمل أن يكون التشابه العام في العقيدة وحده، فيما يتعلق بالاثنين الأولين، سببًا كافيًا لعلماء الهرطقات لنسب أصل نظام ساتورنينوس إلى ميناندر نفسه، في حين أنه في الواقع ربما يكون قد مر جيل أو جيلان بينهما، وربما لم يلتقوا وجهًا لوجه أبدًا.

يقال أن ساتورنينوس قد درّس في أنطاكية، ولكن الزهد. (كما هو الحال دائمًا تقريبًا مع الأطباء الغنوصيين) ليس لدينا أي معلومات عن جنسيته أو أحداث حياته. وقد تميز بشكل خاص بزهده الشديد، أو ما يُعرف بالزهد المفرط. امتنع أتباعه عن الزواج وعن تناول جميع أنواع اللحوم، وقد جذبت صرامة أسلوب حياتهم العديد من الأتباع المتحمسين. يقول سالمون إن ساتورنينوس يبدو أنه كان أول من أدخل مذهب إنكاري "بين أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم المسيحيين". يعتبر اللاهوتيون البروتستانت بشكل خاص أن النزعة الدينية ممارسة هرطقية؛ ولكن لا يبدو أن هناك سببًا كافيًا للافتراض بأن هذه السمة الشائعة في الحياة الدينية يمكن إرجاعها إلى أي معلم معين.

معلوماتنا المتعلقة بنظام ساتورنينيا ملخص العقائد. معيبة للغاية للأسف؛ من المفترض أن الملخص القصير لإيرينيئوس يستند إلى، أو نسخة من، الملخص المفقود لجاستن. وهذا أمر مؤسف للغاية، حيث أن المعلومات الكاملة كانت ستمكننا على الأرجح من تتبع علاقتها بتطورات "أوفيت" و"باربيلو"، وتحديد علاقات الثلاثة جميعها

ص 179

بالغنوصية لباسيليدس وفالنتينوس. إن السمات الرئيسية هي من نفس طبيعة تلك الخاصة بـ "الغنوص السمعاني" والميناندري؛ ومع ذلك، يجب أن نضع في اعتبارنا دائمًا أن هذه الأنظمة المبكرة، بدلاً من أن تكون تعبيرات أولية أو بسيطة، ربما كانت مفصلة بما فيه الكفاية. إن مجرد حقيقة أن إيرينيئوس يقدم ملخصًا يعرض سمات بسيطة نسبيًا، لا يضمن أن الأنظمة نفسها ربما لم تكن شروحات كاملة ومدروسة بعناية. يمكننا أن نعتبر ملخص أسقف ليون بأمان بمثابة مؤشر تقريبي لرؤوس العقيدة، وقائمة بالمواضيع المجردة من محتواها. وهكذا نتعلم أن ساتورنينوس قد علم الأب المجهول؛ والتسلسلات الهرمية الوسيطة العظيمة، ورؤساء الملائكة، والملائكة، والقوى؛ والأفلاك الإبداعية السبعة وحكامها؛ وبناة الكون وصانعي الإنسان. كانت هناك العديد من التسلسلات الهرمية المعادية وحكامها، ومخطط للتجديد حيث يقوم منقذ العالم في صورة الإنسان الظاهرية، وإن لم يكن إنسانًا حقًا، ليس فقط بهزيمة قوى الشر، بل أيضًا بإنقاذ كل من لديهم شرارة النور بداخلهم، من قوى التسلسلات الهرمية الخلاقة، التي وُضع من بينها يهوه اليهود. كانت الكتب المقدسة اليهودية ناقصة وخاطئة؛ فبعض النبوءات كانت موحى بها من الملائكة الخالقة، والبعض الآخر من قوى الشر.

إن أكثر ما يثير الاهتمام في النظام الذي حفظه لنا إيرينيئوس هو أسطورة خلق الإنسان على يد الملائكة، أو بالأحرى صنع

صفحة 180

من الغلاف الخارجي للإنسان من خلال التسلسل الهرمي للبناة.

نشأة الإنسان. كانت نشأة الإنسان على هذا النحو. أظهر اللوغوس صورة أو نموذجًا ساطعًا للملائكة الديميورجيين؛ ولكن عندما لم يتمكنوا من الامساك به، لأنه تم سحبه على الفور، قالوا لبعضهم البعض: "دعونا نصنع الإنسان على هذه الصورة والمثال". وعليه سعوا إلى القيام بذلك، لكن قوى الطبيعة لم تستطع إلا أن تطور غلافاً أو بلازماً، لم يستطع الوقوف منتصباً، بل استلقى على الأرض عاجزاً ويزحف مثل الدودة. ثم أرسلت القوة العليا، برحمتها، شرارة الحياة، وارتفع البلازما منتصبًا، وتطورت الأطراف وارتبطت ببعضها البعض، أي أنها تصلبت أو أصبحت أكثر كثافة مع تعاقب

الأجناس؛ وهكذا تطور جسد الإنسان، واستقرت فيه شرارة النور، أو الإنسان الحقيقي. تتسارع هذه الشرارة النورانية بعد الموت إلى تلك التي من طبيعتها، وتذوب بقية عناصر الجسم.

هنا لدينا في اقتراح تقريبي نفس نظرية تطور أجساد الأجناس المبكرة التي نجدها مطروحة، من مصادر مختلفة تمامًا ومن وجهة نظر مختلفة تمامًا، من قبل عدد من الكتاب المعاصرين حول المذاهب الثيوصوفية - ولذلك، فإننا نأسف أكثر لأن التحيزات الأرثوذكسية لإيرينيئوس أو مخبره قد تعاملت مع ساتورنينوس و"هرطقته" باهتمام ضئيل للغاية.

ص 181

"الأوفيتيون".

إن المهمة التي يتعين علينا الآن محاولة القيام بها هي إلى حد بعيد أصعب مهمة يمكن أن يقوم بها دارس غموض الموضوع. الغنوصية الآبائية. عندما يكون لدينا اسم معلم فردي يرشدنا، فهناك على الأقل نقطة يمكن من خلالها تجميع بعض الأفكار والبيانات؛ ولكن عندما لا تكون لدينا مثل هذه المؤشرات، بل مجرد شذرات من المعلومات، أو ملخصات لما يقوله البعض ويؤكده آخرون، كما هو الحال عند إيرينيئوس؛ أو تسميات غامضة لمدارس واسعة الانتشار من فترات مختلفة، كما هو الحال عند هيبوليتوس؛ وعندما نتأمل أيضًا أنه وسط هذه البيئة، فإننا نواجه أحد التيارات الرئيسية للغنوصية المتطورة، وندرك الغياب التام لأي معالم محددة، حيث كان ينبغي مسح كل شيء بعناية - فإن شعورًا باليأس تقريبًا ينتاب حتى أكثر الطلاب حماسًا.

لقد كان من المفترض أنه حتى زمن إيرينيئوس كانت الوثائق الغنوصية متداولة بحرية؛ ولكن بحلول زمن هيبوليتوس (أي بعد مرور جيل أو أكثر) حققت الأرثوذكسية تقدماً كبيراً لدرجة أن الوثائق الغنوصية سُحبت من التداول وأُخفيت، وهذا يفسر فرحة هيبوليتوس، الذي يسخر من الغنوصيين بامتلاكه بعضاً من مخطوطاتهم السرية. ومع ذلك، فأنا مقتنع بأن أكثر الرسائل غموضًا وتخصصًا للغنوصيين لم يتم تداولها أبدًا؛ فقد كان أتباع الغنوصية متشبثين جدًا بفكرة

ص 182

"العقيدة السرية" ودرجات التأهيل لدرجة أنهم لم يعلنوا مبادئهم الداخلية على أسطح المنازل.

كما أنني أشك بشدة فيما إذا كانت هذه المدارس والمراحل المتشابكة من المذهب قد انفصلت عن بعضها البعض بطريقة دقيقة للغاية، أو أن الباسيليدسين والفالنتينيين وغيرهم قد ميزوا أنفسهم بمثل هذه التسميات. كانت الغنوصية كائناً حياً، وليست نظاماً متبلوراً أو عقيدة جامدة؛ فقد فكر كل طالب كفء في السمات الرئيسية للغنوصية بطريقته الخاصة، وصاغها بشكل عام بمصطلحاته الخاصة.

وفي معالجة هذا الجزء من مقالتنا تظهر صعوبة أخرى أيضًا؛ فنحن نكتب لأولئك الذين من المفترض أنهم على دراية طفيفة بالموضوع، والذين سيشعرون بالارتباك بسبب كثرة التفاصيل. إلا أن هذه التفاصيل تحديداً هي التي تثير الاهتمام والأهمية، وبالتالي فإن الملخص يجب أن يكون في أحسن الأحوال ناقصاً للغاية وعرضة لسوء الفهم. لذا علينا أن نضع لافتاتنا الإرشادية بأفضل ما نستطيع.

مصطلح "الأوفيت".كما ذكر أعلاه، فإن مصطلح "أوفيت" خاطئ للغاية؛ فهو لا يصف بشكل عام المدارس التي نتناولها؛ ولم يستخدمه أتباع المدارس أنفسهم، الذين فضلوا في الغالب مصطلح "غنوصي"؛ وحتى عندما تدخل رمزية الثعبان في شرح أنظمتهم، فإنها ليست بأي حال من الأحوال السمة المميزة. باختصار، هذا المصطلح، الذي نشأ من مغالطة أخذ جزء صغير جدًا على أنه الكل - وهي حيلة مفضلة لدى عالم الهرطقات، الذي كان سلاحه الرئيسي هو المبالغة في تفصيل صغير ليصبح سمة رئيسية - تم استخدامه كعنوان غامض لجميع شروح المذهب الغنوصي التي لا يمكن نسبها إلى معلم محدد.

ص 183

لكل شرح للعقيدة الغنوصية التي لا يمكن نسبها إلى معلم محدد. في هذا الملجأ لللقيطين، إن صح التعبير، يجب أن نبحث عن الخطوط العريضة التي تشكل أساس تعاليم حتى باسيليدس وفالنتينوس، كل منهما، مثل بقية الغنوصيين، عدّل التقاليد العامة بطريقته الخاصة.

ويقول فيلاستر إن هذه الغنوصية "الأوفية" كانت سابقة للمسيحية؛ ويقول إيرينيئوس، بعد أن فصّل نظامًا أطلق عليه ثيودوريت اسم "الأوفية" عند نسخه منه، إنه كان من المدرسة الفالنتينية. لم يفرق سيلسوس، الفيلسوف الوثني، في كتابه "الكلمة الحقيقية"، الذي كتبه في الربع الثالث من القرن الثاني، بين بقية العالم المسيحي وأولئك الذين أطلق عليهم أوريجانوس، بعد قرن تقريبًا، في رده على سيلسوس، اسم "أوفياني".

يتمثل أحدث انتقاد في الرأي القائل بأن فيلاستر قد أخطأ، لكن البيان دليل كافٍ على وجود مجموعة من الغنوص ما قبل المسيحية، وأن التيار تدفق دون انقطاع وبحجم متزايد باستمرار خلال القرنين الأولين، وأن التسمية الخاطئة "أوفيت" لا تزال تشير إلى إحدى قنواتها الرئيسية.

لعب رمز الثعبان دورًا كبيرًا في أسرار القدماء، وخاصة في اليونان ومصر رمز الثعبان. وفينيقيا؛ ومن ثم يمكننا تتبعه إلى سوريا وبابل وإلى الشرق الأقصى إلى الهند، حيث لا يزال موجودًا ويحظى بالتفسير المناسب. لقد كشفت عن أكثر العمليات حميمية لتكوين الكون والإنسان، وكذلك الولادة الصوفية. كان رمزاً للقوة الإبداعية، وفي

ص 184

أدنى أشكاله انحط إلى رمز ذكوري. إن التكاثر الجسدي وعمليات الحمل هي مظاهر أدنى لتنشيط الإرادة الإبداعية العظيمة وعملية تطور العالم. لكن أحدهما بعيد عن الآخر، كما هو حال جسد الإنسان عن جسد الكون، كما هو حال رغبة الإنسان الحيوانية عن الإرادة الإلهية للألوهية.

تم شرح أسرار الجنس في معابد الأديتا القديمة؛ وبطبيعة الحال، كانت محاولة فهم العاطفة العظيمة للبشرية محفوفة بأكبر المخاطر. أدت معرفة هذا السر إلى دفع الكثيرين إلى الزهد؛ أما مجرد الفضول في الخوض في الأمر فقد أدى إلى إساءة استخدامه. كان التنوير والبصيرة والمعرفة الروحية مكافأة للأطهار في الجسد والعقل؛ أما الإفراط الجنسي والانحلال فكانا يعاقبان المتطفلين غير الأكفاء. وهذا يفسر إحدى أغرب الظواهر في التاريخ الديني؛ فالجانبان المضيء والمظلم موجودان معًا دائمًا تقريبًا؛ فكلما بُذلت محاولة لإلقاء بعض الضوء على لغز العالم والإنسان، فإن الطبيعة بأكملها

تنشط، وإذا كان الحيوان هو الأقوى، فإنه يصبح أكثر جموحًا بسبب هذا النشاط. وهكذا نجد أن بعض الجماعات الغامضة من المتطفلين على التقاليد السرية قد وقعت في أخطاء جسيمة، ليس فقط في النظرية ولكن في الممارسة، وأن كتاب الآباء في القرون اللاحقة حاولوا بكل الوسائل المبالغة في هذا الأمر المحدد ليصبح اتهامًا عامًا ضد "الخطأ"؛ في حين أنه في الواقع، نجد في كتابات الغنوصيين أنفسهم أشد إدانة لمثل هذه التجاوزات.

ص 185

كما خُلق الإنسان في الرحم من "ثعبان" و"بيضة"، كذلك كان الكون؛ لكن ثعبان الكون كان القوة العظمى، والدوامة الجبارة، والدوامة الهائلة، والبيضة كانت الغلاف الشامل لنظام العالم، و"ضباب النار" البدائي. وهكذا كان الثعبان رمزاً للإرادة الإلهية، والعقل الإلهي، وعقل الألوهية، واللوغوس. كانت البيضة هي الفكرة، والحمل، وأم الكل. تم تصوير الكون الجرثومي على شكل دائرة مع ثعبان يمتد بشكل قطري على طول مجالها، أو ملتفًا عددًا معينًا من المرات حولها. هذه القوة المتعرجة هي التي شكلت الكون، وشكلت الإنسان. لقد خلقته؛ ومع ذلك، كان بإمكانه بدوره أن يستخدمها للخلق، لو أنه توقف عن الإنجاب. كان الصولجان، أو عصا عطارد، والصولجان في الأسرار اليونانية، اللذان كانا يقودان النفس من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، يرمزان إلى القوة الثعبانية في الإنسان، والمسار الذي من خلاله سيحمل "الإنسان" إلى العلو، إذا ما جعل "مياه الأردن" "تتدفق إلى الأعلى".

لقد استغل الغنوصيون اليهود على الفور فكرة ثعبان سفر التكوين، وعصا موسى المصنوعة من الثعبان، ورفع الثعبان النحاسي في البرية، باعتبارها أفكارًا أسطورية مماثلة لأساطير الأسرار. لإعطاء القارئ نظرة ثاقبة على أساليبهم في التفسير الصوفي، والتي كانت تنظر إلى علم النفس الباطني، يمكننا هنا أن نلحق تفسيرهم لما يمكن تسميته "أسطورة الخروج".

كانت الأسطورة شائعة في عدد من المدارس، لكن هيبوليتوس ينسبها إلى مدرسة غير معروفة

ص 186

تسمى بيراتا، والتي يفترض أنها تعني المتعاليين، أو أولئك الذين "تجاوزوا" أو "عبروا" عن طريق الغنوص. أسطورة الذهاب إلى الأمام. وهكذا قاموا بتفسير أسطورة الخروج. مصر هي الجسد؛ وكل من يتوحد مع الجسد فهو الجاهل، المصري. إن "الخروج" من مصر هو ترك الجسد؛ والمرور عبر البحر الأحمر هو عبور محيط التكوين، والطبيعة الحيوانية والحسية، التي تكمن في الدم. لكن حتى في ذلك الحين فهم ليسوا في مأمن؛ فبعبورهم البحر الأحمر يدخلون الصحراء، وهي الحالة الوسيطة للعقل الأدنى الشكاك. وهناك يتعرضون لهجوم من "آلهة الدمار"، التي أطلق عليها موسى اسم "ثعابين الصحراء"، والتي تبتلي أولئك الذين يسعون إلى الهروب من "آلهة التكوين". يُظهر لهم موسى، المعلم، الثعبان الحقيقي المصلوب على صليب المادة، وبواسطته يهربون من الصحراء ويدخلون أرض الميعاد، عالم العقل الروحي، حيث يوجد نهر الأردن السماوي، نفس العالم. عندما تتدفق مياه نهر الأردن إلى أسفل، فحينئذ يكون ميلاد البشر؛ أما عندما تتدفق إلى أعلى، فحينئذ يكون خلق الآلهة. كان يسوع (يشوع) هو من تسبب في تدفق مياه نهر الأردن إلى الأعلى.

كان للعديد من الأساطير القديمة خلفية تاريخية أسطورية، لكن استخدامها كأساطير، أو روايات دينية وصوفية، قد محا تدريجياً آثار التاريخ. كان أولئك الذين تلقوا تعليمهم في الأسرار متمرسين في علم الأساطير، وبالتالي أدرك الغنوصيون المتعلمون على الفور الطبيعة

ص 187

الطبيعة الأسطورية للخروج وقابليته للتكيف مع التفسير الصوفي. المثال المذكور أعلاه هو مثال جيد جداً على هذه الطريقة في التفسير؛ ومع ذلك، فإن الكثير من هذا التفسير كان متكلفاً للغاية، إن لم يكن سخيفاً تماماً. كان العقل الديني في تلك الحقبة يحب ممارسة براعته في مثل هذه التفسيرات، والفرق بين التفسير الغنوصي والتفسير الأرثوذكسي اللاحق هو أن الأول حاول اكتشاف عمليات النفس في أساطير وأمثال الكتاب المقدس، بينما اعتبر الأرثوذكس التفسير اللاهوتي والعقائدي هو التفسير الشرعي الوحيد.

إذا حكمنا بناءً على معرفتنا الحالية باللغة، فإن العنصر "الأكثر سخافة" الذي دخل في مثل هذه علم اللغة الزائف. التسلية الدينية هو أسلوب التلاعب بالألفاظ، أو علم اللغة الزائف، والذي يوجد في كل مكان في كتابات البابليين والمصريين والهنود واليهود واليونانيين. لذلك، نجد بين الكتاب الغنوصيين والآبائيين أكثر الاشتقاقات الخيالية للأسماء، والتي تم طرحها لدعم العقائد اللاهوتية، ولكنها كانت تفتقر إلى أبسط دقة لغوية. كان الرجال، مثل أفلاطون، الذين كانوا عمالقة في الفكر في جوانب أخرى كثيرة، راضين باللجوء إلى مثل هذه الأساليب. ومع ذلك، من دواعي السرور أن نلاحظ أن طبيعة النفس وحقائق الحياة الروحية كانت هي الاهتمام الرئيسي لهؤلاء "علماء اللغة" القدماء، وليس اقتلاع "الجذور"؛ ومع ذلك، ينبغي أن نكون حذرين عند اكتشاف محدودية هذه العقول في اتجاهات معينة، لتجنب خطأ غض الطرف عن حدود

ص 188

أساليبنا الحديثة في المجالات التي أنجز فيها القدماء الكثير من العمل الجيد.

سننتقل الآن إلى تقديم لمحة موجزة عن الخطوط العريضة الرئيسية لأحد عروض الأفكار الغنوصية العامة التي حفظها إيرينيئوس.

نظام مجهول من إيرينيئوس.

الخلق الروحي. في العمق الذي لا يوصف كان هناك نوران عظيمان، الإنسان الأول، أو الأب، وابنه، الإنسان الثاني؛ وكذلك الروح القدس، المرأة الأولى، أو أم كل الأحياء. أسفل هذه الثلاثية كانت هناك كتلة بطيئة تتكون من العناصر الأربعة العظيمة، والتي تسمى الماء والظلام والهاوية والفوضى. كانت الأم الكونية ترعى فوق المياه؛ مفتونةً بجمالها، أنتج منها الإنسان الأول والثاني النور العظيم الثالث، المسيح؛ وهو، صاعدًا إلى الأعلى، شكل مع الإنسان الأول والثاني الكنيسة المقدسة. كان هذا ميلاد الأم العظيمة من الجانب الأيمن. لكن قطرة من النور سقطت إلى أسفل نحو اليد اليسرى في مادة فوضوية؛ وقد أطلق على هذا اسم صوفيا، أو الحكمة، أم العالم. وهكذا تحركت مياه الأثير، وشكلت جسدًا لصوفيا (أيون النور)، أي مجال السماء. وهي، بعد أن حررت نفسها، تركت جسدها وراءها، وصعدت إلى المنطقة الوسطى أسفل والدتها (الأم الكونية)، التي شكلت حدود الكون المثالي.

بمجرد اتصالها بمياه الفضاء، أنجبت بالفعل ابناً، القوة الإبداعية الرئيسية للعالم المحسوس، الذي احتفظ ببعض من

سائل النور؛ كان هذا الابن هو يالدابوث (الذي يقول البعض إنه يعني طفل الفوضى)، والذي بدوره أنجب ابناً، ثم أنجب هو آخر، حتى أصبحوا سبعة في المجموع، القوى التكوينية العظيمة للكون المحسوس. وكانوا "مقاتلين"، وكانوا يتشاجرون كثيراً مع آبائهم. ومن خلال هذا التفاعل بين القوى على المادة ظهر "العقل"، الذي كان "على شكل ثعبان"، و"الروح"، و"النفس"، وكل الأشياء في العالم.

وكان يالدابوث متفاخراً ومتغطرساً، وصاح قائلاً: "أنا الأب والله، ولا يوجد أحد يهوه يالدابوث. غيري". لكن صوفيا عندما سمعت هذا صرخت في وجه ابنها: "لا تكذب يا يالدابوث، لأن فوقك أبو الكل، الإنسان الأول، والإنسان ابن الإنسان". واندهشت جميع القوى من الكلمة؛ لكن يالدابوث، لصرف انتباههم، صرخ قائلاً: "دعونا نصنع الإنسان على صورتنا". فصنعوا "الإنسان"، وبقي مثل رجل متعب على الأرض، حتى أحضروه إلى يالدابوث، الذي نفخ فيه "نسمة الحياة"، أي سائل النور الذي تلقاه من صوفيا، وهكذا أفرغ نفسه من نوره. و"الإنسان" الذي تلقاها، شكر على الفور الإنسان الأول وتجاهل صانعيه (الإلوهيم).

وعندها شعر يالدابوث (يهوه) بالغيرة وخطط لحرمان آدم من شرارة النور تفسير العهد القديم. عن طريق تكوين "المرأة". وقد فُتِنَت القوى الإبداعية الست بحواء، وبأبنائها الذين أنجبتهم، وهم الملائكة. وهكذا وقع آدم مرة أخرى تحت سلطة يالدابوث والإلوهيم؛ ثم أرسلت صوفيا أو الحكمة "الحية" ("العقل") إلى جنة يالدابوث، واستمع آدم وحواء

إلى مشورتها الحكيمة، وهكذا تحرر "الإنسان" مرة أخرى من سيطرة القوة الخالقة، وتجاوز قانون الجهل بأي قوة أعلى منه الذي فرضه يالدابوث. وعليه طردهم يالدابوث من فردوسه، ومعهم طرد "الحية" أو "العقل"؛ لكن صوفيا لم تسمح لشرارة النور بالنزول، فسحبتها لتجنب التدنيس. و"العقل" (العقل الأدنى) المتشكل على هيئة ثعبان، وهو أول نتاج لـ يالدابوث، أنجب ستة أبناء، وهذه هي القوى "الشيطانية" التي تبتلي الرجال لأن والدهم قد تم إسقاطه من أجلهم.

كان لآدم وحواء قبل السقوط أجساد روحية، مثل "الملائكة" المولودين من حواء هذه؛ ولكن بعد سقوطهم من جنة يالدابوث، أصبحت أجسادهم أكثر كثافة، وأكثر خمولاً، وأصبحت "أكمامًا من جلد"، حتى أعادت لهم صوفيا في النهاية برحمتها رائحة النور العطرة، وعرفوا أنهم يحملون الموت معهم. وهكذا عادت إليهم ذكريات حالتهم السابقة، وكانوا صبورين، مدركين أن الجسد لم يوضع إلا لفترة من الزمن.

ثم ينتقل النظام إلى معالجة أساطير سفر التكوين المتعلقة بقايين (قابيل) ونوح، وما إلى ذلك، وسجل العهد القديم بشكل عام، بنجاح معتدل؛ وتتمثل الفكرة الرئيسية في أن الأنبياء كانوا موحى إليهم من قبل واحد أو آخر من الآلهة السبعة، ولكن في بعض الأحيان نجحت صوفيا في التأثير عليهم بوحي مجزأ حول الإنسان الأول والمسيح في السماء.

ص 191

أما بقية النظام فهي مخصصة لمسألة مخطط التجديد وتفسير علم المسيح. الأساطير الغامضة. صوفيا، أو الحكمة، لم تجد راحة في السماء أو الأرض، فاستغاثت بالأم العظيمة، وتوسلت بشفقة إلى الإنسان الأول أن يرسل المسيح لمساعدتها. ثم علمت الحكمة أن أخيها وزوجها قادم لمساعدتها، فأعلنت عن قدومه بواسطة يوحنا، وبواسطة "معمودية التوبة" تم تجهيز يسوع لاستقباله، كما لو كان في إناء طاهر. وهكذا نزل المسيح عبر الأفلاك السبعة، مشبهاً نفسه بالحكام، ومجرداً إياهم من سلطتهم، فعاد إليه النور الذي احتفظوا به. وفي البداية ألبس المسيح أخته صوفيا ثوب النور، وفرحا معًا، وهذا هو "الزواج" الصوفي بين "العريس والعروس". والآن، بعد أن ولد يسوع من "عذراء" بعمل الله (بمعنى آخر، بعد أن نال يسوع الزاهد "الولادة الثانية" الروحية)، نزل المسيح وصوفيا، أحدهما يحتضن الآخر، عليه وأصبح يسوع المسيح.

ثم بدأ يقوم بأعمال عظيمة، ويشفي المرضى، ويعلن عن الأب المجهول، يسوع. ويعترف علنًا بأنه ابن الإنسان الأول. وعليه اتخذت القوى، وخاصة يالدابوث، تدابير لقتله، وهكذا تم "صلب" يسوع الإنسان على أيديهم، لكن المسيح وصوفيا صعدا إلى الأيون الذي لا يفسد. لكن المسيح لم ينسَ الذي سكن فيه، فأرسل قوة رفعت جسده، ليس

ص 192

صحيح أن مظهره الجسدي كان ظاهراً، لكنه كان جسداً نفسياً وروحياً. وأولئك من تلاميذه الذين رأوا هذا الجسد، ظنوا أنه قام بجسده المادي، لكنه شرح السر لبعضهم ممن كانوا قادرين على تقبله، وعلمهم العديد من أسرار الحياة الروحية الأخرى. والآن يجلس يسوع عن يمين أبيه، يالدابوث، ويستقبل النفوس التي تلقت هذه الأسرار. وبقدر ما يثري نفسه بالنفوس، بقدر ما يُحرم يالدابوث من السلطة؛ بحيث لم يعد قادراً على إعادة النفوس المقدسة إلى عالم التناسخ، بل فقط تلك التي من جوهره الخاص؛ وسيكون تمام كل شيء عندما يتم جمع كل النور مرة أخرى وتخزينه في كنوز الأيون غير الفاسد.

هذا هو وصف مخطط المعرفة الغنوصية الذي لا يخلو من العيوب والذي وصل إلينا في الترجمة اللاتينية البربرية لملخص إيرينيئوس. يمكننا أن نستنتج من طريقة إيرينيئوس المعروفة الآن أن النظام الأصلي كان أكثر تفصيلاً بكثير، وذلك من خلال تقديم ملخص موجز للغاية للمبادئ التي انتقدها. تتطابق السمات الرئيسية للجزء المسيحي والخلاصي من النظام مع الخطوط العريضة الرئيسية لنظام بيستيس صوفيا، وإحدى رسائل مخطوطة بروسيانوس. هذه نقطة مهمة للغاية، وتشير إلى أن تواريخ هذه الرسائل لا يجب بالضرورة أن تكون لاحقة لزمن أسقف ليون، ولكن يجب تأجيل النظر في هذا الموضوع المهم إلى ما بعد ذلك. ومن المثير للاهتمام مرة أخرى ملاحظة تأثير التقاليد الأورفية

ص 193

والفيثاغورية والأفلاطونية والهرمسية في الجزء الكوني، وملاحظة كيف تجد الأساطير اليونانية واليهودية عنصرًا مشتركًا في التقاليد الكلدانية.

نظام "أوفيت" مبكر.

يخصص هيبوليتوس الكتاب الخامس من كتابه "الدحض" إلى "الأوفيين"، الذين يطلقون على أنفسهم جميعًا اسم أتباع الغنوص، وليس "الأوفيين"، كما هو موضح أعلاه؛ ويبدو أنه يعتبرهم أقدم تيار للغنوص. بعد تناوله لثلاث مدارس عظيمة، والتي سنشير إليها لاحقاً، خصّ بالذكر بشكل خاص جوستينوس، الذي لم يذكره أي عالم آخر في علم الهراطقة. إن هذا السرد لهيبوليتوس أكثر أهمية، بالنظر إلى أن النظام الذي يرتبط به اسم جوستينوس يمثل على ما يبدو أحد أقدم أشكال الغنوص الذي لدينا سجلات عنها. وقد اعترض سالمون على هذا، ولكن في رأيي حججه غير مقنعة؛ فحقيقة أن مدرسة جاستينيان، في تفسيرها الصوفي، لا تشير إلى نصوص مجموعة العهد الجديد، على الرغم من اقتباسها بحرية من العهد القديم، يجب أن تحسم الأمر. يُنسب قول قصير إلى يسوع، لكنه غير موجود في أي مكان في النصوص القانونية.

جوستينوس.

كان لهذه الدائرة أدبيات كثيرة، اختار منها هيبوليتوس مجلداً واحداً، وهو كتاب باروخ، باعتباره الشكل الأكثر اكتمالاً للنظام. كان الأعضاء ملزمين بقسم

ص 194

السرية بعدم الكشف عن مبادئ المدرسة، وقد تم تقديم شكل القسم. تستند نظرية الكون إلى أسطورة الخلق السورية، والتي حفظ هيرودوت أحد أشكالها (الكتاب الرابع، 8-10)، حيث يلعب هرقل (إله الشمس) الدور الرئيسي، كما توجد طبقة منها في سفر التكوين. ترتبط هذه الأسطورة ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد الكلدانية والسامية القديمة. فيما يلي مخطط النظام.

كتاب باروخ.

هناك ثلاثة مبادئ للكون: (1) الإله الصالح أو الحكيم؛ (2) الأب أو الروح، القوة الخلاقة، ويسمى إلوهيم؛ و(3) نَفْس العالم، التي يرمز إليها بامرأة في الأعلى وثعبان في الأسفل، ويسمى عدن. من إلوهيم (جمع يستخدم كجمع) وعدن تخرج أربع وعشرون قوة كونية أو ملاك، اثنا عشر يتبعون إرادة الروح الأب، واثنا عشر طبيعة نَفْس الأم. الأشجار الاثنتي عشرة السفلى هي أشجار العالم في جنة عدن. تنقسم الأشجار إلى أربع مجموعات، كل مجموعة تضم ثلاثة أشجار، تمثل أنهار عدن الأربعة. من الواضح أن الأشجار من نفس طبيعة القوى الكونية التي يمثلها الهندوس على أنها ذات جذور أو مصادر في الأعلى وفروع أو تيارات في الأسفل. اسم عدن يعني المتعة أو الرغبة.

وهكذا ينشأ الخلق كله، وفي النهاية تتولد الحيوانات من الجزء الحيواني من نفس الأم، والبشر من الجزء البشري. يُطلق على الجزء العلوي من الجنة اسم "أجمل الأرض"؛ أي الأرض الكونية، وجسم الإنسان مكون من أجودها. بعد أن تم

ص 195

تشكيل الإنسان على هذا النحو، قام عدن وإلوهيم بتفويض قواهما إليه؛ نَفْس العالم تمنحه النَفْس، وروح العالم تبث فيه الروح. وهكذا تم تكوين الرجال والنساء.

وخضعت كل الخليقة للمجموعات الأربع من القوى الاثنتي عشرة لنَفْس العالم، وفقًا لدوراتها، حيث تتحرك كما في رقصة دائرية.

ولكن عندما تم الوصول إلى مرحلة الإنسان، نقطة تحول عملية العالم، صعد إلوهيم، الروح، إلى الفضاءات السماوية، آخذًا معه قواه الاثنتي عشرة. وفي أعلى جزء من السماء رأى النور العظيم يسطع من خلال البوابة (؟ الشمس المادية)، مما أدى إلى عالم النور الخاص بالخير. والذي كان يظن نفسه حتى ذلك الحين رب الخلق، أدرك أن هناك من هو أعلى منه، فصرخ بصوت عالٍ: "افتحوا لي الأبواب لأعترف بالرب [الحقيقي]؛ لأني كنت أظن نفسي الرب". وخرج صوت يقول: "هذا باب الرب، من خلاله يدخل الصالحون". وبعد أن ترك ملائكته في أعلى السماوات، دخل أبو العالم وجلس عن يمين الصالح.

ورغب إلوهيم في استعادة روحه بالقوة، والتي كانت مرتبطة بالبشر، من المزيد من الانحطاط؛ لكن الإله الصالح منعه، لأنه الآن وقد صعد إلى عالم النور، لم يعد بإمكانه إحداث أي دمار.

ولما رأت النَفْس (عدن) أنها مهجورة من إلوهيم، خدعت نفسها لتغريه بالعودة؛ لكن الروح لم تعد إلى أحضان

الطبيعة الأم (الآن وقد تم تجاوز نقطة المنتصف في التطور). وعندها، عانت الروح التي بقيت في الإنسان من عذاب النَفْس؛ لأن الروح أو العقل رغب في اتباع أبيه إلى العلو، لكن النفس، التي حرضتها قوى الأم - النفس، وخاصة المجموعة الأولى التي تحكم الشهوة الجنسية والإفراط، استسلمت للزنا ورذيلة أكبر؛ وهكذا تعذبت الروح في الإنسان.

أما الملاك، أو قوة نَفْس العالم، التي باروخ. حرضت النَفْس البشرية بشكل خاص على مثل هذه الأعمال السيئة، فكانت الثالثة من المجموعة الأولى، وتسمى ناس (عبري ناحاش)، الثعبان، رمز الشهوة الحيوانية. ولما رأى الله ذلك، أرسل ثالث ملائكته، المسمى باروخ، ليعين الروح في الإنسان. وجاء باروخ ووقف في وسط الأشجار (قوى نَفْس العالم)، وأعلن للإنسان أنه من جميع أشجار جنة عدن يجوز له أن يأكل من ثمارها، إلا شجرة ناس، لأنه خالف الشريعة، وأدى إلى الزنا والجماع غير الطبيعي.

وقد ظهر باروخ أيضاً لموسى والأنبياء من خلال الروح في الإنسان، لكي يهتدي الشعب إلى الصالح؛ لكن ناس كان دائماً يحجب تعاليمه من خلال النَفْس في الإنسان. ولم يقتصر دور باروخ على تعليم أنبياء العبرانيين فحسب، بل قام أيضاً بتعليم أنبياء غير المختونين. وهكذا، على سبيل المثال، تم تعليم هرقل بين السوريين، وكانت أعماله الاثني عشر عبارة عن صراعاته مع القوى الاثنتي عشرة لنَفْس العالم. لكن هرقل فشل في النهاية أيضاً،

لأنه بعد أن بدا أنه أنجز أعماله، هزمته أومفالي، أو فينوس، التي جردته من قوته من خلال إلباسه رداءها الخاص، قوة عدن في الأسفل.

وأخيراً ظهر باروخ ليسوع، وهو صبي راعي غنم، ابن يوسف ومريم، علم المسيح. وكان عمره اثنتي عشرة سنة. وظل يسوع وفياً لتعاليم باروخ، على الرغم من إغراءات ناس. وغضب ناس فأمر بـ "صلبه"، لكنه ترك على "الشجرة" جسد عدن - أي الجسد النفسي أو النَفْس، والجسد المادي - وأسلم روحه أو عقله إلى يدي أبيه (إلوهيم)، وصعد إلى الصالح. وهناك يرى "كل ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يدخل قلب الإنسان"؛ ويستحم في محيط الماء المانح للحياة، وليس في الماء الموجود أسفل السماء، بل في محيط التكوين الذي تستحم فيه الأجساد المادية والنفسية. إن محيط الأجيال هذا هو، بالطبع، نفس محيط السامسارا البراهمية والبوذية، أي محيط الولادة الجديدة.

يحاول هيبوليتوس أن يصور أن جوستينوس كان شخصًا وضيعًا للغاية، لأنه أشار بشجاعة إلى أحد العقبات الرئيسية أمام الحياة الروحية، وأهوال الشهوانية الحيوانية؛ لكن من الواضح أن جوستينوس بشر بمذهب الزهد الصارم، ونسب نجاح يسوع إلى نقائه المنتصر.

ص 198

النحشيون

قبل القسم الخاص بجوستينوس، يتناول هيبوليتوس ثلاث مدارس تحت أسماء النحشيون، والبيراتايون، وسيثيانيون أو سيثيان. يبدو أن المدارس الثلاث تنتمي إلى نفس الدورة، والمدرستان الأوليان تقدمان سمات متطابقة لدرجة تجعل من المحتمل للغاية أن يكون عمل النَحَشية والرسالتين البيراتيكيتين اللتين اقتبس منهما هيبوليتوس، ينتميان إلى نفس الدائرة الغنوصية.

على الرغم من أن اسم النَحَشية مشتق من الكلمة العبرية *Nachash* ، وهي كلمة تعني ثعبان، إلا أن هيبوليتوس لا يسمي النَحَشية بالأوفيين، بل بالغنوصيين؛ في الواقع، إنه يحتفظ باسم أوفيت لمجموعة صغيرة يعطيها أيضًا (viii 20) اسمي القينيين وNochaïtæ (؟ Nachaïtæ من *Nachash*)، ويعتبرهم غير ذوي أهمية كافية لمزيد من الذكر.

أدبهم. امتلك النَحَشية العديد من الكتب، واعتبروا أيضًا الكتب المقدسة التالية مرجعًا موثوقًا: إنجيل الكمال، إنجيل حواء، أسئلة مريم، بشأن نسل مريم، إنجيل فيلبس، إنجيل توما، وإنجيل المصريين. وقعت إحدى مخطوطاتهم في أيدي هيبوليتوس. كانت عبارة عن رسالة ذات طابع صوفي ونفسي وتعبدي وتفسيري، وليست عرضًا كونيًا، ولذلك يصعب إلى حد ما فهم النظام من كتابات هيبوليتوس. في الواقع، عند تحليل وثيقة النَحَشية في مصادرها، تبين أنها عبارة عن تفسير مسيحي

ص 199

لتفسير يهودي لتعليق وثني على ترنيمة من ترانيم الأسرار. يمكن تحديد تاريخ الكاتب المسيحي في منتصف القرن الثاني تقريبًا،

وتُعد الوثيقة ذات قيمة خاصة لأنها تشير إلى تطابق التعاليم الباطنية للمسيحية الغنوصية مع مبادئ الأسرار - الفريجية، والإليوسينية، والديونيسية، والساموثراكية، والمصرية، والآشورية، وما إلى ذلك.

زعم الكاتب المسيحي أن تقليده قد انتقل من يعقوب إلى مريم العذراء. إن هذه مريم، أو مريم، تمثل لغزاً إلى حد ما بالنسبة للباحثين؛ ومع ذلك، يبدو من المحتمل أن الرسالة تنتمي إلى نفس دورة التقاليد مثل الأسئلة الكبرى والصغرى لمريم، وإنجيل مريم، وما إلى ذلك، والتي تندرج ضمنها أيضاً رسالة بيستيس صوفيا.

تتمثل السمات الرئيسية للنظام في أن الكون يرمز إليه بالإنسان (السماوي)، ذكراً وأنثى، بثلاث طبائع، روحية (أو معقولة)، ونفسية ومادية؛ وأن هذه الطبائع الثلاث وجدت نفسها في كمالها في يسوع، الذي كان بالتالي ابن الإنسان حقاً. ينقسم البشر إلى ثلاث فئات أو جماعات أو كنائس: المختارون، والمدعوون، والمقيدون (أو بعبارة أخرى، الروحانيون أو الملائكيون، والنفسيون، وchoïc أو الماديون)، وفقًا لغلبة إحدى هذه الطبائع.

بعد هذا الموجز، يشرع هيبوليتوس في الخوض في التفسير الصوفي للكاتب وتفسيرهم الصوفي. الكتّاب الآخرين (الذين يعتبرهم بالطبع شخصًا واحدًا) وتفسيرهم للأسرار، والذي يختلط هنا وهناك بأمثلة من التلاعب

ص 200

اللفظي اللغوي الزائف الذي كان عزيزًا على قلب كراتيلوس أفلاطون، كما ذكرنا سابقًا. من المفترض أن يكون هذا النظام أساساً لجميع الأساطير، الوثنية واليهودية والمسيحية. إنها التعاليم القديمة عن العالم الكبير والعالم الصغير، والذات الكامنة في قلب كل شيء.

إن الطابع التقني لهذا التفسير وطبيعة مقالتنا يجبراننا على تقديم ملخص موجز للأفكار الرئيسية فقط؛ لكن الموضوع مهم بما يكفي ليتطلب دراسة خاصة في حد ذاته.

إن روح الإنسان أو عقله محبوس في النفس، طبيعته الحيوانية، والنفس في الجسد. تم توضيح طبيعة وتطور هذه النفس في إنجيل المصريين، وهو عمل مفقود للأسف.

الأسرار الآشورية. الآن، قام الآشوريون (بعد الكلدانيين، الذين اعتبرهم القدماء، إلى جانب المصريين، الأمة المقدسة بامتياز) بتعليم أن الإنسان ثلاثي الأبعاد ومع ذلك فهو وحدة. النفس هي مبدأ الرغبة، وكل الأشياء لها نفوس، حتى الحجارة، لأنها تزداد وتنقص.

إن "الإنسان" الحقيقي هو ذكر-أنثى، خالٍ من الجنس؛ لذلك يسعى جاهداً للتخلي عن الطبيعة الحيوانية والعودة إلى الجوهر الأبدي الأعلى، حيث لا يوجد ذكر ولا أنثى بل مخلوق جديد.

لم يكن المعمودية مجرد غسل رمزي بالماء المادي، بل كان غسل الروح أو العقل في "الماء الحي في الأعلى"، العالم الأبدي، وراء محيط التكوين والفناء؛ وكان المسح بالزيت بمثابة إدخال المرشح إلى نعيم لا يزول، ليصبح بذلك مسيحًا.

ص 201

ينبغي البحث عن ملكوت السماوات داخل الإنسان؛ إنه "الطبيعة المباركة لكل الأشياء التي كانت، والتي هي، والتي ستظل موجودة"، كما ورد في الأسرار الفريجية. إنها من طبيعة الروح أو العقل، لأنه كما هو مكتوب في إنجيل توما: "من يطلبني يجدني في الأطفال من سن السابعة"؛ وهذا هو ممثل اللوغوس في الإنسان.

عند المصريين القدماء، يُعتبر أوزيريس ماء الحياة، أو الروح أو العقل، بينما تُعتبر إيزيس "الطبيعة ذات الأردية السبعة، المحاطة والمغطاة بسبعة أردية أثيرية"، وهي عوالم التوليد المتغيرة باستمرار، والتي تُحوّل الجوهر الأم الذي لا يوصف، ولا يُتصور، ولا يُفهم؛ بينما العقل، أو الذات، يصنع كل الأشياء ولكنه يبقى دون تغيير، وفقًا للقول: "أصبح ما أريد، وأنا ما أنا عليه؛ لذلك، أقول، ثابت فوق كل شيء و لا يتزعزع". لأنه يبقى على ما هو عليه، يصنع الأشياء، وليس شيئاً من الأشياء الموجودة. وهذا ما يسمى أيضًا بالخير، ومن هنا جاء القول: "لماذا تدعوني بالخير؟ واحد فقط هو الصالح، أبي الذي في السماوات."

عند الإغريق، يُعتبر هيرمس هو اللوغوس. هو الموجه والمرشد (المعلم النفسي و اليوناني. المرشد الروحي)، ومصدر النفوس. يتم إنزالها من الإنسان السماوي إلى بلازما الطين، الجسد، وبالتالي يصبحون عبيداً للديميورج، إله الخلق الناري أو العاطفي. لذلك فإن هرمس "يحمل في يديه عصا جميلة ذهبية، يسحر بها عيون من يشاء من البشر، ويوقظهم من النوم مرة أخرى". لذلك يقول القول: "استيقظ أيها النائم، وقم،

ص 202

وسينير لك المسيح". هذا هو المسيح، ابن الإنسان، في كل من يولد؛ وقد تم توضيح هذا في طقوس إليوسيس. وهذا هو المحيط أيضًا، "جيل الآلهة وجيل البشر"، نهر الأردن العظيم، كما هو موضح في أسطورة الخروج، المذكورة أعلاه.

الساموثريون. كما علّم الساموثريون نفس الحقيقة؛ وفي معبد أسرارهم كان هناك تمثالان، يمثلان الإنسان السماوي، والإنسان المتجدد أو الروحي، في كل شيء متطابق مع ذلك الإنسان. كان المسيح من هذا النوع، لكن تلاميذه لم يصلوا بعد إلى الكمال. ومن هنا جاء القول: "إن لم تشربوا دمي ولم تأكلوا جسدي، فلن تدخلوا ملكوت السماوات؛ ولكن حتى لو شربتم من الكأس التي أشرب منها، فلن تستطيعوا أن تدخلوا إلى حيث أذهب". ويضيف الكاتب الغنوصي: "لأنه كان يعلم طبيعة كل واحد من تلاميذه، وأنه لا بد من أن يذهب كل منهم إلى طبيعته الخاصة. لأنه من بين الاثني عشر "سبطاً" اختار اثني عشر تلميذاً، ومن خلالهم كلم كل "سبط". ولذلك (أيضًا) لم يستمع جميع الناس إلى موعظة التلاميذ الاثني عشر، ولا يستطيعون قبولها حتى لو استمعوا إليها."

الفريجي. ثم يتم التطرق إلى أسرار التراقيين والفريجيين، وشرح نفس الأفكار بشكل أكبر من وثائق العهد القديم. تُفسر رؤيا يعقوب على أنها تشير إلى نزول الروح إلى المادة، نزولاً على سلم التطور، وتدفق تيار اللوغوس إلى أسفل، ثم صعوداً مرة أخرى، عبر بوابة الرب. ولذلك يقول المثل: "أنا الباب الحقيقي". أطلق الفريجيون

ص 203

أيضًا على الروح في الإنسان اسم "الميت"، لأنها كانت مدفونة في قبر الجسد. لذلك يقول القول: "أنتم قبور مبيضة، مملوءة من الداخل بعظام الموتى"، "لأن الإنسان الحي ليس فيكم". ومرة أخرى: "سيقفز الموتى من القبور"؛ أي "من أجسادهم المادية، رجال روحانيون متجددون، وليسوا جسديين". لأن "هذه هي القيامة التي تحدث من خلال باب السماوات، والذين لا يمرون من خلاله يبقون أمواتاً".

تم تقديم العديد من التفسيرات الأخرى ذات الطبيعة المماثلة، وتم توضيح أن الأسرار الصغرى تتعلق بـ "الولادة الجسدية"، بينما تعاملت الأسرار الكبرى مع الولادة الجديدة. "لأن هذا هو باب السماء، وهذا هو بيت الله، حيث يسكن الله الصالح وحده، والذي لا يدخله إنسان نجس، ولا إنسان نفسي، ولا إنسان جسدي؛ بل هو محفوظ تحت الحراسة للروحانيين وحدهم، حيث يجب أن يأتوا، ويخلعوا ثيابهم، ويصبحوا جميعًا عرسانًا طهرتهم الروح العذراء." فمثل هذا الرجل هو العذراء الحامل، التي تحبل وتلد ابناً ليس نفسياً ولا حيوانياً ولا جسدياً، بل هو أيون مبارك من الأيونات.

هذا هو ملكوت السماوات، "حبة الخردل، النقطة غير القابلة للتجزئة، وهي الشرارة البدائية في الجسد، والتي لا يعرفها أحد إلا الروحانيون".

يقال إن جميع أفراد مدرسة النحشيون قد تم تلقينهم أسرار الأم العظيمة،أسرار الأم العظيمة. لأنهم وجدوا أن سر الولادة الجديدة بأكمله يتم تدريسه في هذه الطقوس؛ كما كانوا

ص 204

زاهدين صارمين. أُطلق عليهم اسم النحشيون لأنهم يمثلون "الجوهر الرطب" للكون - والذي بدونه لا يمكن لأي شيء موجود، "سواء كان خالداً أو فانياً، سواء كان حياً أو جماداً، أن يتماسك" - برمز الثعبان. هذا هو الأكاشا الكوني للأوبانيشاد، والكنداليني، أو القوة الثعبانية في الإنسان، والتي عندما تتبع الدافع الحيواني تكون قوة التكاثر، ولكن عندما يتم تطبيقها على الأمور الروحية تجعل من الإنسان إلهاً. إنها مياه نهر الأردن العظيم المتدفقة إلى أسفل (جيل البشر) وإلى أعلى (جيل الآلهة)؛ أكاشا-غانجا أو نهر الغانج السماوي في البورانات، النيل السماوي لمصر الصوفية.

"إنه يوزع الجمال والزهر على كل من هم موجودون، تماماً كما أن [النهر] 'يخرج من عدن وينقسم إلى أربعة جداول.'" قالوا إن جنة عدن في الإنسان هي الدماغ "المضغوط في مشاريع محيطة مثل السماوات"، والفردوس هو الإنسان بقدر ما هو الرأس فقط. هذه الحواس الأربع هي البصر والسمع والشم والتذوق. النهر هو "الماء فوق قبة [الجسم]".

وهكذا، باستخدام مجموعة أخرى من المصطلحات الرمزية، "يختار الروحانيون لأنفسهم من المياه الحية لنهر الفرات [العالم اللطيف]، الذي يتدفق عبر وسط بابل [العالم المادي أو الجسد]، ما هو مناسب، مروراً عبر بوابة الحقيقة، وهي يسوع المبارك"، أي "بوابة السماوات"، أو الشمس، على المستوى الكوني؛ وعلى المستوى الميكروكوزميكي، الخروج من الجسد بوعي من خلال أعلى مركز في الرأس، والذي يسميه المتصوفون الهندوس

ص 205

براهماراندرا. وهكذا ادعى هؤلاء الغنوصيون أنهم المسيحيون الحقيقيون لأنهم مُسحوا بـ "المسحة التي لا توصف"، والتي انسكبت من "قرن الوفرة" الثعباني، وهو رمز آخر للقوة الروحية للتنوير.

سنختتم هذه النبذة الموجزة عن هؤلاء المتصوفين الأكثر إثارة للاهتمام باقتباس أحد أناشيدهم. جزء من ترنيمة. لسوء الحظ، النص فاسد لدرجة أن أجزاء منه غير قابلة للفهم، ومع ذلك لا يزال هناك ما يكفي "للشعور" بالفكرة. إنها تتحدث عن عقل العالم، والأب، والفوضى، والأم الكونية، والعضو الثالث من الثالوث البدائي، نفس العالم. ومن ثم النفس الفردية، والحاج، وأحزانها وولادتها الجديدة. وأخيراً نزول المخلص، بكر العقل العظيم، وتجديد الجميع. وراء كل شيء يكمن ما لا يوصف، ثم يأتي أولاً البكر، اللوغوس:

"كان العقل هو الأول، القانون التوليدي لكل شيء؛
ثانياً، الفوضى المنتشرة، [زوج] المولود الأول؛ ثالثاً، النفس الكادحة تلقت
القانون؛
لذلك، محاطة بشكل مائي، تنمو متعبة، خاضعة
للموت...
الآن وقد سيطرت، رأت النور؛ ثم، بعد أن أُلقيت في
محنة بائسة، بكت. بينما تبكي، تفرح؛
الآن تنوح وتحاسب؛ والآن تحاسب
وتموت. والآن لا يمكن أن تمر...
لقد تجولت في متاهة [الولادة الجديدة]. قال [يسوع]: يا أبانا
البحث عن الشر على الأرض

ص 206

يجعل [الإنسان] يضل عن روحك. يسعى إلى تجنب
الفوضى المريرة،
لكنه لا يعرف كيف يهرب. لذلك، أرسلني يا
أبي! سأنزل وأنا أحمل الأختام في يدي؛
سأسلك طريقي عبر كل أيون؛ سأكشف كل الأسرار.
وأظهر أشكال الآلهة؛
ستُعرف الأسرار الخفية للطريق المقدس باسم
الغنوص،
وسأسلمها بدوري."

البيرات.

مصدر تقاليدهم. يقول هيبوليتوس إن الأسرار التي يرمز إليها الثعبان هي أصل كل الغنوصية؛ وعلى الرغم من أن آب الكنيسة نفسه ليس لديه أي فكرة عما هي هذه الأسرار حقًا، كما يتضح جليًا من جميع ملاحظاته، فإننا نتفق معه، كما حاولنا أن نبين أعلاه. ثم ينتقل إلى الحديث عن نظام البيراتيين، الذين أشرنا إليهم بالفعل، والذين ظلت أسرارهم (يسميها هيبوليتوس "تجديفهم على المسيح") سرية "لسنوات عديدة".

(يصفها هيبوليتوس بأنها "تجديف على المسيح") وقد تم إبقاؤها سراً "لسنوات عديدة". نعلم من مصادر أخرى أن المدرسة كانت موجودة قبل عهد كليمنت الإسكندري. كان نظام البيرات يعتمد على القياس مع الاعتبارات الفلكية، ويعتمد على تقاليد طائفة النجوم الكلدانية القديمة. في الكتاب الرابع، حاول هيبوليتوس بالفعل دحض نظام الكلدانيين للأجرام السماوية؛ ولكن على الرغم من أنه يطرح بعض النقاط الجيدة ضد علم التنجيم العام

ص 207

في ذلك الوقت، إلا أنه لا يتطرق إلى المذهب الغامض للأجرام السماوية السبعة، الذي فقد علماء التنجيم التجريبيون سره منذ فترة طويلة، والذي استبدلوا به الكواكب المادية. كان هيبوليتوس يضع المدرسة البيراتية في الاعتبار بشكل خاص في محاولته لدحض فن المنجمين والرياضيين، والذي يعترف بأنه لم يكن لديه معرفة عملية به، ولكن المساحة تجبرنا ببساطة على إحالة الطالب إلى الكتاب الرابع من كتابه الفيلسوفومينا للحصول على الخطوط العريضة لعلم التنجيم التي يقدمها أحد آباء الكنيسة.

وفقًا للمدرسة البيراتية، كان الكون يرمز إليه بدائرة تحيط بمثلث. العوالم الثلاثة. يشير المثلث إلى الانقسام الثلاثي البدائي إلى العوالم الثلاثة؛ غير القابلة للتوليد، والقابلة للتوليد الذاتي، والقابلة للتوليد. وهكذا كان لديهم ثلاثة جوانب للوغوس، أو من وجهة نظر أخرى، ثلاثة آلهة، أو ثلاثة لوغوس، أو ثلاثة عقول، أو ثلاثة رجال. عندما وصلت عملية العالم إلى اكتمال انحطاطها، نزل المخلص من العالم غير القابل للتكوين أو الأيون؛ ونمط المخلص هو نمط الإنسان الكامل، "ذو طبيعة ثلاثية، وجسد ثلاثي، وقوة ثلاثية، يمتلك في نفسه جميع [أنواع] التجسيدات والإمكانيات من الأقسام الثلاثة للكون". بحسب عبارة بولس: "لقد سره أن يحل فيه كل ملء (plērōma) جسديًا".

من العالمين الأعلى، العالم غير القابل للتوليد والعالم القابل للتوليد الذاتي، تُرسل بذور جميع أنواع الإمكانيات إلى هذا العالم القابل للتوليد أو العالم الرسمي.

هنا يتوقف هيبوليتوس، وبعد أن أخبرنا

ص 208

أن مؤسسي المدرسة كانوا شخصًا يُدعى إيفراتس (الذي يسميه أوريجانوس مؤسس أولئك الأوفيتيين الذين أشار إليهم سيلسوس حوالي عام 175 ميلاديًا) وسيلبيس، الذي يسميه في مكان آخر أسيمبيس وأديميس، يشرع في إخبارنا بشيء آخر عن الفن الكلداني. ثم يقول إنه سيقتبس من عدد من الرسائل البيراتية لإظهار أن أفكارهم كانت مشابهة لأفكار الكلدانيين.

إن للمخلص مهمة ليس بشرية فحسب، بل مهمة كونية أيضاً؛ تتمثل المهمة الكونية في فصل الخير عن الشر بين القوى والتأثيرات النجمية؛ وتبرز نفس خصوصية علم الخلاص في رسالة بيستيس صوفيا، والتي سنشير إليها لاحقاً. إن "الحروب في السماء" تسبق صراع الخير والشر على الأرض.

اقتباس مباشر. من الواضح أن الرسالة التي يقتبس منها هيبوليتوس هي تعليق غنوصي على نص كوني بابلي أو سوري قديم، والذي يسعى المعلق إلى شرحه بمصطلحات أسطورية يونانية. تبدأ هذه الرسالة الغامضة على النحو التالي:

"أنا صوت الاستيقاظ من سباته في عالم الليل. من الآن فصاعدًا سأبدأ في تجريد القوة التي تنبثق من الفوضى. إنها قوة الوحل السحيق، التي ترفع طين [المبدأ] الرطب الهائل الخالد، القوة الكاملة لاضطراب لون الماء، دائمة الحركة، تدعم الثابت، وتكبح المتزعزع، ... الوكيل الأمين لمسار الأثير، مبتهجًا بما يتدفق من ينابيع القانون الاثني عشر، القوة التي

ص 209

تأخذ شكلها من بصمة قوة المياه غير المرئية في الأعلى."

تُسمى هذه القوة ثالاسا، وهي على ما يبدو ثالاث (تيامات)، أو أم العالم، عند البابليين. وتسمى المصادر الاثنا عشر أيضاً بالأفواه الاثني عشر، أو الأنابيب، التي تتدفق من خلالها القوى العالمية وهي تطلق صافرات الاستياء. إنها القوة التي تحيط بها هرم ذو اثني عشر ضلعًا أو مجسم ذو اثني عشر وجهًا - وهي إشارة من شأنها أن تقنع المنجمين بإعادة النظر في "علامات الأبراج" الخاصة بهم.

تصبح اقتباسات هيبوليتوس وملخصه هنا غامضة للغاية وتتطلب معالجة نقدية لم تُمنح لها بعد؛ يُقال لنا في النهاية أن المادة مأخوذة من رسالة تتناول العالم الرسمي أو العام، لأنها تُسمى البرواستيوي حتى الأثير؛ أي التسلسل الهرمي للسلطات حتى الأثير، والتي ربما تم تمثيلها تخطيطيًا بسلسلة من الدوائر متحدة المركز، و"بروستيون" هي المساحة المحيطة بأسوار المدينة.

يشير هيبوليتوس هنا مرة أخرى إلى التوافق بين الرمزية الفلكية وتعاليم هذه المدرسة الغنوصية؛ ويقول إنها ببساطة علم التنجيم المجازي، أو بالأحرى يجب أن نقول علم الكونيات اللاهوتي. يستمد هؤلاء البيراتيون، أو المتعاليون، اسمهم من الاعتبارات التالية.

كانوا يعتقدون أنه لا شيء موجود بالأجيال يمكن أن ينجو من الدمار، وبالتالي معنى الاسم. فإن مجال الأجيال هو أيضاً مجال المصير. أما من لا يعرف شيئاً وراء هذا، فهو مقيد بعجلة القدر؛ ولكن "من يعرف

ص 210

حتمية التولد [سامسارا]، والمسارات التي دخل بها الإنسان إلى العالم [القابل للتولد]"، يمكنه أن يتقدم ويتجاوز (يتخطى) الدمار. هذا الدمار هو "الماء" الذي هو "جيل الرجال"، وهو العنصر الذي تسيطر فيه التسلسلات الهرمية للأجيال، ويكون وجودها قائماً. يُطلق عليه اسم الماء لأنه من هذا اللون، أي الأثير الأدنى.

إن الرسالة التي يقتبس منها هيبوليتوس تغوص مرة أخرى في أعماق الأساطير، ومن بين أمور أخرى تستشهد بأسطورة الخروج وتفسيرها الصوفي؛ وأخيرًا، يشرح المعلق الغنوصي الآيات الافتتاحية لمقدمة الإنجيل القانوني الرابع. لكن هيبوليتوس بدأ يشعر بالحيرة من التعقيد المذهل للنظام، كما يخبرنا، وبالتالي انقطع عن الحديث، ويبدو أنه بدأ في قراءة رسالة أخرى ليقتبس منها. تتسم الرسالة الجديدة بطابع صوفي للغاية، ويبدو أنها تتناول علم النفس الفسيولوجي للمدرسة.

علم وظائف الأعضاء النفسية. يتم تصوير الكون على أنه ثلاثي: الأب والابن والمادة (هيلي)، كل منها ذو إمكانيات لا حصر لها. يقف الابن، الكلمة (اللوغوس) المصاغة، في منتصف الطريق بين الأب الثابت والمادة المتحركة. في وقت من الأوقات يتجه إلى الآب ويتلقى القوى في قرصه (وجهه، أو "شخصه")، ثم يقوم بتحويلها إلى مادة، وهي خالية من الشكل؛ وهكذا يتم تشكيل المادة ويتم إنتاج العالم الشكلي.

نرى هنا محاولة لتطعيم تعليم أعلى، من نفس طبيعة المذهب الأفلاطوني للأنواع

ص 211

والأفكار، على الرمزية البدائية للظواهر الطبيعية التي لم يتم رصدها بشكل كامل. الشمس هي الأب، والقمر هو الابن، والأرض هي المادة. يُصوَّر القمر على شكل ثعبان، نظراً لمساره المتعرج، وتُتخيل مراحله على أنها دوران وجهه نحو الشمس، ثم مرة أخرى نحو الأرض. وإذا كان هذا صحيحًا، فإن ثبات الشمس وحركة الأرض يعطينا سببًا للاعتقاد بأن الكلدانيين كانوا أكثر دراية بعلم الفلك من أتباع مركزية الأرض هيبارخوس-بطليموس المتأخرة جدًا. يمتلك الكاتب الغنوصي أيضاً نظرية صحيحة عن التأثيرات المغناطيسية وغيرها، والتي يعرضها بطريقة غريبة. علاوة على ذلك، يمكننا التمييز بين ثلاثة مستويات من التفسير: (1) الميتافيزيقي والروحي - العالم المثالي، والوسيط، والكون المرئي؛ (2) عالم التكوين - بشمسه وقمره وقوى الأرض؛ و(3) العملية النفسية الفيزيولوجية التناظرية عند الإنسان.

وهكذا يتم شرح الأمر الأخير. الدماغ هو الأب، والمخيخ هو الابن، والنخاع المستطيل هو المادة أو الهيلي. "يجذب المخيخ، من خلال عملية لا توصف ولا تُدرك، الجوهر الروحي والمانح للحياة من خلال الغدة الصنوبرية من الحجرة المقببة [؟ البطين الثالث]. وعند تلقي هذا، يقوم المخيخ أيضاً، بطريقة لا توصف، بنقل "الأفكار" إلى المادة، تماماً كما يفعل الابن؛ أو بعبارة أخرى، تتدفق بذور وأنواع الأشياء المنتجة وفقاً للجسد إلى النخاع الشوكي. ويضيف هيبوليتوس أن الأسرار الرئيسية للمدرسة تعتمد على معرفة هذه الموافقات، لكن سيكون من الكفر أن يقول

ص 212

أي شيء آخر في هذا الشأن - وهو تحفظ من المدهش أن نجده في أحد آباء الكنيسة، وخاصة في هيبوليتوس، الذي خصص الكتابين الثاني والثالث من كتابه "الرد" لشرح الأسرار.

الكتب المفقودة لهيبوليتوس. من المثير للدهشة أن هذين الكتابين قد أُزيلا فعلياً من المخطوطة. فهل كشف هيبوليتوس، إذن، عن الكثير من "السرقة الأدبية الاستباقية" لطقوس ومذاهب الكنيسة، وهل رأى من أتوا بعده أنه من غير الحكمة الاحتفاظ بمثل هذه الأدلة؟ كان المرء يظن أن الآباء الأرثوذكس كانوا سيفرحون قبل كل شيء باستعراض امتلاكهم لمثل هذه المعلومات أمام الوثنيين والزنادقة، وكانوا سيحرصون على حفظ هذين الكتابين من التلف. لكن من الغريب حقًا أن هذا، وهو أهم رد على جميع الوثائق المتعلقة بالهرطقة التي نمتلكها، لم يتم استخدامه من قبل خلفاء هيبوليتوس. المخطوطة الوحيدة المعروفة للعالم الغربي تم جلبها من جبل آثوس في عام 1842، وقد أحدثت محتوياتها (بسبب عدد الاقتباسات المباشرة) ثورة في أفكارنا حول الغنوصية في العديد من النقاط. لو تم

الحفاظ على الكتابين المتعلقين بالأسرار، لربما شهدنا ثورة أكبر في أفكارنا.

ص 213

السيثيون.

يرتبط السيثيون ارتباطًا وثيقًا بالغنوصيين المذكورين أعلاه، والذين يخصص لهم هيبوليتوس اهتمامه بعد ذلك. يتحدث عن "تعليقاتهم التي لا تعد ولا تحصى"، ويحيل قراءه بشكل خاص إلى رسالة معينة تسمى ″إعادة الصياغة شيث″، للحصول على ملخص لعقائدهم. لكن ما إذا كان هيبوليتوس يقتبس من هذه الوثيقة بنفسه، أو من بعض الرسائل الأخرى، فليس واضحاً. إن عنوان الكتاب، ″إعادة الصياغة شيث″، محير للغاية؛ فمن الصعب تحديد المعنى الدقيق لمصطلح ″إعادة الصياغة″، كما أن المذاهب التي وضعها هيبوليتوس لا علاقة لها بأسطورة شيث.

إن مصطلح "السيثيين"، كما استخدمه هيبوليتوس، ليس محيراً فقط لهذا السبب، ولكن أيضاً لأن ملخصه يختلف تماماً عن شظايا المعلومات حول نظام السيثيين التي يفترض أنها ذُكرت في كتابه المفقود "سينتاغما"، والتي ربطها الملخصون بمذهب النيقولاويين. في الأجزاء الأخيرة، تم اختيار البطل شيث كنموذج للرجل الصالح، والكامل، والنموذج الأولي للمسيح.

هل من الممكن أن تكون هناك صلة بين اسم "شيث/سيث" و"سيثيوس" الغامض في مخطوطة بروسيانوس؟ وعلاوة على ذلك، هل ينبغي لنا أن نبحث عن أصل السيثيين على طول الخط المصري لتقاليد طائفة الهكسوس، والتي جعلت خلفيتها السامية من ست إله الأسرار؟

ص 214

مخطط نظامهم. يبدأ السيثيون الذين نتناولهم بثالوث؛ النور والروح والظلام. لكن لا ينبغي اعتبار الروح مجرد نَفَس أو ريح، بل أشبه برائحة خفيفة تنتشر في كل مكان. إذن، تتداخل المبادئ الثلاثة مع بعضها البعض. ويسعى الظلام إلى الاحتفاظ بالنور والروح، وسجن شرارات النور في المادة؛ بينما يسعى النور والروح، من جانبهما، إلى رفع قواهما عالياً وإنقاذهما من الظلام.

جميع الأجناس والأنواع والأفراد، بل السماء والأرض نفسها، هي صور "للأختام"؛ يتم إنتاجها وفقًا لأنواع معينة موجودة مسبقًا. ومن أول اجتماع للمبادئ أو القوى الأصلية الثلاثة تم إنتاج الشكل العظيم الأول، وهو انطباع الختم العظيم، أي السماء والأرض. ويرمز إلى ذلك بالبيضة العالمية في رحم الكون، ويتم حساب بقية الخلق على نفس القياس. توجد البيضة في المياه، التي تتقاذفها القوة الخلاقة إلى أمواج، ويعتمد شكل المخلوقات المختلفة على طبيعة هذه الأمواج. هنا لدينا نظرية الاهتزازات وفكرة الخلية الجرثومية بأكملها في كامل نشاطها.

وفي الأجساد التي نشأت بفعل أمواج المياه (مركبات المادة الدقيقة) ينزل بريق النور وعطر الروح، وهكذا يتم تشكيل "العقل أو الإنسان" إلى أنواع مختلفة.

"وهذا [النور-الشرارة] هو إله كامل، الذي من النور غير القابل للولادة من الأعلى، ومن الروح، ينزل إلى الإنسان الطبيعي، كما إلى

ص 215

المعبد، بواسطة مد الطبيعة وحركة الرياح [القوة الخلاقة التي تسبب الأمواج]. وهكذا، امتزجت شرارة صغيرة، شظية متفرقة من الأعلى، كشعاع
نجم، في المياه المركبة [مكعبات من أنواع مختلفة من المادة الدقيقة] للعديد من (الوجودات). . . . إذن، كل فكرة، وكل اهتمام يحرك النور من الأعلى، يتعلق بكيفية وبأي طريقة تحرير العقل من الموت - الجسد الشرير والمظلم - من "الأب" في الأسفل، الريح [الدافع المولد]، التي أثارت الأمواج بالاضطراب والضجيج، وأنتجت [أخيرًا] عقلًا كاملًا، ابنه، ومع ذلك ليس عقله في جوهره. لأنه [العقل] كان شعاعاً من الأعلى، من ذلك النور الكامل، تغلب عليه الظلام والماء المخيف والمرير والملطخ بالدماء؛ وهو أيضاً روح نورانية تطفو على الماء.

لا تُسمى القوة المولدة "الريح" فحسب، بل تُسمى أيضًا "الوحش" و"الثعبان"، وذلك بسبب صوت الفحيح الذي تُصدره، تمامًا مثل الريح الدوارة. الآن، الرحم النجس، أو مجال التكاثر، لا يمكنه إلا أن ينتج رجالاً فانين، أما الرحم العذراء أو النقي، مجال النور، فيمكنه أن ينتج رجالاً خالدين أو آلهة. إن نزول الإنسان الكامل أو اللوغوس إلى الإنسان النقي هو وحده القادر على تهدئة آلام المخاض لدى الإنسان الجسدي.

تتجلى هذه العملية الطبيعية والروحية في الأسرار؛ فبعد المرور بالأسرار الصغرى، الأسرار.التي تتعلق بدورة التجديد، يُغسل المرشح أو يُعمّد، ويخلع ثوب الخادم، ويرتدي ثوبًا سماويًا، ويشرب من كأس

ص 216

الماء المانح للحياة. أي أنه يترك شكله الخاضع، الجسد الذي يخضع لضرورة التكاثر وبالتالي فهو عبد، ويصعد في جسده الروحي إلى الحالة التي يوجد فيها محيط الخلود.

دعمت المدرسة السيثية مبادئها الثيوصوفية من خلال تشبيهات مستمدة من الفلسفة الطبيعية، ومن خلال التفسير الرمزي للعهد القديم؛ ولكن، كما يقول هيبوليتوس، فإن نظامهم ليس سوى مبادئ الأسرار الأورفية، التي تم الاحتفال بها في أخايا في فليوم، قبل الإليوسينيين بفترة طويلة. لا شك أن السيثيين بنوا نظرياتهم على واحد أو أكثر من تقاليد طائفة الأسرار، ولكن ليس علينا أن نتبع هيبوليتوس في اختياره لتقليد واحد فقط، وذلك في أبشع مراحله وأكثرها جهلاً من الفحش الفالوسي.

ويبدو أن المدرسة كانت لها أيضًا صلات بالتقاليد الهرمسية، واستخدمت تشبيه العمليات الطبيعية و"الخيميائية" لشرح الأمور الروحية. فعلى سبيل المثال، بعد ذكر مثال المغناطيس، يتابع أحد كتبهم قائلاً: "وهكذا فإن شعاع النور [النفس البشرية]، الممزوجة بالماء [النفس الحيوانية]، والذي حصل من خلال التأديب والتعليم على منطقته الخاصة، يندفع نحو اللوغوس [النفس الإلهية] التي تنزل من الأعلى في صورة غلاف [جسد]؛ ويصبح مع اللوغوس لوغوس هناك حيث يوجد اللوغوس، أسرع من اندفاع الحديد نحو المغناطيس".

ص 217

الدوسايتون

كما ذكرنا سابقاً، فإن بقايا مجرى نهر الغنوص القديم الذي نسعى إلى مسحه، مجزأة للغاية، بحيث لا يمكن محاولة أي شيء سوى رسم مخطط غير كامل، أو بالأحرى سلسلة من الرسومات التخطيطية التقريبية لأجزاء معينة قد تمكننا الاكتشافات اللاحقة يوماً ما من تحويلها إلى خريطة. تكاد المؤشرات الزمنية تكون معدومة تماماً، ولا يمكننا حتى الآن تكوين أي فكرة عن التسلسل الصحيح لهذه المدارس الغنوصية العامة. لذلك يجب علينا المضي قدماً بشكل عشوائي إلى حد ما، وسنحول انتباهنا بعد ذلك إلى مدرسة يسميها هيبوليتوس (الكتاب الثامن) الدوسيتيين، نظراً لأن مبادئهم تشبه إلى حد كبير مبادئ المدارس الثلاث التي تناولناها للتو. ومع ذلك، لا يوجد ما يدل على سبب اختيار هذا الاسم تحديداً، باستثناء السبب الغامض المتمثل في أنه مشتق من محاولة هؤلاء الغنوصيين وضع نظريات حول "المادة التي لا يمكن الوصول إليها ولا يمكن فهمها". لذلك، قد يكون من الممكن أنهم آمنوا بمذهب عدم واقعية المادة؛ وأن اسم الدوسايتون ("الوهميون") له اشتقاق مشابه لـ Māyā-vādins عند الهندوس. إن نظام هذه الدائرة الغنوصية يحمل تشابهاً عائلياً قوياً مع مذاهب مدرستي الباسيليدي والفالنتيني؛ لكن عقيدة الطبيعة غير المادية لجسد المسيح، وهي السمة العامة للدوسيتية العادية، ليست أكثر بروزاً معهم مما هي عليه مع العديد من

ص 218

المدارس الأخرى. فيما يلي الخطوط العريضة لمبادئهم التي قدمها هيبوليتوس.

الله. الكائن البدائي يرمز إليه كبذرة شجرة التين، النقطة الرياضية، الموجودة في كل مكان، أصغر من الصغير، ومع ذلك أكبر من الكبير، وتحتوي في حد ذاتها على إمكانيات لا حصر لها. إنه "ملجأ المذعورين، وستر العراة"، وغير ذلك الكثير كما ورد بشكل رمزي في الكتب المقدسة. كما أن طريقة التولد اللانهائي للأشياء يتم تصويرها أيضًا بشجرة التين، فمن البذرة يأتي الساق، ثم الفروع، ثم الأوراق، ثم الثمرة، والثمرة بدورها تحتوي على بذور، ومن ثم سيقان أخرى، وهكذا بطريقة لا نهائية؛ وهكذا تخرج كل الأشياء.

الأيونات. وبهذه الطريقة، حتى قبل تشكيل العالم المحسوس، كان هناك انبثاق لعالم إلهي أو مثالي من ثلاثة أيونات جذرية، يتكون كل منها من العديد من الأيونات الفرعية، الذكر والأنثى؛ أي عوالم، أو كائنات، أو مستويات، من قوى ذاتية التوليد. وقد انبثق هذا العالم الأبدي من النور من البذرة المثالية الواحدة أو جذر الكون، الذي لا يمكن توليده. ثم إن مجموعة الأيونات ذاتية التوليد التي تتحد معًا تنتج من العذراء الواحدة (المادة الكونية المثالية)، المولود الوحيد (المولد)، مخلص الكون، الكائن الكامل؛ الذي يحتوي في نفسه على جميع قوى العالم المثالي للأيونات، متساوٍ في القوة في كل شيء مع البذرة الأصلية للكون، غير القابل للتوليد. وهكذا تم إنتاج مخلص الكون المثالي، الأيون المثالي. وهكذا اكتمل كل شيء في ذلك العالم الروحي، حيث كان كل شيء من طبيعة ما يتجاوز العقل، خالياً من كل نقص. وهكذا

ص 219

تم إنجاز عملية العالم الأبدية والمثالية في فضاءات الأيونات.

ثم فيما يتعلق بانتقال العالم المثالي إلى الكون المحسوس. أما جذر الأيون الثالث، الكون والإنسان. بدوره، فقد جعل نفسه ثلاثيًا، يحتوي في داخله على جميع الإمكانيات العليا. وهكذا، أشرق نوره على المادة الفوضوية البدائية، واندمج فيها نفوس جميع أجناس وأنواع الكائنات الحية. وعندما أدرك الأيون الثالث، أو اللوغوس، أن أفكاره وانطباعاته وأنواعه أو أختامه (χαρατῆρες) - أي نفوسه - قد استولى عليها الظلام، فصل النور عن الظلام، ووضع سماءً بينهما؛ ولكن لم يتم ذلك إلا بعد أن تم اعتراض جميع الأنواع اللانهائية للأيون الثالث في الظلام. وأخيراً، تم نقش تشابه الأيون الثالث نفسه على الكون الأدنى، وهذا التشابه هو "نار مانحة للحياة، متولدة من النور". وهذه النار هي الإله الخالق الذي يشكل العالم، كما ورد في رواية موسى. هذا الإله المخترع، الذي لا يملك جوهراً خاصاً به، يستخدم الظلام (المادة الخشنة) كمادة له، يصنع منها الأجسام، وبالتالي يعامل باستمرار وبازدراء الصفات الأبدية للنور المحبوسة في الظلام. وهكذا، حتى مجيء المخلص، كان هناك وهم هائل للنفوس، لأن هذه "الأفكار" تسمى نفوساً (ψυχαί) لأنها قد تم نفخها (ἀποψυγεῖσαι) من (الأيونات) العليا. تقضي هذه النفوس حياتها في الظلام، تنتقل من جسد إلى آخر من الأجساد التي تقع تحت حماية القوة الخلاقة أو صانع العالم.

ويدعم هذا المؤلف الغنوصي القول المأثور: "وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا، فَهذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ. مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ."؛ وكذلك إلى أيوب 2. 9: "وأنا رحّالة، أتنقل من مكان إلى آخر ومن بيت إلى آخر." توجد الفقرة الأخيرة في نسخة السبعين، ولكنها محذوفة في الترجمة الإنجليزية.

المخلص. من خلال المخلص تتحرر النفوس من دائرة الولادة الجديدة *(التناسخ)*، ويتم إيقاظ الإيمان في الناس بأن خطاياهم يجب أن تُغفر. وهكذا، فإن الابن الوحيد المولود وهو ينظر إلى مأساة النفس - "صور" الأيونات العليا التي تتغير باستمرار من جسد إلى آخر للظلام - أراد النزول من أجل خلاصهم.

لم تكن الأيونات الفردية في الأعلى قادرة على تحمل كمال العالم الإلهي بالكامل، أي الابن؛ ولو أنهم رأوه لكانوا قد أصيبوا بالحيرة من عظمته وجلال قوته، ولخافوا على وجودهم. وهكذا سحب المخلص مجده إلى ذاته، كما لو كان أعظم ومضات البرق في أصغر الأجسام، أو كما لو كان الانقطاع المفاجئ للضوء عندما تغلق الجفون، وهكذا نزل إلى القبة السماوية؛ وعندما وصل إلى حزام النجوم هناك، سحب مجده مرة أخرى، لأنه حتى أصغر مصدر ضوء ظاهري في كرة النجوم هو شمس تنير كل الفضاء؛ وهكذا سحب المخلص مجده مرة أخرى ودخل في مجال الكرة الثالثة من الأيون الثالث. وهكذا دخل حتى في الظلام؛ أي أنه تجسد في جسد.

وكانت معموديته على هذا النحو: فقد اغتسل في نهر الأردن (نهر اللوغوس)، وبعد هذا التطهير في الماء، امتلك جسدًا روحيًا، نسخة أو انطباعًا عن جسده المادي الذي صنعه من عذراء؛ حتى إذا حكم حاكم العالم (إله الخلق) على جسده المادي بالموت، أي الصليب، فإن الجسد الروحي، الذي تغذى في الجسد المادي العذراء، قد يجرد الجسد المادي، ويسمره على "الشجرة"، وهكذا ينتصر المسيح على

قوى وسلطات حاكم العالم، ولا يُوجد عاريًا؛ لأنه سيرتدي جسده الروحي الجديد الكامل بدلًا من جسد آخر من اللحم. وهكذا يقول القول: "إن لم يولد الإنسان من الماء والروح، فلا يقدر أن يدخل ملكوت السماوات؛ فالمولود من الجسد هو جسد".

أما فيما يتعلق بيسوع المسيح، فقد لاحظ الكاتب الغنوصي بحكمة أن هذا المثال يمكن رؤيته من جوانب عديدة؛ وأن لكل مدرسة وجهة نظرها الخاصة، بعضها منخفض وبعضها مرتفع؛ وأن هذا هو طبيعة الأشياء. وأخيراً، لا أحد يستطيع فهم هذا السر وجهاً لوجه سوى الغنوصيين الحقيقيين، أي أولئك الذين مروا بمراحل مماثلة لتلك التي مر بها يسوع.

يبدو أنه من غير الضروري الإشارة إلى دارس الغنوصية إلى التشابه المذهل بين الخطوط العريضة لهذا النظام والأفكار الرئيسية لمحتويات مخطوطات بروس وأسكيو؛ ومع ذلك لم يلاحظها أحد من قبل.

ص 222

منعموس.

يخصص هيبوليتوس القسم التالي لشخص معين يدعى منعموس، والذي لم يذكره سوى عالم هرطقات آخر، وهو ثيودوريت، في فقرة موجزة. كان منعموس عربيًا وعاش في مكان ما في النصف الثاني من القرن الثاني. يقوم نظامه على فكرة الإنسان السماوي، والكون، وابن هذا الإنسان، الإنسان الكامل، وكل البشر الآخرين ليسوا سوى انعكاسات غير كاملة للنموذج المثالي الواحد.

نظريات الأعداد. ترتبط أفكاره العامة بدورة الأدب الغنوصي الذي نتناوله، ويتم تفصيلها من خلال العديد من الاعتبارات الرياضية والهندسية من التقاليد الفيثاغورية والأفلاطونية. تم تطوير نظرية الأعداد والتركيب الهندسي للكون من العناصر التي ترمز إليها الأجسام الأفلاطونية الخمسة - وهي: رباعي الأوجه، والمكعب، وثماني الأوجه، واثنا عشري الأوجه، وعشروني الأوجه. يتم إنتاج كل هذه الرموز الهندسية بواسطة الموناد، والتي يسميها إيوتا، واليود، و"القرن الواحد". إنها صديقتنا القديمة، القوة الثعبانية، قرن الوفرة، عصا موسى وهرمس؛ بعبارة أخرى، إنها الذرة التي يقول عنها العرافون إنها دوامة "مخروطية" من القوى. هذه الوحدة هي في الأرقام العقد، وهو الرقم المثالي وإكمال السلسلة الأولى من الأرقام، وبعد ذلك تبدأ العملية بأكملها من جديد.

وبحسب الأسطورة، فإن عصا موسى هي التي تسببت في حدوث ضربات مصر. إن هذه

ص 223

"الأوبئة" ليست سوى تحولات لمادة الجسم المادي، على سبيل المثال، الماء إلى دم، وما إلى ذلك، وكل ذلك تم شرحه بطريقة غريبة من قبل الكاتب.

إن هذا النظام برمته يفتح أمامنا عدداً من الاعتبارات المهمة التي من شأنها أن تقودنا إلى ما هو أبعد بكثير من نطاق هذه المقالة. كان منعموس بلا شك معاصرًا لمدرسة فالنتينوس، إن لم يكن تلميذًا لفالنتينوس، ويمكن أن تؤدي النسخة المشوهة من نظامه كما حفظها هيبوليتوس إلى العديد من النقاط المهمة التي ستلقي الضوء على "الحساب اللاهوتي" للأطباء الغنوصيين.

قد يثبت هذا يوماً ما أنه يحافظ على بذرة قد تنمو لتصبح شجرة من المعرفة الرياضية الحقيقية.

سنختتم عرضنا لمبادئ

منعموس باقتباس رأيه حول طريقة كيف نسعى إلى الله البحث عن الله . في رسالة إلى ثاوفرسطس، كتب: "توقف عن البحث عن الله (كما لو كان خارجك)، والكون، والأشياء المشابهة لهذه؛ ابحث عنه من داخلك، وتعرف على من هو، الذي يستحوذ مرة واحدة وإلى الأبد على كل ما فيك لنفسه، ويقول: إلهي، عقلي، منطقي، نفسي، جسدي". وتعلم من أين يأتي الحزن والفرح، والحب والكراهية، والاستيقاظ رغماً عن الإرادة، والنوم رغماً عن الإرادة، والغضب رغماً عن الإرادة، والوقوع في الحب رغماً عن الإرادة. وإذا دققت النظر في هذه الأمور، ستجده في نفسك، واحداً ومتعدداً، تماماً كالذرة؛ فتجد من نفسك مخرجاً من نفسك."

كل هذا يتردد صداه بشكل واضح للغاية مع تعاليم الأدبيات التريسميجيستية السابقة.

ص 224

ما يسمى القينيون (القابليون) نسبة لقابيل

غموض الموضوع. قبل العودة مرة أخرى إلى زمن الأصول على طول خط آخر من التقاليد، والذي لا تزال هناك إشارة أو اثنتان غامضتان منه - أثر كاربوقراطيس-سيرينثوس - سنشير بإيجاز إلى الفوضى الغامضة للاتجاهات المصنفة معًا تحت مصطلح "القائينية" ومتغيراته. مصادر معلوماتنا شحيحة، وإذا استبعدنا مجرد ذكر الاسم، فإنها تقتصر على إيرينيئوس وإبيفانيوس؛ والأخير، علاوة على ذلك، نسخ من إيرينيئوس، وباستثناء تأملاته وأفكاره الخاصة، لا يحتوي إلا على القليل من المعلومات الجديدة لإضافتها.

يُصنف هذا الخط من التقاليد عمومًا على أنه "أوفيتي"، وكالعادة نجد أن أتباعه أطلقوا على أنفسهم ببساطة اسم الغنوصيين. لقد تميزوا بالتكريم الذي قدموه لقابيل ويهوذا؛ وهذه الحقيقة، إذا أخذناها في حد ذاتها، كانت كافية لإغراقهم بلعنات الأرثوذكس، الذين نسبوا إليهم ارتكاب كل إثم. وهكذا نجد أن إبيفانيوس، الذي كتب بعد مائتي عام من إيرينيئوس، قد أضاف تفاصيل كثيرة إلى رواية أسقف ليون، حتى في الحالات الأخرى التي كان ينسخ فيها ببساطة من سلفه. سننتقل الآن إلى معرفة السبب الذي دفع هؤلاء الغنوصيين إلى تبني معتقد غريب على ما يبدو.

إذا أخذ القارئ في الاعتبار أنظمة جوستينوس والسيثيين، فسيكون في وضع أفضل لفهم ما يلي. إذن، فإن السمات الرئيسية

ص 225

لنظام هؤلاء الغنوصيين هي كما يلي.

لم يكن خالق العالم هو الإله فوق كل شيء؛ كانت القوة المطلقة من الأعلى أقوى من قوة التوليد الأضعف (ἡστέρα--hystera)، والتي تم ترميزها على أنها قوة رحم العالم النجس، الذي يحتوي على السماء والأرض بداخله - العالم المحسوس. لكن هذا العالم المحسوس كان، كما لو كان، ولادة لاحقة (ὕστερα--hystera)، مقارنة بالولادة الحقيقية من الرحم الروحي العذري، العالم المثالي للأيونات العليا. لقد أحدث إبيفانيوس فوضى كبيرة في هذا الجزء من النظام؛ من الواضح

أنه مرتبط بـ "نقص" الفالنتينية (ὑστέρημα--hysterēma)، أو "إجهاض"، العالم المحسوس، خارج أو خارج عن الكمال المثالي أو الكمال (πλήρωμα--plērōma)، أو عالم الأيونات.

لذلك، كانت القوة الأدنى هي إله التوليد، أما القوة الأعلى فهي إله التنوير أعداء يهوه أصدقاء الله. والحكمة. لم تتجاوز فكرة العهد القديم عن الله مجرد الطاعة لأوامر السلطة الأدنى. أولئك الذين أطاعوا أوامرها اعتبرهم أتباع القانون الخارجي من أهل القدامى، الذين لم يروا أبعد من ذلك، فقاموا في تقاليدهم بتشويه سمعة كل من رفض اتباع هذا القانون، أوامر القوة الأدنى للتكوين. وهكذا تم مدح هابيل ويعقوب ولوط وموسى من قبل أتباع قانون التوليد؛ بينما في الواقع كان ينبغي مدح معارضي هؤلاء، باعتبارهم أتباع القانون الأعلى الذين احتقروا قوانين قوى التوليد، وبالتالي تمت

حمايتهم بالحكمة ورفعهم إلى نفسها، إلى الأيون الأعلى. لذلك زعموا أن قايين وعيسو، وسكان مدن السهل، وكورن وداثان وأبيرام، كانوا نماذج لأولئك الأفراد أو الأمم الذين اتبعوا قانونًا أعلى، والذين تعرضوا، على ما يبدو، للافتراء من قبل أتباع يهوه.

يمكننا هنا أن نرى بوضوح شديد آثار نفس التناقضات التي توصل إليها جوستينوس؛ حيث يمكن تتبع تأثير القوى النفسية أو الملائكة على طول خط نسب هابيل، وتأثير القوى الروحية على طول خط نسب قايين (قابيل). كان هابيل يقدم القرابين الدموية، بينما كان قايين يقدم ثمار الحقل. كان هذا الأسلوب التضادي، بشكل أو بآخر، شائعًا بما فيه الكفاية - على سبيل المثال، التضادات الأبيونية المتأخرة بين الرجال المتفوقين والدونيين (إسحاق وإسماعيل، يعقوب وعيسو، موسى وهارون)، أو التضادات المرقيونية بين إله الحرية وإله الشريعة، إله المسيح ويهوه العهد القديم - ولكن يبدو أن المدرسة التي نصف مبادئها، في ازدرائها ليهوه، قد دفعت نظرياتها إلى أكثر النتائج غرابة على الإطلاق. ويتجلى هذا بشكل خاص في أفكارهم عن تاريخ العهد الجديد، والتي، على الرغم من غرابتها، قد تحتوي مع ذلك على أثر ضئيل من التقاليد الحقيقية لسبب موت يسوع.

يهوذا. كان لهذه الدائرة الغنوصية عدد من الكتابات، وكان من أبرزها ملخصان صغيران للتعليمات، أحدهما يسمى إنجيل يهوذا، والآخر صعود بولس. لنأخذ الأخير أولاً؛ زعم كتاب صعود بولس

أنه يحتوي على سجل للأشياء التي لا توصف والتي ورد أن بولس قد رآها عندما صعد إلى السماء الثالثة. من غير المؤكد ما إذا كان هذا هو نفسه سفر رؤيا بولس الذي أشار إليه أوغسطين؛ على أي حال فقد ضاع. وصلت إلينا نسخة أكثر أرثوذكسية من إحدى وثائق نفس الدورة في رؤية بولس، ويمكن قراءة ترجمتها في المجلد الأخير من مكتبة ما قبل نيقية المسيحية (1897). إذا كان بإمكاننا الاعتماد على هذا اللقب، الذي يتحمل إبيفانيوس وحده مسؤوليته، فإن مدرسة القينيين بالتالي هي مدرسة ما بعد بولس.

لكن أغرب تطور في نظريتهم، ومن وجهة نظر معينة، أكثرها إثارة للاهتمام، كان وجهة نظرهم تجاه يهوذا. لقد سلمت تقاليد "الفقراء" (الأبيونيين) يهوذا باستمرار إلى اللعن العالمي؛ ومع ذلك، يبدو

أن هناك تقليدًا آخر، يُفترض أنه الإسينيين في المقام الأول، اتخذ وجهة نظر مختلفة في هذا الشأن. يبدو أن آثاراً غامضة لهذا الأمر محفوظة في رواية إيرينيئوس وإبيفانيوس غير الذكية عن عقائد القينيين.

كانت هذه الدائرة من الطلاب تنظر إلى يهوذا على أنه رجل متقدم جداً في الغنوص، وشخص لديه فكرة واضحة جداً عن الحقيقة. الله على نحو متميز عن إله الخلق؛ وبالتالي فقد دعا إلى الانفصال التام عن أمور الدنيا، وبالتالي عن القوة الأدنى التي خلقت السماء والعالم والجسد. كان من المفترض أن يرتقي الإنسان إلى أعلى المراتب من خلال صلب المسيح.
كان المسيح هو الروح الذي نزل من فوق، لكي

ص 228

تكتمل القوة الأقوى للعالم الروحي في الإنسان؛ وهكذا انتصر يسوع على قوة التوليد الأضعف على حساب جسده، الذي سلمه للموت، وهو أحد تجليات إله التوليد. كانت هذه هي العقيدة المسيحية للمدرسة، ويبدو أنها، استنادًا إلى عبارة "يقول" لإبيفانيوس، مأخوذة من إنجيل يهوذا.

قطعة من التاريخ. ولكن إلى جانب هذا التعليم الصوفي العام، كان هناك أيضًا تقليد تاريخي: أن يسوع، بعد أن أصبح المسيح وعلم العقيدة العليا، ارتد، في رأيهم، وسعى إلى تجاوز الشريعة وتحريف العقيدة المقدسة، ولذلك قام يهوذا بتسليمه إلى السلطات. أي أن أولئك الذين علمهم يسوع في الأصل العقيدة العليا اعتبروا أن وعظه الصريح للغاية للناس كان بمثابة إفشاء للأسرار، وبالتالي أدى ذلك في النهاية إلى إدانته بتهمة التجديف من قبل السلطات اليهودية الأرثوذكسية.

وهناك تقليد آخر أكثر غموضاً، محفوظ في أحد كتبهم، أعلن أنه على العكس من ذلك، لم يرتكب المسيح خطأ، بل تم كل شيء وفقاً للحكمة السماوية. لأن حكام العالم كانوا يعلمون أنه إذا تم تسليم المسيح إلى الصليب، أي إذا تجسد، فإن السلطة الأدنى ستُستنزف منهم وسيصعدون إلى الأيون الروحي. لقد أدرك يهوذا هذا الأمر، وبإيمانه العظيم، استخدم كل الوسائل لتحقيق خيانته، وبهذه الطريقة خلاص العالم.
وبالتالي أشاد هؤلاء الغنوصيون بيهوذا باعتباره أحد العوامل الرئيسية

ص 229

في مخطط الخلاص؛ فبدونه لم يكن ليتم "خلاص الصليب" الصوفي، ولا الكشف اللاحق عن العوالم العليا.

لذلك، يبدو من عقائدهم أن جماعة القاينيين كانوا من الزهاد المتشددين. لكن إبيفانيوس، وهو ينتقد إيرينيئوس، يقول إنهم كانوا أناسًا فظيعين للغاية، ومثل كاربوقراطيس، كانوا يعلمون أنه لا يمكن إنقاذ الإنسان دون المرور بكل أنواع التجارب. لذا سنلقي الآن نظرة سريعة على آراء الكاربوقراطيين.

الكاربوقراطيون.

مصدر معلوماتنا الرئيسي هو إيرينيئوس؛ أما ترتليان وهيبوليتوس وإبيفانيوس فهم ببساطة ينسخون ما سبقهم. كان كاربوقراطيس، أو كاربوكراس، (وفقًا ليوسابيوس) فيلسوفًا أفلاطونيًا قام بالتدريس في الإسكندرية في عهد هادريان (117-138 م)؛

وكان أيضًا رئيسًا لدائرة غنوصية، أطلق عليها آباء الكنيسة اسم الكاربوقراطيين، لكنهم أطلقوا على أنفسهم ببساطة اسم الغنوصيين. أما فيما يتعلق بالتهمة التي وجهها إبيفانيوس ضدهم بعد مئتين وخمسين عاماً، فمن الواضح أنها تستند إلى سوء فهم كامل لرواية إيرينيئوس المضطربة، إن لم يكن إلى سوء نية مسبقة؛ لأن أسقف ليون يقول بوضوح إنه لا يعتقد بأي حال من الأحوال أنهم فعلوا الأشياء التي يعتقد أنه كان ينبغي عليهم فعلها، لو أنهم طبقوا تعاليمهم باستمرار! في الواقع، ينشأ الارتباك برمته من

ص 230

عجز أحد آباء الكنيسة الأخيرين عن فهم عناصر عقيدة الولادة الجديدة. كانت المبادئ الأساسية للمدرسة كما يلي.

فكرتهم عن يسوع. لقد تم صنع العالم المحسوس بواسطة قوى التصنيع، أو البناة، وهي أقل بكثير من قوة الأب المجهول غير المولد الذي لا يوصف. كان يسوع ابن يوسف ومريم، وقد ولد مثل جميع الرجال الآخرين؛ لكنه اختلف عن البقية في أن نفسه، لكونها قوية ونقية، تذكرت ما رأته في مدارها حول (أو حديثها مع) الآب الذي لا يوصف. وهذه هي أيضاً الفكرة (التي تكمن وراء التقاليد الفيثاغورية والأفلاطونية والهرمسية) عن المسار المنظم للنفس في دائرة متناغمة حول الشمس الروحية، في سهل الحقيقة، عندما تكون على طبيعتها. ونتيجة لهذه الذكرى (التي هي مصدر كل حكمة وفضيلة) ألبسه الآب قوى تمكنه من الهروب من سيطرة حكام العالم، والمرور عبر جميع مجالاتهم، والتحرر من كل منها، والصعود في النهاية إلى الآب. وبالمثل، فإن جميع النفوس ذات الطبيعة المماثلة التي تبذل جهودًا مماثلة، ستصعد إلى الآب. على الرغم من أن نفس يسوع نشأت في ظل الآراء اليهودية العادية، إلا أنه ارتقى فوقها، وبالتالي انتصر على الأهواء البشرية بفضل القوى التي تلقاها من فوق.

وإيماناً منهم بأن جميع النفوس التي تسمو فوق قيود الحكام الذين يبنون العالم، ستتلقى قوى مماثلة وتؤدي عجائب مماثلة، ادعى هؤلاء الغنوصيون أيضاً أن بعضهم قد بلغ بالفعل نفس درجة الكمال التي بلغها يسوع، إن لم يكن درجة أعلى،

ص 231

وكانوا أقوى من بطرس وبولس والرسل الآخرين الذين بلغوا قوى مماثلة.

في الواقع، لقد علّموا بجرأة أن الرجال يمكنهم الوصول إلى درجات أعلى من التنوير من يسوع؛ ومع ذلك، ليس من الواضح ما إذا كانوا قد ميزوا بين يسوع والمسيح كما هو معتاد. كانت هذه القوى ذات طبيعة "سحرية"، والفقرة التالية من كتابات إيرينيئوس تضعنا بقوة في ذهننا مبادئ المدرسة "السمعانية". يبدو أن هذه الأفكار كانت منتشرة للغاية، لدرجة أن إيرينيئوس يشكو من أن الغرباء قد تم دفعهم إلى الاعتقاد بأن هذه الآراء كانت هي المعتقد الشائع للمسيحية.

تتناول الفقرة التالية المذهب القائل بأنه لا يوجد شر جوهري في الكون، التناسخ. ولكن الأشياء سيئة وجيدة فقط في رأي الإنسان. لذا دعونا نرى كيف توصل إيرينيئوس، من خلال تلخيصه لعقيدتهم في إعادة الميلاد، إلى هذا التعميم.

يتعين على النفس أن تمر بكل أنواع الوجود والنشاط في دورة ولادتها الجديدة. يبدو أن إيرينيئوس يستقي معلوماته من مخطوطة أكدت أنه يمكن القيام بذلك في حياة واحدة؛ أي أن بعض النفوس الموجودة آنذاك في العالم يمكنها سداد دينها الكارمي في حياة واحدة. لأن المخطوطة تقتبس القول المأثور: "سارع إلى الاتفاق مع خصمك ما دمت في الطريق معه، لئلا يسلمك خصمك إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى ضابطه، فتُلقى في السجن. الحق أقول لك، لن تخرج من هناك حتى تدفع آخر

ص 232

فلس." الآن، الخصم هو المتهم (الشيطان)، أي السجل الكارمي في طبيعة الإنسان نفسه؛ القاضي هو رئيس قوى بناء العالم؛ الضابط هو باني الجسد الجديد؛ السجن هو الجسد. وهكذا تشرح المخطوطة النص - بنفس التفسير الذي ورد في رسالة بيستيس صوفيا، والتي تشرح كل شيء بأكمل وجه على غرار التناسخ وما يسميه الفلاسفة الهنود الكارما.

لكن إيرينيئوس لن يوافق على ذلك. ويؤكد أن هذا المذهب يعني أن النفس يجب أن تمر بكل التجارب الجيدة والسيئة، وحتى يتم تعلم كل تجربة، لا يمكن لأحد أن يتحرر. أن بعض النفوس تستطيع فعل كل هذا في حياة واحدة! لذلك، لا بد أن الكاربوقراطيين قد انغمسوا في أكثر الجرائم التي لا توصف لأنهم أرادوا أن يكملوا قصة كل تجربة جيدة وسيئة، وبالتالي الوصول إلى نهاية ضرورة التجربة.

لكن إيرينيئوس يضيف بعد ذلك مباشرة أنه لا يعتقد أن الكاربوقراطيين يفعلون مثل هذه الأشياء بالفعل، على الرغم من أنه مضطر إلى استنتاج مثل هذه النتيجة المنطقية من كتبهم. ومع ذلك، من الواضح أن النتيجة السخيفة بأكملها تعود بالكامل إلى غباء أسقف ليون، الذي بدأ بمقدمات خاطئة تمامًا بسبب عدم قدرته على فهم أبسط الحقائق المتعلقة بعقيدة التناسخ، على الرغم من أن الأمر كان واضحًا وضوح الشمس بالنسبة للمبتدئين في الغنوصية.

يقال إن دائرة الكاربوقراطيين قد أسست فرعاً في روما، حوالي عام 150، تحت

ص 233

مارسيلينا محدد. كان لديهم صور وتماثيل للعديد من المعلمين العظماء الذين حظوا بالتكريم من قبل مدرستهم، مثل فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو، بالإضافة إلى صورة ليسوع.

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن سيلسوس، كما نقل عنه أوريجانوس (حوالي 62)، عند الإشارة إلى هؤلاء المارسيليين، يذكر أيضًا الهاربوقراطيين الذين استمدوا مبادئهم من سالومي. هل من الممكن أن يكون هذا هو الشكل الصحيح للاسم، وليس الكاربوقراطيين؟ كان هاربوقراطيس هو الشكل اليوناني لحورس، إله الأسرار عند المصريين؛ وسالومي، كما نعلم، كانت شخصية بارزة في الإنجيل المفقود وفقًا للمصريين.

"إبيفانيس".

ننتقل الآن إلى الأساطير المتناقضة والعبثية بشكل واضح، والتي نسجها كتاب الآباء حول ثاني أشهر اسم في دائرة كاربوقراط. لقد أشرنا بالفعل إلى الخطأ الفادح لإبيفانيوس، الذي نسب نظامًا كاملاً من الغنوص، والذي وجده عند إيرينيئوس المنسوب ببساطة إلى "معلم متميز" (ربما فالنتينيان ماركوس)، إلى هذا إبيفانيس؛ الكلمة اليونانية لـ "متميز" هي أيضًا "إيفانيس".

هذا أمر يمكن تبريره إلى حد ما، بالنظر إلى أن إبيفانيوس كتب في نهاية القرن الرابع (بعد 250 عامًا على الأقل من زمن إبيفانيس الفعلي) عندما كانت أي وسيلة لتشويه سمعة الهرطقي تعتبر مبررة؛ ولكن ماذا نقول عن كليمنت

ص 234

الإسكندري، الذي يتسم عمومًا بالإنصاف، والذي عاش في نفس القرن الذي عاش فيه إبيفانيس؟ بل إن خطأه أكثر غرابة. هذه هي أسطورته. كان إبيفانيس ابن كاربوقراطيس والكزاندا، وهي سيدة من كيفالينيا. توفي في سن مبكرة، في السابعة عشرة من عمره، وكان يُعبد كإله بأكثر الطقوس تفصيلاً وفجوراً من قبل الكفاليين، في معبد سامي العظيم، في يوم القمر الجديد.

لم يكن من الممكن لمثل هذه الأسطورة الاستثنائية أن تفلت طويلاً من النقد الثاقب للدراسات الحديثة، وفي وقت مبكر من موشيم تم العثور على مفتاح الشر. وقد قام فولكمار بتوضيح ذلك بالتفصيل، مبيناً أن المهرجان في سامي كان تكريماً لإله القمر، وكان مصحوباً بطقوس ماجنة. كان يسمى عيد الغطاس (τὰ Ἐπιφάνια) تكريما لإبيفانيس (ὁ Ἐπιφανής)، "الظهور حديثا"، القمر الجديد. استمر هذا القمر حوالي سبعة عشر يوماً. وهكذا، فإن كليمنت الإسكندري، الذي انخدع بتشابه الأسماء وأيضًا بقصة الطقوس الفاحشة، قد ورّث للأجيال القادمة افتراءً فاضحًا. يكاد يكون من المشكوك فيه وجود أي شخص يحمل اسم إبيفانيس. ويؤكد كليمنت كذلك أن أحد أكثر الكتب انتشاراً بين الكاربوقراطيين كان رسالة في العدالة، والتي رأى نسخة منها. وينسب هذا إلى إبيفانيس، ولكن من الصعب تصديق أن صبياً يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً أو أقل كان بإمكانه تأليف أطروحة مجردة عن العدالة.

الشيوعية. وهكذا نصل إلى استنتاج مفاده أن الكاربوقراطيين، أو الهاربوقراطيين، كانوا دائرة غنوصية في الإسكندرية في بداية القرن الثاني، وأن بعض أفكارهم قد وردت

ص 235

في كتاب يتعلق بالعدالة، وقد وصلت نسخة منه إلى أيدي كليمنت. كانت هذه الجماعة الغنوصية مهتمة للغاية بفكرة الشيوعية كما مارستها الأوساط المسيحية المبكرة؛ ولأنهم كانوا أيضًا من طلاب أفلاطون، فقد رغبوا في اختزال الفكرة إلى شكل مبدأ فلسفي وتنفيذها حتى نهايتها المنطقية. لم تعد الأفكار الخاطئة عن "ميوم" و"توم" موجودة؛ فالملكية الخاصة هي أصل كل البؤس البشري والابتعاد عن أيام الحرية المبكرة السعيدة. لذلك، كان من المفترض أن يكون هناك مجتمع لكل شيء، بما في ذلك الزوجات والأزواج - وبالتالي تنفيذ تلك الفكرة الغريبة لأفلاطون كما وردت في كتاب الجمهورية. ومع ذلك، ليس لدينا دليل موثوق على أن الغنوصيين لدينا طبقوا هذه الأفكار عمليًا؛ ومن غير المحتمل أيضًا أن يكون رجال العلم والرقي، كما كان الغنوصيون عادةً، الذين توصلوا إلى مثل هذه الآراء من خلال المنهج الفيثاغورسي والأفلاطوني، ومن خلال تعاليم يسوع - حيث كان الشرط الأساسي

لمثل هذه المجتمعات المثالية هو أن تتكون من "غنوصيين" وأن يحكمها "فلاسفة" - قد حولوا اجتماعاتهم إلى حفلات ماجنة من الفجور. لكن هذه هي التهمة التي وجهها إليهم كليمنت. وقد تم دحض هذا جزئياً بالفعل بما قيل أعلاه؛ ولكن ليس من غير المحتمل أن تكون هناك جماعات في الإسكندرية وأماكن أخرى، تدعي المسيحية، قد خلطت بين أغابي أو أعياد الحب في العصور القديمة وبين حفلات المجون والاحتفالات التي كان يقيمها عامة الناس الجاهلين. وجه الوثنيون مثل هذه الاتهامات ضد المسيحيين بشكل عشوائي،

ص 236

والطوائف المسيحية ضد بعضها البعض؛ ومن المعقول تماماً أن مثل هذه التجاوزات قد تسللت بين الجاهلين والأشرار.

الغنوص الموناذي (الأحادي). يُزعم أحيانًا أن مدرسة كاربوقراط هي أصل ما يسمى بالغنوص الأحادي، على الرغم من أنني أعتقد أن هذا غير صحيح. لقد قام نياندر بتطوير هذه الفكرة بتفصيل كبير. ومع ذلك، فإن الملخص التالي الذي أعده سالمون سيكون كافياً للقارئ العادي لتكوين فكرة عن النظرية.

"من موناد أبدي واحد تدفق كل الوجود، وإليه يسعى للعودة. لكن الأرواح المحدودة التي تحكم أجزاءً عديدة من العالم تعارض هذا السعي العالمي نحو الوحدة. انبثقت منها مختلف الأديان الشعبية، ولا سيما اليهودية. يتحقق الكمال من خلال تلك النفوس التي، مسترشدة بذكريات ظروفها السابقة، تسمو فوق كل القيود والتنوع إلى التأمل في الوحدة العليا. إنهم يحتقرون القيود التي تفرضها الأرواح الدنيوية؛ ويعتبرون الأمور الخارجية بلا أهمية، والإيمان والحب هما الجوهران الوحيدان؛ أي أنهم يقصدون بالإيمان التأمل الصوفي للعقل المنغمس في الوحدة الأصلية. وبهذه الطريقة يفلتون من سيطرة الأرواح الدنيوية المحدودة؛ وتتحرر نفوسهم من سجن المادة، ويحصلون على حالة من السكون التام (المقابلة للنيرفانا البوذية) عندما يصعدون تمامًا فوق عالم الظاهر."

ص 237

سيرينثوس.

بمواصلة شق طريقنا عائدين على طول هذا الأثر نحو أزمنة الأصول، نصل بعد ذلك إلى دائرة السيرينثيين (أو الميرينثيين، وفقًا لرواية إبيفانيوس). يقال إنهم يستمدون اسمهم من شخص يدعى سيرينثوس، والذي تم وضعه في "العصر الرسولي"، أي النصف الأخير من القرن الأول.

لقد انشغل إبيفانيوس بشكل مفرط بسيرينثوس، وجعله بذكاء كبش فداء كبش الفداء لـ "الرسل العموديين". لعداء "الرسل العموديين" لبولس. وقد اتبع معظم الكتاب نهجه، وقاموا بتفسير عدد من التصريحات التي تنطوي على تنازلات في أعمال الرسل ورسائل بولس بهذه الطريقة. لكن النقد المحايد يجب أن يرفض تأملات إبيفانيوس المتأخرة، وأن يعود إلى الرواية الموجزة لإيرينيئوس، الذي اقتبس منه جميع الكتاب اللاحقين. إيرينيئوس، الذي عاش بعد قرن كامل من سيرينثوس، لم يذكر سوى فقرة موجزة عن هذا الموضوع.

يُعد سيرينثوس أقوى أثر يربط بين الإبيونية، أو التقاليد الظاهرية الأصلية غير البولسية، وبداية القرن الثاني. من المفترض أنه قد

التقى شخصياً بيوحنا، الكاتب المزعوم للإنجيل الرابع؛ ولكن نفس القصة تُروى عن إبيون الأسطوري، ولذلك يجب رفضها باعتبارها خالية من أي قيمة تاريخية.

ويُقال إن سيرينثوس قد تدرب على "الانضباط المصري"، وأنه قام بالتدريس في آسيا الصغرى. من المفترض أن يكون المقصود

ص 238

كاتب سفر الرؤيا. بالمنهج المصري هو المدرسة الفيلونية، لكن هذا مجرد افتراض. على أي حال، تكمن أهمية سيرينثوس، الذي ادعى بعض الغنوصيين أنه كاتب سفر الرؤيا المنسوب تقليديًا إلى يوحنا، في أن اسمه قد حفظ أحد أقدم أشكال التقاليد المسيحية. أعلنت نشأة الكون فيها عن عظمة الله الهائلة فوق كل شيء، متجاوزاً القوة التابعة، خالق العالم. أعلنت عقيدة المسيح أن يسوع هو ابن يوسف ومريم؛ وأنه عند "معموديته" نزل عليه المسيح، "الآب في صورة حمامة"، وعندها فقط بدأ يتنبأ ويصنع أعمالاً عظيمة، ويبشر بالآب المجهول حتى ذلك الحين (المجهول لليهود)، الإله فوق كل شيء. ثم تركه المسيح؛ ثم تألم يسوع، وقام من بين الأموات (أي ظهر لأتباعه بعد الموت).

هذا هو سرد إيرينيئوس، والذي يبدو واضحاً وموثوقاً به بما فيه الكفاية بقدر ما يصل إليه. لم يكن كتاب سيرينثوس المقدس هو نسخة من الأقوال المنسوبة إلى "متى"، بل مجموعة أقدم مكتوبة بالعبرية. تم رفض جميع المجموعات والمراجعات الأخرى باعتبارها ملفقة تماماً. يقال إن الكاتب اليوناني للإنجيل القانوني الرابع قد ألف روايته في معارضة لمدرسة سيرينثوس، لكن هذه الفرضية لا تدعمها أي أدلة.

ص 239

نيكولاس.

"ما هي الأشياء التي أكرهها."لقد عدنا الآن إلى تلك الأزمنة القديمة لدرجة أن حتى أضعف بصيص من نور التاريخ يخيب أملنا؛ نحن الذين غرقنا في أعماق منطقة الأساطير المظلمة والتكهنات التي أكرهها. لذلك، لن نغوص أكثر في أعماق كهف الأصول المظلمة، بل سنعود مرة أخرى إلى مدخل الكهف، حيث تتسلل بعض ومضات ضوء النهار المتقطعة على الأقل. لكن قبل القيام بذلك، يجب أن نلفت انتباه القارئ إلى ظل واضح للغنوصية المبكرة، وهي دائرة النيكولايين. هؤلاء الغنوصيون ذوو أهمية خاصة للأرثوذكس، لأن كاتب سفر الرؤيا قد بذل قصارى جهده مرتين ليخبرنا أنه يكره أفعالهم. بتشجيع من هذه العبارة، أدرج إيرينيئوس النيكولايين في إدانة الكاتب لبعض أعضاء كنيسة بيرغاموس، الذين يبدو أنهم "أكلوا أشياء قُدمت كقرابين للأصنام وارتكبوا الزنا". وأضاف علماء الهرطقات اللاحقون، بتشجيع من إيرينيئوس، المزيد من الزخارف، حتى جعل إبيفانيوس نيكولاس في النهاية أبا لكل فظاعة جمعها أو اخترعها ضد الغنوصيين. ثم، مع كل هذه "الأدلة" على إثمه أمامه، يشرع إبيفانيوس في مخاطبة شبح الغنوصي التعيس بأسلوب بلاغي: "ماذا أقول لك إذن يا نيكولاس؟" أما نحن، فنندهش من أن عبقرياً مبدعاً مثل أسقف سلاميس قد فكر حتى في طرح سؤال بلاغي كهذا.

ص 240

يزعم التقليد أن نيكولاس كان زاهداً، ويروي قصة مبالغ فيها عن تحرره من العاطفة. وحتى لو سلمنا بأنه كان يعلم أن تناول أطعمة القرابين ليس خطيئة مميتة، فلا يبدو أن هناك سببًا يدعونا اليوم إلى اتباع آباء الكنيسة هؤلاء في إدانتهم لكل شيء عدا وجهة نظرهم الخاصة حول عقيدة المسيح.

سيردو

معلم مرقيون. دعونا الآن نعود إلى الشفق التاريخي للقرن الثاني، ونوجه انتباهنا إلى التطورات الباسيليديسة والفالنتينية العظيمة. لكن قبل القيام بذلك، سيكون من المناسب تقديم لمحة موجزة عن الحركة المرقيونية العظيمة والمعاصرة، والتي هددت في وقت من الأوقات باستيعاب العالم المسيحي بأكمله. كان منهج هذه المدرسة هو النموذج الأولي المباشر لمنهج النقد الحديث. ومع ذلك، كانت استنتاجاتها أكثر شمولاً ؛ لأنها لم ترفض العهد القديم تمامًا فحسب، بل رفضت أيضًا جميع وثائق مدرسة تجميع الإنجيل "حتى تتحقق".

يقال إن سلف مرقيون كان شخصًا يدعى سيردو، من أصل سوري، ازدهر في روما حوالي عام 135 ميلادي. لكن شهرة مرقيون طغت على اسم معلمه، لدرجة أن كتاب الآباء غالبًا ما يخلطون ليس فقط بين تعاليمهم ولكن حتى بين الرجلين أنفسهم. ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه على الرغم من أن علاقة سيردو بكنيسة روما كانت غير مستقرة، إلا أنه لم يتم تسجيل أي حكم

ص 241

صريح بالحرمان الكنسي ضده؛ لذلك، يبدو أن فكرة وجود قانون صارم للأرثوذكسية لم تكن قد تطورت بعد حتى في ذهن مجلس الكهنة الروماني الحصري. لا شك أن نجاح مرقيون هو الذي عجل بصياغة فكرة القانون الكنسي في ذهن الكنيسة الرومانية، الرائدة في الأرثوذكسية اللاحقة.

مرقيون.

كان مرقيون مالك سفن ثريًا في سينوبي، الميناء الرئيسي لبونتوس، على الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود؛ وكان أيضًا أسقفًا وابن أسقف. يمكن تحديد نشاطه الرئيسي في روما في مكان ما بين عامي 150 و 160. في البداية كان على صلة وثيقة بالكنيسة في روما، وساهم بسخاء في تمويلها؛ ولكن بما أن القساوسة لم يتمكنوا من تفسير صعوباته ورفضوا مواجهة الأسئلة المهمة التي طرحها عليهم، يقال إنه هدد بإحداث انشقاق في الكنيسة؛ ويبدو أنه تم حرمانه في النهاية. لكن في الواقع، فإن أصل المارقيونية محاط بالغموض تمامًا، ولا نعرف شيئًا موثوقًا به عن حياة كل من سيردو أو مرقيون.

إن كتّاب الكنيسة في نهاية القرن الثاني، وهم أفضل مصادرنا، لا يستطيعون سرد انتشار المارقيونية. قصة بداية الحركة بأي قدر من اليقين. على حد علمنا، ربما يكون مرقيون قد طور نظرياته قبل وقت طويل

ص 242

من وصوله إلى روما، وربما يكون قد استند فيها إلى المعلومات التي جمعها والآراء التي سمعها خلال رحلاته الطويلة. هذا ما نعرفه، أن آراء مرقيون انتشرت

بسرعة في "العالم كله"، على حد تعبير الآباء المعتاد للإشارة إلى الأراضي اليونانية الرومانية؛ وحتى القرن الخامس نسمع عن ثيودوريت الذي قام بتحويل أكثر من ألف مرقيوني. في إيطاليا ومصر وفلسطين والجزيرة العربية وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد فارس، ظهرت كنائس مرقيونية منظمة بشكل رائع، مع أساقفتها وبقية النظام الكنسي، مع طقوس وخدمة من نفس طبيعة ما أصبح فيما بعد الكنيسة الكاثوليكية. لم تكن الأرثوذكسية قد أعلنت تأييدها لأي حزب حتى الآن، وكان لدى الرأي المرقيوني حينها فرصة جيدة مثل أي رأي آخر ليصبح الرأي العالمي. ما هو سر نجاح مرقيون إذن؟ كما سبق ذكره، كان الأمر مماثلاً لنجاح النقد الحديث عند تطبيقه على مشكلة العهد القديم.

"النقد الأعلى".كان رأي مرقيون في بعض النواحي أكثر اعتدالاً من حكم بعض مفكرينا المعاصرين؛ فقد كان على استعداد للاعتراف بأن يهوه العهد القديم كان عادلاً. وببراعة كبيرة قام بترتيب الأقوال والأفعال المنسوبة إلى يهوه من قبل كتاب ومجمعي ومحرري الكتب المتنوعة لمجموعة العهد القديم، في أعمدة متوازية، إن صح التعبير، مع أقوال وتعاليم المسيح - في سلسلة من التناقضات التي أبرزت بطريقة مذهلة حقيقة أنه على الرغم من أن أفضل ما في الأول يمكن أن ينسب إلى فكرة

ص 243

الإله العادل، إلا أنها كانت غريبة عن مثال الإله الصالح الذي بشر به المسيح. نحن نعلم كيف أن أفضل العقول في الكنيسة في هذه الأيام الأخيرة قد رفضت الأقوال والأفعال المروعة المنسوبة إلى الله في بعض وثائق العهد القديم، وهكذا نرى كيف صاغ مرقيون احتجاجًا لا بد أنه قد أعلن عن نفسه بالفعل في قلوب الآلاف من الأكثر استنارة باسم المسيحية.

أما بالنسبة للعهد الجديد، ففي زمن مرقيون، لم تكن فكرة القانون موجودة بعد أو كانت قيد التفكير فقط. كان لدى مرقيون أيضًا فكرة عن القانون، لكن الآراء المتناقضة هي التي أصبحت فيما بعد أساس القانون الأرثوذكسي.

لقد بشر المسيح بعقيدة عالمية، وكشف جديد عن الإله الصالح، الآب فوق كل شيء. أولئك الذين حاولوا تطعيم هذا على اليهودية، وهي العقيدة الناقصة لأمة صغيرة، كانوا في خطأ فادح، وقد أساءوا فهم تعاليم المسيح تماماً. لم يكن المسيح هو المسيا الموعود لليهود. كان من المفترض أن يكون المسيا ملكًا أرضيًا، وكان مخصصًا لليهود فقط، ولم يأتِ بعد. لذلك قامت المدرسة التاريخية الزائفة "لكي يتم ذلك" بتحريف وتشويه أقوال الرب الأصلية، وهي البشارة العالمية، من خلال الشروح غير الذكية والخاطئة التي نسجتها في مجموعاتها من التعاليم. لقد كان ذلك أقوى اتهام لدورة "تاريخ" العهد الجديد التي تم صياغتها على الإطلاق. لقد سئم الرجال من كل التناقضات والغموض في الصيغ المتعددة والمدمرة المتبادلة

ص 244

للتقاليد المتعلقة بشخص يسوع. لم يعد بإمكان أي إنسان أن يقول ما هي الحقيقة، الآن وقد تم تغيير "التاريخ" ليناسب نظرية المسيح الجديدة للمتحولين اليهود.

إنجيل بولس. أما بالنسبة للتاريخ الفعلي، فقد بدأ مرقيون مع بولس؛ كان هو أول من فهم حقًا رسالة المسيح، وأنقذ التعليم من ظلمات الطائفية اليهودية. من بين النسخ المتعددة للإنجيل،

كان يفضل النسخة البولسية وحدها. لقد رفض كل النسخ الأخرى، بما في ذلك تلك المنسوبة الآن إلى متى ومرقس ويوحنا. كما رفض إنجيل لوقا، "تابع بولس"، معتبراً إياه نسخة معدلة لتناسب آراء الحزب المتهوّد. من المفترض أن إنجيله كان عبارة عن مجموعة من الأقوال التي كانت مستخدمة بين الكنائس البولسية في عصره. بالطبع يقول كتاب الآباء إن مرقيون شوه نسخة لوقا؛ ولكن من المستحيل تقريبًا تصديق أنه إذا فعل ذلك، فإن ناقدًا حادًا مثل مرقيون كان سيحتفظ ببعض الآيات التي تتعارض مع آرائه المعادية لليهودية. أما المرقيونيون، على النقيض من ذلك، فقد زعموا أن إنجيلهم كتبه بولس من التقاليد المباشرة، وأن لوقا لم يكن له علاقة به. لكن هذه أيضاً مشكلة، لأنه من غير المحتمل جداً أن يكون بولس قد كتب أي إنجيل.

لقد كتب العديد من المدافعين الأرثوذكس ضد مرقيون بعد وفاته، لدرجة أنه من الممكن إعادة بناء إنجيله بالكامل تقريبًا. يبدأ هذا النص بالوعظ العلني للمسيح في كفرناحوم؛ وهو أقصر من وثيقة لوقا الحالية، وقد ذهب بعض الكتاب ذوي القدرة الكبيرة إلى القول بأنه

ص 245

الأصل لنسخة لوقا، لكن هذا ليس ذا مصداقية كبيرة. أما بالنسبة لبقية الوثائق المدرجة في المجموعة الحالية من العهد الجديد، فإن مرقيون لم يكن له أي علاقة بأي منها، باستثناء عشر من رسائل بولس، والتي رفض أجزاء منها أيضًا باعتبارها إضافات من قبل المصالحين في الجدل بين بطرس وبولس. هذه الرسائل العشر كانت تسمى الرسول.

أطول نقد لآراء مرقيون موجود في كتاب ترتليان الهجائي ضد مرقيون، الذي كتب في عام 207 والسنوات اللاحقة. لطالما اعتبر الأرثوذكس هذا العمل قطعة رائعة للغاية؛ ولكن في ضوء الاستنتاجات التي توصلت إليها صناعة النقد الحديث، وكذلك إلى الحس السليم العادي، يبدو أنه مجرد قطعة مؤسفة من الخطاب الغاضب. يحاول ترتليان أن يوضح أن مرقيون كان يعلم بوجود إلهين، الإله العادل والإله الصالح. لكن مرقيون علّم أن فكرة اليهود عن الله، كما وردت في العهد القديم، كانت أدنى من وتعارض مع مثال الإله الصالح الذي كشف عنه المسيح. وقد عرض ذلك على الطريقة الغنوصية المعتادة. لكن لا يمكننا أن نتوقع معالجة موضوعية لمشكلة خطيرة، لم تصل إلى حل مُرضٍ في العالم المسيحي إلا في السنوات القليلة الماضية، من ترتليان العنيف، الذي يمكن استشفاف طبعه من خطابه الغاضب إلى المرقيونيين: "الآن يا كلاب، الذين أخرجهم الرسول، والذين ينبحون على إله الحق، دعونا نأتي إلى أسئلتكم المختلفة!" هذه هي عظام الخلاف التي تقضمونها باستمرار!

ص 246

إزنيك. لقد قيل ما يكفي الآن لإعطاء القارئ فكرة عامة عن موقف المرقيونيين - وهو موقف قوي للغاية يجب الاعتراف به، وذلك بسبب بساطته وأيضًا لأنه صاغ احتجاجًا على السخط الذي طال أمده بين المجتمعات الخارجية. ومع ذلك، من الصعب استنتاج أي شيء يشبه نظامًا واضحًا لعلم الكونيات أو علم المسيح من هجمات أشهر علماء الهرطقات على المذاهب المرقيونية. بل إن البعض شكك في تصنيف مرقيون كغنوصي، لكن هذه النقطة حُسمت من خلال عمل إزنيك (إزنيغ أو إسنيغ)، وهو أسقف أرمني ازدهر حوالي عام 450 ميلادي. في رسالته "تدمير العقائد الباطلة"، خصص الكتاب الرابع والأخير للمرقيونيين، الذين يبدو أنهم كانوا حتى في ذلك الوقت المتأخر جماعة مزدهرة للغاية. على الرغم من أنه من المشكوك فيه ما إذا كانت

الأفكار الموصوفة هناك هي نفسها بالضبط النظام الأصلي لمرقيون، فمن الواضح أن التقاليد المرقيونية كانت ذات نزعة غنوصية واضحة، وأن مرقيون مدين لأسلافه في الغنوصية أكثر مما كان يُعتقد عادةً قبل الترجمة الأولى لأطروحة إزنيك (إلى الفرنسية) في عام 1833.

سيكون من الكافي هنا اختصار ملخص سالمون لهذه الأسطورة المرقيونية الغريبة، مع لفت انتباه القارئ إلى تشابه أجزاء من هيكلها مع نظام جوستينوس.

كانت هناك ثلاث سماوات؛ في الأعلى كان الله الصالح؛ وفي الوسط كان إله الشريعة؛ وفي الأسفل كانت ملائكته. وتحت ذلك تقع مادة

ص 247

أو المادة الجذرية. كان العالم نتاجًا مشتركًا لإله الشريعة وهيلي (المادة). إن القوة الخلاقة، نظام مرقيوني.إذ أدركت أن العالم كان جيداً جداً، رغبت في أن تجعل الإنسان يسكنه. لذلك أعطاه هيلي جسده، وأعطته القوة الإبداعية نَفَس الحياة، روحه. وعاش آدم وحواء في براءة في الجنة، ولم ينجبا أطفالاً. وأراد إله الشريعة أن يأخذ آدم من هيلي ويجعله يخدمه وحده. فأخذه جانباً وقال: "يا آدم، أنا الله ولا يوجد غيري؛ فإن عبدت إلهاً آخر فستموت". ولما سمع آدم بالموت خاف، وانصرف من هايلي. كانت هيلي معتادة على خدمة آدم؛ ولكن عندما وجدت أنه انسحب منها، انتقاماً منها ملأت العالم بالوثنية، حتى توقف الناس عن عبادة رب الخلق. ثم كان غضب الخالق، وعندما مات الناس ألقى بهم في الجحيم (الهاديس - العالم غير المرئي)، من آدم فصاعدًا.

لكن في النهاية نظر الإله الصالح من السماء، ورأى البؤس الذي عانى منه الإنسان بسبب هيلي والخالق. فأشفق عليهم، وأرسل إليهم ابنه ليخلصهم، قائلاً: "انزل، واتخذ صورة عبد [؟ جسد]، واجعل نفسك مثل أبناء الشريعة. اشفِ جراحهم، وأعد البصر إلى عميهم، وأحيِ موتاهم، واصنع أعظم معجزات الشفاء دون مقابل؛ فحينئذٍ يغار إله الشريعة ويحرض عباده على صلبك. ثم انزل إلى الجحيم، التي ستفتح فمها لتستقبلك، على افتراض

ص 248

أنك واحد من الموتى. ثم حرر الأسرى الذين تجدهم هناك، وأصعدهم إليّ.

وهكذا تحررت النفوس من الجحيم وصعدت إلى الآب. فغضب إله الشريعة، ومزق ثيابه، ومزق ستار قصره، وأظلم الشمس، وغطى العالم بالظلام. ثم نزل المسيح مرة ثانية، ولكن هذه المرة في مجد ألوهيته، ليتوسل إلى إله الشريعة. واضطر إله الشريعة إلى الاعتراف بأنه أخطأ في اعتقاده أنه لا توجد قوة أعلى منه. فقال له المسيح: "لدي خصومة معك، ولكني لن أقبل بيننا قاضياً آخر سوى شريعتك. أليس مكتوباً في شريعتك أن من يقتل أخاه يُقتل، وأن من يسفك دماً بريئاً يُسفك دمه؟ دعني إذن أقتلك وأسفك دمك، لأني بريء وأنت سفكت دمي."

ثم شرع في سرد النعم التي أنعم بها على أبناء الخالق، وكيف صُلب في المقابل؛ ولم يجد إله الشريعة أي دفاع، فاعترف وقال: "كنت جاهلاً؛ ظننتك مجرد إنسان، ولم أعرف أنك إله؛ خذ جزاءك الذي تستحقه".

ثم تركه المسيح وانصرف إلى بولس، وكشف له طريق الحق.

كان المرقيونيون من أكثر الزهاد صرامة، إذ كانوا يمتنعون عن الزواج والجسد والخمر، حيث كان الأخير مستبعداً من سر القربان المقدس. كما أنهم

ص 249

ابتهجوا أكثر من جميع الطوائف الأخرى بعدد شهدائهم. كما قدم لنا المرقيونيون اللقب كريستوس. أقدم نقش مسيحي مؤرخ. تم اكتشافه فوق مدخل منزل في قرية سورية، وكانت في السابق تشير إلى موقع دار اجتماعات أو كنيسة مرقيونية، والتي كانت تسمى بشكل غريب كنيسًا. التاريخ هو 1 أكتوبر 318 ميلادي، وأبرز ما يميز هذا التاريخ هو أن الكنيسة كانت مخصصة لـ "الرب والمخلص يسوع، الصالح" - Chrēstos وليس Christos. في العصور القديمة، يبدو أنه كان هناك الكثير من الالتباس بين اللقبين. كريستوس (Christos) هو الاسم اليوناني للمسيا العبري، الممسوح، وكان اللقب الذي استخدمه أولئك الذين اعتقدوا أن يسوع هو المسيا اليهودي. وقد تم إنكار ذلك، ليس فقط من قبل المرقيونيون، ولكن أيضًا من قبل العديد من أسلافهم وخلفائهم الغنوصيين. استُخدم لقب Chrēstos للدلالة على الشخص الكامل، أو القدوس، أو الولي؛ ولا شك أن الأرثوذكس في الأيام اللاحقة، الذين أصبحوا وحدهم من يحررون النصوص، قاموا عن جهل تام بتغيير Chrēstos إلى Christos أينما ورد؛ وهكذا، بدلاً من إيجاد وعد الكمال في التاريخ الديني لجميع الأمم، قاموا بحصره في التقاليد اليهودية وحدها، ووجهوا ضربة قاضية لعالمية التاريخ والعقيدة.

كان هناك بطبيعة الحال عدد من المدارس الفرعية لمدرسة مرقيون، وكان في صفوفها عدد من المعلمين المتميزين، ومع ذلك، ليس لدينا مساحة إلا للإشارة إلى أبيليس.

ص 250

أبيليس

تسامحه الواسع. إننا ندين بأكثر معلوماتنا موثوقية عن هذا الغنوصي إلى شخص يدعى رودون، الذي عارض آراءه في وقت ما في عهد كومودوس (180-193 م)؛ ولحسن الحظ، تم حفظ مقتطف من هذا "الرد" المفقود لنا بواسطة يوسابيوس. في ذلك الوقت كان أبيليس رجلاً مسناً جداً ورفض الجدل، قائلاً إن جميع المؤمنين المخلصين سينجون في النهاية، مهما كانت لاهوتهم - وهي عقيدة مستنيرة للغاية وجديرة بأفضل ما في الغنوصية. كما يقول هورت: "إن الصورة التي يقدمها رودون دون قصد عن شيخوخته [أبيليس] ممتعة للنظر إليها". نرى رجلاً لا يكلّ في سعيه وراء الحقيقة، خجولاً ومتسامحاً، متمسكاً بمعتقدات لم يستطع التوفيق بينها، ولكنه حريص على الحفاظ على الطابع الأخلاقي لعلم اللاهوت.

يبدو أن أبيليس قد اتخذ موقفاً أقل حصرية من مرقيون، على الرغم من أن كتابه "الحجج"، الموجه ضد اللاهوت الموسوي، يبدو أنه كان متطرفاً

بما فيه الكفاية؛ ويقول يوسابيوس أيضاً إنه كتب "عدداً كبيراً من الكتب" من نفس النوع.

فيلومين. ومع ذلك، فقد تعرض للمساءلة بشكل خاص بسبب إيمانه بقدرة الاستبصار لدى فيلومين معينة، والتي التقى بها في شيخوخته. تم تسجيل رؤاها في كتاب بعنوان "التجليات"، والذي كان أبيليس يولي له أهمية كبيرة. الغريب في الأمر أن الرجل الذي يصب عليه أكبر قدر من الإساءة بسبب هذا، مصحوبًا

ص 251

بالاتهامات المعتادة بالانحلال الأخلاقي، هو ترتليان، الذي يعترف في رسالته الخاصة "عن النفس"، متبعًا قناعاته المونتانية، بإيمانه الكامل بالقوة النبوية لعراف معين من جماعته، بطريقة مسلية وساذجة للغاية! على النقيض من ذلك، يقول رودون، الذي عرف أبيليس شخصيًا في الإسكندرية، إن الرجل العجوز كان يعتقد أنه محمي من مثل هذه التلميحات المغرضة، بسبب سنه وسمعته المعروفة.

يبدو أن فيلومين قد تمتعت ببعض القدرات النفسية، وأنها كانت أيضًا "وسيطة" للظواهر المادية، كما يقول الروحاني الحديث. كانت تنتمي إلى فئة النساء القديسات أو "العذارى"، اللواتي كن كثيرات العدد في الكنيسة الأولى، على الرغم من أنه من المشكوك فيه للغاية ما إذا كانت أي منهن عرافات مدربات، إلا في الدوائر الغنوصية الأكثر تقدماً.

يوجد سرد مسلي عن فيلومين في مقطع غريب لمؤلف مجهول، والذي طُبع في الطبعات الأولى من كتاب أوغسطين "عن الهرطقات"، في القسم المخصص للسيفيريين. فيما يلي ترجمة هورت للمقطع:

"كان [أبيليس] يقول أيضًا إن فتاة معينة تدعى فيلومين كانت موحى إليها إلهيًا رؤاها. للتنبؤ بالأحداث المستقبلية." كان يلجأ إليها ليخبرها بأحلامه واضطرابات عقله، وليحذر نفسه سراً من خلال تنبؤاتها أو إشاراتها. [يبدو أن بعض الكلمات مفقودة هنا.] وقال: "إن نفس الشبح قد ظهر لنفس فيلومين في صورة صبي. هذا الصبي الظاهر كان يعلن أحياناً أنه المسيح، وأحياناً أنه

ص 252

بولس. من خلال استجواب هذا الشبح، كانت تقدم الإجابات التي كانت تنطق بها لسامعيها. وأضاف أنها كانت معتادة على القيام ببعض العجائب، وكان أبرزها ما يلي: كانت تدخل رغيف خبز كبير في إناء زجاجي ذي فوهة صغيرة جداً، وتخرجه دون أن يصيبه أي أذى بأطراف أصابعها؛ وكانت تكتفي بهذا الطعام وحده، كما لو أنه قد أُعطي لها من السماء.

كل ذلك يتسم بطابع رهباني وروحاني للغاية، ويتماشى تماماً مع سجلات الظواهرية.

ومع ذلك، ينبغي أن نتذكر أن هذا السرد ليس من جانب الغنوصيين، بل من مصدر غير ودود. ربما لن نعرف أبدًا ما إذا كان أبيليس على دراية بمصادر الظواهر التي شهدها؛ أو أنه، مثل الغالبية العظمى من ذلك الوقت، كما هو الحال في جميع الأوقات، افترض بجهل أن حقيقة القوى النفسية تثبت صحة العقائد اللاهوتية.

ص 253

الغنوص الباسيليدي.

لنعد الآن إلى السنوات الأولى من القرن الثاني، ولنكرس اهتمامنا لباسيليدس وكتاباته. باسيليدس وأتباعه ("أتباع باسيليدس") الذين وضعوا أحد أكثر أنظمة الغنوص غموضًا واتساقًا، والتي يمكن استخلاص ملامحها بوضوح من الشظايا المشوشة التي تركتها لنا الجدالات الآبائية.

لا نعرف شيئاً عن حياة هذا الطبيب العظيم في الغنوص سوى أنه كان يُدرّس في الإسكندرية. تاريخه تخميني تمامًا؛ ومع ذلك، يُفترض عمومًا أنه كان قبل فالنتينوس مباشرة. لذلك، إذا قلنا أنه ازدهر في مكان ما حوالي عام 120-130 ميلادي، فيجب أن يُفهم أنه يجب السماح بهامش عشر سنوات أو نحو ذلك في كلا الاتجاهين. أما عن جنسيته فلا نعرف عنها شيئاً. لكن سواء كان يونانيًا أو مصريًا أو سوريًا، فقد كان متعمقًا في الثقافة الهيلينية، وتعلم من حكمة المصريين. وكان أيضًا ملمًا جيدًا بالكتب العبرية كما وردت في النسخة اليونانية من السبعين. كان تعليم الإنجيل مصدر سعادته، وقد كتب ما لا يقل عن أربعة وعشرين كتابًا من التعليقات عليه، على الرغم من أنه لا يبدو أنه استخدم النسخ القانونية اللاحقة. كما أنه يقتبس من عدة رسائل بولسية.

كانت أهم كتابات باسيليدس هي التعليقات التي سبق ذكرها؛ فقد كانت أول تعليقات على تعاليم الإنجيل كتبها فيلسوف مسيحي؛ وفي هذا،

ص 254

كما هو الحال في جميع فروع اللاهوت الأخرى، كان الغنوصيون روادًا. ويُقال أيضاً أن باسيليدس كتب إنجيلاً بنفسه، وادعى أنه تلميذ لشخص يُدعى غلاوكياس، الذي كان "مترجماً لبطرس". كما ورد ذكر بعض تقاليد ماتياس، التي تحظى باحترام كبير من قبل المدرسة. زعمت هذه التعاليم أنها أُعطيت لماتياس سراً من قبل يسوع بعد "القيامة". لذلك، يمكن افتراض أن إنجيل باسيليدس لم يكن سياقًا تاريخيًا جديدًا لأقوال الرب، بل كان شرحًا لتلك "المعرفة بالأمور الخارقة للطبيعة"، وهو التعريف الذي أعطاه للإنجيل. من المفترض أن باسيليدس كتب تعليقًا على أقوال وأفعال الرب، والتي كانت متداولة بشكل عام في العديد من التقاليد، سواء مع أو بدون السياقات التاريخية المختلفة؛ وكذلك شرحه الخاص لبعض التعليمات الباطنية التي تم تناقلها من خلال تقليد سري. إن ما إذا كان هذا الإنجيل الباطني يشكل جزءًا من الكتب الأربعة والعشرين من كتابه التفسيري أمر مشكوك فيه؛ ومع ذلك، فإن معظم النقاد يؤيدون هذا الرأي. على أي حال، من المفترض أن تعليقاته كانت تهدف إلى شرح الأقوال والأمثال العامة في ضوء هذا الإنجيل السري. لكن هناك فرضية أخرى، إذا كانت صحيحة، فستكون ذات أهمية بالغة. ويُقترح أن ماتياس، أحد رؤساء المدارس الباطنية، هو من كتب المسودة الأصلية للأقوال والأفعال التي تستند إليها رواياتنا الإنجيلية، وأن هذه الروايات كانت عبارة عن توسعات من قبل قساوسة مختلفين من الكنائس الخارجية في مصر. من المفترض أن المسودة الأصلية

ص 255

كانت سيرة ذاتية مخصصة للتداول العام، ومصممة لتكون قابلة للتفسير وفقًا للمبادئ الباطنية للغنوص.

ويُقال أيضاً أن باسيليدس قد كتب بعض القصائد، ولكن لم يصلنا أي جزء منها.

مصادرنا الرئيسية للمعلومات لاستعادة مخطط الغنوص الباسيليدي هي ثلاثة، مصادر معلوماتنا. وتتألف من اقتباسات مجزأة للغاية: (أ) من هيبوليتوس في عمله اللاحق، "الفيلسوفومينا"؛ (ب) من كليمنت الإسكندري في "مختاراته"؛ و(ج) يُفترض في المقام الأول (إما من "مخطوطة جاستن" المفقودة أو) من العمل المفقود لأغريبا كاستور، الذي قال يوسابيوس إنه كتب ردًا على آراء باسيليدس في عهد هادريان (حوالي 133 م)، والذي نُسخت بياناته غير المرضية وغير الدقيقة من قبل إيرينيئوس، وملخصي العمل السابق الأصغر حجمًا والمفقود الآن لهيبوليتوس.

بالانتقال إلى العمل العظيم لهيبوليتوس، نجد أهم المعلومات الموجودة لإعادة بناء هذا النظام الميتافيزيقي للغاية. من الواضح أن أحد آباء الكنيسة كان لديه رسالة من باسيليدس، ولكن ما إذا كانت هي كتاب التفسير أم لا، فليس من الواضح على الإطلاق؛ ومع ذلك، فإن المؤكد هو أنها عرضت الإنجيل، أو "معرفة الأمور المتعالية"، كما فهمها باسيليدس؛ ولا يسعنا إلا أن نأسف لعدم وجود النص الأصلي للطبيب الغنوصي نفسه بين أيدينا، بدلاً من نسخة معيبة للغاية من نص دحض آباء الكنيسة، والذي يعد أسلوبه من أكثر الأساليب إثارة للجدل. يخلط هيبوليتوس شروحاته وانتقاداته باقتباسات مشوهة،

ص 256

ويلخص بشكل غير كامل مقاطع مهمة تتناول مفاهيم تتطلب أقصى درجات الدقة والبراعة في اللغة؛ وفي جوانب أخرى لا ينصف مفكراً كان إيمانه بالمسيحية عظيماً لدرجة أنه، بدلاً من حصرها في حدود ضيقة من اللاهوت العقائدي، كان يرى أن الإنجيل أيضاً فلسفة عالمية تفسر الدراما العالمية بأكملها.

فلنرفع إذن أفكارنا إلى تلك الآفاق السامية التي ارتقى إليها عبقرية باسيليدس منذ قرون عديدة، عندما كان الإيمان بالإمكانيات العالمية للبشارة السارة حياً بالفعل. وأول ما يجب علينا فعله هو الارتقاء إلى ذلك الحدس المذهل للألوهية، الذي يتجاوز حتى الوجود، والذي يبدو للعقول الضيقة للأرض مجرد لا شيء، بدلاً من أن يكون هو ما يفتقر إلى كل كمال. ما وراء الزمان، ما وراء المكان، ما وراء الوعي، ما وراء الوجود نفسه--

اللاهوت ما وراء الكينونة ".كان هناك وقت لم يكن فيه شيء؛ بل حتى ذلك "العدم" لم يكن شيئًا من الأشياء الموجودة [حتى في عالم الواقع]. لكن بصراحة، وبغض النظر عن التخمينات والجدالات العقلية، لم يكن هناك على الإطلاق الواحد [لوغوس عالم الواقع]. وعندما أستخدم مصطلح "كان"، لا أقصد أن أقول أنه كان [أي في أي حالة من حالات الوجود]؛ ولكن فقط لإعطاء بعض الإيحاءات عما أريد الإشارة إليه، فأنا أستخدم عبارة "لم يكن هناك شيء على الإطلاق". لأن ذلك "العدم" ليس مجرد ما يسمى بما لا يوصف؛ إنه يتجاوز ذلك. لأن ما هو حقاً لا يوصف لا يُسمى "لا يوصف"، ولكنه أسمى من كل اسم يُستخدم.

ص 257

"إن الأسماء [التي نستخدمها] ليست كافية حتى للكون [المتجلي] [الذي يقع خارج عالم الوجود الحقيقي]، فهو متنوع للغاية؛ إنها قاصرة."

ويواصل القول إنه من غير الممكن إذن إيجاد أسماء مناسبة لكائنات عالم الواقع وعملياتها؛ وبالتالي، من المستحيل إطلاق أسماء على ما يتجاوز الواقع نفسه. وهكذا نرى أن باسيليدس قد تجاوز حتى العالم المثالي لأفلاطون، وصعد إلى الحدس الذي لا يمكن تجاوزه للشرق - ذلك الشيء الذي لا يمكن تسميته، والذي يُعبد في صمت فقط.

ننتقل بعد ذلك إلى بداية بذرة العالمية، في هذه الحالة التي تتجاوز الوجود، عالمية تتجاوز الوجود. وهي مرحلة منفصلة، إن صح التعبير، تتجاوز حتى العالم غير المتجلي أو العالم الظاهر.

يلخص هيبوليتوس حالة العدم هذه، التي تتجاوز كل الوجود، من الرسالة الأصلية على النحو التالي.

"لم يكن هناك شيء، لا مادة، لا جوهر، ولا فراغ الجوهر، ولا بساطة، ولا استحالة التركيب، ولا عدم التصور، ولا عدم الإدراك، ولا إنسان، ولا ملاك، ولا إله؛ باختصار، لا شيء على الإطلاق وجد له الإنسان اسمًا، ولا أي عملية تقع ضمن نطاق إدراكه أو تصوره." هكذا، أو بالأحرى أبعد بكثير عن قدرة الإنسان على الفهم، كانت حالة العدم، عندما [إذا كان بإمكاننا الحديث عن "متى" في حالة تتجاوز الزمان والمكان] أراد الإله الذي يتجاوز الوجود، دون تفكير أو شعور أو تحديد أو اختيار أو

ص 258

إجبار أو رغبة، أن يخلق الكونية.

يكتب باسيليدس: "عندما أستخدم مصطلح "الإرادة"، فإنني أفعل ذلك لمجرد الإشارة إلى فكرة عملية تتجاوز كل إرادة أو فكر أو فعل معقول". وهذه الشمولية أيضاً لم تكن كوننا متعدد الأبعاد والمتمايز، الذي ظهر لاحقاً وانفصل [عن الأكوان الأخرى]، بل كانت بذرة جميع الأكوان".

من الواضح أن هذا هو نفس مفهوم مولا براكريتي في الفلسفة الهندية، وهو البيان الأكثر إثارة للإعجاب لعقيدة "الخلق من العدم" التي طرحها أي فيلسوف مسيحي.

"هذه البذرة العالمية تحتوي على كل شيء في حد ذاتها، بشكل محتمل، بطريقة ما مثل حبة الخردل التي تحتوي على الكل في وقت واحد في أدق نقطة - الجذور، والساق، والفروع، والأوراق، والجراثيم التي لا تعد ولا تحصى والتي تأتي من بذور النبات، والتي بدورها تنتج نباتات أخرى وأخرى في سلاسل متعددة.

"وهكذا خلقت الألوهية التي تتجاوز الوجود الكونية التي تتجاوز الوجود من عناصر تتجاوز الوجود، واضعةً ومسببةً وجود شيء واحد" - وهو ما يجبرنا فقر اللغة على تسميته بذرة، ولكنه كان في الحقيقة إمكانية الإمكانيات، حيث كان "يحتوي في حد ذاته على كل إمكانية البذرة في الكون". من مثل هذه "البذرة"، التي هي في كل مكان ولا مكان، والتي تخبئ في أحضانها كل ما كان أو هو أو سيكون، يجب أن تظهر كل الأشياء

ص 259

في "طبائعها ودوراتها" وأوقاتها الخاصة، بإرادة الإله الذي يتجاوز كل شيء. كيفية حدوث ذلك ليست واضحة بأي حال من الأحوال. Basilides seems to have had

فكرة ما عن "التنمية التكميلية" (κατὰ διδάζην αὐξανόμενα)، والتي، مع ذلك، خارجة عن التعريف؛ هناك شيء واحد واضح، وهو أنه رفض تمامًا كل فكرة عن الانبثاق أو الإسقاط أو السحب (προβονή).

"فما نوع الانبثاق الذي نحتاجه، أو ما نوع المادة التي يجب أن نفترضها، من العدم، حتى يخلق الله الكون، كما ينسج العنكبوت خيوطه [من نفسه]، أو كما يأخذ الإنسان الفاني النحاس أو الخشب أو غيرها من المواد ليصنع منها شيئًا؟ لكن "تكلم فكان"، وهذا هو معنى قول موسى: "لِيَكُنْ نُورٌ" فَكَانَ نُورٌ". من أين إذن جاء النور؟ من العدم. لأنه لم يُكتب من أين، بل فقط من صوت المتحدث بالكلمة. والذي تكلم بالكلمة لم يكن موجوداً، وما كان موجوداً لم يكن موجوداً. بالنسبة لبذرة الكون، فإن الكلمة التي قيلت، "ليكن نور"، كانت من حالة تتجاوز الوجود. وهذا ما قيل في الإنجيل: "كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى الْعَالَمِ." يستمد الإنسان مبادئه من تلك البذرة، كما يستنير بها أيضاً. هذا النور والحياة البدائيان هما مصدر كل شيء.

وتتناول المرحلة التالية النتيجة، أو الثمار الأولى، أو أعلى نتاج، أو أسمى اكتمال، للإمكانات الكونية، والتي يسميها باسيليدس بالبنوة.

ص 260

البنوة ".في البذرة المطلقة كانت هناك بنوة ثلاثية من كل النواحي متجانسة مع الإله الذي يتجاوز الوجود، آخذة إلى الوجود من حالة تتجاوز الوجود. من بين هذه البنوة المنقسمة إلى ثلاثة أقسام، كان أحد الجوانب هو الأكثر دقة من بين الجوانب الدقيقة، وجانب آخر أقل دقة، وجانب ثالث لا يزال بحاجة إلى التطهير. انفجرت الطبيعة الأكثر دقة للبنوة على الفور ومباشرة، جنبًا إلى جنب مع إيداع بذرة العالمية من قبل الإله الذي يتجاوز الوجود، وارتفعت عاليًا، وسارعت من الأسفل إلى الأعلى، "مثل الجناح أو الفكر"، كما يغني هوميروس، وكانت معه الذي يتجاوز الوجود [πρὸς τὸν οὐκ ὄντα - "مع"، وهي نفس الكلمة التي استخدمها حرف الجر الغامض في المقدمة التي أضيفت الآن إلى الإنجيل القانوني الرابع]. لأن كل طبيعة تسعى إليه بسبب تجاوزه لكل جمال وروعة، ولكن بعضها بطريقة والبعض الآخر بطريقة أخرى.

"أما الطبيعة الأقل دقة للبنوة، من ناحية أخرى، فقد ظلت داخل البذرة العالمية؛ لأنه على الرغم من أنها كانت ستحاكي الأعلى وتصعد، إلا أنها لم تستطع، لأنها كانت أقل من درجة دقة البنوة الأولى، التي صعدت من خلالها [الثانية]، ولذلك بقيت في الخلف. وعليه، كان على البنوة الأقل دقة أن تجد لنفسها أجنحة تحلق بها، ... وهذه الأجنحة هي الروح القدس.

فكما أن الطائر لا يستطيع الطيران بدون أجنحة، والأجنحة لا تستطيع التحليق بدون الطائر، كذلك فإن البنوة الثانية والروح القدس يكملان بعضهما البعض، ويمنحان فوائد متبادلة لبعضهما البعض.

ص 261

نرى هنا أن باسيليدس يتناول الجانب الثاني من اللوغوس، وهو حالة الإيجابية والسلبية؛ كما ندرك أيضاً استباقاً لأرضية الجدالات الكبرى التي نشأت لاحقاً بعد أجيال، مثل الأريوسية ونظرية الوريث للآب والابن. لكن إذا سألنا من أين جاء الروح القدس، فسيخبرنا باسيليدس أنه من البذرة الكونية، التي انبثقت منها كل الأشياء بإرادة الإله.

"إن البنوة الثانية، إذًا، محمولة بالروح، كما يحمل الجناح، تحمل الجناح، الروح القدس.أي الروح؛ ولكن عند اقترابها من البنوة الأولى والإله الذي يتجاوز الوجود، الذي يخلق من حالة تتجاوز الوجود، لم تعد قادرة على الاحتفاظ بالروح معها، لأنها [الروح] لم تكن من نفس جوهرها، ولم تكن لها طبيعة مثل طبيعة البنوة. ولكن كما أن الجو النقي والجاف غير طبيعي وضار للأسماك، كذلك كانت حالة البنوة مع الله الذي يتجاوز الوجود بالنسبة للروح القدس - تلك الحالة التي لا توصف أكثر من كل ما لا يوصف وتتجاوز كل اسم.

"لذلك، تركت البنوة الروح القدس خلفها بالقرب من ذلك المكان المبارك، الذي لا يمكن تصوره ولا وصفه بأي كلمة، ولكنه ليس مهجورًا تمامًا ولا منفصلًا عن البنوة. لكن حتى عندما يُسكب أطيب مرهم في وعاء، حتى لو تم إفراغ الوعاء منه بأقصى قدر من العناية، فإن بعض رائحة المرهم تبقى وتظل عالقة - يحتفظ الوعاء برائحة المرهم، على الرغم من أنه لم يعد يحتوي على المرهم نفسه - بهذه الطريقة

ص 262

ظل الروح القدس فارغًا ومنفصلًا عن البنوة، ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ في نفسه كما لو كان بقوة المرهم، ورائحة البنوة. وهذا هو القول: "مثل المرهم الذي كان على الرأس والذي سال إلى لحية هارون" - رائحة الروح القدس التي تتخلل من الأعلى والأسفل حتى تصل إلى اللا شكل [المادة الخام] وحالة وجودنا، ومن هنا تلقت البنوة [المتبقية] أول دفعة لها للصعود، محمولة كما لو كانت على أجنحة نسر. فكل الأشياء تتسارع من الأسفل إلى الأعلى، من الأسوأ إلى الأفضل، ولا يوجد شيء في حالة أفضل يفتقر إلى الذكاء لدرجة أن يهوي إلى الأسفل. لكن حتى الآن لا تزال هذه البنوة الثالثة موجودة في التكتل الكبير لخليط البذور، تمنح وتتلقى الفوائد،" بطريقة سيتم شرحها لاحقًا.

إن الروح القدس، التي تتخلل كل شيء في الواقع، ولكنها تفصل ظاهريًا الكون المحسوس عن العالم غير المرئي، تشكل ما يسميه باسيليدس الروح الحدية، في منتصف الطريق بين الأشياء الكونية وما فوق الكونية. هذه السماء أبعد بكثير من السماء المرئية التي يقع مسار القمر حولها.

الحاكم العظيم ".بعد ذلك، من البذرة الكونية ومزيج البذور انبثق الحاكم العظيم، رأس الكون المحسوس، بجمال وعظمة وقوة لا يمكن لأي شيء أن يدمرها. هذا هو الديميورج؛ ولكن لا يظن أي بشري أنه يستطيع أن يفهم مثل هذا الكائن العظيم، "لأنه أكثر مما يوصف، وأكثر قوة من القوى، وأكثر حكمة من الحكماء،

ص 263

وأعلى من كل فضيلة يمكن للمرء أن يسميها.

"عندما وُجد، رفع نفسه عالياً، وحلق إلى أعلى، وحُمل في كل مكان حتى وصل إلى السماء العظيمة. وبقي هناك، لأنه اعتقد أنه لا يوجد أحد فوقه، وهكذا أصبح أقوى قوة في الكون، باستثناء الابن الثالث الذي بقي في خليط البذور. لذلك، كان حده هو جهله بالفضاءات الكونية الفائقة، على الرغم من أن حكمته كانت الأعظم على الإطلاق في العوالم الكونية.

"وهكذا ظن نفسه سيداً وحاكماً وبانياً حكيماً، فانطلق إلى خلق مخلوقات الكون."

هذا هو الخلق الفائق للسماء أو الأثيري، والذي له نظير مادي في الفضاءات الواقعة وراء القمر؛ أسفل القمر كان عالمنا و"غلافه الجوي". هذا الغلاف الجوي (المناطق تحت القمرية) ينتهي عند السماء المرئية، أو القبة السفلى، محيطها، الذي يتميز بمسار القمر. في فضاء الشمس تقع العوالم الأثيرية، التي يبدو أن أي عين بشرية لم ترها، بل مجرد انعكاس لسكانها، النجوم، على سطح المياه القمرية للفضاء.

إن الخلق الأثيري للحاكم الأعظم يقوم على نظرية التشابه والقياس.

"أولاً وقبل كل شيء، الحاكم العظيم، إذ رأى أنه ليس من الصواب أن يكون وحيداً، الخلق الأثيري. خلق لنفسه، وأوجد من البذرة الكونية، ابناً أفضل منه بكثير وأكثر حكمة. فقد كان كل هذا

ص 264

قد تم تحديده مسبقاً من قبل الإله الذي يتجاوز الوجود، عندما أودع البذرة الكونية.

"ولما رأى الحاكم العظيم ابنه، انتابه شعور بالدهشة والمحبة والإعجاب بجماله العظيم الرائع، فأجلسه عن يمينه." وهذا المكان حيث يوجد عرش الحاكم العظيم الذي أطلقوا عليه اسم الأجدود: المملكة "الثامنة". "وقام الديميورجوس العظيم، الحكيم، بصنع الخلق الأثيري بأكمله بيده؛ ولكن ابنه، الذي كان أكثر حكمة، هو الذي ضخ الطاقة فيه وأوحى إليه بالأفكار."

أي أن الحاكم الأعظم خلق مخلوقات الفضاءات الأثيرية، وهذه تطورت نفوسها، أو بالأحرى تم إضفاء النفس عليها. وهكذا يكون الابن، كما لو كان، أعظم من الأب، ويجلس على يمينه، أو فوقه؛ فاليد اليمنى في الرمزية الغنوصية تدل على حالة أعلى. كما أنهما يمنحان فوائد متبادلة، حيث يمنح أحدهما الجسد والآخر العقل أو النفس للكائنات الأثيرية. إذن، فإن جميع الفضاءات الأثيرية، وصولاً إلى القمر، يتم توفيرها وإدارتها من قبل ابن الحاكم العظيم، وهو تمام أو كمال تطوره أو خلقه.

الفضاءات تحت القمرية."ثم ظهر حاكم ثانٍ من البذرة الكونية، أدنى بكثير من الأول، ولكنه أعظم من كل من هم أدنى منه، باستثناء البنوة التي لا تزال باقية في البذرة. كان هذا حاكم الفضاءات تحت القمرية، من القمر إلى الأرض. يُطلق على هذا الحاكم اسم "الحاكم الذي يمكن وصفه"، لأن الناس يستطيعون التحدث عنه بفهم، والمساحة التي يحكمها تسمى "هيبدمد". والحاكم الثاني أيضًا "أنجب

ص 265

ابنًا أعظم منه بكثير من البذرة الجامعة، على غرار الأول"، وتم تنظيم الخليقة الأدنى بنفس طريقة تنظيم الخليقة الأعلى. يبدو أن هذا الخلق الأدنى لا يزال من المادة الدقيقة.

أما بالنسبة للأرض، فإن تجمع خليط البذور لا يزال في مرحلتنا أو فضائنا، والأشياء التي تحدث في هذه الحالة من الوجود، "تحدث وفقًا للطبيعة، كما لو أنها قد تم التعبير عنها في المقام الأول من قبل من خطط للوقت والشكل والطريقة المناسبة للتعبير عن الأشياء التي كان من المفترض أن يتم التعبير عنها. إذن، ليس للأشياء الموجودة هنا على الأرض رئيس أو مدير أو خالق خاص، لأن الخطة التي وضعها الله عند إيداعه البذرة الكونية كافية لها."

أي أن المرحلة الأرضية هي اللحظة الفاصلة بين الماضي والمستقبل، ونقطة تحول كل اختيار، ومجال الكارما الجديد؛ هنا كل شيء في يد الله وحده، بالمعنى الأسمى. وهكذا يتجنب باسيليدس صعوبات كل من القدر والإرادة الحرة المطلقة.

ننتقل الآن إلى علم الخلاص عند باسيليدس، أي فداء واستعادة كل الأشياء.

"عندما اكتملت المستويات الكونية الفائقة والكون بأكمله [الأثيري والقمري والأرضي]، علم الخلاص. ولم يكن هناك نقص،" أي عندما بدأ التيار التطوري للطاقة الإبداعية في العودة إلى نفسه، بقيت في البذرة الكونية البنوة الثالثة، التي تمنح وتتلقى الفوائد.

"ولكن لا بد من أن تتجلى هذه البنوة أيضًا،

وأن تعود إلى مكانتها العليا، هناك وراء أعلى سماء، الروح المحدودة للكون، مع البنوة الأكثر دقة، والثانية التي اتبعت مثال رفيقتها، والإله الذي يتجاوز الوجود، كما هو مكتوب: "والخليقة نفسها تئن وتتمخض معًا، منتظرة ظهور أبناء الله" - البنوة الثالثة.

إن أبناء الله هم الشرارات الإلهية، الرجال الروحيون الحقيقيون في الداخل، الذين تُركوا هنا في خليط البذور، "الترتيب وإرشاد وتصحيح وتكميل نفوسنا، التي لديها ميل طبيعي نحو الأسفل للبقاء في هذه الحالة من الوجود".

قبل أن يُبشر بالإنجيل، وقبل ظهور الغنوص، كان الحاكم العظيم للأجدود: المملكة "الثامنة" يُعتبر حتى من قبل أكثر الناس روحانية هو الإله الوحيد، ومع ذلك لم يُطلق عليه اسم، لأنه كان لا يوصف.

إلا أن إلهام موسى جاء من هيبدمد فقط، كما يتضح من الكلمات: "وَأَنَا ظَهَرْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِأَنِّي الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَأَمَّا بِاسْمِي «يَهْوَهْ» فَلَمْ أُعْرَفْ عِنْدَهُمْ". هذا الإله الذي أطلق عليه موسى والأنبياء أسماءً، كان من هيبدمد، وهو ما يمكن التعبير عنه، وقد جاء إلهامهم من هذا المصدر. لكن الإنجيل كان ذلك السر الذي ظل مجهولاً على الدوام، ليس فقط للأمم، ولكن أيضاً لـ هيبدمد والأجدود: المملكة "الثامنة"، وحتى لحكامهم.

"لذلك، عندما حان الوقت،" يقول

الطبيب الغنوصي، "الإعلان أبناء الله (الذين هم نحن)، الذين الإنجيل الصوفي. تتألم الخليقة كلها وتتمخض في انتظارهم، جاء الإنجيل [البشارة، الغنوصية] إلى الكون، وانتشر عبر كل رئاسة وسلطة وسيادة وكل لقب يمكن أن يستخدمه الإنسان. لقد "جاء" من الحقيقة المطلقة، وليس أن أي شيء "نزل" من الأعلى، أو أن البنوة المباركة "انفصلت" عن ذلك الإله المبارك الذي يتجاوز الوجود، والذي يتسامى على كل فكر. كلا، ولكن كما يمكن أن يشتعل بخار النفثا من لهب بعيد عن النفثا، كذلك تنتقل قوى روح الإنسان من الأسفل من حالة عدم الشكل للتكتل إلى البنوة.

"ابن الحاكم العظيم للأجدود: المملكة "الثامنة"، الذي اشتعلت فيه النيران كما لو كان، يمسك ويستحوذ على الأفكار من البنوة المباركة التي تتجاوز الروح المحدودة. لأن قوة البنوة التي هي في وسط الروح القدس، في الفضاء المحدود، تشارك الأفكار المتدفقة والمتسارعة للبنوة [العليا] مع ابن الحاكم العظيم.

وهكذا جاء الإنجيل أولاً من البنوة من خلال الابن الجالس بجانب الحاكم العظيم، إلى ذلك الحاكم؛ وتعلم الحاكم أنه ليس الإله فوق كل شيء، بل إله قابل للخلق، وأنه فوقه وُضع كنز ما لا يوصف ولا يُسمى، ذلك الذي يتجاوز الوجود والبنوة. وتاب وخاف حين أدرك مدى جهله. هذا هو معنى الكلمات: "إن مخافة الرب هي رأس الحكمة". لأنه بدأ يكتسب الحكمة من خلال

تعليم المسيح الجالس بجانبه، ويتعلم ما هو ذلك الشيء الذي يتجاوز الوجود، وما هي البنوة، وما هو الروح القدس، وما هي آلية الكون، وما هي طريقة إعادة بنائه. هذه هي "الحكمة المعلنة في سرّ"، والتي يستخدم الكتاب المقدس بشأنها الكلمات: "ليس بكلمات حكمة بشرية، بل بكلمات حكمة الروح".

"ثم اعترف الحاكم العظيم، بعد أن تم تعليمه وتثقيفه وإخافته، بالخطيئة التي ارتكبها عندما تفاخر بنفسه. هذا هو القول: "لقد عرفت خطيئتي، وأعرف ذنبي، وسأعترف به إلى الأبد".

"بعد توجيهات الحاكم العظيم، تم تعليم وتثقيف كامل فضاء الأجدود، وأصبح السر معروفًا للقوى التي تعلو السماوات.

"ثم كان من المفترض أن يأتي الإنجيل إلى هيبدمد، لكي يتم تعليم حاكمه وتبشيره بنفس الطريقة. وعندها أضاء ابن الحاكم العظيم في ابن حاكم الفضاء السفلي النور الذي كان قد أشعله هو نفسه من الأعلى من خلال البنوة؛ وهكذا استنار ابن حاكم هيبدمد، وبشر الحاكم بالإنجيل، الذي بدوره، مثل الحاكم العظيم من قبله، خاف واعترف [بخطيئته]. ثم استنارت كل الأشياء في الفضاءات الأرضية، وبُشِّرت بالإنجيل.

أبناء الله"لذلك فقد حان الوقت المناسب لإضاءة عالمنا الذي لا شكل له، وللكشف عن السر للبنوة التي تُركت وراءها في اللا شكل، كما

لو كانت مولودة قبل أوانها (إجهاض) - "السر الذي لم يكن معروفًا للأجيال السابقة"، كما هو مكتوب: "بالوحي أُعلن لي السر"، و"سمعت كلمات لا تنطق، لا يجوز للإنسان أن ينطق بها".

وهكذا، من هيبدمد، نزل النور - الذي كان قد نزل بالفعل من الأعلى من الأجدود إلى ابن هيبدمد - على يسوع ابن مريم، فأضاء، واشتعلت فيه النار في انسجام مع النور الذي تدفق إليه. هذا هو معنى القول: "سيحل عليك الروح القدس" - أي ما جاء من البنوة من خلال الروح المحدود إلى الأجدود وهيبدمد، وصولاً إلى مريم [الجسد] - و"ستظللك قوة العلي" - أي القوة الإبداعية الإلهية التي تأتي من الأعالي [الأثيرية] من خلال الديميورجوس، وهذه القوة تنتمي إلى الابن.

إن نص هيبوليتوس هنا معقد للغاية، ومن الواضح أنه لم يستوعب فكر باسيليدس. يبدو أن كلمة "الابن" تعني النَفْس. القوة تنتمي إلى النَفْس وليس إلى مريم - الجسد؛ القوة الإبداعية الإلهية التي تجعل الإنسان إلهاً، في حين أن الجسد لا يستطيع إلا ممارسة قوة التكاثر الجسدي. علاوة على ذلك، يبدو أن يسوع يمثل نموذجاً لكل عضو من أعضاء البنوة، كل ابن من أبناء الله.

"لأن العالم سيبقى متماسكاً ولن يتفكك حتى تتبع البنوة الكاملة - التي تُركت

ص 270

وراءها لتفيد النفوس في حالة انعدام الشكل، ولتتلقى المنافع، من خلال تطوير أشكال لها [الروح التي تتطلب مركبة نفسية للاتصال الواعي بهذا المستوى] - يسوع وتقتدي به، وتسرع إلى الأعلى وتخرج نقية. [لأنه بالتطهير] يصبح أكثر دقة، بحيث يكون قادراً على الارتفاع بسرعة من خلال قوته الخاصة، كما هو الحال مع البنوة الأولى؛ لأن كل قوته متحدة بشكل طبيعي مع النور الذي أشرق من الأعلى.

الخاتمة النهائية."عندما يصعد جميع أبناء الله، ويتجاوزون الحد العظيم، الروح، تصبح الخليقة كلها موضع رحمة عظيمة؛ لأنها تتأوه حتى الآن وتعاني الألم وتنتظر ظهور أبناء الله، أي أن يصعد جميع أبناء الله إلى ما وراءها [الخليقة]. وعندما يتحقق هذا، سيجلب الله على الكون كله الجهل العظيم [Mahā-pralaya]، لكي تبقى كل الأشياء في حالتها الطبيعية، ولا يشتاق أحد إلى أي شيء يخالف طبيعتها.

وهكذا تبقى جميع النفوس هذه الحالة الوجودية، التي من طبيعتها أن تبقى خالدة في هذه الحالة الوجودية وحدها، دون معرفة أي شيء مختلف أو أفضل من هذه الحالة؛ ولن يكون هناك أي إشاعة أو معرفة بأشياء أسمى في الحالات العليا، حتى لا تعاني النفوس الدنيا من الألم بالسعي وراء أشياء مستحيلة، تمامًا كما لو كانت أسماكًا تتوق إلى التغذية على الجبال مع الأغنام.

ص 271

لأن مثل هذه الرغبة ستؤدي إلى هلاكهم. كل الأشياء غير قابلة للتدمير إذا بقيت في حالتها المناسبة، ولكنها عرضة للتدمير إذا رغبت في تجاوز حدودها الطبيعية.

"وهكذا لن يكون لحاكم هيبدمد علم بالأمور التي تعلو عليه، لأن الجهل العظيم سيستحوذ عليه أيضاً، حتى يزول عنه الحزن والألم والندم. لن يرغب في شيء مستحيل عليه تحقيقه، وبالتالي لن يعاني من أي حزن.

"وبالمثل ستسيطر الجاهلية العظيمة على الحاكم العظيم للأجدود، وكذلك على جميع المخلوقات [الأثيرية] الخاضعة له بنفس الطريقة، بحيث لا يتوق شيء إلى أي شيء مخالف للطبيعة ويعاني من الألم.

"وهكذا ستكون عودة كل الأشياء، التي تم وضع أسسها وفقًا للطبيعة في بذرة الكون في البداية، والتي ستعود جميعها [إلى طبيعتها الأصلية] في دوراتها المحددة.

"ولكل شيء دورته ووقته المناسبين، فإن المخلص شاهد كافٍ في قوله: "لم تأتِ ساعتي بعد"، وكذلك المجوس في مراقبتهم لنجمه." لأنه قد سبق أن قُدِّر له في البذرة أن يخضع لميلاد النجوم وعودة الأزمنة إلى أماكن بدايتها.

أما المخلص، وفقًا الغنوص الباسيليدي، فهو "الإنسان" الروحي الكامل، داخل

ص 272

النفسية و الإنسان الحيواني أو النفس. وعندما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الكمال، فإن البنوة فيه تترك النفس وراءها هنا، "فالنفس لم تعد فانية بل تبقى في حالتها الطبيعية [أي أصبحت خالدة]، تمامًا كما تركت البنوة الأولى الروح القدس، الحد الأعظم، في مكانها أو منطقتها المناسبة"؛ لأنه عند بلوغ الكمال فقط، يكون "الإنسان" الحقيقي "ملبسًا بنفس مناسبة [وخالدة حقًا]".

يسوع. كل جزء من الخليقة يرتقي مرحلة، ويتم تنفيذ خطة الخلاص بأكملها من خلال فصل المبادئ المختلفة عن حالتها المتكتلة إلى حالاتها المناسبة؛ وكان يسوع هو باكورة هذه العملية، أو المثال العظيم لها.

"وهكذا عانى الجزء المادي منه هنا - الذي ينتمي إلى المادة عديمة الشكل - وحده، وعاد إلى الحالة عديمة الشكل." ظهر لباسه أو مركبته النفسية - التي تنتمي إلى هيبدمد - وتمت إعادتها إلى هيبدمد. ذلك المركب الذي كان فيه والذي كان من طبيعة عظمة الحاكم العظيم رفعه عالياً، وبقي مع الحاكم العظيم. وعلاوة على ذلك، فقد رفع إلى أعلى من ذلك ما كان من طبيعة الحد الأعظم، وبقي في الروح المحدودة. وهكذا، من خلاله تم تطهير البنوة الثالثة، البنوة التي تُركت في حالة الاختلاط [أو النجاسة] لغرض المساعدة والاستعانة بها، ثم صعدت عبر كل هذه المبادئ المطهرة إلى البنوة المباركة في الأعلى.

ص 273

الفكرة الرئيسية الكامنة وراء هذا النظام هي فصل أو تصنيف أو استعادة العناصر أو المبادئ المختلفة المختلطة في بذرة العالم الأصلية، أو البلازما الكونية، إلى طبيعتها الصحيحة، من خلال عملية تنقية جلبت للبشر الغنوص أو كمال الوعي. كان الإنسان تاج عملية العالم،

والإنسان الكامل، المسيح، المخلص، كان تاج البشرية، وبالتالي مظهر الألوهية، البنوة.

حتى الآن، هيبوليتوس، الذي من المرجح أن يقدم لنا الخطوط العريضة للنظام الباسيليدي الحقيقي. لم يتم نشر كتاب الفيلسوفومينا للعالم إلا في عام 1851، بعد اكتشاف المخطوطة في إحدى المكتبات في جبل آثوس عام 1842؛ قبل ذلك لم يكن معروفًا عن تأملات هذا الغنوصي العظيم سوى الرسومات القصيرة والمشوشة لإيرينيئوس وكتاب الملخصات. لقد أحدث الفيلسوفومينا ثورة في جميع الآراء السابقة، وغير البحث بأكمله، بحيث أصبحت تحريفات إيرينيئوس، أو تلك المتعلقة بسلطته السابقة، يشار إليها الآن باسم "نظام باسيليدي الزائف". سنتطرق إلى هذا الأمر لاحقاً. في هذه الأثناء دعونا ننتقل إلى كليمنت الإسكندري، الذي يتعامل بشكل بحت مع الجانب الأخلاقي من الغنوص الباسيليدي، وبالتالي لا يتطرق إلى الجزء "الميتافيزيقي" - باستخدام مصطلح "الميتافيزيقي" بالمعنى الأرسطي، أي الأشياء التي تتجاوز هيبدمد، حيث تسمى أشياء هيبدمد أو الفضاء تحت القمري "الفيزياء" أو في مجال الطبيعة.

أما فيما يتعلق بالزواج، فقد علم باسيليدس وابنه إيسيدور

ص 274

أن الزواج أمر طبيعي ولكنه ليس ضرورياً، ويبدو أنهما اتخذا موقفاً معتدلاً بين الزهد الإلزامي لبعض المدارس وتمجيد الإنجاب من قبل اليهود، الذين علموا أن "من ليس له زوجة ليس رجلاً".

أما فيما يتعلق بمعاناة الشهداء التي تبدو غير مستحقة، فقد كتب باسيليدس، مستنداً إلى عقائد التناسخ والكارما، ما يلي في الكتاب الثالث والعشرين من كتابه تفسيري:

الكارما والتناسخ ".أقول إن كل من يقعون في هذه المحن المزعومة هم أناس، بعد أن ارتكبوا تجاوزات في أمور أخرى دون أن يتم اكتشافهم، يصلون إلى هذه النهاية الحسنة [الاستشهاد] بفضل العناية الإلهية، بحيث أن الجرائم التي اتُهموا بها تختلف تمامًا عن تلك التي ارتكبوها دون أن يتم اكتشافهم، فهم لا يعانون كمجرمين لجرائم مثبتة، ولا يُشتمون كزناة أو قتلة، بل يعانون لمجرد كونهم مسيحيين؛ وهذه الحقيقة تُريحهم لدرجة أنهم لا يبدون حتى أنهم يعانون. وحتى لو حدث أن يعاني المرء دون أن يرتكب أي ذنب ظاهر من قبل - وهي حالة نادرة جداً - فلن يعاني على الإطلاق من خلال أي مؤامرة من أي قوة شريرة، ولكن بنفس الطريقة التي يعاني بها الطفل الذي يبدو أنه لم يرتكب أي شر.

"فكما أن الطفل، على الرغم من أنه لم يرتكب أي خطأ من قبل، أو لم يرتكب أي ذنب عمليًا، ومع ذلك لديه القدرة على ارتكاب الخطيئة [من حياته السابقة]، فعندما يعاني، يستفيد ويجني فوائد كثيرة يصعب

ص 275

الحصول عليها بطريقة أخرى؛ بنفس الطريقة ينطبق الأمر على الرجل الفاضل تمامًا الذي لم يرتكب ذنبًا فعليًا، لأنه لا يزال لديه الميل إلى ارتكاب الخطيئة؛ فهو لم يرتكب ذنبًا فعليًا [في هذه الحياة]، لأنه لم يتم وضعه بعد في الظروف اللازمة لذلك." وحتى في حالة مثل هذا الرجل، لا ينبغي أن نكون على صواب في افتراض التحرر التام من الخطيئة. فكما أن الرغبة في ارتكاب الزنا هي التي تشكل الزاني، حتى

وإن لم يجد الفرصة لارتكاب الزنا فعلياً، والرغبة في ارتكاب القتل هي التي تشكل القاتل، حتى وإن لم يكن قادراً على تحقيق غايته؛ لهذا السبب تحديداً، إذا رأيت رجلاً "بلا خطيئة" يعاني [آلام الاستشهاد]، حتى وإن لم يرتكب أي خطيئة في الواقع، فسأقول إنه شرير بقدر ما لا تزال لديه الرغبة في التعدي. لأني سأقول أي شيء على أن أقول إن العناية الإلهية شريرة.

علاوة على ذلك، حتى لو تم إلقاء مثال يسوع في وجهه من قبل أولئك الذين فضلوا المعجزة على الشريعة، فإن المدافع القوي عن الغنوص يقول إنه يجب أن يجيب: "إذا سمحتم لي، فسأقول، إنه لم يرتكب خطيئة؛ بل كان مثل طفل يعاني". وإذا ما تم الضغط عليه أكثر، لقال: "الرجل الذي تسمونه هو رجل، ولكن الله [وحده] هو البار؛ لأنه "لا أحد طاهر من النجاسة"، كما قال أيوب.

يقول باسيليدس إن الرجال يعانون من أفعالهم في حياتهم السابقة؛ فالنفس "المختارة" تعاني "بشرف" من خلال الاستشهاد، أما النفوس ذات الطبيعة الأخرى فتعاني من عقوبات أخرى مناسبة. من الواضح أن النفس "المختارة" هي تلك التي ستعاني من أجل المثل الأعلى؛ بعبارة أخرى،

ص 276

فهي تمتلك الإيمان، وهو "موافقة النفس على أي من الأشياء التي لا تثير الإحساس". ومثل هذه النفس، إذن، "تكتشف العقائد دون برهان من خلال إدراك عقلي".

لقد تلقت الخرافة الشائعة عن التناسخ، أي انتقال روح الإنسان إلى جسد حيوان - والتي غالباً ما يخلطها غير المتعلمين مع عقيدة التناسخ، التي تنفي مثل هذه الإمكانية - تفسيراً عقلانياً على يد المدرسة الباسيليدية. وقد نشأت هذه النظرية من دراسة الطبيعة الحيوانية في الإنسان، أو النفس الحيوانية، أو جسد الرغبة، والأساس الذي تنبع منه العواطف؛ وقد لخص كليمنت هذه النظرية على النحو التالي:

نظرية "الزوائد".اعتاد الباسيليديون على تسمية العواطف بالزوائد [أو التراكمات]. ويقولون إن هذه الجواهر لها وجود جوهري معين، وهي مرتبطة بالنفس العاقلة، بسبب اضطراب معين واضطراب بدائي."

إن الكلمة المترجمة إلى "الجواهر" هي حرفيًا "النفوس"؛ ومن الغريب أن النفس الحيوانية بأكملها تسمى "الروح المزيفة" في رسالة بيستيس صوفيا، وفي كتاب تيمايوس لأفلاطون تسمى الفكرة نفسها "الاضطراب"، كما يتضح من تعليق برقلس. إن الارتباك البدائي هو بالطبع التكتل الفوضوي لمزيج البذور العالمي، وتمايز "الجوهر العنصري" لبعض الكتاب المعاصرين في مجال الثيوصوفيا.

"تنمو على هذه النواة طبائع أخرى دنيئة وغريبة من الجوهر، مثل طبائع الذئب والقرد والأسد والماعز وما إلى ذلك. وعندما تظهر الصفات المميزة

ص 277

لهذه الطبائع حول النفس، فإنها تجعل رغبات النفس تشبه الطبائع الخاصة لهذه الحيوانات، لأنها تحاكي أفعال أولئك الذين تحمل خصائصهم. ولا تقتصر المسألة على ارتباط النفوس البشرية ارتباطاً وثيقاً بدوافع وانطباعات الحيوانات غير العاقلة فحسب، بل إنها

تحاكي أيضاً حركات وجماليات النباتات، لأنها تحمل أيضاً خصائص النباتات الملحقة بها. بل هناك أيضاً خصائص معينة [للمعادن] تظهر من خلال أشكالها، مثل صلابة الألماس."

لكن لا ينبغي لنا أن نفترض أن الإنسان مؤلف من عدة نفوس، وأنه من اللائق به أن يستسلم لطبيعته الحيوانية، وأن يعتذر عن أفعاله السيئة بالقول إن العناصر الغريبة الملتصقة به قد أجبرته على الخطيئة؛ بل على العكس تمامًا، فالخيار له، والمسؤولية تقع على عاتقه، على عاتق النفس العاقلة. وهكذا كتب إيسيدوروس بن باسيليدس في كتابه "في النفس الملحقة":

"لو أقنعت أي شخص بأن النفس الحقيقية ليست وحدة واحدة، بل إن عواطف الأشرار المسؤولية الأخلاقية. ناتجة عن إكراه الطبائع الملحقة، لما كان لدى عديمي القيمة من البشر أي عذر مقبول ليقولوا: "لقد أُجبرت، لقد انجرفت، فعلت ذلك دون رغبة مني، لقد تصرفت على مضض"؛ في حين أن الإنسان نفسه هو الذي قاد رغبته نحو الشر، ورفض محاربة قيود الملحقات. إن واجبنا هو أن نظهر أنفسنا كحكام على الخلق الأدنى الذي بداخلنا، وأن نكتسب السيطرة من خلال مبدأنا العقلاني.

بمعنى آخر، الرجل هو نفس الرجل،

ص 278

بغض النظر عن الجسد أو اللباس الذي قد يكون عليه؛ فالملابس ليست هي الرجل.

كان أحد أعظم احتفالات المدرسة هو الاحتفال بمعمودية يسوع في اليوم الخامس عشر من شهر توبى أو تايبي المصري. يقول كليمنت: "إن أتباع باسيليدس يحتفلون بمعموديته من خلال خدمة ليلية تمهيدية للقراءات؛ ويقولون إن "السنة الخامسة عشرة من حكم تيبريوس قيصر" تعني اليوم الخامس عشر من شهر تايبي". عندها حلّ عليه الآب "على صورة حمامة" - وهو ما فسروه بأنه يعني الخادم أو الروح القدس.

في "السنة الخامسة عشرة من حكم تيبريوس"، ربما لدينا لمحة مثيرة للاهتمام عن ورشة عمل "المؤرخين".

من الواضح إذن أن الباسيليدين لم يقبلوا روايات الأناجيل القانونية حرفياً، كما يدعي هيبوليتوس؛ بل على العكس من ذلك، فقد فسروا مثل هذه الحوادث على أنها أساطير تاريخية عن التأهيل، والتي تم شرحها بشكل رائع في رسالة بيستيس صوفيا، والتي يجب أن أحيل القارئ إليها لمزيد من المعلومات.

أثر الزرادشتية. نتعلم من أغريبا كاستور، كما حفظه يوسابيوس، أن باسيليدس فرض صمتًا لمدة خمس سنوات على تلاميذه، كما كانت العادة في المدرسة الفيثاغورية، وأنه ومدرسته أولوا أهمية كبيرة لكتابات باركاباس وباركوف، وكتب أخرى للمشرقين. يرى الباحثون أن باركاباس وباركوف، ومتغيراتهما، تشير إلى دورة الأدب الزرادشتي المفقودة الآن، والتي كانت تحظى بشعبية كبيرة بين العديد من المجتمعات

ص 279

الغنوصية. لا بد أنه كان بين اليهود والإسينيين المتعلمين، بعد العودة من بابل، وكذلك بين ذوي الميول الثيوصوفية في ذلك الوقت، أن تقاليد المجوس والعقيدة الإيرانية العظيمة كانت جزءًا مهمًا من الدين الانتقائي

والتوفيقي. يقال إن أدب أبستاق الذي وصل إلينا هو استعادة لذاكرة جزء صغير جدًا من مكتبة برسبوليس العظيمة، التي دمرها "الإسكندر الملعون"، كما تقول التقاليد الفارسية. ويبدو من المحتمل للغاية، كما أظهر كومون في عمله الضخم الذي نُشر حديثًا حول هذا الموضوع، أن تقاليد أسرار الميثرية تحتوي على تقاليد أصيلة مثل سلالة البارسي، وتلقي ضوءًا ساطعًا على الزرادشتية التي كانت الغنوصية على اتصال بها.

إذن، هذا كل ما يمكن استنتاجه عن النظام الباسيليدي الحقيقي من كتابات هيبوليتوس وكليمنت الإسكندري، اللذين اختارا على التوالي النقاط التي اعتقدا أنهما قادران على دحضها؛ أي سمات النظام التي اعتبراها الأكثر خطأ. بالنسبة لدارس الأديان المقارنة، من الواضح أن كلا من آباء الكنيسة أساء فهم المبادئ التي استشهدوا بها، حيث أن حتى هذه المقاطع المختارة بشكل عدائي تندرج بسهولة ضمن المخطط العام للثيوصوفيا العالمية، بمجرد إخراجها من سياق دحض الآباء، والسماح لها بالوقوف على أساس مزاياها الخاصة. لذلك، من المؤسف للغاية أن كتابات المدرسة قد ضاعت أو دمرت؛ فقد كانت بلا شك ستلقي

الكثير من الضوء ليس فقط على الثيوصوفيا المسيحية ولكن أيضًا على التاريخ الغامض لأصولها.

النظام الزائف. يبقى علينا الآن أن نشير بإيجاز إلى نظام الباسيليدين "الزائف". النقاط التالية مأخوذة من إيرينيئوس والملخصون، وهي دليل آخر على عدم موثوقية إيرينيئوس، الذي كان بمثابة الركيزة الأساسية لعلم الهرطقات الأرثوذكسي. من الواضح أن سلسلة الكتاب والناسخين الذين نشير إليهم لم يكن لديهم معلومات مباشرة عن تعاليم باسيليدس، وقاموا فقط بإعادة إنتاج أي أفكار خيالية نسبتها الشائعات والأقاويل الشعبية إلى المدرسة.

فيما يلي السمات الرئيسية للحلوى التي تم تحضيرها بهذه الطريقة. وقالوا إن إله الباسيليدين كان شخصًا يُدعى أبراكسيس أو أبراساكس، وكان حاكم سمائهم الأولى، والتي لم يقل عدد سمائها عن 365. وقد أطلق على هذه القوة هذا الاسم لأن مجموع القيم العددية للأحرف اليونانية في اسم أبراساكس بلغ 365، وهو عدد أيام السنة.

لكننا نتعلم من هيبوليتوس (الجزء الثاني) أن هذا الجزء من النظام كان له علاقة بمرحلة أدنى بكثير من الخلق من الإله الذي فوق كل شيء. ومع ذلك، ليس من الواضح ما إذا كان ينبغي تحديد فكرة أبراساكس مع الحاكم العظيم للأجدود، أو حاكم هيبدمد ومنطقة "برواستيوي حتى الأثير". على أي حال، فإن الـ 365 "سماء" كانت تتعلق بالاعتبارات الفلكية والوراثية للعلوم الباطنية المصرية والكلدانية، وتمثل من وجهة نظر واحدة الـ 365 "جانبًا" للأجرام السماوية (خلال السنة)، كما تنعكس على سطح

"غلاف" الأرض الجوي أو غلافها، والذي امتد حتى القمر.

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في رسالة بيستيس صوفيا، يتم استكمال أسرار علم الأجنة من خلال تسلسل هرمي للقوى العنصرية، أو البناة، وعددهم 365، والذين يتبعون أحكام القانون الكارمي، ويشكلون الجسد الجديد وفقًا

للأفعال الماضية. تم عرض كل شيء بتفصيل كبير، وكذلك المخطط الفلكي للحاكم الواحد من بين الأربعة، والذين بدورهم يحكم كل منهم تسعين قوة، مما يجعل المجموع 365 قوة.

لم يتم إلقاء أي ضوء مؤكد على فكرة أبراساكس إلا بعد أن ترجم شوارتز هذه الرسالة من القبطية في عام 1853، وذلك بعد عامين فقط من نشر ميلر في عام 1851 طبعته من كتاب الفيلسوفومينا، وبالتالي قدم المادة اللازمة لإثبات أن الرأي السائد حتى ذلك الحين بأن "أبراساكس" هو الاسم الباسيليدي للإله فوق كل شيء، كان خطأً فادحًا قائمًا على الجهل أو سوء الفهم. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الرسالة القديمة المجهولة التي تملأ المخطوطة العليا لمخطوطة بروسيانوس، تستخدم الرقم 365 بكثرة ضمن تسلسلاتها الهرمية التي لا نهاية لها، ولكنها لا تذكر اسم أبراساكس في أي مكان.

إن القوى الأساسية التي تشكل الجسد هي أدنى خدام القانون الكارمي. من المفترض أن هذه القوى الدنيا هي التي شكلت طبقة "أبراساكس" من عامة الشعب. الإله فوق كل شيء هو الحاكم الأعلى لمجرة لا نهاية لها من الحكام والآلهة ورؤساء الملائكة والسلطات والقوى، وكلهم متفوقون على الـ 365.

في الواقع، كانت أسرار العالم غير المرئي

ص 282

معقدة للغاية في تفاصيلها، لدرجة أن حتى أولئك الذين كرسوا حياتهم لها بثبات لا يكل، بالكاد استطاعوا فهم بعض العمليات الدنيا، على الرغم من أن الفكرة العامة كانت بسيطة بما فيه الكفاية؛ وهكذا فرض باسيليدس صمتًا لمدة خمس سنوات على تلاميذه، وأعلن أن "واحدًا فقط من بين 1000، واثنين من بين 10000" يمكنهم حقًا تلقي الغنوص، والذي كان تتويجًا لجهود حياة عديدة. ومن المثير للاهتمام أن هذه العبارة بالذات موجودة أيضاً في رسالة بيستيس صوفيا.

إن مصطلح أبراساكس معروف جيدًا لطلاب الغنوصية، نظرًا لعدد الأحجار الكريمة التي تم العثور عليه عليها، والتي تُنسب إلى أتباع باسيليدس؛ بالإضافة إلى كبار علماء القارة الذين تناولوا هذا الموضوع، فقد خصص كينغ في هذا البلد جزءًا كبيرًا من أطروحته لهذا الموضوع. ومع ذلك، فإن أفضل وأحدث السلطات ترى "أنه لا يوجد دليل ملموس على نسبة أي جواهر معروفة إلى الباسيليدية أو أي شكل آخر من أشكال الغنوصية".

أبراساكس. في الواقع، في مسألة أبراساكس، كما هو الحال في كل الأمور الأخرى، اتبعت الغنوصية ميلها الطبيعي إلى "التفوق"، على سبيل المثال، على كل شكل من أشكال المعتقدات، أو حتى الخرافات. لا شك أن العامة الجاهلين كانوا يعتقدون منذ زمن بعيد أن أبراساكس هي القوة العظيمة التي تحكم الولادة والشؤون اليومية، وفقًا للمفاهيم الفلكية؛ فالتمائم والابتهالات وبقية الأدوات التي يطالب بها العقل العامي دائمًا بشكل أو بآخر، كانت جميعها منقوشة بهذا "الاسم القوي". لكن وراء هذه الخرافة، تكمن بعض الحقائق الخفية،

ص 283

والتي كان المنجمون وصانعو التمائم يجهلونها بطبيعة الحال. ومع ذلك، يبدو أن هذه الحقائق كانت معروفة لعلماء الغنوص، وبالتالي فقد وجدوا لها المكان المناسب في أنظمتهم العالمية. وهكذا تم وضع أبراساكس، الإله العظيم للجهلاء، بين التسلسلات الهرمية الدنيا للغنوص، وتم إسناد الفكرة الشائعة عنه إلى أدنى قوى بناء الجسم المادي.

أما بالنسبة لبقية "النظام الزائف"، فلا يوجد شيء جدير بالتسجيل؛ ومع ذلك، لا يمكننا أن نغفل عن أكثر القصص سخافة التي رويت ضد الباسيليدين، والتي كانت على النحو التالي. ويُقال إنهم اعتقدوا أنه عند الصلب تبادل يسوع الأجساد مع سمعان القوريني، ثم عندما علق بديله في عذاب، وقف وسخر من أولئك الذين خدعهم - وبهذه القصة الخيالية قد نخرج من "مخزن الغنوصية" الإيرينيئسية لفترة من الوقت.

لا نعرف شيئاً عن تاريخ المدرسة سوى حقيقة أن إبيفانيوس، في نهاية القرن الرابع، كان لا يزال يلتقي بطلاب الغنوص الباسيليدي في المقاطعات الواقعة غرب الدلتا، من ممفيس إلى البحر. ومع ذلك، يبدو من المرجح أن المدرسة استمرت في التيار الرئيسي للغنوصية في النصف الثاني من القرن الثاني، وكانت في مؤخرة الحركة الفالنتينية العظيمة التي سنتناولها لاحقًا. في الواقع، من المحتمل جداً أن أتباع هذا التيار الرئيسي من الغنوص كانوا سيرفضون بشدة تصنيفهم على أنهم "أتباع باسيليدس" أو

ص 284

"أتباع فالنتينوس"؛ لا شك أنهم اعتبروا هؤلاء المعلمين ناقلين لتقليد حي، كلٌ بطريقته الخاصة، وليسوا كاشفين ملهمين بشكل منفصل لعقائد جديدة.

الحركة الفالنتينية.

"المجهول العظيم" للغنوصية. وراء حركة فالنتينوس بأكملها يقف الشخصية المهيبة والغامضة لفالنتينوس نفسه، المعترف به عالميًا بأنه كان أعظم الغنوصيين. يُقر حتى أشد خصومه بعلمه وبلاغته، بأنه كان من طبيعة استثنائية للغاية، ولم يُنطق بكلمة واحدة قط ضد شخصيته الأخلاقية. ومع ذلك، عندما نحلل فوضى "المعلومات" التي تركها لنا كتاب الآباء حول موضوع ما يسمى بالفالنتينية، نجد أن الشخصية الغامضة للسيد العظيم للغنوصية تتراجع باستمرار أمام فضولنا المحترم؛ فالشخص الذي أُجبر على إعطاء اسمه لإعادة تشكيل الهيكل بأكمله، لا يزال "المجهول العظيم" للغنوصية. لا نعرف عنه شيئاً مؤكداً كرجل، ولا نعرف عنه شيئاً محدداً ككاتب، باستثناء تلك الشظايا القليلة المشوهة التي قدمتها لنا الجدالات المتعلقة بالهرطقة.

(بالطبع أتجاهل تمامًا المسألة الشائكة المتعلقة، لن أقول تأليف، ولكن تجميع، الرسائل في مخطوطات أسكيو وبروس). رأيي الشخصي هو أننا مدينون بجزء كبير من هذه التفاصيل لفالنتينوس؛ ليس أنني أعتقد أنه يمكن إثبات ذلك بأي شكل مرضٍ

ص 285

مع المصادر الشحيحة الحالية للمعلومات المتاحة لنا. على العكس من ذلك، لا أرى كيف يمكن دحض ذلك. من الغريب جداً أنه على الرغم من الاعتراف العالمي بتفوق فالنتينوس، لم يتم الحفاظ على أي من أعماله لنا. يقال إنها كانت معقدة وصعبة للغاية؛ ويقال كذلك إنها كانت بمثابة تركيبات وسيمفونيات من الصيغ السابقة للغنوص. من الواضح أن هذا ليس هو الحال مع مخطط النظام الأكثر شهرة الذي ينسبه آباء الكنيسة إلى "أولئك الذين ينتمي إليهم فالنتينوس". بينما من الواضح أن هذا هو الحال مع الرسائل المترجمة إلى اللغة القبطية؛ إذ لم يكن من الممكن أن يقوم بتأليفها أحد سوى

أصحاب العقول النيرة من بين الغنوصيين - ويُقال إن أفضلهم على الإطلاق كان على أكتاف فالنتينوس.

على الرغم من هذا الجهل المروع بالرجل وتعاليمه، فإن ما يسمى بالغنوص الفالنتيني هو جوهرة كل رسالة في علم الهرطقات تقريباً. لذلك، سيتعين علينا أن نتجاوز صبر القارئ لفترة وجيزة، بينما نضع بعض العلامات الإرشادية في متاهة الفالنتينية، كما يراها خصومها من الآباء. علاوة على ذلك، ينبغي أن نتذكر دائمًا أن "الفالنتينية"، بعيدًا عن كونها صياغة منفصلة واحدة للغنوص، كانت التيار الرئيسي للغنوصية الذي أعيد تسميته ببساطة باسم أعظم زعيم لها.

باستثناء الشظايا القليلة التي أشرنا إليها، فإن كل ما كتبه اتباع فالنتينوس الآباء يشير إلى تعاليم "أولئك الذين

ص 286

ينتمي إليهم فالنتينوس"، وحتى في هذه الحالة نادراً ما نجد اقتباساً كاملاً من أي عمل مكتوب لهم؛ ففي الغالب يتكون كل شيء من شظايا ممزقة من سياقاتها، أو مجرد كلام منقول. لم يكن أتباع فالنتينوس مجرد تلاميذ عبيد لا يستطيعون فعل شيء سوى ترديد "كلمات المعلم" كالببغاء؛ فقد كانت روح "قال" بعيدة كل البعد عن عبقريتهم المستقلة. لقد فكر كل منهم في تفاصيل مخطط الفلسفة الكونية بطريقته الخاصة. صحيح أنه بحلول هذا الوقت أصبح عرض الغنوص، من كونه ذا طبيعة شديدة التنوع، أكثر استقرارًا في سماته الرئيسية، وربما يكون فالنتينوس قد بدأ هذا التوجه التركيبي، على الرغم من أنه من المرجح أنه قام بتطويره وإتقانه؛ ومع ذلك فقد كان لا يزال حرًا ومستقلًا بشكل كبير في تفاصيل لا حصر لها ذات طابع بعيد المدى، وكان أتباعه مشبعين بروح البحث والاكتشاف والتكيف التي تميز دائمًا فترة من الحياة الروحية والفكرية.

وهكذا نفهم شكوى إيرينيئوس، الذي يتحسر على أنه لم يتمكن أبداً من العثور على اثنين من الفالنتينيين يتفقان معاً. وإذا كان الأمر كذلك، فما الفائدة من الاستمرار في الحديث عن "النظام الفالنتيني"؟ لا نعرف شيئًا تقريبًا من آباء الكنيسة عن "نظام" فالنتينوس نفسه؛ أما بالنسبة لأتباعه، فقد أدخل كل منهم تعديلات جديدة، والتي لم نعد قادرين على متابعتها في التصورات المشوشة لآباء الكنيسة، الذين يجعلونها تتناقض بشكل صارخ ليس فقط مع بعضها البعض، ولكن أيضًا مع أنفسهم.

ص 287

من كتاب الفيلسوفومينا، الذي نُشر عام 1851، سمعنا لأول مرة عن تقسيم شرقي وغربي (اناضولية ما يسمى بالمدارس الشرقية والغربية. وإيطالية) لمدرسة فالنتينوس، مما يفسر العنوان المنقوش على مقتطفات من ثيودوتوس الملحقة، في المخطوطة الوحيدة التي نمتلكها، بكتاب المختارات لكليمنت الإسكندري. لقد تم التركيز على هذا الأمر بشكل كبير؛ فقد تم استغلال الاختلافات الطفيفة في مذهب مدرستي الأناضول والإيطالية للفالنتينية التي أشار إليها هيبوليتوس (الثاني) من قبل النقد، وتم كسر ظهورها تحت وطأة الحجج التي تم وضعها عليها. لكن عندما يوضح ليبسيوس أن مقتطفات ثيودوتوس، التي تدعي في عنوانها أنها تنتمي إلى المدرسة الشرقية، هي، وفقًا لإشارات هيبوليتوس، نصف شرقية ونصف غربية، يتعين على الطالب العادي أن يمسك رأسه بإحكام، ويتخلى عن كل أمل في الحصول على النور من تقسيم الفالنتينية إلى مدارس الأناضول والإيطالية، في حالة

جهلنا الحالية؛ - إلا إذا افترضنا ببساطة أنها كانت في الأصل تسميات جغرافية بحتة، والتي تمت محاولة إعطائها في أوقات لاحقة دلالة عقائدية دون جدوى.

على الرغم من أنه ليس لدينا مؤشر مؤكد على تاريخ فالنتينوس نفسه، إلا أنه يمكن التكهن بأنه يمتد من حوالي عام 100 ميلادي إلى عام 180 ميلادي، كما سيتبين لاحقًا.

ومن بين القادة الآخرين للحركة، الذين نعرف أسماءهم منذ زمن طويل، سيكوندوس قادة الحركة. وماركوس. كان لماركوس نفسه أتباع كثر

منذ عام 150؛ لم يُطلق على أتباعه اسم الفالنتينيين بل الماركوسيين، أو المارقيين، وما نعرفه عن نظامه يختلف اختلافًا كبيرًا عن أنظمة بقية "أتباع فالنتينوس". يُفترض أحيانًا أن ماركوس كان معاصرًا لإيرينيئوس، ولكن هذا فقط على افتراض أن إيرينيئوس، باستخدامه ضمير المخاطب في مقاطعه التحفيزية والتحذيرية، يخاطب شخصًا حيًا، وليس يستخدم ضمير المخاطب كأثر بلاغي فحسب، كما فعل ترتليان مع مرقيون.

بعد ذلك، وبعد سنوات، نأتي إلى بطليموس، الذي يُفترض مرة أخرى أنه كان معاصرًا لإيرينيئوس في مكان ما حوالي عام 180 ميلادي.

من المؤكد أن إيرينيئوس لم يكن لديه معرفة شخصية ببطليموس، وكان يتعامل في الغالب مع أتباعه، الذين يقال إنهم اختلفوا اختلافًا كبيرًا عن معلمهم.

وفي وقت لاحق يأتي هيراكليون، الذي يسميه كليمنت (حوالي 193) الأكثر تميزًا بين تلاميذ فالنتينوس. ومع ذلك، فإن كلاً من هيراكليون وبطليموس ليس معروفين بقدر ما هو معروف بشرح نظام معين بقدر ما هو معروف بالمعالجة التفسيرية للكتاب المقدس من وجهة نظر الغنوص في عصرهما.

وفي وقت لاحق، وفي وقت متأخر، لنقل حوالي عام 220، ازدهر أكسيونيكوس وبارديسانيس، حيث قام الأول بالتدريس في أنطاكية، بينما قام الثاني بالتدريس في مكان أبعد شرقًا. لذلك يطلق عليهم البعض اسم رؤساء المدرسة الأناضولية أو الشرقية.

كان ثيودوتوس، الذي أُخذت منه المقتطفات الملحقة بكتاب كليمنت المختارات، بالطبع أقدم بكثير من حيث التاريخ، لكننا لا نعرف عنه شيئًا.

كما نسمع عن شخص يدعى ثيوتيموس والإسكندر، وهما أقدم من عام 220.

باختصار، انتشر نفوذ فالنتينوس على نطاق واسع، من مصر شرقاً إلى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، وغرباً إلى روما وبلاد الغال وحتى إسبانيا.

إن مراجعة موجزة للتعاليم المنسوبة إلى علماء الغنوص هؤلاء ستختتم مهمتنا،توليف الغنوص. فيما يتعلق بالمصادر غير المباشرة للغنوصية خلال القرنين الأولين. لكن الحقيقة التي نود التأكيد عليها مرة أخرى هي أننا نواجه حركة عظيمة وليس نظاماً واحداً. من جهة، وجدت أشكال الغنوص القديمة التي كانت معادية للغاية لليهودية نتيجة منطقية في حركة المرقيونية العظيمة، التي فصلت المسيحية تمامًا

عن اليهودية؛ ومن جهة أخرى، سعت الآراء الأكثر اعتدالًا وصوفية للحركة التي يرأسها الآن فالنتينوس إلى إيجاد أساس للمصالحة، حيث وجدت مساحة لكل رأي في شموليتها الشاملة، وفسرت التناقضات عن طريق ذلك التعليم السري الباطني الذي زُعم أنه جاء من المخلص نفسه.

إن الخطوط العريضة لحركة المصالحة، التي يُفترض أنها كانت دائمًا موقف الدوائر الداخلية، ربما يمكن رؤيتها بوضوح اليوم في نظام باسيليدس، ولكن تلك المساحات اللانهائية، التي إما تركها باسيليدس نفسه غير مملوءة، أو أغفل هيبوليتوس (الثاني) ذكرها في اقتباساته، كانت أيضًا مأهولة بعدد لا حصر له من الإبداعات والمخلوقات بفضل عبقرية

ص 290

الغنوصيين، الذين لم يتسامحوا مع أي نقص في عرض علمهم الشامل. وفي هذا المخطط العام، أو مخطط يشبهه إلى حد كبير، قاموا بدمج الجوانب المختلفة للغنوص القديم ومسلمات الأديان والفلسفات القديمة، وتبنوا هذه الأفكار القديمة، وقاموا بتكييفها في ضوء الوحي الجديد، مع الاحتفاظ أحيانًا بالأسماء القديمة، وفي أغلب الأحيان ابتكار أسماء جديدة.

يعود هذا التجميع للغنوص بشكل رئيسي إلى مبادرة عبقرية فالنتينوس. يقال إن أعماله التقنية، كما لاحظنا أعلاه، كانت غامضة للغاية ويصعب فهمها، وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى طبيعة المهمة التي حاول القيام بها. ماذا حلّ بهذه الكتابات؟ يبدو أن أيًا من آباء الكنيسة لم يكن على دراية بأي من أطروحاته التقنية؛ في أحسن الأحوال، ليس لدينا سوى بضع شذرات أخلاقية من الرسائل والمواعظ. لكن ماذا عن أتباعه أنفسهم، الذين يحمّلهم آباء الكنيسة والنقاد مسؤولية نظام فالنتيني معين ذي طبيعة فوضوية للغاية؟ هل كانوا يمتلكون مخطوطات فالنتينوس؛ أم أنهم اعتمدوا على مفاهيم عامة مستمدة من محاضراته؟ هل وضع فالنتينوس مخططًا متسقًا للغنوص؛ أم أنه طرح عدة بدائل، نظرًا لصعوبة الأمر، ووجهات النظر التي لا تعد ولا تحصى التي يمكن تصورها من خلالها؟ إذا أمكن جعل وثيقة بيستيس صوفيا والمخطوطتين الأخريين تلقيان أي ضوء على الأمر، فسيكون ذلك إضافة ثمينة لمعرفتنا بهذه الحقبة المهمة للغاية؛ وإلا، فعلينا

ص 291

أن نرضى بالبقاء في الظلام حتى يتم اكتشاف وثيقة جديدة.

في هذه الأثناء، يجب أن نحصر اهتمامنا في الآثار المحددة لفالنتينوس والحركة العامة؛ مصادر المعلومات. ولكن قبل القيام بذلك، يجب أن نراجع بإيجاز مصادرنا بين الآباء. في هذه المراجعة سأتبع في الغالب ليبسيوس، الذي ليس فقط أحد أفضل المراجع في هذا الموضوع (المادة في قاموس المسيح لـ S. و W. *(Biog.,* 1887)، ولكن الذي بدأ منذ زمن بعيد التحقيقات النقدية الرائعة في مصادرنا الغنوصية للمعلومات، من خلال تحليله لكتاب باناريون لإبيفانيوس.

يخبرنا ترتليان أنه قبله قام أربعة أبطال أرثوذكس على الأقل بالرد على الفالنتينيين: وهم: جاستن الشهيد، وملتيادس، وإيرينيئوس، وبروكولوس المونتاني. باستثناء الكتب الخمسة لإيرينيئوس، فإن بقية هذه الكتابات المثيرة للجدل مفقودة.

كتب إيرينيئوس أطروحته في الفترة ما بين عامي 185 و195 ميلادي. يخصص معظم كتابه الأول للفالنتينيين بشكل حصري، وتوجد إشارات متفرقة في الكتب الأربعة المتبقية.

يزعم إيرينيئوس أنه اطلع على بعض مذكرات الفالنتينيين وأجرى محادثات مع بعض أعضائها. لكن هذه الملاحظات كانت تخص أتباع بطليموس فقط، ولم يُنسب سوى جزء قصير واحد إلى كتابات بطليموس نفسه. كما أجريت المحادثات الشخصية مع أتباع نفس المعلم، على الأرجح في منطقة الرون -

ص 292

وهي أرض خصبة لغرس المبادئ الغامضة للغنوص، كما نعتقد، على الرغم من "شهداء ليون".

في تعامله مع ماركوس، استقى إيرينيئوس معلوماته في الغالب من نفس الاتصالات الشفوية غير الموثوقة، ولكن يبدو أنه كان يمتلك أيضًا مذكرات ماركوسي؛ ماركوس نفسه عاش وعمل بعيدًا في آسيا الصغرى قبل سنوات.

في الفصل الحادي عشر. يدعي إيرينيئوس أنه ينقل تعاليم فالنتينوس نفسه؛ لكنه هنا ببساطة ينسخ من عمل أحد المفندين السابقين. ويشير ليبسيوس أيضًا إلى أن إيرينيئوس استقى بعض عباراته الافتتاحية من نفس المصدر الذي استقى منه كليمنت في مقتطفات من ثيودوتوس.

ومن كل ذلك يتبين أننا نواجه خليطًا مثيرًا للجدل، وأن نظام فالنتينوس نفسه لا يمكن العثور عليه في كتاب الرد الذي كتبه أسقف ليون.

مصدرنا التالي للمعلومات موجود في مقتطفات من كتاب ثيودوتوس غير المعروف، والتي يفترض ليبسيوس أنها ربما شكلت جزءًا من الكتاب الأول من عمل كليمنت المفقود، وهو كتاب الخطوط العريضة. لقد تم "تفكيك هذه المقتطفات وكسر تماسكها الأصلي" بطريقة عنيفة للغاية، وتم تشبيكها "بملاحظات مضادة ومناقشات مستقلة" من قبل كليمنت نفسه، مما يجعل من الصعب للغاية تكوين حكم عليها. علاوة على ذلك، عندما ينسب ليبسيوس جزءًا من هذه المقتطفات إلى المدرسة الشرقية وجزءًا آخر إلى المدرسة الغربية، فإنه عمليًا يطلب منا محو العنوان الذي

ص 293

ارتبط بها دائمًا - وهو *"مقتطفات من (كتب) ثيودوتوس وما يسمى بالمدرسة الأناضولية"*. على أي حال، نحن نواجه مرة أخرى خليطاً من قطع متداخلة.

يبدو أن هيبوليتوس (الأول)، في كتابه المفقود سينتاغما ، الذي يمكن استعادته من الملخصين الزائفين ترتليان وفيلاستر وإبيفانيوس، قد جمع الفصول السبعة الأولى من إيرينيئوس مع رواية أخرى، والفوضى تزداد تعقيدًا.

يقدم هيبوليتوس (الثاني)، في أثمن وثائق علم الهرطقات، كتاب "الفيلسوفومينا"، سردًا مستقلًا تمامًا، بل هو في الواقع التمثيل الأكثر توحيدًا

وإيجازًا لأي مرحلة من مراحل الغنوص في دائرة الفالنتينيين التي وصلت إلينا من خلال الآباء.

يقوم ترتليان ببساطة بنسخ ما كتبه إيرينيئوس، وكذلك يفعل إبيفانيوس في معظم الأحيان. أما الأخير فقد حفظ رسالة بطليموس الشهيرة إلى فلورا، وكذلك قائمة بـ "الأسماء البربرية" للعصور التي لم يتم العثور عليها في أي مكان آخر. بالطبع، قام ثيودوريت ببساطة بنسخ إيرينيئوس وإبيفانيوس.

إذن، فإن مصادرنا غير المباشرة للمعلومات لفهم الحركة الفالنتينية كثيرة ومتنوعة؛ - مجموعة مؤسفة من المرشدين العميان، يجب الاعتراف بذلك، حيث يتطلب كل شيء أقصى درجات العناية والتمييز. دعونا الآن نعود إلى فالنتينوس نفسه، ونسعى جاهدين لتجميع بعض الصور الباهتة لشخصية كان من المعترف به عالميًا أنها الأعظم بين الغنوصيين، وذلك من خلال الشظايا المتبقية.

ص 294

فالنتينوس

السيرة الذاتية. أما بالنسبة لسيرته الذاتية، فنحن لا نعرف عنها شيئاً تقريباً. كان فالنتينوس مصريًا، وتلقى تعليمه في الإسكندرية في كل ما كان يمكن أن تعلمه إياه مصر واليونان. ساهمت معرفة الأسرار لمدينة خيم القديمة، و"الرياضيات" لفيثاغورس، وحكمة أفلاطون، في تشكيل شخصيته. لكن أعظم إلهام وجده على الإطلاق كان في التدفق الأخير من نفس المصدر الذي تأتي منه حكمة كل فيلسوف حقيقي - تيار المسيحية الذي كان يتدفق بقوة. لكن ما نوع المسيحية التي واجهها فالنتينوس في الإسكندرية؟ لم تكن هناك مدرسة دينية عندما كان صبياً. لم يكن بانتينوس وكليمنت قد أصبحا كذلك بعد. كان هناك الوغوي، وأقوال الرب، والعديد من التقاليد المتناقضة؛ وجماعة بولسية أيضًا، أسسها بلا شك أحد المبشرين من آسيا الصغرى؛ والعديد من الأساطير عن الغنوص السري الذي علمه يسوع سرًا لأولئك الذين يستطيعون فهمها. لكن، قبل كل شيء، كانت في الخلف المدارس الباطنية ومجتمعات تقاليد الحكمة والغنوص. لا بد أن فالنتينوس كان على علاقة وثيقة مع باسيليدس، على الرغم من أنه يقال إنه ذكر أن ثيوداس، وهو "رجل رسولي"، كان شاهده على التقليد المباشر للغنوص. لا يُعرف شيء عن ثيوداس أو ثيوداس هذا، بل إن أوشر افترض أنه اختصار لثيودوتوس، وهو تخمين اتبعه فيه زان. وبالتالي فإن هذه النظرية

ص 295

ستجعل ثيودوتوس المذكور في مقتطفات كليمنت مرجعًا أقدم من فالنتينوس نفسه، الأمر الذي من شأنه أن يزيد من تعقيد مسألة المدرسة الشرقية والغربية، وفي الواقع، سيغير المشكلة الكاملة المتعلقة بأصول فالنتينوس. كل ما يمكننا قوله هنا هو أن هذا الرأي ليس مستبعداً تماماً، ومن شأنه أن يمهد الطريق بشأن بعض النقاط المهمة.

بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك في الإسكندرية، في المكتبة الكبرى وفي المكتبات الخاصة للمتصوفين، كل تلك المصادر المختلفة للمعلومات، وفي الجو الفكري والديني للمكان كل تلك الميول التركيبية والثيوصوفية التي تؤدي إلى صياغة نظام ديني عالمي. ونعلم أن هذه هي المهمة التي وضعها فالنتينوس أمامه كهدف له. لقد عزم على تركيب الغنوص، الذي كان كل مرحلة منه بالفعل نوعاً من التركيب. لكن بذلك،

لم يقصد فالنتينوس مهاجمة أو التخلي عن الإيمان العام، أو إبعاد التطور الشعبي للمسيحية الذي أطلق عليه منذ ذلك الحين اسم الكنيسة الكاثوليكية. على الأرجح أنه ظل مسيحياً كاثوليكياً حتى نهاية حياته. صحيح أننا نقرأ عن حرمانه الكنسي في كتابات ترتليان، إلى جانب الاتهام المفضل الموجه ضد الهراطقة البارزين، وهو أنه ارتد عن الكنيسة لأن ترشيحه لمنصب الأسقفية قد رُفض. تخيل ترتليان أن هذا حدث في روما؛ ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، فهل تحدثت روما باسم الكنيسة الكاثوليكية في تلك الأيام الأولى؟
هل كانت الإسكندرية، المدينة الفلسفية، ستعترف بحكم روما الانضباطية؟ أو

ص 296

هل قامت روما بحرمان فالنتينوس من الكنيسة بعد وفاته، وهي طريقة مفضلة لديها في أوقات ما بعد انتهاء الخلاف؟ أم أن ترتليان هنا يمارس المغازلة كما هو الحال في كثير من الأحيان؟ يذكر إبيفانيوس بوضوح أن فالنتينوس كان يعتبر أرثوذكسياً طالما كان في روما، ويضيف ترتليان نفسه أيضاً، في موضع آخر، خمسة عشر عاماً من الأرثوذكسية إلى تاريخ مغادرته روما.

التاريخ. يبدو أن فالنتينوس قد قضى الجزء الأكبر من حياته في مصر؛ ومع ذلك، إذا استطعنا الوثوق بمصادرنا، فقد كان لفترة طويلة في روما، في مكان ما بين عامي 138 و 160. ويقول أحد المصادر أيضاً إنه كان في قبرص.

تاريخ وفاته غير معروف على الإطلاق؛ ويعتقد معظم النقاد أنه حوالي عام 161، ولكن للوصول إلى هذا الاستنتاج، فإنهم يرفضون البيان الصريح لترتليان بأن فالنتينوس كان لا يزال عضوًا أرثوذكسيًا في الكنيسة حتى زمن إليوثيروس (حوالي 175)؛ والبيان الصريح لأوريجانوس، بأنه كان على معرفة شخصية بفالنتينوس. سيؤدي هذا إلى تأخير تاريخ ميلاد أوريجانوس وتقديم تاريخ وفاة فالنتينوس؛ ولكن بما أن كليهما يمثل مشكلة، فلا داعي للخوف من تأخير أحدهما وتقديم الآخر لعشر سنوات أو نحو ذلك.

بشكل عام، أميل إلى تحديد تاريخ فالنتينوس في السنوات الثمانين الأولى من القرن الثاني. ولزيادة دعم هذا الطول من الأيام، أود أن أدعو القارئ إلى التفكير في الحقيقة غير العادية المتمثلة في أنه على الرغم من أن اسم فالنتينوس يتردد على ألسنة كل شخص في ذلك الوقت، وعلى الرغم من أن شهرته تطغى تمامًا على شهرة كل اسم آخر

ص 297

في هذه الدائرة الغنوصية المهمة، فإن أقوال وأفعال كوريفايوس الغنوصية العظيم تكاد تكون معدومة تمامًا، والأغرب من ذلك كله أنه يُعتبر، على الأقل خلال الجزء الأكبر من حياته، أرثوذكسيًا. هذه الحقيقة الغريبة تتطلب تفسيراً، وأود أن أقترح أن التفسير يكمن إلى حد كبير في التحفظ والسرية غير العاديين للرجل. لقد كان لغزاً ليس فقط بالنسبة للعامة، بل حتى بالنسبة لأولئك الذين اعتبروه معلماً.

إن الغنوص الذي بين يديه يحاول استباق "الأرثوذكسية"، واحتضان كل شيء، حتى أكثر الصيغ العقائدية لتقاليد المعلم. أدرك فالنتينوس أن الحركة الشعبية العظيمة وما يكتنفها من غموض جزء لا يتجزأ من التدفق الهائل؛ وقد عمل جاهداً على نسج كل شيء معاً، الخارجي والداخلي، في قطعة واحدة، وكرس حياته لهذه المهمة، ولا شك أنه لم يدرك إلا عند وفاته أنه كان يحاول المستحيل في ذلك العصر. لا أحد سوى قلة قليلة يستطيع أن يقدر مثال الرجل، ناهيك عن فهمه.

لم يتم نشر أي من مؤلفاته التقنية؛ بل تم تداول رسائله ومواعظه فقط.

بعد مغادرته روما، اختفى عملياً عن أنظار علماء الهرطقات الغربيين. أين ذهب، كتابات. وماذا فعل، وكم عاش بعد ذلك، كلها أمور تخمينية بالكامل تقريباً. لكن إذا ثبت يوماً ما أن وثائق مثل "بيستيس صوفيا" هي نماذج من الورشة التي كان ينتمي إليها، فيمكننا على الأقل أن نجيب بشكل تخميني بأنه عاد إلى الإسكندرية، حيث

ص 298

أنهى حياته في العزلة التي تتطلبها مثل هذه الأعمال الأدبية الغامضة.

أما عن كتاباته، فإلى جانب كونها كثيرة ورسائله التقنية بالغة الصعوبة والغموض، فإننا لا نعرف عنها إلا القليل. قام بتأليف العديد من الرسائل والخطب والمزامير. قيل لنا أيضاً أنه ألف إنجيلاً، ولكن من المفترض أن يكون هذا افتراضاً خاطئاً - خاطئاً، أي إذا كان المقصود بالإنجيل إنجيلاً يحتوي على أقوال الرب. لكن ألا يمكن استخدام كلمة "الإنجيل" هنا بالمعنى الباسيليدي لشرح الغنوص، أو معرفة الأشياء التي تتجاوز العالم الظاهري؟

يخبرنا ترتليان أيضًا أن فالنتينوس ألف رسالة بعنوان صوفيا، أو الحكمة. وقد أكد بعض النقاد أن كلمات ترتليان لا تشير إلى كتاب بل إلى الحكمة التي ادعى فالنتينوس أنه يعلمها؛ ولكن إذا كان هذا صحيحًا، فإن التناقض الذي يقيمه ترتليان بين حكمة فالنتينوس وحكمة سليمان سيفقد كل معناه. إن حكمة سليمان كتاب، وينبغي أن تكون حكمة فالنتينوس كتابًا أيضًا؛ فلو كان المقصود منها ببساطة الغنوص الذي علمه فالنتينوس، لكان نقيضها الصحيح هو حكمة الله وليس حكمة سليمان.

الشظايا المتبقية. علينا الآن أن نتناول الشظايا القليلة من أعمال هذا الكاتب غزير الإنتاج التي وصلت إلينا في كتابات آباء الكنيسة. أحدث مجموعة من هذه الأعمال هي من تأليف هيلجنفيلد (1884)، ومع ذلك، لن نتبع "تعديلاته" دائمًا. تتكون الشظايا من بضع قصاصات من الرسائل والمواعظ التي حفظها

ص 299

كليمنت الإسكندري، وقطعتين في كتاب "الفيلسوفومينا" - سرد رؤيا وقصاصة من مزمور.

i. من رسالة.

"وكما استولى الرعب من ذلك المخلوق [حرفيًا، البلازما] على الملائكة [القوى المصطنعة]، بخصوص خلق الجنس البشري الأول. عندما نطق بأشياء أعظم مما تم استخدامه في تشكيله، وذلك بسبب وجوده فيه [اللوغوس] الذي، دون أن يراهم [القوى]، منحه بذرة الجوهر العلوي [الأنا]، والذي تحدث عن الحقائق وجهاً لوجه؛ وبالمثل أيضًا بين أجناس البشرية، تصبح أعمال البشر مصدر رعب لمن يصنعونها - مثل التماثيل والصور، وكل الأشياء التي تصنعها أيدي [البشر] لتحمل اسم الله. لأن آدم خُلق ليحمل اسم الإنسان [السماوي] [اللوغوس]، فنشر رعب ذلك الإنسان الموجود مسبقًا، لأنه في الحقيقة كان وجوده فيه.

وقد أصابهم [السلطات] الرعب، وسرعان ما أفسدوا [بسبب رعبهم] عمل [أيديهم].

هنا نجد الأسطورة الغنوصية لنشأة الإنسان، وهي مألوفة لدينا بالفعل في التقاليد العامة للغنوص.

إن البلازما، أو الشكل البدائي للإنسان، الذي لم يكن يستطيع الوقوف أو المشي - الكرة (مجال) الجنينية لكتاب تيمايوس لأفلاطون - تتطور بواسطة قوى الطبيعة، كنتيجة للتطور؛ ينفخ الإله فيه العقل، ويرتفع الإنسان على الفور فوق بقية الخليقة وقواها.

ص 300

ومع ذلك، لا يزال جسده ضعيفاً، وقوى الطبيعة، خوفاً من العقل الكامن بداخله - "اسم" الإنسان السماوي - تحاربه، ولا يتعلم عقل الإنسان التغلب عليها إلا تدريجياً.

إن الإنسان السماوي هو النموذج الأمثل لجميع البشر، و"الاسم" ليس اسماً، بل هو ذلك الشيء الغامض الذي يحدد طبيعة وفئة ووجود كل مخلوق. الإنسان وحده هنا في الأسفل يحمل "الاسم" الإلهي أو الطبيعة الإلهية حية بداخله.

لقد أولى العالم "ما قبل التاريخ"، الذي كانت مصر على اتصال تقليدي مباشر به، أهمية كبيرة لهذا "الاسم"؛ فقد كان يُعتقد أن التماثيل والتمائم والأحجار الكريمة، إذا صُنعت بطريقة معينة، تمثل اقترابًا أكبر من النموذج المثالي إما للبشرية أو للكائن الحي الطبيعي، وعلى هذه المصنوعات التي صنعها البشر، كان يُعتقد أن "اسم" هذه القوة العليا أو تلك يُمنح من قبل "الذي يتحدث وجهًا لوجه". هنا لدينا تلميح للتفسير الذي قدمه الكهنة المطلعون في العصور القديمة عن "عبادة الأصنام"، والتي تم دمج هذه الفكرة في مخطط الغنوص العالمي من قبل فالنتينوس.

ii. من رسالة.

أنقياء القلوب ".واحد [فقط] هو الخير، الذي يكون كلامه الحر هو تجليه من خلال ابنه؛ وبه وحده يمكن أن يصبح القلب نقياً، [وذلك فقط] عندما يتم طرد كل جوهر شرير منه. والآن، فإن نقاءها محظور بسبب العديد من الجواهر التي تتخذها مسكناً لها، لأن كل جوهر منها يحقق أفعاله الخاصة، ويسيء إليها

ص 301

بطرق مختلفة بشهوات غير لائقة. على حد علمي، يبدو أن القلب يحظى بنفس المعاملة التي يحظى بها النزل [أو الخان]، الذي يحتوي على ثقوب وفجوات في جدرانه، وغالبًا ما يكون مليئًا بالروث، حيث يعيش الرجال فيه في قذارة ولا يعتنون بالمكان باعتباره ملكًا لشخص آخر. وهكذا يكون حال القلب ما دام لم يُعتنى به، فهو دائمًا غير طاهر ومسكن للعديد من الديمون (التوأم السماوي أو الذات العليا) [الجواهر العناصرية]. لكن عندما ينظر إليه طريق الأب الصالح الوحيد، فإنه يتقدس ويشع نوراً؛ ومن يمتلك مثل هذا القلب، فهو مبارك لدرجة أنه "سيرى الله".

وهنا لدينا نفس المذهب الذي أعلنه باسيليدس وإيسيدوروس فيما يتعلق بـ "زوائد" النفس، كما أشار إليه كليمنت بالفعل. كانت هذه العقيدة قديمة للغاية في مصر. في ما يسمى بكتاب الموتى،

يُقرأ أن "القلب" هو شخصية متميزة داخل الإنسان (الـ "بوروشا [أو الإنسان] في أثير القلب" في الأوبانيشادات)؛ وليس هذا فحسب، بل إن الصيغة المشار إليها ونصوصها التفسيرية تعلمنا أن "ليس القلب هو الذي يخطئ، بل غلافه الجسدي فقط". (انظر . (ويدمان دِين المصريين القدماء ص *287; 1897.)* كما رأينا بالفعل، حرص إيسيدوروس على عدم جعل "الزوائد" كبش فداء، وألقى بالمسؤولية على "القلب" نفسه، "قلب الأجداد" - "حارس أجسادي" - الكيان المتجسد. لكن من الصحيح تماماً أن العواطف مرتبطة بالدم، وبالتالي بـ "الغلاف الجسدي".

ص 302

أو القلب المادي، الذي يقال إنه يضم "القلب" الحقيقي.

iii. من رسالة إلى أغاثوبوس.

فيما يتعلق بإحدى قوى رجل مثالي. "التعبير الحر"، أو التعبير الكامل، عن الخير المطلق، لا يمكن أن يتجلى إلا من خلال الإنسان الكامل. كان يسوع رجلاً من هذا القبيل. وهكذا نجد فالنتينوس يكتب إلى أغاثوبوس على النحو التالي:

"من خلال إنكاره المستمر للذات في كل شيء، وصل يسوع إلى الألوهية [حرفيًا، اكتسبها بالعمل]؛ كان يأكل ويشرب بطريقة خاصة، دون أي تبذير. كانت قوة ضبط النفس فيه عظيمة لدرجة أن طعامه لم يفسد فيه، لأنه هو نفسه كان بلا فساد.

يقال إن الجسم المادي يمكن أن يعتاد تدريجياً على كميات أقل فأقل من الغذاء، وهناك حالات لا حصر لها مسجلة في الشرق لأشخاص متصوفين تمكنوا من الحفاظ على حياتهم بكميات صغيرة بشكل لا يصدق من الطعام. إن "القوة" التي وصفها فالنتينوس أعلاه هي واحدة من السيدهي المذكورة في كل رسالة عن اليوغا في الهند، وفي الأوبانيشادات نقرأ أن "القليل جدًا من الهدر" هو أحد العلامات الأولى "للنجاح في اليوغا". كما قيل لنا أنه في أعلى المراحل، بعد أن يتم تنقية جزيئات الجسم بالكامل وجعلها تطيع الإرادة العليا للزاهد، يمكن استبدال جسم من درجة أعلى من المادة تدريجياً؛ ويبدو أن بعض هذه الأفكار (إلى جانب مفاهيم أخرى) كانت وراء مذهب الدوسيتية الذي كان جزءًا لا يتجزأ من الغنوص.

ص 303

وقد شارك كليمنت نفسه نفس الآراء، وكذلك فعل بعض الآباء الآخرين.

iv. من عظة.

"منذ البداية كنتم خالدين وأبناء الحياة - حياة تتمتع بها الأيونات؛ أنتم أبناء الله. ومع ذلك تريدون أن يتقاسم الموت بينكم، لتنفقوه وتبذروه، حتى يموت الموت فيكم وعلى أيديكم؛ لأنكم بما أنكم تفنيدون العالم ولا تفني أنفسكم، فأنتم أسياد كل الخليقة والدمار."

هنا نجد عبء التعليم الوارد في إحدى رسائل مخطوطة بروسيانوس - وهو صلب العالم وعدم السماح للعالم بصلبه - ورسالة بيستيس صوفيا، "ألا تعلمون أنكم جميعاً آلهة وأسياد؟" الذات الكامنة في القلب، بذرة الإلهي، شرارة النور الروحي، الساكن في النور، الإنسان الباطني، كان الحاج الأبدي

المتجسد في المادة؛ أولئك الذين كان هذا حيًا وواعيًا بداخلهم كانوا الروحانيين أو بينيوماتك. يتحدث فالنتينوس إلى هؤلاء.

v. بعض الجمل المحفوظة في كتاب "المسألة المثيرة للجدل" لكليمنت بعد الاقتباس أعلاه، وربما مأخوذة من كتابات فالنتينوس.

لقد تجسد "العرق المختار"، الابن الثالث لباسيليدس، هنا من أجل إلغاء "الموت"، وجه الله. مجال حاكم العالم الظاهري، وسامسارا الفلاسفة البوذيين والهنود، ومجال "الصيرورة الدائمة" لأفلاطون.
هذا الحاكم هو إله العهد القديم. "لن

ص 304

يرى أحد وجه الله ويعيش." هذا هو وجه الموت، ولكن هناك أيضاً وجه الحياة، الذي كتب عنه فالنتينوس:

"بقدر ما تكون الصورة الميتة بعيدة عن الوجه الحي، كذلك يكون العالم الظاهري بعيدًا عن الأيون الحي [العالم غير المرئي]". ما هو سبب هذه الصورة إذن؟ جلالة الوجه [الحي]، [أو الشخص] الذي يُظهر نوع [الكون] للرسام، ولكي يتم تكريمه [الكون] باسمه [--اسم أو الوجود الحقيقي لجلالة الألوهية]. لأنه ليس الطبيعة الأصيلة [أو المطلقة] هي التي توجد في الشكل؛ بل الاسم هو الذي يكمل النقص في التركيبة. إن الطبيعة غير المرئية للألوهية تتعاون بحيث تحفز الإيمان بما تم تشكيله.

هنا لدينا نفس الفكرة كما في الجزء الأول، ومن المفترض أنها مأخوذة من نفس الرسالة. إن "الرسام" هو بالطبع مستخدم القوى الإبداعية للعالم الظاهري، الذي ينسخ من الأنواع أو الأفكار الموجودة في العالم الحقيقي الغير مرئي.
قال فالنتينوس إن من أطلق عليه اليهود اسم الله والأب هو "صورة ونبي الله الحقيقي"، وكلمة نبي تعني الشخص الذي يتحدث نيابة عن الله ويفسر كلامه. إن "الصورة" هي عمل صوفيا أو الحكمة، وهي "الرسامة" التي تنقل الأنواع من الفضاءات العالم غير المرئي إلى لوحة العالم الظاهري، و"الإله الحقيقي" أو "إله الحقيقة" هو خالق العالم غير المرئي، الذي يحتوي على أنواع كل الأشياء. هو إله الحياة؛ و"الصورة" هي إله الموت.

ص 305

"كل الأشياء التي تنبثق من زوج [أو اقتران] هي كمال (plērōmata)، ولكن كل ما ينبثق من واحد [إيون] هو صور."

سيتم شرح هذا لاحقًا؛ إنه يشير إلى "سقوط" صوفيا من عالم الأيون، والذي من خلاله نشأ الكون الظاهري.

إن ملاحظات كليمنت التي تلي ذلك مباشرة تكاد تكون غير مفهومة؛ فهي تتناول مجيء الروح "الممتازة"، وضخ شرارة النور في الإنسان.

vi. من رسالة حول جماعة الأصدقاء.

فيما يتعلق بأهل الحبيب ".كثير من هذه الأمور المكتوبة في المجلدات العامة، موجودة مكتوبة في كنيسة الله. أما تلك التعاليم المشتركة، فهي الكلمات التي تنبع من القلب، والقانون المكتوب في القلب. هؤلاء هم أهل الحبيب الذين يحبهم ويحبونه.

يفترض كليمنت أن فالنتينوس يقصد بـ "المجلدات العامة" الكتابات اليهودية وكتب الفلاسفة.

أما "المجلدات العامة"، بالنسبة لفالنتينوس، فلم تقتصر على أعمال الفلاسفة وكتب اليهود المقدسة فحسب، بل شملت أيضًا كتب جميع الأديان الأخرى المقدسة، وكذلك الوثائق المسيحية المتداولة بشكل عام. إنه يؤكد فقط أن الحقائق "العامة" أو المشتركة الوحيدة هي تلك المتعلقة بجماعة الأصدقاء، أو القديسين، الذين يشكلون كنيسة الله، شعب المحبوب. هذه الحقائق تنبع من القلب؛ وهو يحتج على النظرة الضيقة التي لا تجد الحقيقة إلا في مجموعة واحدة من

ص 306

الكتب المقدسة؛ ويعلن أنها موجودة في جميع الكتب المقدسة والفلسفات، إذا نظر المرء إلى الروح وليس إلى الحرف.

vii. مقطع مشكوك فيه للغاية من كتابات يولوجيوس الإسكندري في نهاية القرن السادس.

الجليليون. إذا أمكن قبول هذه الشظية على أنها أصلية، فإننا نعلم أن المسيحيين الأوائل، الذين يسميهم فالنتينوس "الجليليين في زمن المسيح"، كانوا يؤمنون بعقيدة الطبيعتين، بينما أكد الفالنتينيون أن هناك طبيعة واحدة فقط. هذا أمر معقول تمامًا، ويتبع خطوط حجة إيسيدوروس فيما يتعلق بوعي النفس ووحدتها ومسؤوليتها، وتعليم فالنتينوس بأن يسوع "عمل" على إظهار ألوهيته.

viii. الأسطورة التي صنعها فالنتينوس.

يُدرج هيبوليتوس (الثاني) المعلومة التالية وسط الوصف المطوّل لنظام ماركوس، والذي نسخه من إيرينيئوس:

حكمة "الصغير".يقول فالنتينوس إنه رأى ذات مرة طفلاً قد ولد للتو، وأنه شرع في استجوابه لمعرفة من هو. فأجاب الطفل وقال: "إنه اللوغوس". ويقول هيبوليتوس إن فالنتينوس ألحق بهذا "أسطورة مأساوية"، شكلت أساس تعاليمه. هل لدينا هنا حادثة من مقدمة إحدى رسائل فالنتينوس؟ وهل "الأسطورة المأساوية" هي تعديل فالنتينوس لأسطورة صوفيا العظيمة التي كانت بمثابة الحل الإلهي لجزء من علم الكونيات الخاص به؟

ص 307

ix. من مزمور.

وأخيراً، من نفس المصدر، كتاب "الفيلسوفومينا"، نستعيد الأسطر التالية؛ سلسلة الوجود. من المحتمل أن هيبوليتوس أخذها من نفس الرسالة التي استقى منها المعلومات المذكورة أعلاه، وأن المزمور سعى إلى شرح لماذا كان الطفل حديث الولادة هو اللوغوس، ولماذا "هذا" هو "ذاك"، كما ورد في الأوبانيشادات، وأن الكل واحد.

أرى كل شيء يعتمد على الروح؛ أرى كل
شيء مدعوم بالروح؛
الجسد يعتمد على النفس؛ والنفس
مدعومة بالهواء؛
هواء معلق من الأثير - ثمار نبتت
من الأعماق - طفل وُلد من
الرحم."

إن ما إذا كان هذا المزمور الصوفي للغاية قد تم فهمه بالمعنى الذي اقترحناه أعلاه أم لا، فهو مجرد مسألة إشكالية. يمكن بالطبع تفسير هذه الأقوال الصوفية من وجهتي النظر العالم الصغير والعالم الكبير؛ ويقدم لنا هيبوليتوس ما يؤكد أنه تفسير فالنتيني من وجهة النظر الأخيرة.

إن "الجسد" هو الهيلي (هيبدمد باسيليدس)؛ و"النفس" هي نفس الديميورج (القوة "المادية" للفضاءات الأثيرية، الأجدود باسيليدس)؛ ويتعلق الديميورج من الروح، التي هي من وجهة نظر معينة الحد الأعظم أو الحاجز، الذي يفصل البليروما، أو عالم الواقع، عن الكينوما أو الكون الظاهري،

ومن أخرى صوفيا أو الحكمة، في مملكة الوسط. وهكذا يتدلى الديميورج من صوفيا؛ وصوفيا من الحد العظيم أو حوروس (وهو تمييز إضافي للفكرة البسيطة الباسيليدية عن السماء العظيمة)؛ وحوروس من البليروما، الكنز المبارك للأيونات؛ وهذا العالم من الأفكار، أو الأيون الحي، من الهاوية أو العمق العظيم، الأب، الإله الذي يتجاوز الوجود.

هذه هي سلسلة الوجود الفالنتينية، التي تتسم تفاصيلها الفرعية بالغموض والتعقيد الشديدين، لدرجة أنه لم يتمكن أحد حتى الآن من وضع أي مخطط متسق من تمثيلاتها الفوضوية والمتناقضة في كتابات الآباء.

في مخطوطة ״الفيلسوفومينا ״، تسبق الكلمة المنفصلة "حصاد" الجزء المذكور أعلاه. وبناءً على ذلك يتحدث هيلجنفيلد عن فالنتينوس "الذي ينشد الحصاد العظيم"، وهو مفهوم عظيم للغاية، ولكنه فكرة يصعب ربطها بالسطور المقتبسة.

هذا هو المجموع الهزيل لمعلوماتنا حول ما تعلمه فالنتينوس بنفسه بالفعل - تسعة، أو بالأحرى ثمانية، شظايا متناثرة في المجموع. لكن يا لها من كلمات قوية ومبهجة، تنبض بالحياة، وسط رتابة خطاب المعترضين.

قد يبدو من المناسب إضافة الرواية التي نسخها إيرينيئوس (الفصل 11) من كاتب سابق في علم الهرطقات إلى هذه الأجزاء. من المفترض عمومًا أن هذه السلطة الأقدم كانت جاستن الشهيد؛ ولكن أيا كان، فقد كان مجرد

ملخص، وحتى في ذلك التاريخ المبكر في علم الهرطقات (حوالي 150)، كان يكافح مع الروايات المتناقضة

ص 309

التي سمعها عن غنوص "الفالنتينية". لذلك، أعتبر هذا المصدر لا يستحق اهتماماً خاصاً أكثر من الملخصات الأخرى لما يسمى بالعقيدة الفالنتينية العامة الموجودة في كتابات الآباء. ليس لدينا شيء مؤكد نتعلمه من تعاليم فالنتينوس نفسه، وهذا هو البحث الوحيد الذي ننخرط فيه حاليًا.

وهكذا نودع "المجهول العظيم" في الغنوصية، الذي كان اسمه مع ذلك الأكثر خيط أريادني للخروج من المتاهة. شهرة على الإطلاق، والذي كان تأثيره الأبعد مدى، والذي كانت مذاهبه، بدلاً من أن تكون نظامًا جامدًا من الكلمات الميتة، نابضة بالحياة لدرجة أن التمثيلات المتغيرة لها من قبل أتباعه في المقام الأول، والملخصات المحيرة والمبهمة التي قدمها الآباء لهذه التمثيلات المتغيرة في المقام الثاني، أثبتت يأس البحث العلمي. والسبب في ذلك في الغالب هو أنه في محاولة لإضفاء النظام على هذه الفوضى، تم اتباع الكلمات والمصطلحات كدلائل بدلاً من الأفكار. ليس فقط في حالة دورة أفكار الفالنتينية، ولكن أيضًا في كل مرحلة أخرى من مراحل الغنوص، فقد تم اتباع هؤلاء المرشدين المخادعين بشكل عام كقادة للخروج من المتاهة. لكن خيط أدريادني الذي يخرجنا من المتاهة مصنوع من الأفكار، وليس من الأسماء. كان الغنوصيون يغيرون مصطلحاتهم باستمرار؛ فإله نظام ما قد يكون شيطان نظام آخر! إن من يقوم بمطابقة الأسماء فقط، في الغنوصية، قد يظن نفسه محظوظاً لأنه نجا من مصحة عقلية؛ أما من يسعى إلى الفكرة الكامنة وراء

ص 310

الاسم، فغالباً ما سيجد نفسه في عالم من الجمال العظيم وتناغم الفكر. لطالما امتلك رجال مثل الغنوصيين حدساً عن حالة وجود حقيقية، وعن عوالم وعي محددة ودقيقة؛ ومع ذلك، لم يلمح أي منهم سوى لمحة خاطفة من الحقيقة، كما هو حال جميع الرجال طالما أنهم مسجونون في جسد. إذا استنفد الغنوصيون فلسفة ودين عصرهم في سعيهم لإيجاد غطاء لائق للحقيقة المجردة، كما اعتقدوا أنهم يرونها، فمن يلومهم؟ على الرغم من تناقضها مع بعضها البعض، من وجهة نظر الباحث عن الكلمات، إلا أنها لا تتناقض مع نفسها بالنسبة لمتبع الأفكار. إن الفكرة هي المفتاح الذي يفتح أسرار الغنوص، وأولئك الذين يرفضون استخدام هذا المفتاح الحي يجب أن يرضوا بأن يكون الكنز مغلقًا في وجوههم.

سنحاول الآن، قبل التعامل مع أتباع فالنتينوس، من خلال فوضى الملخصات، استخلاص بعض الأفكار الرئيسية لدورة فالنتينوس في الغنوص. إذا جمعنا كل هذه الروايات المتناقضة وخضعناها لتحليل نقدي، فمن المخشى أن القارئ العادي، الذي كُتبت هذه الرسومات من أجله، سيغلق صفحاتنا في حالة من اليأس؛ أو إذا حاول متابعة التفاصيل ووزن الاحتمالات، فسيصاب بحالة من الاضطراب العقلي تجعله ينسى كل ما سبق، ويصبح غير قادر تمامًا على فهم ما سيأتي بعد ذلك. يجب تخصيص هذا العمل التقني للمعالجة في مكان آخر، وفي الوقت نفسه سنحاول عدم تقديم شرح لنظام "أولئك

ص 311

الذين ينتمي إليهم فالنتينوس" - إن كان لديهم نظام محدد واحد - ولكن فقط رسم بعض الخطوط العريضة لأفكارهم حول علم الأيونات.

بعض الخطوط العريضة لعلم الأيونات.

من أجل الارتقاء بفكرنا إلى تأمل في المشكلات المتعالية التي انجذب إليها نحو الصمت العظيم. عقل هؤلاء الغنوصيين، ينبغي أن ننعش ذاكرتنا بمخطط النظام الباسيليدي الذي تم تقديمه أعلاه. من عالم البشر، أرضنا، يجب أن نعبر فكرياً عبر الفضاءات تحت القمرية، المرئية وغير المرئية؛ ومن ثم يجب أن نعبر ما وراء قبة القمر، السماء، إلى الفضاءات الأثيرية - عوالم النجوم، وسكانها اللانهائيين، ومساحاتها ومناطقها، ورتبها وتسلسلاتها الهرمية - التي يحدها عند أقصى حدود المكان والزمان، القبة العظمى، حلقة "لا تعبر"، التي تفصل الكون الظاهري عن كون الواقع خارج المكان والزمان. إنها حدود في كل مكان، ولا مكان في أي مكان.

هنا نودع الزمان والمكان، ونصل إلى منطقة المفارقة، لأن الإنسان الفاني لا يزال يتحدث عنها من حيث الأشياء الظاهرية - يسميها منطقة، على الرغم من أنها ليست منطقة؛ ويتحدث عنها على أنها أيون حي، على الرغم من أنها تتجاوز كل حياة؛ ويشيد بها على أنها عالم النور، على الرغم من أن نورها ظلام للعيون الفانية، بسبب وفرة بريقها.

هذا هو البليروما، عالم الكمال،

ص 312

عالم الأنواع المثالية والانسجام التام. يتراجع العقل عن ذلك، غير قادر على الفهم، ومع ذلك تصرخ الروح في الداخل إلى الإنسان بصوت لا يقبل الإنكار: "إلى الأمام أكثر؛ إلى ما وراء، وما وراء!" ثم يسود الصمت؛ فلا كلمات، ولا رموز، ولا أفكار يمكن أن تجدي نفعاً بعد ذلك. العقل صامت، والروح في سلام، في راحة في الصمت الأسمى للتأمل، والاتحاد مع الإلهي، والعمق العظيم - العمق، وباطن الأشياء، وما يتخلل كل شيء، ويمر عبر كل شيء.

العمق الذي يتجاوز الوجود. يقال إن الغنوصيين لدينا قد "بدأوا" بهذا المفهوم لبيثوس، أو هاوية العمق؛ لكن هذا خطأ. لقد أظهر باسيليدس بالفعل مدى استحالة تسمية الإله الذي يعلو كل شيء؛ فهل نعتقد أن الفالنتينيين قصروا عن هذه الحقيقة الواضحة؟ لا بأي حال من الأحوال؛ فقد علّم بعضهم عن ما وراء الأعماق، وهو تسلسل هرمي للأعماق؛ ومن الغريب أننا نجد مثل هذه التسلسلات الهرمية في مخطوطة بروسيانوس، ونجدها أيضًا مفترضة في رسالة بيستيس صوفيا. يا له من عبث أن نسعى إلى "بداية" في اللانهاية! إن مثل هذا المفهوم كبداية كان منخفضًا في سلم الوجود؛ يمكننا أن نتحدث عن "بداية" كون ظاهري خاص، ولكن هناك عدد لا نهائي من هذه الأكوان، واللانهاية ليس لها بداية.

وراء البليروما، أو النموذج المثالي لجميع الأكوان، كان هناك ماذا؟ صمتٌ أشدّ وطأةً من الصمت، وأعماقٌ أعمق من الأعماق! كم كان الفالنتينيون ليسخروا من فكرة إسناد نظرية أحادية أو ثنائية إلى حدسهم حول ما يكمن وراء الوجود، وجعل

ص 313

هذا أساسًا لتقسيمهم إلى مدرسة شرقية وأخرى غربية! لكن هذا ما فعله هيبوليتوس (الثاني) والعديد من النقاد المعاصرين.

فلنترك إذن السر في صمت ذلك العمق الذي يتجاوز الوجود - وهو صمت، كما لو كان، يفصل البليروما عن العمق الذي يتجاوز الوجود بحدود أعلى من السماء العظيمة. كان هذا الحد الأعلى يقع في أعمق أعماق البليروما نفسها، العالم الداخلي، تمامًا كما كان الحد العظيم يقع وراء أعماق العالم الخارجي الظاهري. إن الفكرة التي ينطوي عليها مصطلح "العمق" تبعد الفكر عن جميع أفكار المادة ثلاثية الأبعاد، كما نعرفها، وتقدمه إلى مفهوم "المرور" في كل اتجاه في نفس الوقت، من الداخل والخارج أيضًا.

علينا الآن أن نتناول "وجود" البليروما الخاص بالأيونات. كل "كائن" في عالم إيون."كمال الوجود" (البليروما) كان بدوره "كمالاً" أو مثاليا، وقد ظهرت طبيعة حياة هذه "الكائنات" في أسمائها. أطلق عليها اسم "الأبدية" أو "الخلود"، لأنها كانت خارج الزمان والمكان. كل شيء خارج البليروما، أي كل شيء في الكون الظاهري، على العكس من ذلك، كان "صورة" أو نقصًا. لذلك أطلق على العالم الظاهري أسماء مثل الكينوما أو "الفراغ"، والصورة، وما إلى ذلك.

لكن من الواضح أنه إلى أن نصل إلى العالم الظاهري، لا يمكن لأي لغة بشرية ممكنة أن تخدمنا في التعبير عن أنماط الوجود التي تتجاوز العمليات الكونية. ومع ذلك، كان على صلابة

ص 314

العبقرية الغنوصية أن تجد طريقة ما يمكنها من خلالها أن تلمح إلى طريقة وجود الأيونات، التي كانت خارج الزمان والمكان بحكم الفرضية. فلننتقل إذن إلى إحدى الطرق التي تم من خلالها محاولة تحقيق ذلك. لم يكن الأمر أن الغنوصيين يعملون من الأسفل إلى الأعلى، بل كانوا يتلقون من الأعلى ويحولونه إلى مادة؛ باختصار، كانت تفسيراتهم محاولات لوصف رمز حي، يقال إنه ظهر لهم في رؤيا.

الأجسام الأفلاطونية. الآن، أعلن فيثاغورس وأفلاطون، والمعلمون في الأسرار، أن المادة الفيزيائية ذات طبيعة هندسية في نهاية المطاف؛ وأن الله في كل شيء "يُهندس". وهكذا شكلت الأجسام الصلبة المنتظمة الخمسة قمة المعرفة الهندسية للمدرسة الأفلاطونية. وبسبب الاهتمام الذي أولته هذه المدرسة لهذه الأجسام الصلبة، أطلق عليها التاريخ اسم الأجسام الأفلاطونية. يقول برقلس إن كتاب العناصر لإقليدس بأكمله لم يكن سوى مقدمة لهذا العلم الخاص بالأجسام الصلبة المثالية. كان يُعتقد أن هذه الأشكال متعددة الأوجه تقع في الجزء الخلفي ليس فقط من تكوين الأرض، ولكن أيضًا من كل جنس ونوع وفرد في الكون المادي. من الغريب أنه لم يتم إهمال أي موضوع في الرياضيات مثل موضوع الأجسام الصلبة المنتظمة؛ ولكن هكذا هو الحال، ويسخر المعاصرون من هذه "الحماقات" القديمة.

لإعادة اكتشاف وتطوير جزء من هذا العلم خلال السنوات الست الماضية، يجب أن أحيل "القارئ العزيز" إلى أعمال العالم الإسباني الشاب، السيد سوريا إي ماتا.

بالطبع، لن يتمكن أي شخص جاهل تمامًا

ص 315

بالموضوع من فهم الإشارات العامة التالية بشكل كامل؛ ولكن طبيعة اللافتات هي الإشارة إلى اتجاهات معينة، وليس مرافقة المسافر على طول الطريق؛ و"القارئ اللطيف" الذي يحتاج إلى مثل هذا التوجيه الشخصي يجب أن يبحث عنه في مقالات السيد سوريا الرائعة. في الوقت الحالي، يقتصر عملنا على وضع اللافتات الإرشادية؛ وهكذا نعود إلى مهمتنا.

لكن حتى لو افترضنا، كما قد يقول أحدهم، أن المواد الصلبة الخمسة (التي هي جميعها اختلافات لواحد في تركيبات مختلفة مع نفسه) لها علاقة ما بالعناصر النموذجية التي تشكل البنية الجزيئية غير المرئية للمادة الفيزيائية، فما علاقة ذلك بالغنوصيين الفالنتينيين؟ قد نجيب على سؤالك بشكل قاطع. ماركوس، أحد أوائل أتباع فالنتينوس، لديه نظام ترقيم كابالي معين منسوب إليه، وفي هذا الصدد يصرح هيبوليتوس (الثاني) بأن الفالنتينية بأكملها كانت تستند إلى أرقام وهندسة فيثاغورس وأفلاطون.

ومع ذلك، لم يتم تقديم أي دليل إضافي على هذه العمومية الشاملة، ولم يقدم أي باحث حتى الآن الحلقة المفقودة. ومع ذلك، فمن المعقول تماماً أن يكون علم الأيونات في مدرسة فالنتينيان قد استند جزئياً على مثل هذه الاعتبارات. دعونا إذن نحاول تقديم بعض الاقتراحات حول هذا الموضوع، ليس من الترقيم المنسوب إلى ماركوس، ولكن من الجانب الحي للرياضيات الفيثاغورية والأفلاطونية، *"mathēsis"* التي كانت هي نفسها *"غنوص"*، والتي يقال إن فيثاغورس نفسه أطلق عليها اسم "غنوص الأشياء الموجودة".

ربما كان هذا هو المسار الفكري

ص 316

الذي سعى من خلاله بعض المفكرين الغنوصيين إلى إيجاد رمزية حية. رمزية حية، ينبغي أن تلمح بطريقة ما إلى كيفية وجود الأيونات. انطلاقاً من منطقة المادة متعددة الأوجه المحددة، والتي يمكن تخيل ترتيبها في العقل رغم أنها غير مرئية للعين، يمكن دفع الرمزية إلى مرحلة أخرى - من الجزيئي إلى الذري كما نقول في الوقت الحاضر. وهكذا كانت الأجسام الصلبة المنتظمة هي النتيجة النهائية في المادة الفيزيائية لأنظمة معينة من التوازن المثالي لـ "النقاط" في الفضاء. لم تكن هذه النقاط مجرد تجريدات رياضية بحتة، بل كانت مراكز قوة فعلية، تربطها علاقات معينة ببعضها البعض، وتتوازن بقانون القطبية أو الاقتران. كانت هذه منطقة الذرة. كان يُعتقد أن الذرة كائن حي من القوة، كرة، قال البعض إنها دوامة كروية ("مخروطية")، الشكل الأكثر كمالاً، تنكمش وتتمدد باستمرار، مولد لجميع الحركات، بينما هي نفسها ذاتية الحركة، ومع ذلك من وجهة نظر أخرى "غير متحركة"، باعتبارها تتعلق بـ "أسس الأرض". إنه أصغر من الصغير كالمادة، ولكنه أكبر من الكبير كطاقة.

إذن، كما نقول اليوم، كانت الذرة وتراكيبها هي التي تصورتها المعرفة الغنوصية الفالنتينية في علم الوجود الخاص بها. ومع ذلك، لا أقترح للحظة أن أي فيلسوف غنوصي فكر في الذرة بنفس الطريقة التي يفكر بها الفيزيائي الحديث؛ بل أعتقد، على العكس من ذلك، أن أكثر الغنوصيين تقدماً قد رأوا هذا الرمز الحي لتكوين العالم في رؤيا، وأن الأنظمة المختلفة كانت محاولات لتفسير مثل هذه الرؤى. بالطبع، أي رمز بعيد

ص 317

كل البعد عن الواقع، لكن السعي إلى تخيل، أو شرف رؤية، النوع الحي الكامن وراء أبسط أنواع تكوين المادة الفيزيائية، هو على أي حال أقرب إلى الواقع من أي شكل مادي ميت. وهكذا يمكن اعتبار الذرة وأبسط أنماط وجودها المتمايزة رموزًا لعالم الأيونات، البليروما، عالم الحياة والنور، ما وراء الزمان والمكان، القلب الذي لا يتحلل للأبدية.

قد يكون الرأي التالي ذا أهمية لطلاب الرمزية، الذين عادةً ما يقتصر اهتمامهم على الأشكال المستوية فقط، وبالتالي يتعاملون كما لو كانوا مع "ظلال الموتى". إن الشكل المسطح، إذا جاز التعبير، ليس سوى ظل لجسم صلب ميت؛ إن نظام القوة الحي الموجود خلف أو داخل الأخير هو الشرارة الأولى للحياة في السلسلة. ولرؤية هذا بشكل أوضح، دعونا نأخذ رمزًا مألوفًا، وهو المثلثات المتشابكة أو "خاتم سليمان". في المواد الصلبة، يتم تمثيل هذا الرمز بواسطة اثنين من رباعيات الأوجه المتداخلة؛ ومن هذا الاتحاد يأتي المكعب وثماني الأوجه. يأتي الشكل ذو الاثني عشر وجهًا والشكل ذو العشرين وجهًا من الالتقاء المتبادل لخمسة أشكال رباعية الأوجه، وهو ما يُعرف بالتضاعف الخماسي. وهكذا أصبح لدينا خمسة مواد صلبة منتظمة. النوع الأساسي هو رباعي الأوجه، ونظام القوى الذي يقف وراءه يتكون من زوجين من الذرات، أو اقتران مزدوج أو زوج في حالة توازن تام. إن طبيعة العلاقة بين هذه الذرات أو الكرات (المجالات) مع بعضها البعض، وتفاعل حركاتها، هي نمط حياة أو وجود الرمز؛ وعندما يتم تعلم ذلك، يصبح الرمز حيًا، وبالتالي فإن القوى

التي يرمز إليها "ظل" المادة الصلبة "الميتة" تكون في يد من يحل "اللغز". كان أحد أشكال السحر القديم، وخاصة الذي كان يمارس في مصر، يتألف من امتداد معقد للغاية لهذه الفكرة، والذي تجاوز بكثير حدود الرموز الهندسية. وغني عن القول أن الغالبية العظمى ممن مارسوا هذا الفن لم يكن لديهم أدنى فكرة عن "أسباب" عروضهم. لم يكن السحر بالنسبة للعامة أمراً منطقياً على الإطلاق. لقد كانت تتألف من عدد لا حصر له من "القواعد العامة"، وبالتالي، فإن هذا الجانب منها يعتبر، وبحق، من قبل عصر البحث الذكي الحالي خرافة.

"البعد الرابع." وبالتالي، سيسعى الطالب الذكي في علم الرمزية إلى تحرير عقله من قيود الفضاء ثلاثي الأبعاد، والتفكير في حالة ما يسمى "البعد الرابع". لأنه فقط من خلال هذا الخط الفكري يوجد أي أمل في أدنى تصور للوجود الأيوني. بما أن هذه المسألة ذات أهمية قصوى لطالب الغنوصية، وفي الوقت نفسه مسألة بالغة الصعوبة، يمكن اقتراح خط التفكير التالي كتمرين تمهيدي. تخيل الذرة، أو الموناد، على أنه كرة تولد نفسه، أو تنتفخ، من نقطة وتعود إلى تلك النقطة مرة أخرى. وهذا يعطي فكرة بسيطة عن الموقع. خذ كرتين من هذا النوع في نفس لحظة التمدد، أي كرتين متساويتين، وضعهما في اتصال متبادل. يمكن القيام بذلك بعدد لا نهائي من الطرق، بحيث يمكن أن يكون أحدهما في أي اتجاه مع الآخر.

اختزل هذه المجالات في الفكر إلى نقاط رياضية،

وستحصل على أبسط فكرة عن الامتداد - بُعد واحد. النقطتان هما طرفا أو حدود الخط.

بعد ذلك، خذ ثلاث كرات متشابهة واجعلها تتلامس مع بعضها البعض. يمكن وضعها في أي اتجاه من واحد إلى آخر. قم باختزالها في الفكر إلى نقاط، وسيكون لدينا ثلاث نقاط ليست على خط مستقيم، أو تقع على سطح مستو، أو أسطح ثنائية الأبعاد. ثم خذ أربع كرات من هذا النوع واجعلها تتلامس مع بعضها البعض. قم بتقليصها بدورها إلى نقاط، وتتطلب مواقعها مساحة ثلاثية الأبعاد. وأخيراً، خذ خمس كرات من هذا القبيل وحاول أن تتخيل كيف يمكن جعلها على اتصال متبادل، أي كيف يمكن لكل واحدة منها أن تلمس البقية. لا يمكن تصور هذا في ثلاثة أبعاد، ويتطلب تصور "بعد" آخر - شيء له علاقة بمحتوى الكرات - فكرة "من خلال". لا يبدو هذا وكأنه "بعد رابع" بقدر ما هو انقلاب في الإدراك، وإعادة تتبع المسار الذي اتبعناه حتى الآن.

فعلى سبيل المثال، الفضاء ثلاثي الأبعاد مخصص للرؤية العادية المحدودة بالأسطح؛ أما أولئك الذين لديهم رؤية داخلية ("رؤية رباعية الأبعاد") فيقولون إن محتويات جسم ما - على سبيل المثال، ساعة - تظهر، بطريقة غير مفهومة، منتشرة أمامهم كما لو كانت على سطح. إذا كان الأمر كذلك، فإن الفضاء ثلاثي الأبعاد، وهو الحلقة الرابعة في سلسلتنا، هو نقطة التحول، وبالتالي فإن الوعي يتجه نحو الداخل مرة أخرى نحو تلك النقطة، والتي عند الوصول إليها ستصبح المحيط غير المحدود، أو البليروما الوعي - "الذرة" النيرفانا، إن صح التعبير.

ص 320

دعونا الآن نحاول أن نتخيل كيف رمز الغنوص للكون المثالي، وهو نموذج لجميع الأكوان - الذرة البدائية أو الموناد، وحركاتها، وأنماط التمايز الذاتي والانبعاث الذاتي داخلها. كان موضوع تأملهم مطابقًا لعالم الأفكار، أو العالم المعرفي، عند أفلاطون؛ وعالم النور عند إيران القديمة؛ و"البيضة الأبدية"، أو النموذج، الذي تنبثق منه جميع الأكوان، عند خيم القديمة؛ و"الجرثومة المتألقة"، أو هيرانيا-غاربا، عند الأوبانيشادات - وكل ذلك تم عرضه بشكل حدسي بعبارات فلسفية من قبل لايبنتز في كتابه "المونادولوجيا".

الذرة الأبدية. أولاً، لدينا مفهوم كرة لا متناهية من النور، نور يتجاوز مجد الشمس الأكثر سطوعاً، كما يتجاوز مجد تلك الشمس لهيب ضوء القصب؛ نور يتجاوز الفكر. حتى الآن لا يوجد شيء سوى النور اللامتناهي؛ ومع ذلك، هناك دائمًا شيء ما يتحرك من خلاله، كما لو كان من وإلى مركزه، الذي هو في كل مكان ولا مكان، نفس يتنفس باستمرار، طاقة لا نهاية لها لا يستطيع أي إنسان إدراكها أو معرفتها. إنها نَفَس الحياة للكون عند نقطة الصفر للوجود، بتعبير مألوف لبعض طلاب الفلسفة الثيوصوفية.

ننتقل بعد ذلك إلى ما يجب أن نسميه تغيير الحالة؛ ولكن يجب أن نتذكر أن جميع الحالات التي نحاول أن نرمز إليها بهذه الطريقة موجودة في الواقع في وقت واحد؛ وعلى الرغم من أننا في الفكر نتبع نوعًا من الانبثاق أو التطور، إلا أنها في الواقع حالة وعي لا نهائية موجودة دائمًا خارج الزمان والمكان.

في هذا المجال النابض باستمرار للطاقة الكونية

ص 321

(التي هي في كل مكان ولا مكان)، ينشأ شيء أقل تألقًا بقليل من قانون الاقتران المتعالي. النور، وهو نمط آخر من أنماط الحركة، والذي يمكننا أن نرمز إليه على أنه شكل بيضاوي أو دوامة تشبه البيضة، تتضخم وتتقلص باستمرار. ضمن هذا تتطور بؤرتان تدريجياً، حيث تنبض وتتضخم.

ينكمش المحيط الداخلي لغلاف البيضة في المنتصف بفعل البؤرتين، رمزي التوازن، الإيجابي والسلبي، قانون الاقتران أو التزاوج. انفصل الاثنان. بيثوس وإينوا، العمق والفكر، هما أول اقتران بين الأيونات، ويرمز إليهما الآن بكرتين. وباعتبارهما منفصلين، فإنهما يتأثران بطريقة غامضة بشكل مختلف بعملية الزفير والشهيق، ومع ذلك فإن كل منهما يُظهر صفات الآخر. أحدهما إيجابي والآخر سلبي، كما لو كان الأمر كذلك، وهذه الصفات تنتقل على الفور إلى كامل كرة النور العظيمة، لأنها موجودة في كل مكان ولا مكان في آن واحد. وهكذا يُذكر أن القطبية هي نمط من أنماط وجود البليروما؛ ويتم تأكيد قانون الاقتران.

لكن مع ظهور الثنائية، يجب أن يتبعها التعدد؛ وليس التعدد فحسب، بل الشمولية أيضاً. لأن البليروما يجب أن يكون في آن واحد نموذج الواحد والكثير والكل، ويجب أن يجد كل من التوحيد والتعددية ووحدة الوجود مصدره فيه.

لكن عند اتباعنا للصور الرمزية، لا يمكننا التفكير في الكل دفعة واحدة. نحاول أن نتصور أن أي عملية نكتسب حدسًا عنها من خلال رموزنا، تحدث في كل مكان، ودائمًا، وفي وقت واحد مع كل عملية وطريقة أخرى للوجود؛ ولكن لا يمكننا الحصول على

ص 322

صورة ذهنية لهذا. لا يمكننا الانتقال من عملية إلى أخرى إلا من خلال تتبع سلوك زوج واحد من رموزنا الحية. لنتابع إذن.

وهكذا لدينا مجالات تتطور، كل منها إيجابي-سلبي في حد ذاته، ولكنه إيجابي أو سلبي في علاقته بالآخر. سنعتبر أحدهما إيجابياً والآخر سلبياً، وبالتالي سنحاول تخيل تغيرات الوضع. بينما تتمدد الكرتان التوأمان وتتقلصان بدورهما، وعندما تتلامسان، ينبعث من الجانب السلبي "حجاب" أو "ضباب" وكأنه "يرسم" كرة الضوء العظيمة.

قانون التمايز. تم إعلان قانون التكثيف والتمايز الدائم. في كل إنكماش، نصبح الكرة السلبية أقل إشراقًا وأكثر سلبية كما لو كان، على الرغم من أن "الأدنى" في الواقع يتجاوز بكثير أكثر الإشعاعات إشراقًا في الكون. يقوم متطور كرة النور السلبية بتحويلها إلى ذرية، ويميز مادتها، التي تم تشريبها بواسطة كرة النور الإيجابية. أي أن عالم النور ينقسم إلى "مستويات" من الوجود؛ فهناك "حجاب" و"سماء". لكن كم عددها وما نوعها؟

يجب أن أحيل القارئ مرة أخرى إلى مقالات السيد سوريا حول الأصل متعدد الأوجه للأنواع من أجل السلسلة الوحيدة الممكنة من الأنظمة الفيزيائية للتوازن المثالي للكرات ذات القطر المتساوي، من اثنين فصاعدًا، إذا كان سيتابع هذه المشكلة المثيرة للاهتمام بمزيد من التفصيل ويحل المسألة بنفسه. يكفي في الوقت الحالي أن نذكر أن التسلسل الهرمي الأيوني الأول للـ بليروما الفالنتينية يقال إنه كان عبارة عن الأجدود، أو مجموعة من ثمانية، والتي كانت تعتبر أحيانًا عبارة عن رباعي

ص 323

مزدوج - في الرموز الحية، نظام التوازن وراء اثنين من رباعيات الأوجه المتداخلة بالتساوي.

ومع ذلك، هناك نقطة جديرة بالاهتمام لا ينبغي إغفالها، وهي تلك التي تنبع الثلاثة والسبعة. من دراسة النمط الثماني للـ بليروما. لم يعد يُنظر إلى بيثوس و إينوا على أنهما زوج واحد؛ فقد أنتجت إينوا، الكرة السلبية، ذرية. هي الآن من نوع الطبيعة "ذات الأردية السبعة"، إيزيس؛ بينما بيثوس هو العمق العظيم أو "دوامة الماء"، أوزيريس، الحبل. الكرة السلبية الآن هي سبع كرات (نفسها، وست كرات مماثلة لها والكرة الإيجابية) - أي ثلاثة أزواج من الأيونات. هنا لدينا نموذج الكرة الواحدة للتماثل، والكرات السبعة للاختلاف، لروح العالم الفيثاغورية والأفلاطونية. كما أن كتابي "الأجدود" و"هيبدمد" لباسيليدس لهما نماذجهما الخاصة هنا.

وهكذا، بعد إعلان قانون الثنائية، أو الاقتران، نجد بعد ذلك قانون التثليث الذي تم تأكيده في ثلاثية الاقترانات التي يتم فيها تمييز الكرة السلبية. هذه هي المراحل أو المساحات الثلاث الكبرى لـ بليروما ، وقد أطلق على أنماط الاقتران أو أنماط القطبية لهذه المراحل اسم العقل-الحقيقة، والكلمة-الحياة، والإنسان-الكنيسة، لأسباب غامضة إلى حد ما، والتي سنعود إليها لاحقًا.

ثم يُخبرنا عن اثني عشر وعشرة إيوانا الاثنا عشر والعشرة تدين بوجودها إلى واحد أو آخر من اقترانات الأجدود. تتناقض روايات نشأتهما تماماً؛ ففي بعض الأحيان يتم وضع العشرة قبل الاثني عشر، ونظراً لأن العشرة تأتي بشكل طبيعي قبل الاثني عشر، فقد فضل النقاد

ص 324

هذا الترتيب دون استثناء. إن الأمر في أحسن الأحوال مجرد تكهنات في مثل هذه الفوضى، لكن التجربة تدفعنا إلى اختيار الأقل احتمالاً باعتباره التفسير الأكثر صحة. ما الذي دفع بعض الفالنتينيين إلى وضع الاثني عشر قبل العشرة إذا لم تكن رمزيتهم تستلزم مثل هذا الترتيب؟

لذلك سنعتبر المراحل الرئيسية لـ بليروما هي تلك التي يرمز إليها الأجدود و اثنا عشر و عشر على التوالي؛ ليس لأن أحدهما جاء من الآخر في الواقع (فقد وُجدوا جميعًا معًا إلى الأبد)، ولكن لأن الرموز الحية موصوفة في أسطورة درامية، وسنقدم أحد أشكالها للقارئ قريبًا.

إن مصطلح الأجدود يشير إلى عمليات العمليات الحية الكامنة وراء رمز رباعي الأوجه المتداخل، وبالتالي يشمل جميع تباديل نسلهما التكميلي (المكعب وثماني الأوجه). وهكذا تم تقسيم الثماني إلى رباعي أعلى ورباعي أسفل، وبطرق أخرى متنوعة، بما في ذلك الواحد والسبعة كما هو موضح أعلاه؛ يمكن تمثيل الواحد والسبعة من خلال الحقيقة الهندسية الغريبة أنه إذا تم أخذ سبع دوائر متساوية، وتجميع ست منها حول الدائرة المركزية، فسيتم العثور على كل محيط على التوالي يلامس دائرتين متجاورتين والدائرة الموجودة في المنتصف، بينما يمكن وصف الدائرة الأكبر حول جميع الدوائر السبع. هذا بالطبع ليس سوى ظل رمز، ويقصد به فقط أن يكون بمثابة وسيلة تذكير؛ لكن الحقيقة غريبة، ولم ينظر الأفلاطونيون إلى مثل هذه الحقائق الطبيعية باستخفاف كما ينظر إليها المحدثون، خاصة عندما يتعلق الأمر

ص 325

أكثر الأشكال كمالاً - الدوائر والمجالات، الرموز الطبيعية للكمال أو plērōmata.

لقد وصلنا الآن إلى مرحلة يتم فيها تمثيل تمايز البساطة الأولية المجسم ذو الاثني عشر وجهاً. بواسطة مجموعات من اثني عشر؛ نمط وجود البليروما هو الآن الاثنا عشر. من الحقائق الغريبة أنه إذا تخيلنا الفضاء مليئًا بالكرات ذات القطر المتساوي والمتصلة ببعضها البعض، فسنجد أن كل كرة محاطة باثنتي عشرة كرة أخرى بالضبط؛ علاوة على ذلك، إذا تخيلنا أن الكرات مرنة، وأن الضغط يُسلط على أحد هذه الأنظمة المكونة من اثنتي عشرة كرة، من كل جانب في وقت واحد، فإن الكرة المركزية أو الثالثة عشرة ستتخذ شكلًا اثني عشريًا - في الواقع، شكلًا معينيًا اثني عشري الأوجه.

وإذا تذكرنا أيضًا أن هناك ذكرًا متكررًا لـ "الأيون الثالث عشر"، الذي حير جميع المعلقين حتى الآن؛ وأن الفيثاغوريين والأفلاطونيين والفلاسفة الهنود أكدوا أن المجسم ذو الاثني عشر وجهًا هو رمز الكون المادي؛ وأننا نؤكد من قبل بعض الذين لديهم رؤية نفسية أو استبصارية اليوم أن مجال نشاط الذرة محصور في مجسم معيني ذي اثني عشر وجهًا؛ وأن "الأبراج الاثني عشر" ظلت حتى الآن مجرد فرضية غير عقلانية - فقد نميل إلى الاعتقاد بأن هناك سببًا وجيهًا للإصرار على الاثني عشر وجهًا كمرحلة مهمة من مراحل الوجود الأيوني.

علاوة على ذلك، من المفترض أن تكون كل مرحلة من مراحل البليروما إيجابية بالنسبة للمرحلة التي تليها. وهكذا فإن بليروما ككل إيجابي للمرحلة الثنائية؛ في المرحلة الثنائية،
يكون بيثوس إيجابيًا لـ إينوا ، الذي

يصبح متنوعًا وسبعة أضعاف. السبعة أضعاف موجبة لمرحلة الاثني عشر، والتي تتكون من ثلاثة عشر كرة.

إذا فكرنا في الـ اثنا عشر على أنه مجسم ذو اثني عشر وجهًا ، فسوف نتعامل مع الكون الظاهري، وبالتالي سنكون بدون بليروما ؛ هنا نتعامل مع النوع الحي الكامن وراءه، في عالم الأيون، أي نظام الكرات الثلاث عشرة التي تؤدي إلى مجسم ذو اثني عشر وجهًا في العالم المادي.

يحتوي كل واحد من هذه الثلاثة عشر في حد ذاته على الأنماط السبعة للوجود في المرحلة السابقة، وبالتالي، في كل نظام من ثلاثة عشر، يوجد في الواقع عدد كبير من النسل. هؤلاء هم أبناء تلك المرحلة من الوجود التي يمكننا أن نسميها تعدد التماثل، أي المحيط الذري للكرات المتجاورة المتشابهة؛ وهم بدورهم يخضعون لتغيير سيؤدي في النهاية إلى ترتيب متناغم أو كمال، والذي يُشار إليه في النهاية بالرقم الكامل عشرة، أي العقد.

العقد. كيف ننتقل إذن من العقد ذي الاثني عشر إلى العقد ذي العشرة، من المادة الذرية إلى الشكل المثالي؟ ربما بطريقة ما من هذا القبيل. كل كرة حية، تتحرك بكل الطرق في آن واحد، إن صح التعبير، ومع ذلك فهي ساكنة بمعنى آخر. أنواع الحركة الخارجية هي: لأعلى، ولأسفل، ولليمين، ولليسار، وللخلف، وللأمام، وللدوران - سبعة أنواع في المجموع؛ إلى هذه الأنواع يجب أن نضيف الداخل والخارج، وحركة لا يمكننا تخيلها. وهكذا نصل إلى مرحلة جديدة من الوجود من خلال العقد أو العشرة، والتي تبدأ، كما لو كانت، سلسلة أخرى من الحركات على مستوى أعلى (1، 2، 3، إلخ، ثم 11، 12، 13، إلخ).

إن الحركات السبع، أو أنماط الحياة، في كل

نظام من ثلاثة عشر كرة، تكون بسيطة في الكرة الكبيرة التي تحيط بالثلاثة عشر - الكرة الرابع عشر أو حدود النظام؛ ولكن في الكرات الثلاثة عشر الفرعية، تعمل أنماط الحركة وتتفاعل مع بعضها البعض (لأن كل كرة فرعية تتصل بالعديد من الكرات الأخرى) وتنتج عددًا من الأنماط الأخرى ذات الطبيعة الفرعية، وهي (7 $\times$ 13 أو) 91. وإذا أضفنا إلى هذه المعدلات السبعة البسيطة للحركة كحكام، فسيكون لدينا في المجموع 98 (91 + 7) نمطًا مختلفًا. نضيف إلى هذه الأنماط الأعلى، وهما الشهيق والزفير، وبذلك يصبح المجموع 100. المئة هي كمال (10 $\times$ 10) العدد الكامل (10). سنرى لاحقًا كيف وجد الغنوصيون أنفسهم مضطرين، في أحد أنظمتهم، في إتقانهم لـ بليروما ، إلى إضافة اثنين من الأيونات، وبالتالي أدخلوا المسيح والروح القدس في أسطورة دراما- بليروما.

وهكذا تم الحصول على المئة على طول خط تطور الأجدود واثنا عشر، عن طريق إضافة عاملين جديدين، أو عملية اقتران جديدة، مما أدى من خلال مسار تبسيط آخر إلى العشرة، وهو عدد الإتمام.

والآن قيل أن جذور الأيونات في البليروما هو ثلاثون (8 + 12 + 10)، والتي يمكننا أن نضيف إليها المسيح والروح القدس - ممثلي بيثوس وسيغي (الصمت) وراء البليروما - وأخيراً ذلك الذي وراء كل شيء، وبذلك نحصل على ثلاثة وثلاثين، وهو عدد الآلهة الفيدية الثلاثة والثلاثين، والـ 8 فاسوس، والـ 12 أديتياس، والـ 10 رودراس، مع رودرا أعلى على رأسهم، والسماء والأرض.

كما أن الرقم 100 يعطي تلميحًا لتفسير

ص 328

شرح ترتيب المراحل الفرعية لـ بليروما ، كما هو موجود في النظام الذي نسبه هيبوليتوس (II.) إلى الدوسايتون، حيث تم ذكر "الثلاثين والستين والمائة".

لا أقترح للحظة واحدة أن هذه التكهنات كانت أساس علم الأيونات الغنوصي؛ أعتقد أن الغنوصيين قد "أظهروا" لهم علم الأيونات في رؤيا، وأنهم وجدوا أوجه تشابه لما تم عرضه عليهم، في الطبيعة وفي علوم ذلك الوقت. أعتقد أن فيثاغورس قد أظهرت له نفس الحقائق وقام بحلها باستخدام الرموز الرياضية. كان الغنوصيون على دراية بنظام أتباعه - وهو نظام لم يصل إلينا للأسف إلا أجزاء ضئيلة منه - وقد استخدموا بلا شك حسابه اللاهوتي وهندسته للمساعدة في تفسيراتهم؛ لكن هذه لم تكن سوى وسيلة واحدة من بين عدد من الوسائل التي استخدموها لنفس الغرض. لكن لنواصل حديثنا عن علم الأيونات.

الفوضى. ولكن كيف، من كمال البليروما (لأن كل واحد من الأيونات كان كمالًا أو بليروما بدوره)، سيأتي النقص أو عدم الكمال في المادة الكونية، والتي ينبغي أن تكون بمثابة المادة التي ستتشكل منها "صور" أو "مخلوقات" الكون؟ حتى الآن، أنتج الرمز الحي لـ بليروما كرات مثالية، كلها في أزواج، كرة فاتحة وأخرى أقل إضاءة أو "أكثر قتامة"؛ لأن الاثني عشر والعشرة، تمامًا مثل الثمانية، تتكون من أزواج. وقد نتجت المراحل المختلفة عن تأثير الأجسام الكروية المضيئة على الأجسام الكروية "الأكثر ظلمة". لكن الآن يحدث تغيير

ص 329

جديد. هناك تفاعل بين الكرات "المظلمة"؛ والنتيجة لم تعد كرة مثالية متأصلة في الحركة، بل كتلة غير متبلورة، بمعنى ما خارجة عن البليروما،

باعتبارها أدنىمنها، أو ليست من طبيعتها. عندما يحدث هذا، يسعى النظام بأكمله، كما لو كان، إلى تصحيح نفسه، تمامًا كما تفعل أعضاء وخلايا جسم الإنسان عندما يحدث أي خطأ فيه، لأن البليروما هو الجسد الروحي للإنسان السماوي. لكن الأيونات المختلفة في حد ذاتها لا تستطيع تحقيق غرضها، فهي لا تستطيع العمل إلا على "عدم الشكل" عندما تتحد معًا. من كل واحد من الأيونات الثلاثين، كما لو كان الأمر كذلك، ينبعث شعاع، وكل الأشعة بطريقة أو بأخرى، تشكل أيونًا جديدًا أو كرة من الضوء، والتي تُكوّر الكتلة غير المتبلورة، أو "الإجهاض"، وتحرقها لتشكل شكلًا، وتدخل فيها، وفي النهاية تعيدها إلى الباقي.

هذا هو الرمز الحي للدراما العالمية، وقد صاغه الغنوصيون بتفاصيل أسطورية كثيرة. بالنسبة لكل شيء أسفل البليروما، فإن البليروما واحد، شيء واحد، يحتوي على قوى جميع الأيونات؛ إنه "الأيون الحي" ويؤثر على المادة الكونية، التي لا شكل لها، وبالتالي يمنحها شكلاً ويخلق الكون. لكن هذا ليس سوى "التشكيل وفقًا للجوهر"؛ هناك أيضًا "تشكيل وفقًا للمعرفة"، أو الوعي، والذي يتعلق بالجزء الخلاصي من الدراما.

يبدو أن الفكرة كانت أن "الإجهاض"، أو الفوضى، كان خالياً من دوامة الحياة أو مركزها. ثيوس. الدوامة هي بمثابة إصبع النار، أو شرارة النور، التي أطلقتها إيونات النور، في

ص 330

مراحلها الإيجابية؛ لا تستطيع الكرات السلبية تشكيل أو صياغة الإجهاض، ولكن يمكنها فقط تكثيفه أو تجسيده؛ يبرد نَفَس الأم، ويدفئ نفس الأب بلازما الكون. إن هذه البلازما الآن، إذا جاز التعبير، قد أُلقيت من العالم المثالي إلى المستوى الكوني، أو بالأحرى، دعونا نقول، من المستوى الكوني إلى مستوى نظام نجمي؛ لأن العقل البشري لا يستطيع استيعاب مثل هذه الضخامة التي يتمتع بها العالم المثالي، وكل ما يمكننا فعله هو اختيار مثال محدود من بين لا متناهية الفضاء. إن أي شيء يُلقى خارج نطاق الكون العظيم وحياة الأيونات يكون، كما لو كان، "مصلوباً في الفضاء"؛ أو بالأحرى ما يتجسد فيه، يترك مستوى اللانهاية حيث يكون واحداً مع الأب، ويكون "مصلوباً". يتخذ اللوغوس جسداً، وجسده هو الكون. يُصلب الرجل السماوي في الفضاء. لكن هذا الصلب ليس عاراً ولا خزياً؛ فالصليب هو جسد الإنسان السماوي، الكون؛ والرمز الذي اختاره الحكماء لهذا السر هو صورة الإنسان السماوي بذراعيه الممدودتين وهو يسكب حياته ومحبته ونوره في مخلوقاته. هو مصدر كل خير للكون، التضحية الذاتية الدائمة.

وفي مستوى أدنى بكثير في سلم الوجود يوجد صلب آخر، عندما تتجسد الروح في المستوى الذي يوجد فيه الذكر والأنثى، وبالتالي تنفصل عن الحياة العظيمة وحركة البليروما. لم تعد الروح في الإنسان واعية في الامتداد العظيم للنفس العظيم، محيط الحياة النيرفاني.

لكن يجب أن نعود إلى المادة الكونية وتكوينها. هذه المادة دقيقة ونادرة

ص 331

وحساسة للغاية، لدرجة أنها تتجاوز كل مادة نعرفها؛ في الواقع، إن المادة الأم للكون ذات طبيعة رائعة لدرجة أن الغنوصيين أطلقوا عليها اسم الحكمة نفسها، وهي أعلى رداء يمكن أن تتزين به الروح. إن ما يمنح الحكمة

معلوماتها الأولى هو قوة جميع الأيونات، والتي تسمى الثمرة المشتركة للبليروما.

لقد وصلنا الآن إلى بداية تطور الكون، وفقًا لهذا المخطط الكون. للفلسفة الكونية. ومع ذلك، إذا أردنا أن يتحمل خيالنا هذا الضغط، فعلينا أن نكون أكثر تواضعاً، وأن نحصر اهتمامنا في بداية النظام الشمسي بدلاً من أصل الكون.

إن الفضاءات الأثيرية التي من المفترض أن تكون موطن النظام المستقبلي فارغة وبلا شكل. من فيض الطاقة الكامنة، البليروما، ينبثق تيار القوة، الدوامة الحلزونية - ماجنا فوراجو، أو الدوامة الهائلة، لأورفيوس. إنها القوة الإبداعية النارية؛ هناك ما يشبه تطهير الأماكن بالنار. يدخل في حالة اللا شكل، ويصبح الشيء الذي كان يفتقر إليه، قوة الحياة الحلزونية أو الذرة البدائية؛ كما أنه يشكلها من الخارج. تتحول المادة الأم إلى كرة، مشعة بالحياة، كتلة دوارة من غبار النجوم. تصبح "الذرة" "الأفعى الطائرة"، المذنب، الذي يحوم في البداية فوق المادة الأم، النظام الوليد. إنها "الأفعى" و"البيضة" مرة أخرى، الحيوان المنوي والبويضة للجنين الشمسي.

لقد وصلنا الآن إلى مرحلة يتعين علينا فيها التعامل مع تمايز هذا السديم وفقًا للأنواع الموجودة في العقل الإلهي، أو بعبارة أخرى،

البليروما. عند هذه النقطة، ينبغي أن تلتقي بديهيات العصور القديمة وأحدث اكتشافات العلوم الحديثة وجهاً لوجه. إن هذا الاتحاد المرغوب فيه بين الماضي والحاضر، في رأيي، ليس حدثاً بعيداً كما قد يظن المرء، لكن هذه المقالة لا تمنحنا مجالاً حتى لاقتراح بعض المؤشرات حول هذا الموضوع. إن المسألة تقنية للغاية، ونحن لسنا منخرطين حاليًا في مثل هذه المهمة، ولكننا ببساطة نمكّن القارئ العادي من قضاء ساعة أو ساعتين بين الغنوصيين.

الأساطير. لذلك، سنتوقف هنا على الحدود بين علم الأيون وعلم الكونيات في الدائرة الفالنتينية للغنوصية، وقبل المضي قدمًا، سنقدم مثالًا على معالجتهم الأسطورية لعملية الأيون. كما لاحظنا بالفعل أكثر من مرة، فإن الروايات الواردة في كتابات آباء الكنيسة غير متسقة ومتناقضة في كثير من التفاصيل. ومع ذلك، نأمل أن يلقي الرسم التخطيطي الذي قدمناه أعلاه لاتجاه الأفكار بعض الضوء على جميع الجوانب، ولكن نظرًا لعدم وجود مساحة كافية لدينا لعرض كل شيء، يجب علينا اختيار واحد كنموذج؛ وحقيقة أن هيبوليتوس (الثاني) يبدو أنه كان لديه مخطوطة غنوصية أمامه (نظرًا لأنه يلتزم دائمًا بمصادره المكتوبة بشكل أوثق من أي من أسلافه) سترشدنا في اختيارنا. ربما يكون هيبوليتوس، في كتابه ”الفيلسوفومينا“، يقتبس من كتاب متأخر تمت مقارنته على سبيل المثال بمقتطفات من ثيودوتوس؛ لكن روايته هي إلى حد كبير انعكاس للطريقة التي نظر بها الغنوصي إلى الأمر، في حين أن المقتطفات مشوهة بشكل مثير للشفقة وموضعة في غير مكانها. أما بالنسبة

لملخص إيرينيئوس، فهو في أحسن الأحوال خليط رديء. لكن هذا لا يعني أن رواية هيبوليتوس ليست أيضاً رواية غير مترابطة. من الواضح أنها مرقعة،

ومع ذلك فإن النمط الرئيسي مأخوذ من بعض الرسائل الموجودة في المكتبة الخاصة المتداولة للمدرسة الفالنتينية.

ومع ذلك، قد يكون من المفيد، قبل الخوض في رواية هيبوليتوس، أن نعطي القارئ أسطورة صوفيا. فكرة عامة عن الدور المهم الذي تلعبه الحكمة المجسدة في الأساطير الغنوصية. وبما أن الحكمة كانت غاية الغنوص، فإن محور الدراما الأسطورية الغنوصية بأكملها كان ما يسمى بـ "صوفيا ميثوس". سواء فسرنا استعاراتهم من منظور كوني كبير أو صغير، فإن تطور العقل هو ما سعى إليه الحكماء القدماء لتعليمنا إياه. إن انبثاق وتطور العقل الكوني في نشأة الكون، والعقل البشري في نشأة الإنسان، هو دائماً الاهتمام الرئيسي للعلم السري.

كان مسكن صوفيا، باعتبارها نَفْس العالم، وفقًا للغنوصيين لدينا، في الوسط، في الأجدود، بين العوالم العليا أو الروحية البحتة، والعوالم النفسية والمادية الدنيا. أسفل الأجدود كانت الهيبدمد أو الكرات السبعة للمادة النفسية. لقد "اَلْحِكْمَةُ بَنَتْ بَيْتَهَا. نَحَتَتْ أَعْمِدَتَهَا السَّبْعَةَ." (أمثال 9 1)؛ ومرة أخرى: " عِنْدَ رُؤُوسِ الشَّوَاهِقِ، عِنْدَ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمَسَالِكِ تَقِفُ. بِجَانِبِ الأَبْوَابِ، عِنْدَ ثَغْرِ الْمَدِينَةِ، عِنْدَ مَدْخَلِ الأَبْوَابِ تُصَرِّحُ: [عالم النور]" (المرجع نفسه، 8 2)، كما تقول الحكمة في تقاليدها اليهودية.

ص 334

علاوة على ذلك، كانت صوفيا الوسيطة بين الفضاءات العليا والسفلى، وفي الوقت نفسه أسقطت أنواع أو أفكار البليروما في الكون. لكن لماذا ينبغي أن تكون الحكمة، التي كانت في الأصل ذات جوهر بينيوماتك أو روحي، في الفضاء الأوسط، منفية من مسكنها الحقيقي؟ كان هذا هو السر العظيم الذي سعت الغنوصية إلى حله. وإدراكًا مرة أخرى أن "سقوط النفس" (سواء كانت كونيَّة أو فرديَّة) من نقائها الأصلي قد أدخلها في المعاناة والبؤس، فإن الهدف الذي كان لدى الفلاسفة الغنوصيين من قبلهم، كان مطابقًا لمشكلة "الحزن" التي شرع غوتاما شاكياموني في حلها. علاوة على ذلك، كان حل النظامين متطابقًا في أنهما أرجعا "سبب الحزن" إلى الجهل، ولإزالته أشارا إلى طريق معرفة الذات. كان على العقل أن يوجه العقل؛ وكان "التأمل التحليلي الذاتي" هو الطريق. كان من المفترض تطهير العقل المادي، وبالتالي يصبح واحداً مع العقل الروحي. في التسمية الغنوصية، تم تجسيد هذا الأمر في فداء صوفيا على يد المسيح، الذي أنقذها من جهلها ومعاناتها.

أم الأسماء الكثيرة. ليس من المستغرب إذن أن نجد صوفيا في جوانبها المختلفة تمتلك العديد من الأسماء. ومن بين هذه الأشياء يمكن ذكر الأم، أو الأم الكلية؛ أم الأحياء، أو الأم الخاشعة؛ القوة العليا؛ الروح القدس؛ مرة أخرى، هي ذات اليد اليسرى في مقابل الكريستوس، ذو اليد اليمنى؛ الرجل والمرأة؛ برونيكوس أو الشهواني؛ المصفوفة؛ الفردوس؛ عدن؛ أشاموث؛ العذراء؛ باربيلو؛

ص 335

ابنة النور؛ الأم الرحيمة؛ قرينة المذكر؛ كاشفة الأسرار الكاملة؛ الرحمة الكاملة؛ كاشفة أسرار العظمة الكاملة؛ الأم الخفية؛ التي تعرف أسرار المختارين؛ الحمامة المقدسة التي أنجبت توأمين؛ إينوا؛ الحاكمة؛ والخروف الضال أو التائه، هيلانة، والعديد من الأسماء الأخرى.

تشير هذه المصطلحات إلى صوفيا أو "النفس" - باستخدام المصطلح بمعناه الأكثر عمومية - في جوانبها الكونية أو الفردية، وفقًا لما هي عليه في الأعلى في نقائها الكامل؛ أو في الوسط، كوسيط؛ أو في الأسفل، كساقطة في المادة. لكن بالعودة إلى:

رواية هيبوليتوس عن أحد أنواع أسطورة صوفيا.

"فالنتينوس وهيراكليون وبطليموس ومدرسة هؤلاء [الغنوصيين] بأكملها، تلاميذ فيثاغورس وأفلاطون، واتبعوا توجيهاتهم، وضعوا "العلم الحسابي" كمبدأ أساسي لعقيدتهم.

"بالنسبة لهم، بداية كل شيء هو الموناد، الغير متولد، الخالد، الغير مفهوم، أب كل شيء. الغير متصور، خالق وسبب كل الأشياء التي تولد. يُطلقون على هذه الوحدة اسم الأب. أما فيما يتعلق بطبيعته، فهناك اختلاف في الرأي بينهم. فبعضهم يعلنون ... أن الأب خالٍ من الأنوثة، وبدون اقتران، ومنعزل؛

ص 336

بينما يعتقد آخرون أنه من المستحيل أن يكون خلق كل الأشياء من مبدأ ذكوري واحد، ولذلك فهم مضطرون إلى إضافة الصمت إلى أب الكل، لكي يكون أباً. أما فيما يتعلق بما إذا كان الصمت اقترانًا أم لا، فليحسموا هذا الخلاف فيما بينهم."

لقد أخطأ هيبوليتوس في فهم النقطة كالعادة؛ كان هناك آباء لكل مستوى، المونادات أو حالة الوجود المونادية، وكذلك الآباء والأمهات، الثنائيات أو حالة الوجود الثنائية، وهكذا دواليك.

"في البدء، كما يقول [الغنوصي الذي كانت مخطوطة هيبوليتوس أمامه]، لم يكن هناك شيء خلق. كان الأب وحيداً، غير مخلوق، بلا مكان، ولا زمان، ولا أحد ليستشير، ولا طبيعة جوهرية قابلة للتصور بأي وسيلة. كان وحيداً، منعزلاً كما يقولون، وفي حالة راحة، هو نفسه في نفسه، وحيداً. ولكن بما أنه كان مبدعاً، فقد بدا له في النهاية أنه من الجيد أن يخلق وينتج ما هو أجمل وأكمل في ذاته. لأنه لم يعد [الآن] محباً للعزلة. لأنه كان كله حباً، كما يقول [كاتب المخطوطة]، لكن الحب ليس حباً إذا لم يكن هناك شيء يُحب.

آباء الأيونات ".لذلك، فإن الأب، كما كان وحده، انبثق وأوجد العقل والحقيقة، أي الثنائي، التي هي السيدة والبداية، وأم جميع الأيونات التي يعتبرونها في البليروما. والعقل والحقيقة، بعد أن انبثقا من الآب، يمتلكان قوة الخلق مثل والدهما الخالق، وبنفس محاكاة الآب، انبثق منهما أيضاً الكلمة والحياة.

ص 337

والكلمة والحياة ينبثق منهما الإنسان والكنيسة. ولما رأى العقل والحقيقة أن خليقتهما قد أصبحت خالقة بدورها، شكر أبا الكل، وقدما له قرباناً من عشرة أيونات، وهو العدد الكامل. لأنه، كما يقول [الكاتب]، لا يمكن للعقل والحقيقة أن يقدما للأب رقماً أكثر كمالاً من هذا. لأنه كان لا بد من أن يتم تمجيد الأب الذي كان كاملاً بعدد كامل؛ والآن فإن "العشرة" عدد كامل، لأن العدد الأول من سلسلة التعددية

هو عدد كامل. [يبدأ الرقم 10 سلسلة التعدد في نظام الترقيم ذي الأساس 10.] لكن الأب كان أكثر كمالاً؛ لأنه خلق نفسه وحده، عن طريق الاقتران الأول، العقل والحقيقة، ونجح في إظهار جميع جذور الأشياء المخلوقة.

"وعندما رأى الكلمة والحياة أيضًا أن العقل والحقيقة قد مجدا أبا الجميع بعدد كامل، أراد الكلمة والحياة أيضًا أن يمجد أباه وأمه، العقل والحقيقة. ولكن بما أن العقل والحقيقة قد خُلقا ولم يمتلكا الأبوة الكاملة، [أو] صفة انعدام الأبوة [عدم الإنشاء]، فإن الكلمة والحياة لا تمجد عقله الأبوي بعدد كامل، بل بعدد غير كامل. وهكذا يقدم "الكلمة والحياة" لـ "العقل والحقيقة" اثني عشر إيوناً."

لا يحتاج القارئ إلى تذكير بأن هذا الملخص لنسخة مختلفة من الأسطورة قد أربك ما كنا نفترض أنه الترتيب الأصلي للعشرة والاثني عشر، كما يمكن رؤيته من الفقرة قبل الأخيرة من هيبوليتوس.

ص 338

أسماء الأيونات ".إذن فإن الجذور الأولى التي خلقت الأيونات ... هي كما يلي: العقل والحقيقة، والكلمة والحياة، والإنسان والكنيسة، عشرة من العقل والحقيقة، واثنا عشر من الكلمة والحياة؛ ثمانية وعشرون في المجموع. [العشرة، التي تتكون من خمسة اقترانات،] تُسمى بالأسماء التالية: العمق والامتزاج، الخلود والاتحاد، الإنتاجية الذاتية والنعيم، الثبات والاندماج، الولادة الوحيدة والسعادة."

في هذه التسمية لدينا محاولة لتسليط الضوء على الجوانب الإيجابية والسلبية للأبوة والأمومة (الاستقطاب) للعقل المبدع، الخنثى والمولد ذاتيًا. ثم يتابع هيبوليتوس:

"هذه هي الأيونات العشر التي يستمدها البعض من العقل والحقيقة، والبعض الآخر من الكلمة والحياة. ويستمد البعض الأرقام الاثني عشر من "الإنسان والكنيسة"، ويستمدها آخرون من "الكلمة والحياة"؛ والأسماء التي يطلقونها على هذه [الاقترانات الستة] هي: المعزي والإيمان، والأب والأمل، والأم والمحبة، والأبدي والفهم، والكنيسة والسعادة، والمشتاق إليه والحكمة."

من الواضح أن هذه القائمة قد تعرضت للتلف على أيدي النساخ؛ ومع ذلك، يمكننا أن نلاحظ بعض التشابه مع قائمة "ثمار الروح" في رسالة بولس إلى أهل غلاطية (الآيات 22، 23)، "مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ". إن الكلمة المترجمة إلى "السعادة" هي شكل مختلف عن كلمة "السعادة" في العِقد، لكن كلاهما يأتي من نفس الجذر. من المستحيل تمثيل الفرق في اللغة الإنجليزية الحالية المتاحة لنا. كما نود أن نلفت

ص. 339

انتباه الطالب إلى المصطلح الخاص بالجانب الأنثوي من الاقتران الأول والسادس - الإيمان والحكمة (بيستيس صوفيا). يقدم إبيفانيوس مجموعة مختلفة تمامًا من الأسماء للأيونات - وهي مجموعة من "الأسماء الشاذة" التي أثبتت حتى الآن أنها مصدر يأس لكل عالم لغوي، وبالتالي، لسنا بحاجة إلى إزعاج القارئ العادي بها. أما المصطلحات اليونانية المستخدمة لوصف الجوانب الإيجابية للاقترانات الستة، فمن المحتمل أن تكون جزئياً انعكاساً لخصائص الثالوث الأعلى من الأيونات، وجزئياً نماذج أولية

لخصائص الروح القدس. يبدو أن العقل والحقيقة، والكلمة والحياة، والإنسان والكنيسة، تظهر في المصطلحات مثل الأب والأم، والمعزي والمشتاق إليه، والأبدي والكنيسة؛ الجوانب الأنثوية للثالوث الأعلى هي جوانب ذكورية في السداسي. أعتقد أن أسماء الأيونات ربما تكون اختلافات عقائدية أو محاولات لترجمة المصطلحات الزرادشتية الأصلية - مثل هرمز وأمشاسباند وبقية كائنات النور - وأن "أسماء غريبة" هي بقايا من هذه المصطلحات؛ ومع ذلك، فإن أفكار ومخططات الأيونات مصرية بشكل واضح. لكن لنكمل حديثنا عن هيبوليتوس.

"الآن، الثانية عشرة من هؤلاء الاثني عشر، والأخيرة من بين الثمانية والعشرين إيون، ذات الطبيعة الأنثوية، أم العالم. والتي تسمى الحكمة (صوفيا)، رأت عدد وقوة الإيونات الخلاقة؛ صعدت [أو عادت] إلى عمق الأب، وأدركت أنه في حين أن جميع الإيونات الأخرى، باعتبارها مخلوقة بذاتها، قد خلقت من خلال اقتران، فإن الأب وحده خلق بدون اقتران. لذلك، كانت تتوق إلى تقليد الأب وخلق

ص 340

نفسها دون قرينها (الاقتران)، وبالتالي تحقيق عمل لا يقل شأناً عن عمل الأب؛ في جهل منها أن الذي لم يُخلق وحده، السبب المطلق، والجذر، والشامل، والعمق للخلق الكوني، هو الذي يملك القدرة على الخلق بنفسه وحده، في حين أن الحكمة، كونها مخلوقة ووجودها بعد عدد من الآخرين، فهي بالتالي غير قادرة على امتلاك قوة الذي لم يُخلق. لأن في اللاخلق، كما يقول الكاتب، كل الأشياء معًا، بينما في المخلوق تمتلك الأنوثة القدرة على بث الجوهر [أو المادة]، بينما يمتلك المذكر القدرة على تشكيل الجوهر المنبعث من الأنوثة. لذلك، انبثقت من الحكمة الشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينبعث منها، ألا وهو جوهر بلا شكل، يسهل تبريده [إلى شكل]. وهذا هو معنى كلمات موسى، كما يقول: "الأرض كانت غير مرئية وغير مصنوعة" [بحسب ترجمة السبعين]. ويقول إن هذه هي الأرض الطيبة، أورشليم السماوية، التي وعد الله أن يقود إليها بني إسرائيل قائلاً: "سأقودكم إلى أرض طيبة تفيض لبناً وعسلاً".

الإجهاض. وهكذا نشأ الجهل في البليروما بسبب الحكمة، وانعدام الشكل من خلال مخلوق الحكمة، ونشأ الاضطراب في البليروما [من الخوف] خشية أن تصبح مخلوقات الأيونات بنفس الطريقة عديمة الشكل وغير كاملة، وأن يلحق الدمار بالأيونات [نفسها] في وقت قصير. وبناءً على ذلك، انصرفوا جميعاً إلى الصلاة إلى الآب ليضع حداً لحزن الحكمة، لأنها كانت تبكي وتئن بسبب "الإجهاض" الذي أحدثته

ص 341

بنفسها - لأنهم يسمونه كذلك. وهكذا، فإن الأب، إذ يشفق على دموع الحكمة ويصغي إلى صلوات الأيونات، يأمر بإنبثاق إضافي. لأنه لم ينبثق بنفسه، كما يقول الكاتب، بل انبثق من العقل والحقيقة المسيح والروح القدس للتشكيل والقضاء على الإجهاض، وتخفيف شكاوى الحكمة وتهدئتها. وهكذا، مع المسيح والروح القدس، هناك ثلاثون أيوناً.

هنا لدينا نموذج خالق العالم الثنائي والفادي - المسيح، اللوغوس، الذي به خُلقت كل الأشياء، والروح القدس، المعزي.

"على أي حال، يعتقد بعضهم أن الثالوث الأيواني يتكون بهذه الطريقة، بينما يوحد آخرون الصمت مع الأب ويضيفون إليهم [أيونات البليروما].

"إن المسيح والروح القدس، إذ ينبثقان أيضاً من العقل والحقيقة، يزيلان هذا التشويه عديم الشكل للحكمة، الذي أنجبته من نفسها وأوجدته دون قرين، من بين الأيونات الكونية، حتى لا تختلط الأيونات الكاملة عند رؤية عدم شكلها."

تُلقي هذه المقاطع ضوءًا كبيرًا على مصطلح "الابن الوحيد" (μονογενής) في الأرثوذكسية، يُفهم مصطلح "الابن الوحيد". على أنه يعني أن المسيح كان الابن الوحيد للآب. علاوة على ذلك، أكد علم اللغة الدفاعي أن ذلك يعني "الوحيد من نوعه". في قائمة عقد الأيونات المذكورة أعلاه، يُطلق على الجانب الذكري من الاقتران الأخير هذا الاسم، حيث ترجمته إلى "المولود وحيداً". في المقطع أعلاه،

ص 342

يُطلق على "إجهاض" الحكمة نفس المصطلح، وقد ترجمته "الذي أنجبته من نفسها"، إذ لا شك في أن المصطلح الذي يُترجم عادةً إلى "المولود الوحيد" لا يعني شيئًا من هذا القبيل، بل يعني "المخلوق وحده"، أي أنه مخلوق من مبدأ واحد وليس من اقتران أو زوج. هناك العديد من الأمثلة على هذا المعنى للكلمة، ليس فقط بين الغنوصيين، ولكن أيضًا في خطوط التقاليد الأورفية والمصرية. ثم يتابع هيبوليتوس:

الصليب."علاوة على ذلك، ولكي لا يظهر انعدام شكل الإجهاض مرة أخرى للأيونات الكاملة، أرسل الأب نفسه أيضًا انبثاقًا إضافيًا لأيون واحد، وهو الصليب [أو الجذع]، الذي خُلق عظيمًا، باعتباره [مخلوقًا] للأب العظيم والكامل، وانبثق ليكون حارسًا وجدار حماية [حرفيًا، سياج أو حصن] للأيونات، ويشكل حدود البليروما، جامعًا الأيونات الثلاثين معًا في داخله. فهؤلاء [الثلاثون] هم الذين يشكلون الخلق [الإلهي].

الكلمة التي تُترجم إلى "صليب" في لغة نات، تعني عمومًا سهمًا أو وتدًا. كما تعلمنا من غراتس، كان من عادة اليهود، كتحذير للآخرين، عرض جثث أولئك الذين رُجموا على خازوق، حيث تم تخفيف الألم القاسي لعقوبة موسى في العصور اللاحقة عن طريق جرعة منومة من الزوفا ومكونات أخرى. وبالتالي فإن عبارة "معلق على الشجرة" مفهومة أيضاً. لكن، كما ذكرنا سابقاً، بالنسبة لـ بليروما ، علينا أن نتعامل مع الرموز الحية وليس الميتة، وهكذا تتحول فكرة الصليب إلى مفهوم

ص 343

جدار عظيم (أي كرة)، والذي يتم من خلاله "تقييد" الأيون الحي - إذا كان من الممكن تقييد اللانهائي بواسطة المحدود - النموذج الأولي للمسيح الصوفي المرتبط بشجرة الجسد أو بداخلها.

كانت الفكرة بسيطة، لكن التعبير عنها بالكلمات كان شديد الالتباس. وهكذا كتب هيبوليتوس:

"والآن يُطلق عليه اسم الحد لأنه يفصل النقص (*hysterēma*) عن الكمال (*plērōma*)؛ ويُطلق عليه أيضًا اسم الشريك، لأنه يشارك في النقص؛ وأيضًا الصليب [الوتد أو الركيزة]، لأنه ثابت لا يتزعزع ولا يتغير [حرفيًا: بدون ندم أو تغيير في الرأي]؛ بحيث لا يقترب شيء من النقص من الأيونات داخل البليروما ."

من الصعب التوفيق بين الخصائص المختلفة لهذا الحد العظيم كما ذكرها هيبوليتوس. الحد الأخير. إنها هي بالطبع السماء العظيمة أو الروح الحدية لباسيليدس، والحد الأخير لرسالة بيستيس صوفيا. هناك تُرك "رداء السلطة" المجيد، عندما نزل المخلص لتجديد الكون دون البليروما، والذي ارتداه مرة أخرى في طقوسه النهائية، بعد إتمام تأهيله، كما هو موضح بشكل رائع في الصفحات الأولى من المخطوطة. هذا هو الحد "الذي لا يقهر أمامه أحد"، حتى يوم القيامة، يوم المجيء إلينا في ما يسمى بكتاب الموتى والمخطوطة المائلة - يوم التأهيل النهائي أو الكمال للأفراد النادرين الذين جعلوا أنفسهم جديرين بأن يصبحوا آلهة أو مسيحًا (وبالتالي يوم دائم)، ولكن بالنسبة

لعامة البشر، فهو نهاية دورة العالم عندما تنتقل كل الأشياء إلى البرالايا، كما تسميها الفلسفة الهندية (وبالتالي الاكتمال النهائي للكون الحالي).

من المفترض أن يكون "رداء السلطة" هذا هو أعلى جسم روحي، أو مبدأ الفرد، الذي يشارك في الطبيعة الإلهية والبشرية، أي أنه يفتح عوالم العالم الإلهي للإنسان، ويجعله شريكًا في الوجود الأبدي. وهكذا فإن رمزها الحي هو حرف **O**، وهو انعكاس لجسد أو تقييد الذات للإنسان السماوي الذي لا جنس له، اللوغوس، الذي من خلاله يحد من نفسه ويصلب نفسه من أجل خير البشرية. في مرتبة أدنى في سلم الوجود، يصبح هذا الرمز الميت للصليب الأرثوذكسي (+)، رجل الجنس.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الحد يرجع إلى الأب وحده، وبواسطته يكمل ويكمل العالم الإلهي بأكمله من العوالم، والتي تصبح بالتالي كيانًا واحدًا، وهو الأيون الحي، لكل خليقة خارج البليروما. لكن لنكمل ملخص هيبوليتوس:

"وبدون هذا الحد، أو الصليب، أو الشريك، هو ما يسمونه الأجدود؛ هذه هي الحكمة بدون البليروما، التي قام المسيح والروح القدس، عندما انبثقا من العقل والحقيقة، بتشكيلها وصنعها في إيون كامل، بحيث لا تصبح في النهاية أدنى بأي حال من الأحوال من أي من تلك الموجودة داخل البليروما." عندما، إذن، تم إعطاء الحكمة الخارجية شكلاً لها، إذ رأت أنه من المستحيل أن يبقى المسيح والروح القدس، كونهما منبثقين من العقل والحقيقة، معها خارج البليروما، صعد المسيح والروح القدس

إلى العقل والحقيقة داخل الحدود، لينضما إلى بقية الأيونات في تمجيدهم للآب.

"ولأنه في النهاية، كما لو كان هناك، وحدة السلام والوئام لجميع الأيونات، يسوع الصوفي أو الكوني. داخل البليروما، بدا من الجيد لهم ألا يمجدوا الآب من خلال اقتراناتهم المتعددة، بل أن يسبحوا

مجده بتقديم [مفرد] لثمار مناسبة للآب." واتفقت الأيونات الثلاثين بأكملها على أن تنبعث منها أيون واحد، وهي الثمرة المشتركة لـ بليروما ، كعلامة على وحدتهم وتوافقهم وسلامهم. وبما أنه انبثاق من جميع الأيونات إلى الأب، فإنهم يسمونه الثمرة المشتركة للبليروما. وهكذا تم تكوين الأشياء داخل البليروما.

"والآن انبثقت الثمرة المشتركة للبليروما - يسوع (لأن هذا هو اسمه)، رئيس الكهنة الأعظم؛ عندما أُلقيت الحكمة التي لا تنتمي إلى البليروما، والتي كانت تبحث عن المسيح الذي أنارها والروح القدس، في رعب شديد، خشية أن تهلك، الآن وقد انسحب الذي أنارها وثبّتها."

يبدو أن عملية تشيكل الحكمة، أو المادة الكونية، هي بمثابة إنشاء حدود لـ الأجدود (الفضاء الأثيري) بدوره، باتباع قانون التشابه، ثم تشكيل المادة المنفصلة وفقًا لأنواع الأيونات. وقد تم توضيح ذلك بشكل كبير على النحو التالي:

"حزنت وكانت في شك كبير، تفكر في من كان مرشدها [المسيح]؛ من هو الروح القدس؛ إلى أين ذهبا؛ من منعهما

ص 346

من أن يكونا معها؛ من حسدها على تلك الرؤية الجميلة والمباركة. حزن صوفيا. وفي خضم هذه المعاناة، لجأت إلى الصلاة والتضرع إلى من تركها. عندئذٍ أشفق المسيح الموجود داخل البليروما وبقية الأيونات على صلواتها، وأرسل من البليروما الثمرة المشتركة، لتكون قرينة الحكمة الخارجية، ومصححة للعواطف التي عانت منها في سعيها وراء المسيح.

"وهكذا خرجت الثمرة المشتركة من البليروما، ووجدتها تعاني من العواطف الأساسية الأربعة - وهي الخوف والحزن والشك والتضرع - فقامت بتصحيح معاناتها؛ وفي قيامها بذلك أدركت أنه ليس من المناسب [من ناحية] أن يتم تدمير هذه العواطف، باعتبارها من طبيعة الأيون ومميزة للحكمة، ولا [من ناحية أخرى] أن تستمر الحكمة في مثل هذه المعاناة مثل الخوف والحزن والتضرع والشك. وبناءً على ذلك، ولأنه كان إيونًا عظيمًا، وابنًا لكل البليروما، فقد جعل العواطف تفارقها، وحولها إلى جواهر جوهرية؛ وجعل الخوف جوهرًا نفسيًا، والحزن مادة دقيقة [جوهر مادي]، والشك جوهرًا عنصريًا [روحياً]، والتحول - الصلاة والتضرع - جعله طريقًا صاعدًا، أي التوبة وقوة الجوهر النفسي الذي يسمى "الحق".

وكما تُعتبر العواطف عند الإنسان ذات طبيعة مادية، كذلك تُعتبر عواطف النفس الكونية جوهرية عند تصويرها من قبل كتّاب سيناريوهات العالم في هذا المخطط الفلسفي العالمي.

ص 347

لقد وصلنا الآن إلى مرحلة دراما الحكمة التي تمثل تكوين العالم المحسوس. العالم "المحسوس"، على عكس العالم "المعقول"، بتعبير أفلاطوني. لكن قبل أن نمضي قدماً في ملخص هيبوليتوس، يمكن إضافة بضع كلمات من الشرح لإرشاد الطالب عبر متاهة التفاصيل الفنية الغنوصية.

الحكمة الدنيا أو الساقطة هي الجوهر الأساسي، أو أم العالم، التي تحركها بشكل فوضوي أربعة دوافع عظيمة، وهي "أحزانها" أو "عواطفها" البدائية.

من حالتها الفوضوية يتم إنقاذها بواسطة القوة الإلهية من الأعلى، وهي توليفة من قوى الكون المعقول أو المعرفي. الفوضى تصبح كوناً؛ اللا نظام يصبح نظاماً. تنفصل عنها "العواطف" (الخوف والحزن والشك والتضرع)، فتتطهر وتبقى في الأعلى، بينما تتقلص العواطف إلى مراحل أكثر كثافة من المادة، مكونة الكون المحسوس. وفوقها تحوم القوة، ممثل المستويات الثلاثة العليا (الكون المعقول أو بليروما) وممثل الواحد الذي وراءه، الإله الأعلى. تُسمى هذه القوة الإلهية بالثمرة المشتركة.

تنفصل "العواطف" الأربع عن صوفيا، وتبقى هي جوهر أعلى المستويات الدنيا. يصبح الخوف والحزن جوهر المستويين النفسي والهيلي (أو المادي) على التوالي. يُنظر إلى الشك على أنه ميل نحو الأسفل، وطريق نحو الأسفل إلى حالات وجود أكثر كثافة وخشونة من الحالة المادية؛ بينما يُنظر إلى التضرع (الصلاة، أو التوبة، أو التطلع) على أنه طريق نحو الأعلى إلى عالم السماء.

ص 348

هذه هي قوة النفس التي تسمى "يمين"، والميل نحو الأسفل في المادة يسمى "يسار". يمكننا الآن العودة إلى دراسة نصنا.

"إن القوة التلفيقية [تنبع] من الخوف." هذا هو معنى النص المقدس، كما يقول الكاتب، الديميورج. "إن مخافة الرب هي رأس الحكمة"، لأنها كانت بداية معاناة الحكمة. لقد شعرت بالخوف أولاً، ثم بالحزن، ثم بالشك، ثم لجأت إلى الصلاة والتضرع. ويقول أيضًا إن المادة النفسية ذات طبيعة نارية، ويطلقون عليها اسم الفضاء [الوسطى] وهيبدمد وقديم الأيام. وأي تصريحات أخرى من هذا القبيل يدلون بها بشأن هذا [الفضاء]، فإنهم [في الواقع] يشيرون إلى المادة النفسية [الكونية]، والتي يعلنون أنها القوة المصطنعة للعالم [المادي]. وهي ذات طبيعة نارية. ويقول الكاتب أيضاً إن موسى يعلن: "لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ هُوَ نَارٌ آكِلَةٌ"، لأنه أراد أن يكتبها هكذا."

يقال إن تأثير عاطفة الخوف يؤدي إلى انقباض وتكثيف الهالة أو الغلاف الخفي للإنسان. إن المستوى النفسي هو انقباض أو تكثيف للمستوى العقلي، والمستوى المادي هو تكثيف للمستوى النفسي.

"والآن، يقول إن قوة النار ذات شقين؛ فهناك نار تلتهم كل شيء ولا يمكن إخمادها و..."

لسوء الحظ، توجد هنا ثغرة؛ ربما يمكن ملؤها بالكلمات، "وأخرى قابلة للإخماد".

ص 349

"وبناءً على ذلك، فإن النفس [أي المادة النفسية] هي فانية جزئياً [وخالدة جزئياً]، كونها بمثابة نوع من الوسيلة. (إنها [كلاهما] هيبدمد [الفضاء تحت القمري] و[أيضًا] وسيلة لإنهاء هيبدمد.) لأنها تقع أسفل الأجدود [العقل أو جوهر الروح] - حيث توجد الحكمة، ويوم الأشكال الكاملة

[أي فضاء الشمس]، والثمرة المشتركة للبليروما - ولكنها تقع فوق المادة المادية [فضاء الأرض]، التي هي صانعتها [أو القوة الديميورجية]. إذاً، إذا صُنعت النفس مثل الأشياء السماوية، فإنها تصبح خالدة، وتدخل في الأجدود: المملكة "الثامنة"؛ وهي، كما يقول، أورشليم فوق السماوات؛ أما إذا صُنعت مثل المادة، أي العواطف المادية، فإنها تكون قابلة للفناء وتفنى.

الجملة التالية بها ثغرة كبيرة، وقد حاولتُ سدّها على النحو التالي:

"لذلك، وبما أن القوة الأولى والأعظم [للعالم المحسوس] كانت صورة، [وليس من الأيون أو بليروما]، [وليس من بليروما ، أي العامل (الديميورج)؛ بينما القوة المنبثقة من المادة المادية أو "الحزن" كانت] المتهم (الشيطان)، حاكم هذا العالم.

"[القوة، علاوة على ذلك، التي تنبع] من المادة الأولية [أو الروحية]، أي "الشك"، هي بعلزبول.

"[و] الحكمة نفسها تستمد طاقتها من الأعلى، من الأجدود، حتى هيبدمد." [لأنهم] يقولون إن العامل لا يعرف شيئاً على الإطلاق، بل هو، وفقاً لهم، غبي وأحمق، ولا يعرف

ص 350

حقاً ما يفعله أو يعمله. وبسبب جهله، عززت الحكمة كل ما صنعه وقويته؛ وعلى الرغم من أنها هي التي فعلت ذلك، فقد تخيل أنه هو من حقق بنفسه صنع الكون، وهكذا بدأ يقول: "أنا الله، وليس هناك إله غيري".

"وهنا إذن لدينا الرَّابوع وفقًا لفالنتينوس، 'مصدر الطبيعة المتدفقة دائمًا ذات الجذور'، وحكمتنا التي منها يتكون الخلق بأكمله الآن، سواء كان نفسيًا أو ماديًا."

يقصد هيبوليتوس من هذا أن يكون ساخرًا وتهكميًا على كل من فيثاغورس وفالنتينوس. إن "العواطف" الأربع بعيدة كل البعد عن الرَّابوع نفسه؛ إنها مجرد انعكاس لها على المستويات الأدنى.

"تسمى الحكمة "الروح"، والعامل "النفس"؛ بينما المتهم (الشيطان) هو "حاكم هذا العالم" [الجسد]، وبعلزبول هو "حاكم الديمون (التوأم السماوي أو الذات العليا)" [الفوضى]. هذا ما يقولونه لنا.

"علاوة على ذلك، وبناءً على كل تعليمهم على اعتبارات رياضية، كما قلت من قبل، فإنهم يعلنون أن الأيونات داخل البليروما تنبعث منها سلسلة جديدة من ثلاثين أيوناً آخر تتبع قانون التشابه، حتى يتم تجميع البليروما في النهاية في عدد كامل. فكما قسم الفيثاغوريون إلى اثني عشر [؟ عشرة] وثلاثين وستين - ولديهم المزيد من التفاصيل الدقيقة على التفاصيل الدقيقة، كما تبين - بنفس الطريقة يقسم هؤلاء (الغنوصيون) أيضًا المخلوقات داخل البليروما.

"محتويات الأجدود مقسمة أيضًا؛ والحكمة (التي هي أم كل حي [

ص 351

حواء الكونية] وفقًا لهم) والثمرة المشتركة للبليروما (الكلمة) قد انبثقت منها "كلمات" أو عقول. آخرون هم الملائكة السماوية، مواطنو أورشليم العليا، في السماوات." لأن هذه أورشليم هي الحكمة الخارجية، وعريسها هو الثمرة المشتركة للبليروما."

فضل بعض النقاد قراءة تجعل الحكمة والثمرة المشتركة تنبعث منها "سبعون كلمة"؛ ولكن على الرغم من أن هذا كان عدد الأمم بين اليهود على عكس أسباط إسرائيل الاثني عشر، ولهذا السبب أيضًا تم اختيار "السبعين" (الذين يمثلون اثنين وسبعين) رسولًا بعد "الاثني عشر"، وفقًا للروايات التاريخية، إلا أنني أفضل اتباع قراءة المخطوطة، كما فعلت بالفعل في كل حالة.

"كما أن العامل قد انبعثت منه النفوس؛ لأنه جوهر النفوس." وبحسب قولهم، النفوس. فإن الأول هو إبراهيم، والآخرون هم أبناء إبراهيم."

(تسمية من شأنها أن تفسر التعبير السخيف للغاية "صدر إبراهيم".)

"علاوة على ذلك، فقد صنع العامل أجسادًا للنفوس من المادة والعناصر الأساسية. وهذا هو معنى القول: "وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ [حرفيا، وجه] نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً."

"هذه [النفس] هي، وفقًا لهم، 'الإنسان الداخي'، وتسمى نفسية عندما تسكن في جسد المادة المادية، ولكنها مادية، قابلة للتدمير، وغير كاملة، عندما [تكون مركبتها] من مادة أولية."

ص 352

يبدو أن هيبوليتوس هنا يلخص نظرية التكوين الكوني والتفسير المفصل للغاية للفالنتينيين في بضع فقرات موجزة، ويجب ألا ينسى القارئ أبدًا أن هذا الملخص قد تم إعداده بيد غير ودية. ومع ذلك، فقد رأيت أنه من الجيد أن يرى الطالب بنفسه أنه حتى مع ذلك، لم يستطع آباء الكنيسة أن يمحو كل معنى الكاتب الغنوصي.

"وهذا الإنسان المادي، وفقًا لهم، أجساد. هو بمثابة نزل أو مسكن في وقت من الأوقات للنفس وحدها، وفي وقت آخر للنفس والكائنات الروحية [العناصر]، وفي وقت آخر للنفس و"الكلمات" [أو الملائكة] التي هي "كلمات" مزروعة من الأعلى - من الثمرة المشتركة للبليروما والحكمة - في هذا العالم، تسكن في جسد الطين مع النفس، عندما تتوقف الديمون (التوأم السماوي أو الذات العليا) عن التعايش معها." وهذا، كما يقول [الكاتب الغنوصي]، ما كُتب في الكتب المقدسة [رسالة بولس إلى أهل أفسس]: "بِسَبَبِ هذَا أَحْنِي رُكْبَتَيَّ لَدَى أَبِي رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي مِنْهُ تُسَمَّى كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الأَرْضِ. لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ، أَنْ تَتَأَيَّدُوا بِالْقُوَّةِ بِرُوحِهِ فِي الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ، " - أي الإنسان النفسي وليس الجسدي - "لكي تكونوا أقوياء على معرفة ما هو العمق" - أي أبو الكليات - "وما هو العرض" - أي الصليب، حدود البليروما - "وما هي العظمة" - أي بليروما الأيونات. لذلك يقول [بولس في موضع آخر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس]: "وَلكِنَّ الإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ لاَ يَقْبَلُ مَا لِرُوحِ اللهِ لأَنَّهُ عِنْدَهُ جَهَالَةٌ،"؛ ويقول [الكاتب الغنوصي] إن قوة العامل حماقة،

ص 353

[أي القوة (أو النفس) التي يرسلها العامل]، لأنه كان أحمقًا وغير عاقل، وظن أنه يشكل العالم دون مساعدة، جاهلاً أن الحكمة، الأم، الأجدود، هي التي ضخت فيه الطاقة لتكوين الكون دون علمه.

"لذلك، فإن جميع الأنبياء والشريعة قد تكلموا من خلال العامل، وهم جهلة أغبياء عن إله أحمق، وفقًا للكاتب. ولهذا السبب، كما يكتب، يقول المخلص: "كل من جاء قبلي لصوص وقطاع طرق"؛ ويقول الرسول: "السر الذي كان مجهولاً للأجيال السابقة". ويقول إنه لم يتحدث أحد من الأنبياء عن أي من الأمور التي نتحدث عنها؛ فقد كانت مجهولة في ذلك الوقت...

"لذلك، عندما انتهى تكوين العالم، كان من المفترض أن يتألف التطور المستقبلي من الكشف الرجل الجديد. عن أبناء الله - أي العامل - [الكشف] الذي كان مخفياً [حتى الآن] - والذي، كما يقول، كان الإنسان الروحي مخفياً فيه، وكان حجاب يغطي قلبه. لذلك، عندما حان وقت رفع الحجاب وكشف هذه الأسرار، وُلد يسوع [كأول مثال على التطور الجديد] من خلال مريم العذراء، وفقًا للقول: "الروح القدس يحل عليك" - الروح هو الحكمة - "وقوة العليّ تظللك" - العليّ هو العامل - "لأن المولود منك يُدعى قدوسًا". لأنه لم يولد من الأعلى وحده، كما أن الرجال الذين صُنعوا على مثال آدم يدينون بأصلهم للأعلى وحده، أي العامل. كان يسوع، الإنسان الجديد، من الروح القدس - أي

ص 354

الحكمة - ولكنه كان من الصانع أيضاً، لكي يُشكّل الصانع جسده ويُكوّنه، بينما يُزوّده الروح القدس بجوهره أو [مادته]، وهكذا يكون كلمة سماوية، مولودة من الأجدود: المملكة "الثامنة" من خلال مريم."

أي أن يسوع كان نموذجاً للإنسان الكامل، الذي تجاوز ضرورة الولادة الجديدة، ودورة التناسل. كان تجسيداً لأحد أبناء الله، الذين يشكلون معاً البنوة الإلهية. جميع هؤلاء الأبناء هم "كلمات" أو "لوغوي"، وفقًا لهذه التسمية. قيل إن طبيعة هذا الرجل بأكملها متقدمة بمرحلة واحدة. وهكذا تم صنع جسده بالقوة التي زودت نفوس الرجال الآخرين؛ وكانت نفسه من نفس طبيعة أرواح الرجال الآخرين؛ وكانت روحه "كلمة"، وهي السلالة المباشرة للأيونات، ومشارك في البليروما.

الجسد الصوفي للمسيح ".والآن، هناك الكثير من الأبحاث التي يكرسونها لهذا الموضوع، وهو نقطة انطلاق الانقسام والخلاف. ومن ثم فإن مذهبهم ينقسم إلى قسمين، ويطلقون على أحد التعليمين اسم الأنضولي، والآخر اسم الإيطالي. يقولون [الذين يتلقون تعاليمهم] من إيطاليا، ومنهم هيراكليون وبطليموس، إن جسد يسوع كان [في الأصل] ذا بنية نفسية، ولهذا السبب، عند معموديته نزل عليه الروح القدس، مثل حمامة، أي "كلمة" الأم من الأعلى، الحكمة، واتحد مع جسده النفسي، وأقامه من بين الأموات. ويقول الكاتب إن هذا هو القول: "الذي أقام المسيح من بين الأموات سيحيي أيضاً أجسادكم الفانية" - أي أجسادكم النفسية. أما الطين

ص 355

فقد وقع تحت اللعنة. يقول [موسى]: "لأنك من الأرض، وإلى الأرض تعود". أما أولئك [الذين يستمدون تعاليمهم] من الشرق، ومنهم أكسيونيكوس وأرديسيانيس [؟ بارديسانيس] يقولون إن جسد المخلص كان روحانيًا. لأن الروح القدس - أي الحكمة - حل على مريم، وكذلك قوة العلي، وفن الصانع، حتى يتم تشكيل تلك [المادة] التي أعطيت لمريم.

"إذن، يمكننا أن نتركهم ليحققوا في مثل هذه الأمور بأنفسهم، وكذلك أي شخص آخر قد يرغب في مواصلة مثل هذه التحقيقات." ويتابع الكاتب قائلاً إنه كما تم تصحيح العيوب في مستوى الأيونات الداخلية، كذلك تم تصحيح تلك الموجودة في مستوى الأجدود، الحكمة الخارجية، وتم تصحيح تلك الموجودة في مستوى هيبدمد أيضاً.

"(لأن العامل تعلم من الحكمة أنه ليس الله وحده كما كان يعتقد، وأنه ليس علم الخلاص. بجانبه أحد، ولكن من خلال الحكمة تعلم أن يعرف الأفضل [الإله]. إلا أنه لم يتلق منها سوى تعليم ابتدائي [أصبح متعلماً]، وأولى مراسم التأهيل، وتلقى [بهذه الطريقة] تعليماً عن سر الآب العظيم والأزمنة؛ و[بهذه الطريقة] لم يستطع أن يكشفه لأحد غيره.)"

تشير المصطلحات المستخدمة إلى أن الديميورج تلقى تعليمات، لكنه لم يُمنح القوة العليا أو التأهيل، الذي من خلاله يمكنه أن يصبح معلمًا أو مُلقِّنًا بدوره؛ لقد تلقى "ميوسيس" ، ولكن ليس "إيبوبتيا"، أي "ذوي البصر"".

ص 356

"(هذا هو معنى كلامه لموسى، بحسب الكاتب: 'أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، واسم الله لم أكشفه لهم' - أي أنني لم أعلن السر، ولم أوضح من هو الله، بل احتفظت لنفسي سراً بالسر الذي سمعته من الحكمة.)

"منذ ذلك الحين تم تصحيح الأمور العليا [في البليروما و الأجدود و هيبدمد]، وبنفس قانون الخلافة كان من المقرر أن تلتقي الأمور هنا [على الأرض] بتنظيمها المناسب. ولهذا السبب ولد يسوع المخلص من مريم، لكي تُصلح الأمور هنا. وكما انبثق المسيح أيضاً من العقل والحقيقة لتصحيح معاناة الحكمة الخارجية، أي "الإجهاض"؛ كذلك جاء المخلص، المولود من خلال مريم، لتصحيح معاناة النفس".

سيعطي ما سبق القارئ فكرة عامة عن دورة الأفكار التي تحرك فيها هؤلاء الغنوصيون. لا شك أن شرح الكاتب الغنوصي قد عانى كثيراً في عملية التلخيص التي خضع لها؛ ومع ذلك، حتى لو تم تقديمه بالكامل، لكان من الضروري أن يُنسب إلى تلميذ وليس إلى أستاذ في الغنوصية مثل باسيليدس أو فالنتينوس. من أجل الحصول على عرض أكثر اتساقًا وتفصيلًا لدورة أفكار الفالنتينية، سيكون من الضروري أولاً تحليل
(1) الرواية المذكورة أعلاه، (2) محتويات مقتطفات من ثيودوتوس، و(3) ملخص مبادئ أتباع بطليموس الذي قدمه إيرينيئوس في فصوله الافتتاحية، ثم إعادة صياغة

ص 357

الكل. ومع ذلك، فإن رواية هيبوليتوس كافية تمامًا لإطلاع القارئ على الخطوط العريضة العامة، وسيكون الشرح الأكثر تفصيلاً غير مناسب في هذه الرسومات الموجزة.

سنقدم الآن ملخصاً موجزاً لتعاليم أبرز قادة الفكر الغنوصي في هذه الفترة، وهكذا نعود إلى دراسة "أتباع فالنتينوس".

لا نعرف شيئًا عن ثيودوتوس والإسكندر، وعن سيكوندوس فقط حقيقة أنه قسم الأجدود الأعلى، داخل البليروما، إلى رباعيتين، يمين ويسار، على الرغم من أنه لا ينبغي لنا بالطبع أن نفترض أنه ابتكر مثل هذا المفهوم الأساسي.

لذلك، سنقتصر اهتمامنا على ماركوس وبطليموس وهيراكليون وبارديسانيس، حيث ستختتم إشارات موجزة عنهم معلوماتنا المستمدة من مصادر غير مباشرة - وتحديداً كتابات الآباء - إلى خاتمة.

فلننتقل إذن إلى "أتباع فالنتينوس" ولنتناول أولاً ماركوس ورمزيته العددية.

ص 358

الرمزية العددية عند ماركوس.

يُعد قسم طويل في كتاب إيرينيئوس مصدرنا شبه الحصري لمعرفة ماركوس وأتباعه. مصادر. يقوم هيبوليتوس وإبيفانيوس ببساطة بنسخ إيرينيئوس ولا يضيفان شيئًا سوى مصطلحات جديدة للإدانة، بينما معلوماتنا من مصادر أخرى هي مسألة أسطر وليست فقرات. إن عدم موثوقية إيرينيئوس كمؤرخ للآراء الغنوصية أمر معروف بالفعل لقرائنا، وفي حالة ماركوس والماركوسيين يكون الأمر أكثر وضوحًا من المعتاد. يبدو أن بعض أتباع المدرسة كانوا موجودين حتى بين عامة الناس في وادي الرون، وكان القس الجليل في ليون حريصًا بشكل خاص على التقليل من شأن تأثيرهم. يبدأ هجومه بسرد كل القصص الفاضحة التي يستطيع جمعها عن ماركوس، وهو رجل لم يره قط، والذي لم يكن أقرب إلى حظيرة أغنام ليون من آسيا الصغرى، أو في أحسن الأحوال مصر!

يدعي إيرينيئوس أولاً وقبل كل شيء أنه يصف ما حدث في مراسم التأهيل والطقوس السرية للماركوسيين، ويرسم صورة حية للدجل والفسق، مما يرضيه كثيراً. ومع ذلك، فقد نفى الماركوسيون كل هذه التقارير والأوصاف بشكل قاطع، ولذلك لن نزعج القارئ في الوقت الحالي بتصريحات القس حول هذا الموضوع، باستثناء الإشارة إلى أنه يعترف بنفسه بأنه يعتمد كليًا على الأقوال المنقولة، والإشارة إلى الطالب بأن الرواية تبدو وكأنها صورة مشوهة للغاية

ص 359

للطقوس، والتي حُفظت طقوسها جزئيًا لنا مباشرة في مخطوطة أسكيو وإحدى مخطوطات مخطوطة بروسيانوس.

ثم يشرع إيرينيئوس في تقديم ملخص لمخطوطة ماركوسية وقعت بين يديه. يبدو أنه يقتبس بعض المقاطع حرفياً، لكنه في الغالب يكتفي بالملخص، لذلك لا يمكننا بأي حال من الأحوال التأكد مما قاله كاتب

الوثيقة بالفعل. ينسب إيرينيئوس الأصل للوثيقة إلى ماركوس نفسه، الذي يخاطبه طوال القسم بأكمله باعتباره معاصرًا له؛ ومع ذلك، فمن المحتمل أن يكون هذا مجرد أسلوب بلاغي - كما هو الحال مع هيبوليتوس، الذي تنبأ، بعد ثلاثين أو أربعين عامًا، في فقرته الافتتاحية، بأن نتيجة كشفه لماركوس ستكون أنه "سيتوقف الآن [عن خداعه]"، على الرغم من أن جثة الطبيب الغنوصي كانت قد دُفنت منذ فترة طويلة.

لا نعرف عن ماركوس نفسه شيئاً سوى أنه كان أحد التلاميذ الأوائل لفالنتينوس، أو على الأقل كان ينتمي إلى الدائرة المبكرة للأفكار الفالنتينية. يُحدد تاريخ ميلاده بشكل غامض في مكان ما حوالي منتصف القرن الثاني؛ ويُقال إنه قام بالتدريس في آسيا الصغرى، ويذكر جيروم، بعد مائتي عام، أنه كان مصريًا.

بالنسبة لطالب الغنوصية الذي يعتبر العلماء الغنوصيين رجالاً مثقفين بذلوا الأرقام والحروف. جهداً شجاعاً لصياغة المسيحية كفلسفة عالمية، أو بالأحرى كعلم إلهي ينبثق من أساس فلسفة الدين، فإن محاولة ماركوس لتكييف نظام الأرقام والحروف العبرية،

ص 360

الذي ابتكره الحاخامات "الكاباليون"، مع الأبجدية اليونانية، وبالتالي وضع رمزية عددية لتكوين الأيونات وعملية العالم الغامضة للغاية في الغنوصية، هي نقطة ذات أهمية كبيرة. ومع ذلك، قد يكون العبرانيون قد اقتبسوا من اليونانيين؛ أو أن كلاهما استمد هذه الطريقة من مصر.

وكما هو واضح للجميع، كانت أساليب الرمزية عند الغنوصيين كثيرة جداً؛ فقد بذلت محاولات عديدة لنقل فكرة عن أنماط الوجود، ليس فقط الوجود فوق المادي، ولكن أيضاً ما تم ذكره بشكل قاطع على أنه وجود فوق العقلاني، إلى الوعي المادي. إن كون هذه المحاولات محكوم عليها بالفشل، من حيث الفهم العام، ليس سبباً للسخرية من الجهود المبذولة؛ وأننا لم نطور حتى اليوم، بكل صيغنا الرياضية المعقدة، رمزية كافية، ليس سبباً لإنكار إمكانية تحقيق مثل هذا الإنجاز ضمن حدود معينة في العصور القادمة.

حاول ماركوس القيام بهذه المهمة الضخمة بوسائل غير كافية، وهذا صحيح، بوسائل تبدو لعقولنا العادية اليوم خيالية وحتى عديمة القيمة؛ ومع ذلك لم يكن بدون تقاليد بررت إلى حد ما قيامه بهذه المحاولة.

كانت الديانة القديمة للكلدانيين فلكية ورياضية؛ حيث تم شرح نشأة الكون والتطور من خلال رمزية الأرقام. كان لكل حرف من حروف اللغة المقدسة ما يعادله عددياً، وبالتالي يمكن بناء الكلمات والجمل التي يمكن تفسيرها عددياً، وفي النهاية يمكن جعلها

ص 361

تفسيرية للظواهر والعمليات الطبيعية والسماوية. وبما أن الكتب المقدسة لـ "الرياضيين" يقال إنها كتبت مع وضع هذا الهدف المحدد في الاعتبار، فإن المفتاح الرياضي المعطى للمطلع على علم النجوم القديم في كلدان، قد يفتح الباب أمام العلوم المقدسة للطبيعة والإنسان كما عرفها عرافو تلك الحضارة القديمة.

من المفترض أن حاخامات اليهود، عند عودتهم من الأسر، جلبوا معهم بعض الكابالية. المفاهيم المتعلقة بهذه الطريقة من الأرقام والحروف، وشرعوا فيما بعد في استخدامها كوسيلة لتفسير الكثير مما كان بغيضاً للعقل المثقف في تقاليدهم القديمة، ولقراءة معانٍ جديدة وروحية في الخرافات الكونية والأبوية القديمة، مستمدة إلى حد كبير من اتصالهم بالأفكار الشرقية خلال سنوات الأسر وما بعدها. لقد تطورت هذه الطريقة في التفسير الصوفي باستخدام الأرقام والحروف إلى حد مذهل من خلال النزعات الهيلينية للحاخامات المثقفين بين الشتات؛ وكانت مصر، وخاصة الإسكندرية، من المراكز الرئيسية لهذا العلم الخاص. لقد وصل إلينا أحد آثار هذا النظام العددي مع تقاليد الكابالا. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الحاخامات قاموا بتكييف النظام مع مكتبة غير متجانسة من الأعمال ذات التواريخ المختلفة والعديد من النسخ، والتي لم يتم تأليفها في الأصل مع وضع هذا الغرض في الاعتبار. صحيح أنهم اعتقدوا أن كل كلمة وحرف من الشريعة قد أوحى بها الله مباشرة، وبالتالي فهي تحتوي على قوة سحرية رائعة، لكن المنطق الدؤوب

للبحث الكتابي الحديث قد قلب إلى حد كبير هذه الفرضية المحبوبة، ويجب الآن اعتبار عملياتهم العددية التقية في معظمها تطورًا للحاخامية الدفاعية، وشرعية فقط بالنسبة لأجزاء صغيرة من الوثائق التي ربما تكون قد ألفها الكتبة في بابل الذين كانوا ملمين بالفعل بالمنهج الكلداني.

لا شك أن فالنتينوس وتلاميذه كانوا على دراية بكل ما يمكن تعلمه في الإسكندرية من التفسير الحاخامي، والذي تركزت فيه آمال اليهود أكثر من أي وقت مضى بعد تدمير الهيكل الثاني في عام 70 ميلادي. كما كانوا على دراية تامة بفلسفة الأعداد الفيثاغورية، والتي لا شك أن رمزيتها كانت تحمل العديد من أوجه التشابه مع كتب الأعداد الخاصة بالكلدانيين القدماء. لذلك ليس من المستغرب أن نجد أن أحدهم انشغل بتكييف هذه الطريقة القديمة للرمزية (إن لم تكن متأصلة بالفعل في التقاليد اليونانية) مع الأبجدية اليونانية، التي كانت تُكتب بها وثائق العقيدة الجديدة، وكما كانوا يعتقدون بشدة، علم العالم الجديد، بشكل حصري تقريبًا. وغني عن القول أن الأبجدية اليونانية لن تصمد أمام الضغط؛ ومع ذلك فقد كانت تمرينًا جيدًا لتلميذ الغنوص، ووفرت مجالًا واسعًا لاستخدام الكثير من البراعة.

لم يكن هذا التمرين في الموافقات مساهمة في المعرفة بطبيعة الحال، بل كان مجرد وسيلة لنقل المعرفة المكتسبة بطريقة أخرى. ومع ذلك، سيكون من المفيد أن نقدم للقارئ لمحة موجزة عن بعض أفكار ماركوس، بقدر ما يمكن

استخلاصها من الملخص الازدرائي لمخطوطة ماركوس من قبل إيرينيئوس في جدله. كما أنها مثيرة للاهتمام أيضاً لأنها تُظهر نقاط اتصال وثيقة مع الرسائل القبطية التي أشرنا إليها كثيراً.

يُعزى مصدر إلهام الوثيقة إلى الأربعة العلويين، وهم أعلى هرمية في البليروما، والتي لا تكشف عن نفسها للبشر إلا في شكلها "الأنثوي"، لأن العالم لا يستطيع تحمل قوة وتألق عظمتها "الذكورية". الفكرة نفسها رائجة في الهند. يستخدم الإله (ديفا) قوته، الإلهة (شاكتي، ديفي)، كوسيلة للتواصل مع البشر؛ أما هيئته الخاصة فلا يستطيع أي بشري رؤيتها

والعيش. يستند كل ما يلي إلى النصوص اليونانية لهيبوليتوس (دونكر وشنايدوين) وإبيفانيوس (ديندورف) - الذين نسخوا من النص اليوناني المفقود لإيرينيئوس - وإلى النسخة اللاتينية غير الذكية والهمجية في كثير من الأحيان من النص اليوناني الأصلي لإيرينيئوس (ستيرين).

يبدو أن المخطوطة بدأت بالمقطع التالي الذي يصف نطق كلمة الأب السماوي.

"عندما أراد الآب، الذي ليس حتى الواحد، والذي يتجاوز كل إمكانية للفكر والوجود، والذي الاسم العظيم. ليس ذكراً ولا أنثى، أن تتحقق عدم قدرته على التعبير، وأن يتخذ عدم رؤيته شكلاً، فتح فمه ونطق بكلمة لمثله؛ الذي، بظهوره أمامه، أصبح وسيلة لرؤيته لما هو عليه - أي ظهور نفسه في صورة عدم رؤيته."

ص 364

أما نطق الاسم العظيم فكان على هذا النحو. تكلم الآب بالكلمة؛ وكانت النغمة الأولى من اسمه صوتًا من أربعة عناصر؛ وكان الصوت الثاني أيضًا من أربعة عناصر؛ والثالث من عشرة؛ والرابع والأخير من اثني عشر. وهكذا كان نطق الاسم الكامل يتألف من ثلاثين عنصراً وأربعة أصوات أو مجموعات.

بعد الكلمات "كانت النغمة الأولى لاسمه صوتًا من أربعة عناصر"، أدرج إيرينيئوس في ملخصه اقتراحًا خاصًا به، ربما مستمدًا من بعض التفسيرات العددية لمقدمة الإنجيل الرابع، والتي صادفها في مكان آخر في بحثه عن الهرطقة. وهكذا يقطع بوضوح خيط الملخص بالملاحظة المتداخلة، "أي ἀρχή"، "بداية" المقدمة.

علاوة على ذلك، فإن لكل عنصر من العناصر الثلاثين نطقه الخاص، وشخصيته، وحروفه، وتكويناته، وصوره. لكن لا يوجد عنصر على دراية بشكل الصوت الذي هو جزء منه؛ في الواقع، بعيدًا عن معرفة صوته الأصلي، فإنه لا يولي أي اهتمام حتى لنطق العناصر المرتبطة به في التسلسل الهرمي الصوتي الخاص به، بل يهتم فقط بنطقه الخاص.

وهكذا، فإنه ينطق بكل ما يعرفه، ويعتقد أنه ينطق بالاسم الكامل. لأن كل عنصر من العناصر، كونه جزءًا من الاسم الكامل، ينطق بصوته الخاص المميز مثل الكلمة الكاملة، ولا يتوقف عن النطق حتى يصل إلى الحرف الأخير من العنصر الفرعي الأخير بلغته الخاصة المميزة.

الآن يتحقق اكتمال أو استعادة كل شيء

ص 365

عندما تتحد كل هذه العناصر الأصلية في حرف أو نغمة واحدة، لتصدر نفس العبارة، وكان رمزها ترديد الكلمة المقدسة "آمين" بصوت واحد. كانت هذه النغمات من سلم الانسجام البدائي هي الوسيلة لإعطاء شكل الأيون الحي، الذي تجاوز كل فكرة عن الجوهر والتكوين. إلى هذه الأشكال أشار الرب عندما تحدث عن "الملائكة الذين ينظرون باستمرار إلى وجه الآب".

الأسماء الشائعة لهذه العناصر هي: الأيونات، الكلمات، الجذور، البذور، الوفرات (plerōmata)، الثمار. يتم التمييز بين الأسماء "المنطوقة" والأسماء "الأصيلة"،

أو الأصوات الصوفية، والتي يمكن العثور على العديد من الأمثلة على ما يعادلها من حيث التشفير في المخطوطات القبطية.

الآن، كل عنصر إلهي، بكل أصواته الفرعية أو نغماته أو حروفه، كان موجودًا في طور الكائن الإلهي الذي أُطلق عليه الاسم الرمزي للكنيسة. إن مصطلح "الكنيسة" (Ecclesia) يعني "الدعوة"، وإرث المختارين، وهو بديل عن اسم "أصيل"، والذي لم يتم الكشف عنه إلا للأعضاء المتأهلين في المدرسة. كانت الكنيسة هي الجانب الأنثوي من الاقتران الرابع والأخير، أو الزوج، من الرباعية، أو الأربعة المقدسين، أسياد البليروما.

عندما نطقت النوتة الأخيرة للعنصر الفرعي الأخير من هذه العناصر العلوية صدى الاسم. بصوتها المميز، انطلق صدى ذلك الصوت، على صورة كل هذه العناصر والعناصر الفرعية، وأدى إلى ظهور سلسلة أخرى؛ وهذه السلسلة هي السبب ليس فقط لعناصر

ص 366

العالم التي نعرفها، ولكن أيضًا لتلك العناصر التي لها وجود سابق لعناصر عالمنا.

أما النغمة الإلهية الأخيرة نفسها، التي تردد صداها تلو الآخر إلى أسفل، فقد حملتها نغمتها الأصلية إلى أعلى لإكمال وتمام الاسم بأكمله؛ بينما نزل الصدى إلى الأجزاء السفلية، وبقي كما لو أنه طُرد من البليروما.

يتكون هذا الصوت أو العنصر الأصلي، الذي انحدرت منه النغمة الأخيرة، والتي تحتوي على احتمالية نطق الصوت الأصلي، من ثلاثين حرفًا أو عنصرًا، ويحتوي كل منها على أحرف أو عناصر أخرى، يتم من خلالها تهجئة اسم كل عنصر جذري، وهكذا إلى ما لا نهاية. أي أن العناصر الفرعية، كما لو كانت، تشرح اسم العنصر الرئيسي أو تُظهر قوته؛ وتتجلى قوة أو اسم كل عنصر فرعي بدوره أو يتم شرحه بواسطة عناصر فرعية ثانوية أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية.

أوصل ماركوس هذه الفكرة العظيمة إلى أذهان تلاميذه من خلال الإشارة إلى تشابه في الأبجدية اليونانية. وهكذا خذ أي حرف واحد، لنقل Δ، دلتا؛ بمجرد أن تسميه، يكون لديك خمسة أحرف، وهي: Δ delta, E epsilon, Λ lambda, T tau, A alpha. مرة أخرى، يتم حل epsilon ،E، إلى Λ ،E epsilon، Ψ psi، I iota lambda، O omicron، N nu؛ وهكذا إلى ما لا نهاية. الرسم التوضيحي واضح بما فيه الكفاية.

الجسد الرمزي لرجل الحقيقة. ثم شرعت المخطوطة الغنوصية في وصف طريقة لترمز إلى الجسد العظيم للرجل السماوي، حيث تم تخصيص الأحرف الأربعة والعشرين من الأبجدية اليونانية في أزواج

ص 367

للأطراف الاثني عشر." كان جسد الإنسان السماوي رمزاً بيانياً للتنظيم المثالي أو النظام أو الترتيب المثالي للكون ومناطقه ومستوياته وهرمياته وقواه.

كان هذا التمثيل الرمزي يسمى المخطط أو تكوين العنصر الواحد (τό σχῆμα τοῦ στοχείου)، وكذلك الهيروفل (أو الحرف) لشكل (أو رسم) رجل الحقيقة، ويفترض أنه إله الحقيقة في مخطوطة بروسيانوس، التي تحتوي إحدى

رسائلها على سلسلة كاملة من الرسوم البيانية للحظات المختلفة لانبعاث الإله الخالق تحت هذا الاسم.

في عبارة "الصورة الرمزية للشكل" (ὁ Χαρακτὴρ τοῦ γράμματος)، تعني الكلمة γράμμα إما (.1) حرف من الحروف الأبجدية، أو (.2) نغمة موسيقية، أو (.3) شكل رياضي أو رسم تخطيطي. وبالتالي فإن الحرف أو الرمز أو التكوين سيكون رمزًا أو انعكاسًا للروحانية الفائقة البليروما ، التي تعتبر (1) الحرف الأخير من الاسم العظيم المكون من أربعة أحرف، أو (2) النوتة الأخيرة من الانسجام الإلهي الذي يغنيه اللوغوس أو الكلمة العليا. ولتجنب التعقيد ورموز الرموز، فقد أخذنا كلمة γράμμα بمعناها الثالث، حيث تعلن عن صلتها بالفن العظيم لتنظيم عناصر وقوى الطبيعة، والمعروف في الهند باسم التانترا ("التنظيم"، "الترتيب"). أصبحت التانترا الآن فنًا ذا وجهين، أبيض وأسود، وسمتها الرئيسية هي رسم المخططات السحرية (يانترا)، لتمثيل تكوين العناصر والقوى التي يرغب الممارس في استخدامها.

أغفل هنا كل ذكر لرسم مارك التخطيطي

ص 368

لجسم الإنسان السماوي، لأن تناوله سيشغل مساحة كبيرة جدًا في هذه الرسومات الموجزة.

الآن الكلمة، الطاقة الذكورية للزوج الأوسط أو اقتران الثالوث (العقل-الحقيقة، الكلمة-الحياة، الإنسان-الكنيسة) ومجموع الستة، انبثقت من فم الحقيقة. هذه الكلمة هي اللوغوس أو السبب الأسمى لكل الأشياء، المولد الذاتي للكون، الذي يمنح الأبوة (πατροδότορα λόγον) لكل الأشياء. على الأرض، تصبح هذه الكلمة الاسم المعروف لدى جميع المسيحيين، ألا وهو المسيح يسوع. لكن يسوع ليس سوى صوت الاسم هنا وليس قوة الاسم. إن يسوع في الحقيقة هو بديل لاسم قديم جداً، وقوته معروفة فقط للمختارين من المسيحيين.

إنه الاسم المكون من ستة أحرف. لكن حتى هذا ليس سوى رمز؛ فبين أيونات البليروما، هو متعدد الأشكال، وله شكل ونوع آخر، وهذا لا يعرفه إلا أولئك الذين هم قريبون من اللوغوس في قلوبهم، أولئك الذين ملائكتهم أو عظمائهم معه إلى الأبد.

أما الآن، فإن الأحرف الأربعة والعشرين من الأبجدية، المرفقة بأطراف جسد الإنسان السماوي المختلفة في الرسم التخطيطي، هي رموز أو صور لانبعاثات القوى الثلاث التي تحتوي على المجموع الكلي أو بليروما العناصر الأيونية المذكورة أعلاه. وهناك تشابه آخر بين طبيعتهم والأبجدية. لأن هناك تسعة أحرف ساكنة (أو أحرف غير صوتية)، وثمانية أحرف سائلة (أو أنصاف أصوات)، وسبعة أحرف متحركة (أو أصوات).

ترمز الحروف الساكنة إلى العناصر التي لا توصف أو التي لا صوت لها

ص 369

في العقل والحقيقة؛ أما الحروف السائلة، التي تقع في منتصف المسافة بين الحروف الصامتة والأصوات، فترمز إلى عناصر الكلمة والحياة، التي تستقبل الانبثاق من غير المتجلي في الأعلى، وتستقبل الصعود من المتجلي في الأسفل؛ وتمثل حروف العلة عناصر الإنسان والكنيسة، لأن الصوت المنبعث من خلال الإنسان قد شكل كل الأشياء. لأن صدى صوته منحهم شكلاً.

يذكرنا هذا بالتقسيم المفصل لعالم الأفكار الأفلاطوني إلى ثلاثة فضاءات: (1) المعرفي؛ (2) المعرفي ونقي؛ و(3) نقي. (انظر مقالتي عن أورفيوس).

وهكذا لدينا السلسلة 9، 8، 7؛ وإذا أخذنا 1 من 9 وأضفناه إلى 7، نحصل على 8، 8، 8 - أو يسوع، الأرقام. الاسم المكون من ستة أحرف (ἰησοῦς)، والذي تبلغ قيمته العددية 888. أي أن الذي كان له مقعد مع الآب (العقل)، ترك مقعده ونزل، وأرسل إلى الذي انفصل عنه (الكنيسة)، لإعادة الخلق الإلهي إلى حالة من التوازن، حتى إذا ما اختُزلت وحدات البليرومات (أو المراحل الثلاث للبليروما أو الكون المثالي) إلى مساواة، يكون هناك نتاج مشترك لقوة واحدة من كلهم في كلهم. وهكذا حصل الرقم 7 على قوة الرقم 8، وأصبحت الفضاءات الثلاث متساوية في أعدادها، أي 3 ثمانيات، ومجموعها 24.

الآن هذه الفضاءات أو العناصر الثلاثة كل منها ثنائية (إيجابية وسلبية)، 6 في المجموع، وهذه مرة أخرى رباعية، 24 في المجموع، انعكاس لعناصر ما لا يسمى، في ثنائيات وثلاثيات ورباعيات.

علاوة على ذلك، إذا وجدت الرقم 6 بين الأحرف الـ 24

ص 370

من الأبجدية، والتي هي مجرد صور للعناصر الحقيقية، فستجده مخفيًا في الأحرف المزدوجة Ξ (κς)، Ψ (πς)، Z (δς)). أضف هذا الرقم 6 إلى الرقم 24 وسنحصل مرة أخرى على رمز 30 أيون من البليروما.

تفسير الأناجيل. لقد وجد الغنوصيون هذه الأرقام والعمليات في مقدمة سفر التكوين، وفي أماكن أخرى في مكتبة العهد القديم؛ ومع ذلك، لسنا بحاجة إلى اتباعهم في مجال ترقيم الحروف هذا. لكن عندما نجد أنهم تعاملوا مع أساطير الأناجيل ليس كتاريخ، بل كرمزية، وليس فقط كرمزية، بل كرمز لدراما التأهيل، يصبح الأمر ذا أهمية بالغة لدارس الفلسفة الثيوصوفية.

وهكذا قالوا إن قصة التجلي كانت رمزية (ἐν ὁμοιώματι εἰκόνος) للتدبير الإلهي كما يتجلى في الإنسان الساعي إلى الكمال؛ بعبارة أخرى، لمرحلة معينة من مراحل التأهيل.

ولتوضيح ذلك بشكل أكبر، سنستخدم مصطلحات مألوفة بالفعل لبعض قرائنا.

بعد "ستة أيام"، أي في المرحلة السابعة منذ أن وضع التلميذ قدميه على الطريق لأول مرة، صعد إلى "الجبل" - وهو رمز بياني لحالات الوعي العليا.

صعد إلى المرتبة الرابعة وأصبح السادسة. أي أنه صعد مع ثلاثة وانضم إليه اثنان، وهم بطرس ويعقوب ويوحنا، وموسى وإيليا من الرواية الإنجيلية المألوفة.

"الثلاثة" هي القوى التي سبق له أن انتصر بها على المستويات المادية والدقيقة والعقلية - ويفترض أنها درجات سروتابانا وساكاداغامين وأناغامين في التقاليد البوذية. "الاثنان"

ص 371

هما ممثلا القوى الروحية والإلهية التي ترحب به وتدعمه، وهكذا يصبح سادساً، أو يمتلك الوعي الروحي، بينما لا يزال في الجسد، - مرحلة الأرهات.

قال الماركوسيون إن هذه "الستة" هي التي نزلت واحتُجزت في هيبدمد، أو منطقة المجالات السبعة للاختلاف؛ و"الستة" هي في الواقع من نفس جوهر أم العالم، المجال الثامن المحيط بالتماثل، والذي هو فوق أو أبعد من هذه السبعة. إن الستة (الأرهات) كونها من نفس جوهر أم العالم (الحكمة) تحتوي في جوهرها على العدد الكامل لجميع العناصر أو القوى - وهي حقيقة تم تجسيدها بالفعل في المرحلة التي يرمز إليها في أسطورة المعمودية بنزول الحمامة. الحمامة هي ألفا وأوميغا (1 و800) في الرسم التخطيطي، أول وآخر الأرقام، وتمثل الرأس. علاوة على ذلك، فإن كلمة "حمامة" في اليونانية هي περιστερά، و80 (π) + 5 (ε) + 100 (ρ) + 10 (ι) + 200 (σ) + 300 (τ) + 5 (e) + 100 (ρ) + 1 (α) = 801.

ومرة أخرى، في "اليوم السادس"، "التحضير"، أظهر النظام الإلهي، أو نظام الأشياء، "الإنسان الأخير"، "الإنسان من السماء"، من أجل الولادة الجديدة أو التجديد لـ "الإنسان الأول" أو "إنسان الأرض"؛ وعلاوة على ذلك، بدأت الآلام في الساعة السادسة وانتهت في الساعة السادسة، عندما تم تسمير المتأهل على الصليب. صُمم كل ذلك للدلالة على قوة الخلق (البداية) والتجديد أو الولادة الجديدة (نشأة)، والتي يرمز إليها الرقم 6، لأولئك الذين تم قبولهم في أسرار التأهيل، والذين أطلق عليهم الكاتب الماركوسي اسم "أبناء النور"، أو

ص 372

"أبناء الإنسان"، لأن الكلمة اليونانية ستحمل كلا المعنيين.

لأن الخلق أو النزول يمثله الرقم 2، أي بالثنائيات، والتجديد أو الصعود يمثله الرقم 3، أي بالثلاثيات، و 2 × 3 = 6.

خلق العالم المحسوس. أما فيما يتعلق بخلق الكون المحسوس: فإن اللوغوس، بوصفه الخالق، يستخدم كخادم له، أو خادم، "العظمة" ذات الأرقام السبعة (أي التسلسل الهرمي السباعي للكون المثالي، أو عقل اللوغوس، الذي ترمز إليه حروف العلة السبعة)، حتى تتجلى ثمرة تأمله الذاتي.

ومع ذلك، يُنظر إلى خلق كوننا الخاص (أو نظامنا الشمسي) على أنه عملية تصنيع أو بناء، وفقًا لنوع معين في العقل الإلهي. إن الصانع أو البنّاء المبدع هو، كما لو كان، انعكاس للوغوس الكوني، مستوحى منه، ولكنه منفصل أو مقطوع، وبالتالي يبقى منفصلاً عن البليروما أو خارجها. من خلال قوة وهدف اللوغوس الإلهي، قامت القوة الديميورجية، عن طريق انبثاقها أو حياتها (انعكاس حياة البليروما)، بإضفاء النفس على كون القوى السبع، وفقًا لتشابه القوة السباعية أعلاه، وهكذا تشكلت النفس الكل المرئي، كوننا. يستخدم الديميورج هذا العمل كما لو أنه قد وُجد من خلال إرادته وحده؛ لكن الكرات السبعة

لنفس العالم (الحياة الكونية) - نسخ من المجالات الأيونية التي لا يمكن لأي مجال كوني أن يمثلها حقًا - هي في الواقع خادمات لإرادة الحياة الإلهية، الأم العليا.

ص 373

الآن، تُصدر أولى هذه الكرات السبعة، أو السماوات، صوت حرف العلة A، والثانية E، والثالثة H، والرابعة والوسطى I، والخامسة O، والسادسة Y، والسابعة والرابعة من الوسط Ω. وعندما تتحد جميعها في تناغم، تُصدر صوتًا يُمجّد من انبثقت منه (الكلمة (اللوغوس) الإلهية أو باني العالم)؛ ويرتفع مجد الصوت إلى سلف البليروما (الكلمة (اللوغوس) الإلهية)، بينما يتردد صدى ترنيمة مجدها على الأرض، ليصبح مُشكِّلها ومُنشئها عليها، أي نفوس البشر.

يبدو أن إيرينيئوس قد وصل الآن إلى نهاية المخطوطة، وهكذا يشرع في إعطاء الصديق الذي يكتب إليه، العديد من التفاصيل الأخرى عن أفكار ماركوس التي جمعها من قصاصات الاقتباسات أو من الأقاويل، - "quæ ad nos pervenneruut ex iis" (c. xv.). ويعود مرة أخرى إلى دراسة التنظيم الأبدي لـ البليروما ، وإلى شرح سبق أن اقتبس منه مقتطفًا في سياق آخر (c. ii. 3)، على النحو التالي:

"قبل كل الأكوان يوجد مصدر (أو بداية) قبل المصدر البدائي، حتى قبل تلك الحالة التي لا يمكن تصورها، ولا يمكن وصفها، ولا يمكن تسميتها، الرَّابوع. والتي أعتبرها العدم." بهذا يتحد اللاعدد مع قوة أطلق عليها اسم الوحدة. هذا العدم والوحدة، وهما في الحقيقة واحد، انبثقا، على الرغم من أنهما لم ينبثقا حقًا، المصدر المعقول (أو المثالي) لكل شيء، غير القابل للتكوين وغير المرئي، والذي يطلق عليه الكلام اسم الموناد (أو العدم).

ص 374

مع هذا المونادِ تتحد قوة ذات جوهر متساوٍ (ὁμοούσιος) معه، والتي أسميها واحدًا. هذه القوى، العدم، والوحدة، والعدم والواحد، ترسل بقية انبثاقات الأيونات.

"العدم" (حرفيًا، "الوحدة") هو جذر الوحدة (الموناد)، وهو **O** الدائرة التي تحتوي على جميع الأرقام - اللا رقم.

يُظهر هذا المقطع التأثير الواضح لباسيليدس، ولكن الآراء بين أفضل النقاد منقسمة حول ما إذا كان ينبغي نسبه إلى ماركوس أو هيراكليون.

ومع ذلك، فإن أسماء هذا الرباعي الأعلى أو الرَّابوع غير قادرة حقًا على التمثيل في الكلام البشري؛ إنها "قدس الأقداس"، وهي أسماء لا يعرفها إلا الابن، بينما هو نفسه لا يعرف ما هي الأربعة حقًا، وهذه المعرفة النهائية للحقيقة الواحدة تُنسب إلى الآب وحده.

تتعلق هذه الأسماء بـ "اللغة المقدسة"، والتي ترد نماذج منها في أجزاء من كتب المخلص المرفقة بوثيقة بيستيس صوفيا وفي اثنين من أطروحات كودكس بروسيانوس.

البدائل لهذه الأسماء هي: لا يوصف (ἄῤῥητος) والصمت (σειγή)، الأب (πατήρ) والحقيقة (ἀλήθεια)؛ الكلمات اليونانية التي تتكون على التوالي من 7 و5، و5 و7 أحرف، أو ضعف 7 وضعف 5، وهي العناصر الـ24 من البليروما .

وكذلك الأمر بالنسبة لبدائل أسماء الرباعي الثاني: الكلمة (όγος) والحياة (ζωή)، والإنسان (ἄνθρωπος)، والكنيسة (ἐκκлησία)؛ الأسماء اليونانية تتكون على التوالي من 5 و 3 و 8 و 8 أحرف - في جميعها 24.

ص 375

ومرة أخرى، يتكون الاسم المنطوق أو القابل للنطق للمخلص، يسوع (ἰησοῦς)، من 6 أحرف، بينما يتكون اسمه الذي لا ينطق من 24 حرفًا. كما ذكر أعلاه، فإن الاسم = 888، وبالتالي، من خلال تبديل آخر، = 24.

توجد تباديل عددية مماثلة أيضًا في حروف كلمة المسيح.

لكن ربما يقول القارئ: كفى من هذا الإكراه الواضح على إدخال أبجدية غير راغبة في أحضان رمزية الأرقام. لكن المركسيين قد يبررون ذلك أولاً بمثال فيلو واليهودية الإسكندرانية، الذين لم يؤمنوا فقط بالإلهام الحرفي للنص العبري للعهد القديم، ولكن أيضًا بأن النسخة اليونانية لما يسمى بالسبعين قد كُتبت بإصبع الله؛ وثانيًا، ربما قالوا: إن الأسماء اليونانية للأيونات ليست سوى بدائل لأسماء أخرى لها هذه المكافئات العددية، وتتعلق بأسرار تأهيلنا.

إن الجزء العلمي الحقيقي من النظام هو عملية العدد كرمز طبيعي للتطور البدائي؛ لا يكفي أن نسمي هذا الفيثاغورية ونرفضه بازدراء، لأن كل علومنا الفيزيائية الحديثة تستند إلى نفس اعتبارات القياس والعدد.

الآن، يحتوي الواحد في ذاته ضمنياً على الأشياء الثلاثة غير المفهومة، وهي الفراغ، والوحدة، والعدم. الحساب اللاهوتي. وهكذا فإن الواحد هو ممثل الرباعية العليا. وبما أن جميع الأرقام تأتي من الواحد، فإن هذه الرباعية تسمى الأم الكلية، أو الحكمة العليا. من عائداتها كابنة، الرباعي الأدنى، الأرقام المفهومة، 1 و2

ص 376

و3 و4، الحكمة السفلى، والتي يجب اعتبارها 8 من الناحية المحتملة، بالنظر إلى أن الرقم 1 يظهر الواحد غير القابل للظهور، ممثل الرباعي غير القابل للظهور. وبالتالي، تُعتبر الحكمة أدناه ثمانية، أو الأجدود. لكن هذا الثماني يحتوي على العشري، لأن 1 + 2 + 3 + 4 = 10. وهذا العقد بالاقتران مع الرقم 8 يصبح 80، وبالاقتران مع الرقم 8 ومع نفسه يصبح 800؛ بحيث يتم فصل الرقم 8، أو أم العالم، إلى ثلاثة فضاءات، 8 و80 و800، في المجموع 888، وهو رقم قوتها المُشكِّلة أو قرينها يسوع، الكلمة الخالقة من الأعلى، 1 + 2 + 3، أو 6، قرين الرقم 4 أو الرقم الأخير من الرباعي السفلي.

كان هذا التوضيح لجوهر العالم بواسطة العقد - بواسطة الخالق 888 أو "يسوع" - هو "التوضيح وفقًا للجوهر"؛ ولكن كان هناك توضيح آخر من نوع أعلى، بواسطة "المسيح"، وهو "التشكيل

بحسب المعرفة." كان هذا هو التجديد عن طريق اثني عشر. الآن 6 × 2 = 12؛ (1 + 2 + 3) × 2 = 12؛ 10 + 2 = 12؛ 8 + 4 = 12.

إن 8 + 4 هو الأجدود مع إضافة الرباعي الأول إليه؛ و 10 + 2 هو العشري مع إضافة القوى المزدوجة للرباعي العلوي والسفلي إليه؛ و (1 + 2 + 3) × 2، أو 6 × 2 هو مضاعفة القوة المؤثرة أو صعودها إلى نفسها.

يسوع المعلم. هذه الأنماط والعمليات الأبدية كانت تُرى في الطبيعة والتاريخ. وهكذا في حالة السيد العظيم، فكما كانت نفس العالم في جهل قبل أن تُصاغ وتُجدد، كذلك كان البشر في جهل وضلال قبل مجيء العظيم، يسوع. لقد تجسد في صورة يسوع،

ص 377

لكي ينزل إلى مستوى إدراك البشر على الأرض. والذين عرفوه كفوا عن الجهل، وصعدوا من الموت إلى الحياة، إلى "اسمه" أو قوته، مما قادهم إلى أبي الحق. فقد كانت إرادة الآب الأعظم أن يضع حداً للجهل ويدمر الموت. ونهاية الجهل هي معرفة (ἐπίγνωσις) به (المسيح). ولهذا السبب تم اختيار رجل بمشيئته كان تكوينه على صورة القوة العليا (الرباعية السفلى)، أي أنه متطور بما يكفي ليكون بمثابة مركبة مناسبة.

أما الآن، فيُشار إلى الرباعية السفلى باسم الكلمة والحياة، والإنسان والكنيسة. والقوى المنبثقة من هؤلاء القديسين الأربعة تراقب ميلاد يسوع وتشكّل أجساده الدنيا على الأرض. وقيل إن هذا قد ظهر بوضوح في الكتاب المقدس الرمزي. يحل "جبرائيل" محل الكلمة (العقل أو اللوغوس)، و"الروح القدس" محل الحياة، و"قوة العلي" محل الإنسان، و"العذراء" محل الكنيسة.

ومرة أخرى، عند المعمودية نزلت على يسوع، المتشكل بشكل كامل (أو المتجسد وفقًا للجوهر)، الحمامة التي تحلق مرة أخرى إلى السماء، مسارها الصاعد يكمل يسوع (أو 6) ويجعله المسيح (أو 12)، التجسد وفقًا للمعرفة، أو الإشراق الكامل. وفي المسيح يبقى نسل أولئك الذين ينزلون ويصعدون معه. وقوة المسيح النازلة هي بذرة البليروما، التي تحتوي في ذاتها على كل من الآب والابن، وقوة الصمت التي لا توصف، الأم.

ص 378

(وهو أمر لا يُعرف إلا من خلالهم)، وبقية الأيونات. إن قوة الصمت هذه، وهذا السلام والراحة، هي الروح القدس. كان هذا الروح هو الذي تكلم من خلال فم يسوع في روايات الأناجيل، وأعلن عن نفسه كابن الإنسان، وكشف عن الآب، ونزل على يسوع وأصبح واحداً معه. كان هذا المخلص هو الذي وضع حداً للموت، بإزالة الجهل، وجعله يسوع معروفاً بأنه أبوه، المسيح.

إن يسوع هو في الحقيقة اسم الرجل الذي اكتمل في طبيعته الدنيا (أي المتأهل)؛ ولكن بسبب قابليته للتكيف والتكوين، فقد أُطلق الاسم على الرجل الذي كان من المفترض أن ينزل إليه (بمعنى آخر، المعلم). والذي كان وسيلة هذا العظيم، كان فيه الإنسان والكلمة والأب

واللامنطق، والصمت والحقيقة والحياة والكنيسة (لأن المعلم هو من هو واحد مع هذه).

بعد ثلاثة أقسام من الإساءة، يستأنف إيرينيئوس موضوع التوافقات العددية الماركوسية في الفصل السادس عشر؛ لكن قراءة المقطع الرئيسي الذي يتناول عيوب الاثني عشر وما يترتب على ذلك من "عاطفة" النفس الكونية والنفوس الفردية معيبة لدرجة أنني لم أتمكن حتى الآن من فهم أي شيء منه.

"الصورة المتحركة للأبدية".ومع ذلك، في الفصل السابع عشر، يتم تتبع الأنواع الأيونية في تنظيم الكون. يظهر الرباعيان في العناصر الأربعة: النار، والماء، والتراب، والهواء، وخصائصها الأربعة: الحار، والبارد، والجاف، والرطب. يظهر العقد في الكرات (مجالات) السبعة، والثامن الذي يحيط بها، بالإضافة إلى الشمس والقمر. وهذا

ص 379

يوضح بوضوح أن "الكرات السبعة" ليست "الكواكب"، سواء في علم التنجيم أو علم الفلك. وأخيرًا، يتم عرض الـ 12 في ما يسمى دائرة الأبراج.

الآن حركة هذه الكرات السبع سريعة للغاية، في حين أن الكرة الثامنة، أو السماء، أبطأ بكثير من حركة الكرات السبع المتداخلة فيما بينها، وكأنها توازن أو تحد من حركتها السريعة للغاية عن طريق الضغط على محيطها؛ والنتيجة هي أن الكتلة بأكملها تستغرق حوالي 30 عامًا لتمر عبر برج، أو جزء من اثني عشر، من حزام البروج. وهكذا اعتبرت هذه الكرة المعيقة بمثابة صورة للحدود العظيمة التي تحيط بـ "أم الثلاثين اسماً" أو البليروما. ومرة أخرى، يحيط القمر بـ "سمائه"، أي الحد الأدنى، في 30 يومًا؛ وتكمل الشمس عودتها الدورية في 12 شهرًا. علاوة على ذلك، هناك 12 ساعة في كل يوم، وكل ساعة مقسمة إلى ثلاثين جزءًا، وفقًا للتقسيمات الرئيسية الـ 12 للأبراج، وكل منها يحتوي على 30 قسمًا فرعيًا، أي 360 قسمًا في المجموع؛ والأرض لديها 12 مناخًا. كل ذلك بلا شك يعود إلى تقليد المصدر المشترك للديانتين الكلدانية والمصرية القديمتين.

لأن صانع العالم، أو روح الزمن، عندما رغب في نسخ الطبيعة اللانهائية، الأيونية، غير المرئية، وغير الزمنية للأبدية، لم يكن قادراً على صنع نموذج لطبيعتها الدائمة والأبدية، لأنه كان هو نفسه نتيجة نقص في هذه الطبيعة الأبدية؛ لذلك قام بتمثيل الأبدية في أوقات وفصول، وأعداد من سنوات عديدة، معتقداً أنه من خلال عدد كبير من المرات يمكن تقليد لانهائيتها. وهكذا تخلت عنه الحقيقة وتبع

ص 380

الكذب؛ ولذلك عندما يحين وقت انتهاء عمله سينتهي.

يخصص إيرينيئوس الفصول الثلاثة التالية (الفصل الثامن عشر- العشرين) لما سمعه عن الطقوس الماركوسية. تفسير ماركوس للنصوص المقدسة. هذا ليس ذا أهمية كبيرة؛ ولكن في الفصل الحادي والعشرين، يقدم لنا أسقف ليون بعض الصيغ التي استخدمتها المدرسة، وهذه ذات أهمية أكبر، على الرغم من أن الماركوسيين أنكروا دقتها. وهكذا يقول إن كلمات التكريس في المعمودية هي كما يلي:

"[أعمدك] باسم الأب المجهول للكليات، للحق، أم الجميع، لمن نزل على يسوع، لاتحاد وفداء وتواصل قواك."

ثم لدينا ما يزعم أنه ترجمة لدعاء عبري للمسيح؛ يقدم إيرينيئوس النص العبري الأصلي، ولكن في شكل فاسد بشكل مؤسف لدرجة أنه حير براعة أفضل العلماء.

"أنا أدعوك يا نور، يا من أنت فوق كل قوة الآب، يا من تُدعى نوراً وروحاً وحياة؛ لأنك قد ملكت في الجسد."

ثم يتم تقديم صيغة طقوس الفداء الملائكي (كان "الفداء الملائكي" هو الوسيلة التي يصبح بها المرشح واحدًا مع "ملاكه" في الأعلى)، وهي إحدى الدرجات العليا من التأهيل الغنوصي:

"[أستحضر] الاسم الخفي عن كل إله وسيادة، اسم الحق، الذي به لبس يسوع الناصري مناطق (أو أحزمة) النور، [اسم] المسيح، المسيح الحي، من خلال الروح القدس، من أجل الفداء الملائكي."

ثم تأتي صيغة الترميم أو إعادة الوضع

ص. 381

إلى ما كان عليه، والتكريس النهائي. يُعلن القائمون على إقامة الطقوس ما يلي:

"لا يوجد فصل بين روحي وقلبي والقوة السماوية العليا." يا مخلص الحق، ليتني أتمتع باسمك!"

ثم يجيب المرشح:

"أنا مؤكد ومفدى؛ أفدي نفسي من هذا العالم وكل ما يأتي منه، باسم الله الذي فدى نفسه، إلى الفداء في المسيح الحي."

ثم ينضم المساعدون مجدداً:

"السلام على كل من يحمل هذا الاسم!" كانت هناك أيضًا صلوات للموتى، وأيضًا صيغ للنفس عند مرورها عبر البوابات السبع للعوالم المطهرية السبعة، والتي قدم إيرينيئوس الأمثلة التالية عليها: "أنا ابن الآب، الآب الذي هو فوق كل وجود [أي، التوليد، أو السامسارا، عالم إعادة الميلاد] بينما أنا، ابنه، موجود". لقد جئت [إلى الوجود] لأرى ما هو ملكي وما ليس ملكي، ولكنه ليس كلياً ليس ملكي، لأنها ملك للحكمة، وهي [نظيرتي] الأنثوية، وقد صنعتها لنفسها. لكني أستمد مولدي من الذي هو فوق الوجود، وأعود ثانية إلى أصلي الذي منه خرجت.

ثم يمرون عبر مختلف مستويات عوالم المطهر، وتشق قوى المناطق طريقها أمامهم. يُقدّم "الاعتذار" الأخير إلى القوى المحيطة بصانع العالم، أو الديميورج، ويأتي على النحو التالي:

"أنا وعاء أثمن من القوة الأنثوية [الحكمة الدنيا] التي خلقتك.
أمك

ص 382

لا تعرف الأصل الذي أتت منه؛ أما أنا فأعرف نفسي وأعرف من أين أنا، وأستحضر الحكمة التي لا تفسد [في الأعلى]، الموجودة في الآب. هي التي هي أم أمك، الأم التي ليس لها أم ولا قرين ذكر. لكن أنثى ولدت من أنثى هي التي صنعتك، وهي التي لا تعرف أمها، بل تظن نفسها وحيدة [من صنع نفسها]. لكنني أستعين بأمها لمساعدتي."

وهكذا ينتقل إلى ذاته، متخلصاً من قيوده، أي النفس، أو الطبيعة الدنيا.

من الواضح أن لدينا في ما سبق إشارة إلى نفس نطاق الأفكار التي نجدها مطروحة بهذا التفصيل في رسائل بيستيس صوفيا وكوديكس بروسيانوس: رداء النور الخاص بالمعلم، الحي، والابتهالات، والتفسيرات، والصلوات من أجل الموتى، والمعمودية والمسحة المقدسة، وكلها قابلة للتمييز بوضوح؛ وكلها شكلت جزءًا من الدورة الكبرى للطقوس الغنوصية في الدوائر الفالنتينية المعروفة. أصبحت درجات هذا التأهيل أكثر سرية كلما أصبحت أكثر واقعية. ربما يكون إيرينيئوس قد سمع ببعض صيغ الدرجات الأدنى، لكن الدرجات الأعلى لا يمكن فهمها إلا من قبل التلاميذ المختارين لهذه المدارس الفكرية والصوفية للغاية. يبدو أن الوثائق المتعلقة بالدرجات العليا لم تصل قط إلى أيدي آباء الكنيسة.

ص 383

بطليموس.

لا نعرف شيئاً على الإطلاق عن حياة بطليموس، أحد أقدم تلاميذ فالنتينوس. من خلال بعض تلاميذ بطليموس بشكل رئيسي تعرف إيريناوس (I. i.-viii.) على الخطوط العريضة لبعض أفكار الغنوصية المتطورة لهذا التسلسل من التقاليد؛ ولكن من المستحيل تحديد ما إذا كان بطليموس نفسه على قيد الحياة عندما كتب كاهن ليون الفصول الافتتاحية من كتابه "الدحض"، في
مكان ما حوالي 185-195. من كتابات بطليموس لم يتم الحفاظ إلا على قطعتين فقط: تفسير للمقدمة الرائعة للبدايات التي لا تزال موجودة في مقدمة الإنجيل القانوني الرابع (إيرينيئوس., I. viii. 5)، ورسالة إلى سيدة تدعى فلورا، اقتبسها إبيفانيوس (الهرطقات.، xxxiii.).

من المستحيل في الوقت الحاضر البت فيما إذا كان تعليم بطليموس يختلف جوهرياً عن تعليم معلمه فالنتينوس أم لا؛ والبيان المنسوخ لترتليان (ضد فالنتينوس، 4) - والذي مفاده أن بطليموس فصل أسماء وأعداد الأيونات إلى مواد شخصية خارجية عن الألوهية، بينما أدرج فالنتينوس هذه المواد في مجموع الألوهية، كأحاسيس وعواطف ومشاعر - غير مفهوم تماماً لدارس الغنوصية.

سنتناول أولاً رسالة فلورا، ثم تفسير مقدمة عقيدة اللوغوس. الرسالة إلى فلورا. تقدم رسالة الفالنتينية إلى فلورا

ص 384

وجهة النظر التي كان يتبناها التقليد فيما يتعلق بعملية العالم، ولاهوت العهد القديم، ووثائق الشريعة اليهودية.

يقول بطليموس إن الآراء منقسمة؛ فمنهم من يتبنى الرأي المتطرف ويزعم أن شريعة اليهود جاءت مباشرة من الله والآب (اللوغوس)؛ ومنهم من يتبنى الرأي المعاكس تماماً، ويعلن أنها انبثقت من القوة المقابلة، المدمر، إله هذا العالم (المتهم أو الشيطان). كلا هذين الرأيين المتطرفين غير حكيمين. من جهة، من الواضح أن الشريعة ناقصة، كما يتضح من الأفكار الساذجة المنسوبة إلى الله في بعض الوثائق، وهي أفكار غريبة عن طبيعة وأحكام إله المسيح؛ ومن جهة أخرى، لا يمكن أن يكون مسار العالم من عمل قوة ظالمة، لأن المخلص نفسه أعلن أن البيت المنقسم على نفسه لا يمكن أن يقوم؛ وقد جرد "الرسول" منذ زمن بعيد من "الحكمة الباطلة" (ἀνυπόστατον σοφίαν) لهؤلاء الكاذبين، بقوله: "كل شيء خُلق به"، اللوغوس، وليس بإله الدمار.

يدين بطليموس، مثل بقية الفالنتينيين، الغنوص الزائف بنفس القدر الذي أدان به الآباء "الأرثوذكس" الذين يرأسهم إيرينيئوس، جميع أنواع الغنوص. لكن في ذلك الوقت لم تكن عبارة "المعرفة التي تسمى زوراً" بمثابة إدانة لكل الغنوص، لأنه لا يزال هناك غنوص مسيحي "أرثوذكسي"، كما أظهر كليمنت الإسكندري وغيره بشكل جيد.

إذن، لا يتبنى هذه الآراء إلا أولئك الذين يجهلون قانون السببية؛ فمجموعة المتطرفين الأولى تجهل إله العدل (واضع قانون الكارما)،

ص 385

والأخرى تجهل الأب الأعظم، الذي كان المخلص أول من عرفه وأعلنه لليهود.

اتخذ الغنوصيون موقفاً وسطاً بين هذين النقيضين، وهو الموقف الوحيد الممكن. وهكذا يشرع بطليموس "النقد الأعلى". في الإجابة على شكوك فلورا بالكامل بروح ما يسمى الآن "النقد الأعلى"؛ فهو يضع موقفًا بديهيًا للعبقري الغنوصي المثقف، ويقال إنه يستند إلى كلمات يسوع، ولكن لم يتم استعادته إلا من خلال الدراسات الحديثة بعد قرون طويلة من الغموض.

إن الشريعة، كما وردت في الكتب الخمسة المنسوبة لموسى، ليست من مصدر واحد، أي أنها ليست من الله وحده. في الواقع، يمكن تمييز ثلاثة مصادر: (1) القوانين التي أعطاها موسى بوحي إلهي؛ (2) القوانين التي سنها موسى نفسه؛ (3) القوانين التي أضافها الشيوخ.

ويؤكد هذا الانقسام "كلمات المخلص"؛ ففيما يتعلق بالطلاق، فقد علم أن موسى أجازه فقط بسبب قسوة قلوب اليهود، في حين أن شريعة الله منذ البداية نصت على أنه لا ينبغي فصل الزوج والزوجة. لم يكن قانون موسى سوى تشريع قائم على المصلحة، ولم يكن هو القانون. وعلاوة على ذلك، فإن تقاليد الشيوخ لم تكن هي القانون أيضاً. لأن الشريعة الموحى بها علمت أن التكريم واجب للأب والأم؛ وقد عارض يسوع هذه الحقيقة القديمة للواجب الكارمي مع التقاليد الجاهلة للشيوخ، التي علمت أن أي شيء يقدمه الطفل للأب أو الأم هو هدية - وهي عبارة يقتبسها بطليموس بشكل مختلف عن

ص 386

قراءات أي من الوثائق المتوافقة التي لا تزال تحتفظ بها؛ أي "كل منفعة تتلقاها مني هي هدية لله".

وهكذا يجب التمييز بين ثلاثة مصادر متميزة، واحد منها فقط يمكن الإشارة إليه فيما يمكن تسميته بأي شكل من الأشكال بالوحي.

ومرة أخرى، فيما يتعلق بالقسم الأول، يمكن حله بدوره إلى ثلاثة عناصر: (1) عنصر جيد (الوصايا العشر)، الذي أقره وأكمله تعليم المسيح؛ (2) عنصر سيئ، الذي تخلى عنه، وهو قانون "العين بالعين" للقصاص؛ و(3) الطقوس النموذجية والرمزية، مثل الختان والسبت والصيام، والتي ترجمها المسيح من أشكالها الحسية والظاهرية إلى معناها الروحي وغير المرئي. ويتضح هذا بشكل ملحوظ من خلال إحدى الأقوال المكتشفة حديثاً: "يقول يسوع: إن لم تصوموا عن العالم فلن تجدوا ملكوت الله، وإن لم تقدسوا السبت فلن تروا الآب". (انظر أقوال ربنا، غرينفيل وهانت ؛ لندن، 1897).

وهكذا فيما يتعلق بالعنصر الثالث، علم المسيح أن "القرابين" المقدمة لله لا ينبغي أن تتكون من البخور وذبح الحيوانات غير العاقلة، بل من الشكر الروحي، وحسن النية والأعمال الصالحة لجيراننا؛ وأن الختان ليس شيئًا ماديًا، بل هو ختان القلب الروحي؛ وأن حفظ السبت هو راحة من الأعمال الشريرة؛ وبالمثل، فإن الصيام هو عن الأشياء الدنيئة، وليس عن الطعام المادي.

من أي مصدر إذن جاء "إلهام" موسى في إقامة مثل هذه الشعائر؟ من

ص 387

مصدر يقع في منتصف الطريق بين عالم البشر والله فوق كل شيء؛ أي من العوالم الوسيطة، مصدر إلهام موسى. أو نفس العالم، القوة المصطنعة لهذا العالم المادي. لم يكن مصدر إلهام موسى هو الإله الكامل للمسيح، بل مصدر أدنى، ليس خيراً (لأن الله وحده هو الخير الحقيقي)، ولا شراً (فالقوة التي تعارض الخير وحده هي الشر)، بل هو ناقص؛ قوة المعدِّل أو المحكم. هذا المصدر أدنى من الإله الكامل؛ فهو عادل أو منصف بشكل مشروط فقط، وبالتالي فهو أدنى من بر الله وعدله الكاملين. إن صانع أو نَفْس عالمنا قابل للتكوين، وخالق الخلق الإلهي غير قابل للتكوين. لكن صانع العالم متفوق على المعارض، العالم، الذي جوهره الدمار والظلام، ومادته مادية ومقسمة إلى عدة أقسام. لكن جوهر الفضاءات الكونية للأب الذي لا يولد (الفضاءات الكونية، أو "الكونيات"، على عكس "العالم"، أو أرضنا؛ المستويات الكونية على أنها متميزة عن الأرضية) هو عدم الفساد والنور الموجود بذاته، بسيط وواحد.

يتم تمييز جوهر هذه الفضاءات الكونية بطريقة غير مفهومة إلى قوتين أو جانبين، النفس التي تشكل الجسد؛ أي أن "النفس الكوكبية" تشكل "الأرض". هذه النفس هي صورة للكون المثالي، ومن إحدى قواها استلهم موسى إلهامه.

حتى الآن، الرسالة المنطقية لبطليموس إلى فلورا؛ حيث يقوم العالم الغنوصي، من خلال معرفته بالعالم غير المرئي وفهمه لتعاليم

ص 388

المسيح، بتطبيق قاعدة نقدية بديهية على محتويات التوراة، والتي استغرقت أفضل الدراسات في عصرنا مائة عام لإثباتها فكرياً.

مقدمة الإنجيل الرابع. سننتقل الآن إلى دراسة التفسير الذي قدمه بطليموس للمقدمة المجيدة التي تتصدر الإنجيل الرابع.

البداية هي المبدأ الأول الذي أوجده الله، ومن خلاله انبثقت كل الأشياء في شكل بذرة، أو بشكل محتمل. هذه البداية تسمى الفكر والابن والمولود من الآب وحده (أي أنه خرج من الآب وحده).

المرحلة التالية من الوجود كانت انبثاق اللوغوس (العقل أو الكلمة) في المبدأ الأول، البداية أو الفكر. هذا اللوغوس بدوره احتوى في ذاته على جوهر الأيونات بأكملها، وهو الجوهر الذي شكله اللوغوس.

وفقًا لمعجم هيسيخيوس السكندري، فإن المعنى الفلسفي لمصطلح الأيونات هو "سبب الفعل" (ἡ τοῦ δραματος ψόποθεσις).

لذا، تتناول الكلمات الافتتاحية الأقانيم الإلهية.

"فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ (اللوغوس) وَالْكَلِمَةُ (اللوغوس) كَانَ عِنْدَ (واحدا مع) اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ (اللوغوس) اللَّهَ. كان في البدء (واحدًا) مع الله. أترجم عبارة πρὸς τὸν Θεὸν بكلمات "واحد مع الله"، وليس بكلمة "مع الله" البسيطة والمألوفة، وذلك نقلاً عن بطليموس (ἡ πρὸς ἀἀἐ῀Ἡους ἅμα καὶ ἡ πρὸς τὸν). πατέρα ἕνωσις)، نظرًا لأن حرف الجر الإنجليزي البسيط "مع" لا ينقل المعنى اليوناني.

ص 389

أولاً وقبل كل شيء، يتم التمييز بين الثلاثة، الله، والبداية، واللوغوس، ثم يتم توحيدهم أو تحديد هويتهم؛ حتى يمكن أولاً إظهار انبثاق الاثنين من الواحد - الابن (أو البداية أو الفكر) واللوغوس من الآب - ثم يمكن الإشارة إلى تحديد أو توحيد الاثنين مع بعضهما البعض ومع الآب.

لأن في الآب ومن الآب البداية، وفي البداية ومن البداية اللوغوس. صدقت المقولة إذن، "في البدء كان الكلمة (اللوغوس)"، لأنه كان في الابن (أو الفكر).

"وكان اللوغوس (واحداً) مع الله." لأن البداية واحدة مع الله، وبالتالي فإن اللوغوس واحد. لأن ما هو من الله فهو الله.

"كل شيء كان موجوداً به، وبدونه لم يكن شيء موجوداً". أي أن اللوغوس كان سبب الخلق الإلهي أو الأيوني.

لكن "ما له وجوده فيه هو الحياة" - الاقتران أو قرين اللوغوس.

لقد وُجدت الأيونات من خلاله، ولكن الحياة كانت فيه. والتي هي فيه أقرب إليه من الذين وُجدوا من خلاله. لأنها متحدة به وتثمر من خلاله.

"وكانت الحياة نور الناس" - "الناس" تشير أولاً وقبل كل شيء إلى الإنسان المتعالي وعروسه الكنيسة، لأنهما استنارا أو ظهرا إلى النور من خلال الحياة. هذا ما يتعلق بعالم البليروما أو العالم الإلهي.

أما الآية التالية، "وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي

ص 390

"الظُّلْمَةِ وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ." تشير إلى الكون المحسوس. فعلى الرغم من أن فوضى الكون المحسوس قد تحولت إلى كون من خلال شغف الأيون الإلهي، إلا أن العالم المحسوس لم يعرفه. وهذا الأيون هو الحقيقة والحياة، و"الكلمة التي صارت جسداً" في العملية الكونية. إن المستنيرين وحدهم هم الذين "رأوا مجده"، مجد الابن الوحيد المولود، الإيون الإلهي أو البليروما، الذي أعطاه إياه الآب، المليء بالنعمة (اسم آخر للصمت والسلام) والحقيقة.

وهكذا، كما قال بطليموس، فإن الإشارة الواضحة إلى الرَّابوع - الأب والصمت، الفكر والحقيقة، الكلمة والحياة، الإنسان والكنيسة - موجودة في المقدمة.

هكذا كانت طبيعة تفسير بطليموس فيما يتعلق بمقدمة عقيدة اللوغوس، وهنا يجب علينا أن نتركه على مضض، لأنه ليس لدينا معلومات أخرى.

إن ملخص إيرينيئوس، في فصوله الافتتاحية، لما جمعه بشأن مبادئ "أتباع بطليموس"، لا يختلف إلا قليلاً عن الخطوط العريضة لعملية أيون ودراما أسطورة صوفيا المألوفة بالفعل لقرائنا من رواية هيبوليتوس.

ص 391

هيراكليون.

أما عن حياة هيراكليون، الذي يسميه كليمنت الإسكندري (ستروم، 4. 9) "الأكثر تقديراً من تعليقه على إنجيل يوحنا. مدرسة فالنتينوس"، فلا نعرف عنه شيئاً سوى أنه كتب بعض المذكرات (ὑπομνήματα)، والتي تحتوي على تعليق على الإنجيل الرابع. يُنسب تاريخ هذا التعليق، وهو الأول على أي كتاب من مجموعة العهد الجديد، بشكل عام إلى العقد 170-180 ميلادي. وبالتالي فإن هيراكليون الغنوصي هو أول معلق على المسيحية القانونية، وقد حفظ أوريجانوس أجزاء كبيرة من عمله في تعليقه الخاص على ما يسمى بإنجيل يوحنا. تم جمع هذه الشظايا لأول مرة بواسطة جرابي في كتابه *Spicilegium*، وأعيد طبعها بواسطة ماسويت وستيرين في طبعاتهما من إيرينيئوس، وبواسطة هيلجنفيلد في كتابه Ketzergeschichte *(1884)*، وأخيرًا في عام 1891 أعيد تحريرها من مقارنة جديدة لجميع المخطوطات الثمانية المعروفة (ثلاث منها فقط تمت مقارنتها سابقًا) بواسطة بروك في *Texts and Studies*، الجزء الأول، 4.

في هذه الشذرات، يفترض هيراكليون النظام "الفالنتيني" كأساس؛ لكنه يبقى في الخلفية، وغالبًا ما يؤيد أوريجانوس تفسيره.

كان الغنوصيون لا يزالون في صفوف المسيحيين، ولا يزالون أعضاء في الهيئة المسيحية العامة، ويرغبون في البقاء أعضاء؛ لكن التعصب طردهم في النهاية لأنهم تجرأوا على القول بأن تعاليم المسيح تحتوي على حكمة

ص 392

تتجاوز فهم الأغلبية.

ومع ذلك، فإن تعليق هيراكليون ليس بحاجة إلى أن يوقفنا، لأنه، إذا جاز التعبير، خارج دائرة التفسير الغنوصي المتميز؛ فهو يقف في منتصف الطريق بينه وبين المسيحية العامة، وفي نفس الموقف تقريبًا مثل آراء كليمنت وأوريجانوس.

بارديسانيس.

السيرة الذاتية. سنتناول الآن بارديسانيس، "آخر الغنوصيين"، كما يسميه هيلجنفيلد، وبذلك نختتم هذه الرسومات الأولية للثيوصوفيين المسيحيين، والتي سعينا إلى إعادة بنائها من الشظايا المشوهة للأصول المحفوظة في الأدب الآبائي.

كان بارديسانيس "آخر الغنوصيين"، بمعنى أنه كان آخر من حاول الترويج لأي جانب من جوانب الغنوصية التي نتناولها، بين صفوف المسيحية العامة؛ لأن الغنوصية ظلت تُدرس سرًا لقرون، وكثيرًا ما ظهرت في صفحات التاريخ بأشكال أخرى، مثل ما يسمى بالحركة المانوية؛ لأنه "قد تقتلع الطبيعة بشوكة، لكنها ستجد طريقها إلى المنزل".

ولد بارديسانيس، أو بار-دايسان (سمي بذلك نسبة إلى نهر دايسان (القافز)، الذي ولد على ضفافه)، في الرها، في 11 يوليو 155 ميلادي، وتوفي، على الأرجح في نفس المدينة، عام 233، عن عمر يناهز 78 عامًا. كان والداه، نوهاما وناهشيراما،

ص 393

غنيين ونبلاء؛ ولم يتلق الشاب باردايسان أفضل تعليم في الآداب والمعرفة فحسب، بل نشأ مع أمير تولى العرش فيما بعد كواحد من الأبجر؛ ولم يشارك الأمير الشاب في تدريباته القتالية فحسب، بل اكتسب في شبابه شهرة كبيرة لمهارته في الرماية. تزوج وأنجب ابناً اسمه هارمونيوس.

من غير المؤكد في أي سن اعتنق المسيحية الغنوصية؛ لكن روحه المتلهفة لم تكتفِ بتحويل صديقه الملكي ورعاياه بسرعة، بل دفعت الأبجر إلى جعلها دين الدولة، وهكذا (كما يقال) يجب أن يكون لبارديسانيس الفضل في تأسيس أول دولة مسيحية بشكل غير مباشر. عندما أطاح كاراكلا بأبجر بار مانو عام 216، دافع بارديسانيس بشجاعة عن الإيمان المسيحي أمام ممثل الإمبراطور الروماني، حتى أن إبيفانيوس اضطر إلى وصفه بأنه "يكاد يكون معترفًا".

وبعد ذلك ذهب لفترة من الزمن إلى أرمينيا، حيث قام بتأليف تاريخ استنادًا إلى كتابات المعبد، وسجلات الأحداث التي وجدها في قلعة آني، وترجمها إلى السريانية. كان هذا التاريخ الأرمني لبارديسان أساسًا للتاريخ اللاحق لموسى من خوريني. كان بارديسان أيضًا دارسًا عظيمًا للدين الهندي، وكتب كتابًا عن هذا الموضوع، والذي اقتبس منه فَرفوريوس الأفلاطوني لاحقًا. لكن برديسان اكتسب شهرة واسعة كشاعر وكاتب في اللاهوت المسيحي والفلسفة الإلهية؛ فقد كتب العديد من الكتب باللغة السريانية وأيضًا اليونانية، والتي قيل إنه كان بارعًا فيها، ولكن حتى عناوين معظمها ضاعت الآن.

ص 394

كان أشهر أعماله مجموعة من 150 ترنيمة أو مزمور على غرار مجموعة المزامير في الهيكل الثاني، كما لا تزال محفوظة في وثائق العهد القديم. كان أول من قام بتكييف اللغة السريانية مع الأشكال الوزنية ووضع الكلمات على الموسيقى؛ أصبحت هذه الترانيم شائعة للغاية، ليس فقط في مملكة الأديسين ولكن في أي مكان يتم فيه التحدث باللغة السريانية.

أما بقية أعماله فنسمع عن عناوين مثل حوارات ضد المرقيونيين، والنور والظلام، والطبيعة الروحية للحقيقة، والثابت وغير الثابت، وعن القدر. لم يصل إلينا شيء من هذه المخطوطات باستثناء رسالة سريانية، تم إحضارها إلى المتحف البريطاني في عام 1843، ضمن المخطوطات النطرونية. هذه المخطوطة تحمل عنوان "كتاب قوانين البلدان"، وتزعم أنها ملخص لآراء برديسان حول القدر أو الكارمان، كما وردت على لسان أحد تلاميذه. تم نشر النص السرياني والترجمة الإنجليزية بواسطة كيورتون في عام 1855؛ ومرة أخرى (كما هو الحال في اكتشاف مخطوطة فيلوسوفومينا وباسيليدس) أدى امتلاك مصدر شبه مباشر إلى تغيير جذري في الرأي القديم، الذي كان يعتمد على أقوال الآباء بشكل عام، وجدل أفرايم بشكل خاص. في الواقع، تحاول أحدث وجهة نظر (وجهة نظر هورت) أن تسلب الغنوصية برديسانيس، وأن تدمجه في حظيرة الأرثوذكسية. مع ازدياد المعرفة والفهم حول الغنوصيين، سيتم بلا شك اعتماد نفس السياسة في حالات أخرى؛ ولكن بما أن الأرثوذكسية قد لعنت برديسانيس على مر العصور، فمن الأفضل على الأقل أن تترك له الاسم المشتق من أولئك

ص 395

الذين تعلم منهم معلمه فالنتينوس حكمته، وأن تدعه يبقى غنوصيًا.

لكن قبل النظر في آراء برديسان حول "القدر"، دعونا نرى ما إذا كان بإمكاننا استخلاص شيء مصادر غير مباشرة. ذي قيمة من المصادر غير المباشرة. إننا مدينون بما نعرفه بشكل رئيسي لإفرايم الرهاي، الذي كتب بعد حوالي 120 عامًا من الغنوصيين. يمكننا أن نحكم على مزاج هذا القديس عندما كان يقاتل رجلاً ميتاً لم يلحق به أي أذى، وكان محبوباً ومُعجباً به من قبل كل من عرفه، من خلال الأوصاف التي أطلقها على برديسانيس، الذي (يؤكد) مات "والرب في فمه، والشياطين في قلبه". وهكذا يخاطب برديسان باعتباره سفسطائياً ثرثاراً؛ ذا عقل ملتوٍ ومزدوج؛ أرثوذكسي ظاهرياً، مهرطق في السر؛ كلب راعي جشع متحالف مع الذئاب؛ خادم خائن؛ مخادع ماكر يمارس الخداع بأغانيه.

لكن في غضبه المتعصب، خلط إفرايم بين البرديسانيين والمرقيونيين والمانويين، على الرغم من أن البرديسانيين عارضوا بشدة آراء الأولين، وأن دين الأخيرين لم يكن قد ولد بعد عندما كتب العالم الغنوصي ترانيم إفرايم الستة والخمسين ضد الهرطقات، على سبيل المثال، والتي استعار وزنها وموسيقاها من شاعرنا الغنوصي، وهي جدل عشوائي ليس فقط ضد مرقيون وبرديسان وماني، ولكن أيضًا ضد تلاميذهم، حيث تم خلط الآراء المختلفة تمامًا لكل من المعلمين والتلاميذ معًا بشكل ميؤوس منه.

إن الآثار الواضحة الوحيدة لبرديسان هي أربع مقتطفات من ترانيمه، تم اقتباسها في الترانيم الأخيرة من كتاب

ص 396

أفرايم. أما الثلاثة الأولى فهي كالتالي، في ترجمة هورت ب: من ترانيمه.

(1) يا ينبوع الفرح،

الذي يُفتح بابه بأمرٍ واسعٍ للأم، والذي
قاسه وأسسه كائناتٌ إلهية،
والذي زرعه الأب والأم

في اتحادهما،
وجعلاه مثمرًا بخطواتهما."

(2) "فلتكن من تأتي بعدك لي ابنةً

وأختًا لك."

(3) "متى يحين لنا أخيرًا أن ننظر إلى
مأدبتك،
وأن نرى الفتاة الصغيرة، الابنة التي
تجلسها على ركبتك وتداعبها؟"

يشير الجزء الأول عمومًا إلى فكرة الفردوس، والتي عادة ما توضع فوق ثالث السماوات السبع، أو في وسط الكرات السبع؛ ومع ذلك، يبدو أنها تشير بالأحرى إلى الأجدود أو الفضاء فوق المراحل السبع للمادة النفسية، أو أورشليم العليا عند الفالنتينيين.

يبدو أن الجزء الثاني عبارة عن خطاب من الأم الإلهية إلى الابنة الكبرى من ابنتيها، الحكمة العليا في البليروما والحكمة

ص 397

في الأسفل في الأجدود، حيث يوجد العالم السماوي الروحي.

من المرجح أن يكون الجزء الثالث خطابًا إلى الأم الإلهية للجميع، الروح القدس، ويشير إلى اكتمال عملية العالم، عندما تُؤخذ النفوس الروحية من الأجدود إلى البليروما، وتتحد مع أزواجها الإلهيين في وليمة الزفاف الكبرى، في فضاء عذراء النور، الحكمة العليا.

أما الجزء المتبقي فيتكون من سطرين فقط، وهو كالتالي:

(4) "يا إلهي ويا رأسي، هل تركتني
وحيداً؟"

وقد نُسبت هذه الصرخة إلى الحكمة الدنيا من قبل مدرسة فالنتينيان، سواء في الدراما العالمية، عندما تستدعي المادة العالمية مساعدة قرينها، مصمم العالم الأيوني، وأيضًا في مأساة النفس التي سقطت في المادة، صوفيا الحزينة، كما هو الحال في رسالة بيستيس صوفيا.

لا يمكن استنتاج أي شيء آخر من طبيعة معينة من كتابات أفرايم الجدلية، والشيء الوحيد المثير للاهتمام الذي يمكننا استخلاصه من كتابات أخرى هو عبارة جميلة

حفظها الكاتب السوري فيلوكسينوس من مابوغ (حوالي 500 م): "القديم الأبدي صبي" - أي أنه شاب دائمًا.

لننتقل الآن إلى آراء بارديسان حول "التنجيم" و"القدر"، أو بعبارة أخرى، مفهومه عن الكارمان، ولنقتبس بعض المقاطع من ترجمة كيورتون غير المفهومة إلى حد ما لكتاب "التنجيم".

كتاب قوانين البلدان (في كتابه *Spicilegiumsyriacum*، ص 11، *sqq.*).

كتاب قوانين البلدان. كتب هذا الحوار أحد تلاميذ الغنوصيين، ويُقدّم بارديسان على أنه المتحدث الرئيسي؛ في الواقع، لا يتدخل التلاميذ إلا هنا وهناك بسؤال قصير من أجل التأثير الأدبي. لذلك يمكننا أن نكون على ثقة تامة بأن لدينا في هذه الرسالة نسخة أمينة من الآراء، ليس فقط آراء بارديسان حول القدر أو الكارمان، ولكن أيضًا آراء الغنوصيين من مدرسته.

ستلقي المقتطفات التالية من خطابات بارديسان الكثير من الضوء أيضًا على الأفكار الفلكية في كتاب بيستيس صوفيا.

"وأنا كذلك... أعلم أن هناك رجالاً يُدعون الكلدانيين، وآخرين يحبون معرفة هذا الفن، كما أحببته أنا أيضاً في السابق [قبل أن أتعرف على تعاليم فالنتينوس]، فقد قلتُ في موضع آخر أن نفس الإنسان قادرة على معرفة ما يجهله الكثيرون، ويتأمل هؤلاء الرجال أنفسهم في فعله؛ وكل ما يفعلونه من شر، وكل ما يفعلونه من خير، وكل ما يحدث لهم في الغنى والفقر، وفي المرض والصحة، وفي عيوب الجسد، إنما هو من تأثير تلك النجوم التي تُسمى النجوم السبعة، فهي تصيبهم، وهم محكومون بها. لكن هناك آخرون يقولون عكس هذه الأشياء، - كيف أن هذا الفن هو كذبة من الكلدانيين، أو أن الحظ لا وجود له على الإطلاق، بل هو مجرد اسم فارغ؛ وأن كل الأشياء موضوعة في أيدي الإنسان، كبيرها وصغيرها؛ وأن العيوب والأخطاء الجسدية تحدث له بالصدفة. لكن آخرين يقولون إن كل ما يفعله الإنسان

يفعله بإرادته الحرة التي مُنحت له، وأن الأخطاء والكارمان والأمور السيئة التي تحدث له هي عقاب من الله. أما بالنسبة لي، ففي رأيي المتواضع، يبدو لي أن هذه الطوائف الثلاث صحيحة جزئياً، وخاطئة جزئياً. إنها حق، لأن الناس يتكلمون وفقًا للموضة التي يرونها، ولأنهم يرون أيضًا كيف تحدث الأشياء لهم، فيخطئون؛ لأن حكمة الله أغنى منهم، الذي أسس العوالم وخلق الإنسان، وعيّن الحكام، وأعطى كل شيء القوة المناسبة لكل واحد منهم. لكني أقول إن الله والملائكة والقوات والحكام والعناصر والبشر والحيوانات يملكون هذه القوة؛ لكن كل هذه الرتب التي تحدثت عنها لم تُمنح لهم قوة في كل شيء. لأن القوي في كل شيء واحد؛ ولكن لهم قوة في بعض الأمور، وليس لهم قوة في بعض الأمور، كما قلت: لكي تظهر صلاح الله في الأمور التي لهم فيها قوة، وفي الأمور التي ليس لهم فيها قوة، ليعلموا أن لهم رباً. إذن، هناك حظ، كما يقول الكلدانيون."

وأن كل شيء ليس في إرادتنا الحرة، أي أن الإرادة الحرة ليست مطلقة، أمر واضح جلياً في التجربة اليومية. يلعب الحظ دوره أيضاً، لكنه ليس مطلقاً، وكذلك الطبيعة. وهكذا "يُكتشف أننا نحن البشر محكومون بالطبيعة على حد سواء، وبالحظ بشكل مختلف، وبإرادتنا الحرة كلٌ كما يشاء".

ص 400

الحظ والطبيعة ".إن ما يسمى بالحظ هو نظام موكب أعطاه الله للقوى والعناصر؛ ووفقًا لهذا الموكب والنظام، تتغير العقول [العقول، الأنا] بنزولها لتكون مع النفس، وتتغير النفوس بنزولها لتكون مع الجسد؛ وهذا التغيير نفسه يسمى الحظ وولادة هذا الجمع، الذي يتم غربلته وتنقيته، من أجل مساعدة ما تم مساعدته بفضل الله ونعمته، وما زال يتم مساعدته، حتى اكتمال كل شيء. [قارن في نظام باسيليدس بـ "الاستفادة والاستفادة بالتناوب".] لذلك، فإن الجسد محكوم بالطبيعة، والنفس تعاني معه وتدرك؛ والجسد ليس مقيدًا ولا معاونًا من قبل الحظ في كل الأشياء التي يفعلها بشكل فردي؛ لأن الرجل لا يصبح أبًا قبل سن الخامسة عشرة، ولا تصبح المرأة أمًا قبل سن الثالثة عشرة. وبالمثل، هناك قانون للشيخوخة؛ لأن النساء يصبحن ضعيفات بسبب الحمل والولادة، ويُحرمن من القدرة الطبيعية على الإنجاب؛ بينما الحيوانات الأخرى التي تحكمها طبيعتها قبل تلك الأعمار التي حددتها، لا تتكاثر فحسب، بل تصبح أيضًا عجوزًا جدًا بحيث لا تستطيع التكاثر، بنفس الطريقة التي لا تتكاثر بها أجساد الرجال عندما يتقدمون في السن؛ ولا يستطيع الحظ أن يمنحهم أطفالًا في ذلك الوقت الذي لا يمتلك فيه الجسم الطبيعة لمنحهم إياهم. ولا يستطيع الحظ، أيضاً، أن يحفظ جسد الإنسان حياً دون طعام أو شراب؛ ولا حتى عندما يتوفر له الطعام والشراب، أن تمنعه من

ص 401

الموت، لأن هذه الأمور وغيرها الكثير تتعلق بالطبيعة نفسها؛ ولكن عندما تتحقق أوقات الطبيعة وعاداتها، يظهر الحظ من بينها، ويؤثر في أمور متباينة؛ فتارةً يساعد الطبيعة ويزيدها، وتارةً أخرى يعيقها ويؤذيها؛ ومن الطبيعة يأتي نمو الجسم وكماله؛ ولكن بمعزل عن الطبيعة وعن الحظ تأتي الأمراض والعيوب في الجسم. فالطبيعة هي اتصال الذكور والإناث، ولذة كلا الرأسين [هكذا ورد]؛ ولكن من الحظ تأتي الرذيلة وطريقة مختلفة للاتصال وكل القذارة والفحش الذي يفعله الرجال من أجل الاتصال من خلال شهوتهم. فالطبيعة هي الولادة والأطفال؛ ومن الحظ أحياناً يكون الأطفال مشوهين؛ وأحياناً يُنبذون، وأحياناً يموتون قبل أوانهم. من الطبيعة هناك كفاية في الاعتدال لجميع الأجسام؛ ومن الحظ يأتي نقص الطعام، ومعاناة الأجسام؛ وهكذا، مرة أخرى، من نفس الحظ يأتي الشراهة والإسراف الذي ليس ضرورياً. تفرض الطبيعة أن يكون الشيوخ قضاة للشباب، والحكماء للحمقى؛ وأن يكون الشجعان قادة على الضعفاء، والشجعان على الجبناء. لكن الحظ يجعل الصبيان رؤساء على الشيوخ، والحمقى على الحكماء؛ وفي زمن الحرب يحكم الضعفاء الشجعان، والجبناء الشجعان. واعلموا بوضوح أنه كلما انحرفت الطبيعة عن مسارها الصحيح، فإن هذا الانحراف يكون اليمين واليسار. بسبب الحظ، لأن هؤلاء الرؤساء والحكام، الذين يقع عليهم ذلك التناوب الذي يسمى

ص 402

الميلاد، يكونون في معارضة بعضهم البعض. أما الذين يُطلق عليهم اسم اليمين، فهم يساعدون الطبيعة، ويضيفون إلى روعتها كلما ساعدهم الموكب، ويقفون في الأماكن المرتفعة، التي هي في الكرة، في أجزائهم الخاصة؛ أما الذين يُطلق عليهم اسم اليسار فهم أشرار، وكلما احتلوا هم أيضاً أماكن العلو، فإنهم يعارضون الطبيعة، ولا يؤذون البشر فحسب، بل يؤذون أيضاً، في أوقات مختلفة، الحيوانات والأشجار والفواكه ومحاصيل السنة وينابيع المياه وكل ما هو في الطبيعة تحت سيطرتهم. وبسبب هذه الانقسامات والطوائف الموجودة بين القوى، ظن بعض الناس أن العالم يُدار دون أي إشراف، لأنهم يجهلون أن هذه الطوائف والانقسامات والتبرير والإدانة تنبع من ذلك التأثير الذي منحه الله للإرادة الحرة، وأن تلك الأفعال أيضاً، بقوتها الذاتية، قد تُبرر أو تُدان، فكما نرى أن الحظ يسحق الطبيعة، كذلك نرى إرادة الإنسان الحرة تصد الحظ وتسحقه؛ ولكن ليس في كل شيء، كما أن القدر نفسه لا يصد الطبيعة في كل شيء؛ لأنه من المناسب أن تبقى الأشياء الثلاثة، الطبيعة والحظ والإرادة الحرة، في حياتها حتى يكتمل الموكب، ويتحقق المقياس والعدد، كما بدا جيداً أمام من قدّر كيف تكون حياة وكمال جميع المخلوقات، وحالة جميع الكائنات والطبائع."

وهكذا يجعل بارديسان الإرادة الحرة والقدر والطبيعة العوامل الثلاثة الكبرى لقانون الكارما، وكلها

ص 403

في نهاية المطاف في يد الله. كل منها يتفاعل مع الآخر، ولا يوجد شيء مطلق. الطبيعة لها علاقة بالجسد، والقدر أو الحظ بالنفس، والإرادة الحرة بالروح. لا شيء منها مطلق، فالمطلق موجود في الله وحده.

ولكن من قبيل الصدفة الغريبة، تم الحفاظ على إحدى ترانيم الشاعر العظيم للغنوصية ترنيمة النفس. كاملةً؛ ومن المسلم به الآن عمومًا أن "ترنيمة النفس" الجميلة، كما أطلق عليها، والمضمنة في الشكل السرياني لأعمال يهوذا توما المنحولة، والمحفوظة في مخطوطة المتحف البريطاني، هي بلا شك تقريبًا من قلم برديسان. كان نولديكي وماكي أول الباحثين الذين لفتوا الانتباه إلى هذه الحقيقة. (انظر ليبسيوس Die apokryphen Apostelgeschichten، i. 299، sqq.، 1885). إنها أسطورة جميلة عن التأهيل، وقد ترجمها رايت لأول مرة (أعمال الرسل المنحولة، الجزء الثاني). 238-245؛ 1871)؛ وقد تمت إعادة ترجمتها مؤخرًا (1898) بواسطة بيفان، باستخدام نسخة رايت كأساس. منذ زمن رايت، تم إنجاز الكثير من العمل على هذه "التحفة الفنية للشعر الديني"، كما يسميها قارئ كامبريدج باللغة العربية بحق، لدرجة أن ترجمة التلميذ تُفضل على ترجمة المعلم، ويجب الآن اعتبار عمل البروفيسور بيفان ليس فقط أنه قد تجاوز عمل رايت، بل هو الأفضل في هذا الموضوع.

إن الاحتمال الكبير لأصل القصيدة من مذهب بارديسان يستند إلى الاعتبارات التالية: الاتهامات الرئيسية الثلاثة التي وجهها الأب أفرايم الأرثوذكسي ضد بارديسان، الذي يقول إنه كان يعلم بوجود سبعة جواهر (إيثي)، هي:

ص 404

"(1) أنه أنكر القيامة واعتبر انفصال النفس عن الجسد نعمة؛ (2) أنه كان يؤمن بنظرية "الأم" الإلهية التي أنجبت مع

"أبو الحياة" كائناً يسمى "ابن الأحياء"؛ (3) أنه كان يؤمن بعدد من "الآلهة" الأدنى، أي الكائنات الأبدية التابعة للإله الأعلى.

"والآن، من المثير للدهشة أن هذه "الهرطقات" الثلاث تظهر بوضوح في القصيدة التي بين أيدينا." لا شك في أن الزي المصري، الذي يرتديه الأمير كتمويه ويتخلص منه بمجرد إنجاز مهمته، يمثل الجسد البشري. إن الإعلان القاطع بأن "اللباس القذر وغير النظيف" قد تُرك في بلادهم يحمل معنى لا لبس فيه؛ وسيكون من الصعب، في عمل رمزي، إنكار القيامة المادية بشكل أكثر شمولاً."

وبما أن بارديسان، مثل جميع الغنوصيين العظماء، كان يؤمن بالتناسخ، فلا بد أن مفهوم قيامة نفس الجسد المادي كان يعتبره خرافة فادحة للجهلاء. إن مثل هذا "الدليل" على هوية العقيدة الذي تم تقديمه هنا لا يمكن أن يخطر ببال من أدرك معنى عقيدة الولادة الجديدة.

"إن اللباس الحقيقي للنفس، بحسب الشاعر، هو الشكل المثالي الذي تقف خلفه في السماء وسترتديه بعد الموت. [فقط بعد "الموت عن الخطيئة"؛ رداء النور ليس للجميع.] أما بالنسبة لأبي الحياة، وأم الحياة، وابن الأحياء، فهم يظهرون هنا على أنهم الأب "ملك

ص 405

الملوك"، والأم "ملكة الشرق"، والأخ "التالي في الرتبة". وأخيراً، تظهر "الآلهة الصغرى" في صورة "الملوك"، الذين يطيعون أمر ملك الملوك."

إذا أخذ الطالب في الاعتبار، عند قراءة هذه التحفة الفنية من الشعر الغنوصي، المثل الجميل للابن الضال، كما هو محفوظ في الأناجيل الإزائية الثالثة، فسيكون قادراً على تتبع التشابه الأساسي للأفكار في التقاليد الخارجية والداخلية، وملاحظة كيف يتوسع الداخلي ويشرح الخارجي.

لا أعرف على أي أساس سُميت هذه القصيدة الجميلة بترنيمة النفس؛ فلا يوجد في النص ما يبرر هذا العنوان، وكان لدى الشاعر الغنوصي موضوع أكثر تحديدًا في ذهنه. لقد غنى عن اكتمال الحياة الغنوصية، وعن تاج النصر في نهاية الطريق؛ ليس عن أي عموميات غامضة، بل عن هدف محدد للغاية كان يسعى إليه. لقد غنى عن "ثوب الزفاف"، و"رداء التأهيل"، الذي تم وصفه بشكل جميل في الصفحات الأولى من كتاب بيستيس صوفيا. وهكذا، فإن معظم الترجمات الحديثة تُترجم إلى ما سأجرؤ على تسميته:

ص 406

ترنيمة رداء المجد.

عندما كنت طفلاً صغيراً.

وكنت أسكن في مملكتي، في بيت أبي، وفي ثراء ومجد
والديّ، كنت أستمتع، من الشرق [1]، موطننا،

أرسلني والداي بعد أن جهزاني.

ومن ثروات خزائننا ،[2]
ربطوا لي حملاً. كان كبيراً، لكنه خفيف،
حتى أستطيع حمله وحدي - ذهب من... [3]
وفضة من غازاك العظيم، وياقوت من الهند،
وعقيق (؟) من أرض كوشان (؟)، وشدوني بالألماس [4]
الذي يسحق الجديد.
ونزعوا عني الرداء اللامع،

ص 407

الذي صنعوه لي بدافع حبهم، وعباءتي الأرجوانية،
والذي تم قياسه ونسجه ليناسب قامتي. وقد أبرموا معي اتفاقاً،
وكتب في قلبي حتى لا يُنسى: "إذا نزلتَ إلى مصر، [1]
واحضر اللؤلؤة الواحدة، [2]
التي هي في وسط البحر [3]
بقوة من قبل الأفعى الذي تتنفس بصوت عال، [4] (ثم)
يجب أن ترتدي رداءك اللامع وتوجاك، [5] الذي يتم
وضعه فوقه،
ومع أخيك، [6] التالي في المرتبة، [7]
ستكون وريثًا في مملكتنا ". تركت الشرق (و)
نزلت،
كان معي رسولان، [8] لأن الطريق كان خطيراً وصعباً،
وكنت شاباً لأخطو عليه.
عبرت حدود ميشان،
مكان التقاء تجار الشرق، ووصلت إلى أرض بابل،
ودخلت جدران ... [9]

ص 408

نزلت إلى مصر،
وانفصل عني رفاقي. توجهت مباشرة إلى
الأفعى، وأقمت بالقرب من مسكنها.
(انتظر) حتى تنام وتنام، [1]
ويمكنني أن آخذ لؤلؤتي منها. وعندما كنت
بمفردي ووحيد،
غريب عن أولئك الذين سكنت معهم، أحد من عرقي،
رجل حر المولد،
من بين الشرقيين، رأيت هناك - شابًا عادلًا ومفضلًا.

* * * * * . . . .
* * * * * *

** وجاء وربط نفسه بي. وجعلته حميمًا،
رفيق شاركته بضاعتي. حذرته من المصريين
وضد معاشرة النجس. وارتديت ثوبًا مثل ثوبهم،
لئلا يهينوني (؟) لأنني جئت من بعيد، لأخذ اللؤلؤة،
و (خشية) أن يثيروا الأفعى ضدي. ولكن بطريقة أو بأخرى
أدركوا أنني لست مواطنهم ؛ لذلك تعاملوا معي بغدر.
علاوة على ذلك، أعطوني طعامهم. نسيتُ أنني ابن
ملوك،
وخدمت ملكهم؛

ص 409

ونسيت اللؤلؤة،
التي أرسلني والداي من أجلها،
وبسبب عبء ... استلقيت في نوم عميق. [1]
لكن كل تلك الأشياء التي حلت بي،
أدرك والداي الأمر وحزنا عليّ؛ وأُعلن في مملكتنا أن على الجميع الإسراع إلى بوابتنا،
ملك وأمراء بارثيا وجميع نبلاء الشرق.
فدبروا لي خطة، حتى لا أبقى في مصر،
وكتبوا لي رسالة،
ووقع كل نبيل اسمه [2] عليها: "من أبيك، ملِك الملوك،
وأمك، سيدة الشرق، ومن أخيك، الذي يليه في الترتيب،
إليك يا ابننا الذي في مصر، سلام! انهض من نومك،
واستمع إلى كلمات رسالتنا!

ص. 410

تذكر أنك ابن ملوك! انظر إلى العبودية - التي تخدمها!
تذكر اللؤلؤة
التي أسرعت من أجلها إلى مصر! فكر في ردائك اللامع،
وتذكر ثوبك المجيد،
الذي ستضعه كزينة لك،
عندما يُقرأ اسمك في قائمة الشجعان، ومع أخيك، [؟ التالي في الترتيب]،
ستكون [؟ ملك] في مملكتنا ".

ورسالتي (كانت) رسالة
التي ختمها الملك بيده اليمنى،
(للحفاظ عليها) من الأشرار، بنو بابل، ومن الشياطين الوحشية. . . [1]
طارت على صورة نسر، ملك كل الطيور ؛ [2]
طارت ونزلت بجانبي، وأصبحت كل
الكلام.
في صوتها وصوت حفيفها، بدأت ونهضت من
نومي.
أخذتها وقبّلتها،
وفتحت ختمها (؟)، (و) قرأت ؛
ووفقًا لما تم تتبعته في قلبي، كانت كلمات رسالتي مكتوبة.
تذكرت أنني ابن ملوك،
ونفسي الحرة تتوق إلى حالتها الطبيعية. تذكرت اللؤلؤة،

ص. 411

التي أُرسلت من أجلها إلى مصر، وبدأت في
سحرها،
الأفعى الرهيب الذي تتنفس بصوت عالٍ.
أسكنتها للنوم وهدأتها للنوم ؛ من أجل اسم أبي الذي سميته
عليها،
واسم التالي في المرتبة،
وأمي، ملكة الشرق ؛ [1]
انتزعت اللؤلؤة،
فالتفت لأعود إلى بيت أبي. ولباسها القذر وغير النظيف
نزعته وتركته في بلدهم، [2]
وسلكت طريقي مباشرة لأصل إلى نور وطننا،
الشرق. ورسالتي، منبهتي،
وجدتُها أمامي على الطريق،
وكما أيقظني بصوته، كذلك كانت تقودني بنورها،
وأشرقت أمامي بهيئتها.
وبصوتها وإرشادها، شجعتني أيضاً على
الإسراع،
وبحبه (؟) كان يجذبني إليه. انطلقتُ، ومررتُ...
تركت بابل على يدي اليسرى، [3]
ووصل إلى ميشان العظيم،

ص. 412

ملاذ التجار،
التي تقع على شاطئ البحر.
*   *   *   *   *   *
وردائي اللامع الذي كنت قد خلعته،

والرداء الذي كان ملفوفاً به، من مرتفعات هيركانيا (؟)
أرسلني والداي إلى هناك،
بأيدي أمناء خزائنهم،
الذين يمكن الوثوق بهم في أمانتهم. ولأنني لم أتذكر أزياءها
لأنني في طفولتي تركته في منزل والدي، وفجأة عندما واجهته،
بدا لي الثوب وكأنه مرآة تعكس صورتي. [1]
رأيت كل ذلك في نفسي بالكامل،
علاوة على ذلك، واجهت نفسي بالكامل في (مواجهته). لأننا كنا اثنين متميزين،
ومرة أخرى، واحد في صورة واحدة. وكذلك أمناء الخزينة،
الّذين أتو إليّ، رأيتُ بنفس الطّريقة، أنّهما كانا توأمًا
واحدًا (حتّى الآن). [2] فقد نُقشت عليهم علامة ملكية
واحدة، من يديه اللتين أعادتا إليّ (؟)
كنزي وثروتي بواسطتهم. رداء مطرز بألوان زاهية،

والتي بألوان مجيدة ؛
بالذهب والبَريل والياقوت والعقيق (؟)
وتنوعت ألوان العقيق اليماني،
وقد تم تجهيزها أيضاً في منزلها في العلى (؟) وبأحجار من الألماس
تم تثبيت جميع درزاتها؛
وقد رُسمت صورة ملك الملوك بكاملها في جميع أنحائها، ومثل حجر الياقوت كانت ألوانها المتعددة.
رأيت ذلك في كل مكان مرة أخرى
كانت حركات المعرفة [1] تثير وكأنها تتحدث
رأيته أيضاً وهو يستعد. سمعتُ صوت نغماته،
والتي نطق بها لأولئك الذين أسقطوه قائلة: "أنا...". [2]
الذي ربّوه له (؟) بحضور آبائي، وقد أدركته أنا أيضاً في نفسي
كان مكانتي تزداد بفضل جهوده. [3]
وفي حركاته الملكية
كان ينتشر نحوي، [4]
وفي أيدي مانحيها

لقد عجّل ذلك حتى أتمكن من أخذه. وأنا أيضاً حثني حبي على ذلك
أن أركض للقائه واستقباله؛

ومددت يدي واستقبلته،

بجمال ألوانه تزينت، وردائي ذو الألوان الزاهية

ألقيت نظرة حولي، في كل اتساعه.

ارتديت ذلك الثوب، وصعدت إلى بوابة التحية والولاء؛

انحنيت برأسي، وأديت التحية.

إلى جلالة [1] أبي الذي أرسله إليّ، لأني قد عملت بوصاياه.

وقد فعل هو أيضاً ما وعد به، وعند بوابة أمرائه

اختلطت مع نبلائه.

لأنه فرح بي وقبلني، وكنت معه في مملكته.

وبصوت...

جميع خدامه يمجدونه.

ووعد بذلك أيضاً عند البوابة

سأسرع معه إلى ملك الملوك، حاملاً هديتي ولؤلؤتي.

ينبغي أن أظهر معه أمام ملكنا.

يحق للبروفيسور بيفان أن يصف هذه الترانيم المجيدة بأنها "تحفة فنية في الشعر الديني"؛ فهي ليست رائعة كشعر فحسب، بل لا تقدر بثمن كسجل للحقائق الخفية. إذن، ما الذي لم نخسره جراء التدمير الوحشي لأناشيد برديسان؟

الحواشي

406:1 إما البليروما أو الأجدود، العوالم الروحية. الحواشي التالية كلها لي.

406:2مصطلح تقني غنوصي.

406:3 بيت إيلاي (رايت). من المحتمل جداً أن تكون جميع أسماء البلدان والمدن، التي حذف بيفان بعضها لكونها مشكوكاً فيها للغاية، بدائل للدول أو المناطق في السهول العليا؛ وقد حير تحديد بعضها العلماء تماماً، وتحديد الباقي غير مرضٍ في الغالب. لا شك أن بارديسان، أو ابنه هارمونيوس، أو أيًا كان بارديسان الذي كتب القصيدة، كان على درايةٍ بطريق القوافل العظيم من الهند إلى مصر، واستخدم هذه المعرفة كبنية أساسية، لكن العمل برمته مجازي. (منذ كتابة هذه الحواشي، قام بعض العلماء الألمان بعمل ممتاز في التفسير على هذه الخطوط). (انظر قائمة المراجع).

406:4 رمز، على الأرجح، للعقل- الجسد، أو ثوب.

407:1 الجسد، مصطلح تقني شائع في كثير من المدارس الغنوصية. 407:2 "الغنوص".

407:3" من المادة، مقززة وخفية.

407:4 ربما الجوهر العنصري أو الحيواني في المادة.

407:5 اثنان من أرقى ثياب الذات، التي كان منها ثلاثة. 407:6 من المفترض الأنا العليا.

407:7 التالي في المرتبة إلى الأم والأب.

407:8 القوى التي تجبر على الميلاد من المفترض, ممثلي الآب والأم.

407:9 سربوغ (رايت). يبدو أن هذه مستويات أو دول مختلفة.

408:1 الأفعى هي على الأرجح العواطف، التي تكمن في الجوهر الأساسي.

409:1 هل من الممكن أنه في ما سبق تم نسج قطعة حقيقية من السيرة الذاتية في القصيدة ؟ أميل إلى الاعتقاد بذلك. بل ربما تكون صفحة مفقودة من حياة بارديسان الخفية. وقد امتلأ قلبه بالشوق لاختراق أسرار الغنوص، فانضم إلى قافلة متجهة إلى مصر ووصل إلى الإسكندرية. وهناك يلتقي بصديق له في نفس المهمة التي يقوم بها. أولاً وقبل كل شيء، يقع بارديسان في سوء الحظ بالوقوع في أيدي مدرسة سحرية حسية وأنانية، وينسى لفترة من الوقت سعيه الحقيقي. لم يحصل على التعليم الذي كان يسعى إليه في بداية المدرسة الفالنتينية إلا بعد هذه التجربة المريرة. بالطبع يتم طرح هذا التكهن بكل تردد، ولكنه ليس مستحيلاً ولا مستبعداً.

409:2 الأسماء قوى. قارن مقاطع "تعال إلينا" الجميلة في أغنية قوى بيستيس صوفيا، باغ. 17 *sqq*.

410:1 سربوغ (رايت).

410:2نزول الروح القدس أو الوعي الروحي.

411:1 أسماء الآب والابن والروح القدس، أي قوى المبادئ الخالدة في الإنسان.

411:2 ترك جسده خلفه في غيبوبة, أثناء التأهيل.

411:3 يذهب إلى "اليمين" مثل كل المتأهلين في الأسرار الأورفية وغيرها.

412:1 قارن اللوغوس: "كما يرى أي واحد منكم نفسه في المرآة، فليراني، في نفسه. "--ريش، أجرافا (تكساس.*u* 36 b ،(Heft 4 ،Bd. v. ،*Untersuchungen*، وكما رآه الآخرون، p.88.

412:2 لغز الاقتران ؛ قارن قصة الطفولة في بيستيس صوفيا. 413:1 الغنوص ؛ الرداء في بيستيس صوفيا، يحتوي على جميع "المعارف"(γνεσεις).

413:2 "أنا ناشط في الأعمال" (رايت).

413:3 الجسد أو الثوب "السببي" الذي يشكل الأنا العليا.

413:4 "سكب نفسه بالكامل عليّ" (رايت)- نفس التشبيه المستخدم عدة مرات في مخطوطة أسكيو.

414:1 "يبدو أن هذا مختلف عن نفسه بالأحرى، وموضوع السطرين الثالث والرابع من النهاية.

ص 415



بعض آثار الغنوص في الأعمال غير الكنسية

مقدمة.

وكما كان هناك، قبل الأناجيل القانونية وإلى جانبها، العديد من الروايات الأخرى لأقوال الأعمال الغنوصية. وأفعال الرب، كذلك كان هناك، قبل أعمال الرسل أو الأعمال القانونية المختارة وإلى جانبها، العديد من الروايات الأخرى التي تدعي تسجيل أفعال وأقوال رسل الرب وتلاميذه. نشأت معظم هذه النصوص فيما يسمى الآن بالأوساط الهرطقية، ولكن تم تعديلها لاحقًا من قبل المحررين الأرثوذكس لتناسب التحيزات العقائدية، واحتضنتها الكنيسة الكاثوليكية بحماس. وكما يقول ليبسيوس، وهو أكبر مرجع في هذا الموضوع: "كان كل محرر جديد تقريبًا لمثل هذه الروايات، مستخدمًا تلك الحرية التي اعتادت جميع العصور القديمة أن تسمح بها لنفسها في التعامل مع الآثار الأدبية، يعيد صياغة المواد التي بين يديه، مستبعدًا كل ما قد لا يناسب وجهة نظره اللاهوتية - البيانات العقائدية، على سبيل المثال، والخطب، والصلوات، وما إلى ذلك، والتي كان يستبدلها بصيغ أخرى

ص 416

من تأليفه الخاص، ويزيد من التوسع والاختصار وفقًا لرغبته الخاصة، أو كما قد يمليه عليه الهدف المباشر الذي كان يضعه في اعتباره". (المادة " أعمال الرسل المنحولة"، في قاموس سميث وويس، المدمجة في كتابه الشامل Die apokryphen Apostelgeschichte، 1883، إلخ.)

إن النقطة الرئيسية التي تهمنا هي أن بعض هذه الوثائق المحررة والمعاد تحريرها لا تزال تحتفظ بآثار أصولها الغنوصية؛ وقد أظهر ليبسيوس أن غنوصيتها لا يمكن نسبها إلى المانوية في القرن الثالث، كما افترض البعض، ولكن إلى الغنوصية العامة في القرن الثاني.

الإفراط في العمل الكاثوليكي. كان هناك انتشار واسع النطاق لمثل هذه الروايات الدينية في القرن الثاني، لأنها شكلت الوسيلة الرئيسية للدعاية العامة الغنوصية. لقد هاجم آباء الكنيسة، كما رأينا، التعاليم الداخلية التقنية للغنوصية بتشويهها وأغرقوها بالسخرية؛ ولم يرد الغنوصيون على هذه الهجمات، على الأرجح لأنهم كانوا ملزمين بأيمان السرية من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يعلمون جيدًا أن عقائد الحياة الداخلية لا يمكن حسمها بالنقاشات العامة. كانت التعاليم الباطنية لإنجيلهم مخصصة لمن هم في الداخل؛ أما بالنسبة للآخرين فكانت حماقة. لكن قصص الحب في سفر أعمال الرسل، والتي غالباً ما تستند بلا شك إلى أحداث واقعية من الحياة الداخلية، لم تكن ذات طابع صعب. قد تبدو هذه الأمور خيالية للغاية في نظر النقد الحديث، ولكنها كانت ذات مصداقية تامة بالنسبة لجميع أطياف المسيحية في تلك السنوات الأولى. شكلت هذه الأمور حلقة الوصل الوسيطة بين الكنيسة العامة والتعاليم الداخلية للغنوصية، ولم يكن من الممكن التخلص منها بالسخرية.

ص 417

كان لا بد من استخدام طريقة أخرى. وكما يقول ليبسيوس: "لم يكن الأساقفة والمعلمون الكاثوليك يعرفون كيف يوقفون هذا السيل من الكتابات الغنوصية وتأثيرها بين المؤمنين بشكل أفضل من تبني الروايات الأكثر شيوعًا من الكتب الهرطقية، وبعد إزالة سموم العقيدة الزائفة بعناية، إعادة تقديمها في هذا الشكل المنقح بين أيدي الناس".

لحسن الحظ، لم يكتمل "التطهير"، ولا تزال بعض آثار "السم" موجودة، كما نأمل أن نوضح لقرائنا في الجزء الثاني.

سيكون من غير المناسب في هذه الرسومات الموجزة محاولة وصف هذه الأعمال، أو الخوض الجامعون الأوائل. في معالجة نقدية لمصادرها؛ هدفنا الوحيد هو انتشال بعض الشظايا من هذا الكم الهائل من الأدبيات التي لا تزال تحتفظ بآثار من التعاليم الغنوصية القديمة. لقد اختفت الأعمال الأصلية التي صيغت فيها هذه التعاليم لأول مرة؛ فقد شوهت التقاليد بشدة من قبل العديد من المحررين والنساخ. هل من الممكن أن تقدم لنا أعمال بطرس القبطية المكتشفة حديثاً ترجمة لنص أصلي لم يتم التلاعب به؟

يقال إن أقدم مجموعة من هذه الأعمال الغنوصية قد تم جمعها بواسطة شخص يدعى ليوكيوس (هناك ما لا يقل عن ثمانية عشر شكلاً مختلفًا للاسم)، أو ليوكيوس شارينوس، الذي يقال إنه كان تلميذًا ليوحنا؛ ولكن بالطبع لا يمكن الاعتماد على هذا التأكيد الأخير، إلا إذا تم اعتبار "يوحنا" كاتب الإنجيل الرابع، وليس أحد الأناجيل الاثني عشر الأصليين. على أي حال، كانت ما يسمى بأعمال لوسيان مبكرة؛ ففي رأي زان، تم جمع هذه المجموعة في وقت لم يكن فيه الغنوصيون

ص 418

يعتبرون هرطقة، أي قبل عام 150 ميلادي. ومع ذلك، فإن أعمال لوسيان كانت مجموعة من القرن الثاني، لأن كليمنت الإسكندري كان على دراية بها؛ وربما تم جمعها أيضًا في الإسكندرية.

كان هناك جامع مبكر آخر للأعمال الغنوصية يُدعى لينوس، والذي لا يُعرف عنه شيء مؤكد. ربما كان قد عاش في روما. مجموعة عبدياس متأخرة جدًا بحيث لا يمكن ملاحظتها في هذا الصدد.

للحصول على مناقشة كاملة لجميع هذه النقاط، وتحليل لجميع الشظايا والإشارات الغنوصية المحفوظة في الأعمال الأبوكريفية، يجب أن أحيل الطالب إلى العمل العظيم لليبسيوس

حول هذا الموضوع. سنقدم الآن للقارئ أهم هذه الأجزاء، حتى يتمكن من الحكم على طبيعتها. بعض هذه الأعمال غير مترجمة إلى الإنجليزية؛ أستخدم أحدث نصوص زان وبونيه وليبسيوس.

ص. 419

من أعمال توما.

لقد قدمنا بالفعل للقارئ أهم جزء محفوظ في أعمال توما، أو يهوذا: ترنيمة للحكمة. توما؛ إنها ترنيمة النفس الجميلة، والتي من المرجح أن يكون مؤلفها بارديسانيس. لو لم تقدم لنا أعمال توما سوى هذه الترنيمة الغنوصية العظيمة لرداء المجد، لما كانت حياتهم قد حُفظت عبثاً. لكن لحسن الحظ، هناك المزيد مما يمكن استخلاصه منها. فيما يلي ترجمة للقصيدة الجميلة الموجهة إلى صوفيا، كما هي مسماة.

"العذراء هي ابنة النور؛ وفيها يُحفظ إشعاع الملك." منظرها مهيب، ومبهج؛ تتألق بجمال ساحر.

"ثيابها تشبه أزهار الربيع؛ ومنها تنبعث رائحة عطرة. يجلس الملك على عرشه فوق رأسها، ويقدم طعاماً خالياً من الموت على مائدته.

"الحق يتوج رأسها؛ والفرح يلهو عند قدميها. تفتح فمها كما يليق بها؛ فتطلق العنان لجميع أناشيد الثناء.

"اثنان وثلاثون هم الذين يغنون التسبيح؛ ... لسانها مثل حجاب المدخل، لا يحركه إلا من يدخلون.

"يرتفع عنقها كدرجة؛ بناها أول باني للعالم. تشير يداها إلى عصابة الأيونات المباركة، معلنة إياها (؟) تشير أصابعها نحو أبواب المدينة.

"غرفة زفافها (παστός) تفيض بالنور، وتنبعث منها رائحة البلسم والأعشاب العطرية،

ص 420

تفوح منها روائح لذيذة من المر والنباتات العطرية؛ مع أكاليل من الآس وأكوام من الزهور الحلوة المتناثرة في الداخل. أريكة زفافها مزينة بالقصب (؟).

"أصحابها من رجال العروس ملتفون حولها، وعددهم سبعة، وقد اختارتهم بنفسها. سبعة من وصيفاتها يرقصن أمامها.

"اثنا عشر هم الذين يخدمونها ويحضرونها؛ عيونهم تتطلع دائماً إلى العريس، لكي يملأهم بالنور.

"لأنهم سيكونون معه إلى الأبد في فرح أبدي؛ وسيجلسون في تلك الوليمة التي يجتمع فيها العظماء، ويبقون في تلك المأدبة التي يعتبر الأبدي (αἰώνιοι) وحدهم جديرين بها."

"سيلبسون ملابس ملكية، ويرتدون أثوابًا من نور، وسيفرح كلاهما بالنعيم والابتهاج، ويرنمان الحمد للآب.

"لأنهم قد نالوا من إشعاعه المجيد، وبنظرة ربهم امتلأوا نوراً. لقد تلقوا منه طعاماً خالداً لا يعرف الهدر.

"لقد شربوا من خمر لا يجعل الرجال يعطشون بعد الآن، ولا يعانون من الشهوة الجسدية. لذلك، مع الروح الحية، يمجدون أب الحقيقة، ويغنون تسبيحهم لأم الحكمة."

ليتنا نمتلك النسخة الأصلية لهذه الترتيلة الجميلة، فحتى النسخة المعيبة والمشوهة التي لا تزال موجودة جميلة. هل يعقل أن يكون لدينا هنا ترنيمة أخرى من ترانيم برديسان؟ على أي حال، تعود الترانيم إلى الزواج المقدس بين صوفيا وعريسها المسيح، والذي تمت

ص. 421

الإشارة إليه بالفعل في عرضنا لغنوص الباسيليديان.

في هذا الزواج تم استقبال صوفيا الكونية مرة أخرى في عالم النور، واتحدت معه معناه. الزوج السماوي. كان من المفترض أن يحدث هذا في الاكتمال العظيم؛ ولكن، بشكل غامض، كان يحدث دائمًا لأولئك الذين اتحدوا مع ذواتهم العليا.

كما في اكتمال الكون، اتحدت نفس العالم مع عقل العالم، كذلك في كمال الفرد، أصبحت النفس واحدة مع الذات الداخلية.

العذراء هي ابنة بليروما النور؛ وهي تعكس روعة الملوك، سادة عالم النور. وفوقها في عالم النور يجلس ملك المجد، المسيح، الذي يقدم طعام الخلود للنفوس الروحية (الروحانيين) الذين يستحقون أن تتم دعوتهم إلى الوليمة.

في هذا الاحتفال الكبير، تغني جماعة البليروما بأكملها (الاثنان والثلاثون من الأيونات) أغاني الفرح بتحقيق النصر. إن النفوس الكاملة وحدها هي التي تستطيع تحريك لسان الحكمة في مدح الله؛ هم وحدهم القادرون على جعل الجوهر الدقيق لمثل هذه المرتفعات العالية يهتز في أناشيد الحمد.

الآية التالية يصعب فهمها، ولا شك أنها لا تحافظ على الأصل. المدينة هي البليروما ؛ غرفة العروس هي باستوس ، الضريح، المكان المقدس، حيث يتم إعطاء التكريس - القدس العليا، ربما هي نفسها المدينة التي نقرأ عنها في المخطوطة العليا لمخطوطة بروسيانوس.

ص. 422

يتم توجيه النفس المطهرة إلى هناك بواسطة سبعة أزواج أو مجموعات من القوى. وهي ترتفع عالياً، تأخذ معها الاثني عشر، خدمها، لم يعودوا حكامها كما كانوا في العالم السفلي، حيث كانت مقيدة لفترة طويلة في قيود الرغبة. أما الاثنا عشر فهم الآن قواها المطهرة، والتي ينعكس من خلالها نور كريستوس. في عبارة "سيفرح كلاهما بالنعيم والابتهاج"، من الآية الثالثة من النهاية، يشير "كلاهما" إلى النفس التي اجتمعت مع "ملاكها" - أولئك الملائكة الذين ينظرون دائمًا إلى وجه الأب.

هذا وأكثر بكثير مما تكشفه الترانيم لأولئك الذين يحبون الغنوص، لأن صفحات عديدة لن تستوعب معناها الكامل.

الأدعية السرية. ولكن يجب أن نسرع إلى الأجزاء المتبقية في أعمال توما، وبالتالي نقدم لقرائنا ترجمة لاثنين من الصلوات السرية أو الأدعية المثيرة للاهتمام في شكل ترنيمة. الأول يسير على النحو التالي:

"هلمّ يا اسم المسيح القدوس، الاسم فوق كل الأسماء؛ هلمّ يا قوة من فوق؛ هلمّ يا رحمة كاملة؛ هلمّ يا أسمى عطية!"

"يا أم الرحمة، هلمي؛ هلمي يا عروس الإنسان؛ هلمي يا كاشفة الأسرار الخفية؛ يا أم المنازل السبعة، هلمي يا من وجدتِ راحتكِ في المنزل الثامن!"

"تعال يا من أنت أقدم بكثير من الأعضاء الخمسة المقدسة - العقل، والفكر، والتأمل، والتفكير، والاستدلال؛ تواصل مع أولئك الذين ولدوا لاحقاً!"

"هلمّ أيها الروح القدس، طهّر كليتيهم وقلوبهم!" أما الثاني فيتم تنفيذه على

النحو التالي:

ص. 423

"هلمي يا أسمى هبة؛ يا رحمة كاملة، هلمي؛ يا عارفة أسرار المختار، انزلي؛ يا من تشاركين في جميع كفاحات المجاهد النبيل، هلمي!"

"هلم أيها الصمت، يا كاشف عجائب كل العظمة؛ هلم يا من تُظهر الخفي، وتجعل السر واضحاً!"

"هلمي يا حمامة مقدسة، يا أم توأمين صغيرين؛ هلمي يا أم خفية، تتجلى في الأفعال وحدها!"

"تعال يا من تمنح الفرح لكل من هم واحد معك؛ تعال وشاركنا في هذا الشكر (الإفخارستيا) الذي نقيمه باسمك، وفي وليمة المحبة (الأغابي) التي اجتمعنا إليها استجابة لدعوتك!"

ينبغي الإشارة إلى هذه الأدعية المقدسة في نفس دائرة الأفكار التي تنتمي إليها صيغة "ملاحظة عليها". الغنوص الماركوسي الذي سبق أن قدمناه.

الاسم ليس اسم "كريستوس"، بل اسم أو قوة المسيح، أو شاكتي (باستخدام مصطلح من الثيوصوفيا الهندية) أو الاقتران.

إن "الأقدم من الأعضاء الخمسة" هو الإنسان، زوج صوفيا أو الروح القدس، الكريستوس. من المفترض أن تكون الأطراف الخمسة هي خماسية الأيونات المشار إليها في إنجيل مريم الغنوصي المكتشف حديثًا، وأسماؤها تشبه إلى حد كبير تلك المذكورة في النظام "السمعاني". إنها واحدة من أعلى مراتب أعضاء أو أجزاء الإنسان السماوي، والتي نقرأ عنها الكثير في مخطوطات بروس وأسكيو.

"أولئك الذين ولدوا لاحقاً" هم المبتدئون الذين ينتظرون تأهيل "ختم الكمال". الأشياء

ص. 424

العظيمة للعظمة الكاملة" هي أسرار البليروما.

الحمامة المقدسة هي مرة أخرى صوفيا أو نفس العالم؛ وفقًا لغنوص برديسان، كان لديها ابنتان. يقول إفرايم، الخصم اللدود للبارديسانيين، إنهم كانوا يُطلق عليهم اسم عار اليابسة وصورة الماء؛ سواء كانت هذه أسمائهم حقًا أم لا، فمن المفترض أنهم كانوا العالم المنتج - الأرض والعالم الخصب - الماء، بناة العالم المادي؛ بعبارة أخرى، المناطق القمرية والأرضية.

قبل الانتقال من أعمال توما، قد يكون من المثير للاهتمام أن نقدم للقارئ نموذجاً من القصص التي كانت تمتلئ بها مثل هذه الروايات الدينية. يُقال إن الرسول يهوذا توما، أو توأم يسوع، قد حصل على الهند بالقرعة لمجال عمله الرسولي. في البداية لم يرغب توما في الذهاب، لكن يسوع، سيده، باعه إلى تاجر من الشرق كعبد "ماهر في النجارة". نأخذ الملخص التالي للقصة من مقدمة سالمون للعهد الجديد (الطبعة الثامنة، 1897، الصفحات 337، 338).

القصر الذي بناه توما ".عندما يصل توما إلى الهند، يُحضر أمام الملك، وعندما يُسأل عن معرفته بأعمال البناء أو النجارة، يُظهر مهارة كبيرة في كلا المجالين. يسأله الملك إن كان بإمكانه بناء قصر له. يجيب بأنه يستطيع، ويضع خطة يتم الموافقة عليها. ثم يتم تكليفه ببناء القصر، ويتم تزويده بسخاء بالمال اللازم للعمل، والذي يقول إنه لا يستطيع البدء فيه حتى أشهر الشتاء. يظن

ص 425

الملك أن هذا غريب، لكنه يقتنع بمهارته فيوافق. لكن عندما يرحل الملك، بدلاً من أن يبني توما، انشغل بنشر الإنجيل، وأنفق كل المال على الفقراء. وبعد فترة، يرسل الملك ليسأل عن سير العمل. يرسل توما رسالة مفادها أن القصر قد اكتمل باستثناء السقف، والذي يحتاج إلى المزيد من المال من أجله؛ ويتم توفير هذا المال وفقًا لذلك، وينفقه توما على الأرامل والأيتام كما كان من قبل. وأخيراً يعود الملك إلى المدينة، وعندما يستفسر عن القصر، يعلم أن توما لم يفعل شيئاً سوى الوعظ وإعطاء الصدقات للفقراء وعلاج الأمراض. بدا وكأنه ساحر، ومع ذلك لم يأخذ مالاً مقابل علاجاته؛ كان يعيش على الخبز والماء والملح، ولم يكن لديه سوى ثوب واحد. أرسل الملك في طلب توما غاضباً جداً. هل بنيت لي قصراً؟ "نعم". "دعني أراه". "أوه، لا يمكنك رؤيته الآن، لكنك ستراه عندما تخرج من هذا العالم." غضب الملك من هذه السخرية، فأمر بسجن توما، إلى أن يتمكن من ابتكار شكل مروع من أشكال الموت له. لكن في تلك الليلة نفسها مات شقيق الملك، وصعدت روحه إلى السماء لتشاهد جميع المساكن السماوية. سألوه أين يرغب في السكن. لكن عندما رأى القصر الذي بناه توما، لم يرغب في السكن في أي مكان آخر غيره. عندما علم أنه ملك لأخيه، توسل وحصل على أن يعود إلى الحياة حتى يتمكن من شرائها منه. وبينما كانوا يضعون الأكفان على الجثة، عادت إلى الحياة. أرسل في طلب الملك، الذي كان يعلم مدى حبه له،

ص. 426

وتوسل إليه أن يبيعه القصر. لكن عندما علم الملك بالحقيقة، رفض بيع القصر الذي كان يأمل أن يسكنه بنفسه، ولكنه واسى أخاه بوعده بأن توما، الذي كان لا يزال على قيد الحياة، سيبني له قصراً أفضل. ثم تلقى الأخوان التعليم وعُمِدا.

من أعمال يوحنا.

مقطع منشور حديثًا. في مجلد حديث من تلك السلسلة القيّمة للغاية Texts and Studies (*Apocrypha Anecdota II*، بقلم م. ر. جيمس، 1897)، يوجد مقطع طويل من أعمال يوحنا، لم يتم نشر الكثير منه من قبل. تم إنقاذها من مخطوطة تعود إلى القرن الرابع عشر محفوظة في فيينا. إن النسخة الأصلية لهذه الأعمال تعود إلى فترة مبكرة، حيث تنتمي إلى مجموعة لوسيان. وبما أن كليمنت الإسكندري يقتبس منها، فيجب أن ننسب إليها الربع الثالث من القرن الثاني باعتباره النهاية. لذلك لدينا وثيقة مبكرة، ويزداد اهتمامنا بها بسبب طبيعتها الغنوصية المميزة.

الأساس المنطقي للدوسيتية. يتكون الجزء بأكمله تقريبًا من مونولوج يوضع على لسان يوحنا، والذي حُفظ لنا فيه تقليد رائع للغاية عن الحياة الخفية ليسوع. إن الإطار الكامل لعلم المسيح هو دوسيتي، وبالتالي فإن هذه القطعة تمثل إضافة قيمة للغاية لمعرفتنا بهذه النقطة المثيرة للاهتمام في التقاليد الغنوصية. كانت الدوسيتية هي النمو الهائل

ص. 427

لأساطير قوى خفية معينة تُنسب إلى "الإنسان الكامل"، والتي تم دمجها في العديد من النظريات المسيحية والخلاصية للفلاسفة الغنوصيين؛ وأيضًا، كما أعتقد، حقيقة تاريخية حقيقية، تم طمسها تمامًا من خلال العديد من الروايات التاريخية عن الأصول. بعد موته، عاد المسيح وعلم أتباعه بين المجتمعات الداخلية، وكان هذا جزءًا من أصل التقاليد الغنوصية المتغيرة للتعليم الداخلي. لقد عاد بالطريقة الوحيدة التي يمكنه العودة بها، وهي في جسد "نفسي" أو "روحي"؛ يمكن جعل هذا الجسد مرئيًا حسب الرغبة، بل ويمكن جعله محسوسًا للمس، ولكنه كان، مقارنة بالجسد المادي العادي، جسدًا "وهميًا" - ومن هنا جاء مصطلح "الجسد الوهمي (الدوسيتي)".

ولكن كما تم تحويل التقاليد الخارجية لـ "الفقراء" تدريجياً، ورفعت في النهاية يسوع تطور التقاليد. من مكانة النبي إلى القوة الكاملة ومجد الألوهية نفسها، كذلك امتدت التقاليد الداخلية للمفهوم الدوسيتي الأصلي إلى كل قسم من أقسام البنية الخلاصية الضخمة التي أقامها العبقري الغنوصي. تتعلق أعمال يوحنا بالدورة الأخيرة من الميول، و"يوحنا" هو تجسيد لأحد خطوط تقليد الدوسيتية المتغيرة، والتي نشأت من حقيقة غامضة، وتلك التعاليم الرائعة للتأهيل التي أصبحت تاريخية فيما بعد، والتي يلخصها يوحنا بالكلمات: "لقد تمسكت بهذا الشيء الواحد في نفسي، وهو أن الرب دبر كل شيء بشكل رمزي وبتدبير تجاه الناس، من أجل اهتدائهم وخلاصهم".

ص. 428

إن امتلاك المسيح لقوى روحية من الدرجة العالية أمر يسهل تصديقه لأي دارس للطبيعة الخفية. إن قدرته على الظهور للآخرين في صورة ″مايافي-روبا″، كما تسمى في الهند، وتغيير مظهرها حسب الرغبة، أمر يمكن تصديقه تماماً. لكن أن يتم تناقل تقاليد هذه الأحداث وغيرها من الأحداث المماثلة دون مبالغة أو تزيين خيالي، سيكون ذلك مخالفاً تماماً للتجربة الإنسانية في مثل هذه الأمور.

قصص صوفية عن يسوع. وهكذا، يُقال لنا أنه عند دعوة يعقوب ويوحنا، رأى يعقوب يسوع أولاً كطفل، بينما رآه يوحنا أولاً كرجل "جميل ووسيم ذو وجه بشوش"؛ وبعد ذلك رآه كشخص "رأسه أصلع نوعًا ما، لكن لحيته كثيفة ومتدفقة"، بينما أكد يعقوب أنه ظهر "كشاب لحيته حديثة النمو".

علاوة على ذلك، لاحظ يوحنا سمة غريبة أخرى، وهي أن عينيه لم تغمضا أبداً. الغريب في الأمر أن هذه إحدى علامات "الإله" المذكورة في النصوص الهندوسية. لاحظ يوحنا العديد من التغيرات في المظهر، فوصفه أحياناً بأنه "رجل صغير وقبيح، ثم مرة أخرى بأنه شخص يصل إلى السماء" - وهي حقيقة يمكن تصديقها تماماً عند سردها عن تلميذ على اتصال متعاطف مع "حضور" أو "مجد" المعلم القوي. لكن الأمر الأكثر غرابة هو أنه عندما كان يوحنا مستلقياً على صدره، "كان يشعر أحياناً أنه ناعم ورقيق، وأحياناً أخرى قاس كالحجارة". علاوة على ذلك، عندما كان يسوع يصلي ويتأمل، كان يُرى فيه "نور لا يستطيع إنسان يستخدم كلامًا فاسدًا أن يصفه".

ص 429

ستجلب القصة الساذجة التالية في النهاية ابتسامة على وجه القارئ، ولكنها في الوقت نفسه ستمنح دارس الطبيعة الخفية دليلاً على أن الأسطورة لا تستند كلياً إلى الخيال، بل تتعلق بمجال الحقائق الخفية، إذا كان ينبغي تصديق العديد من الأساطير المماثلة المتداولة في الهند، والتي تتعلق بلمسة اليوغيين عندما يكونون في حالات معينة من النشوة. (الاقتباسات مأخوذة في معظمها من ترجمة الدكتور جيمس).

"ثم قادنا نحن الثلاثة بنفس الطريقة إلى الجبل قائلاً: تعالوا إليّ." ثم ذهبنا مرة أخرى: فرأيناه من بعيد يصلي. لذلك، ولأنه أحبني، اقتربت منه بهدوء كما لو أنه لا ينبغي أن يراني، ووقفت أنظر إلى ظهره. ورأيته أنه لم يكن يرتدي ثيابًا بأي حال من الأحوال، بل كان عاريًا منها، ولم يكن يشبه الإنسان بأي حال من الأحوال؛ وكانت قدماه بيضاء من أي ثلج، حتى أن الأرض هناك كانت تضيء بقدميه؛ وكان رأسه يصل إلى السماء، فخفت وصرخت؛ فالتفت وظهر كرجل قصير القامة، وأمسك بلحيتي وجذبها وقال لي: "يا يوحنا، لا تكن غير مؤمن، ولا تكن متطفلاً". فقلت له: "لكن ماذا فعلت يا رب؟" وأقول لكم يا إخوتي، لقد عانيت ألماً شديداً في ذلك المكان الذي أمسك فيه بلحيتي لمدة ثلاثين يوماً.

"لكن بطرس ويعقوب غضبا لأني كلمت الرب، وأشارا إليّ أن المسيح يتكلم مع يسوع.ينبغي أن آتي إليهما، وأترك الرب وشأنه. فذهبت، فقالا لي كلاهما: "من كان

ص 430

الذي كان يكلم الرب وهو على رأس الجبل؟ لأننا سمعناهما يتحدثان. ولما تأملت في عظمة نعمته ووحدانيته التي لها وجوه كثيرة، وحكمته التي تنظر إلينا بلا انقطاع، قلت: "هذا ما ستتعلمونه إذا سألتموه".

"ومرة أخرى، عندما كنا جميعاً نحن تلاميذه نائمين في منزل واحد في جنيساريت، كنت وحدي، وقد لففت نفسي، أراقب من تحت ثوبي ما كان يفعله؛ فسمعته أولاً يقول: "يا يوحنا، اذهب ونم"، فتظاهرت بالنوم؛ و

ورأيت آخر مثله ينزل، وسمعته أيضًا يقول لسيدي: "يا يسوع، ألا يؤمن بك الذين اخترتهم بعد؟" فقال له سيدي: "أحسنت القول، فهم بشر".

هنا، في رأيي، يكمن التقليد المباشر لحقيقة داخلية أدت إلى التمييز العقائدي الكبير اللاحق بين يسوع والمسيح في المسيحية الغنوصية. كان المسيح هو المعلم الأعظم؛ وكان يسوع هو الرجل الذي علّم من خلاله خلال فترة خدمته.

شكل مبكر لإحدى المعجزات العظيمة. ومن المثير للاهتمام أيضاً القصة البسيطة التي تقول إنه عندما أُعطي يسوع وتلاميذه رغيف خبز لكل منهم من قبل أحد أصحاب البيوت الميسورين، كان يسوع يبارك الرغيف ويقسمه بينهم، وكان كل واحد منهم راضياً تماماً عن نصيبه، وهكذا "حُفظت أرغفتنا كاملة" - وهي حادثة يمكن تصديقها بسهولة لأي دارس للعلوم الخفية، وتوفر أساساً يمكن للخيال الشرقي الرائع أن يبني عليه بسهولة مع مرور الوقت أسطورة إطعام

ص. 431

الخمسة آلاف. كانت هذه الحوادث هي كل ما اعتبره الكاتب مناسباً لإخبار غير المطلعين؛ وكان هناك العديد من الحوادث الأخرى ذات طبيعة مقدسة للغاية أو بعيدة كل البعد عن المصداقية بحيث لا يمكن الكشف عنها للدوائر الخارجية.

"أما هذه الأمور، أيها الإخوة، فأقولها لكم لتشجيع إيمانكم به؛ لأنه يجب علينا في الوقت الحاضر أن نلتزم الصمت بشأن أعماله العظيمة والعجيبة، لأنها أسرار وربما لا يمكن النطق بها أو سماعها على الإطلاق."

ثم يلي ذلك "الترنيمة" التي تم إنشادها قبل أن يتم القبض عليه من قبل "اليهود الخارجين عن القانون". طقوس من الأسرار. يوصف التلاميذ بأنهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض لتشكيل حلقة حول يسوع، الذي يقف في الوسط، ومع كل سطر يغنيه، يرددون في جوقة الكلمة المقدسة "آمين". من الواضح أنها صدى للأسرار، والطقوس هي رقصة مقدسة لطقوس التأهيل. توجد الترانيم حاليًا في شكل مشوش ومشوه للغاية، وقد اختفت قواعدها بالكامل تقريبًا. لذلك سمحت لنفسي ببعض التخمينات؛ إلا أن الالتباس في بعض المقاطع كبير لدرجة أنه من المستحيل الخوض في اقتراح. فيما يلي، يرمز الحرف C إلى المرشح، و I إلى المؤهل (المسيح)، و A إلى المساعدين.

C. "سأنجو."

I: "وسأنجو."

A. "آمين".

C. "سيطلق سراحي."

I: "وسيطلق سراحي".

ص. 432

A. "آمين".

C. "سأثقب."

I: "وأنا سأثقب".

A. "آمين".

C. "سأولد."

I: "وأنا سأولد".

A. "آمين".

C. "سآكل."

I: "وأنا سأؤكل".

A. "آمين".

C. "سأسمع."

I: "وأنا سيسمع لي".

A. "آمين".

"سأكون مفهوماً، لكوني متفهماً تماماً (عقلاً)."

A. "آمين".

C. "سأغسل."

I: "وأنا سأغتسل".

A. "آمين".

"(النعمة [أيصوفيا] ترقص.)" "سأعزف لكم

جميعاً على المزمار؛ سأرقص معكم."

A. "آمين".

"يعزف الأجدود على رقصنا. آمين." "رقص الاثنا عشر فوقنا. آمين." [قراءة هذا السطر ميؤوس منها.]

"من لا يرقص، لا يعلم ما يجري".

C. "سأهرب."

I: "أود أن تبقى".

A. "آمين".

C. "سأرتدي ثوبًا [بملابس مناسبة]."

I: "وأنا سأرتدي [الثوب]."

A. "آمين".

C. "سيكُفِّر عن ذنبي."

I: "وأنا سأكفِّر."

A. "آمين."

"ليس لدي منزل، ولدي منازل. آمين." "ليس لدي مكان،

ولدي أماكن. آمين."

"ليس لدي معبد، ولدي معابد. آمين."

I. "أنا سراج لك يا من تنظر إليّ".

A. "آمين."

I. "أنا مرآة لك يا من تراني".

A. "آمين."

I. "أنا بابٌ لك أيها الذي تقرع عليّ".

A. "آمين."

I. "أنا طريق إليك، يا مسافر."

A. "آمين."

"والآن استجب لرقصي".

"انظر إلى نفسك فيّ أنا المتكلم؛ وعندما ترى ما أفعله، اصمت عن أسراري."

(يرقص.) راقب ما أفعله، لأن هذا هو شغف (معاناة) الرجل الذي سأعانيه (أؤديه).

[ربما تلا ذلك دراما غامضة عن الصلب والطعن.]

"لم يكن بإمكانك [وحدك] أن تفهم ما أعانيه." أنا كلمتك (اللوغوس - الذات العليا). لقد أرسلني الآب."

"عندما نظرت إلى آلامي، رأيتني أتألم؛ لم تثبت، بل اهتززت تماماً..."

"أنت تتخذني فراشاً، فاسترح عليّ." "من أنا؟ ستعلم ذلك عندما

أغادر."

ص. 434

"ما يُرى أنني عليه الآن، ليس هو ما أنا عليه؛ ولكن ما أنا عليه ستراه عندما تأتي."

"لو كنت تعرف كيف تعاني، لكانت لديك القدرة على عدم المعاناة." "اعرف المعاناة، وستكون لديك القدرة على عدم المعاناة."

"ما لا تعرفه، سأعلمك إياه بنفسي." "أنا إلهك، لا إله خائنك."

C. "سأكون على وفاق مع النفوس المقدسة."

I: "فيّ تعرف كلمة الحكمة".

التمجيد. هكذا تبدأ الأجزاء المشوهة من هذه البقايا المثيرة للاهتمام من الطقوس الغنوصية الداخلية؛ في نسخة أعمال يوحنا التي نقتبس منها، تبدأ هذه الترتيلة المزعومة وتنتهي بالتمجيد التالي، والذي يقال إن التلاميذ، وهم "يدورون في حلقة"، يجيبون على كل سطر منه بـ "آمين".

"المجد لك يا أبانا. آمين!

"المجد لك يا كلمة، المجد لك يا نعمة. آمين!

"المجد لك أيها الروح القدس، المجد لك أيها القدوس، المجد لمجدك. آمين!

"نحمدك يا أبانا، ونشكرك يا نور الذي لا يسكنه ظلام. آمين!"

لو كان لدينا وصف لـ "الدراما" و"الأشياء التي تم فعلها" وكذلك "الأشياء التي قيلت" في هذه المراسم التعليمية للغاية، لكان من الممكن إلقاء الكثير من الضوء على معنى "آلام" المسيح كما تم فهمها في الأصل. علاوة على ذلك، عندما نتأمل في أن معظم الأجزاء الثمينة

ص 435

من هذا الجزء الخفي من المسيحية المبكرة يتم اكتشافها سنوياً تقريباً، فليس من المستحيل أن نأمل في أن تمنحنا ورقة ممزقة المزيد من الضوء. ومع ذلك، فإن "سر الصليب"، أي الصلب الصوفي، قد فهمه الغنوصيون

بطريقة مختلفة تمامًا عن السرد التاريخي الحرفي، وهو ما تثبته أعمال يوحنا نفسها بشكل وافٍ.

عندما عُلِّق الرب على "شجرة الصليب"، ظهر ليوحنا الذي كان قد هرب إلى "جبل الزيتون".

وقف ربنا في وسط المغارة وملأها نورًا وقال: "للجموع سر الصليب. في الأسفل، في أورشليم [؟ أورشليم السفلى - العالم المادي]، أنا أُصلب، وأُطعن بالرماح والقصب، ويُسقى لي المر والخل؛ إليك الآن أتكلم، وأنصت إلى كلماتي. أنا من وضع في قلبك فكرة صعود هذا الجبل، لكي تسمع ما يجب أن يتعلمه التلميذ من المعلم، وما يجب أن يتعلمه الإنسان من الله."

وبعد أن قال هذا، أراني صليبًا من نور منصوبًا، وحول الصليب جمع غفير، وفيه شكل واحد وصورة واحدة؛ وعلى الصليب جمع آخر، ليس له شكل واحد، ورأيت الرب نفسه فوق الصليب، ليس له شكل، بل صوت فقط؛ وصوت ليس مألوفًا لنا، بل صوت حلو ولطيف، صوت الله حقًا، يقول لي: "يا يوحنا، من الضروري أن يسمع أحد هذه الأشياء مني؛ لأني أحتاج إلى من يسمع". يُطلق على صليب النور هذا أحيانًا اسم الكلمة من أجلكم، وأحيانًا يُطلق عليه اسم العقل، وأحيانًا يُطلق عليه اسم يسوع، وأحيانًا يُطلق عليه اسم المسيح.

ص. 436

أحيانًا باب، وأحيانًا طريق، وأحيانًا خبز، وأحيانًا بذرة، وأحيانًا قيامة، وأحيانًا ابن، وأحيانًا أب، وأحيانًا روح، وأحيانًا حياة، وأحيانًا حقيقة، وأحيانًا إيمان، وأحيانًا نعمة.

"أما هذه الأشياء فتسمى تجاه البشر؛ ولكن من حيث حقيقتها، كما هي متصورة في ذاتها وكما قيل لك - فهي تحديد (تمييز) كل الأشياء، والضرورة الثابتة لتلك الأشياء الثابتة والتي كانت غير مستقرة، وانسجام الحكمة." وبما أن الحكمة في انسجام (أو مرتبة بشكل مناسب)، فهناك على اليمين واليسار قوى، ورئاسات، ومصادر، وديمون، وطاقات، وتهديدات، وغضب، ومتهمون، وشيطان، و[أسفل] الجذر الأدنى الذي انبثقت منه طبيعة الأشياء في التكوين.

"هذا إذن هو الصليب الذي فصل كل الأشياء بالعقل، وميز الأشياء التي تأتي من التكوين، والأشياء التي تحته، ثم جمع كل شيء في كل واحد.

"هذا ليس الصليب الخشبي الذي ستراه عندما تنزل؛ ولا أنا هو الذي على الصليب، الذي لا تراه الآن بل تسمع صوتاً فقط.

"لقد ظنني الآخرون، الكثيرون، أنني ما لست عليه، مع أنني لست ما كنت عليه. وسيقولون عني ما هو حقير ولا يليق بي.

"لذلك، بما أن مكان الراحة لا يُرى ولا يُتحدث عنه، فالأحرى سأكون أنا، رب ذلك المكان، لا يُرى ولا يُتحدث عنه."

"إن كثرة الجانب الواحد الذي يدور حول

ص 437

الصليب هي الطبيعة الدنيا، والذين تراهم على الصليب، إن لم يكن لهم تفسير ذلك. شكل واحد، فذلك لأنه لم يتم بعد جمع كل أعضاء الذي نزل." لكن عندما تُرفع الطبيعة العليا، والجنس الذي يلجأ إليّ، طاعةً لصوتي؛ فحينئذٍ يصبح ما لا يسمعني [حتى الآن] مثلك، ولن يكون بعد الآن كما هو الآن، بل فوقهم [في العالم]، كما أنا الآن. طالما أنك لا تنادي نفسك "ملكا لي"، فأنا لست ما أنا عليه. لكن إن سمعتَ لي، فستكون مثلي، وسأكون كما كنت، عندما أكون معك كما أكون مع نفسي. لأنك من هذا أنت. فلا تلتفت إذن إلى الكثيرين، ولا تفكر كثيراً في أولئك الذين هم خارج السر؛ لأني أعلم أنني كلياً مع الآب والآب معي.

"لذلك لم أعاني شيئاً مما سيقولونه عني؛ بل إن تلك المعاناة التي أظهرتها لك وللآخرين في الرقص، أريد أن تُسمى سراً. فما تراه فقد أريتك إياه، أما ما أنا عليه فأنا وحدي أعرفه ولا أحد غيري. دعني إذن أحتفظ بما هو لي، وما هو لك انظر من خلالي، وانظر إليّ في الحقيقة كما أنا، ليس ما قلته، بل ما تستطيع أن تعرفه، لأنك قريب لي.

"أنت تسمع أنني تألمت، ومع ذلك لم أتألم؛ أنني لم أتألم، ومع ذلك تألمت؛ أنني طُعنت، ومع ذلك لم أُضرب؛ أنني عُلقت، ومع ذلك لم أُعلق؛ أن الدم سال مني، ومع ذلك لم يسال". باختصار، تلك الأشياء التي

ص. 438

يقولونها عني لم تكن لي، والأشياء التي لا يقولونها هي التي عانيت منها. والآن سأكشف لك (أحجية) ما هي، لأني أعلم أنك ستفهم.

"انظر إذًا فيَّ قتل الكلمة (اللوغوس)، وطعن الكلمة، ودم الكلمة، وجرح الكلمة، وتعليق الكلمة، وآلام الكلمة، وتسمير [؟ [تثبيت أو ضم] الكلمة، موت كلمة. وأعني بكلمة. رجل. أولاً، افهم الكلمة، ثم ستفهم الرب، وثالثاً الرجل، وما هي آلامه.

تأهيل الصليب. من الواضح أن لدينا هنا تقليد المدارس الباطنية فيما يتعلق بالسر العظيم للتأهيل المسمى الصليب. يبدو أن الصليب يتكون من ثلاثة أطراف، له ذراع أيمن وذراع أيسر وذراع سفلي، مثل رمز التاو المصري. من المفترض أن جسد المرشح كان مقيداً عليه، وفي حالة غيبوبة كانت نفسه تصعد جبل التأهيل، "الارتفاع" في الداخل. هنا يلتقي بالمعلم، لكنه يسمع صوته فقط؛ لا يستطيع بعد أن يراه كما هو، لأن جميع أعضائه لم تتجمع بعد، ولم يتشكل أوزيريس الكامل فيه، ولكنه سيكون في مرحلة أعلى، عندما يتصالح مع المسيح.

ما أجمل هذه الأصداء من التعاليم القديمة، وما أروع النور الذي تلقيه على أشياء كانت عصية على الفهم لولاها! كانت هذه التجارب الداخلية للنفس هي التي شكلت حياة وقوة الغنوص، وهي تجارب تلقت فيها الأنظمة المعقدة التي سعى "لسان الجسد" إلى التعبير عنها بمثل هذا الجهد، إشراقًا ونورًا - "نورًا حلوًا ومبهجًا"، كما يقول الراعي

ص 439

هرمس ثلاثي العظمة. والآن، هل يمكننا أن نتخيل أهمية التحية بين هؤلاء العلماء في الطريق الخفي على النحو التالي: "سر ما بين السماء والأرض يكون معكم".

عن فكرة الإنسان الصغير والعظيم، والذات الدنيا والعليا، في مثل هذه الدوائر من التأهيل نسمع الذوات العليا والذات الدنيا. وفي أماكن أخرى من إنجيل حواء (إبيفس، 26). 3)، واصفاً إحدى هذه الرؤى على الجبل.

"وقفت على جبل شاهق ورأيت رجلاً عظيماً، وآخر قزماً، وسمعت صوتاً كصوت الرعد، فاقتربت لأسمع؛ فخاطبني قائلاً: "أنا أنت وأنت أنا؛ وأينما كنت فأنا هناك، وقد بُذرت (أو تشتتت) في كل مكان؛ ومن أي مكان تريد أن تجمعني، وبجمعك لي تجمع نفسك".

من المفترض أن "القزم" يتوافق مع "الرجل بحجم الإبهام في أثير القلب" في الأوبانيشادات؛ فهو لا يزال أصغر من الصغير، ولكن مع تطور الطبيعة الروحية سيصبح أعظم من العظيم، وينمو إلى قامة الإنسان السماوي - الذات العليا.

أما فيما يتعلق بتشتيت وجمع الأطراف، فهناك مقطع استشهد به إبيفانيوس (المرجع نفسه، 13) من إنجيل فيليب، والذي يلقي مزيدًا من الضوء على الموضوع. هو اعتذار أو دفاع تستخدمه النفس في صعودها إلى عالم السماء، أثناء مرورها عبر الفضاءات الوسطى، ويسير على النحو التالي:

"لقد تعرفت على نفسي وجمعت شتات نفسي من جميع الجوانب. لم أزرع أولاداً للحاكم [سيد هذا العالم]، بل اقتلعتُ جذوره؛ جمعتُ أعضائي التي

ص 440

كانت متناثرة في كل مكان، وأنا أعرف من أنت.

صلاة تسبيح للمسيح. هذا كل ما يمكننا استخلاصه من نص أحدث جزء منشور من هذه الأعمال الأكثر فائدة؛ ومن النصوص المعروفة بالفعل هناك العديد من الأجزاء الأخرى ذات الأهمية. فيما يلي صلاة تسبيح وُضعت على فم يوحنا في العيد المقدس قبل رحيله عن الحياة. إنها موجهة إلى المسيح.

"أي مدح، وأي قربان، وأي شكر، سنتحدث عنه عند كسر الخبز إلا لك وحدك؟ نمجد اسمك [أي القوة] الذي نطق به الآب؛ نمجد اسمك الذي نطق به الابن؛ نمجد القيامة التي أُظهرت لنا من خلالك؛ نمجد نسلك، وكلمتك، ونعمتك، وإيمانك، وملحك، ولؤلؤتك الحقيقية التي لا توصف، وكنزك، ومحراثك، وعظمتك، وشبكتك، وتاجك، الذي دُعي من أجلنا ابن الإنسان، الحق، والراحة، والمعرفة، والقوة، والنظام، والصراحة، والأمل، والمحبة، والحرية، واللجوء إليك. لأنك أنت وحدك الرب الواحد، أصل الخلود، ومصدر عدم الفساد، ومقر الأيونات. لقد دُعيتَ إلينا بكل هذه الصفات، حتى إذا ما دعوناك بها، نعلم أننا كما نحن لا نستطيع أن ندرك عظمتك، وهي عظمة لا يمكن إدراكها إلا من قبل الأطهار، لأنها تتجلى في إنسانك وحدك."

العبارة نفسها، "إنسانك"، موجودة في الرسالة الجميلة لهرمس تريسميجستوس والمعروفة باسم "الخطبة السرية على الجبل"؛ "أنت الإله؛ هكذا يصرخ إليك إنسانك من خلال النار والهواء،

ص. 441

والتراب؛ من خلال الماء، والروح، ومن خلال هذه المخلوقات." لكن في الواقع، فإن مجموعة بويماندريس بأكملها من الأدب الهرسمي تأتي من نفس مصدر الغنوص.

إن المثل الأعلى للحياة الغنوصية، والمستوى الرفيع الذي سعى إليه هؤلاء الساعون وراء حالة الخلو من الخطيئة، يظهران بوضوح في خطاب الوداع لتلاميذه، والذي وضعه مؤلف أو جامع أعمال الرسل الغنوصي على لسان يوحنا.

أيها الإخوة والرفقاء في الخدمة، والورثة والشركاء في ملكوت الرب، أنتم تعلمون كم خطاب يوحنا الوداعي لمجتمعه. من القوى قد منحكم الرب من خلالي - كم من العجائب، وكم من الشفاء، وكم من الآيات، وما هي المواهب [من الروح]، والتعاليم، والإرشادات، والإغاثات، والخدمات، والمجد، والنعم، والهبات، ومنح الإيمان، والتواصل - كم من الأشياء التي ترونها بأعينكم، وكم من الأشياء التي لا تستطيع أعينكم رؤيتها، ولا تسمعها آذانكم! اثبتوا إذن فيه، واذكروه في كل عمل، واعلموا لماذا يتم كشف سر التدبير تجاه البشر.

"إن الرب نفسه يحثكم من خلالي: أيها الإخوة، أريد أن أكون متحرراً من الحزن [من أجلكم]، ومن العنف والمؤامرات والعقوبات."

"لأنه يعلم العنف الذي يصدر منكم، ويعلم العار، ويعلم التآمر، ويعلم العقاب الذي يأتي من خلال الذين لا يطيعون وصاياه.

"فلا تُحزن إلهنا الصالح إذن، هو الرحيم الرؤوف القدوس، الطاهر الذي لا عيب فيه، الواحد الأحد، الذي لا يتغير،

ص. 442

الطهارة التي لا تشوبها شائبة، الذي لا يعرف الخداع ولا الغضب، أعلى وأسمى من أي صفة يمكننا تسميتها أو التفكير فيها، يسوع إلهنا.

"ليفرح بنا كمواطنين في دولة حسنة الحكم؛ وليبتهج بعيشنا في طهارة؛ ولينعم بالراحة بفضل سلوكنا الموقر؛ وليتحرر من الهموم بفضل عفتنا؛ وليسعد بسكننا في الأخوة؛ وليضحك فرحاً بحكمتنا؛ وليفرح بحبنا له.

"أقول لكم هذا وأنا أسرع إلى نهاية مهمتي المعينة، والتي أنهى الرب مهمتي من أجلها. فماذا عساي أن أقول لكم غير ذلك؟ لديكم وعود إلهنا؛ لديكم ضمانات جوده؛ لديكم حضوره الذي لا يمكن أن يفارقكم أبداً. فإن لم تعودوا إلى الخطيئة، فإنه يغفر لكم كل ما فعلتموها عن جهل؛ أما إذا رجعتم إلى تلك السبل بعد أن عرفتموه ونلتم رحمته، فإن خطاياكم السابقة ستُحاسبون عليها، ولن يكون لكم نصيب ولا رحمة عنده.

ويلي ذلك مباشرة صلاة يوحنا الأخيرة إلى المسيح نيابة عن إخوته.

صلاة يوحنا الأخيرة ".يا من نسجتَ هذا الإكليل بنسجك يا يسوع، يا من جمعتَ هذه الأزهار الكثيرة في زهرتك العطرة التي لا يذبل عبيرها أبدًا، يا من زرعتَ هذه الكلمات، يا حامي عبادك، يا شافيًا لا تشفي شيئًا، أنت وحدك من يفعل الخير دائمًا، يا غريبًا عن الكبرياء، أنت وحدك الرحيم، يا صديق الإنسان، أنت وحدك المخلص،

ص 443

يا بار، يا من ترى كل شيء، وحاضر في كل شيء، يا الله، يا يسوع، يا المسيح، يا رب، يا من تحجب بعطاياك ورحمتك كل من يرجوك، يا من تعرف جيدًا كل من يظلمنا ويجدف على اسمك القدوس، أنت وحدك الرب، احفظ عبيدك واحمهم؛ نعم يا رب، افعل هذا!

أما بقية الصلاة فلها أيضاً طابع غنوصي قوي، ولكن تم اقتباس ما يكفي بالفعل لإعطاء القارئ فكرة عن الأفكار السامية التي كانت تحرك مثل هذه المجتمعات في الأيام الأولى.

لكن قبل المغادرة، أعمال يوحنا لا يسعنا إلا أن نقدم للقارئ أشهر قصة تسللت إلى مجموعتهم. من الغريب أنه في ظل هذا القدر الكبير من الجمال، تم اختيار هذه القصة بالذات لتكون الأكثر اقتباساً، وأن العديد من طلاب اللاهوت لا يعرفون شيئاً آخر عن محتويات هذه الوثائق التعليمية سوى "قصة يوحنا والحشرات". لكن الأمر كذلك، ونحن نقدمها كمثال على العديد من الأساطير التي كانت رائجة بين الناس، وأيضًا لأنها لا تخلو من الفكاهة، وهي سلعة نادرة في أوساط المتدينين. نأخذ القصة من ملخص سالمون. (المرجع السالف الذكر، الصفحة 350).

في أحد الأيام، كان يوحنا ورفاقه في رحلة لأغراض رسولية. "توقفت المجموعة في رحلتها قصة يوحنا والحشرات. عند خان مهجور. لم يجدوا هناك سوى أريكة واحدة عارية، وبعد أن وضعوا عليها ملابس، جعلوا الرسول يستلقي عليها، بينما استلقى باقي أفراد المجموعة للنوم على

ص 444

الأرض. لكن يوحنا انزعج من كثرة الحشرات؛ حتى أنه بعد أن تقلب في فراشه لنصف الليل، قال لهم على مسمع الجميع: "أقول لكم يا حشرات، كونوا متسامحين؛ اتركوا بيوتكم هذه الليلة، واذهبوا للراحة في مكان بعيد عن عبد الله". عند ذلك ضحك التلاميذ، بينما ذهب الرسول إلى النوم، وتحدثوا إليه بلطف حتى لا يزعجوه. في الصباح، ذهب أول من استيقظ إلى الباب، فرأوا حشدًا كبيرًا من الحشرات واقفة. وتجمع الباقون للمشاهدة، وفي النهاية استيقظ القديس يوحنا ورأى الأمر نفسه. ثم (مدركًا لامتنانه للحشرات أكثر من إدراكه لراحة المسافر التالي) قال: "أيها الحشرات، بما أنكم كنتم لطفاء والتزمتم بوصيتي، فعودوا إلى مكانكم". وما إن قال هذا ونهض من الأريكة، حتى اندفعت الحشرات جميعها من الباب إلى الأريكة، وتسلقت الأرجل، واختفت في المفاصل. فقال يوحنا: "انظروا كيف أطاعت هذه المخلوقات حين سمعت صوت الإنسان، أما نحن فمع أننا سمعنا صوت الله، إلا أننا أهملنا وعصينا، وإلى متى؟"

ص 445

من أعمال أندرو.

من أعمال أندرو، الخطاب التالي الموجه إلى الصليب. أن الخطاب الموجه إلى الصليب ذو أهمية كبيرة، عند مقارنته بما تم اقتباسه بالفعل من أعمال يوحنا وبقية الأفكار الغنوصية حول هذا الموضوع. بالنسبة للغنوصيين، كان الصليب رمزاً للعمليات الكونية وكذلك لصلب النفس في المادة وتجديدها، ومن المؤسف أن معلوماتنا مجزأة للغاية. لقد تم تعديل الخطاب التالي الذي وضع على لسان أندرو من قبل الكتبة الكاثوليك، ولكن من الواضح أن المادة الأساسية مستمدة من الدائرة الغنوصية للأفكار.

"أقبل إليك فرحاً، أيها الصليب، يا مانح الحياة، الصليب الذي أعرف الآن أنه لي؛ أعرف سرك، لأنك قد غُرست في العالم لتجعل الأشياء الثابتة غير مستقرة.

"رأسك ممتد إلى السماء، لكي ترمز إلى الكلمة السماوية، رأس كل الأشياء. أجزاؤك الوسطى ممدودة إلى الأمام، كما لو كانت أيادي إلى اليمين واليسار، لطرد قوة الشيطان الحاسدة والمعادية، حتى تتمكن من جمع [هكذا ورد الأطراف] المتناثرة في مكان واحد. قدمك ثابتة في الأرض، غارقة في العمق، لكي تسحب الذين تحت الأرض والذين هم مقيدون في المناطق التي تحتها، وتجمعهم مع الذين في السماء.

يا صليب، يا أداة الخلاص التي صممها

ص. 446

الله ببراعة فائقة، يا من وهبها العلي للبشر؛ يا صليب، يا رمز النصر الذي لا يُقهر لانتصار المسيح على أعدائه؛ يا صليب، يا شجرة الحياة، يا من غرست جذورك في الأرض، وثمارك كنز في السماء؛ يا صليبًا جليلًا، يا حلوًا واسمًا حلوًا؛ يا صليبًا مُبجَّلًا، يا من تحمل كعنبٍ السيد، الكرمة الحقيقية، يا من تحمل أيضًا اللص كثمرة، ثمرة الإيمان من خلال الاعتراف؛ يا من تقود المستحقين إلى الله من خلال الغنوص الروحي، وتدعو الخطاة إلى ديارهم من خلال التوبة!"

من رحلات بطرس.

ويمكن إضافة الخطاب الأخير الذي وضع على لسان بطرس، في رواية رحلاته أو جولاته (رحلاته). تم العثور عليه في جزء من مجموعة لاينوس، التي تسمى استشهاد بطرس. تقول الأسطورة أن بطرس أصر على أن يُصلب ورأسه إلى الأسفل، وقد وردت أسباب هذا الإجراء الغريب على النحو التالي في الترجمة اللاتينية الخاطئة.

نزول الإنسان ".أنت وحدك استقمت على الصليب ورأسك مرفوع، يا رب، الذي خلصت العالم أجمع من الخطيئة. لقد رغبت في أن أقتدي بك في آلامك أيضاً؛ ومع ذلك لم أكن لأقبل أن أُشنق وأنا منتصب القامة. فنحن، رجال طاهرون وخطاة، ولدنا من آدم، أما أنت فأنت إله من إله، نور من نور حقيقي، قبل كل الأيونات وبعدها؛ وقد اعتبرت جديراً بأن تصبح إنساناً بلا دنس من البشر، لقد برزت كمخلص مجيد للبشر. أنت دائماً مستقيم، دائماً مرتفع،

ص. 447

أبدي فوق الجميع! نحن البشر بحسب الجسد، أبناء الإنسان الأول (آدم)، الذي دفن نفسه في الأرض، والذي يظهر سقوطه في الجيل البشري. لأننا نولد بطريقة تجعلنا نبدو وكأننا نُسكب في الأرض، بحيث يصبح اليمين يساراً، ويصبح اليسار يميناً؛ إذ تتغير حالتنا في أولئك الذين هم مؤلفو هذه الحياة. لأن هذا العالم السفلي يظن أن الحق هو اليسار؛ هذا العالم الذي وجدتنا فيه يا رب مثل أهل نينوى، وبموعظتك المقدسة أنقذت من كانوا على وشك الموت.

من المفترض أن عبارة "مؤلفو هذه الحياة" تشير إلى القوى التي تجلب الإنسان إلى الحياة. كانت أسطورة يونس نموذجاً للمتأهل، الذي بعد أن قضى ثلاثة أيام وثلاث ليال في "جوف شيول" أو الهاوية، بشر أولئك الموجودين في نينوى، أورشليم السفلى، أي هذا العالم.

أما بالنسبة للإخوة، فقد كانت هناك تعليمات أخرى بشأن معنى الصليب الصوفي.

"أما أنتم يا إخوتي، الذين لكم الحق في السمع، فأنصتوا إليّ بقلوبكم، وافهموا الفداء الصوفي للصليب. ما يجب أن يُكشف لكم الآن – السر الخفي لكل طبيعة والينبوع السري لكل شيء مُركّب. أما الإنسان الأول، الذي أمثل عرقه من خلال وضعي، ورأسه معكوس، فيرمز إلى ولادته في الدمار؛ لأن ولادته كانت موتاً وافتقرت إلى مجرى الحياة. لكن من رحمته الخاصة، نزلت القوة العليا إلى العالم، بواسطة المادة الجسدية، إلى من أُلقي إلى الأرض بموجب حكم عادل، وعُلّق على الصليب، وبواسطة هذه

ص. 448

الدعوة المقدسة [الصليب]، أعادنا وجعل لنا هذه الأشياء الحاضرة (التي ظلت حتى ذلك الحين دون تغيير بسبب ضلال البشر) إلى اليسار، وتلك التي اعتبرها البشر يسارًا إلى أشياء أبدية. في رفعة الحق غيّر كل الآيات إلى طبيعتها الصحيحة، معتبراً من ظنوه غير صالح، ومن ظنوه شراً ألطف. ومن هنا قال الرب في سرّ: "إن لم تجعلوا اليمين كاليسار، واليسار كاليمين، والأعلى كالأسفل، والأمام كالخلف، فلن تعرفوا ملكوت الله". هذا القول قد أظهرته في نفسي يا إخوتي؛ هكذا تنظر إليّ عيونكم البشرية معلقة. إنه يوضح مسار الإنسان الأول.

"أما أنتم أيها الأحباء، فاسمعوا هذه الكلمات، وبتغيير طبيعتكم وسلوككم، أكملتموها، كما رجعتم عن طريق الضلال الذي سلكتموه، إلى حالة الإيمان الأكيدة، فاستمروا في السعي والاجتهاد نحو سلام ما يدعوكم من فوق، وعيشوا حياة القداسة. لذلك فإن الطريق الذي تسلكونه هناك هو المسيح. لذلك، مع يسوع المسيح، الإله الحق، صعد الصليب؛ لقد جُعل لنا الكلمة الواحدة والوحيدة. ومن أين يقول الروح أيضاً: "المسيح هو كلمة الله وصوته". إن كلمة الله في الحقيقة ترمز إليها تلك الساق المستقيمة التي أعلق عليها. [أما بالنسبة للصوت -] بما أن هذا الصوت شيء من لحم ودم، وله سمات لا يمكن نسبها إلى طبيعة الله، فإن قطعة الصليب يُعتقد أنها ترمز إلى تلك الطبيعة البشرية التي عانت من خطأ التغيير في الإنسان الأول، ولكن

ص 449

بمعونة الله والإنسان، استعادت عقلها الحقيقي. في المنتصف تماماً، حيث يلتقي الاثنان في واحد، يُرسى مسمار الانضباط والتحول والتوبة."

إن الترجمة اللاتينية معيبة للغاية وغالباً ما تحجب الأصل اليوناني، ولكن تم الحفاظ على قدر كافٍ من المعنى لإظهار الاتجاه العام للفكرة. الاقتباس الأول هو أحد أقوال الإنجيل وفقًا للمصريين ؛ مصدر الثاني غير معروف. قارن أيضًا تغيير اليمين واليسار مع تحويل الكرات في الصفحات الأولى من رسالة بيستيس صوفيا .

يمكن الاستشهاد بخطابات أخرى وعبارات معزولة لا تعد ولا تحصى، والتي لا تزال تحتفظ بآثار الغنوصية، خاتمة. من البقايا الموجودة من الأعمال غير القانونية، ولكن كُتب ما يكفي لإعطاء القارئ فكرة عن الأدب الشعبي الواسع من هذا النوع الذي انبثق من الدوائر الغنوصية في السنوات الأولى، ولإظهار أن أفكارًا مختلفة تمامًا سادت بين أولئك الذين كانوا على اتصال بالتقاليد الداخلية، عن تلك النظرة التاريخية البحتة التي اكتسبت في النهاية اليد العليا.

سواء أكانت هذه الأفكار تلقي الضوء على تعاليم المسيح أم لا، فعلى كل شخص أن يقرر بنفسه. لكن من الواضح تماماً أن هذه الأفكار طرحها رجال أقرب بكثير إلى زمن الأصول منا - رجال كرسوا حياتهم كلها للمسيح، ساعين بكل الوسائل لتطهير أنفسهم، واختبار حقائق العالم غير المرئي في أنفسهم، وتحقيق تعاليم المعلم.

ص. 450 ص. 451

FERMENTATIO.



Hye wird Sol aber verſchloſſen
Vnd mit Mercurio philoſophorum vbergoſſen:

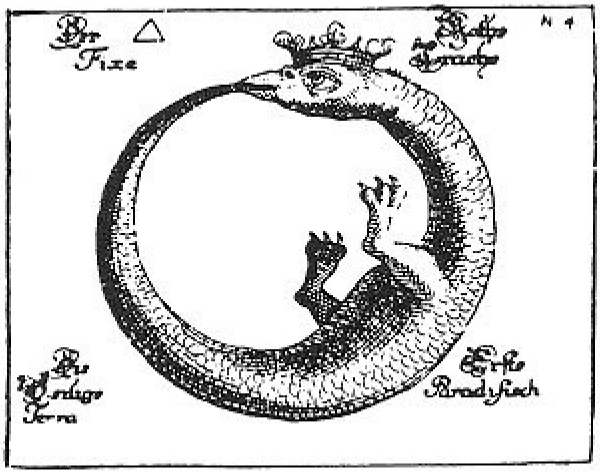
الغنوص حسب أصدقائه

ص. 452

نور أبدي! لا أطلب ثروة ولا تكريمًا؛ فقط أنرني بشعاع النور الإلهي!

من مقال عن الهجرة في الدفاع عن فيثاغورس (لندن، 1692).

ص 453



بعض الأعمال اليونانية الأصلية مترجمة إلى اللغة القبطية

مخطوطات أسكيو وبروس.

لقد سعينا حتى الآن إلى استعادة بعض شظايا الحطام والنفايات من حطام الغنوصية البائس، الذي صنعته أيدي أشد أعدائها ضراوة، آباء الكنيسة الأرثوذكس؛ وسنحاول الآن أن نعطي القارئ فكرة عامة عن محتويات بعض الرسائل الغنوصية، التي حُفظت لنا في ترجمة قبطية على أيدي أصدقائها.

علينا أن نأخذ في الاعتبار محتويات ثلاث وثائق ثمينة تُعرف باسم مخطوطات أسكيو وبروس وأخميم، والتي لم يتم اكتشاف الأخيرة منها إلا في عام 1896. سنؤجل الحديث عن مخطوطة أخميم إلى وقت لاحق، حيث لا يُعرف عنها إلا القليل حتى الآن، وبالتالي سنولي اهتمامنا الفوري لمخطوطتي أسكيو وبروس.

تم شراء مخطوطة أسكيو من قبل المتحف البريطاني من ورثة الدكتور أسكيو في مخطوطة أسكيو. نهاية القرن الماضي (على الأرجح قبل عام 1785 بقليل). المخطوطة مكتوبة على رق بالخط اليوناني الكبير، باللهجة المصرية العليا،

ص. 454

وليست على شكل لفافة بل على شكل كتاب. يتكون من 346 صفحة من القطع الرباعي، وهو في حالة حفظ ممتازة في معظمه؛ عدد قليل من الأوراق فقط مفقودة. المخطوطة هي نسخة وليست أصلاً؛ والأصل كان ترجمة من اليونانية. يتألف المحتوى العام من رسالة أطلق عليها العرف اسم "بيستيس صوفيا"، وذلك بسبب عنوان في منتصف السرد العام، أضافه شخص آخر. لا تحتوي الرسالة على عنوان أو توقيع، وعلى الرغم من وجود حادثة طويلة فيها تتناول آلام وفداء صوفيا، إلا أنه يمكن تسمية أجزاء أخرى بنفس الطول، أسئلة مريم كما اقترح هارناك، والمادة قبل ذلك بوقت طويل. يحتوي المخطوط أيضًا على ملحق قصير وملحق مطول بعنوان مقتطفات من كتب المخلص. للحصول على وصف إضافي، يجب أن أحيل القارئ إلى مقدمة ترجمتي.

مخطوطة بروس تم جلب مخطوطة بروس إلى إنجلترا من صعيد مصر عام 1769 على يد الرحالة الاسكتلندي الشهير بروس، وأوصى بها إلى مكتبة بودليان،

أوكسفورد. وهي مكتوبة على ورق البردي، بأحرف يونانية متصلة، باللهجة المصرية العليا، وتتكون من ثمانية وسبعين ورقة، على شكل كتاب. أوراقها في حالة يرثى لها من الفوضى والتدهور، والعديد منها مفقود. يكشف الفحص العلمي للمخطوطة أنها تتكون من مخطوطتين متميزتين، تحتويان على بقايا عملين غنوصيين متميزين على الأقل وبعض الشظايا. تحتوي المخطوطة الأفضل، المصنوعة من مواد أفضل وبخط أدق، على رسالة ذات قيمة عظيمة، ولكن بدون عنوان،

ص. 455

حيث فُقدت الصفحتان الأولى والأخيرة. تحتوي المخطوطة الأخرى على أجزاء من كتابين منفصلين على الأقل، وتحتفظ بعنوان "كتاب الكلمة العظيمة وفقًا للسر". يعتبر شميدت هذا العنوان العام، ويتألف من جزأين يسميهما على التوالي الكتاب الأول والكتاب الثاني من إيو.

إن محتويات هذه الرسائل ذات طبيعة رائعة ومعقدة لدرجة أنني أعجز الترجمات. عن إعطاء القارئ العادي أي تصور كافٍ عنها. ومع ذلك، قد يتمكن الطالب من تكوين فكرة ما عن المهمة من خلال قراءة ترجمتي لرسالة بيستيس صوفيا ومقتطفات من كتب المخلص؛ ولكن حتى هذا لن يمنحه تصورًا كافيًا عن مدى تعقيد محتويات مخطوطة بروسيانوس، والتي للأسف لا توجد لها ترجمة إنجليزية حتى الآن.

في عام 1891 نشر أميلينو نصًا وترجمة فرنسية لمخطوطة بروس مع مقدمة موجزة؛ لكن نصه كان مبنيًا على نسخة وايد من المخطوطة التي تم إعدادها قبل قرن من الزمان، ولم يكن لدى العالم الفرنسي أي فكرة أنه كان يتعامل مع مخطوطتين مختلفتين، كانت أوراقهما مختلطة في فوضى لا يمكن فكها.

في عام 1892 قام الدكتور كارل شميدت، بصبر مثير للإعجاب، بمقارنة نسخ المخطوطة التي صنعها شوارتز وويد مع الأصل الموجود في أكسفورد، وببراعة واجتهاد أكبر قام بفصل المخطوطتين ووضع أوراقهما بالترتيب، ونشر نصًا نقديًا مع ترجمة ألمانية وتعليق ضخم.

فيما يلي ملخص، فيما يتعلق بمخطوط

ص. 456

صعوبة الموضوع. بروسيانوس، سأعتمد ترجمة شميدت لا ترجمة أميلينو. شميدت هو بلا شك المرجع الأجدر في هذا المجال، ولا يوجد ثناءٌ كافٍ يُوفي هذا العالِم القبطي المتميز حقه من الثناء على صبره الدؤوب. لدي ترجمة تقريبية لكامل عمل شميدت الضخم، ولم أدخر جهداً في التعرف على جهوده؛ ولكن حتى مع مساعدته، ما زلت أشعر بأنني مبتدئ جداً في الغنوصية التي كشفت عنها هذه الرسائل. فعلى الرغم من أن شميدت يلقي الضوء على العديد من النقاط، إلا أن هناك مشاكل لا حصر لها لا تزال دون حل؛ في الواقع، مع كل ما لديه من علم جدير بالإعجاب وبحث لا نهاية له، إلا أنه محتار تمامًا بشأن تلك النقاط بالذات التي يبدو أنها كانت ذات أهمية قصوى لمؤلفي أو جامعي هذه الوثائق الغنوصية.

عندما نشرتُ ترجمةً لكتاب "بيستيس صوفيا" عام 1896، كنتُ أنوي أن أتبعها بتعليق؛ لكنني سرعان ما وجدتُ أنه على الرغم من سنوات العمل التي كرستها بالفعل للغنوصية، لا تزال هناك سنوات عديدة من العمل أمامي، قبل أن أقتنع بأنني مؤهل لمحاولة القيام بهذه المهمة بطريقة مرضية حقًا؛

لذلك فقد أجلتُ هذه المهمة إلى المستقبل. في هذه الأثناء، لا تحاول هذه الرسومات الموجزة الحالية سوى تقديم ملخص مبدئي للغاية، حتى يتمكن القارئ العادي من الحصول على فكرة عن محتويات رسائلنا القبطية الغنوصية؛ عذري الوحيد لكسر الصمت هو أنه لا يوجد شيء على الإطلاق باللغة الإنجليزية حتى الآن حول محتويات مخطوطة بروس.

ص. 457

سنحاول أولاً وقبل كل شيء تقديم ملخص لمحتويات ما يسمى برسالة بيستيس صوفيا؛ برنامج. ثم ملخص للمقتطفات من كتب المخلص، المدرجة في هذه الرسالة واللاحقة لها في مخطوطة أسكيو. وسيتبع ذلك ملخص للأجزاء الموجودة في المخطوطة السفلية لمخطوطة بروس. ومع ذلك، سأغامر بتغيير الترتيب الرئيسي لشميدت، ووضع ما يسميه الكتاب الثاني من إيو قبل ما يسميه الكتاب الأول، لأن المواضيع العامة لمجموعته الأولى من الشظايا تبدو لي وكأنها تتبع مواضيع مجموعته الثانية، وليس العكس. صحيح تمامًا أن بداية قسمه الثاني تبدأ على ظهر ورقة البردي، التي يحتوي وجهها على نهاية الورقة الأخرى؛ لكن هذا لا يؤكد لنا سوى الموضع الصحيح لجزأين متجاورين. إن ترتيب الأجزاء الأخرى العديدة دائماً في تسلسلها الصحيح ليس أمراً مؤكداً تماماً، على الرغم من أنني أعترف بصراحة أنني حتى الآن لا أرى ترتيباً أكثر إرضاءً للفوضى بنفسي.

يبدو من المحتمل للغاية أن يكون لدينا بين هذه الشظايا جزء من المحتويات الأصلية لكتب إيو المذكورة في بيستيس صوفيا، ولكن ليس من المؤكد أن ننسب شظايانا بشكل قاطع إلى الكتابين الأول والثاني. وبالتالي، فإن العمل بأكمله سيُصنف في ملخصنا تحت العنوان العام، كتاب الكلمة العظيمة وفقًا للسر، دون مزيد من التمييز، بما في ذلك المادة التمهيدية وكذلك الأوراق المحاطة بإطار، والتي يضيفها شميدت كملحق. لكن يجب أن يُفهم أن هذا

ص. 458

ترتيب مؤقت. قد يكون هناك العديد من الرسائل التي ينبغي أن تُنسب إليها أجزاء المخطوطة الأدنى من مخطوطة بروس، وذلك لأي شيء نعرفه خلاف ذلك.

وسيتبع ذلك أجزاء من الرسالة غير المعنونة الموجودة في المخطوطة الأفضل.

إن الغرض الذي وجهني في هذا الترتيب العام هو، قدر الإمكان، وضع محتويات هذه الترجمات القبطية بشكل تقريبي في تسلسل يسمح للقارئ بالانتقال من الدرجات الأدنى إلى الدرجات الأعلى من الغنوص. أنا أدرك تماماً أن الأسرار العليا (أماكن الميراث الثلاثة) يتم الحديث عنها وشرحها في رسالة بيستيس صوفيا أكثر من بقية الموضوع، لكنها لا يتم الكشف عنها. في كتاب الكلمة العظيمة وفي مقتطفات من كتب المخلص، يتم الكشف عن بعض الأسرار، ويتم جعل التلاميذ يرونها وجهاً لوجه. لذلك أضع ملخص كتاب بيستيس أولاً، على الرغم من أنه ربما تم تأليفه في النهاية.

ص 459

ملخص محتويات ما يسمى برسالة بيستيس صوفيا.

تبدأ الرسالة بإخبارنا أن يسوع، بعد قيامته من بين الأموات، أمضى إحدى عشرة سنة تعليم السنوات الإحدى عشرة. مع تلاميذه، يعلمهم. لكن حتى الآن، لم يعلمهم أسرار العالم الداخلي إلا إلى حد معين، ويبدو أنه لم يعلمهم إلا إلى أقصى عوالم عالم النور، ومع ذلك فقد أغفل العديد من النقاط التي لم يكونوا قادرين على فهمها بعد. لكن التعليم الذي تم تقديمه كان رائعًا لدرجة أن التلاميذ تخيلوا أن كل شيء قد تم الكشف عنه لهم، وأن السر الأول - الأب في صورة حمامة - كان نهاية كل النهايات وغنوص كل الغنوص. لم يكونوا يعلمون أن هذا السر الأول كان الأدنى في سلسلة واسعة من الأسرار الأعلى.

وهكذا، في السنة الثانية عشرة، اجتمع التلاميذ مع المعلم التجلي والصعود الصوفي في السنة الثانية عشرة. على جبل الزيتون، مبتهجين لأنهم، كما ظنوا، قد نالوا كل الكمال. كان ذلك اليوم الخامس عشر من شهر تايبي، يوم اكتمال القمر. كان يسوع جالساً بمفرده، وعندما رأوا عند شروق الشمس سيلاً عظيماً من النور يتدفق فوقه، حتى اختفى عن الأنظار في الإشعاع الذي لا يوصف والذي امتد من الأرض إلى السماء. لم يكن النور إشعاعًا واحدًا، بل كانت أشعته من كل نوع وصنف؛ وفيه حلق المعلم عاليًا في السماء، تاركًا التلاميذ في خوف

ص 460

وارتباك شديدين وهم ينظرون إليه في صمت. من الساعة الثالثة من اليوم الخامس عشر حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي (ثلاثين ساعة) كان المعلم غائباً؛ وخلال هذا الوقت كان هناك اهتزاز في جميع المناطق واضطراب وخوف كبيران، بينما خرجت أناشيد الحمد من أعماق الأماكن الداخلية.

يعود المعلم إلى تلاميذه. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، رأوا يسوع ينزل في نور لا متناهي، أكثر إشراقًا بكثير مما كان عليه عندما صعد؛ كان النور الآن من ثلاث درجات، مجد يفوق المجد. انتاب التلاميذ الذهول والخوف الشديد، لكن يسوع، الرحيم الرؤوف، خاطبهم قائلاً: "تشجعوا، أنا هو؛ لا تخافوا". عند صلاتهم، سحب يسوع نوره العظيم إلى داخله، وظهر في هيئته المألوفة مرة أخرى، فجاء التلاميذ ليسجدوا له، وسألوه قائلين: "يا معلم، أين كنت؟ أو في أي خدمة كنت تعمل؟ أو لماذا كل هذه الاضطرابات والاهتزازات؟

يأمرهم المعلم، وهو يتحدث الآن بصفته المسيح الممجد، أن يفرحوا، لأنه سيخبرهم الآن بكل شيء "من بداية الحق إلى نهايته"، وجهاً لوجه، دون مثل، لأن السلطة قد مُنحت له الآن من خلال السر الأول ليكشف لهم هذه الأشياء.

من التجسد الصوفي للاثنا عشر. ولهذا السبب فقد ارتدى مرة أخرى رداء النور، رداء المجد؛ الذي تركه مع السر الأول، في أدنى فضاءات عالم النور العلوي. لقد تلقاه لكي يكلم البشر ويكشف لهم كل الأسرار، ولكن

ص 461

أولاً وقبل كل شيء للاثني عشر. لأن الاثني عشر هم رتبته، الذين اختارهم منذ البدء، قبل أن يأتي إلى العالم. لقد اختار اثنتي عشرة قوة، وتلقاها من أيدي المنقذين الاثني عشر لكنز النور، وعندما نزل إلى العالم ألقى بها، كشرارات نور، في أرحام أمهاتهم، حتى

يتم إنقاذ العالم بأسره من خلالهم. وبسبب هذه القوى فإنهم ليسوا من العالم، لأن القوة التي فيهم منه، جزء من ذاته.

وكذلك كانت إحدى قدراته الأخرى في يوحنا المعمدان بالماء لغفران الخطايا؛ ليس أن نفس إلياس تولد في المعمداني. هذا فحسب، بل كانت نفس يوحنا نفس إيليا التي ولدت فيه من جديد. وقد شرح هذه الأمور من قبل، عندما قال: "إن أردتم أن تقبلوا، فإن يوحنا المعمدان هو إيليا الذي قلت إنه سيأتي"؛ لكنهم لم يفهموا.

وفي مريم، أمه، غرس أيضاً قوة أعلى من كل شيء، "الجسد الذي حملته عن تجسيده الخاص. في العلاء"، وقوة أخرى بدلاً من النفس، وهكذا ولد يسوع. لقد كان هو نفسه الذي راقب ولادة تلاميذه، حتى لا توجد فيهم نفس حكام العالم، بل نفس ذات طبيعة أسمى.

وتابع المعلم حديثه وقال لهم: "ها أنا قد ارتديت ثوبي، و بخصوص رداء المجد. قد أعطيت لي كل السلطة من خلال السر الأول". وبعد قليل سأخبركم بسر البليروما وبليروما البليروما؛ لن أخفي عنكم شيئاً من هذه الساعة، بل سأكملكم في كل البليروما، وفي كل كمال، وفي كل سر؛ وهذه الأشياء،

ص 462

في الواقع، هي كمال كل الكمالات، وبليروما كل البليرومات، وغنوص كل الغنوص، التي هي في ثوبي. سأخبركم بكل الأسرار، من خارج الظاهر إلى داخل الباطن. اسمعوا، سأخبركم بكل ما حدث لي.

"وحدث عندما أشرقت الشمس في مناطق الشرق أن سيلًا عظيمًا من النور نزل فيه ثوبي، وهو نفسه الذي كنت قد وضعته في السر الرابع والعشرين، كما قلت لكم." ووجدت سراً في ثوبي، مكتوباً بهذه الكلمات الخمس التي تتعلق بالارتفاع: زاما، زاما، أوزا، راخاما، أوزاي. وهذا هو تفسير ذلك:

"السر الذي يتجاوز العالم، والذي توجد به كل الأشياء: إنه كل تطور وكل انطواء؛ لقد أسقط كل الانبثاقات وكل الأشياء فيه. بسببه توجد كل الأسرار وكل مناطقه.

ثم يتلو المعلم ترنيمة الحمد والترحيب التي أنشدتها القوى في حفل تنصيبه في اليوم العظيم، ترنيمة الترحيب "تعال إلينا". "تعال إلينا" - يوم هذا التكريس الأسمى، عندما تجتمع جميع أعضائه معًا. "تعال إلينا، فنحن أعضاءك (أو أطرافك)". كلنا واحد معك. نحن واحد، وأنت واحد. هذا هو السر الأول، الذي كان موجوداً منذ البداية في الذي لا يوصف، قبل أن يأتي؛ واسمه هو كلنا. لذلك، نعيش جميعاً معاً من أجلك عند الحد الأخير، وهو أيضاً السر الأخير من الداخل. هذا أيضاً جزء منا. لذلك، أرسلنا إليك ثوبك،

ص 463

الذي هو لك منذ البداية، والذي تركته في النهاية، وهو أيضاً السر الأخير من الباطن، إلى أن يتم وقته، وفقاً لأمر السر الأول. ها قد حان وقته، أسلمه إليك.

"تعال إلينا، فنحن جميعًا نقف بالقرب منك لنلبسك السر الأول وكل مجده، بأمر منه، حيث أعطانا السر الأول ثوبين لنلبسك إياهما، بالإضافة إلى الثوب الذي أرسلناه إليك، لأنك أنت أهل لهما، وأنت سابق لنا، وقد وُجدت قبلنا. ولهذا السبب، أرسل السر الأول إليك من خلالنا سر مجده، رداءين."

ويستمر النشيد في شرح كيف أن الرداء الأول يحوي كل مجد جميع أسماء أردية النور الثلاثة. جميع أسرار جميع مراتب فضاءات ما لا يوصف؛ وأن الرداء الثاني يحتوي على كل مجد جميع الأسماء أو القوى لجميع الأسرار أو الانبثاقات لمراتب الفضاءات التوأم للسر الأول؛ وأن الرداء الثالث يحتوي على كل مجد قوى انبثاقات جميع الفضاءات والفضاءات الفرعية أسفل هذه العوالم العلوية حتى الأرض. ثم تستمر الترنيمة:

"ها نحن قد أرسلنا إليك هذا الرداء [الثالث]، دون أن يعلم به أحد [من القوى] من النظام الأول فصاعدًا؛ لأن مجد نوره كان مخفيًا فيه [النظام الأول]، ولم تعلم به المجالات بجميع مناطقها من النظام الأول فصاعدًا. أسرع إذن،

وارتدِ هذا الرداء. تعال إلينا؛ إلى الأبد، حتى يتم الوقت الذي حدده الذي لا يوصف، كنا في حاجة إليك، لنلبسك الرداءين [المتبقيين]، بأمر من السر الأول. إذن، فقد حان الوقت. تعال إلينا إذن سريعاً، حتى نلبسك، إلى أن تكمل خدمة كمال السر الأول، الخدمة التي عينها لك الذي لا يوصف. تعال إلينا إذن سريعاً، حتى نلبسك، وفقاً لوصية السر الأول؛ لأنه بعد قليل، بعد قليل جداً، ستأتي إلينا، وتترك العالم. تعال إذن سريعاً، لكي تنال المجد كله، مجد السر الأول.

الرحلة إلى العلو. وعند سماع ترنيمة القوى، قال المعلم: ارتدى أدنى رداء من المجد، وتحول إلى نور خالص، وصعد إلى الأعلى ووصل إلى السماء السفلى. وشعرت جميع قوى تلك السماء باضطراب شديد بسبب النور المتعالي؛ وعندما رأوا سر أسمائهم أو قواهم المنقوشة فيه، تركوا صفوفهم، وسجدوا وعبدوا قائلين: "كيف غيّرنا رب البليروما دون علمنا!" وأنشدوا جميعاً معاً في داخل الغرف الداخلية ترنيمة تسبيح بتناغم.

وهكذا صعد إلى أعلى وإلى الداخل إلى الكرة الأولى فوق السماء، متألقاً بإشعاع أعظم بأربعين وتسعة وأربعين مرة مما كان عليه من قبل، وفُتحت الأبواب ودخل قصور

الكرة (المجال)، وتغيرت القوى وسُجدت، وأنشدت ترانيم الفرح كما في السابق.

ومن ثم صعد إلى الداخل وانتقل إلى المجال الثاني، متألقًا بضوء أشد بتسع وأربعين مرة، وفعلت قوى ذلك المجال ما فعلته القوى التي تحتها، وانحنت وسجدت وأنشدت الترانيم لباطن الباطن.

وما زال يواصل رحلته المنتصرة، فقد حلق أعلى في الداخل، إلى فضاء الأيونات الاثني عشر، متألقاً بإشعاع زاد تسعة وأربعين مرة أخرى. وقد اندهشت جميع الرتب والحكام في الفضاء الأيوني. أولئك الذين يُطلق عليهم اسم الطغاة، بقيادة قائدهم العظيم أداماس، حاربوا النور في جهل؛ ولكن عبثاً، لأنهم استنفدوا قوتهم فقط في قتال بعضهم البعض، وسقطوا وأصبحوا "كسكان الأرض الذين ماتوا وليس فيهم نَفَس" - أي محرومين من شرارة النور، مثل الجاهلين من بين البشر.

وأخذ منهم ثلث قوتهم، حتى لا يغلبوا بعد في أعمالهم الشريرة؛ المعلم سسلب من الأيونات ثلث نورها. حتى إذا استعان بهم الناس للشر في الممارسات السحرية التي أنزلها الملائكة المتعدون من فوق، فلن يكونوا قادرين على العمل بإرادتهم كما كان من قبل.

وهكذا قام بتغيير مجال القدر الذي هم أسياده. لأنه بأمر من النظام الأساسي الأول والسر الأول، تم وضعهم، بواسطة إيو، المشرف على النور، جميعهم يواجهون اليسار، محققين تأثيراتهم. لكن تم تغييرهم الآن بحيث يواجهون اليسار لمدة ستة أشهر واليمين لمدة ستة أشهر أخرى.

ص 466

أسئلة مريم. بعد ذلك، وبعد أن دعا المعلم إلى طرح الأسئلة وتفسيرات الأسرار التي كشف عنها، تقدمت مريم المجدلية، التي تم تصويرها طوال الوقت على أنها الأكثر روحانية بين جميع التلاميذ، وبعد أن مُنحت الإذن بالكلام، قامت بتفسير مقطع من سفر إشعياء في ضوء التعليم الجديد. يبدأ المقطع بالكلمات: "أين يا مصر، أين عرافوك ومقررو الساعة؟" - ومن بين أمور أخرى، يقال إن مصر تعني "المادة غير الفعالة *(hylē-هيلي)"*.

أُثني على مريم لبديهيتها، وفي ردها على المزيد من الأسئلة، أوضح المعلم أن كل قوتهم لم تُسلب من هؤلاء الحكام للقدر، بواسطة الرداء الثالث للمجد، بل ثلثها فقط؛ لذلك إذا صادف أن رتبوا الساعة القدر أو الكرة الأرضية تنحرف إلى اليسار، فسوف يقولون ما سيحدث؛ ولكن إذا صادفوا أنها تنحرف إلى اليمين فلن يتمكنوا من التنبؤ، لأنه قد غير جميع التأثيرات. لكن أولئك الذين يعرفون أسرار سحر الأيون الثالث عشر سينجزونها على أكمل وجه، لأنه لم يسلب القوة في ذلك الفضاء، وفقًا لأمر السر الأول.

لماذا سُلب الحكام؟ في رد على سؤال من فيليب، تم توضيح أن هذا التحويل للمجالات قد تم للمساعدة في خلاص النفوس؛ وإلا لكان عدد النفوس الكاملة قد حُرم من تحقيق ذلك، أي أولئك الذين سيُحسبون في ميراث العلو، عن طريق الأسرار، وسيسكنون في كنز النور. تكمن قوة الحكام في مادة

ص 467

العالم التي يحولونها إلى نفوس. وبانتصار المعلم، تم أخذ ثلث هذه القوة منهم، وتحويلها إلى جوهر أعلى.

ورداً على أسئلة مريم الإضافية، تم شرح كيفية سلب هذا الجزء الثالث من سلطتهم. لطالما كان الأمر كذلك، حيث يتم جمع قوتهم، بمجرد تنقيتها، إلى العالم الأعلى بواسطة ملكي صادق، المتلقي العظيم أو جامع النور، حيث يتم تحريرها باستمرار من خلال جعل الكرات تدور بشكل أسرع، أي من خلال تسريع التطور بسبب تدفق النور. تم وصف جوهر الحكام بشكل بياني بأنه "أنفاس أفواههم، ودموع عيونهم، وعرق أجسادهم" - المادة التي تتكون منها النفوس.

ولكن مع سلب سلطتهم تدريجياً، بدأت مملكتهم في التفكك؛ لذلك بدأ الحكام في التهام مادتهم الخاصة، حتى لا تتحول إلى نفوس بشرية وبالتالي يتم تطهيرها، وسعوا بكل طريقة ممكنة لتأخير اكتمال عدد النفوس الكاملة - تاج التطور. وهكذا حدث أنهم حاربوا ضد نَفْس المعلم العظيم وهو يمر من خلالهم، فقام بتغييرهم وتغيير تكويناتهم وتأثيراتهم، "ومنذ تلك الساعة لم يعد لديهم القدرة على التوجه نحو تطهير مادتهم ليلتهموها".

"لقد نزعت ثلث قوتهم؛ وغيرت مسارهم؛ وقصرت دوائرهم، وجعلت طريقهم منيرًا،

ص. 468

فاستعجلوا بشدة، وألقوا في حيرة في طريقهم؛ ومنذ تلك الساعة لم يعد لديهم القدرة على التهام مادة تطهير بريق نورهم."

تقصير الأزمنة. وهكذا قام بتقصير أزمنتهم وعجّل بالتطور. "لهذا السبب قلت لكم من قبل: لقد قصرت الأوقات بسبب مختاري." إن "المختارين" (الروحانيين) هم العدد الكامل من النفوس التي ستتلقى الأسرار؛ في الواقع، لو لم يتم تقصير الأوقات، "لما كانت هناك نفس مادية واحدة (هايليك) قد نجت، بل كانوا سيهلكون في النار التي في جسد الحكام".

استمرت الرحلة السماوية. بعد هذه التوضيحات، يواصل المعلم سرد رحلته إلى السماء. جميع القوى العظمى في الفضاءات الأيونية، عندما رأوا ما حدث لطغاتهم، عبدوا وأنشدوا الترانيم لباطن الباطن. وهكذا انتقل إلى الداخل إلى حجب الأيون الثالث عشر. هنا، خارج هذا الفضاء، وجد بيستيس صوفيا جالسة بمفردها، تنوح وتحزن لأنها لم تُدخل إلى الأيون الثالث عشر، منطقتها المناسبة في الأعالي. كانت تعاني من الحزن بسبب المعاناة التي سببها لها المتغطرس، أحد القوى الثلاثية الثلاث. لكن عندما رأت رداء النور المتألق للمعلم، الذي يحتوي على كل مجد سرها، سر الأيون الثالث عشر، بدأت تغني أغنية للنور الموجود في الأعالي، والذي رأته في حجاب كنز النور. وبينما كانت تغني، انفرجت حجابات الأيون الثالث عشر، وانكشف اقترانها، وانبثاقاتها المئتين والعشرين

p. 469

داخل الأيون، يشكلون معًا أربعة وعشرين انبثاقًا انبثقت من الجد الأكبر الخفي والقوتين الثلاثيتين العظيمتين الأخريين لذلك الفضاء، نظروا إلى نور ردائه.

فيما يلي القصة الصوفية لمعاناة بيستيس صوفيا. في البداية كانت أسطورة بيستيس صوفيا. في الأيون الثالث عشر مع رفاقها من الأيونات. بأمر من السر الأول، حدقت في العلو ورأت نور حجاب كنز النور، ورغبت في الصعود إلى ذلك العالم المجيد، لكنها لم تستطع. لقد توقفت عن القيام بسر الأيون الثالث عشر، وأصبحت تغني الترانيم للنور الذي رأته.

عندها كرهها الحكام في الأيونات الاثني عشر السفلى، لأنها توقفت عن القيام بسرهم - سر الجماع أو الاتحاد الجنسي - ورغبت في الصعود إلى العلو وأن تكون فوقهم جميعًا.

أما المتغطرس، العاصي، ذلك الواحد من القوى الثلاثية الثلاثة في الأيون الثالث عشر الذي عداوة المتغطرسين. رفض إعطاء نقاء نوره لمنفعة الآخرين، ولكنه رغب في الاحتفاظ به لنفسه وبالتالي أن يكون حاكم الأيون الثالث عشر، فقد قاد الهجوم ضدها. يبدو أن القوة المحافظة لـ "مادة" هذا الفضاء تتسم بالغطرسة. انضم إلى عدد الأيونات الاثني عشر وحارب ضد صوفيا. أرسل قوة عظيمة من نوره وقوى أخرى من مادته، انعكاسات القوى والإشعاعات العليا، إلى الفوضى؛ وجعل صوفيا تنظر إلى الأسفل نحو العوالم السفلى، لكي ترى هذه القوة وتتخيلها

ص. 470

كان ذلك هو النور الحقيقي الذي كانت تطمح إليه. وهكذا نزلت إلى المادة في جهلها، قائلة: "سأذهب إلى تلك المنطقة، بدون قريني، لأخذ النور الذي أنتجته لي إيونات النور، حتى أتمكن من الذهاب إلى نور الأنوار، الذي هو في أعلى المرتفعات".

السقوط في المادة. وهكذا، وهي تفكر، خرجت من الأيون الثالث عشر ونزلت إلى الأيون الثاني عشر؛ لكنهم لاحقوها، وهكذا نزلت تدريجياً إلى مناطق الفوضى، واقتربت من قوة النور التي أرسلها المتغطرس إلى الأسفل، لتلتهمها. لكن كل الانبثاقات المادية لـ "المتغطرسة" أحاطت بها، وبدأت قوة نور "المتغطرسة" في التهام كل قوى النور في "الصوفيا"؛ "طردت نورها وابتلعته، أما مادتها فقد ألقوها في الفوضى". إن قوة النور هذه لـ المتغطرس هي إيالداباوث "التي"، كما يقول المعلم، "تحدثت إليكم عنها مرات عديدة".

وهكذا ضعفت صوفيا بشدة وأحاطت بها المحنة، وصرخت بشدة، وصرخت في العلى إلى نور الأنوار الذي رأته في البداية، والذي وثقت به [ومن هنا سميت صوفيا (الإيمان)]، وبدأت تغني أناشيد التوبة، والتي من خلالها قد تهتدي أو تعود إلى النور.

تشغل حادثة بيستيس صوفيا المطولة الصفحات من 42 إلى 181 من الترجمة القبطية، وتُعد توباتها الثلاثة عشر وأناشيدها بالثناء تفسيراً صوفياً لعدد من مزامير مجموعة الهيكل الثاني وخمسة من أناشيد سليمان.

للوصول إلى معرفة النور،

ص. 471

يجب على النفس البشرية (كما كانت نفس العالم من قبلها) أن تنزل إلى المادة *(hylē)*. ومن ثم فإن صوفيا، التي ترغب نزول النفس. النور، تنزل نحو انعكاسه، من الأيون الثالث عشر، عبر الأيون الثاني عشر، إلى أعماق الفوضى أو اللانظام، حيث تبدو في خطر فقدان كل نورها أو روحها الفطرية تمامًا، إذ تُحرم منه باستمرار بواسطة قوى المادة. بعد أن هبطت إلى أدنى أعماق الفوضى، وصلت في النهاية إلى الحد الأقصى، وبدأ مسار رحلتها يصعد بها إلى الروح مرة أخرى. وهكذا تصل إلى نقطة التوازن الوسطى، وما زالت تتوق إلى النور، وتدور حول نقطة تحول مسارها الدوري، وتغير اتجاه فكرها أو عقلها أو طبيعتها، فتتلو أناشيد التوبة أو ترانيم الندم. عدوها الرئيسي هو النور الزائف - الذي يُفترض أنه الروح المزيفة التي سنسمع عنها لاحقًا - طبيعة الرغبة، والتي تساعدها أربعة وعشرون قوة مادية، انعكاسات الإسقاطات العلوية، أو قوى أو شركاء صوفيا، والنظر إلى الكل من دون ترتيبه في تسعة وأربعين.

تُلقي صوفيا أولاً سبع توبات. في المرحلة الرابعة من هذه المراحل، وهي نقطة تحول في دورة فرعية توبتها وفدائها. من رحلتها، تدعو ألا تُصرف صورة النور عنها، فقد حان الوقت الذي ينبغي فيه النظر إلى "أولئك الذين يتجهون في المناطق الأدنى" - "السر الذي أصبح رمزًا للجنس البشري".

في المرحلة السادسة يغفر النور ذنبها؛ أي أنها تركت منطقتها وسقطت في الفوضى. ربما يشير هذا إلى بزوغ وعي الأنا العليا في الشخصية

ص. 472

الدنيا. لكن حتى الآن لم يصدر الأمر من السر الأول لتحريرها تماماً من الفوضى. قد يشير هذا إلى الإشراق الأعلى الذي يتحقق عند الوصول إلى وعي النفس الحقيقية.

لذلك، في ختام توبتها السابعة، حيث تتوسل بأنها فعلت كل ذلك عن جهل، من خلال حبها للنور، يسوع، فإن اقترانها (بدون السر الأول) يرفعها إلى منطقة أقل تقييدًا في الفوضى، لكن صوفيا لا تزال لا تعرف من الذي فعل ذلك.

في المرحلة التاسعة فقط يقبل السر الأول توبتها جزئياً ويرسل يسوع في صورة النور لمساعدتها، حتى تتعرف عليه.

تُغنى الترانيم الأربع التالية بوعي للنور، وهي من طبيعة الشكر، وإعلان أن العدالة ستلحق قريباً بظالميها، بينما في الوقت نفسه تصلي أن يتم إنقاذها بالكامل من "ذنبها" - طبيعة الرغبة الدنيا.

درجات التطهير. بعد التوبة الثالثة عشرة، قام يسوع مرة أخرى، من تلقاء نفسه، ودون السر الأول، ببث قوة نور ساطعة من ذاته، وأرسلها لمساعدة صوفيا، لرفعها إلى أعلى في الفوضى، حتى يأتي الأمر بتحريرها

بالكامل. لذلك، يبدو أن هناك ثلاث درجات من التطهير من العناصر الفوضوية للطبيعة الدنيا.

يلي ذلك وصف لقوى النور، والتي يجب مقارنتها عن كثب بوصف أثواب المجد الثلاثة في الصفحات الافتتاحية من المخطوطة.

ص 473

ثم، بينما تتدفق صوفيا بترانيم الفرح، تصبح القوة "تاجًا على رأسها"، وتبدأ ميولها المادية التاج النوراني. (أو نزعاتها المادية) في التطهير تمامًا، بينما تتحد قوى النور الروحية التي نجحت في الاحتفاظ بها خلال صراعها الطويل مع رداء النور الجديد الذي نزل عليها.

ثم يتم تنفيذ القانون، ويرسل السر الأول بدوره قوة نور عظيمة أخرى، والتي انضمت إلى تلك التي انبعثت بالفعل من النور، وأصبحت تيارًا عظيمًا من النور. لم يكن هذا التيار سوى السر الأول نفسه ينظر إلى الخارج، وينبثق من السر الأول الذي ينظر إلى الداخل.

عندما يتم إنجاز كل هذا، يتم تطهير صوفيا بالكامل، وتعاد قواها النورانية وتمتلئ بنور جديد، من خلال شريكها النوراني، ذلك الاقتران الذي بدونه اعتقدت صوفيا في البداية أنها ستصل إلى نور الأنوار دون مساعدة، وبالتالي وقعت في الخطأ.

لكن لم ينته الأمر بعد؛ فالنصر النهائي لم يتحقق بعد. فكلما ارتفعت، ازدادت القوى أو الإسقاطات المرسلة ضدها قوة؛ وتشرع في تغيير أشكالها، بحيث يتعين عليها الآن أن تكافح ضد أعداء أكبر، ينبعثون ويوجهون بواسطة أدق قوى الكون.

وعندها لا تتوج صوفيا فحسب، بل تحيط بها تيارات النور بالكامل، وتدعمها النصر النهائي. من كل جانب ميكائيل وجبرائيل، "الشمس" و"القمر". ترفرف "أجنحة الطائر العظيم"، وتفرد "الكرة المجنحة"

ص 474

أجنحتها، استعداداً لطيرانها. وهكذا تبدأ المعركة الكبرى الأخيرة.

إن السر الأول الذي ينظر إلى الخارج يوجه هجومه ضد "القوى الماكرة القاسية، والأهواء المتجسدة"، ويجعل صوفيا تدوس تحت أقدام البَاسِلِيق ذي الرؤوس السبعة، وتدمر ماديتها *(hylē)*، "بحيث لا يمكن أن تنبت منه أي بذرة من الآن فصاعدًا"، وتطرح بقية الجيش المعارض أرضًا.

عندها تغني صوفيا أناشيد الثناء المنتصرة بمناسبة تحررها من قيود الفوضى. وهكذا تحررت وتذكرت.

ومع ذلك، فإن العظيم ذو الإرادة الذاتية وأداماس الطاغية لم يخضعا تمامًا بعد، لأن الأمر لم يأت بعد من السر الأول الذي ينظر إلى الداخل. لذلك فإن السر الأول ينظر دون ختم مناطقهم ومناطق حكامهم "حتى يتم إنجاز ثلاث مرات"، على الأرجح حتى نهاية الدورات أو العصور السبعة، والتي يقال إن الحاضر هو الرابع منها، عندما ينتقل العدد الكامل من البشر الذين يصلون إلى الكمال إلى النيرفانا بين الكواكب - لاستخدام مصطلح بوذي. لكن هذه النيرفانا هي حالة خارجة عن الزمان والمكان كما نعرفهما، وبالتالي يمكن

الوصول إليها الآن وفي الداخل من قبل رجال مقدسين للغاية يمكنهم بلوغ أعلى درجة من التأمل الروحي. حينها ستُفتح أبواب كنز النور العظيم، وسيعبر الحاج المرتفعات.

قصة طفولة غير معروفة لولاها. في سياق التفسيرات العديدة للكتاب المقدس التي قدمها التلاميذ والتلميذات، حصلت مريم، والدة يسوع ("أمي بحسب المادة، أنتِ التي سكنت فيها")، وهي أيضًا

ص 475

واحدة من التلميذات، على إذن بالكلام وروت قصة غريبة عن الطفولة، غير معروفة تمامًا.

فأجابت مريم وقالت: يا سيدي، بخصوص الكلمة التي تنبأت بها قدرتك على لسان داود، وهي: "الرحمة والحق التقيا، والبر والسلام تعانقا، والحق أزهر في الأرض، والبر نظر من السماء" - لقد تنبأت قدرتك بهذه الكلمة القديمة عنك.

"عندما كنت طفلاً، قبل أن ينزل عليك الروح، عندما كنت في الكرم مع يوسف، نزل الروح من العلاء، وجاء إلي في البيت، مثلك، ولم أعرفه، بل ظننت أنه أنت. فقال لي: أين يسوع يا أخي حتى أذهب للقائه؟" ولما قال لي هذا، انتابني الشك، وظننت أنه مجرد وهم يغويني. أمسكت به وربطته إلى أسفل السرير الذي كان في بيتي، حتى ذهبت لأجدك في الحقل - أنت ويوسف - فوجدتكما في الكرم؛ وكان يوسف ينصب أعمدة الكرم.

"فحدث إذن، عندما سمعتني أقول هذا ليوسف، أنك فهمت، وفرحتَ وقلت: أين هو لأراه؟ بل أتوقع حضوره في هذا المكان." ولما سمع يوسف هذه الكلمات منك، انزعج.

"ذهبنا معًا، ودخلنا المنزل،

ص 476

ووجدنا الروح مقيدة بالسرير، ونظرنا إليك وإليه، ووجدنا أنك كنت مثله. والذي كان مربوطاً بالفراش قد انفك، فاحتضنك وقبلك، وقبلته أنت أيضاً، فصرتم كياناً واحداً."

في نهاية قصة صوفيا، تسأل مريم: "يا معلمي ومخلصي، كيف حال الأربعة والعشرين من غير المرئيين [القوى المشاركة لصوفيا]؟ ما نوعهم، وما صفاتهم، أو ما صفات نورهم؟"

من مجدهم في الأيون الثالث عشر. فأجاب يسوع وقال لمريم: "ما الذي في هذا العالم يشبههم؟ أو ما هي المنطقة في هذا العالم التي تشبههم؟ والآن، بماذا أشبههم؟ أو ماذا أقول عنهم؟ لأنه لا يوجد شيء في هذا العالم يمكنني مقارنتهم به؛ ولا يوجد شكل واحد يمكنني تشبيههم به. في الحقيقة، ليس في هذا العالم شيء يضاهي جودة الجنة. لكن، آمين، أقول لكم، إن كل واحد من الخفيين أعظم بتسع

مرات من السماء [السماء السفلية]، والكرة التي فوقها، والأيونات الاثني عشر مجتمعة، كما أخبرتكم من قبل في مناسبة أخرى.

"[مرة أخرى] لا يوجد نور في هذا العالم يفوق نور الشمس. آمين، آمين، أقول لكم، إنّ الأربعة والعشرين من الكائنات الخفية أكثر إشراقاً من نور الشمس الموجود في هذا العالم، عشرة آلاف مرة، كما أخبرتكم من قبل في مناسبة أخرى؛ لكن نور الشمس في صورته الحقيقية، الموجودة في فضاء عذراء النور، أكثر

ص 477

إشراقاً من الأربعة والعشرين، ... عشرة آلاف مرة أكثر إشراقاً.

يعد المعلم كذلك، عندما يأخذهم عبر مختلف فضاءات العالم غير المرئي، بأن يأخذهم جميعاً في النهاية إلى الفضاءين التوأمين للسر الأول، وصولاً إلى الفضاء الأسمى لما لا يوصف، "وسترون جميع تكويناتهم كما هي في الواقع، دون تشابه".

"عندما أدخلكم إلى منطقة حكام عالم القدر، سترون المجد الذي مقياس النور. يتمتعون به، وبالمقارنة مع مجدهم العظيم، ستعتبرون هذا العالم ظلاماً دامساً؛ وعندما تنظرون إلى عالم البشر بأكمله، سيكون بمثابة ذرة غبار بالنسبة لكم، بسبب المسافة الهائلة التي سيكون عالم القدر بعيداً عنه، وبسبب التفوق الهائل لجودته عليه."

وهكذا سيكون الأمر في مجد متزايد من النور مع كل فضاء أعلى، حيث يظهر الفضاء الأدنى كذرة غبار من عظمته، كما يتم أخذها عبر الأيونات الاثني عشر، والأيون الثالث عشر (أو اليسار)، والوسط، واليمين (هكذا ورد، للصليب الكوني)، وعالم النور، وإرث النور بداخله.

ثم تسأل مريم: "يا سيدي، هل سيكون رجال هذا العالم الذين تلقوا أسرار النور أعلى في ملكوتك من انبثقات كنز النور؟"

وفي الإجابة يشرح المعلم ترتيب وطبيعة ووظائف هذه الانبثاقات العظيمة، وكيف أنه في الوقت النهائي لاكتمال

ص 478

الأيون وصعود البليروما، سيكون لكل منها مكانة أعلى في ملكوته؛ لكن هذا الوقت لم يأت بعد. لكن فوق كل ذلك، ستكون نفوس الرجال الذين تلقوا أسرار النور لها الأولوية.

"الأخير" سيكون "الأول". فقالت مريم: "يا سيدي، إن ساكن النور في داخلي له آذان، وأنا أفهم كل كلمة تتكلم بها". والآن، يا معلم، بخصوص الكلمة التي نطقت بها، وهي: "إن جميع نفوس البشر التي ستتلقى أسرار النور، ستتقدم في ميراث النور على جميع الحكام الذين سيتوبون، وجميعهم من منطقة أولئك الذين هم على اليمين، وكل فضاء كنز النور؛ بخصوص هذه الكلمة يا معلمي، لقد قلت لنا من قبل: "سيكون الأولون آخرين والآخرون أولين"، أي أن "الآخرين" هم الجنس البشري بأكمله الذي سيكون الأول في مملكة النور؛ وكذلك أولئك الذين هم [الآن] في فضاء العلو هم "الأوائل".

الفضاءات السماوية الثلاثة للنور. ثم يواصل المعلم حديثه ويخبرهم عن الكائنات والفضاءات المجيدة، والتي سيتناولها بالتفصيل في تعاليمه اللاحقة، وصولاً إلى الفضاء الداخلي للسر الأول، لكنه لن يتناول تلك الموجودة داخل هذه الفضاءات السماوية في الوعي المادي، لأنه "لا توجد إمكانية للحديث عنها في هذا العالم"؛ بل "لا توجد صفة ولا نور يشبهها، ليس فقط في هذا العالم، ولا يوجد مثيل لها في تلك الموجودة في ذروة البر". ومع ذلك، فإنه يصف بلغة سامية عظمة الداعمين الخمسة

ص 479

العظام للفضاء الخارجي للسر الأول، والذي يقع فوقه أو داخله الفضاء الداخلي للسر الأول، وفوق كل ذلك فضاء ما لا يوصف.

إلى هذه العوالم العليا للإرث سيأتي أولئك الذين تلقوا أسرار النور، إرث النور. وسيشغل كل منهم المساحة وفقًا للسر الذي تلقاه، فضاء أعلى أو أدنى وفقًا لدرجة الأسرار التي تلقاها؛ وسيكون لكل منهم القدرة على الذهاب إلى جميع مناطق الإرث التي تقع أسفله، ولكن ليس على الصعود إلى أعلى.

"لكن من يتلقى السر الكامل للسر الأول من أسرار ما لا يوصف، أي سر السر الأول. الأسرار الاثني عشر للسر الأول، واحداً تلو الآخر، سيكون لديه القدرة على استكشاف جميع مراتب
ميراث النور، واستكشافها من الخارج إلى الداخل، ومن الداخل إلى الخارج، ومن الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، ومن العلو إلى العمق، ومن العمق إلى العلو، ومن الطول إلى العرض، ومن العرض إلى الطول؛ باختصار، سيكون لديه القدرة على استكشاف جميع مناطق ميراث النور، وسيكون لديه القدرة على البقاء في المنطقة التي يختارها في ميراث مملكة النور.

"آمين، أقول لكم، هذا الرجل، في زوال العالم، سيكون ملكًا على جميع رتب غنوص يسوع، سر ما لا يوصف. ميراث النور؛ ومن تلقى سرّ ما لا يوصف، فهو أنا.

ص 480

ويلي ذلك سرد رائع للغنوص الكامل لمثل هذا الشخص، إذ يقول: "ذلك السر يعلم لماذا يوجد الظلام، ولماذا

يوجد النور".

وهكذا دواليك، في عبارات عظيمة تصف حكمة السر الأعظم، الذي يعرف سبب وجود كل الأشياء: ظلام الظلام ونور النور؛ الفوضى وكنز النور؛ الدينونة وميراث النور؛ عقاب الخطاة وراحة الأبرار؛ الخطيئة والمعموديات؛ نار العقاب وأختام النور؛ التجديف وأناشيد النور؛ وهكذا دواليك من خلال العديد من أزواج الأضداد، تنتهي بالموت والحياة.

لكن سرد عظمة المعرفة العليا لم ينته بعد، لأن المعلم يواصل: "إذن، استمعوا الآن أكثر يا تلاميذي، بينما أخبركم بالغنوص الكامل لسر ما لا يوصف".

إنه غنوص القسوة والرحمة؛ والدمار والزيادة الأبدية؛ والوحوش والزواحف والمعادن والبحار والأرض والسحب والمطر، وما إلى ذلك، تعمل من الإنسان إلى الطبيعة ومن ثم إلى جميع العوالم العلوية.

يفقد التلاميذ شجاعتهم من شدة دهشتهم من عظمة الغنوص. لكن التلاميذ مندهشون من عظمة الغنوص لهذا السر الأعظم ويفقدون شجاعتهم. فقالت مريم: "يا معلم، إذا كان غنوص كل هذه الأشياء يكمن في ذلك السر، فمن هو الإنسان في هذا العالم الذي يستطيع أن يفهم ذلك السر وكل غنوصه، وطريقة كل الكلمات التي تكلمت بها بشأنه؟"

فقال المعلم: "لا تحزنوا يا تلاميذي

ص. 481

بشأن سر ذلك الذي لا يوصف، ظانين أنكم لن تفهموه". آمين، أقول لكم، إن السر لكم، ولكل من يصغي إليكم، ويتخلى عن العالم كله وكل ما فيه، ويتخلى عن كل الأفكار الشريرة التي فيه، ويتخلى عن كل هموم هذا الأيون.

"والآن، سأخبركم: من ينبذ العالم كله وكل ما فيه، أعظم سر هو أبسطها على الإطلاق. ويخضع للألوهية، فإن سرها سيكون أسهل بكثير من جميع أسرار مملكة النور؛ فهو أبسط بكثير في الفهم من كل ما عداه، وهو أوضح بكثير من كل ما سبق." من يصل إلى معرفة ذلك السر، يكون قد تخلى عن هذا العالم كله وعن كل همومه. ولهذا السبب قلت لكم من قبل: "تعالوا إلي يا جميع المثقلين بالهموم والمثقلين بأعبائها، وسأريحكم، لأن حملي خفيف ونيري هين".

لا ينبغي أن يصابوا بالذهول من التعقيد الهائل لانبعاث البليروما وعملية العالم، "لأن انبثاق البليروما هو غنوصه". ما إن يولد المسيح في قلوبهم من خلال تخليهم عن ملذات الدنيا، فسوف ينمون ليصبحوا كيان البليروما، وبالتالي يمتلكون كل الغنوص.

ثم يواصل المعلم وصفه لمعرفة سرّ ما لا يوصف، مستأنفاً إياه بخصوص الكلمة الواحدة التي لا توصف. من النقطة التي توقف عندها، ويقودهم إلى أعلى فأعلى في الأعالي السماوية عبر فضاء تلو فضاء، وهرمية تلو هرمية، من الوجود الهائل وانبثاقه،

ص 482

حتى السر نفسه، السر الأول الذي يعلم لماذا خرج من الطرف الأخير من الذي لا يوصف. كل هذا، الذي يسرده الآن ببساطة، ويسمي فيه الأماكن العظيمة وسكانها، يعد بشرحه بالتفصيل في تعاليمه اللاحقة.

"والآن، إذن، إنه سرّ الذي لا يوصف والذي يعلم لماذا وُجد كل ما قلته لكم؛ في الحقيقة، كل هذا وُجد بسببه. هو السر الكامن فيهم جميعاً؛ هو انبثاقهم جميعاً، وإعادة امتصاصهم جميعاً، ودعمهم جميعاً.

"إن سر ما لا يوصف موجود في كل ما تحدثت عنه، والذي سأتحدث عنه عند تناول انبثاق البليروما. هو السر الكامن فيهم

جميعاً، وهو السر الواحد الذي لا يوصف. والغنوص الذي قلته لكم، والذي لم أقله لكم بعد، ولكني سأتحدث عنه كله عند تناول موضوع الانبثاق الكامل للـ بليروما ، والغنوص الكامل لكل منه، واحد تلو الأخر، أي لماذا هو موجود - كل هذا هو الكلمة الواحدة (اللوغوس) التي لا توصف."

"إن سرّ ما لا يوصف هو الكلمة الواحدة والوحيدة، ولكن هناك كلمة أخرى على لسان ما لا يوصف؛ إنها قاعدة تفسير جميع الكلمات التي قلتها لكم."

ثم يُشرح كيف أن من يتلقى هذه الكلمة الواحدة والوحيدة، عندما ينبثق من

ص. 483

جسد مادة الحكام، يصبح سيلًا عظيمًا من النور، ويرتفع إلى الأعالي؛ فهو المجد لمن يستقبل السر. لا يحتاج إلى اعتذار أو رمز، لأن جميع القوى تسجد أمام رداء النور الذي يلبسه، وتغني ترانيم الحمد، وهكذا يصعد إلى أعلى وإلى الأمام، عبر جميع ميراث النور، وأعلى فأعلى حتى يصبح واحدًا مع أجزاء ما لا يوصف. "الحق أقول لكم، سيكون في جميع المناطق خلال الوقت الذي يستطيع فيه الإنسان أن يطلق سهماً."

ويلي ذلك سرد لعظمة هذه النفس. يبدأ النص بعبارة: "مع أنه إنسان في العالم، إلا أنه أعلى من جميع الملائكة، وسيتجاوزهم جميعًا بكثير"، ثم يتلو بنفس الشكل جميع مراتب التسلسل الهرمي للكائنات السماوية من الملائكة فصاعدًا، وينتهي على النحو التالي:

"مع أنه إنسان في العالم، إلا أنه أعلى من منطقة الكنز بأكملها، وسيرتفع فوقها كلها.

"مع أنه رجل في العالم، إلا أنه سيكون ملكاً معي في ملكوتي. هو رجل في العالم ولكنه ملك في النور.

"مع أنه رجل في العالم، إلا أنه رجل ليس من العالم. "الحق أقول لكم، ذلك الرجل هو أنا، وأنا

ذلك الرجل."

وعند التمام العظيم، سيكون جميع هؤلاء الرجال "ملوكاً معي، وسيجلسون عن يميني وعن يساري في ملكوتي.

"آمين، أقول لكم، هؤلاء الرجال هم أنا، وأنا هؤلاء الرجال،"

ص. 484

من عروش مملكة النور. ثم يتبع ذلك على ما يبدو إقحام يتألف من اقتباس من إنجيل غير معروف الآن: "لذلك قلت لكم من قبل: في المكان الذي سأكون فيه، سيكون هناك أيضًا اثنا عشر خادمًا لي، لكن مريم المجدلية ويوحنا العذراء سيكونان أعلى من جميع التلاميذ".

"وكل الرجال الذين سيتلقون السر في ذلك الذي لا يوصف سيكونون عن يساري وعن يميني، وأنا هم وهم أنا.

"سيكونون مساويين لكم في كل شيء، ومع ذلك ستكون عروشكم أفضل من عروشهم، وسيكون عرشي أفضل من عروشكم ومن عروش جميع الرجال الذين سيجدون كلمة ذلك الذي لا يوصف."

هناك لوغوي أخرى. وتعتقد مريم أن هذه يجب أن تكون نهاية كل شيء وغنوص كل الغنوص، ولذا تعترض قائلة: "يا معلم، بالتأكيد لا توجد كلمة أخرى لسر ذلك الذي لا يوصف، ولا أي كلمة أخرى للغنوص الكامل؟"

أجاب المخلص قائلاً: "نعم، حقاً؛ هناك سر آخر من أسرار ما لا يوصف وكلمة أخرى من الغنوص الكامل". بل ربما أضاف: "كلام كثير".

درجات الأسرار. ثم تسأل مريم عما إذا كان أولئك الذين لا يتلقون سر ما لا يوصف قبل موتهم سيدخلون مملكة النور. يجيب المعلم بأن كل من يتلقى سرًا من أسرار النور، أي واحد منهم، سيجد بعد الموت راحة في عالم النور المناسب لسره، ولكن لن يعرف أحد ممن لم يصبحوا مسيحًا غنوص البليروما الكاملة، لأنه "في كل انفتاح أنا غنوص البليروما الكاملة".

ص 485

لذلك فإن الذي يتلقى السر الأول من السر الأول سيكون ملكًا على أماكن المخلص الأول في عالم النور، وهكذا حتى الثاني عشر.

وتسأل مريم: "يا معلم، كيف يكون للسر الأول اثنا عشر سراً، بينما لا يوجد للسر الذي لا يوصف إلا سر واحد؟"

الجواب هو أنهم في الحقيقة سر واحد؛ هذا السر مقسم إلى اثني عشر، وأيضًا إلى خمسة، ومرة أخرى إلى ثلاثة، مع بقائه واحدًا؛ إنها جميعًا جوانب أو أنواع مختلفة من نفس السر.

إن السرين الأعلى من بين الثلاثة لا يضمنان فقط لمالكها، عندما يترك النعم التي يمنحونه. الجسد، نصيبه المناسب في الميراث، بل يمنحان أيضًا منافع فيما يتعلق بالآخرين. إذا قام الرجل "بأدائها في جميع أشكالها، أي عندما يخلق تلك الأسرار لنفسه"، فإنها تمنحه القدرة على حماية من ليس مشاركًا في كلمات الحق، بعد موته، حتى لا يُعاقب. وبالطبع لا يمكن لمثل هذا الرجل أن "يدخل إلى النور حتى يؤدي كامل نظام نور تلك الأسرار، أي التخلي التام عن الدنيا"؛ ولكنه سيعود مرة أخرى إلى "جسد صالح، والذي سيجد إله الحق والأسرار العليا".

أما بالنسبة لأعظم سر على الإطلاق، "فمن يتلقى السر الكامن أطراف ما لا يوصف.في فضاء ما لا يوصف، وكذلك جميع الأسرار الحلوة الأخرى الكامنة في أطراف ما لا يوصف،

ص. 486

والتي لم أتحدث عنها بعد، سواءً من حيث انبثاقها، أو كيفية تكوينها، أو نوع كل منها كما هو ـ لم أخبركم لماذا يُسمى ما لا يوصف، أو لماذا يمتد بكل أطرافه، أو كم عدد أجزائه، أو ما هي جميع قوانينه؛ ولن أخبركم بهذا الآن، بل فقط عندما أتحدث عن انبثاق [كل] البليروما؛ [حينها] سأخبركم بكل تفصيل، تفصيلًا تفصيلًا، لأنه انبثق مع كلمته الخاصة، كما هو في ذاته، مع مجموع كل أجزائه، التي تنتمي إلى قانون الواحد الأحد، إله الحق الذي لا يتغير ـ لذلك، فإن المنطقة التي سيتلقى فيها كل فرد السر في فضاء ذلك الذي لا يوصف، سيرثها حتى المنطقة التي تلقاها، [بقدر] منطقة فضاء ذلك الذي لا يوصف بأكملها؛ ولن يقدم تفسيراً في جميع المناطق، ولا اعتذاراً ولا رمزاً، لأن [هذه النفوس] بلا رمز وليس لها متلقون.

وكذلك الحال بالنسبة للفضاء الثاني أسفل هذا، فضاء السر الأول الذي ينظر إلى الداخل؛ مثل هذه النفوس لا تحتاج إلى اعتذار.

أما بالنسبة للفضاء الثالث، فضاء السسر الأول الذي ينظر إلى الخارج، فلكل منطقة مستقبلها وتفسيرها وشروحها ورموزها، وكلها سيتحدث عنها المعلم في الوقت المناسب.

"ولكن عندما يكتمل البليروما، أي عندما يتم الوصول إلى عدد النفوس الكاملة، ويتم إنجاز السر

ص 487

الذي يكون البليروما على أساسه، فسأقضي ألف عام، وفقًا لسنوات النور، أحكم على جميع انبثاقات النور وعلى العدد الكامل للنفوس الكاملة التي تلقت جميع الأسرار."

الآن "يوم من النور يعادل ألف سنة في العالم، بحيث أن ستة وثلاثين مليون سنة ونصف مليون سنة من العالم تشكل سنة واحدة من النور".

ثم يتم وصف أمجاد مملكة النور بعوالمها الثلاثة وملوكها.

"إن أسرار هذه الميراثات الثلاثة للنور كثيرة للغاية. ستجدونها في كتب أيو. في كتابين أيو العظيمين ". سيكشف لهم الأمور العليا؛ "أما بقية الأسرار الدنيا، فلا حاجة لكم بها، بل ستجدونها في كتابي إيو، اللذين كتبهما أخنوخ عندما تحدثت معه من شجرة المعرفة، ومن شجرة الحياة، اللذين كانا في جنة آدم".

عندها أصيب أندرو بدهشة كبيرة، ولم يصدق أن رجالاً من أمثالهم يمكن أن يكون لهم مصير عظيم كهذا، وأن يصلوا إلى هذه المستويات العالية. ويقول: "إذن، هذا الأمر صعب بالنسبة لي".

عندما قال أندرو هذه الكلمات، تحركت روح المخلص فيه، فصرخ أنتم آلهة. وقال: "إلى متى سأحتملكم، إلى متى سأتحملكم؟" ألا تعلمون بعد، أم أنتم جاهلون؟ ألا تعلمون ولا

تفهمون أنكم جميعاً ملائكة، جميع رؤساء الملائكة، آلهة وأرباب، جميعكم حكام، جميعكم عظماء

ص 488

غير المرئيين، جميع من هم في الوسط، جميع من هم في كل منطقة من مناطق اليمين، جميع عظماء انبثاقات النور بكل مجدهم؛ أنكم جميعاً، من أنفسكم وفي أنفسكم بدوركم، من كتلة واحدة ومادة واحدة وجوهر واحد؛ أنتم جميعاً من نفس المزيج...

"إنّ الانبثاقات النورانية العظيمة لم تتعرض على الإطلاق [في الواقع] للمعاناة، ولا لتغييرات في المنطقة، ولم تمزق نفسها على الإطلاق، ولم تصب نفسها في أجساد مختلفة، ولم تكن في أي محنة.

من نفوس في التجسد ".أما أنتم أيها الآخرون، فأنتم مطهرات الكنز، أنتم مطهرات منطقة الذين هم على اليمين، أنتم مطهرات جميع الغير مرئيين وجميع الحكام؛ باختصار، أنتم مطهرهم جميعاً. وقد كنتم في مصائب عظيمة وشدائد عظيمة، في سكبكم في أجساد مختلفة في هذا العالم. وبعد كل هذه المصائب التي نتجت عنكم، جاهدتم وقاتلتم، ناكرين الدنيا وما فيها من متاع الدنيا؛ ولم تدخروا جهداً في القتال حتى وجدتم كل أسرار ملكوت النور، التي طهرتكم وحولتكم إلى نور صافٍ نقي، حتى صرتم نوراً خالصاً...

"أقول لكم الحق، إن جنس البشر من مادة. لقد مزقت نفسي إرباً، لقد جلبت لهم أسرار النور، لتطهيرهم، لأنهم تطهير من كل مادة مادتهم...

"أما الانبثاقات النورانية فلا تحتاج إلى أي

ص 489

سر، لأنها نقية؛ لكن الجنس البشري يحتاج إلى التطهير، لأن جميع البشر هم تطهير للمادة...

"لذلك، بشّروا التبشير بالأسرار. البشرية جمعاء قائلين: لا تكفّوا عن البحث ليلاً ونهاراً حتى تجدوا أسرار التطهير، وقولوا لهم: تخلّوا عن الدنيا وما فيها، لأن من يشتري ويبيع في هذه الدنيا، ومن يأكل ويشرب من متاعها، ومن يعيش في همومها ورفقائها، يجمع من متاعها مادة جديدة باستمرار، لأن الدنيا وما فيها ورفقائها هي تطهيرات مادية للغاية، وسوف تُسأل كل واحد بحسب طهارته."

ويتبع ذلك شرح مطول حول طبيعة تبشير التلاميذ للعالم عندما يذهب المعلم إلى النور.

"قل لهم: تخلوا عن العالم كله عبء الوعظ. وما فيه، وكل همومه، وكل خطاياه، باختصار، كل ما فيه من علاقات، لكي تكونوا أهلاً لأسرار النور، وتنجوا من كل العذاب الذي في الأحكام."

عليهم أن يتخلوا عن الحداد والخرافات والسحر والافتراء وشهادة الزور والتباهي والكبرياء والشراهة والثرثرة والمداعبات الشريرة ورغبة الطمع وحب الدنيا والسرقة والكلمات البذيئة والشر والقسوة والغضب والسب والنهب والافتراء والخصام والجهل والخبث والكسل والزنا والقتل وقسوة القلب والكفر والإلحاد والجرعات السحرية والتجديف ومذاهب الضلال، لكي ينجوا

ص 490

من عذاب النار والجليد وأهوال الجحيم المروعة، التي تعلوها عذاب التنين العظيم للظلام الخارجي الذي لا يرحم، والمخصص لأعظم الذنوب، حيث ستكون هذه النفوس غير التائبة "بلا وجود حتى نهاية" الأيون؛ سيتم "تجميدها" في تلك الحالة.

علامات حدود مسارات الأسرار. هذا فيما يخص الجانب السلبي، أي الأشياء التي يجب التخلي عنها؛ أما بالنسبة للجانب الإيجابي، أي الأشياء التي يجب القيام بها، فهي: "قولوا لرجال العالم: اجتهدوا حتى تنالوا أسرار النور، وتدخلوا إلى ذروة ملكوت النور".

ينبغي أن يكونوا لطفاء، وصانعي سلام، ورحماء، ومتعاطفين، وأن يخدموا الفقراء والمرضى والمبتلين، وأن يكونوا محبين لله، وأبراراً، وأن يعيشوا حياة التخلي المطلق عن الذات.

"هذه كلها علامات حدود مساراتهم التي تستحق أسرار النور."

لا تُعطى الأسرار إلا لمن هم على وجه الخصوص؛ والشرط المطلق هو أن يقوموا بهذا التخلي والتوبة.

"بسبب الخطاة أدخلت هذه الأسرار إلى العالم، من أجل غفران جميع الخطايا التي ارتكبوها منذ البداية. لذلك قلت لكم من قبل: "لم آتِ لأدعو الأبرار".

حالة الصالحين غير المطلعين بعد الموت. السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف سيكون حال الرجال الصالحين الذين لم يتلقوا الأسرار بعد الموت؟

"الرجل الصالح الذي هو كامل في كل بر،" يجيب المعلم، ومع ذلك الذي لم يتلق

ص 491

أسرار النور، عند خروجه من الجسد، يتم الاعتناء به من قبل متلقي النور - على عكس متلقي الغضب. "ثلاثة أيام سيسافرون مع تلك النفس في جميع مخلوقات العالم"، ويمررونها عبر جميع عناصر الأحكام، ويعلمونها فيها، ثم تُؤخذ إلى عذراء النور وتُختم بختم ممتاز حتى تُحمل إلى جسد صالح من العوالم، حتى تجد في ولادتها التالية علامات أسرار النور وترث مملكة النور إلى الأبد.

وهكذا، فإن الرجل الذي أذنب مرتين أو ثلاث مرات فقط، سيعود إلى العالم وفقًا لنوع الذنوب التي ارتكبها؛ "سأخبركم بهذه الأنواع عندما آتي لأشرح لكم انبثاق البليروما" بالتفصيل.

"لكن آمين آمين أقول لكم، حتى لو لم يرتكب الرجل الصالح أي خطيئة على الإطلاق، فمن المستحيل إدخاله إلى ملكوت النور، لأن علامة ملكوت الأسرار ليست معه." يجب أن يمتلك الغنوص والبر.

ثم يطرح السؤال التالي بشأن الخاطئ الذي تاب، وتلقى الأسرار، ثم أما الذين يتوبون ثم يرتدون مرة أخرى. ارتد، ثم تاب مرة أخرى، بشرط ألا يكون منافقاً: "هل ترضى أم لا أن نغفر له ذنوبه سبع مرات، ونعيد إليه الأسرار؟"

أجاب المخلص قائلاً: "اغفروا له خطيئته ليس سبع مرات فقط، بل آمين، اغفروها له مرات عديدة سبع مرات،

ص. 492

وفي كل مرة أعطوه الأسرار منذ البداية، الأسرار التي في الفضاء الأول من الخارج؛ لعلكم تربحون نفس ذلك الأخ، فيرث ملكوت النور....

أمجاد إضافية لمنقذ النفوس ".آمين أقول لكم، من يهب الحياة لنفس واحدة وينقذها، فإنه بالإضافة إلى نوره الخاص في ملكوت النور، سينال مجداً إضافياً لتلك النفس التي أنقذها، وكذلك من ينقذ جموعاً من النفوس، فإنه بالإضافة إلى مجده الخاص في المجد، سينال جموعاً من المجد الإضافي لتلك النفوس التي أنقذها."

بل إنهم لن يكتفوا بإعطاء الأسرار الدنيا، بل الأسرار العليا أيضاً، بشرط أن يتوب الرجل بصدق ولا يكون منافقاً؛ جميع الأسرار حتى الأسرار الثلاثة العليا من السر الأول، "لأن السر الأول هو الرحمة والرأفة".

بخصوص المتخاصمين ".أما إذا عاد ذلك الرجل إلى ارتكاب الخطيئة، وكان في أي نوع من أنواعها، فلا تغفروا له خطيئته من تلك الساعة، ولا تقبلوا توبته بعد ذلك؛ بل اجعلوه لكم حجر عثرة ومذنباً.

"لأني آمين أقول لكم، إن هذه الأسرار الثلاثة ستشهد على توبته الأخيرة من تلك الساعة. آمين، أقول لكم، إن نفس ذلك الرجل لن يكون لها مزيد من الاختبار في عالم العلو من تلك الساعة فصاعدًا، بل ستسكن في مسكن تنين الظلام الخارجي."

في كل هذا ليس أمام التلاميذ خيار؛ فإذا علموا أن رجلاً ما صادق، وليس منافقاً أو مجرد

ص. 493

فضولي لمعرفة ماهية طقوس الأسرار، فعليهم أن يمنحوه هذه الأسرار ولا يحجبوها عنه، حتى لو كان ممن لم يتلقوا أيًا من الأسرار الدنيا؛ لأنهم إذا أخفوها عنه، فسيكونون عرضة لدينونة عظيمة.

ليس لديهم أي قوة تتجاوز إعطاء هذه الأسرار الثلاثة العليا، لأنهم لا يملكون المعرفة الكافية.

لكن حالة الرجل الذي انحرف بعد تلقيه أسمى الأسرار التي يمكن أن يقدموها، ليست من رحمة الله اللامتناهية. ميؤوسًا منها تمامًا؛ ومع ذلك، فهي في أيدي السر الأول وسر ما لا يوصف وحدهما.

هؤلاء وحدهم قادرون على قبول التوبة من مثل هذا الرجل، ومنحه غفران ذنوبه، لأن هذه الأسرار "رحيمة وعطوفة، وتمنح غفران الذنوب في أي وقت".

والآن يطرح السؤال: إذا افترضنا أنهم أعطوا الأسرار خطأً لأولئك المنافقين من أولئك الذين يقلدون الأسرار. الذين خدعوهم ثم سخروا من الأسرار "يقلدوننا ويزيفون أسرارنا"، فماذا سيفعلون حينها؟

في هذه الحالة، عليهم أن يلجأوا إلى السر الأول، قائلين: "إن السر الذي أعطيناه لهذه النفوس الفاجرة والظالمة، لم يؤدوه بطريقة تليق بسرك، بل قلدوه [فقط]؛ فأعد [لذلك] ذلك السر إلينا، واجعلهم غرباء عن ملكوتك إلى الأبد".

في تلك الساعة، ستعود الأسرار التي تلقتها تلك النفوس الفاجرة

إليها، ولن يستطيع هؤلاء الناس الحصول على الغفران من أحد إلا من سرّ الذي لا يوصف.

أما بالنسبة للأصدقاء والأقارب غير المؤمنين لأولئك الذين تلقوا الأسرار، فيمكن لهؤلاء الأخيرين من خلال صلواتهم ودعواتهم أن يحصلوا على مصير أفضل في حالة ما بعد الموت لأقاربهم وأصدقائهم، حتى يتمكنوا من العودة إلى ظروف مواتية لتلقيهم الأسرار في حياة أخرى.

هل يمكن تجنب آلام الاستشهاد. ثم يُطرح السؤال عما إذا كانت الأسرار ستنقذ التلاميذ من آلام الاستشهاد. "لأن عدد الذين يضطهدوننا من أجلك كثير جداً، وجماهير غفيرة تطاردنا من أجل اسمك، حتى إذا خضعنا للتعذيب، فإننا سننطق بالسر، فنفارق الجسد في الحال دون أن نتألم."

الجواب ليس واضحاً؛ فكل من أنجز السر الأول (أي الأعلى) من الأسرار الثلاثة العليا في الحياة، عندما يحين وقت مغادرة الجسد، سيرتقي إلى ملكوت الحياة دون الحاجة إلى اعتذار أو علامة. لكن لم يُقال إن آلام الاستشهاد يمكن تجنبها.

سرّ قيامة الموتى. لكنهم سيكونون قادرين على مساعدة الآخرين، لأنه "ليس أنتم فقط، بل كل من يحقق سرّ قيامة الموتى، الذي يشفي من المس الشيطاني، والمعاناة، وكل مرض، [الذي يشفي أيضًا] الأعمى، والأعرج، والعاقل، والأبكم، والأصم، [السرّ] الذي أعطيته لكم من قبل - كل من يقبل هذه الأسرار ويحققها،

إذا سأل أي شيء بعد ذلك، فقرًا أو غنى، ضعفًا أو قوة، مرضًا أو صحة، أو الشفاء التام للجسد، وقيامة الموتى، والقدرة على شفاء الأعرج، والأعمى، والأصم، والأبكم، من كل مرض وكل معاناة - باختصار، كل من يحقق هذا السرّ، إذا سأل أيًا من الأشياء التي قلتها لكم للتو، فسيتم منحه إياها على الفور."

عندها صرخ التلاميذ معًا في حالة من النشوة: "يا مخلصنا، إنك تثير فينا نقل التلاميذ. حماسة شديدة بسبب السمو المتعالي الذي كشفته لنا؛ وأنت ترفع من شأن نفوسنا، وقد أصبحت مسارات نسلكها لنأتي إليك، لأنها انبثقت منك. لذلك، وبسبب تلك العوالم السامية التي كشفتها لنا، أصبحت نفوسنا في حالة من الهياج، وتكافح بشدة، متلهفة للخروج منا إلى العلو إلى منطقة ملكوتك."

ويواصل المعلم تعليمه قائلاً إن بقية الأسرار التي أوكلت يجب إبقاء هذا السر سراً. إليهم يمكنهم أن يعطوها للآخرين، ولكن ليس سر قيامة الموتى وشفاء الأمراض، "لأن هذا السر يخص الحكام، هو وكل أسمائه". وعليهم أن يحتفظوا بهذا كعلامة على مهمتهم، حتى إذا قاموا بأعمال خارقة كهذه، "يؤمنون بكم، وأنكم تبشرون بإله الكمال، ويصدقون كل كلماتكم".

النقطة التعليمية التالية التي تم تناولها هي السؤال: "من يجبر الإنسان على ارتكاب الخطيئة؟" يفتح هذا

ص. 496

تكوين الإنسان. الموضوع بأكمله على تكوين الإنسان، ويؤدي إلى عرض شيق للغاية لعلم النفس الغنوصي.

عندما يولد الطفل لأول مرة، تكون "قوة النور" و"النفس" و"الروح المزيفة" و"الجسد" جميعها ضعيفة للغاية فيه. "ليس لدى أي منهم حتى الآن الحس الكافي لأي عمل، سواء كان خيراً أم شراً، بسبب ثقل النسيان الهائل."

يتغذى الطفل من ملذات عالم الحكام؛ وتستمد القوة من جزء القوة الموجود في الملذات، وتستمد النفس من جزء النفس الموجود في الملذات، والروح الزائفة من جزء الشر الموجود في الملذات، والجسد من المادة غير المدركة الموجودة في الملذات.

وهناك عامل آخر يسمى "القدر"، والذي يبقى كما هو عند قدومه إلى العالم ولا ينتقص من متع الحياة.

وهكذا، شيئًا فشيئًا، تتطور كل هذه العناصر المكونة للإنسان، حيث يشعر كل منها وفقًا لطبيعته. "إن القوة تستشعر نور العلو؛ والنفس تستشعر منطقة البر المختلط، وهي منطقة الخليط (هكذا ورد ، من النور والمادة)؛ والروح الزائفة تسعى وراء كل الرذائل والشهوات والخطايا؛ ولكن الجسد ليس لديه قدرة على الإحساس إلا إذا كان دافعاً لاكتساب القوة من المادة."

من الواضح أن القوة هي العقل الأعلى، والنفس هي العقل الأدنى، والروح الزائفة هي الطبيعة الحيوانية.

"إن القوة الكامنة في الداخل تدفع النفس إلى البحث عن منطقة النور والألوهية الكاملة؛

ص. 497

بينما الروح الزائفة تسحب النفس إلى أسفل، وتجبرها باستمرار على ارتكاب الرغبة الشريرة التي تجبر الإنسان على ارتكاب الخطيئة. كل أنواع الإثم والشر والخطيئة، وتستمر كشيء غريب عن النفس، وهي عدوها، وتجعلها ترتكب كل هذه الخطايا والشرور" - مما يجعلها تعمل ضد النفس بسبب ما فعلته في الماضي؛ علاوة على ذلك، بالنسبة للمستقبل، "فهي تحث عمال الغضب على الشهادة على كل الخطيئة التي ستجبر النفس على ارتكابها. وحتى عندما ينام الإنسان ليلاً أو نهاراً، فإنها تزعجه في أحلامه برغبات الدنيا، وتجعله يتوق إلى كل متاع الدنيا. باختصار، إنها تقيد النفس بكل الأفعال التي أمر بها الحكام، وهي عدو النفس، وتجعلها تفعل ما لا ترغب فيه." هذا هو الذي يدفع الإنسان إلى الخطيئة.

إن "القدر" هو ما يقود الإنسان إلى موته. ثم يأتي متلقو الغضب ليقودوا تلك النفس خارج الجسد.

"ولثلاثة أيام، يسافر متلقو الغضب مع تلك النفس عبر جميع المناطق، دورة حالة ما بعد الموت للخاطئ. ويأخذونها عبر جميع أيونات العالم؛ وترافق الروح والقدر المزيفان تلك النفس، لكن القوة تسحب نفسها إلى عذراء النور."

ثم تنتقل النفس إلى الفوضى، وتصبح الروح الزائفة هي مستقبل تلك النفس، وتطاردها، وتوبخها في كل عقاب بسبب الذنوب التي تسببت في ارتكابها؛ إنها في عداوة شديدة للنفس.

ثم ترتفع النفس إلى أعلى، وهي لا تزال مسكونة

ص 498

بالروح المزيفة، حتى تصل إلى حاكم طريق الوسط بين السماء السفلى وسطح الأرض. وهنا لا تزال تخضع لعقوبات روحها المزيفة، وفقًا لـ "القدرها".

ثم تقوم الروح المزيفة بإحضارها إلى "نور الشمس" - حيث يبدو أن طريق الوسط هو المناطق تحت القمر - ويتم أخذها إلى القاضي، عذراء النور، وفقًا لأمر إيو، الإنسان الأول؛ و"تختم عذراء النور تلك النفس وتسلمها إلى أحد متلقيها، وستحملها إلى جسد، وهو سجل الخطايا التي ارتكبتها".

"آمين، أقول لكم إنها لن يسمح لتلك النفس بالهروب من التناسخ إلى الأجساد، حتى تظهر عليها علامات الوجود في دورتها الأخيرة وفقًا لسجل ذنوبها."

أما بالنسبة للمتأهلين الصالحين. في حالة النفس الصالحة، والتي تلقت أسرار النور العليا، "عندما يحين وقت تلك النفس لمغادرة الجسد، فإن الروح الزائفة تتبع تلك النفس، وكذلك القدر". يتبعونها في الطريق الذي يجب أن تمر فيه إلى العلو.

"وقبل أن تبتعد كثيراً في العلو، فإنها تنطق بسر كسر الأختام وجميع قيود الروح المزيفة، التي يربطها الحكام بالنفس"؛ وهكذا تتوقف عن إعاقة النفس، وينطلق القدر إلى منطقته الخاصة، إلى حكام طريق الوسط، وتذهب الروح المزيفة إلى حكام مجال القدر.

ص. 499

وهكذا يصبح تيارًا من النور المجيد وينتقل إلى ميراثه، لأن "مستقبلي تلك النفس، الذين ينتمون إلى النور، يصبحون أجنحة نور لتلك النفس"، وسيكونون رداءً من النور لها. مثل هذه النفس لا تحتاج إلى أختام أو تفسيرات.

لكن من تلقى الأسرار الدنيا فقط، يحتاج إلى مثل هذه التفسيرات والأختام، وكلها يعد المعلم بتقديمها لهم في شرحه المفصل لانبثاق البليروما. في الوقت الحالي، يكتفي بتحديد الفضاءات التي يجب اجتيازها وما هي القواعد.

تقارن مريم بعض هذه الأقوال بأقوال سابقة، بما في ذلك قول قاله المعلم "اتفق مع عدوك". "لنا من قبل على لسان أخونا بولس". وتفسر كذلك القول المأثور: "اتفق مع عدوك ما دمت في الطريق معه، لئلا يسلمك عدوك إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى الشرطي، ويلقيك الشرطي في السجن؛ ولن تخرج منه حتى تدفع آخر فلس"، على أنه يشير إلى القاضي، وعذراء النور، وإعادة تشكيل النفس في جسد آخر، لأنه لا توجد نفس حرة من التناسخ حتى تظهر عليها علامات الوجود في دورتها الأخيرة.

ثم تستفسر مريم عن طبيعة أسرار المعمودية التي تغفر الخطايا، فيجيبها المعلم:

"إن الروح المزيفة تشهد على كل خطيئة ارتكبتها النفس؛ فهي ختم الخطايا على النفوس. لا تشهد فقط على خطايا النفوس، بل تختم كل خطيئة ليتم وسمها على

ص. 500

النفس، حتى يعرف جميع حكام عقوبات الخطاة أنها نفس خاطئ، ويمكن إعلامهم بعدد الخطايا التي ارتكبتها، من خلال عدد الأختام التي ختمتها الروح المزيفة عليها، حتى يتمكنوا من معاقبتها وفقًا لعدد الخطايا التي ارتكبتها. هذه هي الطريقة التي يعاملون بها نفس الخاطئ.

حرق الخطايا بنيران سر المعمودية ".لذلك، عندما يتلقى الإنسان أسرار المعمودية، تصبح تلك الأسرار ناراً عظيمة، شديدة الحرارة، وحكيمة، تحرق الخطايا؛ فهي تدخل إلى النفس سراً وتلتهم كل الخطايا التي زرعتها الروح الزائفة فيها.

"وعندما تطهر النار كل الذنوب التي غرسها الروح الزائفة في النفس، تدخل الأسرار إلى الجسد خفية، حتى تتمكن النار من مطاردة المطاردين سراً وقطعهم مع الجسد. إنهم يطاردون الروح الزائفة والقدر، لفصلهما عن القوة والنفس، ووضعهما مع

الجسد، بحيث يمكن فصل الروح المزيفة والقدر والجسد في مجموعة واحدة، والنفس والقوة في مجموعة أخرى. ويبقى سر المعمودية بين الاثنين، ويفصل أحدهما عن الآخر، لكي يطهرهما ويجعلهما نقيين، فلا تتلوث النفس والقوة بالمادة."

ثم يتم توضيح أن جميع الأسرار الاثني عشر وغيرها من أسرار السر الأول وأسرار ما لا يوصف لا تزال أعلى من أسرار

ص 501

المعمودية؛ ولكن سيتم شرح كل هذا في تعليم لاحق.

تقدم مريم تفسيرات لمقاطع من الكتاب المقدس في ضوء التعليم الجديد، وقد أتيحت الفرصة من خلال إعادة تلخيص بعض النقاط من قبل المعلم، مع الاستفسار عما إذا كانوا قد فهموا جيدًا. وخاصةً التعاطف الذي لا ينضب لأسمى الأسرار.

"إذا كان حتى ملك اليوم، رجل الدنيا، يمنح النعم لمن هم مثله، المغفرة اللامتناهية للذنوب. وإذا كان يمنح العفو للقتلة، ولمن ارتكبوا الزنا مع الذكور، وغيرهم من الجرائم البشعة التي تستوجب الإعدام؛ إذا كان، أقول، في قدرة رجل الدنيا أن يفعل ذلك، فبالأحرى أن يكون لذلك المتعالي وذلك السر الأول، الذين هم سادة كل البليروما، سلطة على كل شيء ليفعلوا ما يشاؤون، ويمنحوا غفران الخطايا لكل من نال السر.

"وإذا قام ملك اليوم بتزيين جندي بعباءة ملكية، وأرسله إلى مناطق أجنبية، وارتكب الجندي هناك جرائم قتل وجرائم خطيرة أخرى تستحق الموت، ومع ذلك لم يتم نسبها إله لأنه يرتدي العباءة الملكية، فبالأحرى يكون الأمر بالنسبة لأولئك الذين يرتدون أسرار أثواب ذلك الذي لا يوصف، وأولئك الذين هم سادة على كل من في العلو وكل من في الأعماق!"

وعندها يختبر المعلم بطرس ليرى ما إذا كان رحيماً، في حالة امرأة

ص 502

ارتدت بعد تلقيها سر المعمودية، ويخرج بطرس من الاختبار بنجاح.

لكن لا تتأخر في التوبة. ثم يُشرح أن مصير الرجل الذي تلقى الأسرار وارتد ولم يتب، أسوأ بكثير من مصير الرجل الفاسق الذي لم يعرفها قط. أما أولئك الذين لا يبالون، ظانين أن أمامهم ولادات عديدة ولا داعي للعجلة، فإن المعلم يأمر تلاميذه بما يلي:

"بشروا العالم أجمع قائلين للناس: جاهدوا معاً لكي تنالوا أسرار النور في هذا الوقت العصيب، وتدخلوا إلى ملكوت النور. لا تؤجلوا العمل يوماً بعد يوم، ومن دورة إلى أخرى، معتقدين أنكم ستنجحون في الحصول على الأسرار عندما تعودون إلى العالم في دورة أخرى."

ففي وقت معين ستُغلق أبواب النور ".هؤلاء الرجال لا يعلمون متى سيكتمل عدد النفوس الكاملة؛ لأنه عندما يكتمل عدد النفوس الكاملة، سأغلق أبواب النور، ومن ذلك الوقت لن يتمكن أحد من الدخول منها، ولن يخرج أحد بعد ذلك، لأن عدد النفوس الكاملة سيكتمل، وسيكتمل سر السر الأول - السر الذي به وُجد كل شيء، وأنا ذلك السر.

"من تلك الساعة لن يدخل أحد إلى النور، ولن يخرج أحد، حتى يتم عدد النفوس الكاملة، قبل أن أشعل النار في العالم، لكي تطهر العفاريت والحجب والسماء والعالم كله، وكذلك كل الأشياء التي لا تزال فيه، حيث لا يزال الجنس البشري موجودًا عليه.

ص 503

"في ذلك الوقت، سيظهر الإيمان أكثر فأكثر، وكذلك الأسرار في تلك الأيام. وستمر العديد من النفوس بدورات تناسخ الأجساد وتعود إلى العالم في تلك الأيام؛ وسيكون من بينهم بعض الأحياء الآن الذين يسمعونني أعلم بشأن اكتمال عدد النفوس الكاملة، [وفي تلك الأيام] سيجدون أسرار النور، وسيتلقونها. سيصعدون إلى أبواب النور، وسيجدون أن عدد النفوس الكاملة قد اكتمل، وهو ما يمثل تمام السر الأول وغنوص البليروما؛ سيجدون أنني قد أغلقت أبواب النور، وأنه من تلك الساعة لا يمكن لأحد أن يدخل أو يخرج من خلالها.

"ثم ستصرخ تلك النفوس من الداخل عبر أبواب النور قائلة: "يا معلم، افتح لنا". و "لا أعرف من أين أنتم". سأجيبهم قائلاً: "لا أعرف من أين أنتم". وسيقولون لي: "لقد تلقينا الأسرار، وأتممنا كل تعاليمك؛ لقد علمتنا في الطرق العليا". وسأجيبهم قائلاً: "لا أعرف من أنتم يا من مارستم الإثم والشر حتى هذا اليوم. لذلك اذهبوا [من هنا] إلى الظلام الخارجي." سيرحلون على الفور إلى الظلام الخارجي، حيث البكاء وصرير الأسنان."

ثم تسأل مريم عن نوع الظلام الخارجي وعدد الفضاءات تنين الظلام الخارجي. والمناطق المخصصة للعقاب؛ ثم يتبع ذلك وصف مفصل لتنين الفضاء الخاص بهذا الظلام الخارجي، الذي يقع ذيله في فمه، وأبراجه الاثني

ص. 504

عشر، مع وجوهها الحقيقية وأسماء حكامها، والأبواب والملائكة التي تراقبها، وما هي النفوس التي تدخل التنين وكيف؛ ويتم شرح كيف أن جميع الأسماء مضمنة في بعضها البعض، وما هي درجات العذاب والنيران. ثم يتبع ذلك التعليم حول كيفية إنقاذ النفوس غير المتأهلين، وكيف أن السر سينقذ في النهاية حتى أولئك الذين لم يعد لديهم فرصة للولادة من جديد.

ويشرح كذلك كيف يصبح المتأهلين نوراً - ألسنة لهب وجداول من النور. تتوسل مريم من أجل أولئك الذين أهملوا الأسرار؛ ويتم شرح فعالية أسماء الحكام الاثني عشر للأبراج المحصنة، وكيف أن النفوس التي تعرف الأسماء تهرب من التنين وتؤخذ إلى إيو، ومصيرها اللاحق.

جرعة النسيان. ثم تأتي تعليمات جديدة بشأن حكام القدر وجرعة النسيان - "بذرة الإثم، المليئة بكل أنواع الرغبة وكل النسيان ...؛ وتصبح جرعة النسيان المميتة هذه جسدًا خارجيًا للنفس، تشبه النفس في كل شيء، وتشابهها الكامل، ومن هنا يسمونها الروح المزيفة".

ثم يتم وصف طريقة تشكيل نفس جديدة، وكيفية نفخ القوة فيها؛ ويتم عرض ذلك بشكل عام، مع وعد بتقديم معلومات أكثر تفصيلاً في مناسبة مستقبلية.

الآباء الذين يجب أن نتركهم. ويوضح كذلك أن القول المأثور "من لا يترك أباه وأمه ويتبعني" يشير إلى "الوالدين" أو صانعي

ص. 505

النفس والروح الزائفة، وليس والدينا الأرضيين، ناهيك عن والدي قوة النور في الداخل - المخلص وأسراره.

كما تم تقديم معلومات إضافية حول الروح المزيفة وعناصرها المكونة، وعددها ثلاثمائة وخمسة وستون؛ والمراحل الجنينية للتجسد؛ والإكراه الكارمي للوالدين - الأب والأم للجسد المادي؛ والعملية الخفية للحمل؛ وطريقة تجسد العناصر المكونة المختلفة في الإنسان؛ وعلم الفراسة الخفي؛ وطبيعة المصير وكيف يصل الإنسان إلى موته؛ والعديد من الأسئلة الأخرى ذات الطبيعة المماثلة. ثم يتابع المخلص:

"لذلك، من أجل الخطاة مزقتُ نفسي وجئتُ إلى العالم لأخلصهم، من كتب إيو مرة أخرى. ولأنه من الضروري أيضًا أن يجد الصالحون، الذين لم يفعلوا شرًا قط، ولم يرتكبوا خطيئة قط، الأسرار الموجودة في كتب إيو، التي جعلتُ أخنوخ يكتبها في الفردوس، عندما كلمته من شجرة المعرفة، ومن شجرة الحياة، والتي جعلته يودعها في صخرة أرارات؛ وقد نصبتُ كالاباتوروث، الحاكم الذي على سكيموت، والذي على رأسه قدم إيو - الذي يحيط بكل الأيونات ومجال القدر - نصبتُ هذا الحاكم ليحفظ كتب إيو من الطوفان، ولئلا يدمرها أي من الحكام بدافع العداء." سأعطيكم هذه [الكتب] عندما أنتهي من إخباركم بانبثاق البليروما.

ص 506

لكن قلة قليلة فقط ستفهم الأسرار العليا. "أقول لكم إنه سيتم العثور على واحد من بين ألف واثنين من بين عشرة آلاف لإتمام أسرار السر الأول."

المسيح هو أول من يدخل النور من هذه البشرية. قبل مجيء السر الأول، لم تدخل أي نفس من هذه البشرية النور بالكامل؛ لم يدخل أي من الأنبياء أو الآباء النور بعد، لكنهم سيُعادون إلى أجساد صالحة، وهكذا سيجدون الأسرار ويرثون الملكوت.

تختتم الرسالة بالفقرات التالية:

أجابت مريم وقالت: "مباركون أمام جميع الناس بسبب هذه الحقائق العظيمة التي كشفتها لنا".

أجاب المخلص وقال لمريم وجميع تلاميذه: "سأكشف لكم أيضاً كل عظمة العلو، من باطن الباطن إلى ظاهر الظاهر، لكي تكونوا كاملين في كل غنوص، وفي كل بليروما، وفي كل علو العلو، وفي كل عمق الأعماق".

هو الذي يملك مفاتيح الأسرار ".فأجابت مريم وقالت للمخلص: "الآن نعلم يا معلم، بكل يقين ووضوح، أنك قد أتيت بمفاتيح أسرار ملكوت النور، التي تغفر خطايا النفوس، حتى تُطهر، وتتحول إلى نور خالص، وتُدخل في النور".

ص 507

ملخص مقتطفات من كتب المخلص.

يظهر المقتطف الأول في الصفحات 252-254 من مخطوطة أسكيو، وينص على النحو التالي:

"وأولئك الذين يستحقون الأسرار التي تكمن في ما لا يوصف، أي الأطراف الكامنة لما لا يوصف.

أولئك الذين لم ينبثقوا - فهم سابقون للسر الأول. وباستخدام تشبيه وتوافق في الكلام قد تفهمونه، فإنها أجزاء من الشيء الذي لا يوصف. وكل واحد بحسب كرامة مجده، الرأس بحسب كرامة الرأس، والعين بحسب كرامة العين، والأذن بحسب كرامة الأذن، وبقية الأعضاء [على هذا النحو]؛ بحيث يتضح أن "هناك أعضاء كثيرة، ولكن جسد واحد فقط". أتحدث إليكم عن هذا من خلال نموذج ومطابقة وتشابه، ولكن ليس في حقيقة تكوينه؛ لم أكشف عن الكلمة [الكاملة] في الحقيقة.

"لكن سر ما لا يوصف وكل جزء فيه - أي أولئك الذين المسيح هو الذي لا يوصف. يسكنون في سر ما لا يوصف وأولئك الذين يسكنون في [ذلك ما لا يوصف] - وكذلك الأماكن الثلاثة التي تتبعهم، وفقًا للأسرار، في الحقيقة والصدق، كل ذلك [هو أنا]". أنا كنزهم جميعًا، الذي لا يوجد كنز بدونه، والذي لا توجد فردية في العالم بدونه؛ ولكن هناك كلمات أخرى [؟ لوغوي]، وأسرار أخرى، ومناطق أخرى.

ص. 508

غنوص المسيح ".لذلك، طوبى لمن وجد أسرار الفضاء نحو الخارج. هو إله وجد كلمات [؟ لوغوي] أسرار الفضاء الثاني في الوسط. هو المخلص والمتحرر من كل مكان، الذي وجد كلمات الأسرار، كلمات الفضاء الثالث نحو الداخل. هو البليروما نفسه (أو أكثر تميزًا من الكون) - موضوع رغبة كل من هم في ذلك الفضاء الثالث - الذي وجد السر الذي هم فيه [جميعهم]، والذي هم فيه [جميعهم]. لذلك فهو مساوٍ لهم جميعاً. لأنه وجد أيضًا كلمات [؟ لوغوي] الأسرار، التي وضعتها لكم على سبيل المثال، وهي أجزاء ما لا يوصف. آمين أقول لكم، من وجد كلمات هذه الأسرار في حق الله [؟ إله الحق]، فإن الإنسان هو رئيس الحق، وهو نظيره، بسبب هذه الكلمات والأسرار. إن الكون يدين بوجوده لهذه الكلمات والأسرار. ولهذا

السبب فإن من وجد كلمات هذه الأسرار، فهو مساوٍ للرئيس [من بين الجميع]. إنه غنوص غنوص ما لا يوصف، والتي أتحدث إليكم عنها اليوم.

أما المجموعة الثانية من المقتطفات فهي أطول بكثير وتأتي في نهاية المخطوطة، وتشغل مساحة
ص 357-390. تبدأ بالكلمات التالية:

تأهيل التلاميذ على الجبل "لذلك، بعد أن صلبوا يسوع، معلمنا، قام من بين الأموات في اليوم الثالث. فاقترب إليه التلاميذ وتوسلوا إليه قائلين: "يا معلم، ارحمنا،

ص 509

لأننا تركنا أبانا وأمنا والعالم كله، وتبعناك".

نُعرَّف على الفور بجو من الاحتفالات والابتهالات. يقف يسوع بجانب بحر المحيط، محاطًا بتلاميذه، ذكورًا وإناثًا، ويدعو بدعاء مهيب قائلًا: "اسمع لي يا أبانا، يا أبا كل الأبوة، يا نورًا لا حدود له!" تتألف الصلاة من حروف العلة والصيغ الصوفية المتداخلة مع الأسماء "الأصيلة".

يتجمع التلاميذ حوله، وتقف التلميذات خلفه، وجميعهم يرتدون أثوابًا بيضاء من الكتان؛ يقف يسوع عند المذبح ويلتفت مع تلاميذه إلى الجهات الأربع، وينادي اسم IAŌ (أيو) ثلاث مرات. تفسير ذلك هو: "I، لقد خرج البليروم؛ A، سيعودون إلى الداخل؛ Ō، ستكون هناك نهاية للنهايات."

ويتبع ذلك صيغة صوفية، تُفسر على النحو التالي: "يا أب كل أبوة للفضاءات النورانية التي لا حدود لها، استجب لي من أجل تلاميذي الذين أحضرتهم إلى حضرتك، حتى يؤمنوا بكل كلمات حقك؛ امنحهم كل الأشياء التي صرخت إليك من أجلها، لأني أعرف اسم أب كنز النور".

ثم يستدعي يسوع، الذي اسمه السري هو أبيرامينثو، اسم أبي يُسحب الحجاب الأول جانباً. الكنز، قائلاً: "لتتراجع جميع أسرار الحكام والسلطات ورؤساء الملائكة وجميع القوى وجميع أعمال الآلهة غير المرئية [مع إعطاء أسمائهم السرية

ص 510

الثلاثة] وتتدحرج إلى اليمين".

وبعد ذلك، تتجه جميع المناطق السفلية بسرعة نحو الغرب، إلى يسار قرص الشمس والقمر.

يوصف قرص الشمس رمزياً بأنه تنين ضخم بذيله في فمه، يركب على سبع قوى، ويجره أربعة آخرون مصورون على شكل خيول. تُصوَّر مركبة القمر على أنها سفينة، ودفتها، أو مجاديفها، عبارة عن تنينين، ذكر وأنثى؛ تجرها ثيران، ويقودها طفل على مؤخرتها، وفي مقدمتها وجه قطة.

يدخلون طريق الوسط. ويحلق يسوع وتلاميذه عالياً إلى المناطق الجوية، طريق الوسط، ويصلون إلى الدرجة الأولى من طريق الوسط.

يتم وصف ترتيب مجال القدر. هنا يتم تعليم التلاميذ طبيعة هذا الفضاء وحكامه. قيل لهم أن فوقهم اثني عشر أيوناً، ستة منها يحكمها أداماس وستة يحكمها إيابروث. لقد تاب الستة الذين كانوا تحت قيادة إيابروث ومارسوا أسرار النور، ولذلك حملهم إيو، "والد أبي"، إلى جو نقي بالقرب من ضوء الشمس. رفض الستة الذين كانوا تحت قيادة أداماس أسرار النور، واستمروا في سر الجماع، أو الاتحاد الجنسي، وأنجبوا حكامًا ورؤساء ملائكة، وملائكة، وعمالًا، ورؤساء قبائل. وبناءً على ذلك، فقد تم ربطهم بواسطة إيو في مجال القدر. يوجد الآن ثلاثمائة وستون من هذا النسل، ومرة أخرى ألف وثمانمائة (1800 = 360 × 5) في كل أيون. وقد نصب إيو فوقهم خمسة حكام عظام آخرين، يطلق عليهم في عالم البشر هذه الأسماء: كرونوس، وآريس،

ص. 511

وهرمس، وأفروديت، وزيوس. كما تم ذكر أسمائهم الغامضة التي لا تشوبها شائبة وأصلهم.

زيوس هو رأس الأربعة، لأن إيو فكر "أنهم بحاجة إلى دفة لتوجيه العالم والأيونات والمجالات". زيوس طيب، ويقضي ثلاثة أشهر في دورات القوى الحاكمة الأربع المتبقية، "حتى يتحرر كل حاكم يأتي في عهده من إثمه". إن ما يميز زيوس هو أنه يمتلك أيونين لمسكنه.

يشير كل هذا إلى ترتيب مجال القدر؛ لكن مريم، التي تُصوَّر أيضًا في هذه المقتطفات على أنها السائلة الرئيسية، ترغب في أن تُعلَم لماذا تُوضع الطرق الهوائية للوسط، التي هي فيها، والتي تقع أسفل مجال القدر، "فوق عذابات عظيمة". تتوسل إلى المخلص أن يرحمهم، "لئلا يأخذ المتلقون نفوسنا إلى أحكام طرق الوسط".

يعدهم المعلم في المقابل بإعطائهم أسرار كل الغنوص: سر الأيونات الاثني عشر جميع الأسرار حتى تلك المتعلقة بكنز النور موعودة لهم.للحكام، وأختامهم، وأعدادهم، وطريقة الاستدعاء للدخول إلى مناطقهم؛ وبالمثل سر الأيون الثالث عشر (اليسار)؛ وسر معمودية أهل الوسط؛ وسر معمودية أهل اليمين؛ والسر العظيم لكنز النور.

"سأعطيكم جميع الأسرار وكل الغنوص، حتى تُدعوا أبناء البليروما، كاملين في كل غنوص وكل سر. طوبى لكم جميعاً ممن على الأرض، فقد جاء أبناء النور في زمانكم."

في هذه الطرق الوسطى يرتبط

ص 512

عقوبات طرق الوسط. أكثر بـ 360 من نسل أداماس، وخمسة حكام عظام آخرين مثبتون عليهم، كنوع من انعكاس الفضاء أعلاه. تم ذكر الأسماء والأنواع والتسلسلات الهرمية الفرعية الأصلية لهذه الأنواع الخمسة. ويشرح كيف يتم تنظيم كل شيء بواسطة إيو، الذي هو العناية بجميع الحكام والآلهة والقوى الموجودة في مادة نور الكنز، وبواسطة زوروكوثورا (ملكي صادق)، مندوب جميع قوى النور التي يتم تطهيرها بين الحكام. ينزل هذان النوران العظيمان في مواسم محددة، ليجمعا

الإشعاع النقي للنور من أولئك الذين طهروهم من بين الحكام؛ ويتم ذلك عندما يحين وقت وعدد مهمتهما. لكن عندما تنسحب الأنوار العظيمة مرة أخرى، فإن الحكام يتمردون مرة أخرى بسبب "غضب إثمهم"، ويسيرون ضد قوى النور في النفوس، و"يسرعون في إبعاد كل النفوس التي يستطيعون مطاردتها واغتصابها، لتدميرها في دخان ظلامهم ونارهم الشريرة".

مدة العقوبات. يتم تحديد الأوقات التي يجب أن تقضيها النفوس في كل منطقة من مناطق العقاب هذه من التسلسلات الهرمية الشيطانية الخمسة، وكيف يتم إنهاء هذه الأوقات. لنأخذ المثال الأول: "يحدث بعد هذه السنوات، عندما تدور كرة صباؤوت الصغير (أي زيوس) بحيث تدخل في الأيون الأول من الكرة، والذي يسمى في العالم كبش بوباستيس (أي أفروديت)؛ وعندما تدخل هي [أفروديت] البيت السابع من الكرة، وهو بيت الميزان، [يحدث] أن تُسحب الحجب بين اليمين

واليسار، ويظهر من الأعلى، بين اليمين، صباؤوت العظيم، الخير، [سيد] العالم كله والفلك كله. لكن قبل أن يلقي نظرة إلى الخارج، ينظر إلى مناطق بارابلكس [حاكم التسلسل الهرمي الشيطاني الأول]، لكي تتلاشى وتفنى، ولكي تُخرج جميع النفوس التي تعاني من عذابها وتُقاد مرة أخرى إلى المجال (الكرة)، لأنها تهلك في عذاب بارابلكس."

وكذلك بالنسبة للأربعة الآخرين من الخمسة، مع إجراء التعديلات المناسبة. يبدو أن إيو وملكي صادق هما قوتان وراء الشمس والقمر أو يرمز إليهما.

"هذه إذن هي أعمال طرق الوسط التي سألتموني عنها."

ولما سمع التلاميذ هذا الكلام، سجدوا له وعبدوه قائلين: "أنقذنا". التلاميذ يصلون من أجل الرحمة للخطاة. يا معلمنا، ارحمنا، لكي نحفظ من هذه العذابات الخبيثة التي أعدت للخطاة. ويلٌ لهم! ويلٌ لبني آدم! لأنهم كالأعمى الذي يتحسس في الظلام ولا يبصر. ارحمنا يا معلمنا في العمى العظيم الذي نحن فيه، وارحم الجنس البشري بأكمله؛ لأنهم يتربصون بنفوسهم، كالأسود التي تتربص بفريستها، ليمزقوها إرباً ويجعلوها طعاماً لعذابهم، بسبب النسيان والجهل اللذين يعيشون فيهما. ارحمنا يا معلمنا ومخلصنا، ارحمنا، واحفظنا من هذا الذهول العظيم!"

قال يسوع لتلاميذه: "تشجعوا ولا تخافوا، لأنكم مباركون؛ بل سأجعلكم سادة على هؤلاء جميعاً، وأخضعهم تحت أقدامكم". تذكرون أنني قلت لكم قبل صلبي: "سأعطيكم مفاتيح ملكوت السماوات". وأقول لكم الآن مرة أخرى: سأعطيكم إياها."

يدخلون في جو من نور عظيم للغاية. عندما قال يسوع هذا الكلام، أنشد دعاءً بالاسم العظيم، واختفت مناطق طرق الوسط

عن الأنظار، وبقي يسوع وتلاميذه في جو من نور عظيم للغاية.

قال يسوع لتلاميذه: "تعالوا إليّ". فأتوا إليه. التفت نحو أركان العالم الأربعة؛ ونطق بالاسم العظيم فوق رؤوسهم، وباركهم ونفخ في أعينهم. قال لهم يسوع: "انظروا إلى أعلى، وتأملوا ما ترونه!"

رؤية أسرار المعمودية. ورفعوا أعينهم إلى العلاء فرأوا نوراً عظيماً شديد اللمعان، لا يستطيع أحد في العالم أن يصفه.

فقال لهم مرة ثانية: "انظروا إلى النور، ولاحظوا ما ترونه!" قالوا: "نرى ناراً وماءً وخمراً ودماً".

قال يسوع، أي أبيرامينثو، لتلاميذه: "الحق أقول لكم، لم آتِ إلى العالم بشيء حين جئت، إلا هذه النار والماء، وهذا الخمر والدم. أنزلت الماء والنار من منطقة نور النور، من كنز النور؛ أنزلت الخمر والدم من منطقة باربيلو.

ص 515

وبعد ذلك بوقت قصير أرسل إلي أبي الروح القدس على هيئة حمامة.

"النار والماء والخمر هي لتطهير جميع خطايا العالم؛ أما الدم فكان لي كعلامة على جسد البشرية، وقد تلقيته في منطقة باربيلو، القوة العظيمة للخالق الخفي [؟ الأيون الثالث عشر]؛ بينما تجذب الروح جميع النفوس وتجلبها إلى منطقة النور."

هذه هي "النار" التي جاء ليلقيها "على الأرض" وفقًا لقول سابق؛ وهذا هو "الماء الحي" الذي كان ينبغي للمرأة السامرية أن تطلبه؛ وهذا هو "كأس الخمر" في القربان المقدس؛ وهذا هو "الماء" الذي خرج من جنبه.

"هذه هي أسرار النور التي تغفر الذنوب" - أي أسمائها فقط.

بعد ذلك، أصدر يسوع مرة أخرى الأمر لقوى اليسار بالعودة إلى منطقتهم، يعودون إلى الأرض. ووجد التلاميذ أنفسهم مرة أخرى على جبل الجليل.

وبعد ذلك يحتفل يسوع بالقربان المقدس الصوفي وأول معمودية بالماء، باحتفالات الاحتفال بالقربان المقدس. وابتهالات مطابقة تقريبًا لتلك الموجودة في مخطوطة بروسيانوس. يستفسر التلاميذ أكثر عن طبيعة معمودية البخور [؟ النار]، ومعمودية الروح القدس، والمسحة الروحية، ويطلبون أن يُكشف لهم "سر نور أبيك".

قال لهم يسوع: "أما هذه الأسرار التي تسعون إليها، فليس هناك الأسرار التي ستُكشف. أعلى منها". سوف يأخذون نفوسكم إلى نور الأنوار، إلى مناطق الحق

ص 516

والبر، إلى منطقة قدس الأقداس، إلى المنطقة التي لا يوجد فيها أنثى ولا ذكر، ولا شكل في تلك المنطقة، بل نور فقط، دائم، لا يوصف.

"لا يوجد سر أعلى من الأسرار التي تسعون إليها، إلا سر الأصوات السبعة وقواها وأعدادها التسعة والأربعين؛ والاسم الذي هو أعلى من كل ذلك، الاسم الذي يجمع كل أسمائهم، وكل أنوارهم، وكل قواهم."

عقوبات الخطاة في العوالم السفلى والأجساد الشريرة التي يتلقونها عند ولادتهم من جديد. ثم تأتي فجوة، ويتم استئناف النص في منتصف موضوع مختلف تمامًا. يتناول هذا النص عقوبة من يلعن، ومن يفتري، ومن يقتل، ومن يسرق، ومن يحتقر، ومن يجدف، ومن يمارس الجنس مع الذكور، وفعلاً أشد بشاعة وهو السحر، الذي يثير ذكره شفقة المعلم اللامتناهية إلى الغضب والاستنكار.

أما الصفحات القليلة المتبقية من المخطوطة فتتناول وصف حالة ما بعد الموت للرجل الصالح الذي لم يتلق الأسرار؛ يجب أن يعاني الإنسان عن كل خطيئة على حدة، ولكن حتى أعظم الخطاة، إذا تاب، سيرث الملكوت. تم وصف الوقت المناسب لميلاد أولئك الذين سيكتشفون الأسرار.

كأس الحكمة. أما الرجل الصالح الذي لم يُتلقَّ التأهيل، فلن يُعطى في حياته القادمة جرعة النسيان، بل سيأتي مُتلقّي "صباؤوت الصغير"، الخير، هو الوسط؛ يأتي بكأسٍ مليئةٍ بالحدس والحكمة، وأيضًا بالتبصر، ويُعطيها للنفس، ويُلقي بالنفس في جسدٍ لن

ص 517

يستطيع النوم والنسيان، بسبب كأس التبصر التي أُعطيت له، بل سيظل دائمًا نقي القلب، باحثًا عن أسرار النور، حتى يجدها، بأمر من عذراء النور، لكي [ترث تلك النفس] النور إلى الأبد.

تنتهي المقتطفات بتضرع التلاميذ مرة أخرى إلى يسوع أن يرحمهم؛ ملاحظات كاتب. وينتهي المخطوط بأكمله بملاحظة من كاتب يصف فيها تبشير الرسل:

"خرجوا ثلاثة ثلاثة إلى النقاط الأربع للسماء؛ وبشروا ببشارة الملكوت في العالم كله، وكان المسيح نشطاً معهم في كلمات التأكيد والآيات والعجائب التي رافقتهم. وهكذا عُرفت مملكة الله في كل الأرض وفي كل عالم إسرائيل، [وهذه] شهادة لجميع الأمم التي من المشرق إلى المغرب."

ص 518

ملخص شظايا كتاب اللوغوس العظيمة وفقًا للأسرار.

كتاب غنوص الإله غير المرئي. الصفحة الأولى تحمل عنوانًا جميلًا: "لقد أحببتكم واشتقت لأن أهبكم الحياة"، ويليها البيان: "هذا هو كتاب غنوص (جمع) الإله غير المرئي"؛ إنه كتاب غنوص يسوع الحي، الذي من خلاله تُكشف جميع الأسرار الخفية للمختارين. يسوع هو مخلص النفوس، كلمة الحياة، أرسله الآب من عالم النور إلى البشرية، الذي علم تلاميذه العقيدة الواحدة والوحيدة، قائلاً: "هذه هي العقيدة التي تسكن فيها كل الغنوص".

من الواضح أن هذه مقدمة كتبها محرر أو جامع؛ مباشرة بعد ذلك يبدأ حوار بين يسوع والتلاميذ.

يقول يسوع: "طوبى للرجل الذي يصلب العالم ولا يدع العالم يصلبه".

الحكمة الخفية. ثم يشرح أن مثل هذا الرجل هو الذي وجد كلمته، وأتمها وفقًا لإرادة الآب. يتوسل الرسل إلى المعلم أن يخبرهم بهذه الكلمة، لأنهم تركوا كل شيء واتبعوه؛ إنهم يرغبون في أن يتم تعليمهم عن حياة الآب.

يجيب يسوع بأن حياة أبيه تكمن في تطهيرهم لنفوسهم من كل دنس أرضي، وجعلهم يصبحون من جنس العقل، حتى يمتلئوا بالفهم،

ص 519

ويكملوا أنفسهم بتعليمه، وينجوا من حكام هذا العالم ومصائده التي لا تنتهي. فليسارعوا إذن إلى تلقي الغنوص الذي سيمنحه لهم - كلمته - لأنه منزه عن كل دنس العالم.

ينطلق التلاميذ في مديح المعلم - كالنور الساطع في ضوء النهار - الذي أنار قلوبهم حتى يتلقوا نور الحياة، عن طريق الغنوص الذي يعلم الحكمة الخفية للرب.

يقول يسوع: "طوبى للرجل الذي يعرف هذا [الكلمة] والذي أنزل السماء، شرحٌ لمقولة غامضة. وحمل الأرض ورفعها نحو السماء؛ فتصبح [الأرض] في الوسط، لأنها لا شيء."

يُفسَّر مفهوم السماء بأنه كلمة الآب غير المرئية. أولئك الذين يعرفون هذا - (الذين يصبحون أبناء العقل الحقيقي) - ينزلون السماء إلى الأرض. إن رفع الأرض إلى السماء هو التوقف عن كونها ذكاءً أرضيًا، من خلال تلقي كلمة هؤلاء الغنوصيين (جمع) والتحول إلى ساكن في السماء. وهكذا سينجون من حاكم هذا العالم، وسيصبح هو الوسط (أي ربما أنهم سيكونون فوق الحاكم ولن يخضعوا له كما كان من قبل؛ سيكون "لا شيء" بالنسبة لهم، أي لن يكون له أي تأثير عليهم). بل إن قوى الشر ستحسدهم لأنهم يعرفونه، وأنه ليس من هذا العالم، وأنه لا يأتي منه شر. أما الذين ولدوا في جسد الإثم (وهم ليسوا أبناء الجنس الصالح، أي المولودين من الميلاد الثاني)، فليس لهم نصيب في ملكوت الآب.

ص 520

جسد الجهل. عندئذٍ يشعر التلاميذ باليأس، لأنهم ولدوا "بحسب الجسد" ولم يعرفوه إلا "بحسب الجسد". لكن المعلم يوضح أن المقصود ليس لحم أجسادهم، بل لحم الظلم والجهل."

يطلب التلاميذ أن يتم تعليمهم طبيعة الجهل (ἀγνοία، عكس الغنوص، γνῶσις)، ويخبرهم المعلم أنه لفهم هذا السر العظيم، يجب عليهم أولاً أن يلبسوا بتوليته وبره، ورداءه (رداء المجد)، وأن يسعوا لفهم تعاليم الكلمة، والتي من خلالها سيتعلمون معرفته في كمال (البليروما) الآب.

فأجاب الرسل قائلين: "يا رب يسوع، أيها الحي، علمنا الكمال وهذا يكفينا".

لسوء الحظ، ينقطع النص هنا وتضيع الصفحات؛ ولا يوجد في المخطوطة أي تكملة مباشرة.

بأخذ كتاب شميدت الثاني عن إيو أولاً، نتعرف على السرد التالي.

أسرار كنز النور. يأمر يسوع التلاميذ الاثني عشر وكذلك التلميذات أن يحيطوا به، ويعدهم بأن يكشف لهم الأسرار العظيمة لكنز النور، والتي لا يعرفها أحد في الإله غير المرئي (أي لا أحد حتى من قوى الأيون الثالث عشر - أيون الذي يحيط أو يتجاوز أو يقع داخل الأيونات الاثني عشر - والذي يحكمه الإله غير المرئي). إذا اكتملت هذه الأسرار، فلن يستطيع حكام الأيونات الاثني عشر ولا حكام الإله الخفي تحملها أو فهمها،

ص 521

لأنها الأسرار العظيمة لباطن باطن كنز النور. عندما تكتمل هذه الأمور، يأتي متلقو كنز النور ويأخذون النفس من الجسد، ويحملونها عبر جميع الأماكن الدنيا إلى كنز النور. نعم، إن خطايا تلك النفس، سواء كانت واعية أو غير واعية، تُمحى، وتصبح النفس نورًا خالصًا. ولا تمر النفس المطهرة عبر جميع الفضاءات الدنيا فحسب، بل تمر أيضًا إلى داخل عالم النور، دائمًا إلى الداخل، داخل جميع فضائه وأنظمته وقواه، إلى فضاء ما لا يمكن احتواؤه في أعمق فضاء لكنز النور.

يجب حراسة هذه الأسرار بأقصى درجات السرية، وعدم الكشف عنها لأي شخص غير جدير بها؛ يُكشف للمستحقين فقط. لا للأب ولا للأم، ولا للأخت ولا للأخ، ولا لأي قريب؛ لا من أجل الطعام ولا الشراب، ولا من أجل النساء ولا الذهب ولا الفضة، ولا من أجل أي شيء في هذا العالم. لا يوجد ساحر فوق الجميع، أولئك الذين يمارسون طقوسًا بغيضة معينة، إلههم هو ابن الحاكم العظيم، صباؤوت أداماس - عدو ملكوت السماء، رئيس الحكام الستة غير التائبين. تم الكشف عن الاسم الغامض لهذه القوة ووصف شكلها الوحشي.

أولئك وحدهم هم الجديرون بأسرار كنز النور (انبثاق الإله الذي لا يُدنى منه) الذين تخلوا عن العالم بأسره وكل ما يتعلق به، وآلهته وقواه، وركزوا إيمانهم كله على النور، وأصغوا

لبعضهم البعض، وأخضعوا أنفسهم لبعضهم البعض، كما يفعل أبناء النور.

وبما أن التلاميذ قد تركوا آباءهم

ص 522

الأسرار الصغرى. وأمهاتهم وإخوتهم وكل ممتلكاتهم، وتبعوه وأتمموا وصاياه، فإن يسوع يعدهم بأنه سيكشف لهم الأسرار على النحو التالي: سر الأيونات الاثني عشر ومستقبليها، وطريقة استدعائهم، حتى يتمكن التلاميذ من المرور عبر فضاءاتها؛ سر الإله غير المرئي (الأيون الثالث عشر) ومستقبليه (أولئك الذين على اليسار)، إلخ؛ وأولئك الذين في الوسط، إلخ؛ وأولئك الذين على اليمين. لكن قبل كل شيء سيعطيهم أسرار المعموديات الثلاث - معمودية الماء، ومعمودية النار، ومعمودية الروح القدس. وعلاوة على ذلك، سيعطيهم سر سحب الحقد أو الشر (κακία) من الحكام، وبعد ذلك سر المسحة الروحية.

الوصايا الصالحة. لكن عليهم أن يتذكروا أنه عندما ينقلون هذه الأسرار بدورهم إلى الآخرين، يجب أن يأمروهم ألا يحلفوا كذباً، ولا حتى أن يحلفوا على الإطلاق؛ ولا أن يزنوا ولا أن يرتكبوا الزنا؛ ولا أن يسرقوا ولا أن يشتهوا أموال الآخرين؛ ولا أن يحبوا الفضة ولا الذهب، ولا أن يستدعوا أسماء الحكام الأشرار الاثنين والسبعين أو ملائكتهم لأي غرض؛ ولا أن يسرقوا، ولا أن يلعنوا، ولا أن يغتابوا كذباً، ولا أن يشتموا، بل أن يكون كلامهم نعم نعم ولا لا؛ باختصار، يجب عليهم أن يلتزموا بالوصايا الصالحة.

يذكّر التلاميذ يسوع بأن وعده الأول كان أن يُمنحوا أسرار كنز النور، الأعظم، الذي هو فوق هذه الأسرار الأدنى التي تحدث عنها.

ولما رأى يسوع أن التلاميذ لم

ص 523

يكتفوا بترك كل شيء في العالم وحفظ جميع الوصايا، بل اتبعوه الأسرار الكبرى. أيضًا لمدة اثنتي عشرة سنة، أكد لهم أنه سيكشف لهم المزيد من أسرار كنز النور، وهي: سر الحراس التسعة لأبواب كنز النور الثلاثة وطريقة استدعائهم لكي يمروا عبرها؛ سر ابن الطفل، إلخ؛ سر الآمينات الثلاث؛ سر الأشجار الخمس؛ سر الأصوات السبعة؛ إرادة (؟ سر) القوى التسع والأربعين؛ سر الاسم الأعظم من بين جميع الأسماء، أي النور العظيم الذي يحتوي على كنز النور أو يتجاوزه. إن أسرار الكنز النوراني الرئيسية هي تلك المتعلقة بالأشجار الخمسة والأصوات السبعة والاسم العظيم. ومع ذلك، هناك سر عظيم آخر، يمنح الإنسان كل ما عدا ذلك - سر غفران الذنوب؛ هذا السر يحول النفس إلى نور خالص، حتى يمكن استقبالها في نور الأنوار.

لقد ورثت هذه النفوس بالفعل ملكوت الله وهي لا تزال على الأرض؛ ولها نصيبها الصلاحيات التي يمنحونها. في كنز النور وهي آلهة خالدة؛ وعند الموت، عندما تغادر الجسد، تتفرق جميع الأيونات وتهرب إلى الغرب، إلى اليسار، حتى تصل نفوسهم إلى أبواب كنز النور. وتُفتح لهم الأبواب،

ويمنحهم الحراس أختامهم واسمهم العظيم. وهكذا يمرون تباعاً عبر مختلف الرتب، حيث يتلقون الأختام والكلمات الرئيسية المتتالية - داخل الأشجار الخمس والأصوات السبعة؛ بل وأكثر

ص 524

من ذلك في الداخل، إلى رتب الذين لا أبو لهم، إلى فضاءات ميراثهم - رتبة الروحانيين ثلاث مرات؛ حتى يصلوا إلى فضاء إيو، رب الكنز بأكمله - الكنز الأوسط؛ ومن ثم إلى الداخل إلى الكنوز الداخلية - فضاءات باطن الباطن، باطن الباطن، إلى الصمت، إلى السلام الأبدي، في تلك الفضاءات الأبدية.

يعد يسوع بإعطاء كل هذه الأسرار لتلاميذه، حتى يُطلق عليهم اسم "أبناء الكمال (بليروما) الكاملين في جميع الأسرار".

ثم جمع المعلم تلاميذه، رجالاً ونساءً، حوله قائلاً: "تعالوا جميعاً واحصلوا على المعموديات الثلاث، قبل أن أخبركم سر الحكام!"

الطقوس السرية لمعمودية ماء الحياة. يأمرهم بالذهاب إلى الجليل وإيجاد رجل أو امرأة مات فيهما الجزء الأكبر من الشر (أو فائض الفجور)، أي من توقف عن الجماع أو الجنس (συνουσία)، وأخذ جرتين من الخمر من هذا الشخص وإحضارهما إلى المكان الذي هو فيه، وكذلك غصنين من الكرمة.

فيفعلون ذلك، ويحدد المعلم مكانًا للقربان (θυσία)، ويضع جرة نبيذ واحدة على اليمين وأخرى على اليسار، وينثر بعض التوت والتوابل حول الأواني؛ ثم يجعل التلاميذ يرتدون أردية من الكتان الأبيض، ويضع نبتة معينة في أفواههم، وعدد الأصوات السبعة ونبتة أخرى في أيديهم، ويرتبهم حول التضحية.

ثم بسط يسوع قطعة قماش من الكتان، ووضع عليها كأسًا وخبزًا أو أرغفة حسب عدد

ص. 525

التلاميذ؛ وأحاطها بأغصان الزيتون، ووضع أيضًا أكاليل من أغصان الزيتون على رؤوس تلاميذه. ثم يقوم بختم جباههم بختم معين (يتم تقديم الرسم التخطيطي له، واسمه الأصلي، وتفسيره - أيضًا في الشفرة السرية).

ثم يتجه المعلم مع تلاميذه إلى أركان العالم الأربعة، ويأمر التلاميذ بوضع أقدامهم معًا (وضعية الصلاة). ثم يقدم صلاة تسبقها دعاء بلغة غامضة، تتخللها ثلاث مرات كلمة "آمين"، وتستمر على النحو التالي:

"اسمعني يا أبي، يا أب كل الأبوة، يا نورًا لا حدود له، يا من أنت في كنز النور، فليأتِ الأنصار [أو الوزراء (παραστάται)]، الذين يخدمون العذارى السبع للنور اللواتي يترأسن معمودية الحياة!" [تم ذكر الأسماء الغامضة للأنصار هنا.] ليأتوا ويعمدوا تلاميذي بماء الحياة من عذارى النور السبع، ويغسلوا خطاياهم ويطهروا

آثامهم، ويحسبوهم من بين ورثة ملكوت النور! إذا كنت قد سمعتني الآن ورحمت تلاميذي، وإذا كانوا قد حُسبوا من بين ورثة ملكوت النور، وإذا كنت قد غفرت خطاياهم ومحت آثامهم، فليكن ذلك معجزة، وليأتِ زوروكوثورا ويضع ماء معمودية الحياة في إحدى هذه الجرار!"

وحدثت المعجزة، وتحول الخمر في الجرة اليمنى إلى ماء؛ وقام يسوع بتعميدهم، وأعطاهم من الذبيحة،

ص 526

وختمهم بختم (؟ الأنصار)، ففرحوا فرحاً عظيماً.

معمودية النار. هذه هي معمودية الماء؛ ثم يُقدَّم لنا وصف لمعمودية النار. في هذه الطقوس يتم استخدام أغصان الكرمة؛ حيث يتم نثر مواد مختلفة من البخور عليها. يتم تحضير القربان المقدس كما كان من قبل، وبقية التفاصيل متطابقة تقريبًا؛ يتم استخدام عدد الأصوات السبعة مرة أخرى، لكن الختم مختلف.

الصلاة أطول من الصلاة السابقة، ولكنها جميعها لنفس الغرض؛ لم يعد المعمدون السماويون هم خدام العذارى السبع، بل عذراء الحياة نفسها، القاضية؛ هي التي تعطي ماء معمودية النار. يُطلب حدوث معجزة في "نار هذا البخور العطري"، وقد تحققت عن طريق زوروكوثورا، وهو اسم يُفسر الآن على أنه ملكي صادق. لم يتم تحديد طبيعة تلك الظاهرة العجيبة. قام يسوع بتعميد التلاميذ، وأعطاهم من ذبيحة القربان المقدس، وختم جباههم بختم عذراء النور.

معمودية الروح القدس. يلي ذلك معمودية الروح القدس. في هذه الطقوس يتم استخدام كل من جرار النبيذ وأغصان الكرمة؛ أما التفاصيل الأخرى فهي متشابهة للغاية، حيث يتم استخدام عدد الأصوات السبعة مرة أخرى. لم يتم ذكر مانحي المعمودية السماويين، ولكن بما أن الختم النهائي بعد الطقس يكون بختم العذارى السبع للنور، فيمكننا أن نفترض أنهم مانحي المعمودية. وتحدث معجزة أخرى، لكنها لا تُحدد بشكل أكبر.

بعد ذلك لدينا سر سحب

ص 527

شر الحكام. لا يوجد هنا أي ذكر للقربان المقدس، ولكن من نواحٍ أخرى فإن الطقوس سرّ سحب شرّ الحكام. متشابهة للغاية، وتتكون من تقديم بخور متقن. العدد هو عدد الآمين الأول، والختم متقن للغاية. يطلب الدعاء أن يأتي صباؤوت أداماس وجميع رؤسائه، وأن يزيلوا شرهم أو شقاوتهم عن التلاميذ. وفي النهاية، يتم ختم التلاميذ بختم آمين الثاني، ولم يعد للحكام أي سلطة عليهم؛ لقد أصبحوا الآن خالدين، ويمكنهم اتباع يسوع إلى جميع الأماكن التي يرغبون في الذهاب إليها.

بعد أن أعطى يسوع التلاميذ أسرار المعمودية، وطريقة استدعاء القوى، وأعدادها، وأختامها، وأسمائها الحقيقية، وعدهم بإعطائهم التفسيرات (الدفاعات أو الصيغة)، التي سيتمكنون من خلالها من الدخول إلى باطن الفضاءات أو عوالم هذه القوى، والمرور من خلالها.

وبحسب ما تم تعليمهم، سيتمكنون، عند خروجهم من الجسد، من المرور منح القوى مع الأسرار الصغرى. عبر عوالم الأيونات الستة التي لم تتوب، وهي عوالم صباؤوت أداماس؛ هؤلاء مع جميع حكامهم وسكانهم سيتفرقون أمامهم. لكن عند بلوغهم الأيونات الستة العظيمة (أولئك الذين يبدو أنهم من إيابروث، الذين تابوا وآمنوا بالنور)، سيتم احتجازهم حتى يتلقوا سر غفران الخطايا.

يقال إن سر غفران الذنوب يكمن في باطن باطن كنوز النور؛ إنه الخلاص الكامل للنفس. إن من يحصل عليه يكون أفضل

ص 528

سر غفران الذنوب. من جميع الآلهة وقوى الأيونات الاثني عشر للإله الخفي (حاكم الأيون الثالث عشر). هذا السر هو السر الأعظم للإله الذي لا يُدنى منه؛ إنه كمال جميع الأسرار، مما يجعل النفس كاملة تمامًا.

إن هذا السر هو الذي سيمكن التلاميذ من الانتقال إلى أيونات الإله غير المرئي - أي الفضاءات التي لا تستطيع أي عين مادية رؤيتها، وراء عناصر الماء والنار والهواء (أو الأثير) - والتي تم بالفعل إعطاء أسرار المعمودية الخاصة بها.

القوة التي يمنحها. ولكن بمساعدة طقوس سر غفران الخطايا، ستنسحب جميع الأيونات إلى الغرب، إلى اليسار، كحجاب أمام العيون، حتى الأيون الثاني عشر، الذي سيتطهر حينها بنور كنز النور، بحيث تتطهر جميع الطرق التي صعد بها التلاميذ؛ وعلاوة على ذلك، سيُكشف عن الجزء الخارجي من كنز النور (الجزء الخارجي هو فضاء الأيون الثالث عشر)، وسيرون السماء من الأسفل. عند هذه النقطة سيقدم لهم يسوع التفسيرات والأختام والأرقام الخاصة بالسر مع تفسيراتها. وعندما يتلقون هذه الأشياء ويخرجون من الجسد، سيصبحون نوراً خالصاً ويرتفعون إلى كنز النور.

ثم سيفتح حراس أبواب الكنز لهم، وسيمرون صعودًا وإلى الداخل عبر المساحات التالية، والقوى الموجودة فيها تفرح وتمنحهم أسرارها وأختامها وأسماء قوتها: رتب الآمين الثلاثة، وطفل

ص. 529

الطفل، والمخلصين التوأمين، والصباؤوت العظيم، وإيو العظيم الصالح، للسبعة ترتيب الكنز النوراني. آمين، للأشجار الخمس، للأصوات السبعة؛ لرتب غير القابلين للاحتواء، لرتب غير القابلين للاختراق؛ لرتب أولئك الذين هم قبل وخلف (في الزمان والمكان) غير القابلين للاحتواء وغير القابلين للاختراق: لرتب غير القابلين للاستدامة، وأولئك الذين هم قبلهم وخلفهم؛ لرتب الثابتين، وأولئك الذين هم قبلهم وخلفهم؛ لرتب اليتامى، وأولئك الذين هم قبلهم؛ لرتب الانطباعات الخمس، والفضاءات الثلاثة، ووالأننصار الخمسة، والروحاني الثلاثي، والقوة الثلاثية، والوصية الأولى (أو النظام الأساسي)، والإرث، والصمت والسلام، والحجب التي تُسدل أمام الملك العظيم لكنز النور، إلى الرجل العظيم نفسه، ملك عالم النور بأكمله، واسمه إيو.

وقد ذُكرت هذه الفضاءات والترتيبات أيضًا في رسالة بيستيس صوفيا، لكنني حذفتها من الملخص حتى لا أربك القارئ. إن الموضوع صعب للغاية، ولم ينجح أحد حتى الآن في إعادة بناء المخطط المفصل للغنوص الذي افترضه جامع أو جامعو أطروحاتنا، ويعود ذلك إلى حد كبير إلى حالة التجزئة التي تعاني منها مخطوطة بروسيانوس من جهة، وإلى البيانات غير الكافية لمخطوطة أسكيو من جهة أخرى.

لا يزالون متجهين للأعلى وللداخل ليحلقوا إلى فضاء النور العظيم الذي يحيط أو النور العظيم. يتجاوز كنز النور الخارجي نفسه. إيو

ص 530

موجود هناك أيضاً، إنه النور العظيم؛ هذا هو الكنز النوراني الثاني أو الداخلي. سيفتح الحراس البوابات وسيدخلون في صفوف القوى الثلاثية لكنز النور الثاني؛ ومن ثم إلى الداخل إلى الرتبة الثانية عشرة للقوة العظمى الثانية عشرة لفيض الإله الحق. هناك اثنتا عشرة قوة عظمى، ولكل منها اثنا عشر رئيساً (وقد تم ذكر الأسماء الأصلية). سيقف هؤلاء الاثنا عشر في هذا المكان ويستحضرون الإله الحق بهذا "الاسم" (؟ صلاة)، قائلاً:

التضرع إلى الإله الحق ".استجب لنا يا أبانا، يا أبا كل الأبوة [يتبع هنا جملة في لغة الأسرار تحتوي على أربعة من حروف العلة مكررة سبع مرات - مع التفسير: أي يا أبا كل الأبوة، لأن الكل قد خرج من الألفا، وسيعود إلى الأوميغا عندما يتم تمام كل التمام.] سندعو الآن بأسمائك الخالدة لكي ترسل نورك العظيم، وأن يتبع هؤلاء الاثني عشر الذين لا يمكن احتواؤهم [أي التلاميذ الاثني عشر]، لأنهم قد تلقوا سر غفران الخطايا، ولذلك لا ينبغي منعهم من الاقتراب من كنز نورك.

عندها سيرسل الإله الحق قوته النورانية؛ ستشرق من خلف التلاميذ، وتتسبب في انسحاب جميع كنوز عالم النور الثاني، وسيصلون إلى فضاء الإله الحق.

ثم يقوم الإله الحق بدوره باستدعاء

ص. 531

الإله الذي لا يُدنى منه، أي الواحد الأحد، فيرسل قوة نورانية دعاء لمن لا يمكن الوصول إليه. من ذاته إلى فضاء الإله الحق، فيكتمل التلاميذ في كل كمال ويصبحون نظامًا في ذلك الكنز. سوف يغنون ترانيم الحمد لله الذي لا يُدنى منه، لأنهم، وهم لا يزالون في الجسد، قد تلقوا سر غفران الذنوب، ووصلوا إلى فضاء الإله الحق.

يطلب التلاميذ بعد ذلك أن يُمنحوا هذا السر العظيم؛ يعدهم المعلم بأنه سيمنحه لهم؛ سر الأيون الاثني عشر. ولكن قبل أن يتلقوه، يجب أن يُخبروا بسر الأيونات الاثني عشر (العليا)، وأختامها، وأسمائها، وتفسيرتها. هذه هي مخططات الأختام، والأسماء، والأرقام، والتفسيرات المعطاة؛ والأخيرة تأتي على شكل "أفسحوا الطريق [أسماء غامضة] يا حكام الأول (الثاني، إلخ.)". أيون، لأني أستحضر [أسماء غامضة أخرى - وهذه أسماء أسمى لكنز النور].

يُطلق على الأيون السادس (؟ السابع) اسم الوسط الصغير، لأنه ينتمي إلى الأيونات الستة التي آمنت بالنور؛ حكام هذه الأيونات لديهم القليل من الخير فيهم.

في الأيون الثاني عشر، يكون الإله غير المرئي، وباربيلو هو الإله الذي لا يمكن تصوره. الإله الخفي موجود في مكان بمفرده في الأيون الثاني عشر مع حجب مسدلة أمامه، وفي ذلك الأيون يوجد العديد من الآلهة الأخرى التي تسمى الحكام العظام للأيونات، على الرغم من كونها خدامًا للإله الخفي، باربيلو والإله غير القابل للتكوين.

في الأيون الثالث عشر يوجد الإله العظيم غير المرئي، والروح العذراء العظيمة (؟ باربيلو) والأربعة

ص. 532

الأيون الثالث عشر. والعشرون انبثاقًا للإله غير المرئي. تم ذكر الأسماء الغامضة لهذه الأربعة والعشرين، وكذلك استدعاء الأسماء العليا لكنز النور الذي يحتوي على سلسلة من أوميغا الثلاثية المكررة أربع مرات، وسلسلة من إيتا الثلاثية المكررة أربع مرات. يقال إن أسماء هذه الانبثاقات هي أسمائها "منذ البداية".

الأيون الرابع عشر. ومع ذلك، في الأيون الرابع عشر يوجد إله عظيم خفي ثانٍ، وإله عظيم آخر يُدعى "العظيم العادل" (χρηστός)؛ وهو قوة من قوى حكام النور الثلاثة الموجودة داخل جميع الأيونات، ولكن بدون كنز النور. وهنا أيضاً أعداد من الانبثاقات. ستحاول قوى هذا الأيون احتجاز التلاميذ حتى يتمكنوا من أداء أسرار يسوع في تلك الأماكن، وبالتالي تتلقى هذه القوى نفسها المزيد من القوى من قوى كنز النور. ومع ذلك، يُمنح التلاميذ الأختام والأرقام والتفسيرات المناسبة، حتى تنسحب السلطات.

الحكام الثلاثة العظام. الآن، يُطلق على الحكام الثلاثة العظام الموجودين داخل كل هؤلاء غير المرئيين (أي انبثاقات الأيونين الثالث عشر والرابع عشر)، ولكن بدون كنز النور، اسم الآلهة ثلاثية القوة، وهم فوق كل الآخرين.

لقد تلقوا هم أنفسهم أسرار كنز النور، لأنه عندما ظهرت القوة الأولى (من مملكة النور) بقوا فيها أولاً (القوة)، وعندما خرجوا منها تم التبشير لهم بمملكة النور. يقول المعلم: "لقد أعطيتهم الأسرار

ص. 533

التي أعطيتها لكم، لكنني لم أعطهم سر غفران الخطايا...". لذلك أقول لكم الآن إني عندما أفصل كل الأيونات، سأعطي هؤلاء الحكام الثلاثة للنور، الذين هم في آخر [أعلى] الأيونات، سر غفران الذنوب، لأنهم آمنوا بسرّ عالم النور.

لا يمكن لأحد أن يتجاوزهم حتى يتلقى سر غفران الخطايا؛ ولكن، يتابع المعلم، لا داعي للخوف من هذا الأمر، لأنه لا يوجد مكان للعقاب في تلك الأماكن، لأن سكانها قد تلقوا الأسرار (؟ للمعمودية).

ثم يتم ذكر الأختام والأسماء والتفسيرات لهذه القوى، وهنا للأسف ينقطع النص فجأة، ونصل إلى نهاية كتاب شميدت الثاني عن إيو.

بالانتقال الآن إلى كتاب شميدت الأول، نصل بعد ذلك إلى وصف عالم النور الأوسط، بخصوص إيو، مُشع عالم النور الأوسط. وحاكمه، الإله الحقيقي، الديميورجوس، الذي تعلوه كنوز البليروما الخاصة بالأب. لا يزال يسوع هو الراوي. إن الموضوع ذو تعقيد هائل، مع انبثاقات لا حصر لها، وكنوز (أي مخازن للثروات والكمال)، وفضاءات، وأنظمة، وتسلسلات هرمية، مع رسوم بيانية ورموز، وحشود من الأسماء "الأصيلة" التي لا أفهمها على الإطلاق، والتي يقال إنها "بلغة أبي". يُترجم الاسم الحقيقي للديميورجوس العلوي إلى الإله الحقيقي أو إله الحقيقة، ويُعطى في الترجمة الصوتية اليونانية باسم

ص 534

Ieou (أيو)، والذي يترجمه شميدت إلى الألمانية باسم Jeû (جيو).

التتراجراماتون. أود أن أقترح أن Ieou هو ترجمة حرفية للاسم الغامض المكون من أربعة أحرف للخالق وفقًا للتقاليد السامية والكلدانية، وهو التتراجراماتون الخاص بالكابالا. يخبرنا ثيودوريت أن السامريين كانوا ينطقون هذا الاسم Iabe (Iave) (إيابي) واليهود Iaō (إياو). منذ القرن السادس عشر، من خلال إضافة حروف العلة الخاصة بـ أدوناي إلى Y H V H التي يصعب نطقها، أصبح يتم نطقها Jehovah (يِهْوَفَ). يُكتب الآن بشكل عام باسم يهوه: ولكن لا يوجد يقين في الأمر، باستثناء حقيقة أن يِهْوَفَ خطأ تمامًا. ربما تكون Ieou أو Iao محاولات في الترجمة الصوتية اليونانية لنفس الاسم السامي، الذي يحتوي على أحرف لا يمكن تمثيلها تمامًا في اليونانية؛ ربما يكون Yahoo أو Yahuwh هو الاسم المخفي في Iacchus (Yach)، والذي تم تحريفه بشكل أكبر إلى Bacchus (باكوس) بواسطة اليونانيين. كان Iacchus الاسم الغامض للقوة الإبداعية في ذلك التقليد الغامض العظيم؛ وكان باكوس هو الاسم في العبادة الشعبية. لكن لنكمل ملخصنا.

يبدو أن يسوع الحي قد اصطحب تلاميذه معه عبر الفضاءات الداخلية للعالم غير المرئي، وأوصلهم إلى مستوى هذا الإله الحق، ومن خلاله يعطي التعليمات الصوفية حول التدبير الإبداعي للكون، في عالم النور.

إنه يُظهر لهم أولاً Ieou في طبيعته الخاصة، كإشعاع بسيط من كنوز الآب التي لا توصف، قبل أن يرسل بدوره الانبثاقات بأمر من الآب. يقال إن مزيجًا غريبًا من الحروف والرموز هو

ص 535

"اسم" هذا الإله "وفقًا للكنوز الموجودة خارج هذه المنطقة" - أي إما المستويات السفلية أو المستويات الفرعية لهذا المستوى.

ثم يتبع ذلك رسم تخطيطي - مربع يحيط بدائرة، بداخلها مربع آخر يحتوي نوع الكنوز. على ثلاثة خطوط؛ ويقال إن هذا الرسم التخطيطي هو نوع الكنوز التي سيحكمها إيو (Ieou)، وهو أيضًا نوع إيو نفسه قبل أن ينبثق.

لكن من إيو ستنبثق مجموعة من الانبثاقات، بأمر من الآب، والذين بدورهم سيصبحون آباء للكنوز؛ كل واحد من هؤلاء الآباء

يُدعى أيضًا إيو. يتم هذا الترتيب بواسطة يسوع باعتباره الكلمة (اللوغوس)؛ لكن الإله الحق هو أب كل هؤلاء الآباء أو الأبوات، لأنه انبثاق مباشر من الآب، ومن خلاله ومنه ستنبثق كل الانبثاق اللاحق. علاوة على ذلك، من كل من الـ إيو التابعين، بأمر من الأب، ستنبثق حشود أخرى لملء الكنوز، وستسمى هذه الرتب (أو التسلسلات الهرمية) لكنوز النور. سينشأ عنهم عدد لا يحصى من لا يحصى. لذلك نحن في مملكة النور.

ثم يُعطى لنا رسم تخطيطي يقال إنه يمثل نوع الإله الحقيقي قبل أن نوع الإله الحق إيو. ينبثق، أي عندما كانت الانبثاقات اللاحقة تحمل الإمكانات بداخله. الرسم التخطيطي يشبه البيضة، مع بيضة أصغر أو نواة بداخلها تحتوي على ثلاثة خطوط أو ضربات. تفتقر كل من البويضة والنواة إلى المحيط العلوي أو القشرة، كما لو كان ذلك لتمثيل شعاع النور الخالق من الأب الذي يتدفق إليهما.

المخططات الصوفية. من المحتمل جدًا، إذن، أن تمثل المربعات في هذه المخططات الكنوز أو الجانب المادي، بينما قد تمثل الدوائر الآلهة أو الجانب الطاقي - ولكن يمكن أن تتبادل هذه العناصر، لأن مادة مستوى أو طور واحد تصبح طاقة المستوى الذي يليه. يبدو أن الخطوط الثلاثة تمثل الثالوث الكامن في كل تجلي، وهذا الثالوث الذي يعمل داخل رباعية المربعات ينتج الترتيب اللانهائي إلى اثني عشر أو اثني عشر. ينبغي علينا أيضًا أن نتذكر أنه على الأرجح لدينا نسخة معيبة للغاية من هذه الرسوم البيانية، لأنه يتعين علينا أن نأخذ في الاعتبار الترجمة والنسخ وإعادة النسخ من قبل الكتبة الجاهلين.

يقال إن الأسطر الثلاثة هي الأصوات الثلاثة التي سيرسلها إيو عندما يُؤمر "بتسبيح الآب"، أي أن ينبعث، لأن هذه هي الطريقة التي تُغنى بها أغنية التسبيح الإبداعية.

علم الأجنة الكوني. بعد ذلك لدينا رسم تخطيطي للحظة الأولى من هذا الانبثاق؛ ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن الرموز المستخدمة تشبه إلى حد كبير الحيوان المنوي والبويضة. يوجد داخل المربع دائرة صغيرة بقطرها الممتد، بحيث تمثل بشكل جيد رأس وذيل الحيوان المنوي؛ تتكون البويضة من ثلاث دوائر متحدة المركز، الدائرة الداخلية منها لها قطر وهي بنفس حجم رأس الحيوان المنوي، الذي له أيضًا قطر مماثل؛ وبالتالي هناك خطان أو ضربات أو أصوات لا تزال كامنة، وواحد فقط ظاهر حتى الآن.

يلي ذلك رسم تخطيطي يبدو أن النصف العلوي منه يكرر الرسم التخطيطي السابق،

ويتكون النصف السفلي من ست دوائر متحدة المركز مع نقطة في المركز. يُطلق على الأخير الختم الموجود على جبين إيو. اسم الختم (χαρακτήρ) على وجه أو جبهة إيو، ويُقال إنه رمز للكنوز. إن هذا الانبثاق من الإله الحق ناتج عن تدفق قوة نورانية من الكنوز التي لا توصف إلى الإله الحق، استجابةً لدعاء يسوع باعتباره الكلمة، داعياً باسم أبيه. تُسمى قوة النور "الفكرة الصغيرة"، على الأرجح للدلالة على أنه على الرغم من قدرتها على تنشيط كل الخليقة، إلا أنها ليست سوى القليل مقارنة بـ "العظمات" أو الأفكار الحقيقية في العقل الإلهي.

ما يلي يتجاوز قدرتي على التلخيص. لدينا مخططات لسلسلة من ثمانية وعشرين عنصرًا من عناصر إيو، الخصائص العامة للمخطط. قبل أن ينقطع النص فجأة مرة أخرى. من المستحيل الآن تحديد العدد الكامل في الأصل؛ يفترض شميدت أنه ثلاثون. يبدو أن الرسوم البيانية قد تم نسخها بإهمال شديد، لكنها تُظهر بعض الخصائص العامة. يتكون الجزء العلوي عمومًا من ستة مربعات، واحد داخل الآخر؛ داخل أصغر مربع توجد كلمة إيو (Ieou)، والاسم الغامض الخاص بـ Ieou أو الكنز الذي يمثله الرسم التخطيطي. تُوضع هذه الأسماء عمومًا فوق شكل مستطيل صغير (أو خطين)، ويقال إنها تمثل "جذر" الفضاءات أو المناطق التي يتم فيها وضع إيو المحدد. يوجد في الأعلى والأسفل، خطان متوازيان يقطعان الجانبين العلوي والسفلي للمربعات الستة، ويقال إنهما يدلان على المسارات التي يجب على المرء أن يسلكها إذا أراد الدخول إلى فضاء والد الكنز. هذه المسارات

ص 538

التي يعبرون فيها جوانب الساحة مميزة بأحرف يونانية، ألفا، والتي يقال إنها ترمز إلى الستائر أو الحجاب الذي يُسدل أمام الأب. فوق كل رسم تخطيطي للمربعات نجد مرة أخرى الخطوط أو الضربات الثلاثة، والتي يقال الآن إنها البوابات أو الأبواب الثلاثة لكل كنز. يحتوي كل كنز على اثنتي عشرة رتبة، مع إرفاق الأسماء الأصلية لرؤساء كل منها، بالإضافة إلى الأسماء الأصلية للحراس أو المراقبين الثلاثة للأبراج.

يتكون النصف السفلي من كل رسم تخطيطي من الختم الموجود على جبهة إيو؛ هذه الأختام عبارة عن دوائر في الغالب ذات محتويات مختلفة، ولكن من الصعب للغاية تتبع أي صلة بينها.

الاثنا عشر، تنظيم ليسوع. بين الرسم البياني الثاني والثالث، يوجد شكل آخر يختلف تمامًا عن بقية السلسلة: أما عن معناه، فليس لدي أي فكرة. ويلي ذلك كلمات يسوع هذه: "من هذه الوصايا سآخذ اثني عشر وأرتبهم لنفسي، لكي يخدموني". وربما يشير هذا إلى النماذج الأولية لنفوس التلاميذ التي يختارها يسوع لنفسه قبل تجسدهم، كما نتعلم من كتاب بيستيس صوفيا.

مع الرسم البياني الثامن والعشرين ينقطع النص فجأة؛ والموضوع التالي الذي نلتقي به، وفقًا لترتيب شميدت للأوراق، هو ترنيمة يغنيها يسوع للسر الأول.

بعد طباعة هذا الجزء في هذا المكان، توصل شميدت إلى استنتاج مفاده أنه يجب فصل هذه الصفحات، ومعاملتها كأجزاء

ص. 539

من عمل آخر، على أساس أنه لا يمكن إدخالها في وحدة عضوية مع الباقي.

نحن الآن في الفضاء السفلي أو المستوى الأدنى من الأيونات الثلاثة عشر، ولكل منها أبوه أو خالقه، وهو إيو، مع حكام وسلطات تابعة، السر الأول التي تُغنى في الأيونات الثلاثة عشر. تسمى ترنيمة decans و liturgi، وتعني الخدم أو الوزراء أو العمال. هناك ثلاثة عشر ترنيمة مدح، واحدة لكل أيون، لكن نص الأربعة الأولى مفقود. المضمون العام لكل عريضة هو كالتالي:

"أنصت إليّ وأنا أسبح بحمدك، يا أيها السر الأول، الذي أشرق في سره [أي سر ذلك الأيون المحدد]؛ لقد كان نورك هو الذي جعلني أرتب هذا الأيون وأقيم فيه حكامه ووزرائه وعماله. [ثم يتبع ذلك "الاسم الخالد" للأيون.] أنقذ جميع أعضائي (أطرافي)، التي تشتتت منذ تأسيس العالم في جميع الحكام والوزراء والعمال في هذا الأيون، واجمعهم جميعًا واستقبلهم في النور!"

تُختتم العريضة الأخيرة بترديد كلمة "آمين" ثلاث مرات.

تكمن خصوصية المديح فيما يتعلق بالأيون الثالث عشر في حقيقة الأيون الثالث عشر. أنه يتم التعامل معه على ما يبدو كمستوى أو فضاء منفصل. بأمر من السر الأول، أوجد إله هذا الفضاء فضاء الانبثاقات الأربعة والعشرين غير المرئية، مع جميع حكامهم وآلهتهم وسادتهم ورؤساء ملائكتهم وملائكتهم ووزرائهم وعمالهم؛ وإلى جانب هذا الفضاء من الأيون الثالث عشر تم تعيين "الآلهة الثلاثة". علاوة على ذلك، وبأمر من

ص. 540

السر الأول، تم وضع الحكام الستة التابعين لإيابروث، الذين آمنوا بمملكة النور، أسفل هذا الأيون الثالث عشر مباشرة في فضاء من الهواء النقي، ويبدو أن الحكام الستة غير التائبين قد تم تعيينهم في الغلاف الجوي السفلي غير النقي.

فيما يتعلق بتشتت الأطراف، يمكننا أن نذكر القارئ باقتباس إبيفانيوس من إنجيل فيليب: "لقد تعرفت على نفسي وجمعت نفسي من جميع الجوانب. لم أزرع أولاداً للحاكم [سيد هذا العالم]، بل اقتلعتُ جذوره؛ جمعتُ أعضائي التي كانت متناثرة في كل مكان، وأنا أعرفك من أنت."

الكنوز الستون. الآن نتعرف على موضوع جديد. يأخذ يسوع تلاميذه الاثني عشر في رحلة عبر كنوز عالم النور الأوسط، ويمنحهم الأختام والأرقام والأسماء الحقيقية التي يمكن من خلالها دخول هذه الكنوز والمرور عبرها. يوجد ستون من هذه الكنوز، لكن روايتنا تبدأ فقط في الكنز السادس والخمسين، لأن جميع الصفحات الفاصلة مفقودة. مما قيل لنا هنا، أميل إلى الاعتقاد بأنه كان هناك أيضًا ستون مخططًا لـ إيو، وليس ثلاثين فقط كما يفترض شميدت. من المفترض أن هناك اثني عشر كنزًا رئيسيًا، ولكن يبدو أن كل كنز منها كان يُنظر إليه من خمس وجهات نظر مختلفة، وتسمى كل وجهة نظر منها ترتيبًا أو نظامًا. وهكذا كان هناك ترتيب من اثني عشر ضعفًا، وترتيب من خمسة أضعاف أيضًا، وكلها كامنة في الإله "الذي يسكن في وسط الكون"، أي في إيو، إله عالم النور الأوسط. من بين الخمسة، يُطلق على اثنين

ص. 541

اسم الطبقة الخارجية، واثنين اسم الطبقة الداخلية، وواحد اسم الطبقة الوسطى.

يقال إن كل كنز محاط بست مناطق أو فضاءات، ممثلة بمربعات الرسوم البيانية. من خلال استخدام الأختام (سلسلة من الرسوم البيانية الغريبة للغاية) والأرقام والأسماء، يقال إن الحراس والرتب والحجب تتفرق ويتم الوصول إلى أعمق فضاء لأب الكنز، وبالتالي يتم الكشف عن سر اسمه الحقيقي. علاوة على ذلك، يوجد داخل كل كنز باب أو بوابة، وبدون ثلاث

بوابات؛ كل بوابة من البوابات الخارجية بها ثلاثة حراس، لكن البوابة الداخلية بها حارس واحد فقط، ويفترض أنه والد الكنز نفسه.

وفي ختام هذا الشرح، سأل التلاميذ

كيف نشأت كل هذه الأماكن وعلاقات الأبوة الفكرة الصغيرة. فيها. يجيب يسوع بأن ذلك بسبب "الفكرة الصغيرة"، التي تركها الآب وراءه ولم يتراجع عنها في ذاته؛ أما كل شيء آخر من الآب فقد تراجع عنه في ذاته. "في هذه الفكرة الصغيرة انطلقت، وكوني في الآب؛ انفجرت وحررت نفسي منها. أشرقتُ وانبثقتُ منه، أول انبثاق منه، صورته ومثاله الكامل. "عندما انبثقت وقفت أمامه." كان هذا هو الصوت الأول.

ثم أشرقت وانبثقت مرة أخرى، مرسلا الصوت الثاني - كل هذه الفضاءات، التي ظهرت واحدة تلو الأخرى.

انطلق الصوت الثالث وانبثق حكام كل هذه الأماكن. هو يسوع، الصوت الأول، الانبثاق الأول،

ص 542

الذي جمع نظامه الخاصة - الاثني عشر، وأخذهم عبر جميع الفضاءات، لكي يخدموه، وقد منحهم القوى التي تمكنهم من المرور عبر كل هذه الفضاءات في الداخل، إلى أعمق فضاء لحاكمها جميعًا، الإله الحق.

اسم القوة العظمى. ثم ذكّر التلاميذ يسوع بأنه وعدهم بإعطائهم اسمًا واحدًا رئيسيًا، يمكن من خلاله اجتياز كل مكان دون التكرار المرهق لكل اسم من الأسماء المنفصلة - الاسم الذي كان المفتاح لفتح كل بوابة في كل كنز. هل هذا، كما يتساءلون، هو الاسم العظيم للآب؟

أجاب المسيح (أول ذكر لهذا اللقب): "لا، بل اسم القوة العظمى الموجودة في كل الفضاءات".

ثم يعطيهم هذا الاسم الأصيل - على ما يبدو جملة مشفرة، تتخللها تكرار ثلاثي للأحرف السبعة المتحركة. يجب أن يقال ذلك في فضاء الإله الحق، في "فضاء الباطن الذي ينتمي إلى فضاء الظاهر". يجب استدعاء الاسم، والتوجه إلى أركان الكنز الأربعة، ثم يتبع ذلك طلب ترك جميع الطرق المؤدية إلى الأبوة مفتوحة للتلميذ، "لأنني استدعيت الاسم العظيم لإله جميع الفضاءات". حينها ستُرفع جميع الحجب، ويتفرق جميع الحكام؛ وسيعودون "إلى هيئتهم الأصلية.

وتابع المعلم: "ها أنا ذا، قد أخبرتكم باسم [المعلم]؛ احفظوه، ولا تكرروه باستمرار، حتى لا تضطرب جميع الفضاءات بسبب المجد الذي فيه".

ص 543

بعد ذلك يأمر يسوع تلاميذه باتباعه، ويذهب أبعد من ذلك إلى الداخل، إلى الكنز السابع؛ ترنيمة للإله الذي لا يُدنى منه، تُغنى في الكنز السابع.

من الواضح أن هذا لا يمكن أن يكون الكنز السابع من الستين، ولكن يجب أن يكون ترتيبًا آخر. وهنا يأمرهم أن يحيطوا به، وأن يجيبوه بثلاثة آمين لكل تسبيح، بينما هو يغني ترنيمة تسبيح للآب بسبب انبثاق الكنوز.

يُخاطب الأب أولاً بالاسم الذي لا يوصف، والذي تُعطى رموزه؛ ثم يُخاطب بـ "الله، أبي"، ثم بـ "الذي لا يُدنى منه". يبدأ شكل كل ترنيمة تسبيح بالكلمات التالية: "أحمدك يا الله الذي لا يُدنى منه، لأنك أشرقت في ذاتك"، وينتهي بالسؤال التالي: "فماذا تريد الآن إلا أن يكون كل هذا يا الله الذي لا يُدنى منه؟"

موضوع الترتيلة هو أن الله قد انسحب إلى ذاته، إلى حقيقته، باستثناء فكرة صغيرة واحدة فقط، ترك لها فضاء كعالم نور متألق، يضيء داخل الآب. إنه إشعاع من الأب في ذاته، وفقًا لمشيئته. هذا النور هو يسوع، الفيض الوحيد للآب من خلال مشيئته. يسوع هو الصورة الكاملة والمثال الأمثل لله. أما الانبثاق الثاني فيخلق الفضاءات التي تحيط بالأب. أما الانبثاق الثالث فهو إحداث قوى وحكام فضاءات النور، والتي تسمى الكنوز. علاوة على ذلك، فإن كل هذه القوى تستمد طاقتها من قوة عظيمة منبثقة من الآب، ولذلك تُسمى آلهة حقيقية، أي آلهة في الحقيقة (على الأرجح على أنها متميزة

ص 544

من آلهة المذاهب العامة). إن هذه القوة هي التي تنشط ليس فقط في مختلف آباء الكنوز، ولكن أيضًا في القوى التابعة.

وهكذا انبثقت أيضًا الحراس أو المراقبون والآباء الستون، واحد لكل كنز. تُسمى هذه الستون "رتب الأشجار الخمس". وهذه القوة أيضاً هي التي أوجدت الأختام والاسم العظيم. وتسمى هذه القوة نفسها أيضًا [الأولى؟] السر والنور - صورة تحيط بالأب.

الكلمة العظيمة بحسب السر. تسمى هذه الفضاءات النورانية فضاءات "الكلمة العظيمة بحسب السر"، التي فيها مجد الآب. وهذا يقودنا إلى افتراض أن "اللوغوس العظيم" في عنوان الرسالة هو نفسه السر الأول، القوة العظمى، وبالتالي فهو مطابق ليسوع. يُطلق على اللوغوي العظيم أيضًا اسم إيو. ثم تستمر الترانيم:

"أحمدك يا إلهي الذي لا يُدنى منه، لأنك أشرقت في ذاتك؛ لقد أفضت سرك الواحد والوحيد، أنت الذي أنت إله لا يُدنى منه حتى بالنسبة لهؤلاء اللوغوسيين." أنت منيع بينهم، في هذا اللوغوس العظيم وفقًا لسر الله، أبو جميع الأيو، الذي هو أنت؛ - ومع ذلك، ما هي إرادتك الوحيدة إلا أن نتقرب إليك فيهم، يا الله الذي لا يستطيع أحد الاقتراب منه، والذي مع ذلك تقربنا إليه في هذا الكلمة العظيم وفقًا لسر الله؟"

أميل إلى الاعتقاد بأن كلمة "لوغوس" تستخدم هنا بمعنيين. وهي تعني عموماً العقل أو

ص 545

الكلمة؛ ويبدو هنا أنها تعني أيضاً الخطبة أو الخطاب أو التعليم.

وتنتهي الترتيلة بمدائح يُقال فيها مرة أخرى أن الآب قد انسحب، أو نفخ، نفسه الفكرة العالمية. بالكامل في صورته وفكرته الكونية، باستثناء الفكرة الصغيرة، تاركًا إياها كوسيلة يمكن من خلالها إظهار ثرواته التي لا حدود لها، ومجده الكوني، وأسراره العظيمة. وهكذا يُنظر إلى الفكرة العظيمة أو العالمية والفكرة الصغيرة على أنهما تتوافقان في العالم الروحي المثالي مع أفكار العالم الكبير والعالم الصغير. وهكذا تنتهي هذه الترتيلة الرائعة، بثلاثة آمين في النهاية.

وضع شميدت الجزأين المتبقيين في ملحق. المقطع الأول هو جزء من ترنيمة تسبيح، وكل مقطع من مقاطع التسبيح فيها يبدأ بالكلمات التالية:

"أنصت إليّ وأنا أسبح بحمدك، يا سرّاً أمام كلّ ما لا يُحصر ولا يُجتاز، ترنيمة [؟ للسرّ الأول. الذي أشرق في سرّك، لكي يكتمل السرّ الذي كان منذ البدء."

محتوى الترتيلة هو كما يلي، مع إضافة الأسماء الخالدة بعد كل مصطلح فني:

تحوّل السرّ المتألق إلى ماء المحيط. أصبحت الأرض في وسط المحيط نقية. لقد تم تطهير كامل المادة الشاسعة للمحيط - أي البحر وجميع الأنواع الموجودة فيه. من خلال إشراقها، أغلقت البحر وكل ما فيه، لأن القوة التي فيهم كانت في حالة اضطراب (؟ الفوضى) ضد الترتيب الحالي (؟ الكون).

طريق الوسط. ينقطع الترتيل هنا فجأة، ولدينا وصف لمرور النفس عبر مناطق القوى الشيطانية، والأسماء الخالدة لـ "سر خوفهم"، والتي من خلالها تستطيع النفس الهروب من قبضتهم. هذه هي فضاءات تنظيم مختلف الوزراء العظماء للحاكم العظيم القوي في طريق الوسط؛ وأسماء هؤلاء الوزراء، التي يمكن استخلاصها من هذه القطعة، هي نفسها أسماء حكام طريق الوسط كما وردت في مقتطفات من كتب المخلص. ويوصف هذا الحاكم العظيم القوي أيضاً بأنه "الممتلئ بالغضب". هو خليفة حاكم الظلام الخارجي، ذلك الفضاء الذي يغير جميع أشكاله. ينتشر في طريق الوسط، حتى يتمكن من خطف النفوس كاللص.

تختلف الأوراق التي توجد عليها هذه الشظايا عن بقية المخطوطة في أنها محاطة بحدود ذات خط واحد.

مقتطفات من سفر الرؤيا غير المعنون من مخطوطة بروسيانوس.

لقد ضاعت البداية، والأوراق المتبقية لنا تغوص في خضم وصف للكائنات والأماكن السماوية على النحو التالي:

"لقد [الله الذي يتجاوز الوجود] أقامه لكي يسعوا نحو المدينة التي فيها الكائن الأول. صورتهم." في هذه المدينة يتحركون ويعيشون؛ إنها بيت الأب، ورداء الابن، وقوة الأم،

وصورة الكمال (البليروما). هو الأب الأول للجميع؛ هو الكائن الأول؛ هو ملك الأشياء غير الملموسة. هو الذي فيه يتحرك كل شيء. هو الذي أعطاه (كل) شكل. هذا هو الفضاء الذي ينتجه المرء بنفسه ويولده بنفسه؛ هذا هو عمق الكل. هو العظيم الذي وجوده الحقيقي أعمق من الأعماق. هو الذي أتى إليه الكل. كان الكل صامتاً أمامه ولم يتكلم إليه، لأنه لا يوصف ولا يُدرك. هو المصدر الأول؛ هو الذي انطلق صوته إلى جميع الفضاءات. هو النغمة الأولى التي بها يدرك الكل ويفهم. هو الذي تشكل أطرافه (أعضاؤه) عدداً لا يحصى من القوى، وكل واحدة منها تأتي منها.

"لقد ظهر الفضاء الثاني، وهو الكائن الثاني الذي يُطلق عليه اسم ديميورج، والأب، واللوغوس، والمصدر، والعقل، والإنسان، والأزلي، واللامحدود." هذا هو الركن (أو الدعامة)؛ وهو المشرف. هو أيضاً أبو الكل؛

ص. 548

هو الذي تشكل الأيونات إكليلاً على رأسه، وتطلق أشعتها. إن ملامح وجهه تتجاوز كل إمكانية للمعرفة في العوالم الخارجية - تلك العوالم التي تسعى دائماً إلى وجهه، راغبةً في معرفته، لأن كلمته قد خرجت إليها، وهي تتوق لرؤيته. يخترق نور عينيه فضاءات البليروما الخارجية، والكلمة التي تخرج من فمه تخترق ما فوق وما تحت [من العوالم الخارجية]. شعر رأسه هو عدد العوالم الخفية، ومخطط وجهه هو نوع الأيونات. إن شعر وجهه هو عدد العوالم الخارجية، وبسط يديه هو مظهر الصليب؛ وبسط الصليب هو التسعة، على اليمين واليسار.

الصليب الخارق".مصدر الصليب هو الإنسان الذي لا يستطيع أي إنسان أن يفهمه. هو الأب؛ هو المصدر الذي ينبثق منه الصمت؛ هو الذي يُرغب به في كل مكان. هو الأب الذي انبثقت منه الموناد كشرارة نور، والتي بالمقارنة بها (الموناد) تبدو جميع العوالم كـ[؟ ظلام]؛ لأنها الموناد التي حركت كل الأشياء في تألقها. وقد تلقوا الغنوص، والحياة، والأمل، والسلام، والمحبة، والقيامة، والإيمان، والولادة الجديدة، والختم. هذه هي التسعة التي أتت من أب الذين لا بداية لهم، الأعماق الاثنا عشر. من الذي هو أب وأم لنفسه وحده، الذي يحيط به البليروما [أي يتجاوز] الأعماق الاثني عشر.

ص 549

"1. العمق الأول هو المصدر الكلي الذي منه أتت جميع المصادر.

"2. أما العمق الثاني فهو الحكيم المطلق الذي منه أتى جميع الحكماء. "3. العمق الثالث هو السر المطلق

الذي انبثقت منه جميع الأسرار.

"4. العمق الرابع هو الغنوص الكلي الذي منها انبثقت كل الغنوص. "5. العمق الخامس هو

القداسة المطلقة التي منها انبثقت كل القداسة. "6. العمق السادس هو الصمت الذي منه انبثق كل

صمت.

"7. العمق السابع هو البوابة التي لا جوهر لها، والتي منها أتت جميع الجواهر.

"8. العمق الثامن هو الجد الذي انحدر منه جميع الأجداد.

"9. العمق التاسع هو الأب الكلي - الأب الذاتي، الذي يوجد فيه جميع الآباء، وهو الأب الوحيد الذي لديهم.

"10. العمق العاشر هو القوة المطلقة التي انبثقت منها جميع القوى.

"11. العمق الحادي عشر هو الذي يوجد فيه الكائن الخفي الأول، الذي منه جاء جميع الكائنات الخفية.

"12. العمق الثاني عشر هو الحقيقة التي منها انبثقت كل الحقائق.

"هذا [الفضاء الثاني، كوحدة، التي تحيط بالأعماق]، هو الحقيقة التي تشملهم المصدر البدائي. جميعًا؛ هذه هي صورة الأب؛ هذه هي حقيقة الكل؛ هذه هي أم جميع أيوانتها؛ هذا هو الذي يحيط بكل الأعماق. هذه هي الموناد التي لا يمكن فهمها أو معرفتها؛ هذه هي التي

ص. 550

ليس لها ختم (أو علامة)، والتي فيها كل الأختام؛ وهي مباركة إلى الأبد. هذا هو الأب الأبدي؛ هذا هو الأب الذي لا يوصف، ولا يمكن تصوره، ولا يمكن فهمه، ولا يمكن تجاوزه؛ هذا هو الذي به فرح الكل؛ لقد فرح وفرح، وأخرج في فرحه ملايين لا حصر لها من الأيونات؛ وقد أطلق عليها اسم "ولادات الفرح"، لأنها (الكل) قد فرحت مع الأب. هذه هي العوالم التي انبثق منها الصليب؛ ومن هذه الأعضاء غير المادية نشأ الإنسان.

الغير متجلي ".هذا هو الأب ومصدر كل شيء، الذي تجتمع أعضاؤه وتكتمل. جميع الأسماء أتت من الأب - سواء كانت أسماء مثل الذي لا يوصف، أو الذي لا يعرف، أو الذي لا يفهم، أو الذي لا يُرى، أو الفردي، أو المنفرد، أو القوة، أو كل القوة، أو كل تلك الأسماء التي تُذكر في صمت فقط - جميعها أتت من الأب، الذي تراه جميع العوالم الخارجية كنجوم السماء في الليل. كما يرغب البشر في رؤية الشمس، كذلك ترغب العوالم الخارجية في رؤية الأب، بسبب عدم رؤيته الذي يحيط به. إلى الأبد للأزمنة يمنح الحياة، ومن خلال كلمته تعلمت الذرة غير القابلة للتجزئة[؟ معرفة الموناد؛ وبكلمته وُجدت البليروما المقدسة.

المتجلي، البليروما ".هذا هو الأب، الديميورج الثاني؛ من خلال نفخة فمه، خلق التفكير المسبق ما ليس موجودًا. إن ما ليس موجوداً قد نشأ بمشيئته، لأنه هو الذي يأمر الكل أن يكون موجوداً. وبهذا

ص. 551

صنع البليروما المقدس: أربعة أبواب، وفيه (البليروما) أربعة مونادات، موناد لكل باب، وستة داعمين لكل باب، ليصبح المجموع أربعة وعشرين داعمًا، وأربعة وعشرين ألف قوة لكل باب؛ وتسعة Ennads لكل باب، وعشرة Decads لكل باب، واثني عشر Dodecads لكل باب، وخمسة Pentads من القوى لكل باب، ومراقب له ثلاثة وجوه - وجه لا يُدرك، ووجه حقيقي، ووجه لا يوصف، لكل باب.

"أحد وجوهه ينظر خارج البوابة إلى الأيونات الخارجية، والآخر ينظر إلى سيثيوس، الفضاء ذو الأوجه الثلاثة والفضاء ذو الوجهين. والثالث ينظر إلى الأعلى - إلى البنوة في كل موناد [أي البنوة الواحدة الموجودة في المونادات الأربعة]، حيث [أي في الأعلى] يوجد أفريدون مع أبنائه الاثني عشر الصالحين. "هناك [في الأعلى] يوجد الجد الأكبر؛ وفي ذلك المكان يوجد آدم [الإنسان] الذي ينتمي إلى النور، والأيونات الثلاثمائة والخمسة والستون، وهناك العقل الكامل، [الثلاثة جميعًا] يحيطون بسبكة سلة [؟ ، تمثل دوامة مخروطية من القوى أو الذرات] لا تعرف الموت.

"إن وجه المشرف الذي لا يوصف ينظر إلى الداخل إلى قدس الأقداس - أي إلى الذي لا حدود له، فهو رأس المكان المقدس (المزار). له وجهان؛ أحدهما ينفتح على فضاء العمق والآخر ينفتح على فضاء المشرف الذي يُطلق عليه اسم "الطفل". وهناك [في الداخل] عمق يسمى "النور" أو "المشرق"، وفيه يختبئ مولود وحيد (μονογενής)، يظهر ثلاث قوى وهو قوي في جميع القوى.

ص 552

هو [المولود وحيدًا] هو غير القابل للتجزئة؛ هو الذي لا ينقسم أبدًا؛ ومن أجله فتح الكل [؟ انقسم] نفسه، لأن له جميع القوى.

ستعطي المقاطع المذكورة أعلاه، والمأخوذة بالترتيب من الصفحات الأولى، وفقًا لترتيب شميدت للأوراق، القارئ فكرة عن طبيعة المحتويات الكاملة لهذه الرسالة الرؤيوية. أما بالنسبة للباقي، فعلينا أن نكتفي بترجمة بعض المقاطع الأكثر وضوحاً أو إثارة للدهشة.

وجهة نظر المعلق. يبدو أن الرائي الأصلي قد سعى إلى وصف رؤيته للفضاءات الداخلية من وجهات نظر مختلفة، أو بالأحرى أنه رأى نفس السر من وجهات نظر أو جوانب مختلفة، في سلسلة من الرؤى. تتخلل هذه التعليقات آراء كاتب آخر. أول مثال واضح لا شك فيه على ذلك هو مقطع ألحق به المترجم القبطي للأسف فوضى عارمة. يخبرنا المعلق أن الموضوع صعب للغاية، بل إنه من المستحيل تمامًا وصف تلك الأشياء بـ "لسان الجسد"؛ ومع ذلك فهو لا يعتقد أن أي شخص يمكن أن ينجح بشكل أفضل مما نجح به العراف الأصلي، أو أولئك الذين تحدثوا أو كتبوا من خلاله. إن هذه الأماكن والكائنات أسمى من القدرات العقلية لدى الإنسان، ولذلك يستحيل على أي شخص فهمها، إلا إذا حالفه الحظ بمقابلة "قريب" من تلك الكائنات العليا - أي "قريب من السر" - شخص تعلم السر، أي اختبر حالات الوعي هذه؛

ص 553

وحتى في هذه الحالة، لا يمكن التعبير عن سر الأب في حقيقته، كما ذكر مارسانيس، نيكوثيوس، وفوسيلامبيس. حتى بعض الرؤاة المتقدمين مثل مارسانيس ونيكوثيوس، وهما من رؤاة الغنوص السابقين؛ فقد رآه جميع الكاملين، وأنشدوا مدائحه كلٌّ حسب استطاعته، لكنهم جميعًا فشلوا في الكشف عنه. وبعد ذلك بقليل، وفي تعليقه على "مدينة المولود الوحيد"، يقتبس الكاتب نفسه من معلم آخر من معلمي الغنوص، الذي قال عندما فهم: "من خلاله يوجد ما هو موجود حقًا وما هو غير موجود حقًا، ومن خلاله يوجد الخفي الموجود حقًا والظاهر غير الموجود حقًا". يُطلق على الغنوصي الذي اقتُبست منه هذه الجملة اسم فوسيلامبيس؛ لكن الأفكار متطابقة إلى حد

كبير مع أفكار باسيليدس، لدرجة أنني لا أستطيع إلا أن أعتقد أن فوسيلامبيس ليس سوى اسم مستعار لمدرسة هذا المعلم.

إن اللوغوس وقدراته الإبداعية وانبثاقه الذاتي هو موضوع جزء كبير من أطروحتنا. لنأخذ مثالاً واحداً من بين أمثلة كثيرة:

"هذا هو سيثيوس، الذي يسكن في المعبد كملك وإله. هو اللوغوس-الخالق، هو اللوغوس الإبداعية. الذي يأمر الكل بالعمل. هو العقل الخالق وفقًا لأمر الله الآب؛ الذي تعبده المخلوقات كإله ورب ومخلص، وتخضع له؛ الذي تقف كل الأشياء أمامه في دهشة بسبب نعمته وجماله؛ الذي يشكل الكون الباطن تاجًا لرأسه، ويخضع الكون الظاهر لقدميه، بينما يحيط به الكون الأوسط، ويسبحه قائلاً:

ص 554

"قدوس، قدوس، قدوس هو [هنا تتبع الحركات السبعة، كل منها مكرر ثلاث مرات]؛ أي: أنت الحي بين الأحياء؛ أنت القدوس بين القديسين؛ أنت الوجود بين الكائنات؛ أنت الأب بين الآباء؛ أنت الله بين الآلهة؛ أنت الرب بين الأرباب؛ أنت الفضاء بين الفضاءات."

وهكذا أيضاً يسبحونه قائلين: "أنت البيت وأنت الساكن في البيت". ومرة أخرى يسبحون ويخاطبون الابن المختبئ فيه: "أنت هو، أنت هو المولود الوحيد، النور والحياة والنعمة".

لقد تم إخبارنا بنزول شرارة النور أو تيار النور من الأعلى، وكيف يصل في النهاية إلى المادة.

"ثم انفتحت الحجب واخترق هبوط شرارة النور. النور المادة في الأسفل، وتلك التي لم يكن لها شكل ولا صورة؛ وهكذا اكتسبوا لأنفسهم صورة النور. لقد فرح البعض بالفعل لأن النور قد أتى إليهم، ولأنهم أصبحوا أغنياء؛ بينما بكى آخرون لأنهم أصبحوا فقراء، ولأن ما كان لهم قد سُلب منهم. وهكذا جاءت النعمة في ما خرج. وأُسرت الأسرى وأُشيد بالأجيال التي تلقت الشرارة في نفسها. وأُرسل إليهم الحراس... فقدموا العون لأولئك الذين آمنوا بشرارة النور.

"وهذا [شرارة النور] هو غير القابل للتجزئة، الذرة الروحية. الذي قاد النضال من أجل الكون؛ وقد مُنح كل شيء له، من خلال من هو أعلى من كل شيء؛ ومُنح العمق الذي لا يُقاس،

ص. 555

إلى جانب الأبوات التي لا تُحصى الموجودة فيه."

في مجال وجودها توجد الأرض الحاملة لله أو المولدة لله. وقوى من تُوِّج بهذا الإكليل النوراني، تُسبِّح الملك، المولود الوحيد، اللوغوس، قائلةً:

"بواسطتك اكتسبنا الشهرة، وبواسطتك رأينا أبا كل شيء، وأم ترنيمة اللوغوس. كل شيء مخفية في كل الفضاءات، وخالقة كل الأيونات". هي خالقة جميع الآلهة وجميع السادة؛ وهي غنوص جميع الكائنات غير المرئية. صورتك هي أم كل ما لا يمكن احتواؤه وقوة كل ما لا يمكن اختراقه... من خلال صورتك رأيناك، ولجأنا إليك، ووقفنا فيك، وتلقينا الإكليل الذي لا يذبل، والذي عُرف من خلالك. الحمد لك إلى الأبد يا من ولدت وحدك. آمين!"

ونتعلم عن مثل هذا الشخص: "لقد أصبح جسدًا من نور واخترق عصور غير قابل للتجزئة، المسيح. حتى وصل إلى المولود الوحيد، الموجود في الموناد [الأب] الذي يسكن في الصمت وحده. وقد نالوا [قواه] نعمة المولود الوحيد، أي جوده، ونال هو الإكليل الأبدي. هو [اللوغوس] أبو جميع شرارات النور؛ وهو رئيس جميع الأجساد الخالدة؛ وهو الذي من أجله مُنحت هذه الأجساد [الخالدة] القيامة."

ويتم وصف مراتب أعلى فأعلى من الوجود، ونسمع عن الكامل "الذي تلقى نعمة ما لا يعرف، وبالتالي مثل هذه البنوة التي لم يستطع البليروما تحملها، بسبب

ص 556

وفرة نوره والتألق الذي كان فيه".

تمجيد اللوغوس. أعلى من ذلك، يرتفع حدس الرائي الغنوصي، ونقرأ المزيد عن اللوغوس-ديميورجوس، "الذي معه حشد من القوى التي تحمل أكاليل (أو تيجان) على رؤوسها. تيجانهم تُشعّ أشعة؛ وبريق أجسادهم كحياة الفضاء الذي أتوا إليه؛ والكلمة (اللوغوس) التي تخرج من أفواههم هي حياة أبدية، والنور المنبعث من عيونهم هو راحة لهم؛ وحركة أيديهم هي هروبهم إلى الفضاء الذي أتوا منه، ونظرهم إلى وجوههم هو معرفة ذواتهم؛ والعودة إلى ذواتهم هي عودة متكررة، وبسط أيديهم يُثبّتهم؛ وسمع آذانهم هو الإدراك في قلوبهم، واتحاد أطرافهم هو جمع شتات إسرائيل؛ وتمسكهم ببعضهم البعض هو تحصينهم في اللوغوس.

. . .

المصالحة."وتمت المصالحة الكاملة بين الخالق-لوغوس وأولئك الذين خرجوا من إعادة الترتيب الذي حدث. وصارت جميعها واحدة، كما هو مكتوب: "صارت جميعها واحدة في الواحد الأحد".

"ثم أصبح اللوغوس الخالق قوة إلهية، وربًا، ومخلصًا، ومسيحًا [أو بارًا - χρηστὸς يتكرر كثيرًا في جميع أنحاء المخطوطة بدلاً من χρηστός]، وصالحًا، وأبًا، وأمًا. هو الذي نجح عمله، وقد تم تكريمه وأصبح أبا للذين آمنوا. صار هو الربّ القدير."

ص 557

في هذا الإكتمال، يتم ترتيب كل شيء من جديد لصالح المنتصر. "أُعطيت له باكورة ثمار ذبيحة علم الخلاص. البنوة، التي بها أُعطي القدرة على أن يصبح ذا قوة ثلاثة أضعاف. وقد قبل نذر البنوة، لأن الكون قد بيع [؟ للعبودية]؛ وقد قبل الكفاح [المهمة] التي أوكلت إليه. لقد رفع نقاء المادة بأكملها وجعلها عالماً، وأيوناً،

ومدينة تسمى "الخلود" و"أورشليم". ويُطلق عليها أيضاً اسم "الأرض الجديدة" و"الاكتفاء الذاتي" و"الحرية الكاملة". تلك الأرض أرضٌ تحمل الآلهة وتُحيي الأرض."

يُغنى عن إكليل ورداء المُمجَّد. "هذا هو الإكليل الذي كُتب عنه: 'أُعطي لسليمان في يوم فرح قلبه'."

"أرسلت له الموناد الأولى رداءً لا يوصف، وهو كل نور، وكل حياة، وكل الرداء الذي لا يوصف. قيامة، وكل حب، وكل أمل، وكل إيمان، وكل حكمة، وكل غنوص، وكل حقيقة، وكل سلام. وفيه الكون،
وقد وجد الكون نفسه فيه، وعرف نفسه فيه. وأعطاهم جميعاً نوراً في نوره الذي لا يوصف، وأعطاه قوى لا تعد ولا تحصى، لكي يرفع الكون مرة واحدة وإلى الأبد.

"لقد جمع [؟ الموناد] الأردية لنفسه، وجعلها على شكل حجاب يحيط به من جميع الجهات، وسكب نفسه عليها، ورفعها جميعًا، وفصلها جميعًا وفقًا للأوامر والقوانين والتفكير المسبق.

"والذي هو كائن انفصل عن الذي ليس كائناً، والذي ليس

تطهير الطبيعة الدنيا. كائناً هو الشر الذي تجلى في المادة. وفصلت قوة الرداء ما هو كائن وما هو غير كائن، وسمت ما هو كائن "أبديًا" (أيونيًا)، وما هو غير كائن "مادة"؛ وقسمت في المنتصف ما هو كائن وما هو غير كائن، ووضعت بينهما حجبًا وقوى تطهير حتى تطهرهما وتنقيهما."

مخلص العالم. ويوصف العمل المستقبلي للممجد كذلك: "وأعطيت له ألوف من ألوف من المجد والملائكة ورؤساء الملائكة والخدام ليخدموه - أولئك الماديين. وأعطيت له السلطة على كل شيء، فخلق لنفسه إيونًا عظيمًا، ووضع فيه بليروما واسعًا، وفيه مقدسًا عظيمًا، ووضع فيهما كل القوى التي تلقاها. وفرح بهم، إذ أخرج مخلوقاته مرة أخرى، وفقاً لأمر الآب الخفي في الصمت، الذي أرسل إليه هذه الكنوز. وأعطي له تاج الأبوة، لأنه (الأب) جعله أباً للذين قاموا من بعده [أي تلاميذه، تلاميذ المعلم].

"ثم صرخ وقال: يا أولادي الذين أتمخض معهم حتى يتشكل المسيح فيكم؛ ثم صرخ مرة أخرى: نعم، أريد أن أضع بجانب عذراء مقدسة زوجاً وحيداً هو المسيح."

"فلما رأى النعمة التي أنعم بها عليه الآب الخفي، رغب هو نفسه في أن يعيد الكون إلى الآب الخفي، لأن

مشيئته هي أن يعود الكون إليه.

"وهربوا [الذين تابوا] من أمام أمر [الأيون الأدنى]، تاركين إياه، وصعدوا الوعد. إلى الأيون الذي هو أب لنفسه وحده،

وأخذوا على أنفسهم النذر الذي نذره عنهم الذي يقول: "من ترك أباه وأمه وأخاه وأخته وزوجته وولده وممتلكاته، وحمل صليبه واتبعني، فإنه سينال الوعود التي نذرتها له؛ وسأعطي هؤلاء سر الآب الخفي، لأنهم أحبوا ما هو له وهربوا من الذي طاردهم بشدة."

"فأعطاهم المجد والفرح والابتهاج والسرور والسلام والأمل والإيمان والمحبة والحق الذي لا يفنى. هذا هو التسعة أضعاف التي تُعطى للذين فروا من المادة. وقد أصبحوا مباركين وكاملين، وعرفوا الإله الحق، وعرفوا السر الذي أُعطي للإنسان، ولذلك كشف عن نفسه حتى رأوه، لأنه [الإله الحق] في الحقيقة غير مرئي؛ ومن أجلهم كشف لهم كلمته بالكلمات، لكي يعرفوه ويصبحوا آلهة وكاملين."

وبالحديث عن البكر ومجده، يتم وصف القوى الكونية لردائه الروحي مرة أخرى:

"أعطوه رداءً ليتمم كل شيء فيه. وفيها جميع الأجساد: جسد قوى رداء النور. النار، وجسد الماء، وجسد الأثير، وجسد التراب، وجسد الهواء، وجسد

ص 560

الملائكة، وجسد رؤساء الملائكة، وجسد القوى، وجسد الأقوياء، وجسد الآلهة، وجسد الأرباب؛ باختصار، فيها جميع الأجساد، حتى لا يمنعه أحد من الصعود والنزول إلى العالم السفلي.

"هو البكر الذي وعده الباطن والظاهر بكل ما قد يرغب فيه. هو الذي فصل كل المادة؛ وكما سكب نفسه عليها، "مثل دجاجة تفرد جناحيها على فراخها"، كذلك هيأ البكر المادة وأقام أعداداً لا تحصى من الأنواع والأجناس. ولما اشتد الأمر، أطلق العنان لكثرة القوى التي هي له؛ فنبتت كالأعشاب، وانقسمت بحسب الأنواع والأجناس. وأعطاهم الشريعة أن يحبوا بعضهم بعضاً، وأن يكرموا الله، ويسبحوه، ويبحثوا عنه، من هو وما هو، وأن يتعجبوا من المكان الذي خرجوا منه، لأنه ضيق وصعب، وألا يرجعوا إليه ثانية، بل أن يتبعوا الذي أعطاهم الشريعة.

أمهات البشر ".وأخرجهم من ظلمات المادة التي هي أمهم، وأخبرهم ما هو النور، لأنهم لم يكونوا قد عرفوا النور بعد، سواء كان موجوداً أم لا. ثم أوصاهم ألا يؤذوا بعضهم بعضاً، وانتقل من بينهم إلى أم الكون، بجانب الأب، لكي يضعوا بدورهم قوانين للذين خرجوا من المادة."

ص. 561

وتُنشد قوى الأم ترنيمةً للابن، مُسبِّحةً الواحد الأحد، قائلةً

"أنت وحدك الذي لا حدود له؛ أنت وحدك العمق؛ أنت وحدك الذي لا يعرف؛ أنت ترنيمة الحمد للأم السماوية. الذي يسعى إليه الجميع، ومع ذلك لا يجدونك [بدون مساعدة]،

لأنه لا أحد يستطيع أن يعرفك رغماً عنك، ولا أحد يستطيع أن يمدحك رغماً عنك. إرادتك وحدك هي التي أصبحت فضاءً لك، لأنه لا أحد يستطيع أن يحتويك، لأنك أنت فضاء كل شيء. أسألك أن تُعطي أوامر لأهل الدنيا، وقواعد لذريتي وفقاً لمشيئتك. ولا تحزن ذريتي، لأنه لا أحد يحزن منك قط؛ ومع ذلك لم يعرف أحد مشورتك قط. أنت هو الذي يحتاج إليه الجميع، الباطن والظاهر، لأنك أنت وحدك الذي لا يمكن احتواؤه، وأنت وحدك الذي يتجاوز كل رؤية، وأنت وحدك الذي يتجاوز كل جوهر؛ أنت وحدك الذي أعطى الأختام [العلامات المميزة أو الخصائص] لجميع المخلوقات، وأظهرتها في نفسك.

"أنت أيضاً خالق أولئك الذين لم يظهروا بعد. أنت وحدك تعلم العوالم الخفية. هذه الأمور؛ أما نحن فلا نعلمها. أنت وحدك من تدلنا عليها، حتى نتمكن نحن [القوى] من الصلاة إليك من أجلها [صوفيا الأم] لكي تظهرها لنا، لأننا لا نستطيع معرفتها إلا من خلالك وحدك. أنت وحدك رفعت نفسك إلى جيش العوالم الخفية لكي يعرفوك؛ أنت الذي منحتهم معرفة نفسك، أنت الذي أنجبتهم في جسدك غير المادي، وأنت الذي علمتهم

ص. 562

أنك أنجبت الإنسان في عقلك المولود من ذاته، وفي تأملك وتصورك.

"هو الإنسان المولود من العقل، الذي أعطاه الإنسان. شكلاً من خلال التأمل. لقد أعطيت كل شيء للانسان. يرتديها مثل هذه الثياب، ويلبسها مثل هذه الأردية، ويلف نفسه بالخليقة كما يلتف بعباءة. هذا هو الإنسان الذي يدعو الكون أن يتعرف عليه. أنت وحدك أمرت الإنسان أن يظهر نفسه، وأن تُعرف من خلاله، وأنك أنت الذي أنجبته. لقد أظهرت نفسك وفقاً لمشيئتك. أنت الذي أتوجه إليه بالدعاء، يا أب الأبوة، يا إله الآلهة، يا رب الأرباب، أنا الذي أتوسل إليه أن يرتب أموري وذريتي، وأن أهيئ لهم الفرح باسمك وبقدرتك."

[تصبح الترانيم مشوشة عندما يُعرّف المتصوف نفسه بصوفيا.]

"أيها الملك الواحد الأحد، يا من لا تتغير، أعطني قوة، وسأجعل ذريتي تعرفك، وأنك مخلصهم."

تنزل شرارة النور اللانهائية على صوفيا؛ ويكتمل تنظيم العالم في الدراما العالمية؛ ويتحقق تطهير الطبيعة الداخلية في النفس الفردية.

رب العظمة ".ونزل رب العظمة وفصل الأمر وقسمه إلى قسمين وإلى منطقتين؛ ووضع حدوداً لكل منطقة، مناطق تنحدر من أب واحد وأم واحدة. والذين لجأوا إليه سجدوا له؛

ص 563

فأعطاهم المكان عن يمينه، ومنحهم الحياة الأبدية والخلود. ودعا اليمين "مكان الحياة"، واليسار "مكان الموت"؛ اليمين "مكان النور"، واليسار "مكان الظلام"؛ اليمين

"مكان الراحة"، واليسار "مكان المعاناة". ووضع حدوداً وحجباً بينهما حتى لا يدرك أحدهما الآخر، وجعل مراقبين على الحجب. وأعطى الذين عبدوه إكراماً كثيراً، ورفعهم فوق الذين قاوموه وعارضوه. وبسط الفضاء على اليمين إلى فضاءات لا تعد ولا تحصى، وجعلها مراتب كثيرة، وأيونات كثيرة، وعوالم كثيرة، وسماوات كثيرة، وسماوات كثير، وأقاليم كثيرة، وأماكن كثيرة، وفضاءات كثيرة؛ ووضع لها شرائع وأعطاها أحكاماً. "اثبتوا على كلمتي وسأعطيكم حياة أبدية، وسأرسل إليكم قوى، وسأقويكم بأرواح القوة، وعده للذين آمنوا. وسأعطيكم سلطة حسب إرادتكم. ولن يمنعكم أحد مما ترغبون فيه؛ وستخلقون لأنفسكم أيونات وعوالم وسماوات، لكي تأتي الأرواح المولودة من العقل وتسكن فيها. وستكونون آلهة، وستعرفون أنكم من الله، وسترونه أنه الله فيكم، وسيسكن في أيوناكم.

"قال لهم رب الكون هذه الكلمات، ثم اختفى عنهم، واختفى عنهم.

"وفرحت مواليد المادة لأنها ذُكرت، وسُرّت لأنها خرجت

ص. 564

من المكان الضيق والصعب، وصلّت إلى السرّ الخفي:

صلاة المولد الأرضي ".أعطنا السلطة لنخلق لأنفسنا أيونات وعوالم، وفقاً لكلمتك التي اتفقت عليها مع عبدك؛ لأنك أنت وحدك الذي لا يتغير، أنت وحدك الذي لا حدود له، الذي لا يمكن احتواؤه، المفكر بذاته، المولود بذاته، الأب بذاته؛ أنت وحدك الذي لا يتزعزع ولا يُعرف؛ أنت وحدك الصمت، والحب، ومصدر كل شيء؛ أنت وحدك عذراء المادة، لا عيب فيها؛ الذي لا يستطيع أحد أن يعرف أصله، ولا يستطيع أحد أن يفهم مظهره.

"اسمعني يا أبانا الذي لا يفنى، يا أبانا الخالد، يا إله العوالم الخفية، أنت النور والحياة وحدك؛ أنت الوحيد غير المرئي، الذي لا يوصف، الذي لا يلوث، الذي لا يقهر؛ أنت وحدك قبل كل وجود! استجب لدعائنا الذي نرفعه إلى من هو خفي في كل مكان؛ استجب لنا وأرسل إلينا أرواحاً غير مادية، لكي تسكن معنا وتعلمنا ما وعدتنا به؛ لكي تسكن فينا ونكون أجساداً لها. لأن مشيئتك هي أن يكون هذا، فليكن! أعطِ شريعة لعملنا وأقمه، وفقًا لإرادتك ووفقًا لشريعة الأيونات الخفية، ونظّمنا من خلالك، لأننا لك!

لقد مُنحت لهم قوى التمييز. وفي إجابة على هذا الدعاء، وُصف كيف مُنحت الأسرار (علماً، سر المعمودية وما إلى ذلك) لأولئك الذين تابوا؛ وهذه الأسرار هي درجات من التطهير، والتي من خلالها يرتقي الإنسان إلى درجات أعلى من الوعي، من خلال نقاء مركباته الداخلية، والتي تتوافق مع حالات أو مناطق معينة.

ص 565

"واستجاب لهم وأرسل قوى فاصلة تعرف قانون الأيونات الخفية". أرسلهم وفقًا لأمر الخفيين، وأقام ترتيبات، وفقًا لترتيب العلو ووفقًا

للقانون الخفي. بدأوا من الأسفل إلى الأعلى، حتى يتم تشييد المبنى على النحو الواجب في جميع مراحله.

"لقد خلق عالم الهواء كمكان راحة لأولئك الذين خرجوا [من المادة]، حتى يتمكنوا سلم التطهير. من البقاء هناك حتى يتم تأسيس أولئك الذين تحتهم؛ بعد ذلك المسكن الحقيقي [؟]؛وفي هذا مكان التوبة؛ وفي هذا الانعكاسات الأثيرية [؟ لمساكن الميراث]؛ وفي هذه الانعكاسات المولودة ذاتيًا. في ذلك المكان يعمدون أنفسهم باسم المولود من نفسه، وهو الله عليهم؛ وتُقام هناك قوى بجانب نبع ماء الحياة...

"ضمن هذه يوجد بيستيس صوفيا ويسوع الأثيري الموجود مسبقًا مع أيوناته الاثني عشر."

تم ذكر أسماء القوى في الموضعين الأخيرين، ولكن لسوء الحظ يوجد فراغ في المخطوطة، والأوراق التالية تالفة في أماكن عديدة. وتوصف فضاءات أعلى فأعلى بينما تصعد النفوس المطهرة السلم العظيم.

يُغنى عن الرجل السماوي، ورب البليروما: "لقد ختمه الآب كابنه ابن الله. في داخلهم، لكي يتعلموا معرفته في داخلهم. وحركهم الاسم في أعماقهم، حتى رأوا ما هو غير مرئي وغير معروف. فسبّحوا الواحد الأحد،

ص 566

والخلق، والكلمة المولودة من العقل، مسبّحين الثلاثة الذين هم واحد، لأنهم به صاروا فوق الجوهر. وأخذ الآب صورتهم كلها وجعلها مدينة أو إنساناً؛ ورسم الكون على صورته - أي كل هذه القوى. كل واحد منهم عرفه في هذه المدينة؛ وبدأ الجميع يغنون عدداً لا يحصى من أغاني الثناء على الرجل أو مدينة أبي الكون. وقد أخذ الآب مجده وجعله رداءً خارجياً للإنسان. لقد
خلق جسده على غرار البليروما المقدس."

فيما يلي وصف كامل لتكوين أطراف الإنسان السماوي. أما بقية المخطوطة فتتضمن ترنيمة للنور مقتبسة من أحد مؤلفي الترانيم الغنوصيين الآخرين، وقد بدأت بعبارة "يقول"، وتدور أحداثها على النحو التالي:

ترنيمة للنور ".أسبحك يا أب جميع آباء النور؛ أسبحك يا نورًا لا حدود له، أسمى من جميع الأنوار التي لا حدود لها؛ أسبحك يا نورًا لا يُحصر، أسمى من جميع الأنوار التي لا تُحصر؛ أسبحك يا نورًا لا يُوصف، قبل كل ما لا يُوصف."

وهكذا يستمر الأمر عبر عدد لا نهائي من المديح، غالباً ما يكون جميلاً للغاية، حتى تتوقف المخطوطة فجأة في منتصف جملة.

ص 567

ملاحظات حول محتويات مخطوطات بروس وأسكيو.

سيدرك القارئ المتيقظ بالفعل محتويات رسالة بيستيس صوفيا، من كتاب قرابة الرسائل ذات العنوان. إن مقتطفات من كتب المخلص، ومن الأجزاء الواردة تحت عنوان كتاب الكلمة العظيمة وفقًا للسر، ترتبط ارتباطًا وثيقًا ببعضها البعض؛ فهي بلا شك تنتمي إلى نفس المدرسة. يمكن رؤية نتيجة أبحاث شميدت في هذا السؤال المثير للاهتمام بشكل أوضح في رده على انتقادات بروشن لعمله، والذي أرسل لي شميدت نفسه نسخة منه مشكوراً. (انظر مجلة اللاهوت العلمي، الجزء الرابع، *1894*.) يلخص شميدت هنا موقفه، جامعاً نتائج أبحاثه.

إذا سمحتم لي أن أبدي رأياً عاماً حول هذا الموضوع الصعب والمعقد، فسأقول إن جميع المجموعات الثلاث التي نتناولها لا تنتمي فقط إلى نفس المدرسة، بل تنتمي أيضاً إلى نفس الجهد في التجميع وإعادة الصياغة. من الواضح أن كل منها يحتوي على مواد أقدم، ومن شبه المؤكد أن كاتب كتاب بيستيس صوفيا كان على دراية بمواد مقتطفات من تفسيرات آيو والمعمودية. إن السؤال الأكثر صعوبة هو علاقة المقتطفات بكتاب الكلمة العظيمة، والسؤال الأكثر صعوبة على الإطلاق هو المدرسة والمؤلفون الذين يمكن نسبها إليهم.

التاريخ. حتى الآن لا يوجد شيء مثبت بشكل قاطع فيما يتعلق بالتاريخ، باستثناء أن جامعي هذه الوثائق كان لديهم إمكانية الوصول إلى نفس مواد الأقوال التي كان لدى جامعي الأناجيل القانونية؛ لذلك يمكن وضع النهاية في مكان ما حوالي نهاية الربع الأول من القرن الثاني. لكن العبارة الغريبة المستخدمة في تقديم اقتباس من رسائل بولس ("قلت لنا من قبل على لسان بولس أخينا") تُظهر لامبالاة تامة برواية أعمال الرسل القانونية، مما يدل على تاريخ مبكر. ومع ذلك، ونظرًا لطبيعة المحتويات المعقدة، فقد نسبها البعض إلى القرن الثالث؛ لكن هذا لا يبدو لي سببًا كافيًا لهذا التاريخ المتأخر، عندما نأخذ في الاعتبار الطبيعة المعقدة للعمل الغنوصي الذي تم اكتشافه حديثًا قبل عصر إيرينا، والطابع الغامض للغاية لمحتويات المخطوطة العليا غير المعنونة لمخطوطة بروسيانوس، والتي يضع شميدت محتوياتها في القرن الثاني.

التأليف. بعض المواد قديمة جداً بلا شك، لكن مشكلة التجميع هي التي تشغلنا في الوقت الحالي. أعتقد أن الثلاثة تم تجميعها من قبل نفس المجموعة، أو حتى من قبل نفس الكاتب (على الرغم من أن هذا الأخير سيبدو فرضية متسرعة للغاية بالنسبة للبعض). من الواضح أن الرسائل تتعلق بأكثر مراكز الغنوصية حميمية، والمطلعة على أعمق التقاليد، وأكثر الوثائق سرية، والتجارب الداخلية العملية للمدرسة. لا يهم ما إذا كنت تسمي هذا التيار من المعرفة الباطنية "أوفيت" أو "باربيلو-غنوستية" أو "غنوستية" أو "فالنتينية"؛ فمثل هذه الأسماء

ربما لم تكن تعني الكثير لجامع أو جامعي هذه الوثائق.

من الواضح الآن أن المقتطفات وجزء من كتاب الكلمة العظيمة كلاهما يستندان إلى نفس الأصل. صحيح أن نص مقتطف المعمودية من مخطوطة أسكيو يختلف قليلاً عن نص نفس الطقس في مخطوطة بروس، لكن من المحتمل أنهما تُرجما بأيدي مختلفة، وقد استخدم كلا المترجمين حرية كبيرة في

ترجمتهما، وكثيراً ما احتارا في كيفية وضع النص اليوناني في اللغة القبطية، كما هو واضح في العديد من المقاطع.

ثم يُشار إلى إعادة صياغة معينة للغنوص باسم كتب المخلص أو العنوان. كتاب الكلمة العظيمة؛ ربما لم يكن للوثيقة اليونانية الأصلية أو الوثائق عنوان، وكان الناسخون أو المترجمون والكتبة الأقباط هم من أضافوا هذه العناوين. ومع ذلك، تشير رسالة بيستيس صوفيا إلى عمل يسمى كتابي إيو، وتضيف كذلك أن المخلص أعطاهما لأخنوخ وحفظهما من الطوفان.

يبدو لي الآن أنه إذا لم تكن هذه الإشارات في كتاب "بيستيس" إضافات لاحقة، فلا يمكن أن يكون كتابا "إيو" كتب إيو. متطابقين مع الوثيقة المشتركة في "المقتطفات" و"كتاب الكلمة العظيمة"، بل إن هذه الوثيقة كانت عبارة عن إعادة صياغة وتعديل لهذين الكتابين. من المفترض أن كتب إيو تنتمي إلى تقاليد قديمة، ربما مصرية، وتحتوي على مجموعة كبيرة من الرموز والأختام وكلمات المرور والأسماء السرية، وغير ذلك الكثير مما كان يُشار إليه فيما يسميه مانيثون "مصر قبل

ص 570

الطوفان" (مصر "هرمس الأول" أو أغاثودايمون)، والتي تم مساواتها بالتقاليد السامية من قبل الدوائر الغنوصية اليهودية والمسيحية. لقد تناولت هذا الموضوع بالتفصيل في عملي حول الأدبيات التثليثية.

المؤلف المحتمل. أعتقد إذن أن الوثيقة المشتركة في المقتطفات وكتاب الكلمة العظيمة لم تكن كتب إيو الفعلية المشار إليها في بيستيس صوفيا، ولكنها احتوت على جوهر كتب إيو، التي قام كاتب غنوصي بصياغتها في شكل جديد. أقترح كذلك أن هذا الكاتب هو نفسه مؤلف رسالة بيستيس صوفيا، الذي أعاد صياغة كتب إيو في ضوء غنوص المعلم الحي. لكن هذه الأمور لا يبدو أنها قد تم القيام بها بالترتيب؛ بل كانت على الأرجح محاولات مختلفة للتوصل إلى توليفة متسقة من الحكمة القديمة، وهي محاولات لم ترضي الكاتب على الأرجح. من المفترض أنها كانت نتاج حياة طويلة من العمل، وربما تم تنقيحها أو إعادة صياغتها عدة مرات. من يستطيع الجزم في ظل جهلنا الحالي بجميع البيانات التاريخية؟

وإذا سُئل: من الذي كان بإمكانه القيام بمثل غموض الموضوع. هذه المحاولة؟ لم أجد أي إجابة، عند مراجعة القائمة الكاملة للكتاب الغنوصيين المعروفين، سوى أن فالنتينوس وحده كان بإمكانه محاولة ذلك بأي شكل من الأشكال. لكن لا أمل لي في أن يتم إثبات ذلك بشكل قاطع، لأننا لا نعرف عنه ولا عن كتاباته شيئاً تقريباً؛ كل ما نعرفه هو سمعته العظيمة، ومحاولته إعادة صياغة الغنوص. في الواقع، ما يسمى بالفالنتينية لا يساعدنا على الإطلاق في هذا التكهن؛

ص 571

على العكس من ذلك، إذا كنا نصدق بأي شكل من الأشكال إشارات آباء الكنيسة، فإن "أولئك الذين هم على نهج فالنتينوس" يبدو أنهم صاغوا الأمور بشكل مختلف إلى حد ما، وتشكل أفكارهم جزءًا صغيرًا فقط من التركيبات الكبرى التي كنا نتعامل معها. لكن معلومات آباء الكنيسة ناقصة للغاية، ويبدو أنهم في الغالب تناولوا المرحلة شبه الشعبية من الغنوصية. إن مثل هذه المواضيع الغامضة والتعاليم الداخلية التي تحتويها مخطوطاتنا، لم يكن من الممكن تداولها علنًا؛ فقد كانت مخصصة لـ "التلاميذ". صحيح أن كتاب بيستيس موجود في أجزاء

منه بشكل أكثر شعبية، ولكن لو تم تداوله على نطاق واسع؛ فمن الغريب ألا يبقى أي ذكر لمثل هذا العرض الرائع.

ومع ذلك، أطرح هذا التخمين بكل تردد؛ فهو يعني قراءة مختلفة تمامًا للفالنتينية، قراءة من الداخل وليس من الخارج. ومع ذلك، فقد تم تنقيح أفكارنا حول الغنوصية في كثير من الأحيان في الآونة الأخيرة من خلال الاكتشافات الجديدة، لدرجة أنه لا يزال من الممكن أن نأمل في أن يلقي اكتشاف جديد ضوءًا واضحًا على هذه المشكلة الغامضة تمامًا (في الوقت الحالي).

في مقدمة ترجمتي لكتاب بيستيس صوفيا، أجد أنني قد ذكرت استنتاجاتي بشكل أكثر فظاظة مما ينبغي أن أفعله الآن. لذلك، سأقوم، عند تكرار ما قلته هناك بشأن القصة المحتملة لمغامرات محتويات مخطوطة أسكيو، بتعديل بعض التعبيرات قليلاً.

من المحتمل إذن أن يكون فالنتينوس قد قام بتجميع الرسالة اليونانية الأصلية التي تسمى الآن بيستيس صوفيا

ص 572

بيستيس صوفيا الأصلية. في النصف الأخير من القرن الثاني، ربما في الإسكندرية. أعني بكلمة "تجميع" أن هذا الرؤيا أو الإنجيل، أو أياً كان عنوانه، لم يتم اختراعه بالكامل من قبل فالنتينوس؛ فقد كان إطار السرد، واختيار النصوص والأفكار من الكتب المقدسة الأخرى، العبرية والمسيحية والمصرية والكلدانية واليونانية، وما إلى ذلك، وتكييف المصطلحات، نصيبه من المهمة.

الترجمة القبطية. من هذا الأصل بلا شك تم عمل نسخ عديدة، وقد تكون الأخطاء قد تسللت إليها. من المفترض أن إحدى هذه النسخ قد تم نقلها عبر نهر النيل وترجمتها إلى اللغة العامية، حيث أن اللغة اليونانية لم تكن مفهومة بشكل كبير في تلك المنطقة من النهر. من الواضح أن المترجم لم يكن شخصًا دقيقًا للغاية؛ علاوة على ذلك، كانت معرفته بالموضوع ناقصة لدرجة أنه اضطر إلى ترك العديد من المصطلحات التقنية في النص الأصلي، ولا شك أنه خمّن مصطلحات أخرى. ومن المحتمل أيضاً أن بعض الأشياء أضيفت وأخرى حُذفت على أساس الالتزام بالعقيدة. إن طول المزامير المرهق، على سبيل المثال، التي تتلوها بيستيس صوفيا في توبتها، متبوعةً بأناشيد سليمان الأقصر، يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن جامع المزامير في الأصل اقتبس بضعة أبيات بارزة فقط من كل مزمور، وأن المترجم اللاحق الأكثر تمسكًا بالتقاليد، مع ذلك الشغف بالتكرار الممل الذي يميز التقوى الرهبانية، سواء في الشرق أو الغرب، أضاف الآيات الأخرى الأقل ملاءمة، والتي كان على دراية تامة بها، بينما اضطر إلى ترك أناشيد سليمان كما هي

ص 573

، بسبب عدم معرفته بالأصول.

علاوة على ذلك، يجب أن يكون المترجم قد ترجم أو امتلك ترجمة لوثائق أخرى مماثلة، كتب المخلص. والتي قام هو أو ناسخ لاحق بتسميتها "كتب المخلص"، ومنها استخرج ما اعتبره مقاطع مناسبة للموضوع المطروح، وألحقها بترجمة بيستيس. هذه الكتب أيضاً، في رأيي، جاءت من ورشة فالنتينوس الأدبية.

يبدو أن المخطوطة الكاملة للمترجم القبطي قد تم نسخها بواسطة ناسخ جاهل ارتكب الناسخ. العديد من الأخطاء الإملائية. لقد تم نسخها بواسطة رجل واحد

كمهمة، وتم تنفيذها على عجل؛ وأود أن أقترح أنه تم عمل نسختين بعد ذلك، وأحيانًا يتم استبدال صفحة من إحدى النسختين بصفحة من الأخرى؛ ولأن الصفحات لم تكن مطابقة تمامًا للكلمة أو العبارة، يمكننا بالتالي تفسير بعض التكرارات المحيرة وبعض الثغرات المحيرة بنفس القدر. يُعتقد أن هذه النسخة قد تم صنعها في أواخر القرن الرابع.

إن تاريخ المخطوطة بعد هذا التاريخ أمر لا يمكن حتى التكهن به. لكن تاريخها لا بد أنه كان مثيراً بما يكفي لكي تنجو من أيدي المتعصبين - سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين. خلال هذه الفترة، فُقدت بعض الصفحات.

من المفترض أن محتويات المخطوطة الأدنى من مخطوطة بروس قد مرت بمغامرات مماثلة إلى حد ما، وربما تكون قد أتت من نفس المركز القبطي الموزع.

سيكون من غير المناسب تمامًا في هذه الرسومات الموجزة

ص 574

الخوض في تحقيق نقدي في طبيعة علم الأيونات، وعلم الكون، وعلم الخلاص، وعلم المسيح، وعلم الآخرة في هذه الوثائق، ومحاولة تتبع تعديلاتها. إن تطور الكون يتم وفق نظام معين، لكن يبدو أن انطوائه يغير ذلك النظام؛ علم الخلاص يعدل علم الأيونات وعلم الكون. في رأيي، لهذا السبب، وليس لأي سبب آخر، يُقال إن المخطط الذي يقوم عليه كتاب "المقتطفات" و"كتاب الكلمة العظيمة" هو "شكل أقدم" من ذلك الذي يقوم عليه كتاب "بيستيس".

المخطط المفترض في هذه الرسائل. لقد تم تحليل المخطط الذي يقوم عليه كتاب بيستيس صوفيا بشكل دؤوب من قبل كوستلين، وتم تنقيحه وتصحيحه من قبل شميدت، الذي سعى أيضًا إلى تتبع تعديل المخطط العام الذي يقوم عليه كتاب المقتطفات (الذي كان يسمى خطأً حتى الآن الكتاب الرابع من بيستيس صوفيا) وكتاب الكلمة العظيمة، والمخطط المفترض في بيستيس صوفيا، - وهي تعديلات نتجت عن الكشف عن المجد الجديد للفضاءات الثلاثة للإرث في الرسالة الأخيرة.

بما أن الخطوط العريضة العامة للمخطط الذي يقوم عليه مفهوم بيستيس صوفيا قد تكون مفيدة للقارئ، فسوف نقدمها هنا، ولكن يجب أن يُفهم أنها لا تمثل سوى تكوين واحد للسر الكوني، في لحظة معينة من الزمن، أو في مرحلة معينة من الوعي.

ما لا يوصف.

أطراف ما لا يوصف.

I. عالم النور الأعلى، أو مملكة النور.
i. الفضاء الأول لما لا يوصف.

ص 575

ii. الفضاء الثاني لما لا يوصف، أو الفضاء الأول للسر الأول. ii. الفضاء الثاني للسر الأول.
II. العالم النوراني الأعلى (أو الأوسط).

i. كنز النور.
ii. مكان اليمين.
iii. مكان الوسط.
III. عالم النور السفلي أو عالم إيون (مزيج النور والمادة).
i. مكان اليسار.
1. الأيون الثالث عشر.
2. الأيونات الاثنا عشر.
3. القدر.
4. المجال/الكرة.
5. حكام طرق الوسط.
6. السماء السفلى.
ii. عالم الرجال/البشر.
iii. العالم السفلي.
1. أمنتي.
2. فوضى.
3. الظلام الخارجي.

ننتقل الآن إلى دراسة موجزة للمخطوطة المتميزة لمخطوطة بروس. وهنا أيضاً يجب أن نستبعد أي محاولة للتعامل مع شرح النظام الذي يفترضه المترجم أو المترجمون، على الرغم من الرأي التالي والتقدير الكبير الذي أبداه شميدت، الذي كتب في مقدمته (الصفحتان 34 و35):

"يا له من عالم مختلف تمامًا يقابلنا في أوراقنا الواحد والثلاثين!" نجد أنفسنا في المجالات/الكرات النقية لأعلى مراتب البليروما،

ص 576

شاهد خطوة بخطوة هذا العالم، الغني بالكائنات السماوية، تقدير للرسالة غير المعنونة. وهو يتشكل أمام أعيننا؛ كل فضاء فردي بكل سكانه موصوفة بدقة، حتى نتمكن من تكوين صورة حية لأنفسنا عن مجد وروعة هذه السماء الغنوصية. إن التكهنات ليست مشوشة وخيالية مثل تلك الموجودة في كتاب بيستيس صوفيا وكتابينا عن جيو؛ فكل شيء هنا متناغم تمامًا ومتسلسل منطقيًا. المؤلف مشبع بالروح اليونانية، ومجهز بمعرفة كاملة بالفلسفة اليونانية، ومليء بمذهب الأفكار الأفلاطونية، ومؤيد لوجهة نظر أفلاطون حول أصل الشر - أي هيل (المادة). هنا ليس المسيح هو أداة كل الاتصالات مع التلاميذ؛ ليس يسوع هو رسول الله، والفادي وحامل الأسرار؛ ولكننا نمتلك في هذه الأوراق عملاً رائعاً من تأليف فيلسوف غنوصي قديم، ونقف مندهشين، مذهولين من جرأة التأملات، مبهورين بثراء الفكر، متأثرين بعمق روح المؤلف. هذا ليس، مثل كتاب بيستيس صوفيا، نتاجًا لانحسار الغنوصية، بل يعود تاريخه إلى فترة ترك فيها العبقري الغنوصي العالم وراءه مثل نسر عظيم، وحلّق في دوائر واسعة وأوسع نحو النور الخالص، نحو المعرفة الخالصة، حيث فقد نفسه في نشوة.

"بكلمة واحدة، نمتلك في هذا العمل الغنوصي، من حيث العمر والمضمون، عملاً ذا أهمية قصوى، يأخذنا إلى فترة من الغنوصية، وبالتالي إلى المسيحية، والتي

ص 577

لم يصلنا منها إلا القليل من المعرفة."

لا يُنسب إلى مؤلف واحد. وبينما نتفق مع شميدت في فقرته الأخيرة، وفي تقديره الكبير لعظمة محتويات هذه المخطوطة، إلا أننا نختلف معه فيما يتعلق بوضوح وترتيب المحتويات المنطقي كما هي محفوظة لنا حاليًا. إذا كان كل شيء واضحًا جدًا ومتسلسلًا منطقيًا، فمن المثير للدهشة أن شميدت لم يبذل أي محاولة لشرح المحتويات. لقد قضيت ساعات طويلة في محاولة فهم محتوى ترجمته وترتيبها، لكنني فشلت دائماً حتى الآن. لكن نتيجة دراستي دفعتني إلى الاختلاف مع افتراض شميدت بأن العمل من تأليف مؤلف واحد.

الرؤى الأخروية الأساسية. استنتاجي الحالي، والذي يُطرح بالطبع على أنه مؤقت تمامًا، هو أن المادة الأساسية كانت في الأصل على شكل رؤيا، سلسلة من الرؤى لمرحلة دقيقة من الترتيب الداخلي وجوهر الأشياء. أود أن أقترح أن هذه الرؤى لم تكن في تسلسل منظم، ولكن تم تدوينها أو أخذها في أوقات مختلفة حيث وصف العراف العمل الداخلي للطبيعة من نقاط مختلفة من الرؤية. كان الكاتب الأصلي، كما يبدو لي، من أتباع غنوص الباسيليدية، متأثراً بتعاليمها ومصطلحاتها؛ لكنه كان يتمتع أيضاً بإلهامه الخاص، فعندما رأى بعض الأمور التي تعلمها، بحماس شديد وثقة ملهمة، أنشد عن الأمور الأعظم بالقياس.

ص 578

مع ما رآه من أدنى – حتى هذه الأدنى كانت رائعة لدرجة أنه لم يستطع التعبير عنها كما هي في الواقع.

الإفراط في العمل. تم توسيع هذه الرؤى الأخروية وشرحها وتلحينها بشكل متقن في وحدة واحدة (الجزء الأول منها كوني، والثاني خلاصي) بواسطة كاتب ذي معرفة واسعة وقراءة غزيرة، لم يكن على دراية بجميع الأدبيات الغنوصية في عصره فحسب، بل رأى الأشياء بنفسه أيضًا؛ لقد عمل جاهدًا على كتابة أطروحة متسقة مع المادة الأخروية، التي وضعها على رأس أولوياته، كأساس؛ لكنه غالبًا ما لم ينجح، ويصرح بوضوح أنه من المستحيل على أي "لسان بشري" أن يروي مثل هذه الأسرار السامية.

أنا مقتنع بشدة بأن إعادة كتابة هذه الرؤى الأخروية تنتمي إلى نفس دائرة النشاط الأدبي التي كنا نتناولها بالفعل. أعتقد أننا نجد فيه نموذجاً آخر لمحاولات إعادة تحرير وتجميع الغنوص، والتي ترتبط المحاولة الرئيسية منها بنشاط فالنتينوس. أما بالنسبة لتاريخ النص اليوناني الأصلي، فمن المفترض أنه يوازي تاريخ النص الأصلي لـ"بيستيس صوفيا". ربما تُرجمت في نفس الفترة تقريبًا، وتضمنت مغامرات ذات طبيعة متشابهة إلى حد ما.

ص 579

مخطوطة أخميم.

علينا الآن أن نعرض على قرائنا المعلومات القليلة المتاحة حاليًا فيما يتعلق بأحدث الاكتشافات في الغنوصية. قبل عشر سنوات، أخبرني الدكتور كارل شميدت أنه كان يأمل في إصدار عمل حول هذا الموضوع (بما في ذلك على الأرجح نص وترجمة) في غضون عامين تقريبًا؛ ولكن لسوء الحظ، لم ترَ جهوده التي طال انتظارها النور بعد. لذلك، فإننا نعتمد كلياً على تقرير الاتصال المهم الذي قدمه إلى الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم

(Kgl. preuss. Acad. d. Wissenschaften) المنشور في المعاملات، والمؤرخ في *16* يوليو *1896*.

يثبت بحث شميدت، بعنوان "عمل أصلي غنوصي ما قبل إيريناي باللغة القبطية" (″عمل غنوصي أصلي من فترة ما قبل إيرينيئوس باللغة القبطية ″)، الأهمية الهائلة لهذا الاكتشاف السعيد. إن بحثه بالطبع تقني للغاية ومتخصص، لكن الملخص التالي سيعطي القارئ فكرة عامة عن موضوع لا يمكن في الوقت الحالي أن يجذب سوى عدد محدود جدًا من المتخصصين، ولكنه يجب أن يكون مألوفًا بمرور الوقت لجميع دارسي اللاهوت المسيحي الجادين.

في يناير 1896، حصل الدكتور راينهارت في القاهرة، من تاجر تحف من أخميم، المخطوطة ومحتوياتها. على هذه المخطوطة البردية الثمينة، والتي أكد أنه تم اكتشافها من قبل فلاح في تجويف في جدار. توجد المخطوطة الآن في متحف برلين المصري، حيث يتم حماية كل ورقة بعناية بالزجاج.

ص 580

لسوء الحظ، فإن المخطوطة ليست مثالية تمامًا؛ فقد كانت تحتوي في الأصل على واحد وسبعين ورقة - ستة منها مفقودة الآن؛ وتحتوي كل صفحة على ما يقرب من ثمانية عشر إلى اثنين وعشرين سطرًا. يتميز النص بجمال استثنائي، ويشير إلى القرن الخامس.

بعد مقدمة قصيرة، تحمل المخطوطة عنوان ″إنجيل مريم″، وفي الصفحة 77 عنوان ″كتاب يوحنا المنحول″؛ ويلي ذلك مباشرة في نفس الصفحة عنوان ″حكمة يسوع المسيح″، وفي الصفحة 128 نفس العنوان؛ وتبدأ الصفحة التالية بدون عنوان، ولكن في نهاية المخطوطة نجد عنوان ″أعمال بطرس″.

وبالتالي، تحتوي المخطوطة على ثلاث رسائل متميزة، حيث أن إنجيل مريم وكتاب يوحنا المنحول هما نفس القطعة.

إنجيل مريم. يبدأ العمل الأول بالكلمات التالية: "وفي أحد الأيام، صعد يوحنا أخا يعقوب - ابنا زبدي - إلى الهيكل، فجاء إليه فريسي اسمه حنانيا (؟) وقال له: أين معلمك حتى لا تتبعه؟" فقال له: "من حيث أتى، ذهب؟" فقال له الفريسي: "لقد خدعكم الناصري بالخداع، لأنه... خدعكم وألغى تقاليد آبائكم". عندما سمعت هذا، ذهبت من المعبد إلى الجبل إلى مكان منعزل، وكنت حزينًا للغاية في قلبي وقلت: "كيف تم اختيار المخلص؟ ولماذا أرسله أبوه الذي أرسله إلى العالم؟ ومن هو أبوه؟ وما هي طبيعة ذلك الأيون الذي سنذهب إليه؟"

ص 581

وبينما هو غارق في هذه الأفكار، انفتحت السماء، وظهر الرب له وللتلاميذ، من أجل حل شكوكه. ثم يتركهم المخلص، فيعودون إلى حزنهم وبكائهم. قالوا: "كيف نذهب إلى الأمم ونبشر بإنجيل ملكوت ابن الإنسان؟" إذا لم يقبلوه، فكيف سيقبلوننا؟"

ثم قامت مريم، وبعد أن عانقتهم جميعاً، خاطبت إخوتها قائلة: "لا تبكوا ولا تحزنوا ولا تشكوا، لأن نعمته ستكون معكم جميعاً

وستظللكم". فلنحمد الله على فضله الذي جعلنا نهيئ أنفسنا وجعلنا رجالاً."

يطلب منها بطرس أن تعلن ما أوحى به الرب إليها، معترفة بذلك بالتميز العظيم الذي سمح لها به الرب دائماً فوق جميع النساء. ثم تبدأ في سرد قصة ظهور الرب في حلم؛ وللأسف، بعض الصفحات مفقودة هنا.

لم تكد تنتهي من كلامها حتى نهض أندرو وقال إنه لا يصدق أن الرب قد أعطى مثل هذه التعاليم الجديدة. كما يرفض بطرس شهادتها ويوبخها. فقالت له مريم وهي تبكي: "يا بطرس، ما رأيك؟" أتظن أنني تخيلت هذا في نفسي فقط، أم أنني كذبت على الرب؟"

والآن يتقدم ليفي لمساعدة مريم، ويوبخ بطرس باعتباره مشاكساً دائماً. لا يمكننا تحديد كيف استمر النزاع، حيث أن صفحتين مفقودتان. في الصفحة 21 تبدأ حلقة جديدة وتستمر حتى نهاية الرسالة الأولى دون انقطاع.

ظهر الرب مرة أخرى ليوحنا، فسارع يوحنا

إلى تلاميذه وأخبرهم بما كشفه له المخلص.

يشير شميدت إلى أن العنوان الأصلي كان سفر نهاية العالم أو سفر الرؤيا، وليس سفر يوحنا المنحول.

حكمة يسوع المسيح. يبدأ كتاب حكمة يسوع المسيح بالكلمات التالية: "بعد قيامته من بين الأموات، ذهب تلاميذه الاثنا عشر وسبع تلميذات إلى الجليل إلى الجبل الذي ... لأنهم كانوا في شك بشأن جوهر الكل، وبشأن الأسرار والتدبير المقدس. ثم ظهر لهم المخلص
ليس في صورته السابقة بل في الروح غير المرئية. كان شكله شكل ملاك عظيم من نور، وجوهره لا يوصف، ولم يكن متوشحاً بجسد فانٍ، بل بجسد طاهر كامل، كما علمنا على الجبل في الجليل الذي كان يُدعى... قال: "السلام عليكم، سلامي أعطيكم". فدهشوا
جميعاً وخافوا.

ويأمرهم الرب أن يطرحوا جميع أسئلتهم أمامه؛ فيطرح التلاميذ شكوكهم ويتلقون الإجابات المطلوبة.

إن أعمال بطرس هي كذلك ذات أصل غنوصي، وتنتمي إلى المجموعة الكبيرة من القصص المنحولة للرسل. تتناول هذه الوثيقة الثالثة إحدى حلقات عجائب الشفاء التي قام بها بطرس.

اقتباسات إيرينيئوس من إنجيل مريم. تكمن أهمية المخطوطة بأكملها، ليس فقط في أنها تنقل إلينا ثلاثة كتابات غنوصية غير معروفة حتى الآن، ولكن بشكل خاص في أنها تقدم لنا عملاً كان معروفاً لإيرينيئوس، أول "سلطة" مهمة لدينا في الغنوصية بين الآباء -

وهو عمل اقتبس منه إيرينيئوس مقتطفات، ولكن دون ذكر مصادر معلوماته أو اقتباس عنوان الكتاب. هذا العمل هو إنجيل مريم.

يبدأ إيريناوس القسم الأخير من كتابه الأول (29-31) بالكلمات التالية: "وإلى جانب هؤلاء، من بين أولئك الذين ذكرناهم سابقًا كأتباع لسمعان، ظهرت مجموعة كبيرة من الغنوصيين بالباربيلين، وقد أظهروا أنفسهم كالفطر من الأرض".

في الفصل 29 يتناول في الغالب مجموعة من ما يسمى بالباربيلو-غنوستيين، وفيما يتعلق بهم يقدم محتويات أحد الكتب التي استخدموها، وهو تعليم لا نجده مطروحًا من قبل علماء الهرطقات السابقين أو اللاحقين. ثيودوريت (.I 13) هو الوحيد من بين بقية المفندين الذي يعرف هذا التعليم، وهو ببساطة ينسخ إيرينيئوس.

هذا المصدر هو إنجيل مريم الخاص بنا؛ ويمكننا الآن ولأول مرة أن نتحكم في إيرينيئوس نقطة بنقطة، ونرى مدى ضآلة نجاح آباء الكنيسة أو قدرتهم على النجاح في إعادة إنتاج الأنظمة المعقدة للغاية للمدارس الغنوصية. ستكون بعض الأمثلة كافية لتوضيح هذه النقطة بشكل وافٍ.

يبدأ إيرينيئوس شرحه بهذه الكلمات: "يفترض بعضهم وجود شيء معين لا يشيخ أبدًا". فحص لتصريحاته. إيون في روح عذراء، والتي يسمونها باربيلو. يقولون إن هناك أباً مجهولاً لا اسم له.

هذا "أب الجميع" يوصف في وثيقتنا الجديدة (ص 22) بأنه غير المرئي؛ بأنه الأب النقي. النور الذي لا يستطيع أحد أن يراه بأعين البشر؛ كالروح، لأنه لا يمكن لأحد أن يتخيل

ص 584

كيف تشكل؛ الأبدي، الذي لا يوصف؛ الذي لا اسم له، لأنه لم يكن هناك أحد قبله ليعطيه اسماً. وقيل عنه: "إنه يفكر في صورته فقط وينظر إليها في ماء النور الخالص الذي يحيط به. ونشط فكره وكشف عن نفسه، ووقف أمامه في شرارة النور؛ وهي القوة التي كانت موجودة قبل الكل، والتي كشفت عن نفسها؛ وهي الفكر الكامل للكل؛ النور، وشبه النور، وصورة الأم. غير المرئي؛ أي القوة الكاملة، الباربيلو، الأيون الكامل في المجد - تمجده، لأنها أظهرت نفسها فيه وتفكر فيه. هي الفكرة الأولى، صورته؛ هي التي تصبح الإنسان الأول؛ أي الروح العذراء، هي ذات الإنسانية الثلاثية، ذات القوى الثلاثية، ذات الأسماء الثلاثية، المولودة من ثلاثة أجيال؛ الأيون الذي لا يشيخ، الرجل والمرأة اللذان انبثقا من فكره المسبق."

ووفقاً لهذا، فإن "أبو الكل" يقف على رأس النظام، "الخفي". وبعده تأتي "صورته"، أي "باربيلو"، "القوة الكاملة"، "الأيون الذي لا يشيخ" عند إيرينيئوس.

من خلال التفكير في صورته، يكشف فكره عن نفسه في شرارة النور، أي في باربيلو.

يعطي إيرينيئوس كل هذا في ملخص قصير وغير مفهوم على النحو التالي: "وأنه كان مسرورًا لإظهار نفسه لنفس باربيليو. وخرجت تلك الفكرة ووقفت أمامه، وطلبت منه العلم المسبق.

ثم يتابع نصنا: "وتوسل باربيلو إلى الخماسية". أن يعطيها معرفة مسبقة. أومأ برأسه،

ص. 585

وعندما أومأ بالموافقة، تجلت المعرفة المسبقة ووقفت مع الفكر، أي التفكير المسبق، ومجدت القوة الخفية والكاملة، الباربيلو، لأنها من خلالها وُجدت.

"مرة أخرى، تضرعت هذه القوة أن تُمنح لها عدم الفساد." أومأ برأسه، وعندما أومأ بالموافقة، تجلت عدم الفساد ووقفت مع الفكر والمعرفة المسبقة، ممجدة الخفي وباربيلو، لأنها من خلالها وُجدت.

"من أجلهم توسلت أن تُمنح لهم الحياة الأبدية. أومأ برأسه، وعندما أومأ بالموافقة، تجلت الحياة الأبدية، ووقفوا ومجدوه هو وباربيلو، لأنهم من خلالها وجدوا في تجلي الروح غير المرئية.

"هذه هي الخماسية من أيونات الأب، أي الإنسان الأول، صورة غير المرئي؛ أي باربيلو، والفكر، والمعرفة المسبقة، وعدم الفساد والحياة الأبدية."

بناءً على طلب باربيلو، ظهرت الأسباب الخفية بعد الفكر، وفقًا لإيرينيئوس، الأيونات الأنثوية الثلاثة التالية: "طلب الفكر المعرفة المسبقة؛ وبعد أن ظهرت المعرفة المسبقة أيضًا، ظهرت مرة أخرى بناءً على طلبهم عدم الفساد؛ ثم بعد ذلك الحياة الأبدية؛ التي ابتهجت فيها باربيلو، ونظرت إلى العظمة، وسُرّت بحملها، فأوجدت فيه نورًا مثله؛ ويؤكدون أن هذا هو بداية التنوير وولادة كل الأشياء؛ وأن

ص. 586

الآب رأى هذا النور فمسحه بجوده ليجعله كاملاً؛ ويقولون إن هذا هو المسيح."

العقد. في هذا المقطع، بلا شك، كانت الكلمات أمام عيني إيرينيئوس: "إنه عقد الأيونات، أي أنه أب الأب الذي لا يولد". حدقت باربيلو فيه بثبات... وأنجبت شرارة نور مباركة. ولا تختلف عنها في عظمتها. هذا هو المولود الوحيد، الذي أظهر نفسه في الآب، الإله المتولد بذاته، الابن البكر للكل، روح النور الخالص. الآن ابتهج الروح الخفي بالنور الذي ظهر، والذي تجلى أولاً في القوة الأولى - أي فكره المسبق - في باربيلو. ومسحه بجوده لكي يكمل."

وبالتالي فإن هذا المولود الوحيد هو نفسه النور أو المسيح. لا يقدم لنا إيرينيئوس هنا أي تنوير، وما بعد ذلك يعطينا فقط الجملة: لذلك فإن الملاك الأول، الذي يقف بالقرب من المولود الوحيد، إلخ.

يطلب المولود الوحيد أن يُمنح له العقل؛ وعندما يتم ذلك، يسبح، باعتباره العقل، الأب وباربيلو.

ويتابع إيرينيئوس: "ويقولون إن هذا هو المسيح؛ الذي يطلب مرة أخرى، كما يقولون، أن يُعطى العقل لمساعدته؛ ثم ظهر العقل؛ وبعد ذلك يرسل الآب الكلمة".

في هذا الموضع أغفل إيرينيئوس مرحلة ونسي تماماً أيون الذكر الثالث، وهو إرادة. تقدم لنا مخطوطتنا ما يلي:

ص 587

"الروح الخفية أرادت أن تُنشّط." لقد نشطت إرادته وكشفت عن نفسها، ووقفت مع العقل والنور يسبحانه. "الكلمة اتبعت الإرادة، لأنه بالكلمة خلق المسيح كل شيء."

وبهذا يتم فصل الأجدود العلوي عن العقد، وينطلق الأيون السفلي من أزواج منفصلة. المسيح. ثم لدينا المولود من الفكر، الكلمة، الذي كتب عنه: "الذي كرمه كرامة عظيمة، لأنه خرج من فكره الأول. لقد جعله الخفي إلهاً على الكل. أعطاه الله الحق كل القوى، وجعل الحق الذي فيه خاضعاً له، لكي يفكر في الكل".

ويعيد إيرينيئوس إنتاج هذا على النحو التالي: "ثم بعد ذلك، من العقل والكلمة، كما يقولون، تم إرسال المولود من نفسه، ليمثل النور العظيم، وأنه تم تكريمه للغاية، وجعل كل شيء خاضعًا له. وقد أُرسلت الحقيقة معه أيضاً، وأن هناك اقتراناً بين المولود بذاته والحقيقة.

(من المستحيل في الوقت الحاضر محاولة تحليل النظام من الأجزاء المذكورة أعلاه؛ ومع ذلك، يمكن الإشارة إلى أن الرسالة تكشف هنا عن المراحل الجذرية الثلاث، أو لحظات الانبثاق، لـ البليروما ، أو العالم المثالي: (أ) غير القابل للتكوين، (ب) القابل للتكوين الذاتي، و(ج) القابل للتكوين - الأب، واللوغوس، والكل. إلا أن الغنوص أكثر تفصيلاً من أي نظام معروف آخر، ولا تعرف حدسياتها المثالية للعمليات البدائية حدوداً.

ص. 588

من نور المسيح واللافساد تنبثق أربعة أنوار عظيمة لتحيط بالمولود بذاته. أسماؤهم هي هارموزيل، وأوروييل، ودافيثي، وإيليليث. من الإرادة والحياة الأبدية تنبثق أربعة أخرى: شاريس، وسينيسيس، وأيسثيسيس، وفرونيسيس. يكتب إيرينيئوس:

"ومن النور الذي هو المسيح، وعدم الفساد، أُرسلت أربعة أنوار لتحيط بالمولود ذاتيًا؛ ومن الإرادة مرة أخرى والحياة الأبدية، أُرسلت أربعة من هذه الانبثاقات للخدمة تحت الأنوار الأربعة، والتي يسمونها النعمة (شاريس)، والإرادة الحرة (ثيليسيس)، والفهم (سينيسيس)، والحكمة (فرونيسيس). وأن شاريس من جانبها كانت مرتبطة بالنور العظيم والأول؛ وهذا ما سيعتبرونه المخلص، ويدعونه هارموجين؛ وثيليسيس بالثاني، الذي يسمونه أيضًا راغويل؛ وسينيسيس بالثالث، الذي يسمونه داود؛ وفرونيسيس بالرابع، الذي يسمونه إيليليث.

هذا المقطع مثير للاهتمام من نواحٍ عديدة. نتعلم الأسماء الصحيحة؛ ونلاحظ أن ثلاثة منها (إيليليث دافيثي ، وأوروييل) موجودة أيضًا في مخطوطة بروسيانوس ، وبالتالي نثبت العلاقة بين هذا المخطوط المهم والقطعة الأولى في مخطوطتنا.

الأصل المصري للرسالة. هذه الأدلة كافية لإثبات أن إنجيل مريم قد تم تأليفه قبل عام 180 ميلادي، وأن الأصل اليوناني، الذي تمت منه الترجمة القبطية، كان أقدم من إيرينيئوس. بحسب رأي الدكتور شميدت، فإن هذا العمل نشأ في مصر. كانت المدرسة التي استخدمتها هي نفسها التي أطلق عليها

ص 589

إيرينيئوس اسم الغنوصيين الباربيلوية، أو كما كانوا يطلقون على أنفسهم عادةً، ببساطة الغنوصيين؛ وقد تم تقسيم هذه المدرسة إلى العديد من الطوائف الفردية، والتي قدم لنا إبيفانيوس أسماءها وتعاليمها بالتفصيل. ومن بينها تم تداول العديد من الكتب تحت اسم مريم؛ وهكذا إبيفانيوس (الهرطقات., xxvi. 8) يتحدث عن أسئلة مريم، الكبيرة والصغيرة، وحتى في

الثاني عشر. من علم الأنساب من مريم. كان سيلسوس قد التقى سابقًا بهذه المدرسة أيضًا، وربما كان على دراية بعملنا، لأنه يخبرنا أن بعض الهراطقة يستمدون أصلهم من مريم ومرثا، ويقدم الرسم التخطيطي المعروف لما يسمى بالأوفيتيين. بل وأكثر من ذلك؛ يُظهر لنا عملنا الأصلي أن إيرينيئوس "نسخ" من كتابنا فقط حتى مكان معين؛ وفي الفصل 30، استخدم عملاً ثانياً من نفس المدرسة وقع بين يديه.

حتى الآن، الدكتور شميدت، الذي تلي مداخلته الشيقة ملاحظة من البروفيسور هارناك. يُبدي هارناك رأيه على النحو التالي:

"هذا الاكتشاف ذو أهمية قصوى لتاريخ الكنيسة البدائية؛ ليس فقط لأن لدينا عملاً غنوصياً أصلياً واحداً رأي هارناك. (أو ربما ثلاثة) من القرن الثاني - (هل حكمة يسوع المسيح هي العمل الشهير لفالنتينوس؟) - ولكن القدر الكريم قد أضاف إلى ديننا أن إيرينيئوس قد اقتبس من إحدى الرسائل الثلاث. وهكذا أصبحنا لأول مرة في وضع يسمح لنا بالتحكم من خلال الأصل في عرض النظام الغنوصي كما قدمه آباء الكنيسة. تُظهر نتيجة هذا الفحص، كما كنا

ص. 590

نتوقع، أنه بسبب الإغفالات، ولأنه لم يُبذل أي جهد لفهم خصومه، فقد أفسد آباء الكنيسة معنى التأملات الغنوصية التي لم تكن سخيفة بأي حال من الأحوال. وثمة حقيقة أخرى - والتي لا يمكن استخلاصها إلا بصعوبة بالغة من كتابات خصومهم - وهي أن النظام يتناول عملية نفسية ضمن المبدأ الأول، والتي رغب الغنوصيون في الكشف عنها. يقول ترتليان بالتأكيد مرة واحدة (ضد فالنتينوس، 4): "قام بطليموس، تلميذ فالنتينوس، بتقسيم أسماء وأرقام الأيونات إلى "مواد" مجسدة، خارجية عن الألوهية، بينما أدرج فالنتينوس نفسه هذه في قمة الألوهية باعتبارها انطباعات الإحساس والشعور" - ولكن أي من آباء الكنيسة قد كلف نفسه عناء فهم تأملات فالنتينوس وغيره من الغنوصيين؟

"وفقًا لـ هيبوليتوس(فيلو., vi. 42)، اشتكى أتباع ماركوس الغنوصي من تحريف إيرينيئوس لتعاليمهم؛ وكان بإمكان أتباع كتابنا المكتشف حديثًا أن يشتكوا أيضًا من الطريقة غير المفهومة التي قدم بها إيرينيئوس تعاليمهم.

وهكذا، كنا نعرف سابقًا عملًا غنوصيًا ربما نشأ في مصر في القرن الثاني، فقط من خلال ملخص له كتبه أسقف غالي حوالي عام 185، والآن نجده مرة أخرى في ترجمة قبطية من القرن الخامس - حقًا طريقة نقل متناقضة!

أما إذا كانت الفصول الأخيرة من الكتاب الأول لإيرينيئوس قد نُسخت من كتاب سينتاغما المفقود لجاستن أو من عمل

ص 591

سابق آخر، كما أكد أفضل النقاد سابقًا، فإن الأصل لوثيقتنا الجديدة له تاريخ أقدم بكثير مما حدده شميدت أو هارناك في المعاملة المذكورة أعلاه.

سيدرك دارس الغنوصية على الفور أن أهمية هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن المبالغة في تقديرها. أهمية المخطوطة. لا تلقي الوثائق الجديدة الضوء على مخطوطة بروسيانوس فحسب، بل على نظام بيستيس صوفيا أيضًا. لدينا الآن هذه المصادر الأصلية الثلاثة التي يمكننا الاعتماد عليها في دراستنا للثيوصوفيا الغنوصية؛ وهناك أمل في أن يتم في النهاية القيام بشيء ما لإنقاذ آراء أفضل العلماء الغنوصيين من الغموض، ومن بيئة الرد التقي التي تم فيها خنقها سابقًا. ينبغي الآن أن تتمثل مهمة الطالب المتعاطف في إيجاد مصطلحات مناسبة لجوانب الغنوص، ووضع مختلف أنماط الأفكار في علاقتها الصحيحة، وإظهار أن منهج الغنوص، الذي نظر إلى مشاكل نشأة الكون ونشأة الإنسان من الأعلى، قد يكون معقولاً في مجاله المناسب مثل مناهج البحث العلمي الحديث، التي تنظر إلى هذه المشاكل من الأسفل تماماً. لا ينبغي أن ننسى أن رجالاً مثل فالنتينوس كانوا من أتباع الثيوصوفية، منخرطين في نفس الدراسات التي انخرط فيها إخوانهم في جميع أنحاء العالم. إن أعظم نظريات نشأة الكون في العالم هي من نفس طبيعة نظرية نشأة الكون الغنوصية، ودراسة هذه النظريات ستقنعنا بتشابه المصدر. تتشابه نظرية التكوين البشري الغنوصية في العديد من جوانبها مع الأفكار الثيوصوفية العامة، وقد تم تأكيد علم النفس الغنوصي إلى حد كبير من خلال الأبحاث الحديثة. إن

ص 592

المصطلحات التقنية الغنوصية ليست أصعب في الفهم من تلك الموجودة عند الكتاب الثيوصوفيين الآخرين؛ وهناك تشابه دقيق بين الاستخدام المختلف لهذه المصطلحات من قبل كتاب مختلفين حول الغنوصية وتحريف آراء الغنوصيين من قبل آباء الكنيسة، والمعاني المختلفة التي أعطاها كتاب ثيوصوفيون آخرون لمصطلحات مماثلة وتحريف هؤلاء الكتاب من قبل منتقديهم. كان الغنوصيون أنفسهم يتحملون جزءًا من اللوم في غموضهم، وكان آباء الكنيسة يتحملون جزءًا من اللوم في تحريفهم. باختصار، يجب تطبيق نفس معيار النقد على كتابات الغنوصيين كما يطبقه الطالب المميز على جميع هذه الأدبيات. صحيح أننا اليوم نتحدث بصراحة عن أشياء كثيرة غلّفها الغنوصيون بالرمز والأسطورة؛ ومع ذلك فإن معرفتنا الحقيقية بهذه المواضيع ليست متقدمة كثيراً عن كبار علماء الغنوصية كما نميل إلى تخيل ذلك؛ الآن، كما في ذلك الوقت، لا يوجد سوى عدد قليل ممن يعرفون حقاً ما يكتبون عنه، بينما يقوم الباقون بالنسخ والمقارنة والتكييف والتكهن.

ص 593

بعض الأقوال المنسية.

في القرون الأولى للمسيحية، كانت هناك العديد من التقاليد والأساطير والروايات الدينية المتداولة، والتي تسمى المذكرات وأعمال الرسل والأناجيل، والتي احتوت على أقوال الرب أو اللوغوس. كانت هذه الكلمات (لوغوي أو لوغيا) بمثابة نبوءات أو أقوال نبوية، صيغت بنفس اللغة وبنفس النبرة تقريبًا مثل الأقوال النبوية لأعضاء مدارس الأنبياء، والتي كانت تُقدم بالصيغة الرسمية "هكذا يقول الرب"، عندما تُسجل في كتب العهد القديم للعرق اليهودي.

بمرور الوقت، تم الإعلان عن بعض هذه الإعدادات التقليدية والأسطورية والخرافية للوغوي على أنها تاريخية فقط، وتم تطوير مجموعة من التقاليد الأرثوذكسية من النصف الثاني من القرن الثاني فصاعدًا. أستخدم مصطلح "أسطوري" بأفضل معانيه، أي القصص التي تجسد بطريقة رمزية مصممة تعاليم الأسرار المتعلقة بطبيعة الله والكون والنفس البشرية.

وبما أنه تم اختيار عدد قليل فقط من بين العديد من الكتابات، فقد تم رفض عدد كبير من اللوغوي. اللوغوي المرفوض.
أحدث مجموعة من هذه اللوغوي المرفوضة قام بها ريسيل، ونُشرت في عام 1889 في سلسلة جيبهاردت وهارناك من النصوص والدراسات، تحت عنوان أغرافا: شظايا الأناجيل غير القانونية.

بعض هذه الأجزاء غير القانونية هي عبارة عن صيغ مختلفة من الأقوال القانونية المألوفة، وهي ذات أهمية بشكل أساسي لإعادة بناء أحد

المصادر الجذرية التي استقى منها جامعو الأناجيل معلوماتهم. وقد حُفظت بعضها في رسائل بولس. أما البعض الآخر فهو غير مألوف تماماً لأولئك الذين يعرفون فقط المجموعة القانونية من كتب العهد الجديد، والتي تسمى عموماً العهد الجديد. تُعد هذه اللوغوي ذات أهمية خاصة لطلاب الأصول، ولذلك أرفق مجموعة مختارة منها مترجمة من نص ريش.

تجدر الإشارة إلى أن بعض هذه اللوغوي قد تم دمجها في رواية دينية من تأليف كاتب يهودي، تحت عنوان ″كما رآه الآخرون″، والتي نُشرت عام 1895 في لندن بواسطة ويليام هاينمان.

ارحموا لكي تُرحموا، واغفروا ليُغفر لكم، فكما تفعلون يُفعل بكم، وكما تعطون يُعطى لكم، وكما تحكمون تُحكمون، وكما تخدمون تُخدمون، وبالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم.

الحكمة تُنجب أبناءها.

من كان قريباً مني كان قريباً من النار، ومن كان بعيداً عني كان بعيداً عن الملكوت. إذا لم تلاحظوا [هكذا ورد

السر] الصغير، فمن سيعطيكم السر الكبير؟

إن الذين يريدون رؤيتي والوصول إلى ملكوتي، يجب أن يصلوا إليّ بالألم والمعاناة.

لا بد أن يأتي الخير، ولكن طوبى لمن يأتي به؛ وبالمثل، لا بد أن يأتي الشر، ولكن ويل لمن يأتي به.

سينقذ الأقوياء الضعفاء.

ص. 595

احفظ الأسرار لي ولأبناء بيتي.

تمسكوا بالأتقياء، لأن من يتمسك بهم يصبح قديساً. طابع هذا العالم زائل.

[الطابع - أي التكوين (σχῆμα)، لأن هناك عوالم أخرى ومراحل أخرى لهذا العالم].

كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، أعلنوا موتي واعترفوا بقيامتي وصعودي حتى آتي [إليكم].

[يقدم أحد الأشكال المختلفة القول بصيغة الغائب، ويتحدث عن "موت ابن الإنسان"، اللوغوس. يعد المعلم بالعودة إلى تلاميذه عند أداء طقس مقدس معين.]

تذكروا الإيمان والرجاء، اللذين من خلالهما يولد حب الله والإنسان الذي يعطي الحياة الأبدية.

هناك اختلاط يؤدي إلى الموت، وهناك اختلاط يؤدي إلى الحياة.

ولما رأى رجلاً يعمل يوم السبت، قال له: يا رجل، إن كنت تعرف ما تفعل فأنت مبارك، وإن كنت لا تعرف فأنت ملعون ومخالف للشريعة.

لماذا تتعجبون من العلامات؟ أعطيكم ميراثاً عظيماً لا يحتويه العالم أجمع.

عندما سأل رجل معين الرب: متى سيأتي ملكوته؟ قال له: عندما يكون الاثنان واحدًا، ويكون الظاهر كالباطن، والذكر مع الأنثى، لا ذكر ولا أنثى.

لا تدعوا أحداً "أباً" على الأرض، لأن على الأرض

ص. 596

حكام [فقط]؛ في السماء الآب الذي منه كل نسل [أي "نسل الدم من الأب" (πατριά)] سواء في السماء أو على الأرض.

لا تحزنوا الروح القدس الذي فيكم، ولا تطفئوا النور الذي أشرق فيكم.

كما ترون أنفسكم في الماء أو المرآة، كذلك ترونني في أنفسكم.

كما أجدك، سأحكم عليك.

اطلبوا الأسرار العظيمة وسيُزاد لكم القليل؛ اطلبوا السماوي وسيُزاد لكم الأرضي.

كونوا صرافين معتمدين، رافضين السيئ ومتمسكين بالجيد. حافظ على طهارة جسدك.

بسبب المرضى مرضت؛ وبسبب الجياع شعرت بالجوع؛ وبسبب العطشان شعرت بالعطش.

لا ترد الشر بالشر، ولا الشتم بالشتم، ولا اللكمة باللكمة. الحب يخفي الكثير من الذنوب.

هناك مسحاء كذبة ومعلمون كذبة جدفوا على روح النعمة، وبصقوا هبة النعمة؛ هؤلاء لن يغفر لهم لا في هذا الأيون ولا في الأيون الآتي.

[النعمة هي "القوة العليا"، قوة اللوغوس التي تجعل الإنسان "مسيحًا". شاريس أو النعمة هي قرينة اللوغوس، قوته أو شاكتي. أما "المسحاء" الزائفين فهم أولئك الذين تم "تنصيبهم" ونقضوا عهودهم. الأيون هو فترة زمنية محددة.

لأن الآب السماوي يريد توبة الخاطئ أكثر من عقابه.

ص. 597

لأن الله يريد أن ينال الجميع من عطاياه.

حافظ على ما لديك، وسيزداد أكثر. ها أنا أجعل الآخرين كالأولين.

لقد جئت لأنهي الذبائح، وإن لم تكفوا عن تقديمها، فلن يكف الغضب عنكم.

ويل لمن أحزن روح أخيه. ولا تفرحوا إلا إذا رأيتم أخاكم سعيداً أيضاً.

من تساءل سيملك، ومن ملك سيرتاح.

[هذا قول مظلم؛ لقد تمت مقارنته بعبارة أفلاطون: "لا توجد بداية أخرى للفلسفة سوى التساؤل" - أي النظر إلى أعمال الإله بدهشة وإجلال. هذه هي بداية الفلسفة، أو الغنوص، ونهايتها تجعل الإنسان ملكًا على نفسه، وبالتالي سيدًا على الآلهة والبشر؛ وهكذا يكون في سلام.]

أمي، الروح القدس، أخذتني الآن من شعرة من رأسي وحملتني إلى جبل طابور العظيم.

[ربما ترمز شعيرات الرأس إلى قنوات الطاقة (النادي)، كما تُسمى في الأوبانيشادات، والتي تخرج بها النفس من الجسد؛ والجبل هو الطريق إلى العوالم الروحية.]

من يطلبني سيجدني في الأطفال من سن السابعة فصاعدًا؛ لأني مختبئ فيهم وأظهر في الفترة الرابعة عشرة (الأيون).

ص. 598

[قد يشير هذا إما إلى الأنا العليا أو شرارة النور من اللوغوس، أو إلى درجات معينة من التأهيل، حيث يتعين على المتأهل أن يصبح مثل "الطفل الصغير".]

عندما سألت سالومي إلى متى سيستمر الموت، قال لها الرب: ما دمتن تلدن، لأني جئت لأنهي أعمال النساء. فقالت له سالومي: لقد أحسنت صنعاً بعدم الإنجاب. فأجاب الرب وقال: كلوا من كل مرعى، أما ما فيه مرارة [الموت] فلا تأكلوا. ولما سألت سالومي متى ستعرف تلك الأشياء التي استفسرت عنها، قال الرب: عندما تدوسون على ثوب العار، وعندما يصبح الاثنان واحداً، والذكر مع الأنثى لا ذكر ولا أنثى.

["العار" هو على الأرجح نفس "الاختلاط" في أحد الوغوي المذكورة أعلاه. إن السير على رداء العار هو الارتقاء فوق الطبيعة الحيوانية.

صلّوا من أجل أعدائكم؛ طوبى لمن يحزنون على هلاك الكافرين.

وقفت على جبل شاهق، فرأيت رجلاً عملاقاً وآخر قزماً؛ وسمعت صوتاً كأنه صوت رعد، فاقتربت لأسمع؛ فخاطبني قائلاً: أنا أنت وأنت أنا؛ وأينما كنت فأنا هناك. أنا متشتت في كل مكان، ومن أي مكان تريد أن تجمعني، وبجمعك لي تجمع نفسك.

[وهنا نجد مرة أخرى جبل التأهيل. يرى المتأهل رؤية الإنسان السماوي، اللوغوس، ورؤية نفسه، القزم؛ رؤية الإنسان

ص 599

العظيم والإنسان الصغير، شرارة النور التي تسكن القلب.]

ليحل علينا روحك القدوس ويطهرنا [من نسخة قديمة جداً من صلاة الرب، بدلاً من عبارة "ليأت ملكوتك"].

لا تملك شيئاً على الأرض.

وإن كنتم مجتمعين معي في حضني، فإنكم إن لم تفعلوا وصاياي، فسأطردكم.

اكسبوا لأنفسكم يا بني آدم، من خلال هذه الأشياء الزائلة التي ليست لكم، والتي هي ملككم ولا تزول.

فحتى بين الأنبياء بعد أن مسحهم الروح القدس، وُجدت كلمة الخطيئة بينهم.

[أي بعد أن صاروا مسحاء (μετὰ τὸ χρισθῆναι αὐτοὺς ἐν πνεύματι ἁγίῳ). "كلمة الخطيئة" تعني الأقوال النبوية الخاطئة ظاهرياً.

إذا تخلى الإنسان عن كل شيء من أجل اسمي، فإنه عند المجيء الثاني سيرث الحياة الأبدية.

["من أجل اسمي" يشير إلى قوة الاسم العظيم الذي استخدمه المعلم في وعظه العلني؛ المجيء الثاني هو نزول روح المسيح على المرشح عند تأهيل خدمته. "الحياة الأبدية" هي حياة الكائنات الروحية أو العوالم، التي تمتد حياتها إلى الأبد.

إذا لم تجعلوا ما تحت إلى أعلى وما فوق إلى أسفل، واليمين إلى اليسار واليسار إلى اليمين، والأمام إلى الخلف [والخلف إلى الأمام]، فلن تدخلوا ملكوت الله.

ص. 600

[أي أنه لا يجوز لكم الدخول إلى النقطة المركزية وبالتالي المرور إلى المنطقة الروحية.]

سأُصلب من جديد.

لقد تعرفت على نفسي، وجمعت نفسي من كل جانب؛ لم أزرع أطفالاً للحاكم، بل اقتلعتُ جذوره، وجمعت أطرافي التي كانت متناثرة في كل مكان؛ أعرفك من أنت، لأني قادم من العوالم العليا.

[هذا هو اعتذار أو دفاع روح المتأهل أثناء مرورها عبر عوالم العالم غير المرئي، وكل منها تحت سيطرة حاكم، وهو وزير الموت. بينما يجمع اللوغوس أبناءه (شرارات النور، أطراف جسده)، ويأخذهم إلى حضنه، كذلك يجمع الأنا أطرافه ويصبح أوزيري.

ما تبشرون به بالكلام أمام الناس، افعلوه بالأفعال أمام كل إنسان. أنت المفتاح [الذي يفتح] لكل إنسان،

وتغلق لكل إنسان.

[هذا القول يوضع على لسان التلاميذ؛ أما في الصيغة المباشرة فيكون معناه: "أنا المفتاح"، إلخ.]

بردية أوكسيرينخوس. يمكن إضافة العديد من اللوغوس الأخرى من الأدب الغنوصي، وخاصة من محتويات المخطوطات القبطية؛ ولكن تم تقديم ما يكفي لإظهار للقارئ أن الكثير من مادة الأقوال قد تم رفضها ونسيانها. لقد أظهر اكتشاف حديث مدى أهمية بعض هذه الأمور. إن قطعة البردي القديمة التي اكتشفها غرينفيل وهانت في موقع أوكسيرينخوس عام 1897، تحفظ لنا الشكل البدائي للوغوس

ص 601

المعروف لنا. من بين الأقوال الستة القابلة للفك التي يحتويها، واحد مألوف لدينا، واثنان يحتويان على مواد جديدة واختلافات مهمة، وثلاثة جديدة تمامًا. إذا كانت نسبة الأقوال غير المعروفة الآن إلى الأقوال المعروفة مرتفعة في بقية المخطوطة كما هي في الورقة الوحيدة التي وصلت إلينا، فإننا في الواقع فقدنا من خلال القانون أكثر مما كسبنا.

أما الأقوال الجديدة فتأتي على النحو التالي، مع حذف القول المألوف لدينا بالفعل:

يقول يسوع: إن لم تصوموا عن العالم، فلن تجدوا ملكوت الله بأي حال من الأحوال؛ وإن لم تقدسوا يوم السبت، فلن تروا الآب.

يقول يسوع: وقفت في وسط العالم، رأيتهم بالجسد، فوجدت الجميع سكارى، ولم أجد بينهم أحداً عطشاناً. وتحزن نفسي على نفوس البشر، لأنهم عميان في قلوبهم ولا يبصرون...

يقول يسوع: حيثما يوجد اثنان، فليسا بدون الله؛ وحيثما يوجد واحد وحده، أقول: أنا معه. ارفع الحجر، وهناك ستجدني؛ شق الخشب، وهناك سأكون.

[الجزء الأول من هذا القول غير كامل للغاية؛ لقد اتبعت تخمينات بلاس. انظر كتاب تايلور "أوكسيرينخوس لوغيا"، أكسفورد؛ 1899].

يقول يسوع: لا يُقبل نبي في وطنه، ولا يُشفي طبيب من يعرفه.

يقول يسوع: المدينة المبنية على قمة جبل عالٍ والمثبتة لا يمكن أن تسقط ولا أن تختفي.

يقول يسوع: أنت تسمع بأذن واحدة (وأما الأخرى فقد أغلقتها).

منذ نشر الطبعة الأولى من هذه

ص. 602

المادة من مجموعة مماثلة من الأقوال، والتي ترد أجزاؤها القابلة للفك على النحو التالي في طبعة غرينفيل وهانت (أقوال جديدة ليسوع؛ لندن، 1904):

هذه هي ...الكلمات التي قالها يسوع الحي لتوما: كل من يسمع هذه الكلمات لن يذوق الموت أبداً.

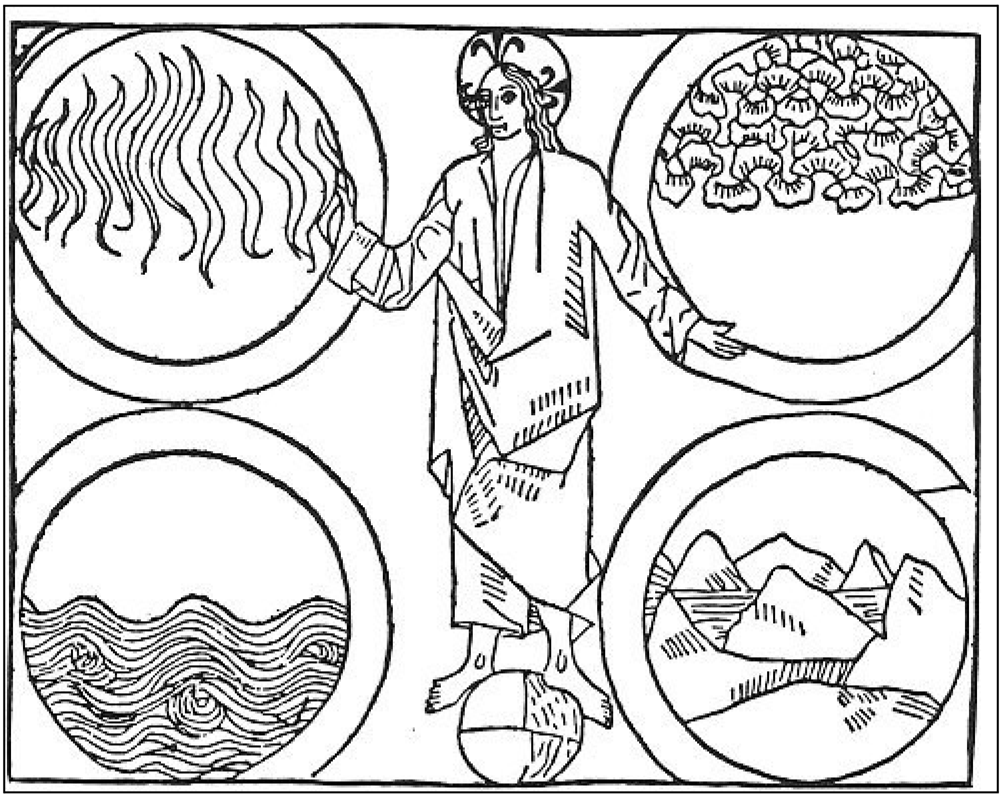
يقول يسوع: لا يكفّ من يطلب... حتى يجد، وعندما يجد يتساءل؛ ومن يتساءل يملك، ومن يملك يرتاح.

يقول يسوع: (أتسألون؟ من هؤلاء الذين يجذبوننا (إلى الملكوت إن كان) الملكوت في السماء؟ ... طيور السماء، وكل الوحوش التي تحت الأرض أو على الأرض، وأسماك البحر (هؤلاء هم الذين يجذبونكم)؛ وملكوت السماوات في داخلكم؛ ومن يعرف نفسه يجده. (اسعوا

إذن؟) لمعرفة أنفسكم، وستدركون أنكم أبناء... أب؛ (و؟) ستعلمون أنكم في (مدينة الله؟)، وأنتم (المدينة؟).

يقول يسوع: كل ما ليس أمامك وما هو مخفي عنك سيُكشف لك. لأنه ليس هناك شيء مخفي إلا وسيظهر، ولا شيء مدفون إلا وسيُكشف.

ص. 603

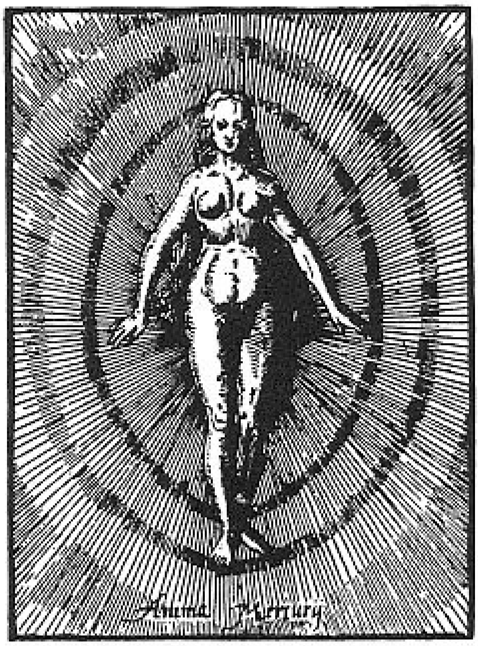


الخاتمة

ص. 604

يا نور الله المحبوب! نعبدك، لكي تسكب نورك في عقولنا!
استنادًا إلى غاياتري.

ص 605



كلمة ختامية

أيها القارئ، إذا كنت قد قرأت حتى الآن، فربما تكون قد سافرت معي أو سلكت طريقاً آخر؛ ولكن إذا كنت قد وصلت إلى هذا الحد على الطريق، فإنه يبدو لي - على الأقل - كما لو أننا سافرنا معاً إلى منطقة من النور. لقد حظينا، لبضع ساعات قصيرة، بشرف الاستمتاع بالحديث مع أولئك الذين أحبوا ويحبون المعلم. وكلماتهم لا تزال ترن في آذاننا، وحياة حبهم لا تزال تنبض في عروقنا، فكيف لنا أن نجرؤ على التحدث عنهم بسوء؟ "تعالوا إليّ أيها المتعبون!" في ضوء هذا الحب، كيف لنا أن نجد في قلوبنا أن ندينهم، لأنهم خرجوا إليه بكل كيانهم؟ بقراءة كلماتهم والنظر إلى حياتهم، أرى من جانبي وصمة "الهرطقة"، المكتوبة بخط كبير على أفقهم بالنسبة للكثيرين، وهي تختفي في المسافة البعيدة، وبدلاً من ذلك أرى صورة المعلم واقفاً ويداه ممدودتان بالبركة فوق رؤوسهم. لا أعرف لماذا سُمح بنسيان هذا الجانب من المسيحية المبكرة. لا شك أن هناك غرضًا تم تحقيقه من خلال سحبها؛ ولكن اليوم، في

ص 606

بداية القرن العشرين، في ظل الحرية الأكبر والتسامح الأوسع الذي نتمتع به الآن، ألا يمكن رفع الحجاب مرة أخرى؟ لا داعي لعودة الأشكال القديمة - على الرغم من أن بعضها بالتأكيد يتمتع بقدر كافٍ من الجمال! لكن القوة القديمة موجودة، تنتظر وتراقب، مستعدة لتتخذ أشكالاً جديدة، أشكالاً أكثر جمالاً، إذا ما توجهنا إلى من يملك القوة، كما هو في الحقيقة، وليس كما نقيده بعقائدنا الطائفية.

كم من الوقت يجب أن يمر قبل أن نتعلم أن هناك طرقاً لعبادة الله بعدد البشر على الأرض؟ ومع ذلك، لا يزال كل رجل يعلن: طريقتي هي الأفضل؛ طريقتي هي الطريقة الوحيدة. أو إن لم يقلها، فهو يفكر بها. صحيح أن هذه الأمور تتجاوز عقولنا؛ فالدين هو شيء فينا أعظم من عقولنا، ولأنه أعظم فإنه يمنح رضا أكبر. لإنقاذ أنفسنا يجب أن نفقد أنفسنا؛ وإن لم يكن ذلك بشكل غير عقلاني، إذا تم تجاوز العقل. إذا كان صحيحاً أننا عشنا أعمار عديدة من قبل، فكم من الطرق التي لم نعبد بها الله أو قصرنا في ذلك؟ كم مرة أدنّا

الطريقة التي كنا نمدحها من قبل! متعصبون في دين واحد، ومتعصبون بنفس القدر في دين آخر، يدينون أنفسنا في الماضي

فماذا تظنون بالمسيح إذن؟ ألا يجب أن يكون معلما للدين، حكيماً فوق أعلى مُثلنا العليا للحكمة؟ هل يدين عباده لاختلاف طرقهم؟ وهل يدين أولئك الذين يعبدون إخوانه الذين علموا الطريق أيضاً؟ أما بالنسبة للباقي، فما الحاجة إلى دقة مفرطة؟ من ذا الذي يملك من الذكاء ما يكفي ليقرر كل هذه المواضيع

الرفيعة نيابة عن زملائه؟ فليتبع كل واحد النور كما يراه - فهناك ما يكفي للجميع؛ حتى نرى في النهاية "كل الأشياء تتحول إلى نور - نور حلو ومبهج". إذن، هذه هي كل كلماتي، إلا أن أضيف، مع كاتب قبطي قديم، "يا رب، ارحم نفس الخاطئ الذي كتب هذا!"



المراجع

وبما أنه لا يوجد شيء يمكن تسميته حقاً مراجع للموضوع، فإنني أرفق محاولة لتقديم مساهمة أولية نحو مراجع كاملة للغنوصية. كل عمل (ومقالة) ذي أهمية مدرج (أنا شبه متأكد)، وأعتقد أن قائمة الأعمال المنجزة حول الكتابات الغنوصية القبطية يمكن القول إنها كاملة إلى حد ما؛ ومع ذلك، هناك عدد معين من المقالات في الدوريات ومنشورات الجمعيات العلمية (الفرنسية على وجه الخصوص) التي لا تزال بحاجة إلى إضافة، على الرغم من أنني لا أعتقد أن هذا العدد كبير. ربما كان بإمكاني إضافة المزيد من المراجع إلى الموسوعات، لكن الغالبية العظمى من المقالات في مثل هذه المنشورات ذات قيمة ضئيلة للغاية. لقد قمت بتقسيم قائمة المراجع العامة إلى: (1) الأعمال المبكرة؛ (2) الدراسات النقدية قبل عام 1851؛ (3) الأعمال اللاحقة لنشر نص كتاب "الفيلسوفومينا" في عام 1851. القسم الأول يحتوي عموماً على أعمال ذات قيمة ضئيلة للغاية؛ القسم الثاني يعاني من الجهل بمحتويات كتاب هيبوليتوس "الفيلسوفومينا"، الذي نشر نصه لأول مرة بواسطة ميلر في أكسفورد عام 1851. يمكن

القول إن محتوياته قد أحدثت ثورة في دراسة الغنوصية. لقد احتفظت أيضًا بقائمة المراجع الخاصة بالعمل الذي تم إنجازه حول الكتابات الغنوصية القبطية، والتي أعتقد أنها ستحدث ثورة أكبر في أفكارنا حول الغنوصية في المستقبل. لقد أدليت بملاحظة أو اثنتين حول أكثر مصادر المعلومات شيوعًا باللغة الإنجليزية، لكنني امتنعت عن جميع الملاحظات الأخرى التي لا مكان لها في عمل عام كهذا.